

جيمس فريزر

الفولكلور

فى العهد القديم (التوراة)

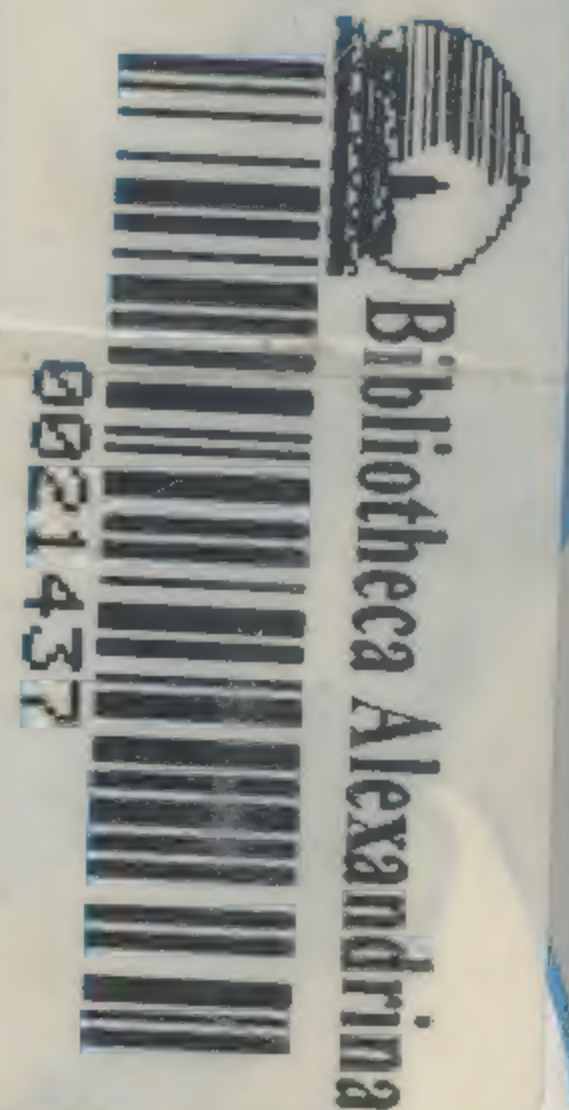
الجزء الثانى

ترجمة

دكتورة نبيلة إبراهيم



دار المعارف



جيمس فريزر

الفولكلور في العهد القديم (النوراة)

الجزء الثاني

ترجمة: د. نبيلة إبراهيم

الطبعة الثانية



دار المعارف

الناشر : دار المعارف — ١١٩ كورنيش النيل — القاهرة — ج ٢٠٠٣ ع

الباب الثاني

عصر الأنبياء

الفصل الأول

ميثاق إبراهيم

يختتم سفر التكوين التاريخ العام للجنس البشرى فى العصور الأولى منذ بدء الخليقة بحكاية برج بابل ، وتفرق الناس فى شتى بقاع العالم من هذا المركز الذى كانوا يجتمعون فيه . ثم يضيق الكتاب نطاق حكاياتهم ويركزها حول الشعب المعبرى وحده . وهنا يتخذ التاريخ شكل سلسلة من التراجم يصور من خلالها مصير هذه الأمة لا فى هيئة خطوط باهتة عامة ، وإنما فى مجموعات من الصور الملونة البراقة التى تسجل مغامرات الرجال الأفراد ، أجداد هذا الجنس . والوحدة التى تربط بين حياة الشيوخ الأجداد ليست مجرد سلسلة من الأسباب ، وإنما تربط بين هؤلاء الأجداد المصالح المشتركة بقدر ما تربط بينهم رابطة الدم ، فقد كان هؤلاء الشيوخ جميعا بدوا رعاة يتنقلون بقطعانهم من مكان لآخر بحثا عن المرعى الخصب ، ولم يكونوا قد ركنوا بعد لحياة الزراعة الرثيئة ، وفى نفس الحقل الذى كان يعمل فيه آبائهم وأجدادهم من قبل . وباختصار فإن كتاب سفر التكوين يصورون عصر الرعى بملامح واضحة وألوان حية لم يعتمها الزمن ، وما تزال هذه الملامح تأسر القارئ بسحرها الذى يفوق الوصف على الرغم من التغييرات التى عشناها فى حياتنا الحديثة . ويتصدر هذا المعرض التصويرى الذى صورت مناظره بخلفية من الطبيعة الهادئة ، شخصية إبراهيم الجليلة . فبعد أن ترك إبراهيم بابل ، موطن ميلاده ، قيل أنه رحل الى أرض كنعان . وهناك ظهر له الرب وأكد له المستقبل الباهر والمجد لبنى جنسه . ولكن يؤكد الرب هذا الوعد لإبراهيم ، ارتضى ، كما قيل ، أن يعقد بينه وبين

ابراهيم عهدا مقدسا ، متبعا في ذلك كل المظاهر المألوفة التي كانت تتبع بين الناس في مثل هذه الظروف • وتقدم لنا حكاية هذا العهد لحة ممتعة عن الوسيلة التي كان يتبعها المتعاهدون في المجتمع البدائي بقصد انجاز عقد ملزم بين الطرفين المتعاقدين •

فنحن نقرأ في سفر التكوين أن الرب أمر ابراهيم قائلا : « لتضح لي ببقرة عمرها ثلاث سنين ، ونعجة عمرها ثلاث سنين وكبش عمره ثلاث سنين ويمامة وحمامة صغيرة » • فأخذ ابراهيم البقرة والنعجة والكبش ، وشطر كلا منها الى شطرين ووضع كل شطر على الشطر الآخر • أما اليمامة والحمامة فلم يشطرهما وعندما تراحت الطيور الجارحة على لحم الذبائح طردها ابراهيم • وبينما كانت الشمس تغرب ، راح ابراهيم في نوم عميق وقد تملكه الفزع من الظلام الحالك • فلما غربت الشمس تماما وأظلم الكون ، أبصر ابراهيم أتونا يتصاعد منه الدخان ، وشعلة من النار تمر بين أجزاء الضحية ، وهنا أعلن الرب عهده لابراهيم •

ونلاحظ من خلال هذا الوصف أن الفزع الذي انتاب ابراهيم عند مغيب الشمس كان نذيرا بقدوم الرب الذي مر بين أجزاء الضحية في هيئة أتون يتصاعد منه الدخان أو شعلة من النار • وبهذا يكون الرب قد استجاب للتقاليد الشرعية التي كان يتطلبها قانون العبريين القدماء للتصديق على العهد • فنحن نعرف عن النبي « ارميا » أنه كانت من عادة الطرفين المتعاهدين أن يذبحوا بقرة يشطرونها الى شطرين ويمرون بينهما • ومما يؤكد كل التأكيد أن هذا كان هو النظام المتبع في هذه المناسبة ، العبارة العبرية التي تستخدم في عقد عهد بين طرفين وهي « قطع العهد » • كما يؤكد هذا الاستدلال ما يشبهه هذا في اللغة والطقوس الاغريقية ، ذلك أن الاغريق يستخدمون عبارات شبيهة بعبارة العبرين ، كما يمارسون طقوسا شبيهة بطقوسهم • فهم يتحدثون عن « قطع اليمين » بمعنى القسم به ، وعن « قطع

العهد « بمعنى عقد العهد ، وهذا التعبير ، وبالمثل التعبير العبرى واللاتينى ، مستمد بدون شك من عادة ذبح الضحية وشطرها بوصفها وسيلة لخلع المهابة على القسم أو العهد .

فنحن نعلم ، على سبيل المثال ، أنه عندما كان أغاممنون على وشك أن يقود الاغريق الى طروادة ، أحضر العراف « كلخاس » خنزيرا برياً الى ميدان السوق وذبحه وشطره الى شطرين ، شطر جهة الشرق وشطر جهة الغرب ، ثم مر كل رجل شاهرا سيفه بين شطرى الخنزير وهو يغمس طرف سيفه فى دمه . وبهذا أقسموا على عدائهم « لبريام » (١) . وقد كانت الطقوس الاغريقية تفرض على المتعاهدين فى بعض الاحيان — وان لم يكن هذا أكثر شيوعا — أن يقف قاسم اليمين على جسد الضحية ، بدلا من أن يمر بين شطريها . فقد كان المتهم فى المحاكمات التى كانت تجرى فى محكمة «أريوباحوس» فى « أثينا » ، يقسم اليمين وهو واقف على أجزاء من جسد خنزير برى ، وكبش وثور قام بذبحها أشخاص بعينهم فى أيام محدودة . وعندما كثر خطاب « هيلين » الشقراء ، خشى والدها من انتقام الأحبة الذين ترفضهم ابنته ، فجعلهم جميعا يقسمون اليمين على حمايتها وحماية من تختاره من بينهم ليكون زوجها لها ، مهما يكن كنهه . ولكى يخلع على القسم نوعا من الرهبة ضحى بفرس وقطعه الى أجزاء ، وطلب من جميع الخطاب أن يقسموا اليمين وهم واقفون على أجزاء جسد الفرس . وقد كانت هناك فى حجرة المداولات فى الأوب صورة للاله « نموس » الذى كان يكتى باله القسم . وكانت من عادة الرياضيين وآبائهم وأخوتهم وكذلك المدرسين ، أن يقسموا اليمين وهم واقفون على أجزاء جسد الخنزير البرى المذبح على ألا يقوم

(١) هو ملك طروادة وفقا للأسطورة الاغريقية وزوج « هيوكا » وأشهر أولاده « هكتور » و « باريس » . وقد قتل بريام هذا فى حرب طروادة .

اللاعبون بالعاب غادرة • وقد كان هناك في « مسينيا » مكان يسمى « قبر الخنزير البري » ، لأن هرقل ، فيما يقال ، كان قد أقسم عنده هو وأبناء « نيلئوس » وهو واقف على قطع من جسد خنزير بري مذبوح •

ومثل هذه الشعائر التي تتبع عند القسم أو عند عقد معاهدة سلمية كانت تتبعها القبائل البربرية في الزمن القديم • فقد اعتادت قبيلة « مولوسيان » أن يقطعوا جسد ثور الى أجزاء صغيرة عند عقد معاهدة ، ويقسمون اليمين على هذه الأجزاء على الا ينقضوها • على أننا لا نعرف على وجه التحديد ماذا كانوا يصنعون بأجزاء الحيوان المذبوح في احتفالاتهم • وإذا رأى رجل من « السكيثانيين » أن شخصا آخر قد أخطأ في حقه ، وأحس أنه أعزل ازاءه ، يئوسل الى أصدقائه أن يعاونوه على النحو التالي : يذبح ثورا ويقطعه الى أجزاء ويغلي لحمه • ثم يبسط جلده المدبوغ على الأرض ويجلس فوقه وذراعا مكتوفتان خلفه كما لو كان مكبلا • وقد كانت هذه هي أكبر أشكال التضرع العاجل عند « السكيثانيين » • فإذا جلس الرجل على هذا النحو ، والى جانبه اللحم المطهى ، فإن كل فرد من أصدقائه أو اقربائه أو أى شخص آخر يختاره لمساعدته ، يأخذ قطعة من اللحم ويضع قدمه اليمنى على الجلد ويعده في الوقت نفسه بأن يمدده بالعديد من رجال الحرب والافراس وبكل ما يمتلكه ما لم يكن رهينة عنده ، وذلك لكي يساعد المشتكى في الانتقام من عدوه • وقد يعده البعض بأن يقدم له خمسة من الرجال أو عشرة أو أكثر من ذلك • أما أفقر رجال قومه فيعدونه بتقديم مساعدتهم الشخصية • وبهذه الطريقة تتألف قوة كبيرة يحسب حسابها في شئ من الفرع لأن كل فرد في هذه القوة قد أقسم اليمين على أن يقف في صف صديقه • وينص قانون المحاكم « التبتية » حتى اليوم على « ان يقسم اليمين الكبير ، وهو ما يحدث نادرا ، فان حالف اليمين يقسم به وهو يضع كتابا مقدسا على رأسه ويجلس على جلد ثور مدبوغ ، ويأكل قطعة من

قلب هذا الثور المضى به ، وتكاليف هذه الشعيرة تتحملها الجماعة
التي تقوم برفع الدعوى على المتهم •

وما تزال القبائل البدائية في افريقيا والهند تتبع مثل هذه
الشعائر عند اعلان حالة السلم بين طرفين متنازعين • فعندما يعلن
« الكافرونديون » في افريقيا الشرقية البريطانية حالة السلم بعد
الحرب ، فان الجانب المغلوب يذبح كلبا ويقطعه الى جزئين • ثم يحمل
ممثلون من الطرفين المتحاربين لحم الازند ولحم المؤخرة بصفة خاصة
في أيديهم ، ويقسمون فوق هذه الأجزاء على اشاعة السلم والصدقة
فيما بينهم • ومثل هذه الشعيرة تقوم قبيلة « ناندي » بتأديتها ،
وهي قبيلة أخرى تسكن المنطقة نفسها ، وذلك عند عقد معاهدة
سلمية • فهي تأتي بكلب وتذبحه وتشطره شطرين ، ويحمل كل شطر
ممثلا عن الطرفين المتحاربين ، ثم يأتي رجل ثالث ويقول : « ليقتل
من ينقض هذه المعاهدة • كما قتل هذا الكلب » • وعندما تشن
عشيرتان من قبيلة « باجيسو » — وهي قبيلة من قبائل « البانتو »
التي تقطن عند جبل « الجون » في « افريقيا الشرقية البريطانية » —
الحرب بعضها على بعض ثم ترغبان في اقرار السلام بعد ذلك ، فان
ممثلي من كلتا العشيرتين يحملان كلبا يمسك أحد الطرفين برأسه ،
بينما يمسك الطرف الثاني برجليه الخلفيتين ، ثم يأتي رجل ثالث
ويشق الكلب بضربة واحدة الى شقين ، ويرمى جسد الكلب في
الأحراش حيث يترك هناك • وبعد هذا يمكن للأفراد العشيرتين أن
يختلط بعضهم ببعض الآخر دونما خوف من متاعب أو أخطار •

واذا شاء حيان في قبيلة « واتشاجا » التي تسكن المنطقة
نفسها ، أن يعقدا حلفا صارما ، أو معاهدة سلمية فان الشعائر التي
تؤدي للتصديق على هذا الحلف أو تلك المعاهدة تجرى على النحو
التالي : يجتمع المتحاربون من كلا الحيين ويجلسون متراحمين في
شكل دائري في مكان ما في الخلاء • ثم يلف حبل حول الجالسين ويعقد

طرفاه السائبان ، بحيث يبدو الجالسون كأنهم مكبلين بالحبل . وقبل أن يعقد الحبل من طرفيه السائبين ، يحرك الحبل ثلاث أو سبع مرات حول الجالسين بعد أن يربط فيه جدى صغير يتحرك مع الحبل وفى النهاية يهر الحبل من طرفه المعقود فوق جسد الجدى الذى يحمله رجلان بينهما وهو ممدد تماما . بحيث يكون الحبل والجدى متوازيين . ويقوم بهذه العملية ولدان لم يختتا . وبالتالي لم يتزوجا وليس لديهما أولاد . ومغزى هذا العمل واضح ، فالصبيان يرمزان الى عدم الاخصاب ، أو الى موت الشخص دون أن ينجب ، وهو الامر الذى تنتظر اليه القبيلة على أنه أكبر لعنة يمكن أن تحل بانسان ، كما أنها تعزى فى العادة الى ارادة القوى العليا . وفى معظم هذه المعاهدات يدعون باحلال هذه اللعنات على من يحنث باليمين ، وفى الوقت نفسه يدعون بكثرة الانجاب لمن يبقى على يمينه . والهدف من قيام الصبية غير المختونين بهذه الشعائر ، ليس مجرد الاشارة بالرمز الى مصير الحانث باليمين ، وانما التأثير عليه كذلك عن طريق السحر الانجذابى ، ومن أجل هذا السبب نفسه ، يقوم الرجال العجائز أنفسهم بتلاوة عبارات اللعنة والبركة ، لان هؤلاء قد تجاوزوا سن الاخصاب . وهذه الدعوات هى : « اذا قمت بايذاءك بعد هذا العهد ، أو دبرت مكيده ضدك دون أن أحذرك ، فلأنشق الى نصفين كما انشق هذا الحبل وذاك الجدى » . ثم يرد الكورس قائلاً : « آمين » . « ولأقتل كما يقتل ولد صغير ويموت دون أن يترك ذرية وراءه » . فيرد الكورس قائلاً « آمين » ، « وليفن قطيعى عن آخره » . ويرد الكورس قائلاً « آمين » . « وليكن عدد أولادى كعدد النحل » فيرد الكورس بقوله : « آمين » . الى آخر هذه الدعوات . فاذا انتهى ممثلو الحيين المتعاهدين من حلف اليمين ، يقطع الحبل ويشق الجدى الى نصفين فى آن واحد بضربة واحدة ، وينثر الدم المنسكب على الطرفين المتعاهدين ، بينما يحل شيوخهم اللعنات والبركات على كل الطرفين دون تحيز عن طريق ترديدهم لعبارات شاملة . ثم يأكل الشيوخ الذين تجاوزوا سن الانجاب لحم الجدى ويقطعون الحبل الى

جزئين ويتسلم كل طرف من المتعاهدين جزءا منه ، ويحافظ عليه في حرص . فاذا انتشر وباء أرجعه الكهنة الذين يقومون بتفسير ارادة القوى العليا ، الى نقض سكان البلد الموبوء العهد بعمد أو غير عمد ، فلا بد من التكفير عن ذنب الحبل أو كما يعبر عن ذلك الأهالي « بتبريد الحبل » . ذلك أن القوة السحرية التي خلعها العهد على الحبل تمارس نشاطها ، حسب اعتقادهم ، في ذلك الانتقام ممن دنس قدسية هذا الحبل . ذلك أن القوة السحرية التي خلعها العهد على الحبل تمارس وروثها ، بينما تتلى الكلمات الآتية : « هؤلاء الناس قد ارتكبوا الخطأ دون علم ، ومن ثم فأنا أكفر اليوم عن ذنبهم أيها الحبل ، فلتقبل التكفير . لتقبل التكفير . لتقبل التكفير » . ثم يكفر الطبيب عن هؤلاء الذين نقضوا العهد بأن ينثر عليهم دواء سحريا يتكون من سلحفاة وحيوان العزير ، وخبثي ، بالإضافة الى قدر من النباتات . وكل هذا يبيث فيه الطبيب السر بأن يضع فيه حزمة من الاعشاب المتنوعة ويتلو عليه بعض الكلمات السحرية .

وتتفق شعائر عقد معاهدة السلام التي تتبعها بعض القبائل في افريقيا الجنوبية مع هذه الشعائر في شكلها العام ، وان اختلفت عنها بعض الشيء . فاذا شاء زعيم قبيلة « يارولونج » أن يقدر معاهدة سلمية مع زعيم آخر لجأ اليه طلبا للحماية ، فهو يأخذ معدة ثور ويقرها ، ثم يزحف الزعيمان واحدا تلو الآخر من خلال فتحة المعدة ، فيعلننا بذلك أن قبيلتيهما قد أصبحتا اثر ذلك كلا واحدا . وتتبع قبيلة « بتشوانا » مثل هذا النظام « اذا ما عقد زعيمان من زعمائها (تشوارنجا موشوانج) حلفا أو اتفاقا بينهما » . فهما يذبحان حيوانا ، ويمسك الطرفان المتعاهدان ببعض أجزاء أمعائه بحيث تتقابل أيديهما وتكون مغطاة بمحتوى أمعاء الحيوان المضحي به . ويبدو ان هذا الاجراء هو أكثر صور الاتفاق مهابة يعرفه الجمهور في هذا البلد . فلقد أقيمت هذه الشعائر أكثر من مرة في « شوشنج » بينما كنت

هناك ، وذلك عندها لجأ بعض الزعماء الى « شيكهوم » ووضعوا أنفسهم تحت حمايته » •

ومثل هذه الشعائر تتبعها بعض القبائل التي تسكن تلال «أسام» وذلك عندما يقومون بعقد معاهدة سلمية • فقبيلة « ناجا » تتبع عدة وسائل في تأدية اليمين • وأكثر هذه الوسائل شيوخا و قدسية ، أن يمسك أحد الطرفين برأس كلب أو دجاجة ، بينما يمسك الطرف الآخر بالذيل أو الأرجل ، ثم يذبح الحيوان أو الطير بآلة تسمى « داو » ، وهذا رمز لمصير اللحانت باليمين • ومن بين الشعائر التي تتبعها قبيلة « ناجا » وفقا لمصدر آخر ، الشعيرة الآتية : « اذا أقسم أفراد القبيلة على المحافظة على السلم أو أى وعد آخر ، فانهم يضعون قصبة البندقية أو الرمح بين أسنانهم • وهم يقصدون بذلك أنهم اذا لم يبقوا على اتفاقه فانهم يكونون على استعداد لأن يقتلوا بأحد هذين السلاحين • وهناك شكل آخر بسيط من أشكال القسم ، وان يكن ملزما على حد السواء ، وهو أن يمسك الطرفان بطرفي رمح حجرى ، ثم يكسر هذا الرمح من الوسط بعد أن تترك قطعة منه في يد الذين يمسكون به • على أن أكثر الايمان قداسة يكون ، فيما يقال ، عندما يأتى كل طرف من الطرفين المتناهدين بدجاجة ، ويقبض أحد الطرفين على رأسها بينما يمسك الطرف الآخر بأرجلها ثم تمزق أربا ، مشيرين بذلك الى المصير الذى سيلقاه المخادع أو ناقض العهد » وتتبع قبائل أخرى فى « أسام » تنتمى الى مجموعة « ناجا » طرقا أخرى تختلف بعض الشيء عن الطرق السابقة فى سبيل فض النزاع • « اذ يمسك كل طرف من الطرفين المتناصين بطرف سلة مصنوعة من الخيزران بداخلها قطعة حية ، ثم يهوى رجل ثالث على القطعة عند صدور اشارة اليه • فيشقها بسلاح حاد بحيث يلطخ الدم السلال • وعندما كنت أشهد هذه الشعائر فى مناسبة من المناسبات ، قيل لى : ان هذا الاجراء هو شكل من أشكال اقرار السلام أو عقد معاهدة ،

وأن ذبح المقطة يربطهم في رباط من العهد • ويعد المقسم على الصداقة بين الزعماء عند عشائر « لوشاي كوكي » ، في أسام أمرا خطيرا • اذ يربط حيوان المتان (وهو من فصيلة الثور الأمريكي) في عمود ، ثم تأتي الجماعة التي تتوى المقسم ، ويمسك كل فرد منها برمح في يده اليمنى ويطعن المتان خلف رقبتة بقوة بحيث يتدفق الدم ، ويكررون عبارة فحواها أنهم سيظلون أصدقاء طالما جريت الانهار في الأرض • ثم يذبح الثور بعد ذلك وتدهن جباه المقسمين وأرجلهم ببعض دمه ، كما يأكلون قطعا صغيرة نهيئة من كبده لكي يكونوا أكثر ارتباطا بالمقسم •

والآن علينا أن نتساءل : ما معنى ذبح الضحية عند عقد عهد أو عند خلف اليمين ؟ • • ولماذا يصبح العهد أو المقسم مصدقا عليه من الطرفين عن طريق التضحية بحيوان وقطع جسده الى أجزاء يمشي الطرفان بينها أو يقفان عليها ، ثم يلطخان أنفسهم بدم هذا الحيوان ؟ ان هناك نظريتين تجيبان عن هذه التساؤلات • النظرية الأولى تسمى نظرية « الجزاء » ، والأخرى تسمى نظرية « السر المقدس » أو نظرية « التطهير » • ولنبدأ بالنظرية الأولى • وذبح الضحية ، بناء على هذه النظرية ، ثم تقطيعها الى أجزاء ، يرمز الى الجزاء الذي سيحل بالشخص الذي يخون العهد أو يحنث باليمين ، فمصير هذا الشخص كمصير الحيوان ، هو القتل • ومن المؤكد أن هذا التفسير يبدو أنه التفسير الصحيح للشعائر التي تتبعها بعض الشعوب • فقبيلة الواثشاجا تقول في أثناء تأديتها لشعائرها : « الأنشق الى نصفين كما ينشق هذا الحبل وذلك الجدى » • كما تقول قبيلة « ناندى » عندما تذبح كلبا وتشطره الى شطرين في هذه المناسبة : « ليقتل من ينقض العهد كما يقتل هذا الكلب » •

ومثل هذه الشعائر كان يتبعها « الأومبيون » ، وهم شعب يسكن دلتا نهر « النيجر » ، ويعرفون باسم « الكالاباريون الجدد » وقد كان هؤلاء يقومون بتأدية هذه الشعائر مصحوبة بالدعوات الشريرة

لاكساب هدنة السلام شيئاً من الرهبة • فكانت اذا سئمت بلدتان أو عشيرتان من العشائر القتال الدائر بينهما ، فانهما كانتا ترسلان رسولا الى بلدة « كى » القديمة التى تقع بالقرب من الساحل ، شرق نهر « سومبريرو » ، حيث يعيش كاهن فيتيشى أو « جوجو » يدعى « كى - نى أوبورسو » • وفى مثل هذه الظروف يدعى الكاهن الفيتيشى ليحضر اليهم ليشرّف على التصديق على المعاهدة السلمية بين المتحاربين • ومن ثم فان هذا الكاهن كان يحضر فى قاربه المغطى بفروع صغيرة من أشجار النخيل ، ويتفق مع المتخاصمين على يوم يعقدون فيه العهد فيما بينهم • فاذا حان اليوم المحدد ، فان المتخاصمين يجتمعون كما يحضر أهالى بلدة « كى » ومعهم الاشياء اللازمة لتقديم الضحية التى تتكون من شاة وقطعة من القماش الاسود أو الازرق ، وقدر من البارود ، وحشائش أو بذور الحشائش • ويقسم المتخاصمون فوق هذه الاشياء على السلام والمودة • ثم يقول الكاهن : « اليوم ، نحن أهالى « كى » نجلب السلام لبلدكم • ومن الآن فصاعدا لن يفكر أحد من المتخاصمين فى اساءة الطرف الآخر » • ثم يأتى بالشاة ويشطرها شطرين ويقول : « فاذا شنت احدى البلدتين الحرب مرة أخرى على البلدة الاخرى ، فلتتشق أجسام أفرادها كما انشق جسد هذه الشاة » ثم يرفع قطعة القماش ذات اللون الداكن ويقول : « وليعم بلدة المسيئين ظلام حالك مثل حلقة هذه القطعة من القماش » • ثم يشعل النار فى البارود ويقول : « وكما يحترق هذا البارود فلتحترق بلدة المذنبين » • ثم يحمل فى النهاية الحشائش ويقول : « ولتغط الحشائش بلد من يشن الحرب مرة أخرى » • وقد كان هناك قانون « كالابارى » قديم يمنع أى بلد من أن تشعل الحرب على قرية « كى » ، لما تقدمه هذه القرية من خدمات فى سبيل اقرار السلام • واذا حدث أن أشعلت بلدة الحرب عليها فانها تقع تحت طائلة النفى ، أو تحت طائلة العقاب الجماعى من جميع أفراد القبيلة • ونلاحظ أن هذه الطقوس الكالابارية تكشف فى غير غموض عن القصد الجزائى من وراء شطر الشاة الى

شطرين • كما يؤيد هذا تلك اللعنات التي تصحب الشعائر الرمزية
الأخرى •

ومثل هذا التفسير ينطبق على الطقس المشابه لهذا الذي تؤديه
قبيلة « ناجا » ، كما تؤيده الصيغ المختلفة لحلف اليمين الذي يعد
أنسب تفسير له هو الجزاء الذي يلحق الحانث باليمين • ويمكننا أن
ندعم نظرية الجزاء بشواهد مستقاة من العصر الكلاسيكي القديم •
« فعندما قام الرومانيون والألبانيون بعقد معاهدة فيما بينهما وهي
أقدم معاهدة مدونة فيما يقول « ليفي » ، تضرع ممثل عن الشعب
الروماني الى الاله « جوبيتر » قائلاً : « اذا نقض الشعب الروماني
المعاهدة عن عمد ، فلتلحق بهم المضربات عند ذاك أيها الاله
« جوبيتر » ، كما أضرب هذا الخنزير البري اليوم » • وبعد أن قال
هذا ، هوى على الخنزير وذبحه بالسكين • ثم اننا نقرأ في أعمال
« هوميرو » ، أنه عندما عقد الاغريق والطرواديون هدنة فيما بينهما ،
ذبحت الاغنام وسكب اغاممنون عليها قربان الخمر وهي تلفظ أنفاسها
الآخرة ، بينما كان الاغريق والطرواديون يدعون على من يحنث
باليمين أن تهشم رأسه ويسيل مخه كما تسيل الخمر على الارض •

ويتضح هذا المغزى الجزائي من تقديم الضحية في مثل هذه
الاحوال كل الوضوح من خلال مخطوط آشوري دون فيه القسم المقدس
الذي أعلن فيه « ماتو — ايلو » أمير « بيت — أجسوزي » ولاءه
« لأشور — نيراري » ملك آشور • وما هو ذا بعض مارون في هذا
المخطوط : « ان هذا الكبش لم يؤخذ من القطيع بقصد تقديمه ضحية
ولا من أجل الالهة المسالمة « عشثروت » ، كما أنه لم يجلب من أجل
مرض أو لجرد أن يذبح وإنما احضر لكي يقسم « مانع — أيلول »
على ولاءه « لأشور — نيراري » ملك « آشور » • فاذا حنث « مانع —
ايلو » بيمينه ، فان مصيره سيكون كمصير هذا الكبش • فكما أن هذا
الكبش قد أبعد عن قطيعه وأن يعود اليه مرة أخرى ليسيطر عليه ،

فان « ماتع — ايلو » سيؤتى به كذلك من بلده مع أبنائه وبناته وبنى قومه ، ولن يعود اليهم مرة أخرى ليتزعم قومه • فهذه الرأس ليست رأس كبش ، وانما هي رأس « ماتع — ايلو » ورأس أولاده ونبلاء قومه ، ورأس شعبه بأسره ، فاذا قطع « ماتع — ايلو » عهده كما تقطع رأس هذا الكبش ، فان رأس « ماتع — ايلو » ستقطع بالمثل • وهذه الرجل اليمنى ليست رجل الكبش اليمنى ، ، وانما هي يد « ماتع — ايلو » اليمنى ، ويد أولاده ونبلاء قومه وشعبه • فاذا قطع « ماتع — ايلو » العهد كما تقطع رجل ذلك الكبش ، فان يده اليمنى ستقطع ، وكذلك أيدي أولاده ونبلاء رجال بلده » • ثم يلى هذا فجوة كبيرة فى المخطوط • ونحن نحدس بأن مكان هذه الفجوة كان وصفا لأعضاء الكبش الأخرى ، واستمرارا فى التعليق على أنه كلما قطع عضو من أعضائه ، فانه لن يكون سوى رمز لقطع العضو المماثل له عند « ماتع — ايلو » وأولاده ونبلاء بلده وقومه ، اذا ما اثبتوا خيانتهم لسيدهم الموالىن له وهو ملك « آشور » •

ومثل هذه التوضيحات التى تصحبها وتفسرها دعوات بالشر شبيهة بالدعوات السابقة ، تصادفنا فى طقوس الشعوب البدائية التى ما تزال تعيش حتى اليوم • فطريقة عقد العهد أو حلف اليمين فى جزيرة « نياس » ، هى أن تجز رقبة خنزير صغير رضيع ، بينما يدعو الشخص على نفسه بمثل هذه القتلة اذا ما نقض العهد أو حنث باليمين • والطريقة التى تتبع فى جزيرة « تيمور » لتقديم بيعة على الحلف باليمين هى : أن يمسك الشاهد بدجاجة فى يد ، وفى اليد الأخرى بالسيف ويدعو قائلا : « الهى فى السماوات والارض ، انظر الى ، ان كنت أشهد شهادة زور تؤذى قومى ، فلتلق بى العذاب • اننى أؤدى اليمين فى هذا اليوم ، فاذا لم أكن صادقا فى شهادتى ، فلتقطع رأسى كما تقطع رأس هذه الدجاجة » • فاذا فرغ من دعائه هذا فانه يهوى على رأس الدجاجة ويقطعها على كتلة من الخشب • وعندما يجتمع زعماء « الباتاكيون » فى « سومطرة » ليعقدوا صلحا أو عهدا مقدسا

فيما بينهم ، فانهم يأتون بختزنر أو بقرة ويقف الزعماء من حول الحيوان وفي يد كل منهم رمح • ثم تقرع الطبول ، ويقطع أكبر الزعماء سنا وأكثرهم هيبة، رقبة الحيوان بسكين • ثم يقرر الحيوان وينزع من جوفه قلبه وهو مازال ينبض ، ويقطع الى قطع صغيرة بعدد الزعماء ثم يرشق كل زعيم نصيبه من القلب في سيخ ، ويشويه أو يدفئه على النار وهو يقول : « اذا حدث حنثت بيمينى ، فلاقتل كما قتل هذا الحيوان المسجى أمامى وهو يدمى ، وليلتهم لحمى كما يلتهم قلبه الآن » • ثم يأكل قطعة اللحم أثر ذلك • وبعد أن يفرغ الرؤساء من تأدية هذه الطقوس يوزع لحم الحيوان الذى مازال مضرجا بالدم بين الناس ليحيون به وليمة •

واذا شاعت قبيلتان من « الشينين » الذين يسكنون التلال التى تشرف على حدود « أسام » و « بورما » ، أن تحلفا اليمين أو تعقدا أواصر المصداقة فيما بينهما • فانهما تتقابلان ويحضران معا ثورا أليفا • ثم يصب شيوخ كل قرية عليه الخمر ، ويسرون الى أرواحهم المقدسة بكلمات لكى تشهد على هذا الاتفاق • ثم يمسك زعماء كل طرف برمح ، ويقفان على جانبى الثور ، ويصوبان الرماح الى قلبه • فاذا استخدمت البنادق بدلا من الرماح فان الطرفين يطلقان النار فى رأس الثور أو فى قلبه فى آن واحد • وبعد أن يسقط الثور طريحا تقطع رقبتة ، ويجمع دمه المسكوب فى وعاء • ثم يقطع ذيله ويغمس فى الدم ، كما يغمس زعماء الطرفين وشيوخهم أيديهم فى دمه ويلطخ كل منهم وجه الآخر ، فى الوقت الذى يتمم فيه حكماؤهم بالكلمات الاتية : « ليمت من ينقض هذا العهد ميتة هذا الحيوان وليدفن جسده خارج القرية ، ولا تهدأ روحه أبدا • ولتمت أسرة كل من ينقض العهد ، وليلحق بها كل حظ عثر » •

وعندما كان يرغب « الكاريون » سكان « بورما » فى عقد حلف سلمى مع أعدائهم فى الزمن القديم ، كان يجتمع ممثلو كل جانب

ويتصرفون على النحو التالي : تمزج برادة سيف ورمح وبارود وحجر في فنجان به ماء ، ويضاف اليه دم كلب وخنزير ودجاجة تذبح جميعا لهذا الغرض . ويسمى هذا المزيج من الدم والماء والبرادة « بماء السلام » . ثم تشطر جمجمة الكلب الى شطرين ، ويأخذ ممثل الطرف الاول فك الحيوان السفلى ويعلقه بخيط حول الرقبة ، بينما يأخذ ممثل الطرف الثانى الجمجمة بما فيها الفك العلوى ويعلقها كذلك حول رقبتة . ثم يعد الممثلان في صرامة أن قومهما سيعيشون بعد ذلك في سلام بعضهم مع بعض . ولكى يؤكد هذا الوعد ، فانهما يتناولان جرعة من « ماء السلام » ويقولون « الان قد عقدنا عهد السلام . فاذا نقص شخص هذا العهد ولم يكن صادقا فيه فيتسبب في أشعال نار الحرب مرة أخرى ، واثاره البغضاء ، فليشق الرمح صدره ، وليفتت البارود أنعاؤه ، وليشج السيف رأسه ، وليلتهمه الكلب والخنزير وليحطمه الحجر » . ونلاحظ هنا أن هؤلاء الناس يفترضون أن السيف والرمح والبارود والحجر ، وبالمثل الكلب والخنزير المذبوحين ، تعين جميعا على الانتقام ممن يحنت باليمين ، ذلك بعد أن شرب ممثلا الطرفين جرعة من مزيج « ماء السلام » .

وترجع قدرة الضحية على الجزاء في كل هذه الامثلة بدون شك الى الدعوات التى تصحب ذبح الحيوان : فذبح الحيوان يرمز الى ذبح الحانت باليمين ، أو هو بالاحرى جزء من سحر تقليدى يقصد به إلحاق الموت بالذنب جزاء جريته .

على أننا يمكننا أن نتساءل بعد ذلك عما اذا كانت فكرة الوظيفة الجزائية لتقديم الضحية تكفى لتفسير الملامح البارزة في الطقوس العبرى والاغريقى الذى يتمثل في المرور بين أجزاء الحيوان المذبوح أو الوقوف فوقها . وهنا رأى « و . روبرتسون » أن نفس هذا الطقوس بما يمكن أن نسميه نظرية التطهير أو السر المقدس . فقد افترض أن « مرور الجانبين بين أجزاء الحيوان المذبوح يرمز الى انتمائهم الى

حياة الحيوان الروحية » ولكي يؤكد روبرتسون وجهة نظره ، أشار الى استخدام هذا الطقس نفسه في حالات أخرى لا يصلح قانون العقاب أو الجزاء ، فيما يبدو ، تفسيراً لها ، في الوقت الذي يفسر بعضها على الأقل بنظرية التطهير الشعائري . فمن أشكال التطهير الشائعة في « بويوتيا » ، أن يذبح كلب ويشق شقين يمر الناس بينهما ومثل هذه الشعيرة كان يؤديها الجيش المقدوني . إذ كان يذبح كلب ويشطر شطرين . ثم يوضع رأسه والجزء الأمامي منه جهة الشمال ، بينهما توضع أمعاؤه وجزؤه الخلفي جهة اليمين ، وبين هذين الجزئين تمر جماعات الجيش . ومن المؤلف في نهاية الاحتفال أن ينقسم الجيش الى قسمين يتشابكان معا في حرب صورية . وقد قيل : أنه عندما أغار « بيليوس » على « أيلوكس » ونهبها ، قتل زوجة الملك وتسمى « أستى داميا » ، وقطعها أربا ، وجعل جيشه يمر بين أجزاء جثتها وهو في طريقه الى المدينة . ومن المحتمل أن هذا الاجراء كان ينظر اليه بوصفه شكلا من أشكال التطهير الذي يصفى عليه الانسان الضحية درجة كبيرة من الرهبة . ويؤكد هذا التفسير ، تلك الطقوس التي يتبعها الالبانيون في القوقاز في معبد القمر . فهؤلاء قد تعودوا أن يضحوا بعبد مقدس بين الحين والآخر ، بأن يطعنوه برمح . ثم يحمل جسد هذا العبد الى مكان معين حيث تدوسه الاقدام كاجراء تطهيري . أما اجراء التطهير بين « الباسوطويين » في افريقيا الجنوبية فيجرى على النحو التالي : يذبح حيوان ويصنع فيه تجويف ويطلب من الشخص الذي يراد تطهيره أن يمر فيه . وقد سبق أن رأينا قبيلة « بارولونج » تؤدي نفس الشعيرة عندما تعقد عهدا ، فالمتعاهدون يمرون خلال تجويف يحدثونه في معدة الحيوان المقتول . فهذه العادات التي تتبع في افريقيا الجنوبية تؤكد معا أن المرور بين أجزاء الحيوان الضحية يعد بديلا للمرور خلال تجويف يحدث خلال جسد الحيوان نفسه .

والتفسير التطهيري أو بالاحرى الوقائي لمثل هذه الطقوس ، يؤكد عادات عرب موآب الذين لا يزالون يقومون بمثل هذه الشعائر

في أوقات الكوارث التي تلم بهم مثل القحط أو الوباء • وهم يقولون :
ان المقصود من هذه الشعائر هو تخليص الناس من الشر الذي يتهددهم •
فاذا كانت القبيلة تعاني من وباء الكوليرا على سبيل المثال ، فان الشيخ
يقف وسط خيمته ويهتف قائلاً : « افقدوا أنفسكم أيها الناس ، افقدوا
أنفسكم » • عندئذ تأخذ كل أسرة شاة وتضحى بها ثم تشطرها شطرين
تعلقهما أسفل الخيمة ، أو على عمودين أمام الخيمة • ثم يمر أعضاء
الأسرة جميعاً بين شطري الضحية ، اما الابناء الصغار الذين لا يقدر
ون على المشي ، فيحملهم أبواهم • وفي كثير من الأحيان يمر أفراد الأسرة
أكثر من مرة بين جزئي الشاة الدامين اعتقاداً منهم أن شطري
الضحية ، لهما القدرة على طرد الأرواح الشريرة ، أو طرد الجن الذي
يمكن أن يؤذي القبيلة • وهم يستعينون بمثل هذا العلاج في مواسم
القحط عندما تذبل الأعشاب وتموت الماشية بسبب قلة مياه الأمطار •
وتعد الضحية فدية للإنسان والحيوان معا • ويقول هؤلاء العرب في
هذه المناسبة : « هذه فديتنا لنا ولمواشينا » • وعندما سئلوا عن الوسيلة
التي تؤثر بها هذه الشعائر مثل هذا التأثير الجدي ، أجابوا بأن
الضحية تقابل الكارثة وتقاتلها • فالوباء والقحط أو أي كارثة
ينظر اليها بوصفها ريحاً تهب على السهول وتحصد أمامها كل
ما تصادفه • حتى تقابل الضحية التي تعترض طريقاً كالأسد المربض •
وعند ذاك ينشأ صراع مفرع بينهما ، يقهر على أثره الوباء أو القحط
ويرجع أدراجه مخذولاً ، بينما تظل الضحية المنتصرة مسيطرة على
الحقل • وهنا نلاحظ أنه ليست هناك ثمة تفكير في الجزاء ، اذ ليس
من المعقول ، لا من قبل التفسير الرمزي أو السحري ، أن موت الشاة
يتسبب في موت الناس الذين يمرون بين أجزائها ، بل أن الناس
يعتقدون على عكس هذا ، أن الضحية تحميهم من الشر الذي يتهدد
حياتهم بشكل أو بآخر •

ومثل هذه العادة تماماً تتبع في ظروف متشابهة عند « التشينيين »
الذين يسكنون البلد الذي يكثُر فيه التلال ويقع على حدود « أسام

وبورما » • فإذا اعتقد شخص من بين هؤلاء القوم ، أن شخصا تتبعه روح ثائر ، مثل روح مرض الكوليرا ، فانه من المألوف عندهم أن يذبح كلب ويشطر دون أن تنتزع أمعاؤه ، ويترك النصف الأمامي منه على جانب من الطريق والنصف الخلفى على الجانب الآخر منه ، ويصلون بينهما بأمعاء الكلاب التى يمدونها عبر الطريق • وهم يفعلون هذا بقصد إسكان غضب الروح الثائر وإثنائه عن عزمه في اقتفاء أثرهم » وهكذا يحرص « الشينيون » على تشخيص وباء الكوليرا بوصفه روحا خطيرا ، الى درجة أنه اذا قامت جماعة منهم بزيارة منطقة « رانجون » وقت انتشار الوباء ، فانهم يحملون سيوفهم مشهرة أينما ساروا ليذروا عنهم الشيطان ، كما يقضون وقتهم مختبئين بين الأجراس حتى لا يعثر عليهم الشيطان • وقد تعود « الكوريائيون » الذين يسكنون سيبيريا الشمالية الشرقية ، أن يصرفوا الأوبئة والطاعون عنهم على هذا النحو • فهم يذبحون كلبا ويربطون الأمعاء حول عمودين ويمرون تحتها • ومما لا شك فيه أنهم يعتقدون بالمثل أنهم بهذه السيلة يطردون روح المرض الذى يجد في أمعاء الكلب حاجزا لا يقهر • ويسود الاعتقاد في أن النساء بعد الولادة يكن نجسات ، ومن ثم يكن عرضة لأن تتملكهن الكائنات الشريرة المهولة • فإذا تركت المرأة عند فجر ترانسلفانيا فراشها بعد الولادة ، فانه يتحتم عليها أن تمر بين شطرى ديك مذبوح اذا كان المولود ذكرا ، أما اذا كان المولود أنثى فانها تمر بين شطرى دجاجة • ثم يأكل الرجال هذا الديك فيما بعد ، ، كما تأكل النساء الدجاجة •

ويتضح من هذه الأمثلة أن المرور بين أجزاء الحيوان المذبوح يقصد به الوقاية لا العقاب • كما أن لحم الضحية ودمها تشكل عقبة في طريق القوى الشريرة ، وفقا لتصور هؤلاء الناس ، ومن ثم فهم يحاولون بينها وبين اقتفاء أثر الشخص الذى مر خلال الطريق المضيق ، وبالتالي فهو لا يتعرض لا يذائها • وبناء على ذلك فان هذه الشعائر يمكن أن تسمى بشعائر التطهير بأوسع معانى الكلمة ، اذ أنه يقصد بها تطهير الشخص أو تخليصه من تأثير القوى الشريرة •

فاذا عدنا من حيث بدأنا ، فانه يحق لنا أن نتساءل عما اذا كانت الوسيلة التي كان يتبعها العبريون القدماء عند عقد عهد بين طرفين ، عن طريق المرور بين أجزاء الضحية ، يقصد بها العقاب أو التطهير . وبتعبير آخر هل كانت تعد وسيلة رمزية لاحلال الموت بالحانت باليمين ، أم كانت وسيلة سحرية لوقاية المتعاهدين من تأثير القوى الشريرة ، ومن ثم فهي تحميهم من أخطار بعينها يمكن أن يتعرضوا لها ؟ ان الأمثلة الأخرى التي سبق أن ذكرتها عن مرور الأشخاص بين أجزاء الضحية المذبوحة ، تبدو وكأنها تدعم التفسير التطهيري أو الوقائي للطقس العبري ، اذ بينما لا يتطلب مثال من هذه الأمثلة التفسير الجزائي ، فان بعضها يستبعده صراحة . ومن ناحية أخرى نجد أن بعض هذه الأمثلة لا يفسر الا على أساس نظرية التطهير أو الوقاية التي تدعيها في الحقيقة بعض الشعوب مثل العرب « والتشيين » صراحة ، هؤلاء الذين يتبعون هذه العادة . حقا أن أية محاولة لتفسير هذه الشعيرة العبرية لا بد أن يراعى فيها تفسير الشعيرة المماثلة لها عند العرب المحدثين ، نظرا لتشابه شعائرهما في الشكل . كما أن هذين الشعبين اللذين يقومان بتأدية هذه الشعيرة أو كانا يقومان بتأديتها ، ينتميان الى أسرة سامية واحدة ، ويتحدثان لغتين ساميتين متقاربتين ويقيمان في البلد نفسه ، حيث أن أرض موآب التي مازال العرب يتبعون فيها هذه العادة القديمة ، كانت تكون جزءا من موطن بنى اسرائيل حيث رحل ابراهيم وعقد عهدا مع الرب على نحو ما ذكرناه (١) . ويبدو أن هذا الاستدلال حتمي ، وهو أن هذه الشعيرة التي اتبعها العبريون القدماء والتي مازال يتبعها الموآبيون ، ترجع الى أصل سامي وما يزال هدفها التطهيري أو الوقائي واضح في أذهان عرب موآب .

على أنه لا يزال هناك سؤال ينبغي أن نتساءل عنه وهو : فيم

(١) يعني فريزر ما يفهم من أساطير العبريين التي روجوها بينهم ونقلوها ثم دونوها في العهد القديم ، ولا يبدو أنه يريد بذلك التقرير التاريخي .

تتمثل القدرة على التطهير في مثل هذه العملية ؟ ولماذا يعتقد أن المرور بين أجزاء الحيوان المذبوح من شأنه أن يحمي الإنسان من الخطر ؟ أما رد « روبرتسون سميث » عن هذه التساؤلات فيتلخص فيما يمكن أن يسمى بتفسير السر المقدس لهذه العادة • فهو يفترض أن الذين يمرون بين أجزاء الضحية أو يقفون فوقها ، يتحدون مع الحيوان ومع بعضهم بعضا في رابطة الدم ، أى أنه يعتقد في الحقيقة أن مثل هذا العهد ليس الذى يخلق المتعاهدون عن طريقه ، بطريقة صورية ، رباطا من القرابة العصبية فيما بينهم ، وذلك بأن يمزحوا حقا قدرا من دمائهم بعضها ببعض • والاختلاف المادى الوحيد بين شكلى هذا العهد ، بناء على هذا الفرض ، هو أن دم الحيوان فى أحد الشكلى يعد بديلا لدم المتعاهدين أنفسهم فى الشكل الآخر • على أن هناك كثيرا من الجدل يمكن أن يثار حول هذه النظرية • وأولى نقاط هذا الجدل ، هو أن الشواهد فى أفريقيا الجنوبية تشير الى النتيجة التى مؤداها أن المرور بين أجزاء الضحية ليس سوى بديل للمرور خلال جسد الحيوان المذبوح • ويؤيد هذه النتيجة أن « الشينيين » عندما يذبحون الكلب الضحية لا يفصلون شطرى الكلب أحدهما عن الآخر كلية ، وإنما يحتفظون بالنصف الأمامى والنصف الخلفى متصلين عن طريق حبل أمعاء الحيوان الذى يمر تحته الناس • ويبدو أن « الكوريائيون » كانوا يتبعون هذه العادة ، وإن تكن بطريقة أقل وضوحا من طريقة « الشينيين » • فالابقاء على حبل الأمعاء بوصفه رابطا بين شطرى الضحية يبدو بوضوح أنه محاولة للربط نظريا بين وحدة الحيوان المقتول وبين الملاءمة العملية بشطره ، حتى يتسنى للناس أن يمروا خلال جسده • والا فما معنى أن يوضع الناس داخل جسد الحيوان ما لم يكن الغرض من ذلك اكساب الشخص بعض خصائص الحيوان التى يعتقد أنه يمتلكها ، والتى يمكن — وفقا لتصور هذه الشعوب — أن تنتقل الى الشخص الذى يطابق بين نفسه فيزيائيا وبين الحيوان عن طريق الدخول فيه حقيقة ؟ •

ومما يؤكد أن هذه الفكرة حقا هى أساس هذه الشعيرة ، تلك

العادة المشابهة المنتشرة بين الهنود « الباتاجونيانيين » • ففي بعض الحالات إذا ولد لهؤلاء طفل ، تذبح بقرة أو فرس وتنتزع منه معدته ثم تبقر ويوضع بداخلها الطفل وهي ما تزال دافئة • ثم تقيم القبيلة وليمة على سائر أجزاء الحيوان •

على أن الأشكال الأخرى لشعائر هذا الميلاد ، ما تزال أكثر همجية • فإذا ولد للآب طفل ذكر ، فإن قبيلته تأتي بفرس أو مهر حسبما يتفق وحالة الوالد المادية ، فإن كان غنيا مرموقا بين قومه ، أحضرت له القبيلة فرسا ، وإن لم يكن كذلك أحضرت له مهرا • ثم يربط وحق (١) حول كل رجل من أرجل الحيوان ، ورباط حول رقبتة ، ورباط آخر حول جسمه • ثم ينتشر أفراد القبيلة حول أطراف هذه الأحبال ويمسكون بها ، وبذلك لا يتمكن الحيوان من السقوط • ثم يتقدم والد الطفل ويشق الفرس أو المهر من رقبتة إلى أسفل • ثم ينتزع قلب الحيوان وغير ذلك من الأجزاء ويوضع الطفل في تجويفها • والغرض من هذا الفعل هو وضع الطفل في تجويف الحيوان وهو مازال ينتفض ، اعتقادا منهم أن الطفل سيصبح بكل تأكيد في المستقبل فارسا ماهرا • • وهنا تتمثل لنا بوضوح هذه العادة والسبب الذي يعزى لاتباعها • فإذا شئت أن يكون طفلك فارسا ماهرا ، كما يجادل هؤلاء الهنود ، فإن أفضل وسيلة لذلك هي الربط بينه وبين الحصان عند ولادته ، وذلك بأن يوضع داخل تجويف فرس أو مهر وهو مازال على قيد الحياة • فإذا وضع الطفل على هذا النحو بين لحم الحيوان ودمه ، فإنه يصبح شبيها به جسديا ، ويصبح له مقعد صيد القنطور (٢) الذي يتكون جسمه من جسم إنسان وجسم فرس معا • وباختصار فإن وضع الطفل داخل تجويف الفرس أو المهر ليس سوى صورة من صور المشاركة الذي يقصد به اكتساب الإنسان صفات خاصة •

(١) حبل في طرفه انشودة يستعمل لاقتناص الخيل والأبقار •

(٢) كائن خرافي •

ويمكننا أن نفسر وفقا لهذا الأساس — كما أشار روبرتسون
سميث الى ذلك — الشعيرة « السكيثيانية » عند عقد عهد ، عندما يدوس
أفراد القبيلة بأقدامهم على جلد ثور مذبوح • فكل الذين يدوسون بأقدامهم
اليمنى على جلد الثور يصبحون هم والحيوان شيئا واحدا ، بحيث تربط
بينهم رابطة الدم التي تؤكد اخلاصهم لبعضهم بعضا • اذ من المحتمل
أن الدوس بقدم واحدة على جلد الثور يعد شكلا مختصرا للف
الشخص بالجلد لفا كليا ، تماما كما تعود المتعبد في محراب الآلهة
السورية في « هيرابوليس » ، أن يجثو على جلد الشاة التي قدمها
ضحية للآلهة ، ويسحب رأسها وأرجلها فوق رأسه وكتفيه ويصلي للآلهة
وهو في هيئة الشاة ، لكي تقبل الشاة التي قدمها ضحية لها •

وهذا التفسير الذي قدمه « روبرتسون سميث » لتلك العادة
تؤكد كل التأكيد عادة أفريقية مماثلة لها • فمن عادة صبية قبيلة
« واتشاجا » في « أفريقيا الشرقية أن يهيئوا بعد عامين من ختانهم لما
يمكن أن يسمى بالتمعيد الحربى • ومن أجل هذا الغرض يجتمع الصبية
مع آبائهم وشيوخ قرية زعيمهم ، ويقومون بذبح ثورين ونعجتين
وتجمع دماؤهما في جلد ثور يحمله عدة رجال • ثم يعرى الصبية أنفسهم
ويطوفون وهم واقفون في صف طويل أربع مرات حول جلد الثور المتلىء
بالدم • ثم يصطفون بعد ذلك ويمر عليهم شيخ ويحدث قطعا في أسفل
أكماتهم • ثم يخطو كل صبي الى الجلد المتلىء بالدم ويخز ذراعه حتى
تسقط قطرات من دمه فوق دم الحيوان ، ثم يملأ يده بهذا الدم الممزج
بدمه ويشربه ، ويرتدى ملابسه بعد ذلك • ثم يجلس الصبية القرفصاء
حول زعيمهم • وبعد حديث طويل معه يسمى كل والد ابنه باسم حربى •
فان لم يكن للصبي والد ، فانه يتسلم لقبه من شيوخ كهل يقوم بدور
الأب • ثم يخطب فيهم الزعيم معلنا أنهم لم يعودوا بعد أطفالا ، وانما
أصبحوا جنودا ، ثم يرشدهم الى تبعاتهم الجديدة ، كما يقدم لهم جميعا
لافتة لذروعهم تبرزهم أنهم قد أصبحوا ينتمون الى جماعة واحدة
بعينها • وهنا نلاحظ أن الصبية الذين أصبحوا محاربين في جماعة

واحدة ، قد ارتبطوا جميعا برباط مزدوج من الدم هو عبارة عن دمهم ودم الحيوان المقتول ، اللذين مزجا في جلد الثور ، ثم شرب كل منهم من هذا الدم المختلط نخب فروسيته المستقبلية • وليس هناك مثال يشير بوضوح أبعد من هذا الى صحة وجهة نظر « روبرتسون سميث » ، من حيث أن الغرض من استخدام جلد الثور في الطقس « السيكتياني » هو كذلك ربط المحاربين برباط دموى واحد •

وربما مكنتنا مناقشتنا هذه لعهد ابراهيم ، من اللقاء الضوء حول نقطة مظلمة في تاريخ الكنعانيين • فمنذ اكتشاف الأستاذ « ستيوارت ماكاليستر » في حفرياته في « جيرز » في فلسطين مكانا للدفن يستلفت النظر • وهذا المكان هو ببساطة حجرة اسطوانية يبلغ ارتفاعها عشرين قدما ، واتساعها خمسة عشر قدما • وقد نحنت هذه الحجرة في الصخر وترك مدخلها في قمتها على هيئة فتحة دائرية • ويبدو أن هذه الحجرة كانت في الأصل مخزنا للمياه قبل أن تتحول الى مدفن • وقد عثر في أرض تلك الحجرة على خمسة عشر هيكل آدميا ، أو بالأحرى أربعة عشر هيكل ونصف هيكل • ذلك أنه لم يعثر لهيكل من هذه الهياكل سوى على جزئه العلوى ، في حين لم يعثر على جزءه السفلى • وهذا الهيكل لفتاة تبلغ الرابعة عشرة من عمرها ، وقد قطع جسدها أو نشر من الوسط عند الفقرة الثامنة من عمودها الفقرى عند التجويف الصدرى • وحيث أن الأجزاء الأمامية من المصلوع قد هُشمت عند هذا المستوى ، فإنه من الواضح أن هذا التهشيم قد تم في مرحلة كانت العظام تستند فيها على الأجزاء الرخوة من الجسم • وأما سائر الهياكل فهي هياكل رجال ، اثنان منها لشابين يبلغان من العمر الثامنة عشرة أو ربما التاسعة عشرة والباقي لرجال كاملين النمو معتدلى القوام ، قويى البنية • ويدل وضع الهياكل على أن أصحابها لم يطرحوا في الحجرة من خلال فتحتها العلوية ، وإنما هبط بهم رجال الى داخل الحجرة • كما أنه يعتقد أن كميات الفحم الكبيرة التى عثر عليها بين العظام تدل على أن حفلا جنائزيا أو تضحية أو أى طقس مقدس آخر قد أدى داخل حجرة الدفن • كما نظر علماء الآثار

الى بعض الأسلحة البرنزية الدقيقة، مثل رموس الرماح وفأس وسكين، تلك التي عثر عليها بجانب الجثث ، بوصفها شاهدة، أن هذا الدفن قد حدث قبل ظهور بنى اسرائيل ، أى أن أصحاب هذه الهياكل كانوا ينتمون الى عنصر سبق ظهور العبريين فى فلسطين . كما استدل العلماء من شكل عظام هذه الهياكل وتجاويف الجماجم الواسعة ، ومن أنوفهم المقوسة ، وبعض الخصائص التشريحية الأخرى ، أن الذكور يمثلون نماذج لعنصر لا يختلف عن عرب فلسطين اليوم .

فإذا كان التشابه الجسدى بين هؤلاء الرجال القدماء وسكان فلسطين المعاصرين كافيا لأن يبرر لنا أن نعدهما أفرادا ينتمون الى أصل واحد ، فربما حق لنا أن ننتهى الى أن كليهما ينتمى الى الأصل الكنعانى الذى كان يستوطن فلسطين قبل غزو العبريين لها ، والذى لم ينجح العبريون قط فى إبادته على الرغم من محاولاتهم إخضاعه لسلطوتهم . فوجهة نظر الخبراء أن الفلاحين المعاصرين أو المزارعين الفلسطينيين الذين يتحدثون اللغة العربية ، إنما هم سلالة القبائل الوثنية التى سكنت فلسطين قبل الغزو الاسرائيلى وارتبطوا بأرضهم منذ ذلك الوقت . وعلى الرغم من أن موجات الغزو المتعاقبة على فلسطين قد غمرتهم ، إلا أنها لم تنجح فى القضاء عليهم . فإذا كان الأمر كذلك ، فإنه يحق لنا أن نفترض أن الهيكل النصفى للفتاة الذى عثر عليه فى « جيزر » ، يعد أثرا باقيا لعادة التضحية بانسان ، تلك العادة التى لعبت دورا بارزا فى الديانة الكنعانية . ونحن نستدل على ذلك بالعادة المشابهة لها التى أشار اليها الأنبياء العبريون ، وكتاب العصور الكلاسيكية القديمة . وقد دعم هذا الافتراض ما عثر عليه من هياكل أطفال عثر عليها فى « جيزر » محفوظة فى جرار تحت أرض المعبد ، فقد اعتقد الباحثون فى العادة ، أن هذه المخلفات تشهد على عادة التضحية بالأبن الأول تكريما للاله المولى . وقد عثر على مزيد من هؤلاء الأطفال المدفونين فى جرار حول معبد منحوت فى الصخر فى بلدة « تعنك » فى فلسطين ، وقد فسر تحنيط هؤلاء الأطفال على النحو الذى أشرنا اليه .

ولكن اذا كان هيك الفتاة الذى عثر عليه فى مقبرة « جيزر » ،
يمثل حقا بقايا عادة التضحية بانسان فما زال علينا أن نتساءل : لماذا
شق جسد الفتاة أو نشر على هذا النحو ؟ ان عهد ابراهيم الذى نقيس
عليه وبالمثل الطقوس المتشابهة التى نتحدثنا عنها ، تشير الى أن شطر
الفتاة الضحية الى شطرين ربما كان يقصد به الوقاية الجماعية ، أو
التصديق على عهد • أو أننا نفترض — حتى تكون أكثر وضوحا من
هذا — أن جسد البنت قد قطع الى نصفين وأن الناس مروا بين هذين
النصفين ، اما بقصد تضليل قوى شريرة كانت تعيش بينهم أو تتهددهم
أو بقصد تأكيد معاهدة سلمية تأكيدا يتسم بالرهبة • ولنبدا الآن بالتفسير
التطهيرى أو الوقائى •

لقد سبق أن رأينا أنه عندما استولى « بيليوس » على مدينة
« أولكس » قيل : انه أسر زوجة ملك المدينة وقطعها الى نصفين وترك
جيشه يمر بين هذين النصفين قبل أن يدخل المدينة • ولا يبدو أن هذه
العادة المتوارثة من قبيل الاختراع الصرف ، وربما كانت بقايا عادة
بربرية متخلفة كان يتبعها الظافرون عند دخول المدينة المنحدرة ، ونحن
نعلم أن الانسان فى العصور الأولى كان يخشى كل الخشية من سحر
الغرباء ، وأنه كان يقوم باحتفالات عديدة لكى يحصن نفسه ضد هذا
السحر ، سواء عندما يسمح لغرباء أن يدخلوا بلده ، أو عندما يخطو
هو نفسه الى أرض قبيلة أخرى • وربما كان خوف مشابه لهذا من
سحر الأعداء يدفع المنتصر أن يصطنع احتياطات غريبة بقصد حماية
نفسه وجيشه من مكائد أعدائه ، وذلك قبل أن يجرؤ على دخول المدينة
التي استولى عليها منهم بسيفه • وربما تمثل هذا الاحتياط الغريب
فى أسر أسير ، وشق جسده أو جسدها الى نصفين ، وجعل الجيش
يمر بين النصفين وهو فى طريقه الى المدينة • ووفقا لتفسير السر
المقدس لهذا الطقس ، فإن التأثير الذى يحدثه المرور بين جزئى الضحية
من شأنه أن يخلق عهدا دمويا بين الظافرين والمنهزمين معا ، ومن ثم
فهو يؤمن المنتصرين ضد كل المحاولات العدائية من جانب المنهزم •

وهذا يفسر ما قام به « بيليوس » عند دخوله مدينة « أولكس » . عندما أسر الملكة وشق جسدها الى شقين ، فقد كان هذا الاجراء وسيلة مقدسة لخلق وحدة بين الغزاة والمغزويين . فاذا كان هذا التفسير مقبولا ، فإنه يتبع هذا فيما يبدو ، أن يكون هناك توافق بين وجهات نظر الطقوس التطهيرية أو الوقائية وطقس عقد العهد ، فالغزاة يطهرون أو يحمون أنفسهم من تأثير أعدائهم الشرير بالدخول ضمنا معهم في عهد دموى .

ومن المحتمل أن عادة سامية مشابهة لهذه العادة يمكن أن تفسر هيكل الفتاة المشطور الذى عثر عليه في « جيزر » . ونستطيع أن نحكم من خلال البقايا الآدمية التى عثر عليها في هذا المكان ، أن المدينة احتلتها أجناس مختلفة من عصور مختلفة ، ففي العصور الاولى احتلها قوم قصار الجسم أقوياء البنية ، نحفاء ، ذوو رعوس بيضاوية ، لا ينتمون الى العائلة السامية ، بل انهم لا صلة لهم بأى جنس من أجناس البحر الابيض المتوسط . فاذا كان الكتعانيون قد غزوا هذه المدينة فيما بعد ، هؤلاء الذين إستوطنوها فيما بعد ، فربما احتفلوا بدخولهم المدينة بأن أسروا الملكة أو أية امرأة أخرى وقتلوها وشقوا جسدها الى نصفين ومروا بينهما وهم فى طريقهم الى المدينة . ولكن كيف نفسر في هذه الحالة عدم وجود النصف السفلى من جسد الفتاة ؟ اننا لسنا فى حاجة لأن نفترض ، كما افترض المستكشفون ، أن الغزاة الكانيياليين قد أحرقوه أو التهموه . وانما ربما دفن هذا الجزء فى مكان آخر ، ربما فى المكان المواجه لهذا المكان من البلد ، وذلك بقصد نشر مفعول سحر الضحية فى كل المساحة الواقعة بين المكانين ، حتى تصبح المدينة بأسرها آمنة بالنسبة للغزاة ويكونون فى الوقت نفسه فى مأمن من ضربات أعدائهم . وقد قيل ان ملكا قديما من ملوك بورما قد أكسب مدينته الحصانة ، بأن قطع جسد خائن الى أربعة أقسام ، ودفن كل جزء فى ركن من أركان المدينة . وعبثا حاول أخو الخائن أن يستولى بجيشه على المدينة . وقد ظل يحاول ضربها

دون جدوى ، حتى أخبرته أرملة القتل أنه لن يتمكن من الاستيلاء على المدينة طالما كان جسد زوجها يحرس أسوارها • عند ذاك أخذ الأخ يحفر الأرض بحثا عن أشلاء أخيه حتى عثر عليها • بعد ذلك استسلمت المدينة دون مقاومة • وشييه بهذا الطقس ما يتبعه « اللوشاين » في « أشام » عندما تكون المرأة في حالة الوضع • فلكى يخفف عنها أصدقائها آلام الوضع يأتون بدجاجة ويذبحونها ويشطرونها شطرين متساويين • أما الشطر الذى يحتوى على الرأس فيوضع عند الطرف الشمالى من المدينة مع سبعة عيدان من الخيزران توضع فى شكل حزم • وأما الجزء السفلى من الدجاجة فيوضع عند الطرف الجنوبى من القرية مع خمس حزم من الخيزران • وفضلا عن ذلك فإن جرعة من الماء تقدم للمرأة لتشربها • ويطلق على هذه الشعائر اسم « أرثى - بومفيلنا » ، ومعناه : « فتح البطن بمساعدة دجاجة » ، لأنهم يعتقدون أن شطر الدجاجة الى شطرين يسهل عملية الولادة • على أنه لم يذكر شىء عن الوسيلة التى يحدث بها هذا الطقس هذا التأثير المفيد ، ولكننا نحس أن الناس يعتقدون أن جزئى الدجاجة الموضوعين عند طرفى القرية يحرسان المساحة الواقعة بين المكانين من غزو القوى الشريرة ، وبخاصة تلك القوى الشيطانية التى حاولت ذون ولادة الطفل •

وربما تأكد هدف التطهير أو الحماية من التضحية بالفتاة التى عثر عليها فى « جيزر » ، باكتشاف آخر تم فى المكان نفسه • فقد كشفت الحفريات المتأخرة فى هذا المكان عن نصف هيكل غلام فى السابعة عشرة من عمره • وقد شق جسد هذا الغلام كما حدث مع الفتاة ، من وسطه بين الضلوع وتجويف الحوض • ولم يعثر كما هو الحال مع الفتاة ، على الجزء السفلى من جسد الغلام • والى جانب الهيكل النصفى للغلام عثر على هيكلين كاملين لرجلين ، الى جانب مجموعة من الأواني الفخارية وضعت فوق الهياكل ومن حولها • وقد

عثر على هذا الكشف تحت أساس بناء ، ان لم يكن أسفله مباشرة •
ومن ثم فقد أشار الأستاذ « ستيوارت ماكاليستر » الى أن هذه
المهاكل هي بقايا جثث آدمية ضحى بأصحابها وفقا للعادة المنتشرة ،
ودفنوا تحت أساس البناء لا كسابه قوة ومناعة أو لحماية من الاعداء •
وتتضح هذه العادة كل الايضاح من خلال نماذج مستمدة من بلاد
متعددة ، بحيث أننا نرى أنه ليس ن الضروري أن نسهب في ايضاحها ،
وانما سأكتفى بتقديم مثال واحد سجله شاهد عيان • وقد حرصت
على تقديم هذا المثال لأنه يشير بوضوح الى سلسلة التفكير التلى أدت
الى رسوخ هذه لعادة • فقد عاش بحار انجليزى هارب منذ سبعين
أو ثمانين عاما مضت ، طيلة عامين وحده بين « الفيجيانيين » الذين
مازالوا متبربرين ملحدين • وقد خلف لنا هذا البحار حكاية تجاربه
الساذجة وان كانت لا تخلو من قيمة • فبينما كان يقيم مع هؤلاء
المتبربرين ، تصادف ان كان بينى بيت الملك أو الزعيم المحلى • ثم
أبصر « جاكسون » ذات يوم ، بينما كان يقف بالقرب من مكان البناء
رجالا يساقون ويدفنون أحياء فى الجحور التى كان سيقام فيها أعمدة
البيت • وقد حاول الأهالى أن يصرفوه عن رؤية هذا المنظر ، ولكنه
أسرع الى أحد هذه الجحور ، حتى لا تتم عليه الخديعة ، فأبصر رجلا
يقف فى الجحر ويداه تعانقان العمود ورأسه مازال بارزا من بين
التراب • فلما سأل الاهالى عن سبب دفنهم لرجال أحياء عند أسفل
الأعمدة ، أجابوه بأن البناء لا يصمد طويلا مالم يمسك الرجال بدعائمه
على الدوام • فلما سألهم : وكيف يتسنى لهؤلاء الرجال أن يمسكوا
دعائم البيت بعد أن يموتوا ، أجابوه : بأنه اذا ضحى الرجال بأرواحهم
فى محاولة الامساك بالأعمدة فان فضيلة التضحية تحض الآلهة على
المحافظة على سلامة البناء بعد أن يموت الرجال •

وهذا المجرى من التفكير يصلح تماما لأن يفسر وضع هيكل
الذكرين اللذين عثر عليهما تحت أساس البناء فى « جيزر » ، ذلك أن
أحد هذين الهيكلين قد عثر عليه وهو يمد يده الى آنية ، كما لو كان

يعين نفسه على تناول الطعام وبذلك يصبح قادراً على القيام بهذا العمل الشاق وهو الامساك بالحائط . ولكنه ليس من اليسير على هذا النحو أن نفسر وجود نصف هيكل الغلام الذي عثر عليه في المكان نفسه ، ونصف الفتاة الذي عثر عليه في المقبرة الاسطوانية . لأنه اذا كان الشخص حقاً مكلفاً بحمل أساس البناء حتى لا يهوى ، فمن الطبيعي أن يختار لهذا العمل المصنئ رجالاً أشداد . ولكن كيف يقوم نصف جسد صبي ونصف جسد فتاة بهذا العمل ، وكيف يمكن للحائط أن يقف راسخاً وهو يرتكز على صبية وفتيات ليس لذيهم أرجل ؟ ومن ثم فإن النظرية التي تقبل أن هؤلاء الضحايا قد قتلوا وشقت أجسادهم إلى نصفين بقصد تقديمهم ضحية لأساس البناء ، لا يمكن أن تكون مقنعة .

والى هذا الحد ينتهى نقاشنا حول نظرية الوقاية أو التطهير في تفسير وجود هذه الهياكل الغامضة التي عثر عليها في « جيزر » .

ولنتنقل الآن الى مناقشة نظرية العهد لفرى ما اذا كانت أكثر ملاءمة لهذه الحقائق . ووفقاً لهذه النظرية أن الغلام والفتاة قد قتلوا وشطر جسداهما إلى شطرين ، لا بقصد تطهير البناء من الأرواح الشريرة أو حمايته منها ، وإنما بقصد التصديق على عهد من العهود ، وذلك بأن يمر الطرفان المتعاهدان بين شطري القتل ، تماماً كما كان العبريون يصدقون على العهد بأن يمروا بين شطري العجل المذبوح . وربما أيدت الموازنة التالية وجهة النظر هذه . لقد سبق أن رأينا قبيلة « الواتشاجا » التي تسكن أفريقيا الشرقية ، تخلع الرهبة على العهد أو هدنة السلام التي تعقد بين طرفين ، بأن يشطر جدى حي وحبل بضربة واحدة ويدعون في الوقت نفسه على من يحنث باليمين بأن ينشق جسده إلى نصفين كما انشق الجدى والحبل معا . ولكن قيل أن هذه القبيلة كانت تتبع وسيلة أخرى في عقد الحلف ، وأن هذه الوسيلة كانت تعتمد منذ العصور البالغة في القدم ؛ فهم يأخذون غلاماً وفتاة ويطلب منهما أن يطوفا ثلاث رات أو سبع مرات حول

المتعاهدين المجتمعين ، بينما تتلى دعوات اللعنة أو البركة لتحل تباعا على من يحنث باليمين أو يبقى عليه • ثم يشطر الغلام والفتاة الى شطرين من الوسط ، وتدفن أجزاءهما الاربعة عند حدود الحيين اللذين يسكنهما الطرفان المتعاهدان • ثم يسير ممثلون من كلا الطرفين على قبر القتيلين ، ثم يتفرقون بعد ذلك عائدين الى بيوتهم • والفكرة في هذه الشعائر ، فيما قيل لنا ، هي تلك اللعنة المتضمنة التي تحل بحانث اليمين ، فينشق جسده الى شقين كما حدث للغلام والفتاة ، وأن يموت دون أن يختلف وراءه ذرية كما حدث للغلام والفتاة كذلك • وقد قيل انه لكي نفهم المغزى العميق لهذه اللعنة ، فمن الضروري أن نعرف ما تحتوى عليه ديانة « الواتشاجا » من عبادة أرواح الأجداد • فالرجل الذي يتوفى دون أن ينجب أبناء ، لن يترك وراءه من يقوم بتقديم الضحية له التي تعد الوسيلة الوحيدة لاستقبال الأموات له استقبالا حسنا ، وتضمن له تأييدهم على الدوام •

والرجل الذي يموت دون أن يخلف وراءه ذرية قد كتب عليه أن يعيش الى الأبد حياة الوحدة في العالم الآخر ، فلا يجد من يلبي رغبته في تناول قطعة من لحم البقر يشبع بها رمقه ، أو جرعة من الجعة يروى بها ظمأه ، ذلك أن الجعة ولحم البقر ولحم الضأن هي الأشياء التي ترغب الأرواح الراحلة في تسلمها من أيدي أقربائهم الأحياء •

فاذا كانت الموازنة بين طقوس « الواتشاجا » والطقوس السامية تتفق فيما بينهما ، فانها تهيب لنا أن نفهم السبب في شطر الضحايا التي عثر عليها في « جيزر » وأن نفهم لماذا كانت هذه الضحايا غلاما وفتاة وليس رجالا وامرأة كاملي النمو • فلنسنا في حاجة سوى أن نفترض أنهما قد قتلا وشطرا الى شطرين بقصد التصديق على عهد مقدس ، وأن الطرفين المتعاهدين قد مرا بين شطريهما ، وأن كلا منهما قد أخذ نصف الغلام أو نصف الفتاة وعاد به الى بلده كضمان

لصدق الآخر في عهده ، تماما كما حصل كل طرف من الطرفين المتعاهدين في قبيلة الواتشاجا على نصف الحبل كضمان لصدق الطرف الآخر في عهده . واذا كنا قد أشرنا الى أنه قد عثر في « جيزر » على نصفى الغلام والفتاة وأن كلا النصفين هو النصف العلوى من الجسدين ، فليس بمستبعد كلية أن المزيد من الحفريات المستقبلية في فلسطين قد يكشف عن مصير الجزئين السفليين من جسديهما اللذين حملهما معه الطرف الآخر من الطرفين المتعاهدين الى بلده ودفنهما هناك . وأكثر من هذا فربما استطعنا أن ندرك الآن لماذا وقع الاختيار على الغلام وفتاة لكى يقدموا ضحية ، ولم يقع على رجل وامرأة . واذا كانت الموازنة بين الشعائر العبرية وشعائر « الواتشاجا » تقوم على أساس سليم فان الهدف من وراء هذا الاختيار هو اللغة الضمنية ، فيموت من يجنث بالقسم دون أن يخلف وراءه ذرية ، كما مات الغلام والفتاة اللذان مر المتحالفون بين أجزاء جسديهما من قبل أن ينجبا ذرية . واذا تذكرنا رغبة الساميين الملحة في انجاب الأطفال ، استطعنا أن ندرك هول تلك اللغة بالنسبة للمتعهدين ، وبالتالي مدى حرصهم على الارتباط بالعهد .

وأخيرا ، فان من الجدير بالنظر ، أن الموازنة بين شعائر الواتشاجا عند عقد العهد بالشعائر العبرية التى تقام فى مثل هذه المناسبات سواء كانت الضحية التى تشطر الى شطرين هى جدى أو انسان ، فان هذه الموازنة من شأنها ان تدعم التفسير الجزائى فى الطقوس العبرية ، حيث أن المثالين اللذين أشرنا اليهما عند قبيلة « الواتشاجا » فهم منهما أن شطر الضحية الى شطرين يرمز الى مصير الحانث باليمين . ومع ذلك فما زال الباب مفتوحا لأن نفس المرور بين أجزاء الضحية على نحو ما أشار اليه « روبرتسون سميث » ، أعنى أن هذا المرور يعد وسيلة للربط بين الأشخاص والضحية بقصد إكساب هؤلاء الأشخاص صفات خاصة يظن أن الضحية تمتلكها ، كما يظن أنها تنتقل الى هؤلاء الذين يدخلون فى رباط مع الحيوان ، إما عن طريق المرور خلال

أجزاء جسده أو بأى وسيلة أخرى كأن يلطخ الاشخاص أنفسهم بدمه ، أو يرتدى جزءا من جلده • وفى حالة عقد العهد ، فان الغرض من ربط المتعاهدين بالضحية هو التأكد فيما يبدو ، وذلك عن طريق السحر 'المتبادل' ، أنه اذا حث أى طرف من الطرفين المتعاهدين بيمينه ، فان مصيره سيكون كمصير الضحية ، فالسحر المتبادل اذن هو الذى يخلق بين المتعاهدين والضحية قوة تربطهم وتكون أكبر ضمان على تحقيقه •

وبناء على ذلك ، فاذا صح تحليلنا لعهد ابراهيم ، فان الشعيرة التى قام بها تتكون من عنصرين متميزين ، وان كانا متلازمين ، أما العنصر الأول فهو شطر الضحية الى شطرين ، وأما العنصر الثانى فهو مرور المتعاهدين بين أجزاء الضحية • والعنصر الأول يفسر بنظرية الجزاء ، وأما العنصر الثانى فيفسر بنظرية السر المقدس وكلتا النظريتين تكمل احدهما الاخرى ، كما أنهما معا تقدمان تفسيراً متكاملًا لهذه الشعيرة •

الفصل الثاني

ارث يعقوب

أو نظام وراثة

الابن الأصغر

١ - آثار وراثة الابن الأصغر عند بنى اسرائيل :

ان الروايات التى تتعلق بشخصية « يعقوب » تعد أكثر اكتمالا من تلك التى تتعلق بشخصية أبيه « اسحق » وجده ابراهيم . وهى فضلا عن ذلك ، أكثر غنى فى مادتها الفولكلورية ، أى فيما تكشف عنه من بقايا معتقدات وعادات قديمة ، وقد كان من الطبيعى أن تتجمع فى شدة ، الذكريات والخيالات حول شخصية الجد البطل الذى يغسب اليه بنو اسرائيل سواء من ناحية الاسم أو من ناحية الدم .

ومع ذلك فان شخصية الجد الكبير ، كما تصور فى سفر التكوين ، ليس فيها ما يمتع القارئ الحديث أو يجذبه اليها الا القليل ، كما أنها تتعارض بطريقة غير مستحبة مع الوقار الذى اتسم به جده ابراهيم ، كما تتعارض مع الورع التأملى الذى اتسم به أبوه اسحق . فإذا كان ابراهيم يعد مثالا للشيخ السامى الذى تميز بالشجاعة والكرم والجلالة واللفظ ، فان يعقوب كان مثالا للتاجر السامى اللين الحذق ، والوافر الحيلة ، الذى يحرص على المكسب ، وعلى أن يتم صفقاته لا بالقوة ، بل بالحذق ، دون أن يتردد كثيرا فى اختيار الوسائل التى يبرز بها منافسية ويتفوق بها عليهم . هذا الجمع غير المرغوب فيه بين

الجشع والمكر ، تكشف عن نفسها في الحوادث المبكرة في حياة يعقوب التي دونها سفر التكوين ، أعنى تلك الحيل التي سعى عن طريقها لأن يخدع أخاه الأكبر عيسو ، ويسلب منه حقه في الارث ، كما يسلبه من بركة أبيه . فقد كان يعقوب وعيسو توأمين ، ولكن حيث أن عيسو كان أكبر الأخوين ، فقد كان من حقه وفقا للنظام الشائع ، أن تخضع عليه بركة أبيه ، وأن يرثه . أما الوسائل التي سعى يعقوب عن طريقها أن يسلب أخاه الأكبر من حقوقه ، فكانت ببساطة مواقف حادة من المؤامرات ، فقد استغل في بداية الأمر جوع أخيه ، فاشترى منه حقه في الوراثة مقابل أكلة من الثريد ، ثم ارتدى بعد ذلك ملابس أخيه واصطنع ملمس جلده الكثيف الشعر ، ثم تظاهر لأبيه الكفيف أنه هو عيسو وبذلك اغتصب بركة أبيه التي كان يعنى بها أخوه . حقا ان الموقف الثانى من الخديعة التي تمت على الأب الكهل ، لم تكن من صنع يعقوب ، وانما اوحى به اليه أمه « رفقة » التي كانت تسمى قبل زواجها « لبيبة » ، وذلك لكي تختبر مهارتها في خداع زوجها . ومع ذلك ، فان استعداد يعقوب السريع في تقبل الخدعة ، يبرهن على أنه ما كان يعوقه في خداعه لأبيه شعور بالود وإنما كان الميل إلى الحيلة السريعة يغلب كل إحساس طيب عنده .

وقد يثير مثل هذا التواطؤ في مرحلة معينة من التطور الأخلاقي بعض الاستهجان ، وقد لا يثير هذا الاحساس على الاطلاق ، اللهم بين الذين يعانون منه . فقد يميل الشخص غير المتحيز المعاصر لهذا الفعل ، الى أن يثنى على هذا التواطؤ الذى يدل على المهارة والذكاء اللذين مكنا صاحبهما من الانتصار على شخصية لا تتسم إلا بالصدق والغباء . ولكن بعد أن تغيرت المقاييس الأخلاقية ، فقد أصبح الرأى الجماهيرى يقف في صف الصادق الغبى ، ويولى ظهره لمثل هذا الانسان الماهر الحاذق . ذلك أن التجربة قد أثبتت أن أى تواطؤ مهما تكن درجة ذكاء صاحبه وبعد نظره ، فانه لا يسىء الى الأفراد فحسب ، وانما يسىء

الى المجتمع بوصفه كلا ، وذلك لأنه يخلخل رباط الثقة المتبادلة بين الناس ، تلك الثقة التي تربط وحدها بين جماعة الناس في وحدته واحدة . وبعد أن عرفت هذه الحقيقة بوجه عام ، بدأ المؤرخون يقيمون أعمال الرجال في العصور الماضية بمقاييس أخلاقية لم يكن يتسنى لهؤلاء الرجال المخادعين أنفسهم أو لمعاصريهم أن يستخدموها في الحكم على أفعالهم . فاذا وجد الناقد الطيب أن الشخصيات البطولية التي عاشت في الزمن الماضي تهبط دون هذا المستوى الأخلاقي ، فإنه ، بدلا من أن يعترف صراحة بالبلون الشاسع الذي أوجده التطور الاخلاقي بينه وبين هذه الشخصيات ، فإنه يحاول ان يتغافل هذا ، بالتماس المعاذير لهم ، وادعاء المبررات التي يرفضها هو نفسه بقاء على مقاييسه الاخلاقية فالليل الى تبرأة الفرد من الأعمال الشائنة ، اذا كان دافعه القلب الطيب وليس الغرور الكاذب في ادعاء المتناقضات ، يعد عملا جديرا بالاكبار ، وربما كان غير مؤذ غيره ، وهو في ذلك يختلف عن المحاولة الاخرى التي تهدف الى طمس أكثر الشخصيات شهرة ، حيث أن مثل هذا العمل البغيض وان يكون مألوفا ، لا يصيب الشخص البريء بضربة في ظهره فحسب ، وانما يسيء الى المجتمع كذلك ، ويهبط بمستواه الأخلاقي ، حيث أنه يسلبه نماذج للفضيلة قلما نعرث عليها . وربما كان التأمل في هذه النماذج أكثر ملاءمة للانسان الذي يتوق الى مثل الفضيلة ويعجب بها ، من الكثير من الأبحاث التجريدية التي تتحدث عن الفلسفة الأخلاقية .

وفي السنوات المتأخرة أخذ مواطن يدعى « يوسف يعقوب » على عاتقه مهمة الدفاع عن شخصية يعقوب ، فقد حاول أن يزيل تلك الوصمة عن الجد النبيل ، بأن أشار الى أن يعقوب ، وفقا للقانون القديم ، كان أحق بالارث ، بوصفه الابن الأصغر ، وأن الاحتيال الذي لجأ اليه للحصول على مآربه ، وفقا للرواية العبرية ، ليس سوى تفسير خاطيء من قبل المؤرخ لعملية لم يفهما هذا المؤرخ نفسه .

ولست أود أن أخاطر بالقول بما إذا كان هذا الاعتذار سليماً أم غير سليم ، ولكن من المؤكد أن مثل هذا القانون الوراثة القديم كان ينتشر ، كما افترض هذا المدافع عن يعقوب ، بين كثير من الشعوب ، وليس هناك ما يدعيه لأن نفترض أنه لم يكن منتشراً في هذا الزمن البعيد بين أجداد بنى إسرائيل • وقد عرفت هذه العادة أو القانون ، باسم حق الابن الأصغر ، أو حق وراثة الابن الأصغر ، وذلك في مقابل حق وراثة الابن الأكبر ، لأن الارث يؤول وفقاً لهذا القانون ، إلى الابن الأصغر بدلاً من الابن الأكبر • وفي هذا الفصل أود أن أوضح هذه العادة من خلال الأمثلة ، وأن أبحث أصلها •

ولنبداً بالبحث عن آثار أخرى ممكنة لحق الابن الأصغر أو حق وراثة الابن الأصغر في العهد القديم نفسه • وربما كان أول ما يسترعى نظرنا أنه إذا كان يعقوب قد سلب أخاه الأكبر حقه ، فإنه لم يفعل إلا ما فعله أبوه اسحق من قبل • ذلك أن اسحق كذلك كان ابناً أصغر ، وكان قد عزل أخاه اسماعيل من حقه في وراثة أبيهما إبراهيم • وهذا الذي اتبعه يعقوب في معاملته لأخيه وأبيه ، إذا كان من المستطاع أن نسميه مبدأ ، يبدو أنه أتبعه بعد ذلك مع أبنائه وأحفاده • فقد قيل لنا : إن يعقوب كان يحب يوسف أكثر من أبنائه الكبار ، « لان يوسف كان ابن شيخوخته » • ولقد أبدى تفضيله ليوسف بطريقة أثارت الحقد في قلوب أخوته الكبار ، إلى درجة أنهم دبوا مؤامرة للقضاء عليه • حقا ان يوسف ، وفقاً لرواية التوراة التي بين أيدينا ، لم يكن أصغر أبناء يعقوب ، حيث أن « بنيامين » قد ولد من بعده • ولكن ربما افترضنا أن يوسف كان حقيقة هو الابن الأصغر في الرواية الأصلية • فالعاطفة القوية التي أبدتها نحوه أبوه ، والرداء ذو الألوان المتعددة ، أو بالاحرى الرداء ذو الأكمام الطويلة التي كان يميزه بين أخوته ، ثم تلك المكانة المرموقة التي تمتع بها بعد هذا كله ، كل هذا يؤيد أن يوسف كان أحب

أبناء يعقوب إليه • ولكننا نجد من ناحية أخرى أن اسم « بنيامين » أصغر أبناء يعقوب معناه « ابن اليمين » • وهذا اللقب الذي يبرز بنيامين بوصفه صاحب الحق الشرعي في الارث ، تؤيده الرواية المشهورة التي تحكى أن يعقوب عندما كان يبارك حفيديه ، ولدى يوسف ففضل متعمدا (١) حفيده الأصغر على الأكبر ، بأن وضع يده اليمنى على رأس حفيده الأصغر « أفرايم » ، ويده اليسرى على رأس حفيده الأكبر « منسى » ، وذلك على الرغم من معارضة أبيهما يوسف الذى قدمها لأبيه فى وضع بحيث يكون الابن الأكبر مقابل اليد اليمنى ، والابن الأصغر مقابل اليد اليسرى • ولكن الشيخ اضطر الى أن يضع يده على صدره فى وضع متقاطع ، حتى تصل يده اليمنى الى رأس حفيده الأصغر ، ويده اليسرى الى رأس حفيده الأكبر • ومن ثم فإن الباحث الذى أخذ على عاتقه الدفاع عن يعقوب ، يمكنه أن يقول بحق أن يعقوب كان يتمسك على الأقل فى أثناء حياته ، بمبدأ تفضيل الأبناء الصغار على الكبار ، وأنه كان يفعل هذا المبدأ عندما يجد أنه لا يخدم أغراضه الشخصية •

على أن هناك شواهد أخرى تؤيد هذا المبدأ ، وبتعبير آخر تشهد على أن عادة حق الابن الأصغر القديمة ، أو حقه فى الارث كانت متبعة فى بنى اسرائيل • فنحن نقرأ فى سفر التكوين أن « تamar » ابنة يهوذا أنجبت ولدين توأمين ، أحدهما كان يدعى « فارص » والآخر « زارح » وعلى الرغم من أن « فارص » كان هو الأسبق فى ولادته ، فإن هناك رواية غريبة تحكى عن ميلاد الطفلين وتميل الى أن تؤكد أن « فارص »

(١) « فلما رأى يوسف أن أباه وضع يده اليمنى على رأس أفرايم ، ساء ذلك فى عينيه • فأمسك بيد أبيه لينقلها عن رأس أفرايم الى رأس منسى • وقال يوسف لأبيه ليس هذا يا أبى ، لأن هذا هو البكر • ضع يمينك على رأسه • فأبى أبوه وقال علمت يا بنى علمت • هو أيضا يكون شعبا وهو أيضا يكون كبيرا ، ولكن أخاه الصغير يكون أكبر منه ، ونسله يكون جمهورا من الأمم » .

(سفر الخروج • الاصحاح الثامن والأربعون من آية ١٧ الى ١٩) •

كان حقا ، شأنه شأن يعقوب وأخيه عيسو ، أصغر الطفلين وليس أكبرهما كما يظن ذلك بعض الناس • على أنه لا يبدو من ظاهر الرواية أن « فارص » كان هو الأصغر ، ولكن هذا يتضح اذا تذكرنا أن «فارص» كان الجد المباشر للملك « داود » وأن « داود » نفسه كان أصغر أبناء أبيه ، وقد رشحه « صموئيل » عن عمد للملك مفضلا إياه على كل أخوته الكبار • ومن ثم فإن هدف حكاية سفر التكوين من ذكر التفاصيل التي قد تبدو غير أساسية في الحكاية ، ان لم تكن عارضة ، عن ميلاد التوأم، هو فيما يبدو اثبات أن الملك داود لم يكن أصغر أبناء أبيه فحسب ، بل ينتسب كذلك الى أحفاد يهوذا ، أصغر التوأمين • وقد أورث داود بدوره الملك من بعده الى أحد أصغر أبنائه وهو سليمان ، وأبعد عن عمد أحد أبنائه الكبار وهو « أدونيا » ، الذي كان قد طالب العرش • وإذا اجتمعت معا كل هذه الحقائق ، فقد تثير افتراض أن عادة إرث الابن الأكبر ، أو تفضيل الابن الأكبر على أخوته قد تلت ، عند الاسرائيليين ، عادة حق ارث الابن الأصغر ، أو عادة تفضيله على أخوته ، بوصفه وريثا لأبيه • وقد يتأكد هذا الفرض اذا رأينا أن عادة مشابهة لهذه العادة كانت تنتشر في بقاع كثيرة من جهات العالم •

٢ — حق الابن الأصغر في الميراث في أوروبا :

ومن بين هذه البلاد التي اتبعت هذه العادة وما تزال تتبعها ، بريطانيا • فما تزال هذه العادة القديمة ، او كانت حتى عهد قريب ، هي قانون الأرض في كثير من جهات انجلترا • وهذا القانون يعرف باسم Borough English وقد استمد هذا الاسم لتلك العادة من كلمة محلية استخدمت في محاكمة من المحاكمات تمت في زمن « إدوارد الثالث » • اذ يبدو من تقرير في الكتاب السنوى في السنة الاولى من حكم الملك « إدوارد الثالث » أنه كان في « توتنجهام » اقطاعيتان اسم احدهما Borough English ، والأخرى Borough French وقد كانت المساكن

كلها تؤول في ظل نظام الاقطاعية الأولى الى أصغر الأبناء ، كما كانت تؤول في ظل نظام الاقطاعية الثانية الى أكبر الابناء . وقد قيل ان نوتنجهام ظلت حتى عام ١٧١٣ م منقسمة الى الاقطاعية الانجليزية والاقطاعية الفرنسية ، وان دل اقطاعية كانت تسير وفقا لعاداتها . بل ان عادات مشابهة لهاتين العادتين ما تزال تنتشر في الأقاليم المجاورة لهما .

أما عن الأماكن التي كانت ينتشر فيها نظام Borough French أو نظام حق الابن الأصغر في الارث ، في انجلترا ، فكانت تنتشر على وجه التقريب على طول امتداد الشاطئ السكسوني « واسن » الى الأماكن المجاورة لـ « سولنت » بما في ذلك ممتلكات الكونت الجنوبية الشرقية بأسرها . ولكي نكون أكثر دقة ، فان هذه العادة كانت أكثر ما تكون انتشارا في « كنت » و « ساسكس » و « ساري » وفي مجموعة الأقاليم التي كانت تحيط بلندن القديمة . كما أنها كانت أقل انتشارا في « اسكس » ومملكة « ايسيت انجيليان » . وقد كانت تنتشر بصفة عامة في « ساسكس » بالنسبة للأراضي التي تمتلك بالالتزام ، بحيث أنها كانت تسمى القانون العام للمقاطعة . أما في منطقة « ريب لويس » فكانت تنتشر على وجه لتقريب انتشارا عاما بحق . وهناك أمثلة قليلة تدل على انتشار هذه العادة في « همبشاير » ، ولكن كان هناك جزء كبير من « سومرست » يقع في أقصى الغرب ، وهو عبارة عن مساحة متصلة من الأرض ، يخضع لعادة قصر الارث على الابن الأصغر . وكانت هذه العادة تقل نسبيا في « مقاطعة ميدلاند » ، فهي تنتشر في وحدة ادارية من بين كل وحدتين إداريتين أو ثلاث ، في حين أنها تنتشر في أربع من المدن من بين المدن الخمس الدنماركية الكبيرة وهي : « ديربي » و « ستامفورد » و « لايكستر » ، و « نوتنجهام » . بالإضافة الى بعض المقاطعات المهمة الأخرى مثل « ستامفورد » و « جلاوسستر » . ويبدو أن هذه

العادة لم تكن معروفة في الشمال في مجموعة المقاطعات التي كانت تقع بين « همبر » و « ميرسي » ..

على أن هذه العادة لم تكن مقصورة على الأماكن السكسونية في إنجلترا ، بل كانت تنتشر كذلك في البلاد الكلتية مثل « كورنول » و « ديفون » و « ويلز » • وتقضى قوانين « ويلز » القديمة بأنه « إذا تقاسم الأخوة الارث ، فان أصغرهم يملك المسكن وما يتبعه من أرض ومنشآت وكل منشآت الأسرة ، وثمانية فدادين على وجه التقريب ، كما يملك البلطة والمرجل والمحراث ، اذ أن الأب لا يمكن أن يمنح هذه الأشياء الثلاثة الا الى أصغر أبنائه • فإذا كانت هذه الأشياء مرهونة ، فانها لا تستبعد من الارث على الاطلاق » • أما قانون ويلز فلا ينص في حق الابن الاصغر في الارث الا على العقار والأرض ، وهو عندئذ يرث بيتا مأهولا على الأقل • فاذا وزعت سائر الممتلكات بين الاخوة ، فلا يتمتع الابن الأصغر بأى استثناء في ذلك • ويبدو أنه ليست هناك أية شواهد تشير الى انتشار عادة حق ارث الابن الاصغر في أى مكان في اسكتلنده ، ولكنه كان من المألوف في جزر « شتلاند » ، أن يرث الابن الأصغر ، ذكرا كان أم أنثى ، عند تقسيم التركة ، مسكن الأبوين •

ويبدو أن عادة حق ارث الابن الأصغر كانت مرتبطة في القانون الانجليزي القديم بسيطرة السادة على ملكية الارض • وقد كتب الى الأستاذ الراحل « ف.و. ويتلاند » حول هذا الموضوع فقال : « أما عن انتشار عادة حق ارث الابن الاصغر ، فقد اطلعت على كثير من شواهدا في الوثائق التي ترجع الى القرن الثالث عشر • وسواء أكانت هذه الوثائق مطابقة للحقيقة أم لا ، فانه ينظر اليها على الدوام بوصفها شاهدا ، ان لم تكن دليلا قاطعا ، على سيطرة السادة على ملكية الأرض • ويبدو ، وفقا لهذا النظام ، أن مساكن موالى السيد لم تكن تورث على الاطلاق ، ولكن هذا النظام كان يتطلب من

السيد أن يختار أحد أفراد أسرة المستأجر المتوفى ليحل محله ، ولم يكن من الأمور غير الطبيعية أن يختار هذا السيد أصغر أبناء المستأجر المتوفى . أما سائر الأخوة فيضربون في الحياة كما خلقوا فيها ، في حين يبقى الابن الى جانب أبيه في بيته ساعة احتضاره . ووفقا لكثير من العادات التي تراعى تقسيم التركة بالتساوى بين الأخوة ، يختص الابن الأصغر بوراثة بيت الأسرة وما حوله ، والمدفأة . على أننى لا أدعى بذلك أننى قد توصلت الى اثبات مبدأ العبودية في نظام حق الابن الأصغر في الارث ، ولكن من المؤكد أن وراثة الابن الأصغر لأبيه في الأرض كانت تخضع لنظام العبودية في القرن الثالث عشر . وفي وسعى أن أقدم أثباتا كافيا على ذلك . وكان هذا المبدأ يرتبط بنظام الاتاوة Merchetum (١) ، اذ كثيرا ما يذكران معا كما هو الحال في المثال التالى (٢) : « أنتم عبيد أرضى ، فرضت عليكم الجزية ، ودفعتم لى الاتاوة في زواج بناتكم ، وقد كان كل منكم أصغر أبناء أبيه فورثه في التزامه » .

ومما هو جدير بالذكر ان نظام حق الابن الأصغر في الارث في انجلترا لا يقتصر على الذكور . فهناك عشرات ، ان لم يكن مئات من الأحياء الصغيرة التي يمتد فيها هذا الحق من الذكور الى الاناث . وفي هذه الحالة تفضل أصغر البنات أو أصغر الأخوات أو الخالات على شريكاتها الأخريات .

وكذلك ينتشر نظام حق الابن الأصغر في الارث في بعض جهات فرنسا . « ففي بعض نواحي ممتلكات الكونتات في « كورنواي » في

(١) كان هذا اسم الاتاوة التي يدفعها الملتزم للسيد الاقطاعي عند تزويجه ابنته .

(٢) من رسالة ف . و . ميتلاند F. W. Maitland بتاريخ ١٨٨٧/١١/١

« بريتانى » ، يتمتع أصغر الأبناء بحق يختص به وحده يساوى الابن الأكبر تماما • فأصغر الأبناء ، ذكرا كان أم أنثى ، يرث الأرض التى تسمى quevaise ، دون اخوته وأخواته • ويعرف هذا الحق فى فرنسا بقانون maineté • وعلى الرغم من أن هذه العادة تنتشر فى المقاطعات الممتدة الكثيرة التى كانت تابعة للإشراف فى « بريتانى » ، فاننا لا نستطيع أن نتعرف بذلك على أصل انتشارها فى فرنسا • ذلك أن المحامين الاقطاعيين عندما كانوا يشرعون العادات فى الأقاليم ، كان النبلاء يولون ظهورهم للعادة غير المألوفة لديهم • كما أننا نعلم أن المنطقة التى كانت تنتشر فيها هذه العادة فى القرن السابع عشر كانت تتضاءل يوما بعد يوم على وجه التقريب • أما الأحياء التى كانت تروج فيها تلك العادة ، فكانت تتضمن « دوقية روهان » ، ومقاطعة « بلا كريك » وممتلكات الأديرة فى « ريليك » و « بيجار » • أما فى « بريتانى » كما هو الحال فى كثير من جهات انجلترا فقد كان نظام حق الابن الأصغر فى الارث يتبع نظام ادارة الأرض بالسخرة • واذا توفى الأب فى « بريتانى » كما هو الحال فى انجلترا دون أن يترك أولادا ذكورا ، فان الارث يؤول الى أصغر البنات • وقد كانت تعيش هذه العادة تحت اسم Madelstad maineté فى « بيكاردى » و « أرتوا » ، « هينو » وفى « يونثيو » ، « فيكير » ، وفى الأحياء التى تقع حول « أراس » و « دواى » و « أميان » و « ليل » و « كاسل » ، وفى الأقاليم المجاورة من « سنت أومير » • ويتفاوت حق ارث الابن الأصغر فى كل هذه الأحياء ، بين أن يرث هذا الابن التركة جميعها ، أو أن يتميز عنهم فقط فى ارث أثاث البيت • وهذا النظام نفسه فى الارث ، ساد كذلك فى « جريمبرجن » فى « برابانت » •

وقد انتشرت مثل هذه العادات فى كثير من جهات « غرفزلاند » • وأشهر هذه العادات ، تلك التى كانت تعرف باسم « جوس ثيلاكتيوم » أو تشريح « أراضى ثيل » ، وهى تلك الاراضى التى كانت مقسمة أو موزعة فى الشمال فى شرق « غرفزلاند » غير بعيد ما منبع نهر « امز »

وقد ظل المزارعون في هذا الحى حتى القرن التاسع عشر يحتفظون بحصصهم وفق نظام من القوانين المعقدة التى وضعت لتحويل دون تجزئة الأراضى ، تلك التجزئة التى لا تعود عليهم بفائدة • فحصة الأرض التى تورث لم تكن تقسم ، وإنما يرثها الابن الأصغر كاملة بعد موت أبيه • فإذا مات هذا الابن دون أن يترك وراءه ذرية ، فإن هذه الحصة من الأرض تصبح ملكا للجماعة •

وهناك أمثلة أخرى لعادة حق ارث الابن الأصغر يمكن ان تستخلص من العادات المحلية التى ألغاهها القانون المحلى في « وستفاليا » وفي بلاد نهر الراين التى كانت تخضع « القانون السكسونى الخالص » وقد قيل لنا ان المزارعين كانوا يتمسكون بتلك « ميندن » ، والتى كان سكانها يدعون أنهم ينتمون الى العنصر السكسونى الخالص • وقد قيل لنا ان الزراعين كانوا يتمسكون بتلك العادة الى درجة « أنه حتى زمن قريب لم يكن يطالب الابن الأكبر بحقه القانونى الالزامى قط ، وإنما كان الأبناء يرضون بحق أخيه الأصغر فى الإرث ، وان لم يترك لهم أى نصيب يرثوه • ولم يكونوا يحلمون قط بالمطالبة بحقوقهم فى ظل قانون الإرث الذى لم يكن قابلا للنقض • وحتى اذا توفى الزارع دون أن ينص على هذه الوصية المألوفة ، فإن الأبناء يرضون بعدم مشاركتهم لأخيه الأصغر فى الارث » • وشبيه بهذه العادة تلك العادة التى ازدهرت فى « سيليزيا » وفى جهات بعينها من « فورتنبرج » ، حيث فشلت قوانين الوراثة الجديدة فى القضاء على الامتياز القديم المقدس للابن الأصغر الذى كانت تراعى حقوقه فى تسوية سرية أو بقوة الرأى المحلى • وهناك فى غابة « أودين فالد » ، وفى الحى الذى لا يزدحم بالسكان ويقع الى الشمال من بحيرة « كونستانس » ، ممتلكات من الأراضى يطلق عليها اسم « هوف جوتر » غير قابلة للتقسيم ، وإنما تؤول الى أصغر الأبناء الذكور • فان لم يكن هناك أبناء ذكور آلت الى البنت الكبرى • وهناك أماكن أخرى كثيرة تنتشر فيها عادة حق الابن الأصغر فى الارث • فقد

قليل لنا انها توجد في سوابيا ، وفي سويسرا ، والالزاس ، وغير ذلك من البلاد الألمانية أو تلك التي يخضع جزء منها للبلاد الألمانية . ففي هذه الأماكن ما تزال هذه العادة لها تأثيرها على المزارعين على الرغم من أنها فقدت صفتها الشرعية .

وليس هناك دليل على أن هذه العادة كانت منتشرة في الدانمارك والنرويج والسويد . ولكن الابن الأصغر كان يتمتع بهذا الحق في جزيرة « بورنهولم » (التي كانت مملكة ذات يوم) وهي جزيرة ملحقة للتلج الدنماركي ، كما أن آثار لهذه العادة قد سجلت في مقاطعة جمهورية « لوبيك القديمة » .

أما في جنوب روسيا وغربها ، فإن النظام يتجه الآن الى تحطيم وحدة العائلات القديمة عن طريق سكنى الأبناء في بيوت مستقلة يملكونها . وقد قيل انه ينظر الى الابن الأصغر في هذه الحالة بوصفه وريثا لمنزل الأسرة . واننى لمدين للسيدة « م.أ. ترايليكا » العاملة الاثنولوجية البولندية المرموقة ، لأنها أمدتني بالمعلومات الآتية التي قالت فيها : « من المعروف ان حق الابن الأكبر أو الابن الأصغر في الارث ، كان هو العرف الذي يسير وفقه المزارعون الروس منذ الزمن الذي ظهر فيه التشريع الروسى « روسكيا برافدا » ، وهو التشريع الروسى الأول الذى شرع في عهد « باروسلاف » الأكبر . بل إن هذا النظام مازال هو السائد في قانون المزارعين العرفى ، الأمر الذى يجعل من الممكن افتقاء أثر أصل هذا القانون في نظام الوراثة . ولا يعد حق الابن الأصغر امتيازاً وانما هو أمر طبيعى . وذلك نظراً لما يحدث في الواقع وهو انفصال الأبناء الكبار في العادة عن منزل أبيهم وعن أسرهم ، في حين أن الابن الصغير أو الأصغر لا ينفصل عن أبيه قط طالما كان الأب على قيد الحياة . على أنه اذا ورث الابن الصغير ، بالإضافة الى مسكن الاب ، ممتلكات أخرى الامر الذى يضر بأخوته الكبار ، فانه يرث كذلك أعباء بعينها . وتلك

الاعباء هي أن يرعى أبويه العاجزين ، كما يرعى في الغالب اخواته غير المتزوجات . فاذا لم يكن الابناء الكبار قد انفصلوا عن منزل أبيهم عند وفاته ، فان منزل الاسرة يؤول كذلك الى الابن الاصغر ، على أن يكون من واجبه أن يساعد أخوته الكبار في تأسيس مساكن لأنفسهم » . كما أخبرتني السيدة « تشابليكا » بأنه « ليس هناك أثر لعادة حق الابن الاصغر في الارث في غير طبقة المزارعين في روسيا . ويقتصر الارث في هذه الحالة على بيت الاسرة وعلى قطعة من الارض التي تملكها الأسرة ، لا تلك التي تملكها الجماعة » .

وبهذا نكون قد ألقينا نظرة على انتشار عادة حق ارث الابن الأصغر بين الشعوب الآرية في أوروبا . فاذا انتقلنا بعد ذلك الى الشعوب الاوربية التي لا تنتمي الى الأصل الآري ، فاننا نعرف « أن قانون الضواحي في هنغاريا يقضى بأن يرث الابن الاصغر بيت الاسرة على أن يعوض الابن الاصغر أخوته عن هذا الامتياز . وعلى الرغم من أن رب الاسرة عند « التشوديين الشماليين » يمكن أن ينيب عنه الابن الاكبر أو الاصغر في ادارة شئونه ، وربما أناب عنه شخصا غريبا اذا شاء ، الا أنه يتحتم عليه أن يورث أصغر أبنائه المسكن الذي يسكن فيه .

٣ — مسألة أصل حق الابن الاصغر في الميراث :

بعد أن قدمنا نماذج لانتشار عادة حق الابن الاصغر في الارث أو تفضيل الابن الأصغر على اخواته في الارث ، يحق لنا أن نتساءل : ماذا كان أصل هذه العادة التي تفاجئنا اليوم بغرابتها وباجحافها بحقوق الأبناء ؟ ان الآراء التي تعرضت لهذا الموضوع كثيرة ، ومن الافضل أن نبدأ برأي العالم ورجل القانون « سير وليم بلاكستون » الذي عبر عنه في شروحه الشهيرة للقانون الانجليزي . ففي أثناء حديثه عن نظام ملكية الاراضي في الاقطاعات أو البلاد التي لها حق التمثيل في البرلمان ، هاتين بينه وبين نظام ملكية الارض في ظل النظام

الحربى ، أو خدمة الفروسية ، وعدة من مظاهر بقايا الحرية السكسونية التى أبقي عليها هؤلاء الافراد الذين لم يرهنوا أرضهم ولم يضطروا الى استبدالها ، « ذلك أنه كلما كانت ملكية الأراضى أكثر شرفا ، كما كانوا يدعون ذلك ، كلما زادت أعباؤها » والحرية السكسونية من وجهة نظره « تشمل أيضا التنوع الكبير فى العادات التى تؤثر على نظام الملكية التى تعد أهمها وأبرزها النظام الانجليزى الذى يعرف باسم Borough English تمييزا لها عن العادات النورمندية ، تلك التى أشار اليها « جلانفيل » و « ليتلوتون » وغيرهما وشرحوها ، بأن الابن الأصغر ، لا الأكبر ، هو الذى يرث مسكن الأسرة بعد موت أبيه . أما السبب الذى قدمه « ليتلون » لاتباع هذه العادة ، فهو أن الابن الأصغر نظرا لصغر سنه ، لن يكون قادرا على إعالة نفسه كما يفعل اخوته الكبار . وهناك مصادر أخرى قدمت سببا آخر أكثر غرابة بحق ، هو أن سيد الاقطاعية كان فيما يبدو ، من حقه أن يتخذ محظية له فى ليلة زفافه من زوجته الأصلية التى تنتمى الى هذه الاقطاعية . ومن ثم فان مسكن الأسرة لا يؤول الى أكبر الأبناء بل الى أصغرهم الذى يكون انتماءه الى الاقطاعية أكثر ترجيحا من انتماء الابن الأكبر لها . ولست أعرف أن هذه العادة كانت تنتشر فى انجلترا ، وان كانت قد انتشرت بالفعل فى اسكتلندا (تحت اسم Marcheta أو Mercheta ، حتى قضى عليها « مالكولم الثالث » . وهناك سبب ثالث ربما كان أكثر منطقية من السببين الاولين استخلص من عادات التتار الذين كانت تنتشر بينهم ، وفقا لما ذكره الأب « دوهالدى » عادة حق ارث الابن الأصغر . وقد كان الشعب التترى يتكون أصلا من الرعاة وأصحاب القطعان ، وكان الابناء الكبار يهجرون أباهم ، بمجرد أن يصبحوا قادرين على أن يعيشوا حياة رعوية بمفردهم . وفى هذه الحالة يصبحون معهم عددا من القطعان ويبحثون عن مسكن جديد لهم . أما الابن الأصغر ، الذى يعيش فيما بعد مع أبيه ، فهو يصبح وارث بيت الأسرة بعد موت أبيه ، ويتحمل سائر الأعباء . وهكذا نرى أن العادة التى كانت متبعة بين كثير من

الشعوب الشمالية هي أن يهجر الابناء جميعا آباءهم فيما عدا الابن الأصغر الذي يصبح وريثه فيما بعد ، بحيث يمكننا أن نستخلص أن هذه العادة ، حيثما وجدت ، يمكن أن تكون بقايا النظام الرعوى لأجدادنا البريطانيين والجرمانيين ، ذلك النظام الذي وصفه كل من قيصر وتاكيثوس .

على أنني لم أعثر على عبارة « دوهالدي » التي أشار إليها « بلاكستون » ، ولكن هذه العبارة يؤكد لها مؤرخ محدث أخبرنا أن « أهم ما يميز القانون القديم الذي كان سائدا بين الأتراك والمغول ، وهو الذي يلقي ضوءا حيا على تاريخهم ، تلك العادة التي سأطلق عليها ، نظرا لاحتياجي الى اصطلاح آخر ، عادة « التبني المعكوس » . فالعادة المتبعة عند الأتراك في الارث ، تضع له نظاما على نحو غريب للغاية . فالوريث الدائم الذي يرتبط على نحو ما بتربة وطنه هو أصغر الأبناء . وهو الذي يطلق عليه المغول اسم « أوت - ديزيكن » ، كما يطلق عليه الأتراك اسم « تيكن » أي « حارس الدار » . فالى هذا الابن الأصغر يؤول نصيب الأرض الذي لا يتغير، ذلك الذي ذكره المؤرخون الصينيون والرحالة الغربيون . فالأبناء الكبار يوزعون فيما بينهم المنقولات وأهمها المال الذي هو القطعان والماشية . وفضلا عن ذلك كانت عادة حرق ارض الابن الأصغر مألوفة لدى مجموعة من القبائل المغولية . وربما أدى البحث عن أحوال هذه القبائل الاجتماعية الى لقاء الضوء على مشكلة الارث هذه . ولكنني أود أن أشير ، في بداية هذا البحث الى أنه ليست هناك قبيلة من هذه القبائل تشتغل بالرعى ، على عكس ما كنا ننتظره وفقا لنظرية « بلاكستون » ، هذا اذا افترضنا أن نظريته صحيحة ، وانما تعتمد هذه القبائل كلية في معيشتها على ما تنتجه الأرض المستفلحة .

٤ - توريث الابن الأصغر في آسيا الجنوبية :

ولنبداً بقبيلة « لوشاي » التي تسكن في جزء كبير من تلال
أسام . وأناس هذه القبيلة قصار أشداء أقوياء العضلات ، ذوو وجوه
عريضة جرداء من الشعر ، وعظام بارزة في الصدغين ، وأنوف قصيرة
مفلطحة وعيون صغيرة لوزية الشكل ، وبشرة تختلف بين اللون الأصفر
والبنى . ومن ثم فإن الرائي لا يخطئ أصلهم المغولي . وهذا الدليل
الذي يشير إليه مظهرهم الجسماني ، تؤكد اللغة التي يتحدثون بها ،
تلك اللغة التي تنتمي الى فرع « التبت - البورمانى » ، وهو أحد
فروع لغة « التبت - الصينية » . وهؤلاء القوم مزارعون وغذاؤهم
الأساسى هو الأرز . ولكنهم وفقاً لنظام الزراعة الذى يتبعونه ،
اضطروا لأن يكونوا قوما مهاجرين ، اذ قلما يستقرون فى مكان واحد
بضعة سنوات . ونظامهم الزراعى يعرفه الكتاب الانجليز فى العادة ،
هؤلاء الذين يكتبون عن الهند ، باسم jhuming أو jooming
فهم يقطعون أشجار الغابات أو أشجار الخيزران فى مساحة من
الغابات أو الأحرش . فاذا جفت أشجار الغابات أو أشجار الخيزران
قاموا بحرقها واستخدامها سمادا للأرض . ومن ثم فهم لا يعزقون
الأرض بعد تسبيخها على هذا النحو الا سطحيا . فاذا تجمعت السحب
منذرة بأن فصل الجفاف قد أوشك على الانتهاء ، وأن المطر أوشك
على السقوط ، خرج كل فرد منهم يحمل فوق كتفه سلة مملئة
بالحبوب ، كما يحمل سكيناً عريضاً (داو) فى يده . فاذا استعد
الجميع على هذا النحو ، أخذوا ييذرون الحب بأن يشقوا الأرض
بسكاكينهم شقوقاً سطحياً ييذرون فيها الحب . ومحصولهم الرئيسى
هو الأرز ، ولكنهم يزرعون كذلك البقول والدخان والذرة والدخن
والقطن . وهذه الطريقة فى الزراعة مضياعة للمحصول ، حيث أنهم
قلما يحصلون على محصولين من قطعة واحدة من الأرض فى سنتين
متتاليتين . وعند ذاك تترك الأرض بوراً حتى تكتسى بالأحراش أو
الشجيرات النامية مرة أخرى . فاذا كانت الأرض التى كانوا قد أزلوا

عنها الأشجار جزءاً من حراش الخيزان ، فإنه يتحتم مرور ثلاث أو أربع سنوات قبل أن تصبح الأرض ملائمة للزراعة . أما إذا كانوا قد أزالوا أشجار غابة فإنه ينبغي أن تمر فترة تتراوح بين سبع وعشر سنوات قبل أن تتكرر عملية قطع الأشجار مرة أخرى . ويقال ان أرض الغابة تدر محصولاً أوفر من أرض الأحراش ، ولكنها تتطلب جهداً أكبر في إزالة الأشجار منها وتطهيرها من الأعشاب الضارة بالزرع . وبهذه الطريقة تستنفد بمرور الوقت ، الأراضي الصالحة للزراعة التي تحيط بقرية كبيرة ، ويصبح من الضروري أن يبحث السكان عن مكان آخر يستوطنونه . واختيار مكان جديد أمر يثير قلقهم ، فهم يرسلون مندوبين عنهم من شيوخهم ليناموا في المكان الذي يقع عليه الاختيار ، يأخذون معهم ديكاً يتكهنون عن طريقه فيما إذا كانوا يستقرون في هذا المكان أم لا ، فإذا صاح الديك قبل الفجر بساعة ، فإنهم يتفعلون بذلك ويستقرون في هذا المكان القرية الجديدة مدة أربع أو خمس سنوات . وقد كان من الممكن في الزمن القديم أن تبعد القرية الجديدة عن القرية القديمة بمسافة تستغرق يومين أو ثلاثة أيام . وكان يتحتم على المواطنين أن يحملوا على ظهورهم أمتعتهم الدنيوية من مكان لآخر ، وكان من الطبيعي أن يحول التوقع المستمر للانتقال المضنى دون زيادة منقولاتهم ، وبالتالي كان يحول دون نمو ثروتهم وتجارتهم . كما كان من الطبيعي في ظل هذا النظام للزراعة المتناوبة ، ذلك النظام الذي تألفه أغلب القبائل التي تسكن تلال هذه المنطقة ، ألا يطالب الزراعون بملكيتهم للأرض ، بل ان زعماءهم لم يكونوا يطالبون بحق في ملكية الأرض أو الغابات ، ولم يكن للزعيم سلطان سوى بين رجال قبيلته أينما ساروا وحيثما استقروا استقرارهم المؤقت . ويقوم العبيد بين القبائل الأكثر بدائية بالجانب الأكبر من استصلاح الأرض وزراعتها . وهؤلاء العبيد تأسرهم القبائل في غاراتها حتى يقوموا بدلاً منهم بهذا العمل المهن .

وقد كانت قرى « اللوشاى » تقع فى الغالب على قمم سلاسل التلال وتمتد على جوانبها المنحدرة • وهى فى الغالب قرى كبيرة تتألف من مئات البيوت • على أن حاجة الأهالى الى التجمع فى قرى كبيرة حصينة قد انتقضت نظرا لما كفلته لهم الحكومة البريطانية من حماية ونظام للملكية ، ومن ثم أخذ يتضاءل حجم القرى الكبيرة تدريجيا ، كما أخذ السكان يتفرقون فى شكل قرى صغيرة ، بل بيوت منعزلة بين الأحرش ، بعيدة عن الأماكن الآهلة • ومن أبرز الملامح فى قرية « اللوشاى » هو « المزولبوك » أو الفناء الذى ينام فيه الرجال غير المتزوجين ، والغلمان ابتداء من سن النضوج • ذلك لأن هؤلاء لا يسمح لهم بالنوم فى بيوت آبائهم • كما يأوى المسافرون من القرى الأخرى كذلك الى هذه الأفنية التى تتعدد فى القرية الواحدة الكبيرة • وهذا النظام مألوف بين القرى التى تسكن التلال فى « أسام » •

وكل قرية من قرى « اللوشاى » تعد دولة مستقلة يحكمها زعيمها • وعندما يكبر كل ابن من أبناء زعيم من الزعماء ويصل الى سن الزواج ، يزوده أبوه بزوجة ويقوم بتكاليف الزواج ، كما يمهده بعدد معين من أفراد أسرته يرحل بهم لى يؤسس معهم قرية تكون ملكا له • وهناك يحكم بوصفه زعيما مستقلا ، ويعتمد نجاحه أو فشله فى سياسة قريته على موهبته فى الحكم • وهو لا يدفع جزية لأبيه ، ولكن أباه يتوقع منه أن يساعده فى نزاعه مع جيرانه من الزعماء • فإذا عمر الآباء طويلا ، لم يكن من غير الطبيعى أن يتبرأ الابناء حتى من هذا القدر القليل من تبعيتهم لآبائهم • أما الابن الأصغر فقد كان يبقى فى قرية أبيه ويرثها من بعده كما يرث سائر ممتلكاته • وهكذا نجد أن عادة « اللوشاى » هذه تؤكد فى قوة ، تفسير « بلاكستون » النظرى لنظام حق الابن الأصغر فى الارث • ذلك أنه يبدو أن الابن الأصغر بين هؤلاء القوم يرث أباه لأنه ببساطة كان يبقى مع أبيه فى مسكنه بعد أن يهجره الأبناء الكبار ويخرجون الى الحياة بحثا عن مساكن جديدة لهم • فإذا شئنا أن نستعين بمزيد من الأمثلة لتأكيد

الرأى فاننا نجدها فيما اعتري هذه القبيلة من تغيير فى العصر الحديث فنحن نقرأ فى آخر تعداد فى أسام » أن تضاعل حجم القرى عند « الوشائى » قد أدى الى تغيير على جانب كبير من الأهمية فى عادة حق الابن الأصغر فى وراثة قرية أبيه وممتلكاته • فقد كان المبرر لهذا النظام القديم فى الارث هو أن الأبناء الكبار كانوا يستقلون بقراهم عند زواجهم • ولكى يكون هذا الأمر ميسرا لهم ، فان عددا من كبار رجالهم (أوباس) وعددا من عامة الناس يؤمرون بأن يرافقوا الزعيم الشاب لى يكونوا معه نواة لقرية جديدة • وليس غريبا عندما يستقر الأبناء الكبار على هذا النحو ، أن يرث الابن الأصغر قرية أبيه وممتلكاته وأن تقع عليه مسئولية حماية والدته • ولكن بينما نجد أن عدد أسرات الزعماء لم يكن يميل الى الانخفاض ، فان متوسط حجم القرى كان يتضاعل الى النصف ، كما لم يكن هناك بيوت تكفى لايواء الأبناء جميعا • وبناء على ذلك فلم يكن أحد من الآباء يتمكن بحق ، من الاستقلال فى قرية جديدة • ومن الواضح فى مثل هذه الحالة أن تتول الثركة الى الابن الأكبر ، وقد قبل الناس عن رضى هذا التغير فى نظام الارث » •

وبناء على ذلك فانه يبدو لنا أن عادة حق ارث الابن الأصغر عند هؤلاء الناس تتحول الى عادة حق ارث الابن الأكبر ، لأن الدوافع الاجتماعية التى تطلبت تبنى النظام الاول ، أصبحت فى سبيلها الى الاختفاء • حقا ان قانون الوراثة كان يطبق الى حد بعيد بين أسر الزعماء فقط ، ولكن هذا القانون نفسه كان يسود كذلك بالنسبة لوراثة الملكية الخاصة بين عامة الناس • فوفقا لاحدى الروايات « ان الارث يقسم بين الأبناء على أن يختص الابن الأصغر بأكثر الأنصبة ، فى حين يحصل سائر الأبناء على أنصبتهم بالتساوى » • ووفقا لرواية أخرى متأخرة عن الرواية السابقة ، « أن القاعدة العامة أن يختص أصغر الأبناء بالأرض ، ولكن الأكبر يطالب فى بعض الاحيان بنصيبه فى الارث » • والسبب فى تطبيق هذه العادة بين أسر عامة الناس هو

فيما يبدو السبب في تطبيقها في أسر الزعماء • فقند رأينا أنه عندما كان يستقل ابن الزعيم ويخرج الى الحياة ليبحث له عن قرية جديدة ، فانه كان يأخذ معه عددا من عامة الناس لكي يكونوا تابعين له في مكانهم الجديد • ويحق لنا أن نفترض أن سكان المستعمرات يتألفون من كبار أبناء الأسر ، لأن صغار الأبناء يظلون مع آبائهم في مسكن الأسرة ويرثون ممتلكات الأسرة •

وتنتشر عادة حق ارث الأصغر في شكل محدود بين « الانجاميين » وهم قبيلة مغولية تسكن في « أسام » • « فاذا تزوج الأبناء في حياة أبيهم فانهم يتسلمون أنصبتهم من الأرض التي يملكها أبوهم • فاذا توفي الأب تاركا عددا من الأبناء غير متزوجين ، فان هؤلاء يقتسمون الارث بينهم بالتساوي • وعندما يتزوج هؤلاء فانهم يتركون بيت أبيهم ويبنون مساكن خاصة بهم • ومن ثم فان الابن الاصغر يرث في العادة دائما بيت الأسرة » • وهنا نلاحظ مرة أخرى أن وراثة الابن الأصغر لبيت الأسرة تعتمد ببساطة على ظروف بقائه في بيت أبيه ، بعد أن يتزوج أخوته الكبار ويستقلون بمساكنهم • فاذا حدث أن الأبناء كانوا لا يزالون في بيت الأسرة قبل شروعهم في الزواج حين وفاة الأب ، فان الابن الاصغر لا يفضل عندئذ في الارث عند أخوته الكبار •

ومما هو جدير بالذكر أن قبيلة « الأنجاميين » التي تعد أكبر قبائل « ناجا » في « أسام » ليست قبيلة مهاجرة ، كما أنها لا تفلح الأرض بالطريقة البدائية المضياغة التي تتبعها معظم القبائل التي تسكن تلال هذه المنطقة ، أعنى عن طريق إزالة الأشجار والشجيرات من رقعة من الغابات أو الأحراش ، ثم زراعتها لبضع سنين ثم تركها لتعود الى طبيعتها البرية التي كانت عليه من قبل ، وانما تقوم هذه القبيلة على عكس هذا بزراعة محاصيلها في مدرجات دائمة تنحيتها بمهارة على غلى جوانب التلال • وتروى هذه المدرجات عن طريق قنوات صناعية تحفر على طول انحدارات التلال بميل تدريجي مريح • كما أن هذه القبيلة تقطن قراها الحصينة الكبيرة على الدوام ، ذلك لأن أفرادها يرتبطون بمساكنهم كل الارتباط ويرفضون تغييرها •

ويرجع « المايثيون » الذين يكونون العنصر المسيطر في « مانيبور » في « أسام » الى أصل مغولي ، وهم يتحدثون لغة « التبت البورمية » . وعلى الرغم من أن هؤلاء يرتبطون بالقبائل المتوحشة التي تسكن التلال المحيطة بهم برباط الدم واللغة ، إلا أنهم قد وصلوا الى درجة كبيرة من الحضارة الاجتماعية ، بحيث أصبحوا أشبه بواحة فريدة يعيش الناس فيها حياة حضارية نسبيا ، وفي ظل مجتمع منظم وسط قفار من الأحوال المتبربرة ، فهم يقيمون في قرى مستقرة ويعيشون أساسا على الأرز الذي يزرعونه في حقولهم الدائمة . ومعنى هذا أنهم قد تجاوزوا مرحلة الهجرات الموسمية ، تلك التي يسببها ما وصلت اليه الأرض المجاورة لهم من انهاك . أما بالنسبة لقانون الوراثة المنتشر بين المايثيين ، فإن مؤرخي « مينيور » لم يمدونا بمعلومات كافية تؤكد نظام الوراثة في الممتلكات الخاصة ، كما أن أحوال الدولة الاقتصادية في العصر الحاضر تقع في اطراد سريع تحت تأثير الأفكار السياسية والاجتماعية الحديثة . فالأرض ينظر اليها على أنها تخضع لارادة القوة الحاكمة في الدولة . أما بالنسبة للممتلكات المنقولة فإنها تؤول فيما يبدو ، وفقا للعرف الشائع ، الى الأبناء في أثناء حياة أبيهم . كما أن هذا العرف ينظر الى الابن الأصغر بوصفه الوارث بصفة عامة ، اذا كان مازال يعيش في منزل أبيه عند وفاة أبيه . فإذا كان قد انفصل عن بيت الأسرة حين وفاة الاب تقسم التركة عندئذ بالتساوي بين الأبناء . وينفصل الأبناء عن بيت الأسرة بسبب زواجهم بطبيعة الحال ، وهذه هي المناسبة التي يتعين على الآباء أن يزودوا أبناءهم بالعون في حياتهم الجديدة . ويعتمد حق وراثة الابن الأصغر لأبيه عند « المايثيانيين » وبالمثل عند « الانجاميين » سكان أسام ، على ما اذا كان هذا الابن مازال يعيش في بيت الأسرة بعد أن انفصل عنه اخوته جميعا بسبب زواجهم ، وبحثوا لهم عن مساكن مستقلة . أما اذا كان الابن الأصغر قد تزوج واستقل بمعيشتة حين وفاة والده ، فإنه عندئذ لا يميز عن اخوته في الارث ، وإنما يقتسم معهم التركة بالتساوي ، وتعيش عادة حق ارث الابن الأصغر في شكل محدود في « أسام » و « انجلترا » بعد أن كف

الشعب عن الهجرة ، واستقر في قرى دائمة تحيط بها الحقول ، وتظل على هذا النحو جيلا بعد جيل •

و « الكاشينيون » أو كما يسمون أنفسهم « الشينجبويون » أو « السينجفويون » يرجعون الى أصل مغولي ويسكنون شمال أعالي بورما • وقد كانت مساكنهم القديمة تقع عند أعالي نهر « أراوادي » ، ولكنهم انتشروا شرقا في الأقاليم الصينية في بونان وغربا في الأقاليم الهندية في «أسام» • واسم « شينجبو » أو « سينجفوا » الذي يسمون به أنفسهم يعنى ببساطة « الرجال » • أما « البورميون » فيطلقون عليهم اسم « الكاشينيين » أو « الكاخينيين » • وهؤلاء سكان جبال متوحشون وهمجيون وينقسمون الى عدد من الجماعات الصغيرة أو الى عدد من القبائل ليست بذات شأن ، وكل قبيلة يحكمها زعيم وقد كان « الروميون » و « الشانيون » ، الأكثر مسالة منهم يخشون غاراتهم قبل عهدهم بالاستعمار الانجليزى • ومع ذلك فهم يشتغلون بزراعة الأرض ، بل انهم خبراء في فلاحتها • وغالبا ما تقع حقولهم في أعماق الوديان ، بينما تقع قراهم فوق التلال • وليس هناك شك كبير فيما يقال ، في أن « الكاشينيين » ينتمون الى الأصل التتارى • ويشير تراثهم الى موطنهم الأول الذى يقع في مكان ما جنوب صحرا «جوبى»، كما كانت تحركاتهم تتجه دائما الى الجنوب • ولكن اختلاف لون بشرتهم وملامحهم اللذين نلسمهما حتى في الأماكن التى لم تتأثر قط بالتأثير « الشانى » و « البورمى » ، يشير الى اختلاطهم بالأجناس الأصلية التى حل محلها « الكاشانيون » •

وقانون الوراثة عند « الكاشينيين » ، كما ينص على ذلك في كثير من الأحيان ، يربط بين عادتي حق ارث الابن الأكبر وحق ارث الابن الأصغر • ذلك أنه يروى « أن التركة تقسم بين أكبر الأبناء وأصغرهم • بينما يترك الأبناء المتوسطون لمصيرهم • ويرث الابن الأكبر لقب الأسرة واقطاعتها ، في حين يحدل الابن الأصغر الممتلكات الشخصية والمنقولات ويذهب لبحث لنفسه عن مسكن جديد » • ووفقا لهذه

الرواية التي أكدها الكتاب العديدون الذين تركزت أبحاثهم حول « الكاشانيين » ، فان الابن الأكبر يبقى في بيت أبيه مالكا لاقطاعية أبيه ، في حين يأخذ الابن الاصغر الممتلكات الشخصية ويخرج من بيت أبيه ليشق طريقه في الحياة . وهذا يختلف تماما عما يتبع ، فيما روى ، بين أقربائهم من القبائل المنغولية التي تسكن هذه المنطقة . ويحق لنا أن نتشكك في أن تلك الرواية التي يرجح أن القائد « حوب » نوفيلى قد رواها ، أساسها الفهم الخاطيء . وعلى كل فقد قدم لنا « سير جورج سكوت » الذي كانت لديه الوسائل الوافرة للتعرف الوثيق على العادات الكاشانية ، رواية عن قانون الارث عند هؤلاء الناس . فهو يقول : « لقد كان هناك ميل دائم بين الكاشانيين الى التفرق ، كما هو الحال بين « التاينيين » ، كما أن الطابع التلالى لبلادهم جعل الأنصبة من الاراضى المقسمة ضئيلة للغاية . وقد كان هذا التفرق يرجع في العصور القديمة أساسا وبدون شك الى ضرورة الهجرة التي تسببت عن زيادة عدد السكان والنظام المتلاف لزراعة التلال . فقد أصبحت العادة أن يرث الابن الاصغر أباه الزعيم عند موته ، بينما يخرج الأبناء الكبار مصطحبين أكبر عدد من الأتباع ليقيموا لأنفسهم مساكن جديدة . فاذا قدر لهم النجاح في موطنهم الجديد ، فإنهم يصبحون على مر الزمن قبائل بارزة تسمى كل منها باسم — مؤسسها . فالقانون « المكتنى » للاقطاعات الانجليزية يعد بدون شك بقايا عادة مشابهة تنتشر بين القبائل « الأنجلو » .

وفي مكان آخر يقدم لنا « جورج سكوت » رواية قيمة عن نظم الملكية المختلفة ، تلك النظم التي تتصل بالملكية الفردية والجماعية وتنتشر بصفة خاصة في التلال والوديان . ويقوم الاختلاف في هذه الملكية على أساس الاختلاف بين نظم زراعة المهاجرين ونظم الزراعة الدائمة التي تتبع في التلال والوديان . يقول « جورج سكوت » : « فيما يختص بنظام زراعة التلال أو « تاونجيا » ، فإن نظام الملكية الفردية لا يعرف في هذه الاماكن وإنما تعد الارض ملكا للجماعة كما يصرح بهذا زعيمها

(دووا) • كما أن نظام الزراعة لا يسمح باستغلال قطعة واحدة من الأرض استغلالاً دائماً • ولكن الأمر يختلف حيث تكون الأرض مملوكة في الوديان بحيث يزرع الارز في الجو الرطب • ففي هذه الحالة يسمح للمالك الفرد أن يملك الأرض على أساس ألا يسلم الأرض لغريب • ويحصل الزعيم (دووا) على سلة أو سلتين مملوءتين بالارز كل عام رمزا للاعتراف بملكيته الاسمية للأرض جميعا • والأرض تتبع أهل البيت جميعا ، كما أنها تستغل في العادة لصالح الجميع • ومن ثم يفقد حق المشاركة في الأرض من يترك بيت الأسرة • فإذا حدث انفصال اضطراري بين أهل البيت ، فإن قسمة التركة لا تتبع نظاما محددا فيما عدا أن الابن الأصغر يحصل على نصيب « بنيامين » ، كما يرث بيت أجداده وملحقاته •

ويبدو أن هذه الرواية تميز في وضوح بين الاراضى المرتفعة حيث الزراعة تتبع نظام الهجرة ، والاراضى المنخفضة حيث الزراعة دائمة • فالارز يزرع في التلال وفق النظام الجاف ، أما في الوديان فيزرع بطريقة الري الغزير • ولا يعد الارتباط بين نظام الزراعة الجاف وزراعة الهجرة من ناحية ، وبين نظام الزراعة الذي يحتاج الى الري والزراعة الدائمة من ناحية أخرى من قبيل الصدفة • اذ بينما نجد النظام الجاف مناسب للإقامة المؤقتة في الأرض ، فإن نظام الري يعد من ضرورات الإقامة الدائمة • ففي « جاوة » على سبيل المثال ، حيث كان الارز يزرع في منحدرات مرتفعة ويروى ريا صناعيا ، نجد أن الأرض كانت تغل محصولين في كل عام وذلك وفقا لذاكرة الأحياء • فالشيء الواضح إذن ، أن الاراضى التى تزرع زراعة مؤقتة عند « الكاشانيين » هى ملك للجماعة ، فى حين أن الاراضى التى تزرع زراعة دائمة هى ملك للأفراد • وقد سبق أن رأينا أنه ليست هناك ملكية فردية بين « اللوسهانيين » الذين يتبعون نظام الزراعة المؤقتة •

والسبب فى هذا واضح ، فالإقامة الدائمة فى الأرض تتطلب أساسا نظام الملكية الفردية ، ولا تلائمها الملكية الجماعية أو القبلية • وحيث

أن الثابت في تاريخ الانسانية ، أن حياة الصيادين وأصحاب قطعان الماشية ، وحياة الزراعين المتقلين قد سبقت حياة الزراعة المستقلة التي ازدهرت في ظل النظم الأكثر تقدما لفلاحة الأرض ، فانه يتبع هذا فيما يبدو ، أن الملكية الفردية للأرض كانت فيما بعد أكثر انتشارا من الملكية الجماعية أو القبلية ، وأن هذه الملكية الفردية لا يقرها القانون الا اذا زرعت الأرض على الدوام . أى أن الملكية الجماعية ، باختصار أقدم من الملكية الفردية ، وأن تحول نظام ملكية الأرض من الملكية الجماعية الى الملكية الفردية ، قد ارتبط بتقدم طرق فلاحة الأرض الى حد كبير ، ذلك التقدم الذى يسهم بقوة في تطور المجتمع بوجه عام ، شأنه شأن كل وسائل التقدم الاجتماعى .

ويمارس الكاشانيون في الصين وكذلك اخوانهم في « بورما » كلا من نظام الزراعة المؤقتة والزراعة الدائمة . واذا ألقينا نظرة على بلادهم من فوق قمة جبل شاهق ، فاننا نجد بلادهم تمتد من كل جانب في حدود ما تصل اليه العين ، وكأنها بحر من التلال التي تكسو الغابات قممها ومنحدراتها على وجه العموم ، اللهم الا في بعض الأجزاء التي تشير الى مواقع القرى ، أو حيث تخترقها الأنهار خلال واد ضيق متجه الى أسفل . وتقع القرى على الدوام بالقرب من مجرى مائى دائم يقع على الجبال وفي الغالب في وهدة محمية . وقد تنتشر هذه القرى بحظائرها على المنحدر المعتدل في انحداره ، وتغطي مساحة من الأرض تبلغ الميل . وتبنى البيوت التي تتجه في العادة شرقا وفق نظام واحد ، فهي تبنى من عيدان البامبو ويتراوح طولها بين مائة وخمسين قدما ومائتى قدم ، كما يتراوح عرضها بين أربعين وخمسين قدما . ويحتفظ بالحجرة الأولى في كل مسكن جماعى من هذه المساكن الكبيرة لاستقبال الغرباء ، أما سائر الحجرات فتكون مساكن لأسر متعددة ترتبط بين بعضها بعضا برباط الدم أو الزواج اللذين يكونان المجتمع الأسرى . أما الأفريز البارزة التي ترتكز على أعمدة فتكون شرفات يعمل فيها الرجال والنساء أو يستريحون فيها بالنهار ، كما يبيت فيها الجاموس والبغال والخنزير والخيول والدجاج .

والى جوار المنازل توجد حظائر مسيجة تزرع فيها النيلة ذات
الزهور البيضاء ، ونبات الخشخاش والطلح • أما الأرز والذرة فيزرعان
فى المنحدرات المتاخمة والروى التى تسوى بعناية فى هيئة شرفات
مكونة فى الغالب شكل مدرج • ويحجز المجرى المائى عند أعلى مكان
يقع فيه المجرى ، ثم يوجه مجراه بحيث يروى هذه الشرفات ، وبعد
ذلك يتجه الى أسفل حيث يصب فى حوضه الذى يقع فى الوادى • وفى
بعض الأحيان تترك المياه تتدفق فى قنوات البامبو لتروى حقول الأرز
والنبوت النائية • وفى كل عام تقطع أشجار الغابات التى تنمو على
جوانب التل وتحرق • ومن الممكن رؤية ممرات مهمة تقع بالقرب من
كل قرية ، كانت قد أزيلت منها الأشجار وأصبحت تجرى فيها قنوات
مائية صغيرة • وتستخدم الفتوس فى قطع الأشجار ، كما تستخدم
المحاريث الخشبية فى زراعة الشرفات • ويخشى هؤلاء المزارعون
الأجلاف المطر الغزير أشد من خشيتهم من الجفاف • ولكن طبيعة
الأرض الخصبة فى العموم تعوضهم بكميات وافرة من الأرز والذرة
والقطن والدخان • وبجوار القرى توجد البساتين التى تزرع فيها
أشجار الخوخ والرمون الجوافة ، كما تمتلأ الغابات بأشجار جوز الهند
والبرقوق والكرز ، وأنواع متعددة من شجر التوت البرى • وفى
المنحدرات الأكثر ارتفاعا تزدهر أشجار التلوط والبتولا ، كما تغطى
أشجار « سيناموم كوادتوم » و « س • كاسيا » مساحات كبيرة ،
ومنها يستخلص الزيت الذى يعرف بزيت القرفة • وتقطع مئات من
هذه الأشجار لتهيئة الأرض للزراعة ، وتحرق جذوعها وفروعها حيث
تهوى على الأرض •

ويتضح الأصل المغولى لهؤلاء « الكاشينيين الصينيين » من
ملاحظتهم الطبيعية وان كانوا ينقسمون الى نمطين • والملامح العامة
للنمط السائد فيهما هى الوجه القصير المستدير والجبهة المنخفضة وعظام
الخدود البارزة والأنف العريض والشفاه البارزة الغليظة والذقن
المستدير العريض والعينان الوزيتان المتباعدتان • ويخفف من قبح

هذه الملامح تلك البشاشة التي تشيع في وجوههم • أما لون الشعر والعينين فهو في الغالب اللون البنى الداكن ، كما أن لون البشرة هو الأصفر المغبر • أما ملامح النمط الثانى فهي أكثر رقة ، وهى تذكر بملامح وجوه نساء « الكاشاريين » و « الليشا » فى « سيخيم » • وأهم ما يميز هذا الوجه تلك العينان اللوزيتان والوجه الذى يميل الى الطول أو هو بالأحرى يميل الى الشكل البيضاضوى المفرطح • ومن ملامحه كذلك الذقن المدببة والأنف الأقنى والخدود ذات العظام الناتئة • أما لون البشرة فأبيض ، وهو فى بعض الحالات يشبه لون بشرة الأوربيين • وربما كان أصحاب هذا النمط خليطا من الدم « الثانى » و « البورمى » • ويميل هؤلاء « الكاشينيون » الى القصر كما أن أطرافهم نحيلة وان تكن متناسقة ، أما أرجلهم فقصيرة غير متناسقة • وعلى الرغم من أن « الكاشينيين » ليست لديهم قوة عضلية الا أنهم رياضيون ونشيطون ، فهم يحملون الى أسفل الجبل أحمالا من خشب الوقود وكميات من الأخشاب الأخرى ، وهو ما لا يستطيع الرجل الأوروبى أن يفعله الا بجهد جهيد • وتثب بناتهم الصغار فى الممرات كالغزلان ، بينما تتطاير خصلات شعورهن السائبة فى الهواء •

ويسود نظام الحكم الأبوى بين سكان الجبال هؤلاء حتى اليوم • فكل عشيرة يحكمها زعيم ورث الحكم عن أبيه الزعيم ويساعده نواب قد توارثوا هذه الوظيفة كذلك • والأمر الذى يبعث على العجب أنه بينما تراعى وراثة الابن الأكبر لمنصب نائب أبيه الزعيم فى صرامة ، « فان الابن الأصغر يرث زعامة العشيرة عن أبيه • فإذا كان اصغر الابناء قد توفى ورثه أصغر الابناء الاحياء • وهذا النظام يتبع فى وراثة الارض ، فالابن الاصغر هو الذى يرث الأرض فى كل الاحوال ، بينما يرحل الابناء الكبار ويستصلحون اراضى يمتلكونها » • ومن ثم فان حق الابن الاصغر فى الارض يرتكز على عادة خروج الابناء الكبار الى الحياة ليبحثوا عن رزق لهم ، بينما يبقى الابن الاصغر مع والديه فى بيت الأسرة القديم •••

وقد تعرف دكتور « جون أندرسون » على عادة شبيهة بتلك
العادة منتشرة بين « الشانين » في الصين وهم جيران الكاشينيين في حي
« بونان » • فالزعماء — كما يقول — يمارسون سلطة الأبوة في
مقاطعاتهم بمساعدة مجلس الزعماء ، فهم يقضون بين الناس في جميع
الأحوال المدنية والجنائية • والزعيم (تساوبوا) هو المالك الاسمى
للأرض جميعها ، ولكن كل أسرة تضع يدها على قطعة محددة منها
تزرعها وتقدم عشر المحصول ضريبة للزعيم • ولا يجزؤ أحد على أن
يزعج هذه الأسرة في أرضها ، كما أن هذه الأرض تؤول بعد الأب الى
الابن الاصغر ، بينما يبحث الاخوة الآخرون لهم عن عمل آخر أو عن
تجارة اذا كانت مزرعة الأب صغيرة للغاية • ومن ثم فان الشانين
يميلون الى الهجرة والاقامة في أرض خصبة كما يحدث في « بورما
البريطانية » •

وأغلب « الشانين الصينيين » ينصرفون الى الزراعة وربما وصلوا
الى مستواهم في الزراعة مستوى البلجيكين ، فهم يزرعون كل شبر
من أرضهم ، ومحصولهم الرئيسى هو الأرز الذى ينمو في حقول صغيرة
مستديرة تجاورها السدود ، كما تمر بها الممرات وبوابات المياه لريها •
ففى فترة الجفاف تترك المياه لتتدفق من أقرب نبع وتنساب خلال
القنوات التى لا يحصى لها عدد حتى يتسنى لهم أن يرووا كل حقل
من الحقول في راحة • وفى بداية شهر مايو يبدو الوادى من أحد طرفيه
الى الطرف الآخر بقعة من المستنقع المائى الذى يمتلىء بسيقان الأرز
الذى يتلألأ فى أشعة الشمس • أما حوض النهر فيكاد يبدو نصفه
عاريا نتيجة خلوه من المياه التى تدفقت فى الحقول •

و « الشانيون » أو بالأحرى « الشاى » هم أكثر العناصر كثرة
وانتشارا فى شبه جزيرة الهند الصينية ، فهم ينتشرون فيما بين
« أسام » الى « كوانج — سى » فى الصين ، ومن « بانكوك » الى
داخل « بونان » • و « سيام » هى الولاية المستقلة اليوم بين الولايات
الشانية • ويرتبط « الشانيون » بالصينيين ارتباطا وثيقا فى الملامح

الشكلية وفي اللغة • حقا ان اللغة الصينية واللغة الشانيةتعدان اختين سواء في التركيب اللغوي أو من ناحية الثروة اللغوية ، وهما في ذلك تختلفان اختلافا كليا عن كل من لغة « بورما » و « التبت » اللتين تنتميان — رغم هذا الاختلاف — الى هذه الأسرة اللغوية العامة التي يطلق عليها علماء اللغة اسم اللغة « الصينية — التبتية » • وعلى الرغم من أن الطبيعة الجبلية تغلب على بلاد الشانيين ، الا أنهم لا يعترفون بأنهم سكان تلال ، وذلك لأنهم يفضلون الارتباط بالوديان المسطحة الغربية ، وبطون الوديان التي تتخلل الجبال • وفي كل مكان تجد الزارعون الكادحون ، كما تخترق السهول الاكثر اتساعا قنوات الري بينما تحول السدود المجارى المائية الى قنوات تروى المنحدرات • وقد تستخدم العجلات المصنوعة من المامبو في رفع المياه الى الحقول ، حيث ترتفع شواطئ الانهار ، وحيث توجد الاراضى المسطحة بوفرة بحيث تعوضهم جهودهم : البدنية والمادية • فاذا كانت الاقامة غير ميسرة في السهل ، فقد يلجأ الشباب في بعض الاحيان الى قطعة من الارض تكثر فيها الاحراش ، ولكن هذه الاراضى لا تصلح لزراعة الارز ، وانما تستغل في زراعة بساتين الفاكهة وأشجار الموز ، ومن الممتع أن نلاحظ أن عادة حق الابن الاصغر في الارث تنتشر بين شعب متقدم تقديما نسبيا مثل الشانيين •

ويقال : ان عادة حق الابن الاصغر في الارث تنتشر كذلك بين « الشانيين » الذين يسكنون التلال الواقعة على مشارف بورما وأسام • ولم يتحدد بعد نسب هؤلاء الشانيين على وجه التحديد ، ولكنهم ينتمون فيما يبدو الى الأسرة المنغولية ويتحدثون لهجات متفرعة من لغة « بورما — التبتية » • وما زال معظم « الشانيين » يعيشون حياة بالغة في الهمجية ، كما أن العداء يشيع بينهم وبين جيرانهم • وهم ينقسمون الى عشائر صغيرة كثيرة يغير بعضها على بعض أو على القرى البورمية المجاورة ، كما أنهم يعتمدون أساسا على الزراعة • ومحاصيلهم

الرئيسية هي الارز والبقول والسّمسم والدخان • على أن بلادهم ليست صالحة كلية للزراعة ، حيث أن التلال تغطيها الاحراش الكثيفة كما تتخللها الوديان الضيقة الصغيرة الشديدة الانحدار • على أن السكان قد طهروا بعض المناطق القريبة من القرى من الأحواش وأعدوها للزراعة • ومن أبرز قوانينهم في الزواج والارث ، تلك العادة التي تعطى الرجل الحق الاول في الزواج من ابنة عمه • والقاعدة هي « أن الابن الاصغر هو الذي يرث أسرته ، وهو ملزم بالبقاء في منزل أبيه ورعاية والديه وأخواته » ولكنه يبدو أن عادة حق الابن الاصغر في الارث قد تحولت بين « الهاكاشين » أو هي في طريقها الى التحول ، الى عادة حق الابن الاكبر في الارث ، وان كان الابن الاصغر في أسرتين أو عشيرتين على الاقل من بين عشائر هذه القبيلة ، هما « الكنلاوت » و « كلارسيوسونج » ، لا يزال على الدوام يرث مسكن الاسرة ، مالم يتنازل عن حقه ، أو يكون في حالة نزاع مع أبيه أو يكون مجذوما أو مجنونا • وقد كان القانون الثابت فيما مضى بين جميع عشائر « الهاكا » أن يرث الابن الاصغر مسكن الاسرة • ولكن رجلا بعينه كان يسكن في « سانجتى » ويدعى « لين نون » اورث مسكنه الى ابنه الاكبر بدلا من أن يورثه الى ابنه الاصغر ، ومنذ ذلك الوقت اتبعت معظم العشائر هذا النظام • « أما فيما يختص بملكية الارض (لاي رام) ، التي تقع في نطاق حوزة قبيلة « هاكا » فان ثلثى الارض يرثها الابن الاكبر والثلث المتبقى يرثه الابن الاصغر » •

وقانون الوراثة السائد بين قبيلة « كامى » أو « أهكامى » ، وهى قبيلة تسكن تلال أراكان على حدود « بورما » ، هو أنه « اذا توفي الأب تاركا ولدين أو أكثر ، فان التركة تقسم على النحسو التالى : تقسم التركة بالتساوى اذا كان قد ترك ولدين • فاذا كانوا أكثر من اثنين فان كلا من الابن الاكبر والأصغر يأخذ نصيبين من التركة ، أما سائر الاخوة فيأخذ كل منهم نصيبا واحدا » • ويبدو أن هذا النظام في الارث يوفق بين عادتي حق ارث الابن الاصغر وحق

ارث الابن الاكبر ، ذلك ان الابن الاكبر والابن الاصغر يفضلان على قدم المساواة على سائر الاخوة المتوسطين • وربما اشار هذا التوفيق بين النظامين الى مرحلة الانتقال من عادة حق ارب الابن الاصغر الى عادة حق الابن الاكبر •

وقد قيل : ان عادة حق ارب الابن الاصغر تنتشر كذلك بين « اللولين » ، وهم جنس أصلي ذو شأن ينتشر في اقليم بونان الصينى ، وينتمى الى الأسرة المغولية ويتحدث فرعا من فروع لغة « بورما التيبية » ووفقا لما رواه رحالة انجليزى « ان نظام وراثة الممتلكات والخلافة فى الزعامة غريب عند هذا الشعب ، فالابن الأصغر يرث أباه عادة ، ومن بعده الابن الاكبر » •

وبهذا نكون قد فرغنا من الحديث عن القبائل المغولية التى يسود فيها نظام حق ارب الابن الاصغر • والآن نتعرض لقبيلتين يؤول الارث فيهما أساسا الى الابنة الصغرى • وهما قبيلتا «كهاسى» ، و « جارو » فى « أسما » • ولا يزال موضوع أصل قبيلة «كهاسى» ، وعلاقاتها العنصرية محل نقاش • فمن المؤكد أن هذه القبيلة تتحدث لغة لا تنتمى الى الأسرة المغولية على عكس كل القبائل المحيطة بها • ويبدو أن لغتهم تنتمى الى لغات « مون — كمير » التى يتحدث بها فى « الهند الصينية » ، تلك اللغات التى يعتقد الآن أنها تؤلف بدورها فرعا من أسرة لغوية كبيرة هى أسرة « أوستريك » التى يتحدث بها من همدغشقر فى الغرب الى جزيرة « ايستر » فى الشرق ، ومن نيوزيلندة فى الجنوب الى البنجاب فى الشمال • على أن تحدث قبيلة بلغة غير مغولية لا يعنى عدم انتمائها للعنصر المغولى • ذلك لأن اللغة اذا لم تثبت عن طريق الكتابة عند الشعب الذى يتحدث بها ، فإنه من السهل أن يهملها هذا الشعب ويستبدل بها لغة أخرى يستعيرها من عنصر مسيطر اختلط به هذا الشعب • وهناك أمثلة صائبة تشير الى هذا الانتقال السريع من لغة لاخرى ، دونت عن قبائل بورما الذين يتحدثون لغات ولهجات مختلفة • وتشير الملامح

انطبيعية لأفراد لقبيلة « كهاسى » وبالمثل طبائعهم الى أصلهم المغولى، فمظهرهم الخارجى لا يخطئه انسان بحق كما يقول «سير وليم هنتر» • فهم قصار قويو العضلات ذوو رعوس كبيرة ، وخدود ذات عظام عالية عريضة ، وأنوف مفلطحة ، وذقون ذات شعر قصير ، وشعور مسدلة سوداء ، وعيون ذات لون بنى أو أسود ، وجفون منحرفة وان ام يكن انحرافها على نحو جفون — الصينيين وبعض القبائل المغولية • أما بشرتهم فيختلف لونها من مكان لآخر ، من اللون البنى الفاتح الذى يميل الى الصفرة الى اللون البنى الداكن • وهم مرحون بطبعهم ، جذلون ، سمو الطباع ويميون كل الميل إلى المنكته • وكل هذه الخصائص تؤكد بحق وجهة النظر التى تقول : ان قبيلة « خاسى » تنتمى الى المجموعة المغولية أكثر من انتمائها الى مجموعة الشعوب الجنوبية والاستوائية فى أساسها ، تلك المجموعة التى تنتمى قبيلة « خاسى » بلغتها اليها •

ومهما يكن الامر ، فان قبيلة « خاسى » لا تختلف فى وسائل حياتها ومستواها الحضارى بشكل عام عن القبائل المغولية التى تسكن جنوب شرق آسيا وتتبع فى نظام الرثا عادة حق ارث الابن الاصغر • فأفراد هذه القبيلة يعيشون فى قرى مستقرة قلما يغيرونها ، وهم يعتمدون أساسا على الزراعة حيث أنهم مزارعون نشيطون وان كانت الوسائل التى يتبعونها فى فلاحه الأرض بدائية على نحو ما • وهم يقومون بقطع أشجار الغابات وحرقتها كما تفعل معظم القبائل التى تسكن تلال هذه المنطقة ، وبذلك يحصلون على أراض جديدة يعدونها للزراعة • أما غذاؤهم الرئيسى فهو الأرز والسمك الجاف •

ويعتمد النظام الاجتماعى لقبيلة « خاسى » على صلة القربى بالأم ، أى على الرجوع بسلسلة نسبهم الى النساء فحسب • فكل عشيرة من عشائر هذه القبيلة تدعى صلة نسبها الى جدة ما لا الى جد ، كما أن كل رجل يرجع بسلسلة نسبه الى أمه فجده وهكذا ، ولا

يرجع به إلى أبيه فجدّه • وكما أنهم ينتسبون إلى أمهاتهم ، فإن الارث كذلك يؤول إلى نساء الاسرة لا إلى ذكورها • والابنة الصغرى هي التى ترث أمها وليست الابنة الكبرى • فإذا توفيت الابنة الصغرى فى حياة أمها ، فإن أختها الأكبر منها مباشرة هي التى ترث الأم • فإذا لم يكن للأم بنات ، فإن التركة تؤول إلى أصغر أخواتها التى ترثها بدورها أصغر بناتها • حقا ان البنات الكبار لهن حق المشاركة فى الارث عند وفاة الأم ، ولكن الابنة الصغرى تحصل على النصيب الأكبر بما فى ذلك جواهر الأسرة ومسكنها ، بالإضافة إلى أكبر نصيب من محتويات البيت • ومع ذلك فإنه لا يحق لها أن تتصرف فى مسكن الاسرة دون موافقة اخواتها الكبار اللانى يكفن بدورهن باصلاح هذا المسكن على نفقتهن • أما عن الأرض فانها تؤول إلى الابنة الصغرى وحدها على أن تشاركها أخواتها فى محصول الأرض • وغالبا ما تعيش الأجددة وبناتها وحفيداتها تحت سقف واحد أو فى منازل منفصلة تقع فى محيط واحد • والجدّة هي التى تدير أمور البيت طالما كانت على قيد الحياة • وفى مثل هذا المسكن الذى يسيطر فيه العنصر النسائى ، ليس هناك وجود للرجل ، فالرجل ليست له أدنى أهمية ابنا كان أو أخا • ذلك لأنه يترك البيت عندما يتزوج ويعيش مع أسرة زوجته • فإذا كان زوجا لحدى نساء البيت ، فإن هذا لا يرفع من قدره فى هذه الأسرة ، لأنه لا يعد عضوا من أعضائها كما أن ليس له أى حق فى الارث ، وإنما ينظر إليه بوصفه مجرد والد • وكل الممتلكات التى يكونها بعرق جبينه تؤول إلى زوجته بعد وفاته ، ثم تؤول من بعدها إلى الابناء على أن تحصل الابنة الصغرى على أكبر نصيب كالعادة • هو يظل فردا غريبا طالما كان يعيش فى مسكن زوجته • فإذا توفى فإنه لا يدفن فى مداخل الاسرة بجوار قبر زوجته ، بل لا يمس رماد جثته رماد جثتها •

وعادة ارجاع النسب إلى المرأة ، وانتقال الارث بين النساء

بدلاً من الرجال عادة مألوفة بين الاجناس غير المتمدينة • وربما يرجع السبب في أصل نشأتها الى التأكد من صلة النسب بالأم بالمقارنة الى عدم التأكد من الانتساب الى الأب ، وذلك في مجتمع يبيح في حرية الاتصال بين الجنسين • على أن هذه مشكلة كبيرة صعبة تبعدنا مناقشتها عن موضوعنا الرئيسي • وكل ما يهمنا هو أن العادة المتبعة بين قبيلة « خاسي » في الوقت الحاضر ، بصرف النظر عن مدى قدم هذه العادة بينهم ، ترتبط بنظام يلزم البنات بالبقاء ، وفقاً له ، في بيت الأسرة ، في حين يخرج الأبناء ليعيشوا مع أسر زوجاتهم • فالنساء اذن في ظل هذا النظام ، هم الافراد الذين يبقون مدى الحياة في بيت الأسرة ، ومن ثم كان من الطبيعي أن يسيطرن على البيت ومحتوياته بدلاً من أن يسيطر عليهما الرجال الذين يتركون بيوت أسرهم ليعيشوا في أسر زوجاتهم ، وبذلك يقضون فترة من حياتهم في كل بيت • وهذا السبب نفسه يفسر وراثته النساء للأرض ، اذا كانت الأرض تقع بجوار مسكن الأسرة الذي يتركه الأبناء الذكور لينضموا الى أسر زوجاتهم في قرى نائية • ولعله من السهل الآن أن نفهم في ظل هذه الظروف السبب في أن البنات لا الأبناء ، هن اللاتي يرثن ممتلكات الأسرة ، الحقيقة منها والشخصية •

على أننا اذا كنا قد قدمنا السبب في تفضيل النساء على الذكور في الارث ، فما زال علينا أن نبحث عن سبب تفضيل الابنة الصغرى عن اخواتها اللاتي يكبرنها في الارث • وتفسر قبيلة « كهاسي » نفسها هذا التفضيل ، بأن الابنة الصغرى هي التي يلقي على عاتقها القيام بالواجبات الدينية • فهي التي تبقى على الدين على حد تعبيرهم ، أي أنها مكلفة بأن تؤدي شعائر الأسرة وأن تسترضي أجدادها • ومن ثم كان من العدل أن ترث الابنة الصغرى النصيب الأكبر في تركة الأسرة لما تتجشمه من القيام بالتزامات الأسرة • ولهذا السبب نفسه تفقد الابنة الصغرى هذا الامتياز كما لو كانت قد توفيت ، ويتمنحه أختها التي تكبرها مباشرة ، وذلك اذا هي غيرت دينها أو ارتكبت

دنسا بانتهاكها حرمة شيء مقدس • على أن هذا السبب الذى يعزى لتفضيل الابنة الصغرى على أخواتها على هذا النحو غير مقنع ، اذ ما زال علينا أن نتساءل عن سبب كون الابنة الصغرى أكثر ملاءمة من أخواتها فى القيام بواجب تقديس الأجداد • ويبدو انه ليست هناك أى اجابة عن هذا التساؤل • كما أن السبب الذى تعزوه القبائل بعد خروج الاخوة الكبار منه ليستقلوا بمعيشتهم ، لا يصلح تفسيراً لتفضيل الابنة الصغرى فى قبيلة « كخاسى » ، حيث أن البنات جميعاً يمكن ، كما رأينا ، فى بيت الاسرة ، وفيه يستقبلن أزواجهن • ومع ذلك فقد كان من الطبيعى أن نتوقع ان سبب تفضيل الابنة الصغرى ، يناظر السبب فى تفضيل الابن الاصغر • وبناء على ذلك فان النظرية التى تفسر حالة ، ولا تفسر الحالة المشابهة لهما ، لا تعد نظرية مقنعة •

أما القبيلة الثانية فى « أسام » التى تتبع عادتى الانتساب الى الأم وتفضل الابنة الصغرى بالارث ، فهى قبيلة « جـارو » التى تسكن التلال غير المشاهقة التى تغطيها الغابات الكثيفة وتسمى باسم القبيلة • وليس هناك شك فى انتماء هذه القبيلة للأصل المنغولى ، ذلك أن أفراد هذه القبيلة فصار البنية ، أقوىاء الأطراف نشيطون وملاحهم شديدة الشبه بملاح الصينيين • وهم يتحدثون لغة « بورما — التبتية » التى تنتمى الى أسرة لغات « الصين — التبتية » • حقا انه يروى عنهم رواية مشهورة « عن هجرتهم من التبت ووصولهم الى السهول التى تقع فى سطح جبال الهمالايا ، وعن تجوالهم شرقا الى وادى « براهما بوترا » ، وعن تعقبهم مرة أخرى لآثار خطواتهم حتى وصولهم الى السهول التى تقع بين هذا النهر والتلال التى يسكنونها اليوم • ويبدو أنهم استقروا فى هذا المكان بعض الوقت قبل أن يقوموا بتجوالهم الأخير الى البلد الجبلى الذى يعد اليوم موطن هذه القبيلة • وقد أزيات كل الغلات البكر التى كانت فيما سلف تغطى تلال « جـارو » ، وذلك بقصد

• بيئة الأرض للزراعة • ولكن البامبو والأشجار الصغيرة حلت محل الغابات ، ذلك أن البلاد كله على وجه التقريب قد غطته الأحرش الكثيفة فيما عدا مساحات من الأرض أزيلت منها هذه الأحرش وأعدت للزراعة • والرجل « الجاروى » هو في الأصل رجل مزارع ، ففلاحة الأرض هي أول وآخر عمل يقوم به في حياته ، وهو العمل الذي يبذل فيه قصارى جهده • وطريقته في فلاحة الأرض ساذجة ، فهو يختار قطعة من الأرض غالبا ما تقع على جانب التل ، ثم يزيل منها الأحرش في الجو البارد الذي يدوم من شهر ديسمبر الى شهر فبراير • وتظل الأرض مغطاة بالأشجار أو البامبو ، حيث ان معظم أحرش التلال ينمو فيها البامبو وحده ، حتى نهاية شهر مارس حيث تحرق وهي راقدة في مكانها • ثم تبذر البذور في شهرى ابريل ومايو بمجرد أن تسقط قطرات المطر الأولى • وهم في ذلك لا يعزقون الأرض أو يحرقونها ، وإنما تحفر فيها حفر بعصاه مدببة وتوضع بعض بذور الأرز في كل حفرة • أما الذرة العويجة فترمى بذوره ببساطة بين رماد الأحرش المحترقة • فإذا أعدت الأرض على هذا النحو ، فإنهم يستمرون في زراعتها مدة عامين ثم تهجر وتترك بورا مدة سبعة أعوام على الأقل • وتبنى القرى عادة في الوديان أو في الأغوار التي تقع على جوانب التلال حيث تتدفق المياه في وفرة • أما جـول القرى فامتد الأحرش من كل جانب الى مالا نهاية • وتشيد البيوت على أعمدة طويلة يبلغ ارتفاعها مائة قدم • وحيث ان البيوت تخلو من النوافذ ، فان الظلمة والكآبة تشيعان فيها من الداخل • وتشغل حجرة العائلة الجزء الأكبر من المبنى • وفي هذه الحجرة تنام النساء غير المتزوجات ، كما تجترأ منها أجزاء ليغام فيها البنات المتزوجات وأزواجهن • أما رب الأسرة وزوجته فلهما حجرة نوم خاصة بهما • أما الرجال العزب فلا ينامون في بيت الأسرة ، بل ينامون في مسكن منفصل يبيت فيه كل رجال القرية غير المتزوجين • ويأوى الزائرون الأغراب الى فناء هذا المسكن المنفصل ، كما يعقد فيه رجال القرية اجتماعاتهم • وهذه العنابر التي يبيت فيها الرجال العزاب مألوفة

لدى قبائل « انجبا » فى « أسام » ، ولكنها لا توجد عند
« الخاسيين » الذين يسكنون النجاد •

وتنتشر عادة الانتساب الى الأم بين قبيلة « كارو » كما تنتشر
بين قبيلة « كهاسى » • فالزوجة هى ربة الأسرة ، وكل ممتلكات الأسرة
تورث من خلالها • وتنقسم القبيلة الى مجموعات من الأسر العديدة
التي تمتد بسلسلة نسبها الى الأم ، وتسمى « ماشونج » • وأفراد
كل مجموعة من هذه المجموعات يرفعون نسبهم الى جدة ١ ، لا الى
أبيهم الذى تكاد تجهله أسرته • ويتبع هذا النظام فى الارث كذلك ،
اذ أن الارث يقتصر على فرع النساء • ولا يحق للرجل أن يملك
ممتلكات الا عن طريق ما يكسبه بعرق جبينه ، أما ممتلكات الأسرة
فليس له حق فيها بأية حال ن الاحوال • « فقانون الارث يمكن أن
يتلخص فى أن الممتلكات متى اصبحت فى حوزة سلسلة الامومة ،
لا تخرج منها • واذا كان أولاد الام ينتسبون اليها ، فقد يبدو لاول
وهلة أن الابن يؤكد هذا النظام • لكن الذى يحدث أن
الابن يتحتم عليه أن يتزوج امرأة من عشيرة أخرى ، فاذا أنجب
أبناء ، فانهم ينتمون الى أمهم • ومن ثم فان الارث يؤول الى الابنة
ثم الى ابنتها من بعدها وهكذا • فاذا لم يكن للأم ابنة ، فان التركة
تؤول الى امرأة أخرى من نفس العشيرة يعينها بعض أفراد هذه
العشيرة » • على أنه على الرغم من ان اقطاعية الاسرة وممتلكاتها
تنتمى الى المرأة من الوجهة القانونية ، فان الزوج هو الذى يستفيد
عمليا من هذه الممتلكات فى أثناء حياتها • فأرض قرية من القرى —
على سبيل الايضاح — هى ، على وجه التحديد ، ملك لزوجته رئيس
القرية ولكنه على السببة الناس وفى أذهانهم ، هو مالك هذه الأرض •
وعلى الرغم من انه يستمد حقوقه كلية من زوجته ، فان اسمها لا يذكر
فى الدعوات القضائية ، اللهم الا اذا كان من صالح المدعى أن يذكر
اسمها • فالمرأة عمليا ، ليست سوى الوسيلة التي تنتقل من خلالها
الممتلكات من جيل لجيل وذلك لمصلحة الذكور فى المصاف الاول •

على أن كل ما سنعناه من الثقافات الذين أعتمدنا عليهم في أقاليمنا هذه ، يختص بتفضيل الاناث على الذكور في الارث بين قبيلة « جـارو » ، ولكن شيئاً لم يذكر عن تفضيل الابنة الصغرى على سائر أخواتها . اذ لم يذكر الرائد « بلايفير » الذى أمدنا بوصف قيم لهذه القبيلة ، شيئاً حول هذا الموضوع . وربما استطعنا أن نعزو عدم ذكره لهذا الموضوع ، أن عادة حق ارث الابن الأصغر بين قبيلة « جـارو » قد انقرضت في عصرنا الحاضر ، أو هي في سبيلها الى الانقراض . ولكنه يبدو أن هذه العادة كانت تتبعها هذه القبيلة على الأقل حتى نهاية القرن الثامن عشر على وجه التقريب . ذلك أن باحثاً انجليزياً زار هذه القبيلة في عام ١٧٨٨ م وعكف على دراسة أحوالها ، ودون عنها هذه العادة . فبعد أن وصف هذا الباحث حفل زواج رآه رأى العين عند هذه القبيلة ، قال : « لقد درست ظروف احتفال الزواج عند قبيلة « جـارو » من خلال مشاهدتى لحفل زواج « لونجرى » ، ابنة الزعيم « أوداسى » الصغرى التى تبلغ من العمر سبع سنوات ، من ابن رجل من عامة الشعب فى قبيلة « جـارو » ، هو « بوجلون » الذى يبلغ من العمر ثلاثة وعشرين عاماً . ويحق لى أن أدلى بملاحظتى فى هذا الموضوع ، وهو أنه على الرغم من عدم تكافؤ السن والمستوى الاجتماعى فى هذا الزواج ، فإنه من حسن حظ « بوجلون » أن يتم له هذا الزواج ، حيث أنه سيرث الزعامـة والارض معا . ذلك أن الابنة الصغرى عند قبيلة « جـارو » هي على الدوام صاحبة الحق فى الارث وليس لأحد من اخواتها الذين ولدوا قبلها أن يرثوا شيئاً عند موت والدها الزعيم . والأغرب من هذا ، أنه اذا توفى الزوج « بوجلون » ، فإن « لونجرى » تتزوج أحد اخوته . فإذا لم يكن له أخوه تزوجت أباه . فإذا كان الأب كهلاً رفضته وتزوجت ممن تختاره . »

وبهذا نكون قد أشرنا الى انتشار عادة حق الابن الاصغر بين عدد من القبائل التى تسكن « الصين الجنوبية الغربية » والمناطق

المجاورة لها في «بورما» و «أسام» • وتنتمي هذه القبائل جميعا فيما عدا قبيلة «كهاسي» التي يساورنا الشك في أصلها ، إلى الأسرة المغولية • ويعتقد الباحثون أن الموطن الاصلى لهذه القبائل كان الصين الشمالية الغربية فيما بين أعالي نهري «يانج - تسي - كيانج» ، و «هو - أنج - هو» ، ومن هذا المكان انتشروا إلى كل الجهات • وقد مروا مقتفين أثر وديان النهر في أثناء هجرتهم بأنهار «شين دومين» ، و «اراوادي» و «سالوين» ، حتى وصلوا إلى «أسام» • وقد هاجرت هذه الشعوب المغولية في ثلاث هجرات متعاقبة كانت آخرها هجرة «الكاشينيين» أو «السينجفونيين» •

وقد استمرت هذه الهجرة الأخيرة إلى أن أوقفها الاحتلال البريطاني لبورما الشمالية • وقد كانت وديان نهري «براهما بوترا» و «اراوادي» الكبيرين هي بحق المنافذ التي تدفق منها الغزاة الشماليون الجسوسون من مواطنهم الشمالية الباردة الجرداء في قلب آسيا ، ليقوموا بغزو بقاع في الجنوب أكثر دفئا وأكثر غنى من موطنهم الأول • وقد استطاعوا ، عن طريق هذا المسلك الطبيعي ، أن يحولوا جانب الحاجز الطويل الذي لا يخترق في يسر ، الذي يتمثل في جبال الهملايا ، إلى ممر مباشر لغزو الهند من جهة الشمال • على أنه يبدو أن جماعات هؤلاء الغزاة لم تتقدم على الإطلاق في أثناء سيرهم جنوبا ، فيما وراء جبال «أسام» المتجهة التي تكثر فيها الغابات وتهطل عليها الامطار المغزيرة • فهناك توقف سيرهم ، وهناك استقروا وما زالوا مستقرين في هذا المكان حتى اليوم ، كما لو كانوا ، طليعة من جيش كبير تتطلع إلى قمم التلال الباردة وأطراف صعيدها المرتفع عبر الوديان الحارة والسهول اللافحة التي يكسوها بساط سندسي أخضر يمتد إلى أسفل إلى آلاف الأقدام حتى يختفى مع الأفق ، أو يتصل بسلسلة من جبال ترتطم بزرقة السماء في الأفق البعيد • ومن المحتمل أن حرارة الهند كانت أشبه بدرع واق ضد هؤلاء الغزاة أكثر فعالية من أسلحة السكان الضعيفة ، هؤلاء

الذين لم يكونوا موثعين بالحرب • أما في البقاع التي استوطنوها ، فقد كانوا يتنسمون في حرية غير أشجار البلط وجوز الهند ، والتنوب ، تلك التي تنمو في هذه الغابات ، وكانوا يخشون أن يهبطوا الى أسفل حيث تنمو أشجار النخيل والسرخس والخيزران •

على أن عادة حق ارث الابن الاصغر أو الابنة الصغرى لم تكن تقتصر في هذه البقاع على القبائل المغولية • فالمتبع عند قبيلة « مرو » ، وهي قبيلة صغيرة تسكن التلال الواقعة بين « أراكا » و « تشيتاجونج » ، انه اذا تزوج الأبناء والبنات فان الأب يعيش مع ابنه الاصغر أو ابنته الصغرى • وعند موته يرث هذا الابن أو تلك الابنة تركته من بعده • ورجال الموريين طوال أقوىاء ذوو بشرة دكناء ، ليست لهم ملامح مغولية • وهم يزرعون الأرز ويشربون اللبن ويأكلون لحم البقر أو لحم أى حيوان آخر • وهم شعب مسالم بطبعه • جبان وبسيط ، ويميل لأن يفض منازعته عن طريق التضرع الى الارواح أكثر من أن يفضها عن طريق الحرب • والشباب عندهم يخدم مدة ثلاث سنوات من أجل زوجته في بيت أبيها • فاذا كان غنيا ، ففي وسعه أن يدفع لأهل الزوجة مبلغ مائتين أو ثلاثمائة روبية مقابل هذه الخدمة •

وكذلك تنتشر عادة حق الابن الاصغر في الارث بين « الهويين » أو « الماركا كولييين » « لوركا كول » ، الذين يسكنون حى « سينجبهوم » في البنغال الجنوبية الغربية • وينتمى « الهويين » الى الجنس الأضلى ذى اللون الداكن الذى يسكن الهند • وهم يشبهون « الدرافيديين » في ملامحهم الطبيعية • وان كانوا يتحدثون لغة تختلف كلية عن لغتهم ، وهي لغة يعتقد في أنها فرع من أسرة « أوستريك » التي تعد لغة قبيلة « كهاسى » التي تسكن أسام فرعا منها كذلك • أما الجنس الذى ينتمى اليه « الكوليون » ، فقد ألف الناس أن يسموه « الكولاريين » • أما اليوم فهو يسمى في العادة « موندا » نسبة الى القبيلة التي تسمى بهذا الاسم • و « الهويون »

أو «الاركوليون» شعب زراعى صرف ، وقد تطورت أساليبه الزراعية الى درجة أنه يستخدم المحاريث الخشبية ذات الرعوس الحديدية • ويبدو أنهم كانوا يسكنون فى الأصل اقليم «شوتانا جيور» ، وهو الصعيد الشاسع المنعزل الذى يقع فى الشمال من موطنهم الحالى، واذى ما زال أقرباؤهم الموندانيون يسكنونه • ويعترف «الهوريين» بصلة قرابتهم الى «الموندانيين» كما يحتفظون برواية عن هجرتهم من «شوتانا جيور» • ووفقا لما تروييه قبيلة «أراون» وهى قبيلة لا تزال تعيش فى حالة أكثر بدائية من «الهوريين» وتسكن اقليم «شوتانا جيور» ، أن غزو «الهوريين» للنجد المرتفع هو الذى دفعهم الى البحث عن وطن جديد لهم فى الجنوب • على أنه ليس من اليسير أن نعتقد أن «الهوريين» قد تنحوا لجنس دونهم حضارة ، وغير مولع بالحرب مثل «الأورانيين» وأفسحوا لهم الطريق • ومهما تكن أسباب هجرة «الهوريين» ، فانهم يسكنون الآن بلادا أكثر وحشة ووعورة من التلال الرومانسية ووديان «شوتانا جيور» التى هجرها اجدادهم منذ زمن طويل • أما الاقليم الذى يسكنونه ويعرف باقليم «كوليهان» أو «كولييهان» فتموج فيه فى كل مكان كتل متجهة من الصخور البركانية المتكسرة • وفى كل مكان يصطدم البصر بسلسلة من الجبال تبلغ ارتفاعها ثلاثة آلاف قدم • وأكثر الأماكن خصوبة وازدحاما بالسكان وأعلاها مستوى فى الزراعة ، تلك الاراضى المنخفضة التى تحيط «نشايان» • أما فى الغرب فتمتد منطقة من التلال والأحراش الشاسعة التى تخترقها بعض الوديان البانعة ، بينما تغطى المنطقة التى تقع فى أقصى الجنوب الغربى كتلة من الجبال المتجهة ذات الغابات الكثيفة ، تلك التى تعرف باسم «سارندا ذات التلال السبعمائة» • وهناك يسكن سكان القرى القليلة الصغيرة المنعزلة فى وهاد عميقة غير قادرين على مقاومة النمر التى تجرس الاحراش الكثيفة خلصة • «والهوريون» الذين يسكنون هذه الاماكن المرتفعة المنعزلة أكثر همجية وأشد قسوة من اخوانهم الذين يسكنون الاماكن المنخفضة ، كما أن وسائلهم فى الزراعة بدائية ، فهم يقطعون الأشجار

في مساحات صغيرة في الغابة أو الأعراس التي تحيط بقراهم الصغيرة • ويعدونها للزراعة • وعلى الرغم من أن التربة السوداء تدر لهم محصولاً في بادئ الأمر • إلا أنها سرعان ما تستهلك بسبب الأساليب البدائية التي يتبعها «الهوويون» في زراعتهم • ومن ثم فهم يضطرون بعد ثلاث أو أربع سنوات من زراعتهم لتلك الأرض أن يعدوا على النحو نفسه ، أرضاً جديدة للزراعة وأن ينوا لأنفسهم مساكن جديدة في مكان آخر من البراري المترامية • فإذا لم تسعفهم مواردهم الغذائية في أوقات المجاعات ، فإن هؤلاء المتوحشين سكان الأماكن المرتفعة ، يغيرون على جيرانهم ويحضرون معهم إلى حصونهم المنيعة كل ما يمكن أن تقع عليه أيديهم من غنائم • على أن الأمر أحسن حالا بالنسبة لأقربائهم الذين يسكنون الأحياء الخصبة المنطلقة التي تقع في الشمال • فهناك تقع القرى وشيعة فوق التلال وتطل على حقول الأرز المنبسطة في هيئة شرفات ، وعلى الأراضي المرتفعة المتوجة • ومما يزيد معالم البلد الجميلة ما بها من أشجار التمر الهندي العتيقة النبيلة التي تزين جوانب التلال مختلطة بأشجار المانجو والبنامبو • أما بيوتهم الفسيحة المتينة فتقف بسطوحها المسقفة بالغاب وشرفاتها الانيقة في المكان المخصص لها مكونة مع الأبنية التابعة لها أشبه بهيكلان يقف وسطه برج الحمام • وتضم القرية الخضراء التي يكسوها بساط من العشب الأخضر ، وتظللها أشجار التمر الهندي الضخمة ، ألواحاً من الأحجار « يرقد تحتها أجداد القرية الغلاظ » • وهناك تحت ظل الأشجار الذي يثير في النفس الرهبة ، يروق لشيوخ القرية أن يجتمعوا بعد الفراغ من عناء العمل وبعد أن تهدأ حرارة النهار ، فيجلسون على الأحجار التي سوف يرقدون تحتها مع أجدادهم رقدتهم الأخيرة ، ويستمتعون بالأحاديث والتدخين •

وكل قرية من قرى قبيلة «هو» يحكمها زعيم يسمى «موندا» ، وقد يحكم زعيم واحد مجموعة من القرى يبلغ عددها من ست إلى

اثنتى عشرة قرية ، ويسمى هذا الزعيم « مانكى » • ومن الغريب أن النظام الذى يتبع فى خلافة الزعماء يختلف عن ذلك الذى يتبع فى ارث الملكية الخاصة ، اذ بينما تتحكم عادة حق ارث الأكبر فى خلافة الزعيم ، نجد أن حق الابن الأصغر فى الارث هو الذى يتحكم فى وراثة الممتلكات • وهذه التفرقة بين النظامين يؤكد دكتور « وليم دونبار » الذى أخبرنا « أن العادة التى يتبعها «الكوليون» فى الارث فريدة فى نوعها • وقد شرحت لى هذه العادة لأول مرة من خلال الاشارة الى ظروف «مانكى» ، كما يسمى بذلك ، الذى تجاوز قراه معسكرات «تشايباسا» • فعلى الرغم من أن هذا الزعيم يحكم عددا كبيرا من هذه القرى ، وكان يعد رجلا قويا بين أقرانه ، فقد فوجئت بانه يسكن بيتا صغيرا فقيرا • وأن أخاه الأصغر يقيم فى أكبر بناء فى هذه القرى ، وكان ملكا لأبيه «المانكى» المتوفى • فلما استفسرت عن سبب هذا ، علمت أن الابن الأصغر يرث بانتظام أكبر نصيب فى الملكية الخاصة • ومن ثم فانه على الرغم من أن «المانكى» يخلف أباه فى الزعامة ويكون هو الشيخ الحاكم ، فإنه كان ملزما بأن يسلم الى أخيه الأصغر الممتلكات والمتاع • وإذا كان الدكتور «دونبار» لم يكن له علم من قبل بمثل هذا النظام فى الارث ، فان الرائد «تيكيل» قد ذكر هذه العادة نفسها التى يتبعها «الهوويون» أو «الاركاكولييون» فى ارث الملكية الخاصة ، وذلك قبل أن يذكرها ، «دونبار» بعدة سنوات ، فقال : «أن الابن الأصغر هو الذى يرث ممتلكات أبيه ، لأنه يكون عاجزا على أن يعول نفسه عند وفاة والديه على عكس اخوته الكبار الذين سبق لهم أن أعانهم أبوهم فى أثناء حياته فى سبيل الاستقلال بحياتهم » • أما عن سبب اختلاف النظام فى إرث الزعامة وإرث الملكية الخاصة ، فلا يحتاج الى البحث العميق ، اذ بينما نجد أنه ليس هناك ضرر من أن تؤول التركة الى الابن الأصغر لينتفع بها مهما يكن صغيرا ، فان المحكمة تتطلب أن يترك الحكم لأكبر الأبناء ، أى الذى الابن الأكبر •

وقد روى أن عادة حق ارث الابن الاصغر تتبع كذلك عند «البهيليين» وهم جنس أهلى بدائي يسكن الهند الوسطى • وهؤلاء قوم قصار ذوو بشرة سوداء وأجسام مكتنزة قوية ، ولهم مقدرة كبيرة على التحمل • قد قيل : ان اسمهم مشتق من اللفظ الدرافيدى الذى يعنى القوس ، وهو السلاح المميز لهذه القبيلة • وقد فقدت هذه القبيلة لغتها الأصلية ، ولكن من المحتمل ان هذه اللغة كانت تنتمى ، اما الى الأسرة الموندانيية (الكولارية) أو الى الأسرة الدرافيدية • وكان أفراد هذه القبيلة يتجولون فيما سبق فى الغابات التى تغطى جبالهم المحلية بوصفهم صيادين ، أما الآن فقد اضطروا أن يهجروا لعبة القنص وتجوأ لهم الحر فى الغابات التى كانوا يسببون لها تلفا بالغا • ويعيش الكثير منهم فى العصر الخاضر فى البلاد المفتوح وأصبحوا خدما فى المزارع وعاملين فى الحقول ، كما أن بعضهم يعمل مؤجرا فى الأرض ، والقليل منهم يمتلك قرى • وقد قيل : ان الذين يسكنون منهم فى «باروانى» فى الهند الوسطى على سبيل المثال ، لم يتأثروا بالحضارة حتى اليوم الا قليلا وما زالوا يعيشون حياة بدائية للغاية • وليست لهؤلاء قرى محددة ، اذ أن مجموعات الأكواخ التى يمكن أن تعد قرى تهجر الأدنى فزع ينتاب الاهالى ، فيكفى أن يسمعوا بمجىء رجل أبيض حتى يولوا هاربين تاركين أكواخهم ، كما أن هذه الأكواخ تقع متباعدة بعضها عن بعض فى نطاق ما يمكن أن يسمى قرية ، لأن كل رجل يخشى خديعة جيرانه له ، وما يمكن أن يدبروه من شر ضد زوجته • والبهيلى رجل غابة من الطراز الاول ، فهو ذو دراية بأقصر الطرق بين التلال ، كما أنه يستطيع أن يسير فى أكثر الممرات وعورة وأن يتسلق أكثر الصخور الشامخة انحدارا دون أن تزل قدمه أو يشعر بتعب • وكثيرا ما يطلق عليه فى الاعمال السنسكريتية القديمة اسم «فينابوترا» ، أى «طفل الغابة» ، أو يسمى «بال اندرا» ، أى «سيد الطريق» • وهذه الصفات توحى بشخصية «البهيلى» بحق ، فهو لم يكن يسمح لغريب أن يجتاز الشعب الضيقة « بال » المؤدية لبلده الا باذن منه ، كما كان يحصل على الجباية

من المسافرين عن طريق التهديد • بل انه ما زال حتى اليوم يفرض على المواطنين الذين يقومون برحلة ، الاعتراف بما يراه حقا شرعيا له • وفضلا على ذلك فانه صياد جرى وماهر ، فهو يعرف كيف يصيد النمر والأسود والدببة ، وكيف يقتفى أثرها حتى يقتلها • وفي وسع جماعة من البهيليين أن تهاجم ، هي مدججة بالسيوف وحدها فهذا هنديا وتقطعه أربا •

ويتحدد نظام الارث عند « البهيليين » الذين يسكنون « مالوا الغربية » و« إقليم » فيندهيان — سابوتارا » الذي يقع على طول وادي « ناربالندا » في الهند الوسطى ، وفقا لعادة القبيلة ، فالابن الأصغر يرث نصف التركة وهو مكلف بدفع نفقات الاحتفال الجنائزى الذى يقام فى اليوم الثانى عشر من وفاة أبيه ، كما عليه أن يعول إخوانه • أما النصف الثانى من التركة فيؤول الى الأبناء الآخرين • فاذا كان الأبناء يعيشون معا ، الأمر الذى قلما يحدث ، فان الأبناء يقسمون التركة بينهم بالتساوى • وهنا نجد مرة أخرى أن تقضيل الابن الأصغر فى الارث يعتمد ، فيما يبدو ، على بقائه وحده فى بيت الأسرة حين وفاة أبيه • فاذا حدث أن الأبناء جميعا كانوا يقيمون فى بيت الأسرة ساعة حدوث الوفاة ، فان الابن الأصغر لا يتمتع بأى امتياز ، وإنما يرث مع إخوانه على قدم المساواة •

ويبدو كذلك أن عادة حق الابن الأصغر فى الارث تنتشر فى شكل محدود بين « البداجايين » ، وهم شعب يشتغل بالزراعة ويعيش مع « الكوتايين » الذين يشتغلون بالزراعة كذلك ، و « التودايين » الذين يشتغلون بالرعى وحده فى تلال تيلجهيرى « فى الهند الجنوبية » • وفيما يلى ما ذكره دكتور « ريفرز » حول هذا الموضوع : « لقد ذكر « بريكسى » أن من عادة « التودايين » أن بيت الأسرة يؤول الى الابن الأصغر بعد وفاة أبيه ، ومن الواضح أن هذا القول لا ينطوى على شيء

من الصحة ، اذ أن هذه العادة لا يعرفها « التواديون » على الاطلاق ، ولكنها تنتشر بين « الباداجيين » • وقد قيل ان اتباع هذه العادة يرجع الى أن الابناء يتركون بيت الاسرة بعد زواجهم ، ويبتتون لهم بيوتا في مكان آخر • وعندئذ يكون لزاما على الابن الاصغر أن يظل مقيما مع أبويه وأن يعولهما وبهما على قيد الحياة • فاذا توفيا ظل مقيما في بيت الاسرة لأنه أصبح ملكا له •

وقد قيل ان بقايا انتشار عادة حق الابن الأصغر بالارث في شبه جزيرة الملايو قليلة ، ففي ولاية « ريمباو » احدى ولايات شبه جزيرة الملايو ، يؤول ارث الأسرة الى النساء • فاذا كان هناك أكثر من ابنة في الأسرة ، فان الابنة الصغرى هي التي ترث مسكن الأم ، وعليها في مقابل هذا ، أن ترعى أمها في هرمها • و « الباتاكيون » في سومطرة شعب زراعي ، ومن عاداته أنه اذا توفي رب الأسرة تاركا وراءه عددا من الأبناء أو الأخوة ، تقسم التركة فيما بينهم ، على أن يحصل أكبرهم وأصغرهم سنا على نصيب أكبر من أنصبة الآخرين • ووفقا لفقرات تشير الى اتفاقية في تشريع مدون وان لم ينشر فيما يبدو ، أن العادة المتبعة في اقليم « جورجيا » الذي يقع فيما وراء القوقاز ، أن الابن الأصغر يرث بالضرورة سكن أبيه الأمير أو النبيل عند وفاته ، بما في ذلك الأبنية الملحقة به والحديقة • فاذا كان هناك كنيسة ملحقة بتلك الأبنية ، فان الابن الأصغر يحتفظ بها كذلك بعد أن يقدر ثمنها وبعد أن يدفع لآخوته الكبار جزءا من ثمنها المقدر • أما عندما يتوفى الأب الزارع فان بيته ومزرعته تؤولان الى الابن الأكبر في حين يرث الابن الأصغر مخازن الغلال •

٥ - عادة حق الابن الأصغر في الارث في آسيا الشمالية الشرقية :

لقد رأينا أن كل الشعوب التي تنتشر بينها عادة حق الابن الأصغر في الارث ، باستثناء قبيلة « بهيل » ، شعوب زراعية • على أن هذه العادة تنتشر في نطاق محدود بين القبائل التي لا تزال في مرحلة

الصيد والرعى • فقد قيل انها تنتشر بين قبيلة « يوكاغير » ، وهي قبيلة مغولية تسكن سيبيريا الشمالية الشرقية ، ويعيش بعض أفراد هذه القبيلة على القنص وصيد الأسماك ، والبعض الآخر على رعى قطعان الأيائل • ويرجع عدم تمكن هذه القبيلة من ممارسة حياة الرعى الى قسوة الجو البالغة ، فهذه المنطقة تعد أبرد بقاع سيبيريا ، ان لم تكن أبرد بقاع العالم • « واليوكاغير » الذين يعتمدون في حياتهم على القنص وصيد الأسماك ويسكنون بجوار شواطئ النهر فقراء للغاية كما أنهم يتبعون في حياتهم أكثر الوسائل بدائية ، الى درجة أنه ليست لديهم أدنى فكرة عن ملكية أى أداة في نطاق الأسرة ، اذا صرفنا النظر عن نتائج غذائهم • فما يغنمونه من الصيد والقنص يسلم الى نسوتهم فتوزعه أكبرهن سنا على أفراد الأسرة • ويعترف بالملكية الفردية الى حد ما في حدود الملابس وأدوات الصيد مثل البنادق والمسهام وغير ذلك من أدوات الصيد • فكل فرد من أفراد الأسرة له ملابسه الخاصة ، كما أن كل فرد يقوم فيها بالصيد أو القنص ، له أدواته الخاصة به • وتشمل الملكية الخاصة كذلك أدوات الزينة وأدوات الحياكة مثل الابر والمقص والخيط ، كما يدخل في نطاقها أدوات التدخين مثل الغليون والقداحة وجراب الدخان وكذلك الزوارق • أما قوارب الصيد والشباك وبيت الأسرة وما يحتوى عليه من أدوات منزلية فتعد ملكا للأسرة بأسرها • أما فيما يختص بارث ممتلكات الأسرة ، فان المبدأ المتبع هو أن تتؤول هذه الممتلكات الى الابن الأصغر ، فاذا انفصل الأبناء الكبار عن الأسرة أو ذهبوا ليعيشوا مع عائلات زوجاتهم بعد وفاة والديهم ، فان ممتلكات الأسرة تبقى في حوزة الابن الأصغر ، كما أنه يمتلك بندقية أبيه • أما ملابس الأم وحليها فتؤول الى الابنة الصغرى • ولا يترك الابن الأصغر بيت الأسرة ليعيش في بيت زوجته كما سبق أن ذكرنا ، وانما يخدم والدها بعض الوقت مقابل زواجه من ابنته ثم يصطحبها الى بيت والديه • وتعل قبيلة « يوكاغير » تقضيها للابن الأصغر في الارث بأن الابن الأصغر يحب والديه أكثر من اخوته ، كما أنه مرتبط بهما أكثر من اخوته •

وإذا خرقنا النظر عن السبب العاطفى الذى تعزوه قبيلة
 « بوكاغير » فى تفضيل الابن الاصغر فى الارث ، فانه يحق لنا أن نزن
 أن سبب هذا التفضيل عندهم ، كما هو الحال عند القبائل الأخرى التى
 سبق ذكرها ، يرجع حقا الى عادة بقاء الابن الأصغر فى بيت والديه
 بعد أن يتزوج أخوته الكبار ويبرحوا بيت الأسرة ليعيشوا فى بيوت
 أسر زوجاتهم . وهذا الظن يصل الى حد اليقين اذا لاحظنا أن الأبناء
 فى هذا الفرع من قبيلة « بوكاغير » الذى يعتمد فى معيشتة على تربية
 قطع الأيائل ، « لا يبرحون بيت الأسرة بعد زواجهم وانما يبقون فيه
 ويتقاسمون ممتلكاته فى العادة . والأبناء يبقون معا فى بيت الأسرة
 بدوافع روابط القرى من ناحية ، وبسبب قلة الأيائل التى يربونها من
 ناحية أخرى ، الأمر الذى يجعل تقسيم ما ينتمى للأسرة غير عملى » .
 وليس هناك ما يمكن أن يلقى مزيدا من الضوء على عادة حق الابن
 الأصغر فى الارض ، من أننا نلاحظ أن الابن الأصغر فى نطاق حدود
 ضيقة فى هذه القبيلة الصغيرة — ذلك أن تعداد قبيلة « بوكاغير » فيما
 نعلم ، لا يتجاوز بضع مئات — يرث التركة جميعها ، اذا كان من الفرع
 الذى يبقى فيه الابن الاصغر فى بيت الأسرة بعد وفاة والديه . ولكنه
 لا يفضل عن أخوته فى فرع القبيلة الذى يبقى فيه الأولاد جميعا فى
 بيت الأسرة ، وتقتسم معهم التركة على حد السواء . ومن ناحية أخرى
 فإن الابنة التى تتزوج فى فرع قبيلة « بوكاغير » الذى يعيش على
 تربية الأيائل ، تترك بيت أبيها لتعيش مع حميها ، ولهذا فانها لا ترث
 أى نصيب من التركة عند وفاة أبيها . أما تركة الأم من ملابس وحلى
 وأوان ، فتترثها البنات اللاتى لم يتزوجن عند وفاة أمهن . فالأحوال
 الاجتماعية فى فرع قبيلة « بوكاغير » الذى يعيش على تربية الأيائل
 تعارض الى حد ما بطريق مباشر ، تلك التى تنتشر بين « الحاسيين » ،
 فالأبناء فى قبيلة « بوكاغير » يعيشون فى بيت الأسرة طوال حياتهم
 ويرثون ممتلكات الأب ، فى حين تترك البنات بيت الأسرة عند زواجهن
 ولا ينلن من التركة شيئا . أما قبيلة « خاسى » فإن البنات تمكن فى
 بيت الأسرة طوال حياتهن ويرثن تركة الأسرة ، فى حين يترك الأبناء

بيت الأسرة عند زواجهم ولا يرثون شيئاً • أى أن التركة فى كلتا الحالتين تؤول بطبيعة الحال الى الابناء الذين يبقون فى بيت الأسرة ، ذكورا كانوا أم اناثا •

وتعطى قبيلة « تشوكشى » التى تعيش على تربية الأيائل وتسكن فى أقصى الشمال الشرقى من آسيا ، أهمية كبيرة « للوح النار » ، وهو عبارة عن شكل بدائى محفور فى الخشب فى هيئة انسان ويستخدم فى اشعال النار عن طريق الاحتكاك • وتخلع القبيلة عن هذه الألواح صفات انسانية وتعدّها مقدسة ، فهم يحسبون أنها تحمى قطيع الأيائل من الشرور وتحرسه بحق • وتملك أسر كثيرة عددا من هذه الألواح بعضها جديدة نسبيا ، والبعض الآخر توارثته عن الأجيال السالفة • ويعد أكثر الألواح قدما فى أى الأحوال أرثا ثمينا ، وهو يؤول مع تركة البيت وكل ما يتبعه إلى الوريث الرئيسى الذى يكون فى العادة الابن الأكبر أو الأصغر • ومن الواضح أن السؤال عما اذا كان الوريث هو الابن الأصغر أو الأكبر يتحدد بالنسبة لمن يظل منهما فى بيت الأسرة بعد وفاة الأب • فقد قيل لنا أن « مسكن الأسرة يؤول الى الابن الأصغر ، كما يصبح هو الوريث الرئيسى ، اذا ما ترك الأخ الأكبر بيت الأسرة » • وتنتشر عقيدة تبجيل ألواح النار بين « الكوريائيين » الذين يسكنون سيبيريا الشمالية الشرقية • فهم يعدون هذه الألواح آلهة نار البيت ، وحارسة مسكن الأسرة كما ينسبون لها المقدرة السحرية على حماية قطيع الأيائل ، وعلى مساعدة الرجال فى الصيد وقتلهم حيوانات البحر الثديية • « فلوح النار عند المجموعة التى تعيش على الصيد البحرى فى قبيلة « كورياك » ، كما هو الحال عند المجموعة التى تعيش على تربية الأيائل ، يرتبط برخاء الأسرة ، ومن ثم يحرم نقله من بيت الأسرة الى بيت غريب • ولكن اذا حدث أن اجتمعت أسرتان لتعيشا فى مسكن واحد فى فصل الشتاء لتقتصدا فى استهلاك وقود التدفئة ، فان كل أسرة تحتفظ معها بتعويذتها فى هذا المسكن • ويرث اللوح المقدس الابن الأصغر أو البنت الصغرى على شرط أن يكون زوجها

مقيما في بيت والدها ، وذلك في حالة ما اذا كان اخوتها الكبار قد استقلوا بمساكنهم أو استقلوا بقطيعهم » • وهنا يبدو مرة أخرى أن عادة حق الابن الأصغر في الارث تتحدد باقامته وحده في بيت الأسرة بعد أن يكون اخوته الكبار قد برحوه • ولا تقتصر هذه العادة على جنس الآخر ، فقد يكون المتمتع بالارث ابنا أو بنتا بناء على من يظل في بيت الأسرة وحده في نهاية الأمر •

٦ - توريث الابن الأصغر في أفريقيا :

يقل انتشار عادة حق الابن الأصغر في الارث الى درجة كبيرة بين القبائل المرعوية في افريقيا • فهي تتبع في شكل محدود عند «البوجو» ، وهم قبيلة تعتمد أساسا في معيشتها على رعى قطعان الماشية وان كانوا يقومون بفلاحة الأرض في نطاق محدود • وهم يعيشون في أطراف جبال الحبشة النائية جهة الشمال ، وتفتقر بلادهم الى الغابات والمياه الجارية، وان كانت تتمتع بجو معتدل صحى • وتتجول القطعان على مدار السنة على وجه التقريب بحثا عن المراعى الخضراء ويهاجر معها ثلث السكان حيث يقيمون في خيام مصنوعة من حصر النخيل • فاذا انتقلوا بخيامهم حملوها على ظهور الثيران • أما سائر الناس فيسكنون في قرى دائمة في كثير أو قليل ، حيث تبني الأكواخ من القش • على أنهم يحرقون هذه الأكواخ الضعيفة عند الحاجة ويرحلون مع قطعانهم في الليل بحثا عن مراعى جديدة • ذلك أنهم يملكون مساحات شاسعة من الأراضي في كل مكان • وتنتشر بين قبيلة « بوجو » عادة حق الابن الأكبر في الارث ، فالابن الأكبر هو عميد الأسرة ، كما أن زعامة القبيلة تنتقل من خلاله جيلا بعد جيل ، بل انه ينظر اليه بحق بوصفه شيئا مقدسا لا يجوز أن تنتهك حرمة ، وهو يعد ملكا وان كان لا يملك بهاء الملوكية • فاذا توفي الأب قسمت التركة بحيث يحصل الابن الاكبر على أفضل نصيب بما في ذلك البقر الأبيض ذو القيمة العالية ، وأثاث البيت كله وسائر المتاع المتزلى • وبعد ذلك يرث الابن الأصغر البيت نفسه

خاليا • واذا توفي ملك « النويرين » وهم شعب يسكن عند النيل الأبيض ويعيش على الرعى ، ورث الابن الأصغر الحكم من بعده • أما عند قبيلة « سوك » ، وهى قبيلة تسكن فى شرق أفريقيا البريطانى ، فان الابن الأكبر يرث معظم ممتلكات أبيه ، فى حين يرث الابن الأصغر معظم ممتلكات أمه • ويبدو أن « السوكيين » كانوا فى الأصل شعبا زراعيًا صرفًا ، ثم انقسموا فى عصر متأخر الى قسمين : قسم اشتغل بالزراعة والآخر بالرعى وكلاهما يتبع العادة السالفة فى الارث ، كما تتبعها قبيلة « توركانا » ، وهى قبيلة أخرى تسكن فى هذا الاقليم نفسه •

وتنتشر عادة حق الابن الأصغر فى الارث بين بعض « الايبو » ، وهم شعب يشتغل بالزراعة فى جنوب نيجيريا • والشئ الغريب حقا عند هؤلاء ، أن حق الابن الأصغر فى الارث يقتصر على ما تمتلكه الأم ، وليس له حق فى ممتلكات الأب • ولكن العادة حتى فى هذه الصورة المحدودة ، تعد استثناء وليس قاعدة •

٧ - أصل عادة حق الابن الأصغر فى الارث :

إذا ألقينا نظرة على الشواهد السابقة التى تشير الى عادة حق الابن الأصغر كما صادفتنا بين قبائل آسيا وأفريقيا ، فأننا ننتهى الى أن هذه العادة تنتشر بين الشعوب الزراعية كما تنتشر بين الشعوب الرعوية • حقا ان غالبية القبائل التى تتبع عادة حق الابن الأصغر فى الارث تعيش أساسا على الزراعة ، ولكن نظام الزراعة الذى يقوم على الهجرة وهو الذى يتبعه هؤلاء ، نظام مضىاع ، فضلا على أنه يتطلب مساحات من الأرض تفوق الحصر لا تكفى هذه الشعوب وفقا للنظام الذى يتبعونه فى حياتهم • فما ان يكبر الأبناء ، حتى يتركوا بيت الأسرة ، ويمهدون مساحة من الأرض فى الأعراش أو الغابات ليزرعوها • ولا يبقى فى بيت الأسرة بعد ذلك سوى الابن الأصغر الذى يعول والديه بطبيعة الحال ، ويرعاها فى شيخوختها • ويبدو أن هذا

التفسير هو أبسط التفسيرات وأكثرها احتمالا ، على الأقل فيما يختص بحقوق الابن الأصغر • ويؤكد هذا التفسير تلك العادة التي يتبعها الزارعون البروس اليوم ، فهم يفضلون الابن الأصغر في الارث • ويفسرون هذا التفضيل على نحو ما شرحناه • وترتبط هذه العادة عندهم بوراثة الابن الأصغر لبيت الأسرة في الغالب • فارثه لبيت الأسرة يعد حقا شرعيا له وإن لم يرث سواه • وهو حق طبيعي وعادل إذا كان هو الذى يتخلف في بيت الأسرة ويظل يسكنه حتى وفاة والديه •

وهذا الأساس نفسه يصلح أن يكون تفسيراً لعادة الانتساب إلى الأم ، وخلافة الابنة الصغرى لها في زعامة الأسرة ، تلك العادة التي تتبعها بعض القبائل مثل قبيلتي « خاسي » و « جارو » • فالابنة الصغرى هي آخر من يتزوج من البنات بطبيعة الحال ، بل إنها تمتنع من الزواج بحق عند بعض القبائل ، ومن بينها قبيلة « جارو » ، قيل أن تتزوج سائر أخوتها • ومن الطبيعي بناء على ذلك ، أنها تمكث مع والديها مدة أطول من تلك التي تمكثها اخواتها ، وتصبح عزاء والديها وسلوتهما في شيخوختهما ، كما تصبح وريثة لهما بعد وفاتهما • وحتى إن بقيت البنات الأخريات في بيت الأسرة بعد زواجهن ، كما يحدث بين قبيلة « خاسي » فيما يبدو ، فإن رعاية أسرهن تستغرق كل وقتهن بالضرورة ، بحيث لا يكون لديهن متسع من الوقت لرعاية أبويهن • ومن ثم يبدو أن تفضيل الابنة الصغرى بالارث في هذه الحالة كذلك ، ليس بالأمر غير الطبيعي •

وتتضح عادة حق الابن الأصغر في الارث أكثر من ذلك ، كما لاحظ « بلاكستون » هذا منذ زمن طويل ، بين القبائل الرعوية • فمساحة المقاطعة الشاسعة التي يعيش في نطاقها البدو والرعاة أو أصحاب القطعان ، تتيح للأبناء عندما يكبرون أن يخرجوا إلى الحياة ويتجولوا بقطعانهم وماشييتهم ، بينما يظل الابن الأصغر آخر الأمر مع أبويه فيعولهما ويرعاها في هرمهما ثم يرث ممتلكات أبيه عندما يتوفى • وعلاقة

الأب بأبنائه في القبائل البدوية تسمح حقاً بتفضيل الأب لابنه الأصغر على سائر أخوته • وقد كتب « بورخارت » الذي كان قد ألف حياة البدو ، حول هذا الموضوع فقال : « ان الخلافات اليومية التي تنشأ بين الأبوين وأولادهما تمثل أسوأ ملامح الحياة البدوية • فعندما يصل الابن الى سن البلوغ يسأل أباه بزهو أن يمنحه أى عدد من رؤوس الماشية حيث أنه في وسعه أن يحصل بمساعدته على ما يبتغيه ، وهو يعتقد بهذا أن أباه لزم بأن يحقق له مأربه • أما الأب ، من ناحية أخرى فيستاء لسلوك أبنائه المتطرسين نحوه ، ومن ثم تنشأ الخلافات بينه وبينهم • وتتسع هوة هذه الخلافات في العادة بحيث تصعب معالجتها • وعند ذاك ينتزع الابن الشاب نفسه من سلطة أبيه ، اذا أستطاع ذلك محتفظاً له ببعض الاعتبار طالما كان يعيش معه في خيمة واحدة • ولكنه متى أستطاع أن يكون سيد الخيمة ، (وهو الأمر الذي يظل يسعى إليه) فإنه عند ذاك لا يستمع لنصيحة ناصح ، اللهم الا الى صوت ارادته • أما الابن الذي لم يصل الى سن البلوغ بعد ، فيبذل الاحترام لأبيه ألا يحاول الأكل معه في طبق واحد ، بله أن يأكل أمامه • وانها لتعد جريمة شنعاء عندما يقول أحد الافراد : « انظر الى هذا الابن كيف يلتهم الاكل في حضرة أبيه » • أما أصغر الأبناء الذي لم يكن قد تجاوز سنه الرابعة أو الخامسة فيدعى لتناول الطعام مع والديه ، وأن يأكل معهما من طبق واحد • وهنا نلاحظ كما سبق أن رأينا في أمثلة أخرى كثيرة ، أن نقطة التحول في علاقة الأب بابنه تبدأ من اللحظة التي يهجر فيها الابن بيت والديه ليعيش في مسكن مستقل • وطبيعى أن تلك الرغبة المتطرسنة في الاستقلال ، تلك التي يبدوها الابن البدوى لأبيه منذ اللحظة التي ييرح فيها الابن خيمة والديه ، تحول عنه عاطفة الأب وتدفعه لأن يحرم هذا الابن المتكبر العنيد الذي استقل عنه ، من التركة ، وأن يورث كل ما يملكه لابنه الأصغر الخنوع الذي احترم برغبته وبقي معه في خيمته • حقاً ان العرب يقسمون الآن التركة بين أبنائهم الذكور بالتساوى وفقاً للتشريع الاسلامى ، ولكنهم ربما كانوا

قبل ظهور الاسلام ، يستجيبون لنزواتهم الطبيعية ، ويحرمون الابن
الاكبر من التركة ارضاء للابن الاصغر .

وبناء على ذلك ، فان الظروف التى دعت الى نشأة عادة حق الابن
الاصغر فى الارث سواء فى المرحلة الرعوية أو الزراعية التى يعيش فيها
مجتمع من المجتمعات ، هى وجود مساحات شاسعة من الاراضى مع قلة
عدد السكان . فلما لم يعد من السهل للأبناء أن ينفصلوا عن الأسرة ،
وأن ينشروا فى أرضهم طولا وعرضا ، اما بسبب ازدياد السكان أو
لأى سبب آخر ، فان حق الابن الأصغر الكلى فى الارث أصبح عرضة
لأن ينازعه فيه اخوته الكبار ، كما أصبح عرضة لأن يعطل ، بل أن
تحل محله عادة حق الابن الاكبر فى الارث ، كما يحدث اليوم بين
قبيلة « لوشاى » فى « أسام » . وعلى الرغم من ذلك ، فربما استمرت
العادة القديمة فى الانتشار بدافع تأثيرها المتوارث ، وان اختلفت
ظروف الحياة التى نشأت فى كنفها . فلا تزال عادة حق الابن الأصغر
فى الإرث تعيش أو كانت تعيش جنباً الى جنب مع
عادة حق الابن الأكبر فى الأرث فى جهات غير قليلة من
انجلترا . فاذا عدنا الآن الى النقطة التى بدأنا منها بحثنا حول هذا
الموضوع ، أمكننا أن ندرك السبب فى أن بعض آثار عادة
حق الابن الأصغر فى الارث كان من المحتم أن تعيش بين العبريين
القدماء بعد أن هجرها هذا الشعب بزمان طويل واستبدلوا بها عادة
حق الابن الأكبر فى الارث ، وذلك بعد أن عاش حياة الزراعة
المستقرة فى فلسطين بعد أن كان شعبا راعيا متجولا فى الصحراء . وقد
تعجب المؤرخ الذى يدون تاريخه فى عصر متأخر ، عندما كانت عادة
حق الابن الأصغر فى الارث قد نسيت فيه تماما ، تعجب من أن يجد
تراثا مرويّا يحكى عن وراثة أصغر الابناء لتركه آبائهم دون الأخوة
الكبار . وقد حاول أن يفسر هذه الاحوال التى كانت بعيدة عن مفهومه
فى نظام الارث ، فقدم هذه الاحوال بوصفها شواذ ترجع الى مجموعة
من الأسباب العريضة ، كان تصاحب ولادة الابن الأصغر حادثة معينة

أو تفضيل الأب التعسفى له ، أو أنها ترجع الى جشع الابن الاصغر ومكره • وبناء على وجهة النظر هذه ، فان يعقوب لم يرتكب أى اساءة فى حق أخيه الاكبر « عيسو » ، وإنما شاء أن يثبت لنفسه حقه فى الارث الذى كان القانون القديم يمنحه بصفة عامة لأصغر الأبناء ، لولا بدعة غزت مجتمعه فى عصره ونقلت هذا الحق فى أصغر الأبناء الى أكبرهم •

الفصل الثالث

يعقوب و جلد الجدى

أو الميلاد الجديد

١ - البركة المحولة :

في الفصل السابق التمسنا سببا لافتراضنا أن يعقوب بوصفه الابن الأصغر لاسحق ، كانت له الأولوية في ظل العادة القديمة ، في المطالبة بحقه في ارث أبيه اسحق ، وأن التحايل الذى قام به بقصد حرمان أخيه « عيسو » من حقه في الارث ، لم يكن سوى محاولات من جانب المؤرخ بهدف تفسير عادة تفضيل الابن الأصغر على الابن الاكبر في الارث ، تلك العادة التى كانت قد هجرت قبل عصره بزمان طويل ، وأصبح مغزاها غير واضح على وجه التقريب . وفى ضوء هذه النتيجة ، فأننى أرى أن نتدبر فى هذا الفصل ، الخدعة التى قام بها « يعقوب » متواطئا مع أمه « رفقة » ، بهدف خداع أبيه لكى يحول تركته من أخيه اليه ، حيث اننى أعتقد أن هذه الحكاية تتضمن بقايا طقوس قديمة كانت تتبع عندها حلت عادة حق الابن الاكبر في الارث محل عادة حق الابن الاصغر ، وذلك بقصد تعيين الابن الاصغر خلفا لأبيه بدلا من أخيه الاكبر . فبعد أن دعمت عادة حق الابن الاكبر في الأرث ، بوصفها قانونا للأرث ، كان التجاوز عن هذه العادة يعد نقضا لعادة متوارثة لا يكون فاعلها في حل منها الا باتباع بعض الشكليات الغريبة التى كان الغرض منها تغيير نظام الارث بين الأخوين ، أو حماية الأخ الأصغر من بعض الاخطار التى يمكن أن

يتعرض لها بسبب أقصائه أخاه الأكبر من حقه في الإرث • ولسنا في حاجة لأن نفترض أن يعقوب قد قام بهذه الشعائر الشكلية بقصد تدعيم موقفه من ارثه لأبيه • وذلك لأنه إذا كانت عادة حق الابن الأصغر لاتزال رائجة كل الرواج في عصره ، فانه كان يعد الميراث الشرعى لأبيه ، ولم يكن في حاجة لأن يقوم بتأدية شعائر معينة لاكتساب تلك الحقوق التى منحها لكونه أصغر اخوته • ولكن عندما حلت عادة حق الابن الأكبر في الإرث محل عادة حق الابن الأصغر في عصره متأخرا ، فربما رأى مؤرخ حياة يعقوب أن من واجبه تبرير حصول بطله على تلك المنزلة التقليدية ، بأن نسب اليه تأدية الشعائر التى كانت تتبع في زمن المؤرخ بين الحين والآخر ، بهدف التصديق القانونى على تفصيل الابن الأصغر في الارث • وربما كان قد غاب عن الكاتب الذى سجل حياة يعقوب في زمن متأخر ، المغزى الشرعى لهذه الشعائر ، ذلك لأنها لم تكن مألوفة لديه ، فقدمها بوصفها مجرد خدعة مكررة احتال بها يعقوب متواطئا مع أمه بقصد خداع أخيه حتى لا يحصل على البركة المقدرة له • ومن ثم فقد وصلتنا حكاية سفر التكوين في هذه المرحلة الأخيرة من سوء الفهم والنشوية وفقا لهذا الغرض الذى افترضناه •

وأود أن ألفت نظر القارئ الى نقطتين في حكاية سفر التكوين ، أولاهما اقضاء الابن الأصغر لأخيه الأكبر ، وثانيهما الوسيلة التى اتبعها في سبيل تحقيق غرضه • فقد تظاهر يعقوب لوالده بأنه أخوه الأكبر ، وذلك بأن ارتدى ملابس أخيه وبأن غطى يديه ورقبته بجلد جدى لكى يصطنع ملمس جلد أخيه الذى يكسوه الشعر • وقد قام بهذا الفعل بدافع التحريض من أمه التى ساعدته في القيام بهذا العمل الزائف ، بأن ألبسته ملابس أخيه من ناحية ، وغطت يديه ورقبته بجلد جدى من ناحية أخرى ، وبذلك نجح يعقوب في تحويل بركة أبيه اليه ، تلك البركة التى كان مقصودا بها أخوه ، وبذلك أصبح خليفة لأبيه • ومن المحتمل أن هذه القصة تحتوى على بقايا شعائر قانونية كانت تتبع عندما يصبح الابن الأصغر خليفة شرعيا لأبيه بدلا من أخيه الأكبر •

٢ - تقديم الجلد ضخية في الشعائر :

هناك بعض القبائل في افريقيا تتشابه عاداتها مع عادات الساميين في بعض جوانبها الغربية ، وربما ساعدت على استجلاتها وتفسيرها . ذلك أن هذه القبائل الافريقية قد تخلفت عن الشعوب السامية في مجرى التطور الاجتماعى البطيء ، ومن ثم فقد احتفظت في وضوح بطابع عادات بدائية محددة ، في الوقت الذى انقرضت فيه هذه العادات في كثير أو قليل وبليت بتأثير زحف المدنية . وهذه القبائل تسكن فيما يسمى بالقرن الافريقى المشرقى ، أى أنها تنتشر على وجه التقريب بين الحبشة وخليج عدن شمالا ، وجبل « كليمانجارو » وبحيرة فكتوريا نيانزا جنوبا . ولا تنتمى هذه القبائل الى مجموعة القبائل الزنجية الخاصة التى تتحدد اقامتها في افريقيا الغربية ، كما أنها لا تنتمى الى مجموعة قبائل البانتو التى تحل بشكل عام بقاع افريقيا الجنوبية جميعها ، من خط الاسواء الى رأس « الرجاء الصالح » . حقا ان بينهم قبائل ، مثل قبيلتي « أكامبا » و « وكيكيو » اللتين تتحدثان اللغات البانتوية ، وربما انتمت أصلا الى مجموعة قائل البانتو . ولكن حتى هذه القبائل ربما ساورنا الشك في مدى انتمائها لمجموعة قبائل البانتو ، وفي مدى التغير الذى طرأ عليها نتيجة اختلاطها أو احتكاكها بعنصر غريب عنها . وفي العموم فان العنصر المسيطر في هذا الجزء من افريقيا هو ما يطلق عليه العلماء الاثنولوجيون اسم الأثيوبيين ، وأخلص عنصر في هؤلاء فيما يبدو ، هم الجاليون . كما يبدو أن قبيلة « باهيما » الرعوية التى تسكن في « أنكولى » في محمية أوغندا والتى تقتسب اليها فيما يقال ، الأسر الملكية في « أوغندا » و « أونيبورو » و « كراجوى » ، يبدو أنها كانت تكون القاعوة الأمامية التى تقع في الغرب . ومن بين القبائل الأخرى التى تنتمى الى هذه الأسرة وربما أشهرها ، قبيلتا ماساي وناندى اللتان تربط بينهما صلة قرابة . ولحسن الحظ أننا نملك بحثين قيمين عن هاتين القبيلتين ، كتبهما لنا الباحث الاثنولوجى « أ . س . هوليس » . ففيما يختص بعلاقة هاتين

المقبيلتين بالجاليين كتب تقول : « لست أعتقد أن الدور الذى لعبه الجاليون فى تكوين قبيلة « ماساي » وقبيلة « ناندى لومبو » وغيرهما من القبائل مثل قبيلة « باهيما » التى تسكن أوغندا ، كان دورا فعلا ، أو أن هذا التكوين كان له أثر فى الزمن الماضى • وكثيرا ما يشار الى تأثير الأجداد الجاليين على هذه القبائل فى المظهر الفيزيائى وفى دينها وعاداتها ، كما يشار اليه بصورة أقل فى لغات كثير من القبائل » • ولا يفصل موطن الجاليين فى افريقيا عن شبه جزيرة العرب ، مهد الجنس السامى ، سوى بحر ضيق ، ومعنى هذا أن العلاقة بين هذين الوطنين وهذين الشعبين لابد أنها كانت قوية منذ العصور القديمة • ومن ثم فانه ليس غريبا ، كما قد يبدو لأول وهلة ، أن نجد تشابها بين العادات السامية والعادات الاثيوبية • حقا ان المصیحة من فوق جبل زيون لم تكن لتصل الى جبل كليمنجرو نظرا لبعد المسافة فيما بينهما ، ولكنها ربما كانت تصل خلال محطات كانت تقع فيما بينهما على طول شواطئ افريقيا وشبه جزيرة العرب • على أننى لا أهدف من قولى هذا أن أقدم رأيا حول مسألة ما اذا كانت وجوه التشابه بين العادات الاثيوبية والسامية تفسر بأن هذه العادات مستمدة من أصل واحد ، أو أنها ترجع الى تأثير أحداث متشابهة تركت تأثيرها مستقلا على عقول الأجناس المختلفة ، وانما أهدف فحسب الى اشارة افتراض أصل واحد لهذه الاجناس ليس من السهل تجاهله •

وبعد هذه المقدمة المسهبة التى تحصنتى ضد الشكوك التى يمكن أن تثار حول بحثى عن وجوه التشابه بين عادات جنسين عبر مسافة زمنية غير معقولة ، أدلى الآن ببعض الحقائق التى تشير الى مراسيم شرعية قديمة تتضمن قصة خداع يعقوب لأبيه •

فمن المؤلف عند الجاليين أن يتبنى زوجان عاقران أطفالا • ويربط نظام التبني الزوجين بالأبناء المتبنين برباط قوى ، الى درجة أنه اذا أنجب هذان الزوجان أولادا بعد ذلك ، فان الابن المتبنى يحتفظ لنفسه

بحقوق الابن الأصلي الأول كاملة • وتجرى الشعائر التالية عند انتقال
الطفل من عند أبويه الشرعيين الى أبويه اللذين يرغبان في تبنيه • فإذا
كان هذا الطفل يبلغ من العمر حوالى ثلاث سنوات ، يؤخذ من حضن
أمه ويحمل الى غابة حيث يتخلى أبوه الأصلي من خلال اجراءات
صورية عن حقه كاملا فى بنوته لابنه ، وذلك بأن يعلن أن ابنه يعد منذ
تلك اللحظة ميتا بالنسبة له • وعند ذاك يذبح ثور ، وتطلى جبهة
الصبي بدمه كما يوضع جزء من شحمه حول رقبتة ، وتغطى يدها
بقطعة من جلده • وهنا تتضح وجوه التشابه بين هذه الشعائر وبين
الاجراءات التى قام بها يعقوب لخداع أبيه : ففى كلتا الحالتين غطيت
رقبة الشخص المعنى ويدها بجلد الحيوان الضحية أو شحمه • على أن
مغزى هذه الشعائر لم يتضح بعد • وربما اكتشفنا مغزاها من خلال
فحصنا لشعائر مشابهة لها تؤدي فى مناسبات مختلفة عند قبائل
افريقيا الشرقية •

فمن المألوف بين هذه القبائل أن يقدم حيوان ضحية ، غالبا ما يكون
نعجة أو شاة ، ويسلخ جلده ويقطع الى شرائح تلف حول معصمى
الشخص الذى يراد له الاستفادة بسحرها بطريق أو بآخر أو تلف حول
أصابعه • وقد يكون الهدف من ذلك درء المرض عنه أو اكسابه مناعة
ضده أو تطهيره من دنس أو تخليصه من قوى غريبة تتملكه • فعندما
يولد طفل بين « الأكامباين » ، تذبح نعجة ويسلخ جلدها وتقطع منه
ثلاث شرائح تلف حول معصمى الطفل ومعصمى الأب والأم ، كل على
حدة • وفى مثل هذه المناسبة يذبح الاكيكيون شاة ، ويقص شريط من
جلد رجليها الأماميتين يلف حول معصم الطفل حتى تبعد عنه الحظ
المعثر أو الدنس (ناهو) الذى يعتقد فى أنه يلزم الأطفال المولودين •
ومثل هذه العادة تتبع كذلك بين « الأكيكويون » فى احتفال غريب هو
احتفال « الميلاد الجديد » (كو - تشى - آ - روو - أوكى - رى)
أو « الميلاد من نعجة » (كو - تشى - آ - رى - رى - رو -
هذه أوهور - رى) كما يسمونه الاهالى ، وهو الاحتفال الذى يحتفل

أن يؤدي لكل طفل قبل ختانه • ويختلف عمر الأطفال الذي تقام فيه هذه الشعائر حسب الزمن الذي يمكن أن يقتنى فيه الأب النعجة أو الشاة اللازمة لتأدية الطقس ، ولكنه يبدو أن شعائر الميلاد الجديد تؤدي في الغالب عندما يبلغ الطفل حوالي العاشرة من عمره ، وربما قبل ذلك • فإذا كان والد الطفل متوفيا أو والدته ، عين بدلا منهما رجل وامرأة يكونان بمثابة الوكيلين عنهما ، وفي هذه الحالة ينظر الطفل إلى هذه المرأة بوصفها أمه • ثم تذبح شاة أو نعجة بعد ظهر هذا اليوم ويحتفظ بمعدتها وأمعائها • ثم يقام الاحتفال بعد ذلك في المساء في كوخ من الأكواخ حيث لا يسمح لغير النساء بالحضور • ثم تمرر قطعة ذات شكل دائري من جلد النعجة أو الشاة فوق إحدى كتفي الصبي الذي سيولد من جديد ، وتحت ذراعه من الجانب الآخر لهذا الكتف ، كما تمرر أمعاء الحيوان فوق الكتف الأخرى وتحت الذراع الثانية للصبي • ثم تجلس الأم أو من تقوم مقامها ، على جلد الحيوان المبسوط على الأرض والطفل بين ركبتيها ، وتمرر حولها أمعاء الحيوان ثم توضح تلك الأمعاء بعد ذلك أمام الصبي • ثم تأخذ الأم في الأنين كما لو كانت تعاني آلام الوضع • وتأتى امرأة ثانية فتقطع أمعاء الحيوان الذي يمثل الحبل السرى • وعند ذلك يصطنع الصبي بكاء الطفل الوليد • ولا يجوز للصبي قبل أن تؤدي له شعائر الميلاد الجديد أن يشارك في دفن جثة أبيه أو أن يساعد في حمله إلى الخلاء ليموت هناك • وقد كانت شعائر الميلاد الجديد سالفًا ترتبط بشعائر الختان ، ولكننا الآن نبحث الظاهرتين منفصلتين •

هذه هي عادة الميلاد الجديد الغريبة كما تمارسها أو كانت تمارسها قبيلة « أكيكويو » ، وكما وصفها بعض المواطنين الذين تخلصوا من سيطرة التقاليد وتعرضوا للتأثير المسيحي ، للسيد « روتلج » وزوجته • ولكنهم على الرغم من ذلك كانوا محجمن عن الحديث في هذا الموضوع ، ولم يجد معهم الاغراء الرشوة في السماح للباحثين الانجليز لشاهدة هذه الشعائر • وعلى الرغم من ذلك فإن

مغزاها العام واضح كل الوضوح ، كما أنه يزداد وضوحا من خلال الاسم الذى يطلقه الأهالى على هذه الشعائر وهو « ميلاد الصبى من النعجة » . وجوهر هذه الشعائر فى الحقيقة هو تظاهر الأم بأنها النعجة التى يخرج من بطنها الصبى . وهذا يفسر نشر معدة الحيوان وجلده حول الصبى ، كما يفسر تمرير أمعائه حول الأم والطفل معا . وتتضح عملية تظاهر المرأة بأنها حيوان يلد ، أكثر من ذلك من خلال حكاية مستقلة رواها « س . و . هوبلى » عن هذا الاحتفال ، وان يكن الحيوان الذى تقوم المرأة بتقليده فى هذه الحالة شاة وليس نعجة . واسم هذا الاحتفال كما ذكر « هوبلى » « كو — تشياريو — رينجى » ، وترجمته الحرفية « الميلاد مرة أخرى » . ثم يخبرنا « هوبلى » بعد ذلك أن قبيلة « أكيكويو » تنقسم الى فرعين هما « كيكويو » و « مساي » ، وأن اجراءات هذا الاحتفال تختلف على نحو ما من فرع لآخر . فاذا كان والدا الطفل ينتميان الى فرع « مساي » ، فان طقوس الاحتفال تجرى على النحو التالى : « يذبح الأب خروفا بعد ميلاد الطفل ذكرا كان أم أنثى ، بحوالى ثمانية أيام ، ويأخذ معه لحمه الى البيت الذى يسكنه أم الطفل ، فتأكل الأم لحم الحيوان هى وجيرانها طالما كانوا ينتمون الى فرع « مساي » . وفى نهاية الوليمة تزين الأم بجلد رجل الخروف الأمامية اليسرى و بجلد كتفيه وذلك عن طريق ربط شريط من هذا الجلد بين معصمها الأيسر وكتفها اليسرى . وتظل الأم على هذا النحو مدة أربعة أيام ، وبعد ذلك ينتزع عنها هذا الشريط ويوضع فى سريرها حيث يظل فيه حتى يختفى . كما يحلق شعر الأم والطفل فى اليوم الذى تؤدى فيه هذه الشعائر . على أن هذا الاجراء ليس له صلة بتسمية الطفل ، اذ أنه يسمى يوم ميلاده » . وهنا نرى أن الهدف من هذه الاجراءات هو أن تقرن الأم بالخروف ، ويتم هذا عن طريق أكلها لحمه وارتدائها جلده الذى يترك فى سرير الأم مدة ثمانية أيام قبل ميلاد الطفل . اذ من الملاحظ ان شعائر الميلاد الجديد على هذا النحو تتبع الميلاد الحقيقى بفترة لا تتجاوز بضعة أيام .

فاذا: كان الأبوان ينتميان الى فرع « كيكويو » ، فان طقوس الميلاد الجديد في جنوب بلد « الكيكويوين » تجرى على النحو التالى :

« يذبح خروف بعد ميلاد الطفل بيوم ، ثم يغلى بعض دهن الحيوان فى وعاء يقدم للأم والطفل ليشربا منه . على أنه لم يذكر على وجه التحديد أن هذا العمل له صلة مباشرة بطقس الميلاد الجديد ولكنه يذكره فى بداية وصف هذا الطقس . فاذا بلغ الطفل ما بين الثالثة والسادسة من عمره ، يذبح الأب خروفا ، ويزين الابن بجزء من جلده وجزء من جلد معدته وذلك بعد ذبحه بثلاثة أيام . ثم يربط هذا الجلد حول كتف الابن اليمنى ، أو حول كتف الخروف اليسرى واحدى أرجله . ويظل الابن مرتديا هذا الجلد مدة ثلاثة أيام ، وفى اليوم الرابع يضاجع الأب والأم . على أن هناك ملاحظة على جانب من الأهمية ، وهى أن ينام الابن مع أمه فى سريرها ، قبل أن يزين بجلد الحيوان ، ويصرخ صراخ الطفل المولود . ولا يصح ختان الابن الا بعد القيام بهذه الشعائر . وبعد أن يختن ببضعة أيام يعود الابن فينام فى سرير فى كوخ أمه ، أما الأب فلا يعود الى هذا الكوخ قبل أن يذبح خروفا ويقدم للصبى جرعة من دمه . وبهذه المناسبة ينبغى على الأب أن يضاجع الأم » .

فاحتفال الميلاد الجديد فى هذا الشكل الشعائرى الذى وصفه « روتليدج » وزوجته ، يؤجل بضعة سنوات بعد ولادة الطفل . وسواء أقيم هذا الاحتفال اثر ولادة الطفل مباشرة أو بعد ذلك بسنين ، فانه جوهره واحد ، وهو أن تتظاهر الأم بأنها شاة تضع وليدها ، على أنه ينبغى علينا أن نشير الى استبدال الخروف بالشاة فى هذا العمل التشريعى ، ذلك الاستبدال الذى ليس من السهل علينا أن نفسره فى هذا المقام .

وبعد أن انتهى « هوبلى » من وصف طقوس الميلاد فى شكلها كما تتبع عند فرعى قبيلة « اكيكويو » ، عاد فوصف لنا طقوس احتفال آخر

شبيهه في شكله باحتفال الميلاد الجديد • ويطلق على هذا الاحتفال الأخير اسم مشابه للاحتفال الأول وليس مطابقا له كل التطابق (فهو يسمى « كو شياريو كونجى » بدلا من « كو - شياريو رنجى » • وهذا الاحتفال الثانى هو احتفال المتبنى • وقد قيل : انه يشبه الاحتفال « السواحيلى » الذى يسمى « ندوجو كو شانجايانا » • « فمن الطبيعى أن الشخص الذى ليس له اخوة أو والمدان ، أن يجتهد فى أن يكون تحت حماية رجل ثرى وأسرته • فاذا وافق هذا الرجل الثرى على أن يتبناه ، فان كلا منهما يأخذ خروفا ويذبحه فى حضرة شيوخهما ثم يقطع هؤلاء الشيوخ جلد الرجل اليمنى من كل خروف وجلد صدريهما الى شرائح تلف حول يدي كل من المتبنى والمتبنى بحيث يزين كل منهما بشرائح جلد خروف الآخر • وعند ذاك ينظر الى الرجل الفقير بوصفه ابنا للرجل الغنى • فاذا شاء المتبنى أن يتزوج ، دفع الرجل الغنى عددا من المزعوس فى مقابل شراء زوجة له • ومن الصعب فى هذا الاحتفال أن يكون هناك تظاهر بالميلاد الجديد ، حيث ان بطلى هذا الاحتفال من الذكور • ولكننا عندما نقارن هذه العادة بالعادة السالفة ، فانه يحق لنا أن نفترض أن كلا من المتبنى والمتبنى يتظاهر بأنه شاة •

وهناك شعائر أخرى تؤديها قبيلة « كيكويو » قبل الاحتفال بالختان • ففي صباح اليوم السابق على تأدية شعائر الختان ، يذبح جدى شبقا ام يسلخ جلده ويقطع الى شرائح • ثم تلف شريحة منها حول معصم الصبى الأيمن ويسحب من خلف يده بحيث يدخل بنصره فى شق فى هذا الجلد • ومثل هذه العادة تتبعها قبيلة « واشامبا » ، وهى قبيلة تقطن فى افريقيا الشرقية • فقبل القيام باحتفالات الختان • تقدم نعجة ضحية لروح أحد الأجداد ، ثم تقطع حلقات من جلد النعجة كى يلف بها الصبى الذى سيختن ، كما يلف بها أبواه وأقرباؤه • ثم يتضرع الأب الى الروح وهو يذبح النعجة ويقول : « لقد اجتمعنا كى نخبرك بأن ابننا سيختن اليوم • فلترع طفلنا وكن رحيمًا به ولا

تكن غاضبا علينا • وها نحن نقدم لك نعجة » • وهنا يبدو أن أفراد الأسرة وهم يلتفون بالحلقات التي قطعت من جلد النعجة ، يقرنون أنفسهم بهذا الحيوان الذى يقدم ضحية لروح أحد الاجداد • وعند قبيلة « واتشاجا » التى تسكن جبل كيليمانجالوا، يجتمع الصبية بعد شهرين من ختانهم فى قرية الزعيم حيث يجتمع كذلك العرافون والاطباء ، وهناك تذبح النعاج ويقطع الأولاد الذين ختنوا حديثا شرائح من جلدها ويدخلون أصابعهم الوسطى من أيديهم اليمنى فى شقوق طويلة يحدثونها فى شرائح الجلد • وفى هذه الأثناء يصنع العرافون دواء مصنوعا من محتوى معدات النعاج بعد مزجها بالماء والمواد السحرية • ويرش الزعيم هذا المزيج على الصبية حتى يتم فيما يبدو اتحادهم السحري أو المقدس بالنعاج • وفى اليوم التالى يتم والد كل صبي وليمة الأقربائه ، فيذبح نعجة ، ويأخذ كل ضيف قطعة من جلد النعجة يلفها حول الاصبع الاوسط من يده اليمنى • ويحق لنا فى هذا المجال أن نقارن بين هذا الاحتفال باحتفال آخر يقوم به « البورانليون الجاليون » عندما يصل الصبية عندهم سن البلوغ • وهذا الاحتفال يسمى « أدا » أو الجبهة وتفسره كلمة « جارا » معناها الختان • وفى هذه المناسبة يجتمع الغلمان الذين يحتفل بطهورهم ، مع آبائهم وأمهاتهم وشيوخ أقربائهم فى كوخ يبنى لهذا الغرض • ثم يذبح ثور على سبيل التضحية ويغمس كل فرد من الحاضرين أصبعه فى دم الثور بحيث يقطر منه الدم ، كما يدهن الرجال جباههم والنساء قصباتهم الهوائية ببعض هذا الدم • ثم تدهن النساء أنفسهن بدهن الضحية ، كما يرتدين شرائح رفيعة من جلدها حول رقابهن ويحتفظن بها على على هذا النحو حتى اليوم التالى • وفى النهاية تقام مأدبة من لحم الثور الضحية •

ويستخدم جلد الحيوان على هذا النحو فى احتفالات الزواج عند بعض القبائل الأفريقية • ويجرى جزء من هذه الاحتفالات عند قبيلة « واوانجا » التى تسكن مقاطعة « الجون » فى افريقيا الشرقية

البريطانية على النحو التالى : يذبح ذكر من الماعز ويقص شريط طويل من جلد معدته • ثم يشق والد العريس أو أى غريب آخر مسن له ، الجلد طوليا ويمرره فوق رأس العروس بحيث يتدلى على صدرها ويقول : « لقد وضعت الآن الجلد على رأسك ، فاذا هجرتنا لكى نتزوجى رجلا آخر ، فليتبرأ منك هذا الجلد ولتصبحى عاقرا » • ويحدث مثل هذا عند قبيلة « وا - جيرياما » وهى احدى قبائل البانتو التى تسكن شرق افريقيا البريطانى ، اذ يذبح الزوج عنزة فى اليوم التالى لزواجه ويقطع شريطا من جلد جبهتها ويصنع منه تعويذة يقدمها لزوجته كى ترتديها فى ذراعها اليسرى • أما لحم العنزة فيأكله الحاضرون • ونلاحظ فى هاتين الحالتين أن جلد العنزة لا تستخدمه سوى الزوجة • على أن الزوج فى قبيلة « ناندى » التى تسكن فى شرق افريقيا البريطانى يستخدمه كذلك • وفى يوم العرس تختار عنزة قوية سليمة من بين القطيع وتمسح بالزيت ثم تشنق • وبعد ذلك تنتزع أحشاؤها التى يتفاعل أو يتشاعم بالحالة التى تكون عليها • ثم يسلخ بعد ذلك جلد الحيوان ويصنع منه على وجه السرعة رداء ترتديه العروس فى الوقت الذى تشوى فيه النساء لحم الحيوان ويأكلنه • وفضلا على هذا فإنه يصنع من جلد الحيوان خاتم وسوار • أما الخاتم فيرتديه العريس فى الاصبع الأوسط من يده اليمنى ، وأما السوار فترتديه العروس فى معصم يدها اليسرى •

وهنا نلاحظ مرة أخرى أن الخواتم التى تصنع من جلد النعجة الضحية ، يرتديها الأشخاص الذين يعقدون عهد الصداقة فيما بينهم • ويبدو أن هذه العادة مألوفة بين القبائل التى تسكن افريقيا الشرقية البريطانية • فأواصر الصداقة تعقد عند قبيلة « واشاجا » من خلال الاحتفال الذى يسمى « كيسكونج » • « ويتكون هذا الاحتفال من أخذ قطعة من جلد رأس عنزة الضحية وشقها بحيث يرتديها الشخص كما لو كانت خاتما فى اصبعه الأوسط » • وبالمثل فإن تبادل الخواتم

التي تصنع من جلد الحيوان المضحية الذي يؤكل لحمه عادة ، من ثبأنه أن يدعم أواصر الصداقة بين أفراد قبيلة « أكابا » .

وتقيم قبيلة « أكيكويو » مثل هذا الاحتفال ، وإن يكن في صورة أكثر اتقاناً عندما يترك رجل حيه لينتمى رسمياً لحي آخر . عند ذاك يحضر هذا الرجل شاة ، وكذلك من يقوم بتمثيل الحي الذي أبوشك على أن ينتمى إليه الرجل المعنى ، وقد يحضر كل منهما ثورا إن كانا موسرين . ثم يذبح الحيوانات « ويقطع شريط من جلد معدة كل حيوان وكذلك من رجل كل منهما . ثم يوضع دم الحيوانين معا في وعاء كما توضع أحشاؤهما في وعاء آخر . ثم يأتي شيوخ من قبل الطرفين ويشقون الشرائط التي قطعت من جلد الحيوانين ويصنعون من كل جلد سوارين يرتديهما الطرفان ، بحيث يلبس كل طرف السوارين المصنوعين من جلد الحيوان الطرف الآخر . ثم يحضر شيوخ الطرفين الوعاءين المملوءين بالدم وأحشاء الحيوانين ، ويسكبون بعض الدم في راحتي أحد الأطراف الذي يسكبه بدوره في راحتي الطرف الآخر . وعند ذاك يستدعي الواقفون ليشبهوا على امتزاج دم الحيوانين ويستمعوا إلى التقرير الذي يعلن أن الطرفين أصبح يجمعهما دم واحد » . وهذا المثال واضح كل الوضوح ، حيث أنه يطلعنا في غير لبس على أن الغرض من هذا الطقس هو ربط الطرفين المتعاقدين في دم واحد . ومن ثم فنحن ملتزمون لأن نفسر بناء على هذا الأساس عادة احاطة المعاصم بشرائح من جلد الحيوان الذي يستخدم دمه في شعائر هذا الاحتفال .

وتقوم قبيلة « واونجا » التي تسكن مقاطعة « الجون » في شرق افريقيا البريطانية بتقديم عدد من الحيوانات ضحية وذلك قبل أن يسمح للاهالي بزرع الذرة ، أما سائر قبائل هذه المقاطعة فتقوم بخلق كبش أمام كوخ أم الملك ، ثم تنتزع أحشاؤه وتوضع في الكوخ بجانب السرير بحيث يكون مواجهاً لرأس السرير . وفي اليوم التالي لذلك تؤخذ الأحشاء وتقطع ، ويلف الملك وأبناؤه وزوجاته أجزاء منها

حول أصابعهم • ويقوم شعب « النجامين » ، وهو شعب مخطئ يسكن في أفريقيا الشرقية البريطانية برى زراعاتهم عن طريق قنوات تحفر في موسم الجفاف • فإذا حان ميعاد رى الزرع عن طريق فتح القنوات حتى تتسرب منها المياه الى الحقول ، يقتلون شاة ذات لون محدد خنقا وينثرون شحمها المسلى وروثها ودماءها في شقوق الارض وفي مياه الرى • واثـر ذلك تفتح القنوات ويوكل لحم الشاة الضحية • وينبغى على الرجل الذى قام بخنق الشاة ، والذى يتحتم ان يكون منتميا لعشيرة معينة ، أن يرتدى جلد الشاة حول رأسه مدة يومين • فإذا ثبت فيما بعد أن المحصول ليس وافرا ، أعيدت الشعائر مرة أخرى ، فيجتمع شيخان من شيوخ هذه العشيرة المتسلطة التى يمكن مقارنتها باللاويين الاسرائيليين ، مع شيخين من أية عشيرة أخرى ، ويعودون معا الى الحقول حاملين معهم شاة من نفس لون الشاة الاولى ويذبحونها ويأكلون لحمها ثم يقطعون جلدها ويأخذ كل منهم قطعة منه يلفها حول رأسه مدة يومين • فإذا فرغوا من ذلك ساروا حول الحقل في اتجاهين متعارضين وهم ينثرون شحم الحيوان وروثه ، كما ينثرون العسل في الحقل حتى يلتقوا مرة أخرى •

ويقدم المفرد في قبيلة « ماساي » ضحية للاله حتى يحفظه هو وقطعانه سليما معافيا • وتقدم هذه الضحية بين الحين والآخر ، وهى تقدم في بعض الأماكن كل عام • وعند ذاك تشعل النار في القرية ، عن طريق حرق الخشب المجاف والأوراق ولحاء الشجر ، كما ينثر فيها مسحوق يثير عمودا من الدخان المتصاعد الذى تتبعث منه الرائحة العطرة • وعند ذاك تشتم الآلهة في السـماء هذه الرائحة الطيبة وتستريح لذلك • ثم يحضر كبش بدين أسود ويغسل بالعسل المتخمر ويرش عليه مسحوق خشب معين ثم يقتل خنقا ويسلخ جلده ويقطع لحمه ، ويأخذ كل فرد من الحاضرين قطعة من اللحم يشويها ويأكلها ، كما ينتسـلم شريطا من جلد الحيوان يصنع منه عدا من

الخواتم يلبس أحدهما في اصبعه ويقدم الباقي لافراد أسرته • وهذه الخواتم هي بمثابة تعاويذ تحفظ من يرتديها من كل أنواع المرض • أما النساء فيعلقنها في أقراطهن الضخمة المصنوعة من أسلاك حديدية ذات شكل لولبي ، وهي تلك التي يزين بها صدورهن أو لتقل يشوهنها •

ومثل هذه العادة تتبع في حالة المرض • فقد يحدث بين قبيلة « واوانجا » على سبيل المثال ، أن يستدعى الرجل المريض وهو في حالة الهذيان ، شخصا من أقربائه المتوفين • فإذا فعل ذلك ، فإن هذا معناه أن المرض قد جاوزه واستقر عند عتبة شبح الميت ، ومن ثم فإن أقرباءه يقومون بأجراء من أجل القضاء على هذا المرض • وهنا تقدم بعض النقود لرجل عجوز فقير لكي يقوم بالعمل الخطير وهو اخراج جثة هذا الميت من القبر ، ثم تحرق عظامها فوق عش من أعشاش النمل الأحمر ، ويجمع بعد ذلك الرماد في سلة يطرح بها في النهر • وقد تختلف وسيلة تهدئة الشبح عن ذلك بعض الشيء • فبدلاً من اخراج عظم الميت ، يزج سيخ في القبر • ولكي يزدادوا يقيناً من أنهم قد أصابوا الشبح ، فانهم يصبون الماء المغلي اثر ذلك في القبر • وبعد أن يشعروا برضائهم في القضاء على الشبح على هذا النحو يذبحون كبشاً أسود ويمسحون صدورهم ببعض روثه الذي يأخذونه من أمعائه ، ويلفون شرائح من جلده حول معاصمهم اليمنى • ثم يأتي زعيم الاسرة التي ينتمي اليها المريض ، ويأخذ قطعة من جلد الحيوان ويلفها حول سبابة يده اليمنى ، كما يلف المريض نفسه شريطاً آخر من جلد الحيوان حول عنقه • وفي هذه الحالة لايمكن أن يكون الهدف من وراء التضحية بالكبش الاسود هو اسكان غضب الشبح ومصالحته حيث انه قد زج بالسيخ في رأسه ، كما سكب الماء المغلي على عظامه وأولى من ذلك ان نفترض أن التضحية بالكبش ترجع الى مزيد من الشك في انه حتى هذه الوسائل العنيفة ربما لا يكون لها الأثر الفعال في القضاء على الشبح • ومن ثم يحق لنا أن نفترض ، اذا شئنا أن نكون في الجانب الآمن ، أن الرجل المريض وأصدقائه ، بذبحهم

الكبش ، يحصنون أنفسهم ضد طعنات الشبح وذلك عن طريق ارتدائهم لجاده الذى يخدمهم فى هذا الغرض بوصفه تعويذة • فإذا اتهم شخص من بين هذه القبيلة بالسرقة ، فإنه يذهب مع متهمه الى شجرة محددة هى شجرة (ارثرينا تومينتوزا) ، ويزج كل منهما برمحه فيها ، فيقع أثر ذلك المذنب منهما ، سواء أكان هو المتهم بالسرقة أم من اتهمه فريسة للمرض • على أنهم لم يقدموا سببا يعزى اليه مرض هذا الشخص ، وانما نرجح أن روح الشجرة التى استعانت بطبيعة الحال لطعنها بالسهام ، تنتقم لغضبها ، عن طريق التمييز الحصيف ، من المجرم وحده • ومن ثم فإن الرجل الشرير يمرض ، ولاشئ يشفيه من مرضه الا اذا اقتلعت الشجرة من جذورها ، لأن هذا هو الطريق الوحيد للقضاء على روح الشجرة • وبناء على ذلك فان أصدقاء المريض يأتون الى الشجرة ويقتلعونها ، وفى الوقت نفسه يقومون بذبح شاة ويأكلون لحمها توا ، كما يتناولون معه بعض الأدوية • ثم يلف كل فرد منهم شريطا من جلد الحيوان على معصم يده اليمنى • أما الرجل المريض نفسه الذى تقام هذه الشعائر من أجله • فيلف شريطا من جلد الحيوان حول رقبته ، كما يمسح صدره بروث الحيوان المذبوح • وهنا نلاحظ مرة أخرى أن الغرض من ذبح الشاة ليس هو استرضاء الروح بحال من الأحوال وانما هو بالأحرى حماية المريض وأصدقائه من نقمة روح الشجرة ، وذلك فى حالة ما اذا كانوا قد فشلوا فى القضاء عليه عن طريق تحطيم الشجرة •

كما تنتشر عادة ارتداء جزء من جلد الحيوان الضحية انتشارا مألوفا بين قبائل افريقيا الشرقية ، وذلك عندما تقام شعائر التكفير عن الذنب • فإذا ضرب رجل من قبيلة « واتشاجا » زوجته وخرجت من بيته اثر ذلك ثم عادت اليه ، فإن الزوج يقطع أذن نعجة ويصنع منها خاتمين ، ويقوم كل منهما بوضع خاتم فى اصبع الآخر • ولا يجوز للزوجة قبل ذلك أن تطهو له الطعام أو أن تأكل معه • وتتنظر قبيلة واتشاجا وبالمثل كثير من القبائل الافريقية ، الى الحداد نظرة فزع ،

منشؤه التطير منه • ذلك لأنهم يعتقدون أن قوى غريبة تمتلكه وترفعه فوق مستوى الرجل العادى • ولا تقتصر هذه النظرة الغريبة الغامضة على شخص الحداد فحسب ، وإنما تمتد الى آلاف حرفته ، وبصفة خاصة المطرقة التى تمتلك وفقا لتصورهم ، قدرة سحرية أو روحية • ومن ثم فإنه يتحتم على الحداد أن يكون حريصا فى استعمال هذه الآلة فى حضرة الناس ، والا تعرضت حياتهم بتأثير سحرها العجيب للخطر البالغ • فإذا أشار بها إلى رجل على سبيل المثال ، فإنهم يعتقدون أن هذا الرجل سوف يموت ، ما لم تؤدى شعائر مقدسة لابعاد الشر الذى قد يلحق به • وعند ذاك تذبح عنزة ويصنع خاتمان من جلدها ، أحدهما يلبسه الحداد فى الاصبع الأوسط من يده اليمنى ، والآخر يلبسه الرجل المعرض للخطر فى الاصبع الأوسط من يده اليمنى كذلك ، ثم تنقل عبارة التطهير التقليدية • وتؤدى هذه الشعائر كذلك اذا أشار الحداد الى أحد بملقطة النار ، أو اذا رمى فى غير عمد ، برادة حديدية على أحد •

وتؤدى قبيلة « واتشاجا » التى تسكن فى مقاطعة « الجون » فى افريقيا الشرقية البريطانية ، شعائر للتكفير من هذا النوع • فإذا اقتحم شخص غريب كوخا من الأكواخ ، على سبيل المثال ، وسقطت عباءته الجلدية على الأرض ، أو كان قد اشترك فى مشاجرة ما أصيب على أثرها بجراح تساقطت منها قطرات من الدم على أرض الكوخ ، فإن أحد سكان الكوخ يكون فى هذه الحالة معرضا للمرض ، ما لم تؤدى شعائر معينة لدرء هذا المرض • وفى هذه الحالة يتحتم على هذا الشخص الغريب أن يحضر عنزة ويذبحها ويسلخ جلد صدرها وبطنها ويقطعه الى شرائط تقلب فى محتوى معدة الحيوان ، ثم يأخذ كل فرد من أفراد الكوخ شريطا منها ويلفه حول معصم يده اليمنى • فإذا حدث أن وقع أحد أفراد الكوخ فريسة للمرض قبل أن يتخذ هذا الاجراء ، فإن الشريط يلف فى هذه الحالة حول رقبة المريض ، كما يمسح صدره ببعض روث الحيوان • ثم يأكل أفراد الكوخ نصف لحم العنزة والنصف

الآخر يأكله القادم الغريب • وتعتقد قبيلة « واونجا » وبالمثل كثير من القبائل الهمجية ، أن الام التي تلد توأما ، تكون معرضة لأخطار بالغة ، ومن ثم يتحتم القيام بشعائر متنوعة قبل أن تتمكن من مغادرة الكوخ والا لحق بها من الأذى مالا داعى لذكره • ومن بين هذه الشعائر ، أن تقوم الأسرة باصطياد حيوان التليا « الخلد » وقتله عن طريق وخزه بشوكة خشبية خلف رقبتة ، ثم تشق بطنه وتنتزع محتويات معدته ويمسح بها صدر الأم وصدر الطفلين التوأم • ثم يقطع جلد الحيوان الى شرائط تلف حول المعصم الايمن من كل صبي كما تلف حول عنق الأم • وبعد خمسة أيام من ارتداء هذه الشرائط تخرج الأم لتستحم في النهر وترمي بهذه الشرائط فيه • ثم يدفن لحم الحيوان تحت شرفة الكوخ ، كما يطرح جزء منه أمام باب الكوخ وتوضع فوقه آنية مثقوبة من أسفلها في وضع مقلوب •

وأخيرا ، ربما تسنى لنا أن نشير الى أن قبائل افريقيا الشرقية تستخدم على هذا النحو جلد الحيوان الذي يقدم ضحية في احتفالات مقدسة بعينها ، تقام بين فترات متباعدة وفقا لمراتب الاعمار التي يقسم اليها الشعب بأسره • فقبيلة ناندى على سبيل المثال ، تنقسم الى سبع مراتب • وبناء عليها يقام هذا الاحتفال كل سبع سنوات ونصف • وعند كل احتفال يتحول حكم البلد من رجال ينتمون الى مرتبة انخفضت ، الى رجال أصغر منهم سنا وينتمون الى مرتبة قادمة من العمر • ويحضر رئيس الاطباء هذا الاحتفال الذي يبدأ بذبح ثور أبيض يقوم المحاربون من الشباب بشرائه لهذا الغرض • وبعد أن يأكل شيوخ القبيلة لحم الثور ، يصنع كل شاب من شباب القبيلة خاتما من جلد الحيوان ويلبسه في أحد اصابع اليد اليمنى • وبهذه الطريقة تنتقل في صورة شكلية قوة الشيوخ الى الشباب • وعند ذاك يخلع المحاربون الشباب أرديتهم الجلدية ويتشحنون بأردية الشيوخ المصنوعة من الفرو • وفي الاحتفال المماثل لذلك عند قبيلة أكيكويو الذي يجرى عندهم كل خمسة عشر عاما ، يلف كل فرد شريطا من جلد

جدى ، يقدم ضحية لهذا الغرض ، حول معصمه ، وذلك قبل أن يعود الى بيته •

وقد نخلص بعد هذا العرض الشامل للعادات المسالفة ، الى أن الغرض من ارتداء الشخص لجزء من جلد الحيوان الضحية ، هو حمايته من شر اصابه حقا أو قد يصيبه • أى أن جلد الحيوان يستخدم فى هذه الحالة بوصفه تعويذة • وربما انطبق هذا التفسير على الحالات التى تتبع فيها هذه العادة عند التصديق على عهد من العهود ، حيث ان الطرفين المتعاهدين يحميان أنفسهما من خطر قد يلحق بهما اذا ما نقض أحدهما العهد • كأننا يمكننا أن نفترض أن الغرض من طقس الميلاد الجديد أو الميلاد من النعجة ، الذى تعودت قبيلة أكيكويو أن تؤديه قبل ختان الصبية ، هو حماية هؤلاء الصبية من بعض الشرور التى قد تلحق بهم اذا لم تود لهم الشعائر المناسبة • أما الطريقة التى يتأثر بها الشخص المعنى بهذه الشعائر ، فهى أن الشخص بارتدائه جلد الحيوان يطابق بين شخصه والحيوان الضحية الذى يكون بمثابة الحاجز بينه وبين ايداء القوى الشريرة له ، سواء كان ذلك عن طريق خداعها أو مداهنتها ، فتوجه تأثيرها الى الحيوان ، بدلا من الرجل • أو أنه يظن أن لحم الحيوان ودمه وجلده له خاصية سحرية معينة تحفظ الشر بعيدا عن الانسان • وتتضح فكرة مطابقة الانسان بالحيوان كل الوضوح فى شعيرة الميلاد الجديد عند قبيلة « كوكويو » فبناء على هذه الشعيرة تتظاهر الأم بأنها نعجة وأن ابنها المولود هو الجدى الصغير المولود • ويحق لنا أن نفترض من خلال هذه الشعائر أن ارتباط الانسان بقطعة من جلد الحيوان الذى قدم ضحية يعد بديلا للفه فى جلد الحيوان كله • والغرض من هذا الفعل هو مطابقة الانسان بالحيوان •

٣ - الميلاد الجديد :

ان حكاية يعقوب الغريبة التى تحكى عن الاحتيال والخديعة اللذين دبرهما الابن الماكر متواطئا مع أمه ضد الأب والزوج الخرف ، بقصد تحويل بركة الاب من عيسو الى يعقوب ، تحمل مظهرا آخر أكثر وقارا

من ذلك الذى خلعه عليها كاتب القصة ، وذلك اذا افترضنا أن هذا الدور المغيب الذى لعبته القصة ، قد ضمنه اياها القاص الذى فشل فى الوصول الى الفهم المسليم لطبيعة العمل الذى وصفه • فالعمل الذى قام به يعقوب ، ان كان فرضنا سليما ، ليس سوى عمل شرعى يحمل مغزى الميلاد الجديد فى شكل عنزة ، وذلك بهدف أن يعامل يعقوب شرعيا معاملة الابن الأكبر بدلا من كونه الابن الأصغر • وقد سبق أن رأينا أن عادة الميلاد من عنزة أو شاة قد لعبت فيما يبدو ، دورا مهما فى الحياة الاجتماعية والدينية عند قبيلة « أكيويو » التى تسكن افريقيا الشرقية ، والتى ترجع فيما يبدو ، الى أصل عربى ، ان لم تكن ترجع الى أصل سامى • وفى وسعنا أن ندعم نظريتنا هذه اذا استطعنا أن نبين أن عادة التظاهر بالميلاد الجديد عن طريق امرأة أو حيوان ، كانت تتبع بين شعوب أخرى فى أحوال يظن فيها أنه من الافضل للرجل أن ينسلخ من شخصيته القديمة ويصطنع شخصية جديدة يبدأ بها مرحلة جديدة فى حياته • وباختصار فان عادة الميلاد الجديد كانت تستخدم فى مرحلة مبكرة من تاريخ التشريع فى التأثير على وضع من أوضاع الانسان واعشاره الى ما يعترى حياته من تغير فى هذا الوضع • والأمثلة التالية يمكن أن توضح هذا الغرض العام •

فعادة الميلاد الجديد كانت تستخدم فى المقام الأول استخداما طبيعيا فى أحوال التبني ، أى بقصد جعل الابن المتبنى ابنا حقيقيا للأم المتبنية له • فالمؤرخ الصقلى « ديودورس » يخبرنا أن هرقل عندما ارتفع الى مصاف الآلهة ، أغرى أبوه الاله « زيوس » زوجته « هيرا » أن تتخذ من هذا الابن غير الشرعى ابنا حقيقيا لها • وقد حققت الآلهة النبيلة مطلب زوجها ، بأن نامت فى سريرها وضمت هرقل اليها ثم وضعت داخل رداءها ودفعته حتى سقط على الأرض ، مصطنعة بذلك أنها تلد حقيقة • ثم يضيف المؤرخ الى ذلك بأن البرابرة فى عصره كانوا يتبعون هذا الأجراء فى حالة تبنيهم طفلا • ويبدو أن هذه العادة كانت تتبع فى العصور الوسطى فى أسبانيا وفى بعض جهات أوربا • فكانت الام أو الاب يضع الطفل المتبنى داخل رداءه ، وأحيانا

يضعه في طيات رداءه المنساب ، ثم يجعله يسقط على الأرض • ومن ثم فإن الأطفال المتبنين كانوا يسمون « أطفال الاردية » • « وقد ذكر في عدة مخطوطات من « التقويم العام » أن اليوم الذي عمد فيه « مودارا » وخلع عليه لقب فارس ، لبست زوجة أبيه قميصا فضفاضا فوق رداءها ، ووضعت الطفل في أحد أكمامه ثم سحبتة من فتحتة وهي تعلن أنه أصبح أبناها ووريثها » • ويقال : ان هذا الأجراء هو الشكل المألوف الذي يتبع في أسبانيا عند تبني الابناء • بل انه ما زال يتبع فيما يقال بين السلافيين الجوبيين • ففي بعض جهات بلغاريا تضع الام الطفل المتبنى داخل رداءها من أسفله وتخرجه من فتحتة العليا عند صدرها • وعند « أتراك البوسنة » يجرى الاحتفال بتبني الطفل على هذا النحو : تدفع الام المستقبل بالابن المتبنى داخل سروالها مصطنعة بذلك أنها تلد بحق • كما قيل : « ان الطريقة المألوفة لتبني الطفل عند الأتراك بوجه عام هو أن يمر الشخص المتبنى من ازار الشخص الذي يرغب في تبنيه • ولهذا فان الاصطلاح الذي يستخدمه الأتراك للمتبنى هو : « أن يمر الشخص المتبنى داخل ازار متبنيه » •

« ويقوم بعض الكمانتانيين سكان بورما (وهم البروانيون والليلاكين الذين يسكنون في بارام) باحتفال رمزي غريب عند تبني أسرة لطفل من الأطفال • فاذا استقر رأى رجل وزوجته على أن يتبنيا طفلا ، فانهما يتجنبان ، قبل القيام باحتفال التبني بضعة أسابيع ، تلك المحرمات التي تتجنب عادة قبل الشهور الأخيرة من حمل الزوجة • فكثير من هذه المحرمات يمكن أن يوصف بوجه عام بأنها الامتناع عن كل عمل يؤدي الى صعوبة في وضع الطفل أو الى تأخير في الوضع • ومثال ذلك ألا تزرع يد في حجر ضيق لاستخراج شيء منه ، وألا يثبت شيء في وتد خشبي ، وألا يتردد الزوج أو الزوجة عند عتبة حجرة ، عند دخولها أو خروجها منها • فاذا حان اليوم الذي يجرى فيه احتفال التبني ، تجلس الام مستدة الى سناد وملفعة بقماش على نحو ما تفعل دائما عند الوضع ، ثم يدفع الطفل من خلف رجليها الى

الامام • فاذا كان الطفل رضيعا ، فانه يوضع على صدرها ليتمتص ثديها ، ثم يسمى بعد ذلك باسم • ومن العسير تماما أن يحصل الانسان على ما يثبت أن طفلا بعينه قد تبني ، وأنه ليس ابنا حقيقيا لابوين بعينهما • ولا يرجع هذا الى الرغبة في اخفاء الحقيقة بقدر ما يرجع الى كمال عملية التبني ، فالزوجان ينظران الى الطفل المتبنى بوصفه ابنا حقيقيا لهما بحيث انه يصعب علينا أن نعثر على ألفاظ تعبر عن التمييز بين الطفل المتبنى والطفل الحقيقي • ويحدث هذا بصفة خاصة اذا ما رضع الطفل المتبنى من الام حقا » •

وهنا نلاحظ أن الوالدين يشتركان معا في اتباع اجراءات الميلاد الجديد ، فكل من الاب والام يتظاهران بمراعاة النظم التي يتبعها عادة كل أب وأم بين هؤلاء القوم بقصد العمل على تيسير ولادة الطفل الحقيقي • ويقوم الوالدان المتبنيان لطفل ما بدورهما في هذه المسرحية العائلية بجدية بالغة ، الى درجة أنه لم يعد يميز بين الادعاء والحقيقة ، والى درجة أننا لا نجد ألفاظا تعبر عن الفرق بين الابن المتبنى والابن الحقيقي • وليست هناك وسيلة أبعد من ذلك تجعل الابن المتبنى يعتقد أنه الابن الحقيقي لابويه المتبنين له •

فاذا حدث عند قبيلة « باهيا » التي تسكن في افريقيا الوسطى « أن ورث رجل أولاد أخيه المتوفى ، فانه يأخذهم ويضعهم واحدا تلو الآخر في حجر زوجته التي تستقبلهم بدورها وتقبلهم بوصفهم أولادها الشرعيين • ثم يحضر الزوج سيرا من الجلد يستخدم في ربط الابقار الجامحة عند حلبها ، يلفه حول وسط الام بعد الوضع • وبعد هذا الاحتفال يتربى هؤلاء الابناء في كنف الاسرة ويصبحون من أفرادها » وتتضح ملامح شعائر الميلاد الجديد في هذا المثال في وضع الأطفال في حجر الام ، وفي ربط وسطها بالسير الجلدي على نحو ما تفعل القابلة مع الام بعد ولادة الابن الحقيقي •

وتقام شعائر الميلاد الجديد لصالح الاشخاص الذين كان يظن خطأ أنهم توفوا ، ومن ثم أقيمت لهم الشعائر الجنائزية غيابيا بهدف اهجاع أرواحهم الهائمة التي يمكن أن تتملك الاحياء وتضايقهم مالم تؤد هذه الشعائر . فاذا حدث بعد ذلك ان عاد هؤلاء الاشخاص والمتم شملهم بأسرهم ، فان هذا يخلق موقفا محيرا لهذه الاسرة ، حيث ان هؤلاء الاشخاص أصبحوا يعدون نظريا في عداد الموتى ، بناء على طقوس السحر التقليدية أو شعائر الادعاء . وعندما واجه الاغريق والهنود القدماء هذه المشكلة ، وجدوا حلا لها عن طريق تأدية شعائر الميلاد الجديد . وهنا كان يتحتم على العائد ان يتظاهر في رهبة ، قبل أن يختلط في حرية بأقرانه ، أنه قد عاد للحياة مرة أخرى وذلك عن طريق ولادته من امرأة . وقد كان الاغريق يعدون هؤلاء أشخاصا نجسين قبل أن تؤدي لهم هذه الشعائر ، فكانوا يرفضون الاختلاط بهم ولا يسمحون لهم بالاشتراك في الطقوس الدينية ، ويمنعونهم بصفة خاصة من دخول معابد الآهات الانتقام . ومن ثم يتحتم على هؤلاء الاشخاص ، لكي يستردوا حقوقهم المدنية ، أن يخرج الفرد منهم من رداء امرأة ، ثم تغسل القابلة له جسمه وتلفه في القماط وتضعه على صدر هذه المرأة ليمتص ثديها . ويعتقد بعض الناس أن هذه العادة ارتبطت في نشأتها بشخص بعينه كان يدعى « اريستيفوس » . وقد حدث أن تغيب هذا الشخص وأقيمت له الشعائر الجنائزية في أثناء غيابه . فلما عاد الى قومه رأى أن الناس جميعا يتجنبونه كما يتجنبون الشخص الطريد . عند ذاك لجأ الى نبوة دلفي يلتمس النصيحة ، فأرشده الاله الى أن يقوم بتأدية شعائر الميلاد الجديد . على أن البعض الآخر يعتقد كل الاعتقاد أن هذه العادة أقدم في نشأتها من عصر « اريستيفوس » ، وأنها وصلت اليهم من عصور بالغة في القدم أما عند الهنود القدماء ، فقد كان يتحتم في مثل هذه الظروف ، على الشخص الذي كان قد ظن أنه قد توفي ، أن يقضى الليلة التي يعود فيها الى قومه داخل برميل ممتلئ بمزيج من الماء والدهن . وقبل أن يخطو داخل البرميل ، يتلو والده أو أقرب قريب له بعد الأب ، عبارة

محددة يعتقد بعدها أنه قد ارتد الى الحالة التى كان فيها جنينا في رحم أمه • ولهذا فانه يتقص شخصية الجنين ، فيجلس في البرميل ساكنا قابضا يديه رتقام فوقه الشعائر التى تؤدى بانتظام للأم الحامل • وفي صباح اليوم التالى يخرج من خلف البرميل ثم يقوم بتأدية الشعائر التى سبق له أن أداها منذ بلوغه مرحلة الشباب حتى ذلك الوقت ، وبصفة خاصة الاحتفال فى قدسية بزواجه من امرأة جديدة ، أو من امرأته القديمة • ويبدو أن هذه العادة لم تختف كلية فى الهند حتى يومنا هذا • أما عند « الكوماويين » ، فان الشخص الذى يعتقد فى أنه يلفظ أنفاسه الاخيرة ، يحمل خارج بيته لكى يؤدى له أقرب قريب له شعائر التطهير من الذنوب • فاذا شفى بعد ذلك ، فانه يتحتم عليه أن يقوم بكل الطقوس التى سبق أن قام بها منذ ولادته حتى اليوم ، كأن يرتدى الخيط المقدس ويتزوج النساء ، أو يعود فيتزوج زوجاته مرة أخرى •

على أن شعائر الميلاد الجديد كانت تؤدى فى الهند قديما فى غرض آخر مختلف عن الغرض الاول وأكثر منه قدسية • فرب الاسرة البراهمانى الذى كان يقوم بتقديم الضحية بانتظام كل خمسة عشر يوما ، كان يعتقد فى أنه أصبح الها لوقت محدد • ولكى يتم تحويله من انسان الى اله ، ومن الفناء الى المخلود ، كان من الضرورى له أن يولد من جديد • وفى هذه الحالة يرش بالماء ، وهو عمل رمزى يشير الى الذرية • ثم يصطنع بعد ذلك أنه أصبح جنينا ، وذلك بأن يحبس نفسه داخل كوخ خاص يمثل رحم المرأة • ثم يرتدى حزاما تحت رداءه ، كما يرتدى فوق الرداء جلد بقرة وحشية سوداء • والحزام يرمز الى الحبلى السرى ، كما يرمز الرداء وجلد البقرة الوحشية الى كل من الغشائيين الداخلى والخارجى اللذين يغلفان الرحم • وعند ذاك يجب عليه أن يحرص على ألا يחדش نفسه بمسمار أو عصاة والامات بوصفه جنينا • ولكنه يجوز له أن يتحرك داخل الكوخ ، حيث ان الجنين يتحرك داخل الرحم ، كما يجوز له أن يقبض على يديه حيث

الجنين يفعل ذلك أيضا • فاذا استحم وخلع عنه المجلد الأسود وارتنى رداءه الخارجى بعد ذلك ، فذلك لأن الطفل يولد بالغشاء الداخلى لا الخارجى • وبهذا يكتسب البراهمانى من خلال هذه الشعائر جسدا جديدا متألقا ذا قوة خارقة ، الى جانب جسده الطبيعى الفانى ، كما يحاط بهالة من النار ، وتهذا يصبح الها من خلال عملية الميلاد الجديد ، ومن خلال تجديده لطبيعته الجسدية •

هكذا نرى أن شعائر الميلاد الجديد يمكن أن تخدم أغراضا مختلفة ، فهى تعيد الحياة الى الشخص الذى كان يظن أنه مات ، وهى ترفع الرجل الحى الى مرتبة الألوهية • وقد كانت هذه العادة تتبع فى الهند حديثا ، بل انها لا تزال تتبع حقا الى اليوم بين الحين والآخر ، بوصفها طقسا تطهيريا يكفر عن افعال الناس لعادة من عادات الأجداد • ولهذا يتضح جبل التفكير الذى أدى الى ممارسة هذه العادة « فالمذنب الذى تقام له شعائر الميلاد الجديد يصبح رجلا جديدا ، ومن ثم فهو يكف عن أن يكون مسئولا عن ذنوبه التى ارتكبها قبل الميلاد ، فعملية التجدد تعد فى الوقت نفسه عملية تطهير ، اذ أن مثل هذا الشخص قد خلع عنه طبيعته القديمة واكتسب طبيعة أخرى جديدة • فالمجتمع القبلى فى قبيلة « كوركو » ، وهى احدى القبائل الاصلية فى المجموعة الكولاريانية أو « الموندانية » التى تسكن الاقاليم الوسطى فى الهند ، يعاقب من يرتكب جرما اجتماعيا مألوفا بالعقوبات العادية • ولكنه « فى بعض الاحوال الخطيرة مثل مخالطة الشخص المنبوذ الادنى منه ، فانه يتحتم على مثل هذا الشخص أن يقوم بشعائر الميلاد الجديد ، فيوضع داخل وعاء كبير مصنوع من الطين ويغلق دونه الوعاء • وعندما يخرج منه يقال انه قد ولد من جديد من رحم أمه • وعند ذاك يدفن فى الرمل ويخرج منه جسدا جديدا من التراب • ثم يوضع داخل كوخ مبنى من الاعشاب وتشعل النار فى هذا الكوخ فيجرى هاربا من النار ويغطس فى الماء ، وأخيرا يقص جزءا من خصلة من شعره التى تنمو على رأسه الحليق ، ويدفع غرامة ، قدرها روبيتان

ونصف روبية » • وهنا يتضح أن شعائر الميلاد الجديد يقصد بها تخليص الشخص من تحمل مسئولية أعماله السابقة ، وذلك عن طريق تحويله كلية الى شخص جديد • ولكن ما ذنب تحمله لاساءة ارتكبها شخص آخر قبل أن يولد هو ؟ •

ويكون احتفال الميلاد الجديد أكثر دقة وأكثر تكلفة إذا كان المذنب الذى يراد القيام بالاحتفال من أجله ذا حسب أو صاحب مجد • ففي القرن الثامن عشر « حدث أن أرسل « راجهو — ناث — رايا » أو « راجوبا » اثنين من البراهمة بوصفهما رسولين له الى انجلترا ، فسافر اليها عن طريق قناة السويس • ولكنهما عند عودتهما الى وطنهما عوملا معاملة المطرودين ، وذلك لأنهما سافرا عبر بلاد يسكنها « الميليثشانيون » أى القبائل النجسة ، وعاشا بينهم متبعين الشرائع الموضوعة فى كتبهم المقدسة • كما نسب اليهما كذلك أنهما عبرا بحر « أتاكا » • وعند ذاك عقدت الاجتماعات وتوافد البراهمة العلماء من كل حدب ، ولم يستطع « راجهو — ناثا — رايا » بنفوذهم وتأثيره أن ينقذ رسولييه من هذه التهمة • وعلى كل فقد انتهى الاجتماع الموقر الى أن يقوم الرسولان بشعائر تجديد جسديهما ووسامتهما الكهنوتية معا ، وذلك اعتبارا لسلوكهما الكريم المسالف الذى رفع بهما الى مستوى غالى ، ونظرا للمهمة السامية التى قاما بها فى البلاد النائية من أجل مصلحة بلديهما • ولهذا الغرض طلب منهما أن يصنعا تمثالا من الذهب لاخدى القوى الطبيعية الانثوية فى شكل امرأة أو بقرة • ثم يدخل كل منهما داخل هذا التمثال ثم يسحب من فتحة منه • وإذا كان تكاليف هذا التمثال بأبعاده المحددة تعد باهظة ، فيكفى أن يصنعا تمثالا للآلهة « يونى » المقدسة يمر من خلاله الشخص المعنى • ولكن « راجو — ناث — رايا » صنع لهما تمثالا من الذهب الخالص تمت بواسطته عملية الميلاد الجديد ، كما أجريت الشعائر الأخرى ، وتمنح البراهماتيان الهدايا المتعددة لقبولهما مرة أخرى فى مجتمع المؤمنين الصادقين » •

« كما روى أن « تانجورى ناياكار » خُدع « مادورا » وعانى المتاعب بسبب ذلك • فنصحته مستشاروه البرهمانيون أنه من الأفضل أن يولد ن جديد • وعند ذاك صنعت له بقرة ضخمة من البرونز ، ودخل « ناياكار » في تجويفها وأغلقت عليه • ثم استقبلته زوجة معلمه البراهمانى التى كانت تقوم بخدمته ، بين ذراعيها وأجلسته على ركبتيها وضمته الى صدرها ، بينما أخذ « ناياكار » يصرخ صراخ الطفل الرضيع » •

كما كانت تستخدم طقوس الميلاد الجديد فى الهند بهدف رفع رجل ينتمى الى بيئة وضيعة بحكم مولده الى مرتبة اجتماعية أعلى منها • فمهراجيو « ترافنكورى » على سبيل المثال ، ينتمون الى طبقة « السودرا » ، وهى أدنى الطبقات الهندية الأربع • ولكنه يبدو أنهم يرفعون أنفسهم على الدوام الى طبقة البراهمانيين وهى أرفع هذه الطبقات ، وذلك عن طريق إجراء طقوس الميلاد الجديد من بقرة كبيرة مصنوعة من الذهب أو من زهرة لوتس كبيرة مصنوعة من الذهب كذلك • ومن ثم كان يسمى هذا الاحتفال « هيرانيا » أى الرحم الذهبى ، أو « باتماجاربها دانام » أى « هدية رحم اللوتس » • وذلك وفقا للشكل الذى يولد منه المهراجا ، بقرة كان أم زهرة اللوتس • فعندما كان « جيمس فوربيس » فى « ترافنكورى » أبصر الحاكم وهو يخرج من تجويف بقرة مصنوعة من الذهب الخالص • ثم حطم التمثال الذهبى بعد ذلك ووزع على البراهمانيين • وعندما أقام « الراجا مارتاندا فورماه » هذا الاحتفال عام ١٨٥٤ م ، كان التمثال الذى أجريت من خلاله الطقوس هو زهرة اللوتس • وقد قدر ثمنه بحوالى ستة آلاف من الدولارات • وقد وضع داخل هذا التمثال قدر من المزيج المقدس الذى يتكون من العناصر الخمسة التى تكون محتوى جسم البقرة وهى « اللبن والزبد وشرش اللبن والبول والروث » مما يشير الى أن المهراجا قد ولد من جديد من بقرة مقدسة،

وليس من زهرة اللوتس المقدسة • وبعد أن دخل جلالته داخل التجويف التمثال ، مكث بداخله الوقت الذى حدد له ، بينما أخذ الكهنة الذين كلفوا بتأدية الشعائر يصلون مرارا الصلوات المناسبة لذلك •

ويمكننا أن نستدل من هذا الاحتفال الاخير على أن المهرجات قد تحولوا منذ عام ١٨٥٤ م الى الشكل الثانى لشعائر الميلاد الجديد ، وهو الشكل الذى ربما كان أكثر قدسية من الشكل الاول ، ونعنى بذلك الميلاد من البقرة • ففي عام ١٨٦٩م أعلن أن « احتفالا آخر ليس أقل غرابة من الاحتفال الاول يسمى « ارنجا جهربوم » سيقام فى العام القادم ، حيث يمر جلالته (أى المهرجا حاكم ترافانكورى) من خلال بقرة ذهبية تصبح فيما بعد ملكا للكهنة » • ومرة أخرى نقرأ أن المهرجا حاكم « ترافانكورى » ، وهى مقاطعة أهلية تقع فى أقصى جنوب الهند ، قد فرغ منذ حين من اجراء الاحتفال النفيس الثانى والاخير الذى يعرف باسم « المرور خلال البقرة الذهبية » ، ذلك الاحتفال الذى كان يتحتم على المهرجا أن يقوم به لى يقف على قدم المساواة فى قليل أو كثير مع البرهمانى ، حيث ان المهرجا يرجع فى أصله الى طبقة « سودرا » • ويعرف الاحتفال الاول من هذين الاحتفالين باسم « ثولا بورشا » • وكلمة « ثولا » تالفة السنسكريتية تعنى الميزان ، كما ان كلمة « بورشا » تعنى الرجل ، وكلمة « دانام » تعنى « منحة ذات طابع دينى » • ويتمثل هذا الاحتفال فى دخول المهرجا فى مكان ما ليقف على كفة الميزان ، فيوزن مقابل عملات ذهبية توزع فيما بعد على البراهمة • • أما الاحتفال الثانى فيعرف باسم « هيرانيا جاربهام » • وتعنى كلمة « هيرانيا » السنسكريتية الذهب ، كما تعنى كلمة « جاربهام » الرحم • وجوهر هذا الاحتفال هو المرور من خلال بقرة ذهبية • وهذه البقرة عبارة عن وعاء مصنوع من الذهب ، ويبلغ ارتفاعه عشرة أقدام ومحيطه ثمانية أقدام • ويملا هذا الوعاء حتى نصفه بمزيج يتكون من العناصر التى تتكون منها البقرة ، وعلى هذا المزيج يقوم البراهمة باجراء الطقوس المشروعة

ثم يصعد المهرجا الى قمة الوعاء عن طريق سلم مزين مصنوع لهذا الغرض ثم يغلق عليه الوعاء بينما يتلو البراهمانيون تعاويذهم وأناشيد الفيدا • ويستمر هذا الاجراء مدة عشر دقائق • يخرج بعدها المهرجا من الوعاء وينبطح أمام تمثال اله ملوك « ترافانكوري » • وعند ذلك يأتي الكاهن الكبير ويضع تاج « ترافانكوري » على رأس المهرجا الذى أصبح مقدسا بعد أن مر خلال البقرة الذهبية • والاحتفال الاول الذى يوزن فيه المهرجا بالذهب يجعله ملائما لأن يقوم بالاحتفال الثانى الذى يعد أكثر تبجيلا وأكثر تكلفة من الاحتفال الاول ، وهو مروره داخل تجويف البقرة الذهبية • وتكاليف هذه الاحتفالات باهظة ففضلا على قيمة الذهب الذى تصنع منه البقرة ، فانه ينفق الكثير من المال على اطعام حشد البراهمة الهائل الذين يجتمعون فى « تريفاندروم » بهذه المناسبة • ويقوم مهراجيو « ترافانكوري » بهذا الاحتفال منذ زمن بعيد لا يذكر على وجه التحديد • ويعد أى اهمال من جانبهم لهذا الاحتفال اساءة لتراث البلد ، الأمر الذى يتطير به الهندوكيون كل التطير » •

على أنه لو اقتصر هذا الاحتفال على هؤلاء القادرين على دفع نفقات البقرة الهائلة المصنوعة من الذهب ، لانهضت فكرة التجديد فى طائفة محدودة هى طائفة الأغنياء ، ولحلت بهؤلاء وحدهم البركة عن طريق دخولهم فى تجويف البقرة • ولكن البقرة الحية حلت ، لحسن الحظ ، محل البقرة الذهبية فى شعائر الميلاد الجديد • وبذلك أصبح فى استطاعة الفقير والوضيع أن يقوموا بهذه الشعائر ، وبذلك فتحت أبواب اللجنة لحشد هائل من الناس ، ولولا ذلك لظلت مغلقة دونهم • حقا انه يمكننا أن نفترض بشئ من الثقة ، أن الميلاد الجديد عن طريق البقرة الحية ، كان هو الشكل الأول لهذا الاحتفال ، وأن استبدال البقرة الحية ببقرة مصنوعة من الذهب ، لم يكن سوى استرضاء لكبرياء الراجاه وغيره من كبار رجال القوم الذين ربما حسبوها وصمة فى جبينهم لأن يولدوا كسائر أفراد الشعب من البقرة الحية • ومهما

يكن الأمر ، فانه من المؤكد أن البقرة الحية لا تزال تستخدم في بعض
جهات الهند في اقامة شعائر الميلاد الجديد • ففي الأقاليم الشمالية
الغربية من أحياء الهملايا « يؤدي احتفال الميلاد من فم البقرة عندما
يتنبأ الطالع لأحد الأهالي بحدوث جريمة من جانبه أو بحدوث كارثة
مفجعة له • وعند ذاك يأتي هذا الشخص ويلبس ملابس ذات لون
قرمزي • ويربط في غربال يمرر بين أرجل البقرة الخلفية حتى أرجلها
الأمامية ومنها الى فمها ، ثم يمرر في الاتجاه المضاد مشيرا بذلك الى
عملية الميلاد الجديد • ثم يرش الطفل المصطنع بالماء المقدس ،
ويتشمم الأب رائحة ابنه كما تفعل البقرة مع عجلها » • وهنا نلاحظ
أنه لما كان من الصعب بالضرورة تمرير الطفل داخل البقرة الحية ، لم
يبق سوى تمريره جيئة وذهابا بين أرجل البقرة • وبهذا يصبح الابن
مطابقا لابن البقرة ، كما يقوم الأب بدور البقرة نفسها عن طريق
تشممه لرائحة ابنه • ومثل هذا يحدث في الهند الجنوبية عندما يطرد
رجل من مجتمعه لسبب قهري ، فإنه يمكنه أن يعود الى بعد أن يمر
عدة مرات تحت بطن البقرة • وعلى الرغم من أن المكاتب الذي دون
هذه العادة لم يذكر أنها احتفال بالميلاد الجديد ، فانه يحق لنا أن نعوها
كذلك في ضوء الشواهد السابقة • ومن المحتمل أن اعادة وضع طفل عشر
الحظ في سلة أمام بقرة حلوب يقف بجانبها ابنها ، والسماح للبقرة بأن
تلعق الطفل ، يعد اجراء مبسطا للاحتفال الأصلي • « وبذلك تبرح
الطفل الصفات الشريرة التي يولد بها عن طريق الوراثة » •

فاذا كان طقس الميلاد من بقرة يمكن أن يتخذ أشكالا مبسطة
يصعب علينا تفهم مغزاها ، ما لم يكن لنا علم بتفاصيل الاحتفال
الكامل ، فانه لا يبدو أنه من غير المحتمل أن تكون كذلك شعائر الميلاد
من العنزة مثل تلك الشعائر التي تتبعها قبيلة « أكيكويو » عندما تربط
يد الانسان الذي يولد من جديد بجاد هذا الحيوان صورة مصغرة
لطقوس كاملة • ويتفق مع هذا الغرض أننا نجد قبيلة « أكيكويو »

تؤدي هذه الشعيرة الأخيرة في مناسبات مختلفة ، وهي بعينها تؤدي هذا الطقس كاملا في مناسبات مقدسة •

أليس من الطبيعي بعد ذلك أن نفترض أن الشعوب اختصرت في زحمة الحياة اليومية التي لم تكن تسمح بالقيام بهذا الاحتفال الشاق وبتفاصيله الدقيقة ، اختصرت هذا العلاج المتحكم فيهم ، الى شكل مبسط مريح يمكن اللجوء اليه دون أن تضطر الى تأجيل ضروريات الحياة الأقل شأنًا من هذا الاحتفال ؟ •

خاتمة :

فاذا عدنا من النقطة التي بدأنا منها، فإننا نذكر على سبيل الافتراض أن حكاية الخديعة التي ارتكبها يعقوب مع أبيه اسحق . تتضمن بقايا احتفال شرعى هو احتفال الميلاد الجديد من عنزة الذى كان الناس يرون ضرورة اتباعه ، أو يرغبون فى اتباعه عند ما يفضل الابن الأصغر فى الحقوق على حساب أخيه الأكبر الذى ما زال على قيد الحياة ، تماما كما يتظاهر الرجل الهندى فى أيامنا هذه بأنه يولد من جديد من بقرة ، وذلك اذا شاء أن يسمو الى مستوى اجتماعى أعلى من مستواه ، أو أن يعود الى قومه الذين خسرهم ، اما نتيجة حظه العاثر أو بسبب سوء سلوكه • وربما بسط هذا الاحتفال الغريب عند العبريين كما بسط عند « الاكيكيو » ، فأصبح يتمثل فى ذبح عنزة ووضع قطع من جلدها على الشخص الذى يعتقد بذلك أنه يولد من عنزة مرة أخرى • فاذا كان افتراضنا هذا صحيحا ، فان كاتب قصة يعقوب فى سفر التكوين يكون بذلك قد دون هذه الشعيرة القديمة ، وإن كان قد أساء فهمها فى الوقت نفسه •

الفصل الرابع

يعقوب في بيت ايل

١ - حلم يعقوب : من الطبيعي أن تؤدي خديعة يعقوب لأخيه « عيسو » ، على نحو ما تصور في حكاية الكتاب المقدس ، الى حدوث جفوة بين الأخوين • وقد تألم الأخ الأكبر نتيجة احساسه بخطأ لا يحتمل ، ودفعته طبيعته العاطفية لأن ينتقم من أخيه الأصغر الذي تمكن بحذقه أن يسلبه حقه في الارث • اما يعقوب فقد خاف على حياته من أخيه ، كما شساركته أمه التي تواطأت معه في جريمته ، مخاوفه • ومن ثم فقد استقر رأيها على أن تدع يعقوب يرحل الى مكان آمن ريثما يهدأ غضب أخيه ، الذي كان رغم غضبه ، متسامحا كريما • ورأت الام أن ترسل يعقوب الى خاله « لابان » في « حران » • وقد أثار في نفسها هذا القرار ذكرى موطنها الذي يقع فيما وراء النهر الكبير ، حينما زفت الى إسحق وهي في أوج جمالها • وربما مست هذه الذكرى شغاف قلبها المادى القاسى على نحو ما • ولكم تذكرت في متعة بالغة ، تلك اللمسية البهيجة التي ترجلت فيها عن جملها لتقابل شخصا يمشى بخطى وثيدة بين الحقول ، ذلك الشخص الذي أصبح زوجها فيما بعد • والآن لقد أصبح هذا الشخص الذي كان مكتمل الزجولة ، كفيلا خرفا طريح الفراش • ولم تكن هذه الأم قد أبصرت وجهها من قبل الا في تلك اللمسية التي هيجت ذكراها ، عندما نظرت الى البئر ، فانعكست على صفحته صورة وجه مجعد وشعر أشعث ، ولم تكن هذه الصورة سوى شبح جمالها المسالف وخياله • حسنا كم

تمضى الأيام كأنها البرق الخاطف ! ولكن ربما كان في عودة ابنها من وطنها مصطحبا زوجة شابة حسناء ترى فيها صورة شبابه الضائع ، سلوى لها عن نهب الأيام • هذه الأفكار ربما راودت الأم المعجبة بنفسها وهي تودع ابنها ، على الرغم من أنها لم تعبر له عن هذه المشاعر ، اذا كنا نعتمد على ما كتبه الكاتب اليهودي •

ورحل يعقوب متخذا طريقه من بلدة « بئر سبع » التي تقع عند مشارف الصحراء في أقصى جنوب بلاد الكنعانيين متجها الى الشمال مارا بالضرورة بمرتفعات أرض الميعاد الجرداء • واستمر في طريقه شمالا في طريق وعر شاق حتى وصل الى مكان ما والشمس أوشكت على الغروب • فقرر أن يبيت في هذا المكان ، اذ كان مجهدا وقد تقרכת قدماه من السير ، كما كان الظلام قد أوشك على مهاجمته • وقد كان هذا المكان منعزلا • فأخذ يصعده تدريجيا حتى بلغ قمته التي تعلو فوق سطح البحر — بمقدار ثلاث آلاف قدم • وكان الهواء حادا لافحا ، فنظر من حوله ، فرأى ، حسبما أتاحت له الظلال المتساقطة ، قفارا تتناثر فيها الأحجار والصخور الرمادية التي كانت تتراكم في بعض الاحيان مكونة شكل أعمدة غريبة ، ونصبا تذكارية وأضرحة ، بينما كان يلوح على البعد تل قفر معتم تراءت جوانبه في شكل شرفات حجرية بعضها فوق بعض • لقد كان منظرا موحشا لا يغرى المسافر بأن يجيل النظر فيه طويلا • وعند ذاك جلس يعقوب وقد أحاطت به الصخور الضخمة من كل جانب ، ثم وضع رأسه على إحدى هذه الصخور كأنها وسادة ، وراح في نوم عميق • فرأى في منامه كأنه يبصر سلما يصل ما بين الأرض والسماء ، وكانت الملائكة تتحرك عليه صاعدة هابطة • ثم أبصر الرب يقف بجانبه ويعهده بأن الارض التي تحيط به جميعا ستصبح له ولذريته من بعده • عند ذاك استيقظ من نومه مذعورا وهو يقول : « حقا ان الرب في هذا المكان وأنا لم أعلم • وشعر بالخوف وقال : ما أرهب هذا المكان • ما هذا الا بيت الله وهذاباب

المسما « (١) • وظل يعقوب راقدا وهو يرتجف حتى أشرف الصباح على ذلك المكان المنعزل ، وقد كشف مرة أخرى عن المنظر المتجهم لتلك القفار الصخرية والصخور الرمادية التي كان بصره قد وقع عليها بالأمس • ثم هب يعقوب واقفا وأخذ الحجر الذي يسند عليه رأسه ونصبه في هيئة عمود ، وصب عليه الزيت ، وأطلق على هذا المكان اسم « بيت إيل » أي بيت الرب • ونحن نفترض أنه على الرغم من هول الرؤيا التي رآها يعقوب ، فقد استأنف رحلته في ذلك اليوم بروح عالية بسبب الوعد الذي وعده به الرب • بل ان المنظر الطبيعي نفسه تغير في أثناء سيره وبدأ يأخذ مظهرا أكثر بهجة وانشراحا منسجما في ذلك مع آماله الجديدة التي يمتلئ بها صدره • وترك يعقوب وراءه مرتفعات بنيامين الجرداء وهبط الى أرض « افرايم » المنخفضة الخصبة • واستغرق سيره أربع ساعات التي أن هبط الى الوهدة الجميلة حيث تبدو جوانب التلال متدرجة حتى القمة ، وحيث تنمو أشجار الزيتون وأشجار السرخس التي تكسو الصخور البيضاء ، وحيث يزين أطرافها نبات الزعفران ونبات بخور مريم الابيض والبنى ، بينما كان طائر النقار وأبو زريق والبوم الصغير يضحك أو ينقر أو يصفر بين فروع الاشجار ، كل حسب طبيعة صوته • وعند ذاك شق يعقوب طريقه بقلب مفعم بالأمل الى البلد البعيد •

٢ — الأحلام التي تتمثل فيها الآلهة :

ان حكاية حلم يعقوب قد حكيت فيما يبدو ، وكما لاحظ النقاد ذلك ، لكي تفسر قدسية « بيت إيل » ، ذلك المكان المبالغ في القدم الذي ربما كان يقدسه سكان أرض كنعان الأصليون ، قبل أن يغزوها العبريون ويستقروا فيها بزمان طويل • والاعتقاد في أن الآلهة تتمثل للانسان في رؤياه وتكشف له عن ارادتها ، اعتقاد كان ينتشر في الزمن القديم • ووفقا لهذا الاعتقاد كان الناس يلوذون بالمعابد والأماكن

(١) سفر التكوين : الاصحاح الثامن والعشرون آية ١٦ ، ١٧ •

المقدسة الأخرى ويناہون هناك حتى تظهر لهم القوى العلوية في رؤياهم وتتحدث معهم ، اذ كان من الطبيعي ان يعتقدوا ان الآلهة أو أرواح الأشخاص المؤلهين أكثر ما تتمثل لهم في تلك الأماكن المخصصة للعبادتها • فقد كان في « أوروبوس » على سبيل المثال ، تلك المدينة التي كانت تقع في « اتيكا » ، محراب للعراف الذي كان يدعى « أمغياروس » ، حيث تعود المستفسرون عن مسائل تخصهم ، أن يذبحوا الكباش ضحية له وللأشخاص المؤلهين الآخرين ، الذين كانت قد نقشت أسماءهم في المحراب • وبعد ذلك يفترش هؤلاء جلود الكباش ويناہون عليها ، وهم يتوقعون أن يتمثل لهم هؤلاء الأشخاص في رؤياهم • ويبدو أن أمكنة النبوة هذه كان يزورها أساسا وبصفة دائمة المرضى الذين كانوا يبحثون عن وسيلة لتخفيف آلامهم • فاذا توصلوا الى هذه الوسيلة من خلال رؤياهم التي يرونها في تلك الأماكن المقدسة ، فانهم يعبرون عن شكرهم برمي قطع من النقود الذهبية أو الفضية في النبع المقدس لهذا المكان • فقد أخبرنا « ليفي » أن معبد « أمغياروس » القديم كان يقع في مكان جميل بين الينابيع والجداول • وقد تأكد هذا عن طريق استكشاف هذا المكان في العصر الحديث • فهذا المكان عبارة عن واحة صغيرة جميلة ليست بالمتسعة أو العميقة ، تقع بين تلال منخفضة تكسوها أشجار الصنوبر في بعض أجزائها • ويجري في هذه الواحة جدول صغير يشق طريقه بين شواطئ تنمو على حافتها أشجار الدفل والدلب لمسافة ميل حيث يصل الجدول في البحر • وعلى البعد تحول جبال « اوبونيا » الشاهقة الزرقاء دون امتداد المنظر فيما وراءها • ولقد كانت مجموعات الأشجار والشجيرات التي تتكاثر عند جوانب الواحة وتغرد عليها الطيور ، وتلك المروج الخضراء الممتدة عند أسفلها ثم هذا السكون وتلك العزلة ، بالإضافة الى أشعة الشمس المتوهجة في هذا المكان المغلق ، كان كل ذلك ملائما لأن يجعل المكان ملاذا للمرضى الذين كانوا يتوافدون عليه ليلتمسوا النصيحة من اله الشفاء • حقا ان هذا المكان مغلق للغاية ، الى درجة أن الحرارة التي تشع فيه من شمس بلاد

اليونان التي تخلو سماءها في مثل هذا الوقت من السحب ، بالإضافة الى خلو الوهدة من الهواء ، لم يكن يتحملها الزائر القادم من بلاد الشمال • أما بالنسبة للمواطن اليونانى ، فهو مكان مناسب له فيما يبدو • ومن المؤكد أن مكان النبوءة هذا لم يكن يفتح أبوابه للزائرين الا في أشهر الصيف ، ذلك لأن الكاهن كان ملزما بأن يكون موجودا بهذا المكان مدة عشرة أيام على الاقل من كل شهر ، ابتداء من نهاية الشتاء حتى يبدأ موسم الحرث الذى يتفق مع ظهور نجوم الثريا • وفى هذه الفترة لم يكن يسمح للكاهن أن يتغيب أكثر من ثلاثة أيام دفعة واحدة • وكان على المريض الذى يجى لهذا المكان يلتمس النصيحة من الاله ، أن يقوم قبل كل شىء بدفع رسم قدره تسع أوبولات على الأقل (أى ما يساوى ثلثنا على وجه التقريب) من الفضة المخالصة لخزينة المعبد فى حضرة حافظ غرفة المقدسات ، الذى يقوم بتدوين اسم هذا الشخص واسم باده فى السجل العام • فاذا كان الكاهن موجودا ، فان من واجبه أن يصلى فوق الحيوان الذى قدم ضحية وأن يضع لحمه فوق المذبح • أما اذا كان الكاهن متغيبا ، ففى وسع الشخص الذى قام بتقديم الضحية أن يؤدى هذه الشعائر بنفسه • ويحصل الكاهن على جلد كل حيوان يقدم ضحية كما يحصل على كتف من كتفيه ، بوصفهما منحة له ، ولكنه لا يسمح بأن ينقل أى جزء من لحم الحيوان خارج هذا المكان • فاذا قام الشخص بهذه الاجراءات يسمح له بعد ذلك بالمبيت بهذا المكان حتى يستقبل النبوءة • وفى المجمع ينام الرجال والنساء منفصلين بحيث يفصل بينهما المذبح • وترقد النساء جهة الشرق فى حين يرقد الرجال جهة الغرب •

وقد كان هناك مهجع شبيه بالمهجع السابق كان مخصصا للمرضى الذين كانوا يأتون الى معبد « أسكولاببيوس » الكبير الذى كان يقع بالقرب من « ابيداوروس » • وقد اكتشفت فى العصر الحديث آثار هذا المعبد التى تنتشر فى مساحة كبيرة ، وهى تكون معا إحدى الآثار الرائعة التى تشهد على حضارة الاغريق • وتقع آثار هذا المعبد فى

واد مفتوح جميل تحيط به المرتفعات المشاهقة التي تبرز جهة الشمال الغربى فى شكل قمم نائئة من الصخور الجرداء ذات اللون الرمادى ، فى حين تبدو وجهة الشرق والجنوب فى شكل تخوم مستوية بعض الشيء وفى شكل منحدرات مخضرة • وتتنتشر زراعة الذرة فى فصل الربيع فى أكثر أمكنة هذا الوادى انخفاضها التى تتخللها مجموعات من الأشجار والشجيرات • والاثـر العام الذى يتركه هذا المكان فى النفس هو الاحساس بالسكون والرهبة ، ونوع من العزلة المحببة الى النفس ، وذلك لبعده عن المدن • وهناك وهدة متطرفة ذات جو رومانسى تغطيها الغابات الكثيفة ، تقود الطريق الى آثار « ابىداوروس » القديمة التى تقع فى موقع جميل فوق نتوءات صخرية تطل على البحر عبر سهل تغطيه حدائق الليمون وتحيط بها جبال عالية تكسوها الغابات • وقد تعود المرضى الذين سبق لهم أن ناموا فى معبد « أيسكولابىوس » فى « ابىداوروس » ، وشفوا من وهنهم عن طريق الكشف الذى ظهر لهم فى أحلامهم ، تعودوا أن يدونوا ذكرى هذا الشفاء على ألواح كانت توضع فى المكان المقدس بوصفها شاهدة ناطقا على قوة الاله القادر على الشفاء ، وتقديرا لهؤلاء الذين وضعوا ثقتهم فيه • وقد كان هذا المكان المقدس يزدهم فى العصر القديم بهذه الألواح التى اكتشف بعضها فى العصر الحديث • وقد أضفت هذه الكتابات سحرا عجيبا على هذا المكان الذى يشبه الى حد ما مستشفيات العصر الحديث •

ففى هذه الألواح نقرا ، على سبيل المثال ، كيف ان رجلا كانت قد شلت أصابعه جميعا عدا اصبع واحد ، جاء لهذا المكان ليتضرع للاله ليشفيه • فلما وقع بصره على الألواح الموضوعه داخل المعبد وقرأ أخبار الشفاء العجيبة المدونة عليها ، بدأ الشك يساوره • على أنه نام فى مهجع المعبد ، فرأى فى منامه كأنه يلعب النرد فى المعبد • وبينما كان يرمى الزهر ظهر له الاله ووضع يده على يد هذا الشخص وبسط له أصابعه اصبعاً بعد الآخر ثم سأله ما اذا كان لا يزال يشك فى الكتابات المدونة على ألواح هذا المعبد • فأجاب الرجل بأنه حقا لم يعد

يشك فيها • عند ذاك قال له الاله : « ولكن لانك قد شككت فيها من قبل ، فانك ستدعى باسم الكافر من الآن فصاعدا • ثم برح الرجل في صباح اليوم التالى للمعبد وقد برىء من سقمه • ومرة أخرى زارت هذا المكان امرأة أثينية عوراء تدعى « أمبروزيا » لتلتمس النصيحة من الاله في مرضها • وبينما كانت تسير في أرجاء المعبد ، قرأت أخبار المثفاء المدونة على ألواح المعبد وسخرت من بعضها اذ وجدتتها مستحيلة بعيدة عن العقل ، وقالت لنفسها : « كيف يمكن للاعرج أن يصبح سليم الساقين ، وللاعمرى أن يسترد بصره لجرد رؤيتهما لرؤيا؟ » ثم نامت في المهجع وهى على هذا النحو من الشك ورأت رؤيا في منامها ، بدا فيها الاله يقف بجانبها ووعدا بأنها سوف تسترد بصر عينها المفقودة ، على شرط أن تقدم للمعبد خنزيرا من الفضة كذكرى لكفرها البالغ • وبعد أن وعدت الاله أن تفى بذلك ، فتح الاله عينها وصب فيها المبلسم ، فرجعت في اليوم التالى الى بيتها وقد ارتد اليها بصرها • ومرة أخرى جاء الى هذا المكان رجل من فيساليا يدعى « بانداروس » على أمل أن يتخلص من الحرف « A » القرمزى اللون الذى وشم على جبينه • فرأى في منامه كأن الاله يقف بجانبه وهو يربط في جبينه برباط وأمره أن يهدى المعبد هذا الوشاح عندما يعود الى بيته في اليوم التالى • فلما استيقظ « بانداروس » في اليوم التالى ورفع الرباط عن جبينه ، ورأى أن الحرف « A » المشين قد زال من جبينه وانطبع في الرباط • وهب الرباط الى المعبد ورحل • ثم توقف في أثناء سيره في أثينا ، وأرسل خادمه « اخيدوروس » الى « ابيداوروس » بمبلغ من المال ليقدّمه منحة الى المعبد • ولكن « اخيدوروس » الذى كان له مثل هذه العلامة على جبينه لم يقدم النقود لخزانة المعبد ، وانما احتفظ بها لنفسه • ثم نام في المهجع وهو يأمل أن يتخلص من هذه العلامة كما تخلص منها سيده • فرأى في منامه

كان الاله يقف بجانبه ويسأله عما اذا كان قد أخذ من « بانداروس »
نقودا ليسلمها الى المعبد . ولكن الخادم أنكر أنه قد تسلم أى شئ
من سيده ، ووعد الاله أن يرسم صورة لنفسه ويهبها للاله ، اذا
ما أزال عنه هذه العلامة . وعند ذلك طلب منه الاله أن يأخذ رباط سيده
ويربط به جبينه ، ثم يخلعه في اليوم التالي عندما يغادر مهجعه ،
ثم يغسل وجهه في النبع وينظر في صفحة المياه . ففعل الخادم ذلك .
ولكنه عندما كان ينظر بشغف الى الرباط متوقعا أن تكون العلامة قد
طبعت عليه ، اذ به يجد أن الرباط لم ترسم عليه أية علامة . فأسرع
الى النبع ونظر الى وجهه على صفحة الماء فوجد أن علامة « بانداروس »
قد طبعت على جبينه الى جانب علامته .

وقد كان هناك كذلك معبد مقدس مخصص للنبوءة يقع عند شاطئ
« لاكونيا » الموحد الصخري ، حيث تهبط سلسلة جبال « تايجيتوس »
في شكل صخور جرداء الى البحر . وفي المعبد كانت الإلهة تكشف
عن رغباتها الى الناس في أحلامهم . وقد اختلفت الآراء فيما تكون
الإلهة هذه . أما الرحالة الاغريقى « باوسانياس » الذى زار هذا
المكان ، فقد اعتقد ان هذه الإلهة هي « لو » الهة البحر . ولكنه أقر
أنه لم يتمكن من رؤية تمثال لها في هذا المعبد ، حيث أن المعبد كان
ممتلئا عن آخره بأكاليل الزهر التى كان يقدمها فيما يبدو المتعبدون
تعبيرا عن شكرهم لظهور الإلهة لهم في رؤياهم . ومما يؤيد ان الإلهة
« اينو » هي صاحبة هذا الضريح ، قربه من البحر الذى كانت تصطب
أمواجه بالقرب منه . على أن البعض الآخر كان يرى أنها « باسيفاي »
الهة القمر . وقد كان هؤلاء يؤكدون رأيهم هذا ، بأن الناس كانوا
ينظرون الى القمر الفضى في السماء قبل أن يأووا الى مضجعهم ثم
ينظرون الى صفحة الماء ليروا انعكاس أشعة القمر الفضية عليه .
ومهما تكن هذه الإلهة ، فان كبار قضاة اسبرطة كانوا يترددون على
هذا المكان التماسا للنصيحة الإلهية من خلال رؤياهم . وقد قيل ان
أحدهم قد رأى رؤيا أنذرتة بحدوث كارثة تحل باسبرطة ، وقد حدثت
هذه الكارثة المشهورة في تاريخ اسبرطة .

وقد كان في ايطاليا قديما مثلما كان في بلاد الاغريق ، أمكنة للنبوءة كان يلجأ اليها من يريد أن يلتمس النصيحة أو يبحث عن السلوى من الالهة أو القديسين عن طريق الاحلام . فقد كان العراف « كالمشاش » ، يعيد في معبد « درييوم » في « أبوليا » ، وكان كل من يذهب الى هذا المكان يلتمس النصيحة ، كان يذبح كبشا وينام على جلده . وكان هناك مكان مقدس آخر في ايطاليا مخصص للنبوءة وهو معبد « فاونوس » ، وكان الناس يتبعون الطريقة السابقة في التماس النصيحة عنده . فإذا ذبح الشخص كبشا ونام على جلده فإنه يستقبل الرد عن سؤاله في رؤياه . فإذا تصورنا ان هذا المكان المقدس الاخير كان يقع وسط غابة مقدسة كانت تقع بدورها بالقرب من شلالات « تيبور » ، حيث أن هناك من الاسباب ما يدعونا لهذا التصور ، فربما كان ظل الاشجار الرهيب وخرير المياه المتلاطمة يملآن نفس الحاج بالرهبة كما كانت تختلط بأحلامه . وربما كان المعبد الدائري الذي مازال يشرف على هذه الشلالات هو هذا المكان بعينه الذي كان الاله يهمس في آذان النائمين الوريين ، كما كان يعتقد الناس .

٣ - سلم السماء :

لقد كان المكان الصخري المنعزل بين التلال الجراء الذي نام عنده يعقوب ورأى في منامه أن الملائكة تهبط وتصعد على سلم يصل بين السماء والارض ، يختلف كل الاختلاف عن أماكن النبوة التي كانت تقع وسط الطبيعة الجميلة في كل من بلاد الاغريق وايطاليا . والاعتقاد في وجود مثل هذا السلم الذي تستخدمه الكائنات الالهية أو أرواح الموتى يصادفنا في بقاع كثيرة من انحاء العالم . فقد أخبرتنا «كنجلى» في أثناء حديثها عن آلهة غرب أفريقيا فقالت : « اننا نجد في كل مجموعة مجموعات الحكايات الشعبية الالهية على وجه التقريب ، حكايات تروى عن زمن كانت فيه الالهة أو الارواح التي تسكن السماء على اتصال مباشر بالناس . وقد انقطعت هذه العلاقة بسبب أخطاء ارتكبها بعض الناس . فشعب « فرنادوبو » يحكى على سبيل المثال ، أنه في زمن

من الازمنة لم تكن هناك متاعب أو اضطرابات على وجه الارض ، حيث كان هناك سلم شبيه بالسلم الذى يستخدمه الناس فى الحصول على ثمار جوز الهند من أعالي الشجر ، الا أنه كان طويلا للغاية ، وعن طريق هذا السلم كانت الالهة تصعد وتهبط لتشارك فى شئون الناس الدنيوية • ثم حدث أن تسلق ولد شقى هذا السلم حتى وصل الى ارتفاع شاهق عندما أبصرته أمه ، فصعدت فى أثره • فلما رأت الالهة ذلك تملكها الخوف من تصورها أن الاولاد والنساء سوف يعززون السماء ، فأسقطت السلم • ومنذ ذلك الوقت ترك الجنس البشرى ليقاسى الحياة وحده •

ويروى « التروود جانيون » الذين يتحدثون اللغة البارية ويسكنون « سيليبس الوسطى » أنه فى الزمن القديم عندما كان الناس يعيشون جميعا معا فى مكان واحد ، كانت السماء ترتبط بالارض عن طريق زحافة • وذات يوم ظهر شاب وسيم ينتسب الى أصل سماوى يدعى « الشمس » وفقا لقولهم ، وكان يركب جاموسة بيضاء • ووقع بصر هذا الشاب على فتاة تعمل فى حقل فأحبها ، وتزوجها وعاش معها فترة من الزمن • وفى أثناء ذلك أخذ يعلم الناس فلاحه الارض كما أمدهم بقطعان من الجاموس ، ثم حدث ذات يوم أن الطفل الذى ولد « للشمس » من زوجته ، سلك فى البيت سلوكا سيئا ، الامر الذى سبب ازعاجا للاب من قبل الجنس البشرى كله ، فعاد الى السماء عن طريق الزحافة • فلما حاولت الزوجة أن تصعد على الزحافة لتلحق به ، حطم الزحافة فهوت بالمرأة على الارض وتحولت هى والزحافة الى حجر • ومن الممكن رؤية المرأة والزحافة فى شكل تل جبرى يقع غير بعيد من نهر « ويمبى » • وهذا التل عبارة عن جبل ملتف يسمى التل الزحافة • ومرة أخرى نقرأ فى الحكايات التروودجانية أن نباتا بعينه يسمى « الروطان المجدول » كان لناس يتسلقون عليه ليصلوا الى السماء • وهذا النبات عبارة عن نبات متسلق شائك ينمو حول شجرة التين ، وفى كل عام يضيف لفيفة جديدة الى لفائفه • واذا شاء شخص

أن يستخدم هذا النبات فعليه أن يضرب نسيجه المتين بهراوته حتى يوقظه من نومه • وعند ذاك يستيقظ النبات من سباته ويهتز ويأخذ بذرة من بذور الفوفل ويسأل الانسان عن مطلبه • فاذا طلب منه الشخص متوسلا أن يحمله الى السماء ، أرشده النبات أن يتخذ له مقعدا إما على أشواكه أو طرفه الاعلى ، ومن يحمل معه سبعة أوعية مصنوعة من الخيزران ويملؤها بالماء لكي تحفظ توازنه بثقلها • ثم يأخذ النبات في الصعود وهو يتمايل يمنا ويسرى ، بينما يصب عليه المسافر بعض الماء فينتعش النبات ويسير في خط مستقيم نحو السماء • فاذا وصل قبو السماء اندفع من خلال فتحة في قبة السماء ونشبت بشوكة في أرض السماء ، وانتظر في صبر ريثما يقضى المسافر أمره في السماء ، ويرغب في العودة الى الأرض • وبهذه الوسيلة يصعد بطل الحكاية الى الاجواء العليا ليحقق مأربا ، أليا كان. هذا المأرب ، فلما انه يسعى الى استرداد قرط مسروق ، وأما أن يثير الزوابع والعواصف في قرية سماوية ، أو أن يعيد الحياة لرجل مستعينا بحداد السماء •

ويحكى البانتاكيون سكان سومطرة أنه كان في سالف الزمان في وسط الأرض ، صخرة تصل قممها الى عنان السماء • وعن طريق هذه الصخرة كان الناس المفضلون مثل الابطال والكهنة يصعدون الى السماء • وقد كانت تنمو في السماء شجرة تين ضخمة تمتد جذورها حتى تلمس الصخرة • وذات يوم قطع رجل هذه الشجرة بدافع الغيظ ، أو أنه اجتث جذرها ، لان زوجته التي كانت قد هبطت من السماء ، عادت اليها وتركته وحيدا • ويعتقد « البتسيميساراكيون » سكان مدغشقر أن ارواح الموتى تصعد الى السماء عن طريق سلم من الفضة • وهذا المسلم تستخدمه الارواح السماوية في تبليغ رسالات السماء الى الأرض •

على أن هناك سلالم حقيقية تختلف عن تلك السلالم المتخيلة ، ينصبها بعض الناس ليسهلوا عملية هبوط الالهة والارواح من السماء

الى الارض • فأهالى « تيمورلاوت » و « بابار » وجزر « ليتى » التى تقع فى الارخيل الهندى يعبدون الشمس كل عام مع بداية موسم الامطار ، بوصفها الاله الرئيسى الذكر الذى يخصب الارض التى تعد بدورها الهة • ومن أجل هذا العمل الطيب ، يهبط الاله الى شجرة تين مقدسة • ولكى يسهل الناس له عملية الهبوط الى الارض فانهم يضعون أسفل شجرة التين سلما يتكون من سبع درجات ، وقد حفر على حاجزيه شكلين لديكين • ربما كان الغرض منهما أن يعلننا بصياحهما من خلال بهوتين ، وصول الاله • وعندما يقدم التوارد جانيون سكان سيليبس الوسطى التضحية للالهة عند بناء بيت جديد ، فانهم يضعون حزمتين من النباتات فى وضع منتصب ، تزينها سبعة أشربة من قماش مصنوع من لحاء الشجر ، لتكون بمثابة سلام يهبط عليها الالهة ليأخذوا أنصبتهم من الارز والدخان والتبول والنخيل التى يخصصها الناس لهم •

كما تصور الناس فى الزمن القديم والحديث أن أرواح الموتى تصعد من الأرض الى السماء عن طريق سلم ، بل انهم كانوا يضعون سلالم مصغرة فى القبور لكى يسهلوا للأرواح عملية الصعود الى مكان البركة • ويكثر الحديث عن سلم فى كتابات أهرامات الجيزة ، وهى أقدم الكتابات المدونة فى العالم ، كان الملوك المصريون المتوفون يرتقون عليه الى السماء • بل انه قد عثر على سلالم فى قبور الفراعنة ، وربما كان الغرض منها مساعدة الأرواح عند الخروج من القبور ، وربما كان الغرض منها مساعدتهم على الصعود الى السماء ، كما كان يفعل المارك المتوفون وفقا لاعتقاد الناس • وتحرص قبيلة « ماناجار » وهى قبيلة محاربة فى « نيباول » ، على وضع سلالم فى قبور موتاهم تمكنهم من الوصول الى مساكنهم فى السماء • « فهم يضعون كتلتين من الخشب يبلغ طول كل منها ثلاثة أقدام ، وكل كتلة توضع على جانب من جوانب القبر • أما الكتلة الأولى فهى مقسمة الى تسع درجات مكونة شكل سلم تصعد عليه أرواح الموتى الى السماء • أما كتلة الحجر الثانية

قد وضعت لكى يحفر كل من حضر الجنازة خطا عميقا دليلا على حضوره الجنازة • وعندما يخرج خال المتوفى من القبر بعد دفن الجثة ، فانه يودع المتوفى الوداع الأخير ويطلب منه أن يصعد الى السماء عن طريق السلم الذى يقف معدا له • على أنهم يحرصون على سد الطريق بالأحراش الشوكية فى حالة اذا لم يشأ أن يكمل رحلته الى السماء وفضل أن يعود الى مأواه المألوف •

٤ - الحجر المقدس :

على الرغم من الجفاف والجذب للذين يحيطان « بيت ايل » ، فقد أصبح فى العصور المتأخرة أكثر الأماكن المقدسة شهرة فى عهد المملكة الشمالية • فهناك أقام « يربعام » عبادة أحد العجلين الذهبيين اللذين صنعهما ليكونا آلهة لبني اسرائيل ، وهناك شيد معبدا وأنشأ للكهنة منصبا • وفى عصر النبي « عاموس » أصبح المعبد تحت الرعاية الملكية الخاصة كما كان يعد كنيسة ملكية • ومنذ ذلك الحين ازدحم المكان بالمتعبدين ، وتعددت المعابد ، كما روعيت الدقة فى إقامة الشعائر • وكان الناس يدفعون ضريبة العشر فى هذا المكان فى مقابل صيانة معابده • أما الأماكن المجاورة لهذا المكان فقد ازدهمت بمشائى الأثرياء ومصايفهم الكثيرة الأنيقة • وقد كانت يعقوب وحلمه تحكى للمتعبدين فى هذا المكان على سبيل تأكيد قدسيته البالغة فى القدم ، عندما كان هذا المكان مهجورا بطبيعته ، ثم اكتسب على مر الزمن مظاهر البهاء والطهر • وطالما كان الناس يدفعون ضريبة العشر للكهنة ، فانهم كانوا يعتقدون أنهم بذلك يوفون بالوعد الذى وعده الرب يعقوب فى هذا المكان ، عندما استيقظ فزعا من نومه المضطرب ونذر بأن يقدم للرب العشر من كل شئ يمنحه آياه • كما ان الاعتقاد ساد فى أن الصخرة المنتصبة أو العمود هى بعينها الى وضع عليها يعقوب رأسه المجهد بعد تجواله فى تلك الليلة الخالدة ، وهى بعينها التى نصبها فى صباح اليوم التالى ذكرى لرؤياه • ذلك أن مثل هذه الأحجار المقدسة أو الأعمدة الصخرية كانت تعد فى العادة معابد مقدسة عند

المكتنعانيين والعبريين في الزمن القديم • وكثيرا منها قد اكتشفه الباحثون الأثريون في أماكنه الأصلية ، هؤلاء المذنبين أراحوا الستار عن هذه « الأماكن العالية » (المعابد) في العصر الحديث • بل انه يبدو أن النبي « هوشع » كان يرى ضرورة وضع حجر منتصب أو عمود ليكون ملحقا ، لا غنى عنه ، لأي مكان مقدس يخصص لعبادة يهوه • ولم يحكم الاسرائيليون على هذه الآثار الحجرية البسيطة بوصفها بقايا عبادات وثنية ، ودعوا الى هدمها ومنعوا تشييدها ، الا في عصور متأخرة ، وذلك بدافع تطور جوهر ديانتهم • وقد كانوا يعتقدون في الأصل ان الرب كان يسكن حقا في هذه الأحجار ، وكان احساسهم بالرهبة من سكنى الرب لهذه الأحجار هو الذي يخلع عليها قدسيتها ، ومن ثم فقد أعلن يعقوب أن الحجر الذي نصبه في « بيت أيل » ينبغي أن يكون بيت الرب •

وفكرة أن الحجر يسكنه الرب أو أية قوة روحية أخرى لم تكن غريبة على الاسرائيليين القدماء ، بل كان يشاركهم فيها كثير من شعوب العالم • فقد كان العرب الجاهليون يعبدون الأحجار ، بل أن الحجر الأسود مازال يحتل مكانة أساسية بين شعائرهم المقدسة • وكما هو معروف أن النبي أشعيا أو الكاتب المتأخر الذي كان يسمى باسمه قد اتهم الاسرائيليين الذين كانوا يعبدون الأحجار الملساء المتآكلة بفعل المياه ، تلك التي كانت تقع في الأخاديد الصخرية الجافة ، ويصبون عليها قربان الخمر ويقدمون لها الهبات — اتهمهم بالوثنية • وقد نقل عن الاغريق أنهم كانوا يعبدون الأحجار الطبيعية بدلا من الصور ، فقد كان هناك في سوق « فاريا » الذي كان يقع في « أشايا » ثلاثون حجرا مربعا كل منها سماه الناس باسم الله • ولما كان سكان « ثيسبيآى » في « بويوتيا » يقدسون الهة الحب فوق كل الآلهة ، فقد كانت المدينة تزدهان بالتماثيل التي شكلها المثالان « ليسيبوس » و « براكسيثيلز » من البرونز والمرمر لتمثل الهة الحب • ولكن ، الى جانب هذه الأعمال الفنية التي تشهد على روعة الفن الاغريقي ، كان الناس يقدمون الهبات لصنم غريب في هيئة حجر خشن يمثل الاله •

وكذلك كان « الالنانيون » سكان « ثيسالى » يعبدون حجرا ويقدمون له الضحايا ويغطونه بشحم الضحية •

واذا كانت الأحجار الطبيعية تقديس فى جميع أنحاء العالم ، فانها لم تكن تقديس بشكل منتظم فى أى مكان من أنحاء العالم ، مثلما كانت تقديس فى « ميلانيزيا » • وفى جزر « بانك » وجزر « الهبريد الجديدة » الشمالية ، كانت الأرواح التى يقدم لها الطعام ترتبط فى أغلب الأحيان بأحجار تقدم عندها الهبات • وبعض هذه الأحجار كانت تتصل بعبادة بعض الأرواح القديمة ، كما أن الشخص بعينه الذى يمتلك لحسن حظه هذه الأحجار قد ورث طريقة استرضاء هذه الأرواح أبا عن جد • « على أنه اذا عثر شخص على حجر استرعى نظره لغرابته ، أو اذا عثر على أى شىء غريب آخر ، كان يكون أخطبوطا فى حجره أو سمك القرش أو حية أو سمكة الأتقليس ، تلك الحيوانات الغريبة لديه ، فانه ينثر النقود على الحجر أو عند المكان الذى يجد فيه هذه الحيوانات ثم يعود الى بيته وينام • وعند ذاك يرى فى منامه كأن شخصا يأخذ بيده ويطلعه على منحة الخنازير أو النقود التى تقدم له وذلك لارتباطه بالشىء الذى عثر عليه • وهذا الشىء يسمى فى جزر « بانك » « تافو — أولولو » أى مكان التضحية • أما الشىء الذى ينتظر الشخص أن يحصل عليه من وراء ذلك ، فهو النقود والخنازير • فاذا علم جيران هذا الشخص أنه قد حصل على هذه الهبة ، — أن ثروته قد تزايدت ، فانهم يأتون اليه ليستعلموا منه عن الشعيرة التى توصل بها الى المروح الذى تعرف عليه • ولكنه لايفشى هذه المعلومات الا الى ابنه أو ابن أخيه • فاذا مرض شخص ، فانه يقدم لشخص آخر يعرف بأنه يمتلك حجرا ذا قوة خارقة ، ويعتقد أن المروح الذى يسكن هذا الحجر قد أساء اليه المريض — مبلغا من المال وقطعة من جذر نبات الفلفل (جيا) الذى يستخدم فى صنع مسكر من المسكرات • ويقال عندئذ ان الرجل يقدم الضحية (أولولو) لصاحب الحجر • ثم يأخذ صاحب الحجر هذه الاشياء ويحملها الى المكان المقدس وينثرها هنا

ويتوسل للحجر وهو يقول : « دع هذا الشخص يشفى » • فإذا شفى هذا الرجل فإنه يقدم ضريبة شفائه • فإذا رغب شخص في اكتساب منفعة من الحجر ، أو أى شىء آخر له قوة سحرية ويعرف لدى الآخرين بمقدرته على زيادة ثروة المال أو صاحب الحجر أو الشىء المقدس يصطحب الشخص الى المكان المقدس ، حيث يوجد فيما يبدو عدد من الأحجار ، كل منها يحقق غرضا من الاغراض • وعند ذاك يقدم الشخص قدرا من النقود قد تبلغ المائة ويسلكها في خيط يبلغ طوله بضع بوصات • ثم يقدم اليه صاحب الحجر الرئيسى حجرا من الأحجار ويقول له : « هذا نبات اليام » • فيدفع الرجل اثر ذلك نقودا • ثم يقدم له حجرا آخر ويقول : هذا خنزير برى » ، ويقول له عن حجر ثالث : « وهذا خنزير ذو أنياب » ، والرجل في كل حالة يضع نقودا • والسبب في هذا هو أن الروح « فوى » الذى يتصل بالحجر يحب النقود التى يسمح ببقائها فوقه أو الى جانبه • فإذا أدت الضحية غرضها ، فإن الشخص المستفيد من ذلك يدفع لصاحب الأحجار والأرواح ثمن ذلك » •

من هذه الرواية المفيدة نعلم أن المكان المقدس في هذا المكان قد ينشأ اثر رؤية شخص لحجر ذى شكل غريب يسترعى نظره • فإذا نام بحواره رأى رؤيا توحى له بأن هذا الحجر يسكن فيه روح قوى يعينه على قضاء حاجاته ، ومن ثم فإنه وأبناءه من بعده يقومون بتقديم الهبات لهذا الحجر استرضاء له • وإذا رأينا كيف أن مثل هذا المكان يظل يجذب المتعبدین اليه كلما ذاعت شهرته ، وبذلك تزداد موارده المالية من خلال الهبات التى يقدمها الشاكرون لصنيعه من ناحية ، وما يقدمه له الطامعون في زيادة ثروتهم من ناحية أخرى • أفلا تعد المعابد الميلانيزية مطابقة في هذه الحالة لما يروى عن « بيت ايل » • اننا اذا استخدمنا طريقة أكثر قدما في تفسير حكاية هذا المكان ، فربما رأينا فيها تزييفا كبيرا لروابط دينية أصلية •

وقد كان للاله « توريا » في جزر « ساموان » ضريح في شكل

حجر أملس يقع داخل غابة مقدسة • وقد كان الكاهن يحرص على أن ينتزع الأعشاب من حول الحجر وأن يغطيه بفروع الشجر لكي يستدفيء بها الإله • وعندما كان المتعبدون يقومون بواجب الصلاة في ظروف الحرب أو المجاعة أو الوباء ، فإن فروع الشجر كانت تجدد بعناية • ولم يكن أحد يجزؤ على أن يمس الحجر والاشع منه تأثير سام مميت يصيب من يقترب منه • وقد كان في قرية ساموانية أخرى حجران مستطيلان أملسان موضوعان على قارعة الطريق ، وكان الناس يعتقدون أن هذين الحجرين هما والدا الإله « ساتو » ، الإله الذي يتحكم في المطر • فعندما كان الزعماء وعامة الناس يتأهبون للخروج لممارسة رياضة صيد الحمام لمدة أسابيع ، فإنهم كانوا يضجون السمك المشوى على الحجرين ويتوسلون للإله أن يمنحهم جوا معتدلا خاليا من الأمطار • فاذا رفض أحدهم أن يقدم العطاء للإله ، فإن رفقاءه يغضبون منه • فاذا حدث بعد ذلك أن سقط المطر في أثناء رحلتهم ، فإنهم ينسبون اللوم له ويعاقبونه لأنه أغضب الإله المتحكم في الجو وبذلك أفسد عليهم رحلتهم الموسمية • واذا كان الناس في طريقهم للبحث عن نبات اليام البرى في أوقات القحط ، فإنهم يقدمون ثمرتين منه للحجرين شكرا للإله على فضله ، معتقدين بذلك أن الإله يجعل هذا النبات ينمو ، وأنه يهديهم إلى أفضل الطرق التي يعثروا فيها على الدرقات الصالحة للأكل • كما اعتاد الناس عندما يمرون بهذين الحجرين وهم يحملون سلاسلًا ممثلة بالطعام ، أن يرموا قدرا من هذا الطعام للحجرين • فاذا أكلت الكلاب أو الفئران هذه الأطعمة في أثناء الليل ، فإنهم يعتقدون أن الإله قد تجسد لوقت محدد في هيئة هذه الحيوانات لكي يأكل الطعام المقدم له •

ويهتم أهالي جزيرة تيمور ، إحدى جزر الأرخبيل الهندى ، اهتماما كبيرا بأرواح الأرض التي تسكن الصخور والأحجار التي تلفت النظر بشكلها الغريب • على أن مثل هذه الصخور والأحجار قد لا تكون مسكنا للأرواح • ولهذا فإنه اذا عثر شخص على أحد الأحجار

أو الصخور فان الذى يقطع باحتواء هذا الحجر على الأرواح ، هو أن يرى الشخص رؤيا بجانبه • فإذا ظهر له الروح فى الرؤيا وطلب منه أن يقدم له انسانا ضحية أو حيوانا أو نبات المتنبول ، فانه ينقل هذا الحجر ويضعه بالقرب من بيته • ومثل هذه الأحجار تقدها أسرات بأكملها أو قرى ، وأحيانا أحياء بأكملها • والروح الذى يسكن الحجر يحرص على رخاء الناس ، ويقدم له فى مقابل هذا الأرز ونبات المتنبول ، وأحيانا الدجاج والخنازير والجاموس • وفى كثير من الأحيان تغرس الى جانب الحجر عصى مدببة تعلق عليها جماجم بعض الأعداء المقتلى •

وفى « بوسوجو » وهو حى فى افريقيا الوسطى يقس الى الشمال من بحيرة فيكتوريا نيانزا ، يعتقد الأهالى أن « كل حجر كبير أو قطعة من الصخر يسكنها روح يمارس نشاطه فى القرية اما خيرا أو شرا • فكثير من الأمراض وبصفة خاصة الأوبئة ، تنزى الى الشر الذى تضره أرواح الصخور • فإذا انتشر مرض أو وباء ، فان الروح يملك شخصا من هذا المكان رجلا كان أو امرأة • وعند ذاك يتسلق هذا الشخص الصخرة وهو واقف تحت تأثيرها ويصيح بالناس ، فيجتمع الزعيم والأطباء بالناس ، ويقدمون نعجة أو دجاجة ضحية للروح ، ثم يتلو عليهم الشخص الطريقة التى يتمكنوا بها من إيقاف المرض • فإذا أفصح الروح عن رغبته للناس على هذا النحو ، فانه يترك الشخص ويسكن الصخرة مرة أخرى • وعند ذاك يعود الوسيط الى بيته ليمارس عمله العادى حيث يكف الروح عن استخدامه وسيطا مرة أخرى » • ومعنى هذا أن هناك فى « بوسوجو » كثيرا من الصخور والأحجار المقدسة التى تعد آلهة محلية • والى هذه الصخور والأحجار يذهب الناس فى أحوال وظروف مختلفة يلتمسون العون من الآلهة • ويقدم « الميكريونيون » سكان السودان الفرنسى جنوب النيجر ، الضحية للصخور والأحجار • ففى « سابو » يملك زعيم القرية حجرا كبيرا يضعه عند باب بيته • كما يقدم الشخص الذى لم يستطع أن يحصل على زوجة ، أو لم يمنح أولادا من زوجته أن يقدم

دجاجة ضحية الى الصخرة ، آملا أن يمدّه الحجر بالزوجة أو الأولاد . ويقوم هذا الشخص بتسليم الطير الى الزعيم الذى يقوم بذبحه وأكل لحمه . فاذا تحققت رغبة الرجل ، فانه يقوم بذبح دجاجة عند الحجر شكرا له على فضله .

وقد كان مكان النبوءة الكبير عند الهنود المانديين حجرا مساميا كبيرا يبلغ محيطه عشرين قدما . وكان هؤلاء البدائيون السذج يثقون ثقة عمياء فى أعمال هذه الصخرة المعجزة ، ففى كل ربيع وكذلك فى بعض شهور الصيف ، تقف وفود عند هذه الصخرة ويدخنون عندها فى بوقار بالغ وهم يتبادلون الغليون فيما بينهم ثم يسلمونه الى الصخرة . وبعد أن يقوم الناس بهذه الشعائر فانهم يأوون الى غابة قريبة ويبيتون الليلة هناك ، تاركين الصخرة تتدبر الموقف وحدها . وفى صباح اليوم التالى تظهر نتيجة هذا التدبر فى شكل علامات محددة بيضاء ترتسم على الصخرة لا يصعب على بعض رجال الوفد أن يفكروا رموزها ، حيث انهم هم أنفسهم قد قاموا بنقشها على الصخر فى الظلام ، بينما كان رفقاؤهم يغطون فى نوم عميق . وقد روى عن الهنود الداكوتيين أن الرجل عندهم « يلتقط حجرا مستديرا أيا كان نوعه ويطلبه ويسير به بعيدا عن مسكنه ببضعة خطوات ، ثم يقوم بتنظيف هذا المكان فى محيط يبلغ قدما أو قدمين . وفى وسط هذا المكان يضع الحجر أو الآله كما يمكن أن يسميه ، ويقدم له بعض الدخان وبعض الريش ويتضرع للحجر كى يجنبه بعض الأخطار التى قد حطم بها أو تصورها .

وقد كان سكان اسكتلندا يعتقدون فى وجود جنية بعينها يطلقون عليها اسم « جروواجاخ » . وهى فى نظر البعض ذكر ، وفى نظر البعض الآخر أنثى . ووظيفة هذه الجنية هى رعاية قطعان الماشية وابعادها عن الصخور . وهى تسكن الحقول التى ترعى فيها هذه المقطعان ، كما تتردد على حظيرة كل سيد . وعلى هذا السيد أن يقدم

لها اللبن كل مساء في تجويف صخرة معينة يحتفظ بها في الحظيرة تسمى صخرة « جروواجاخ » • فاذا لم يفعل السيد هذا ، فإن إبقاره تمتنع عن ادراك اللبن ، كما أن القشدة لا تعلو سطح اللبن في الاناء • ويقول البعض ان اللبن لا يسكب للجنية في تجويف الصخرة الا عندما يرحل الناس وقطعانهم إلى الرعى الصيفي أو يعودون منه ، أو عند ما يمر شخص في الحظيرة وهو حامل وعاء به لبن • ولا تزال توجد حتى اليوم في « هولم » ، « ايست سايد » ، و « سكورى بريك » التى تقع بالقرب من « بورترى » فى « يلكى » تلك الأحجار التى كان يصب فيها قربان اللبن « لجروواجاخ » • على أنه من المحتمل أن هذه الأحجار كانت تعد أوعية تعلق منها الجنية اللبن ، أكثر مما كانت تعد مساكن لها • ويتصور الاسكتلنديون هذه الجنية فى العموم فى شكل رجل وسيم أو امرأة وسيمة يتدلى شعرها الذهبى على كتفها • وقد اعتاد الزارعون فى بعض الأحياء الجبلية فى النرويج حتى القرن الثامن عشر أن يحتفظوا بأحجار دائرية يغسلونها مساء كل خميس ويطلونها أمام النار بالزبد أو بأية مادة دهنية أخرى ، ثم توضع على القش النضر فى مكان الشرف • وفضلا عن ذلك فان هذه الأحجار تنغمس فى الجعة فى فصول معينة من السنة ، حيث انها على هذا النحو بناء على تصور هؤلاء الناس ، تجلب الحظ والطمأنينة للناس •

وتذكرنا عادة طلاء الأحجار بالزبد عند المنروجيين بما صنعه يعقوب عندما صب الزيت على الحجر الذى نصبه إحياء لذكرى الرؤيا التى رآها فى « بيت ايل » • وتعد هذه الأسطورة أصدق دليل على تقديس الحجر ، ومن المحتمل أنها تشير الى عادة قديمة هى عادة طلاء الحجر الذى يوضع فى المكان المقدس بالزيت • ومن المؤكد أن عادة طلاء الأحجار المقدسة بالزيت تنتشر على نطاق واسع فى جميع أنحاء العالم • فقد كان هناك فى دلفى بالقرب من قبر « نيويثوليموس » حجر صغير كان يصب عليه الزيت كل يوم ، كما كان ينشر عليه الصوف غير المغزول فى كل احتفال • ووفقا لما رواه « ثيوفراستوس » ، أنه كان من سمات

الرجل المتطير ، أنه اذا رأى أحجارا ناعمة عند مفترق الطريق ، فانه يصب عليها الزيت من قارورة يحملها معه ، ثم يسجد أمامها ويصلى لها قبل أن يستأنف سيره . كما يحكى « لوسيان » عن رجل يدعى « روتيليانوس » ، أنه كان كلما أبصر حجرا مطليا بالزيت ، أو له ننوء فى قمته فانه كان يسجد أمام الاله الأصم ثم يقف أمامه مصليا لبعض الوقت . وفى مكان آخر تحدث هذا الكاتب الشاك نفسه فى سخرية عن تلك الأحجار المطلية بالزيت وتلك التى تكللها أكاليل الزهر التى كان يعتقد فى أنها أماكن للنبوّة . أما الكاتب المسيحى « أرنوبيوس » فيقول فى معرض حديثه عن عبادة الأوثان فى أيامه بطريقة عمياء : « اننى تعودت كلما أبصرت حجرا مطليا بالزيت أن أعبده كما لو كانت فيه قوة تسكنه ، ثم أطريه وأتحدث اليه وألتمس الخير من تلك الكتلة الصخرية الصماء » .

وتعبد قبيلة « واراتى » ، وهى قبيلة تسكن أحراش « كونكان الشمالية » فى ولاية « بومباى » ، سيد النمر « واجهيا » الذى يتصورونه فى شكل حجر غير منتظم مطلى بالزئبق الأحمر والزرنيق . وهم يقدمون له الفراخ الصغيرة والنعاج ، كما يكسرون على رأسه ثمار جوز الهند ويصبون عليه الزيت . وفى مقابل هذه الهبات فانه يقيهم أخطار النمر ويمنحهم محصولا وافرا ، ويحفظهم من الأمراض . وفى العموم فان الجهلة والمتطيرون فى ولاية بومباى بصفة عامة وفى أحياء « كونكان » بصفة خاصة يعبدون الأحجار الفتيشية ، حتى تبعد عنهم الشر وتنشئ مرضاهم . ففى كل قرية توجد هذه الأحجار وكل حجر يسميه سكان القرية باسم اله من الآلة أو روح من الأرواح ، تلك التى يقدسونها فى ورع لاعتقادهم أنها تتحكم فى الشياطين والأشباح . فاذا انتشر وباء فى قرية من القرى فان الناس يقدمون لها من الأطعمة لحم الدجاج والنعاج وثمار جوز الهند . وأحد هذه الأحجار المقدسة ، على سبيل المثال ، يوجد فى « بونا » ، وهو ملون بلون أحمر ومطلى بالزيت . وعند « التوداويين » الذين يسكنون تلال « نيلجهيرى » فى

جنوب الهند ، تهاجر قطعان البقر من مكان لآخر بين التلال في فصول معينة من السنة . وقبل أن تحدث هذه الهجرة فإن الأهالي يصبون اللبن على الأحجار المقدسة التي توجد في أماكن حلب اللبن ، كما أنهم يطلونها بالزبد . فهناك أربعة من هذه الأحجار على سبيل المثال في « مودر » وهي ملساء ذات شكل مستدير ، ومن المحتمل أنها أصبحت على هذا النحو تتطلب إقامة الشعائر عليها بصفة مستمرة .

ويحتفظ رب كل أسرة في جزر « كاي » التي تقع في جنوب غرب « غينيا الجديدة » بحجر أسود عند رأس مضجعه . فإذا خرج في حرب أو في رحلة أو في مهمة من المهمات فإنه يدهن الحجر بالزيت حتى يكون النجاح حليفه . أما فيما يختص بقبيلة « بتسيليو » ، وهي قبيلة تسكن وسط مدغشقر ، فقد قيل « ان هناك أحجارا كبيرة في جهات كثيرة من البلد تلفت نظر كل سائح عندما يقع بصره عليها ، وقد كساها الشحم ، أو سكب فوقها الزيت أو الدهن على أقل تقدير . ومن ثم فقد تصور هؤلاء المسافرين الغرباء أن هذه الأحجار تمثل آلهة قبيلة « بتسيليو » . والنست أعتقد أنه يمكن القول بأن هذه الأحجار تقديس أو تعامل معاملة الآلهة . فمما لا شك فيه أنها ترتبط بمعتقدات تطيرية . وفي ضوء هذه المعتقدات تنقسم الأحجار الى نوعين : أحجار تسمى « غاتوبيثروكا » ، وهي تلك التي يزورها النساء اللاتي ام يرزقن بأطفال ، وهؤلاء يحملن معهن بعض الدهن أو الزيت ليطلين به الحجر وهن يناجينه ويعدنه بأنهن سيعدن مرة أخرى لطلائه بمزيد من الزيت اذا رزقن بأولاد .

كما يقوم التجار كذلك بزيارة هذه الأحجار ويعدونها بأنهم سيعودون لطلائها مرة أخرى ، أو ليدفنوا عند قاعدتها قطعة من الفضة اذا لم تتعثر تجارتهم في بيعها ، واذا ما بيعت بسعر مربح . وهذه الأحجار تكون في بعض الأحيان مجرد أحجار طبيعية ، ولكنها في أحيان أخرى ، وان كان هذا نادرا ، تمثل ذكرى قديمة للأموات .

وهناك في مكان بعينه يقع في ممر جبلى يصعب على قطعان الماشية اجتيازه ، يقف كل رجل من قبيلة « أكامبا » التي تسكن في شرق أفريقيا البريطاني ، أمام صخرة بعينها ويطلوها بالزبد أو الدهن •

ولعله من المعقول في ضوء هذه الموازنات أن نفترض أنه كان يوجد في بيت ايل حجر مقدس تعود المتعبدون منذ زمن بالغ في القدم أن يصبوا فوقه الزيت ، لأنهم كانوا يعتقدون بحق أنه بيت الرب (بيت ايل) ، أى أنه كان مأوى لروح مقدس • ويعزى هذا الاعتقاد وتلك العادة الى الوحي الذي ظهر ليعقوب في هذا المكان قبل أن يتكاثر نسله ويستوطن هذه الأرض بزمن طويل • على أننا لا نستطيع أن نحدد ما اذا كانت قصة يعقوب تعد رواية متوارثة لحادثة حقيقية ، أم أنها وضعت لتفسير قدسية هذا المكان الذي كان يرتبط بهذه العادة من قبل • فمن المحتمل أنه كان بأرض كنعان كثير من هذه الأحجار المقدسة أو بيوت الأرباب ، وكان ينظر اليها جميعا على أنها مساكن لأرواح قوية ، ومن ثم فقد كانت تطلّى بالزيت • ومن المؤكد أن عبارة « بيت إيل » • أو بيت الآله كانت اسما مألوفاً لأحجار مقدسة من نوع معين كان يوجد في فلسطين • وقد استعار الأغريق هذه العبارة وحوروها الى « بيتيل — وس » أو « بيتيل — لون » ، وهى تشير الى الأحجار المستديرة السوداء التي تسكنها أو يتقمصها روح من الأرواح يتحرك في الهواء وينطق بنبوءات في صوت كالصفير في وسع الساحر أن يترجمه • ومثل هذه الأحجار كانت ترتبط بآلهة مختلفة سماها الأغريق « كرونوس » أو « زيوس » أو — « الشمس » الى غير ذلك من أسماء الآلهة • وعلى كل فأننا نستخلص من وصف هذه الأحجار أنها لم تكن بالكبيرة بحيث كان يسهل حملها • وقد كان أحدها فيما قيل ، مستديرا استدارة كاملة وكان قطره يبلغ شبرا ، وإن كان هذا الحجم يزداً أو يقل بمعجزة ، كما كان لونه يتغير من الأبيض الى الأرجواني • فاذا نقش عليه الحروف فانها تبرز في هذا اللون الأرجواني • ومن المحتمل من ناحية أخرى أن الحجر

المقدس الذى ينسب الى يعقوب فى « بيت ايل » كان من هذه الأحجار الصلبة المنتصبة ، أو إحدى الأعمدة المخشنة التى كان العبريون يسمونها « ماسييوث » ، وهى تلك الأحجار التى كانت ملحقة ، كما رأينا ، بمعابد الكنعانيين والإسرائيليين المبكرة . وقد اكتشف فى فلسطين فى العصر الحديث نماذج من هذه الأحجار فى حالة جيدة ، ونخص بالذكر منها ما عثر عليه فى معابد جيزر وتعنك . وفى بعض هذه الأحجار حفرت الحُجُور— إما فى قممتها أو فى جانبها . وربما كان الغرض من هذه الحُجُور هو صب الزيت أو الدم فيها . ويمكننا أن نفترض أن الحجر المقدس الذى قيل إن يعقوب قد نصبه فى بيت إيل وطلاه بالزيت ، كان شبيها بتلك الأحجار . ومن المحتمل كذلك أن نسل يعقوب كان يتقرب الى هذا الحجر على هذا النحو طيلة عصور طويلة من بعده .

الفصل الخامس

يعقوب عند البئر

سار يعقوب في طريقه منشرح الصدر لرؤيته الملائكة في حلمه ، ولما وعده به الرب من حمايته وحماية قومه ، حتى وصل الى أرض أبناء المشرق . هناك تقابل مع أقربائه ، وهناك وجد زوجاته ، وهناك أصبح يمتلك قطعان الماشية بعد أن كان فقيرا مشردا لا مأوى له . على أن الكاتب لم يحدد بدقة المكان الذي جرت فيه تلك الأحداث التي تعد حاسمة في تاريخ أبنائه من بعده . فقد تعتمد المؤرخ ، أو بالأحرى الفنان الأديب أن يترك الطبيعة الجغرافية لهذا المكان باهتة ، بينما صور معاشة يعقوب لحبه الأول في منفاه في ألوان حية للغاية . وقد سطع هذا المنظر بتأثير قلمه في عمق ، تماما كما سطع بريشة رفائيل ، ذلك الرسام الذي أكسب الحادث خلودا ثانيا بما أودع من تصويره في متاحف الفاتيكان . ولم يصور رفائيل في صورته حياة الحضارة ، وإنما صور حياة الرعي ، ذلك أن الحبيبين لم يتقابلا في زحمة الأسواق وضوضائها ، بل تقابلا في هدوء المراعى الخضراء ووداعتها ، تلك التي كانت تقع في تخوم الصحراء ، وقد انتشر فوق رأسيهما قطاع كبير من السماء ، ومن حولهما تستلقي قطعان الأغنام ، وهما ينتظران في صبر حتى يحين دورها في الورود . أما كاتب القصة من ناحية أخرى ، فقد حدد الساعة التي تقابل فيها الحبيبان ، ذلك لأنه ذكر أن الشمس الحارقة لم تكن قد توسطت السماء بعد ، وهو يدعنا نتنسم نسيم صباح يوم من أيام الصيف قبل أن تشع الحرارة القاتلة في ظهيرة بلاد الجنوب . وهل يمكن أن يتقابل عاشقان شابان في مكان وزمان أنسب

من هذا الزمان وذاك المكان ؟ • لقد تحولت طبيعة يعقوب الجشعة بسحر هذا الوقت وذاك المكان الى شيء أشبه بالرقعة ، فنسى في الحال حسابات المكسب المكبوح ورضخ لانفعالات الحب ، بل انفعال الفارس العاشق ، فلقد هرب الى البئر عند رؤية الفتاة الجميلة قادمة مع قطيعها ، وأزاح الصخرة التي كانت تسد البئر وسقى لها خرافها ، ثم قبل وجه ابنة خاله الساحر وبكى • فهل بكى يعقوب لتذكره الحلم الذى رأى فيه الملائكة فى « بيت ايل » ورأى أن الحلم قد تحقق فى حلم حبه الشاب ؟ هذا ما لا نستطيع أن نقطع به • وإنما الشيء المؤكد أن المحتال الأنانى قد تحول فيما يبدو لوقت قصير الى محب عاشق • وقد كان هذا الوقت الشاعرى الرومانسى الوحيد فى حياة يعقوب المادية بل الخسيسة •

وقد اختار شارحو سفر التكوين بعض الشيء فى تفسير اجهاش يعقوب بالبكاء عندما قبل ابنة خاله الجميلة راحيل • ومن ثم فقد افترضوا أنه فعل ذلك تعبيرا عن سعادته بخاتمة رحلته السعيدة • وهم يوضحون هذه الطريقة فى التعبير عن المشاعر السعيدة بأحاسيس الشعوب الشرقية العميقة ، أو بعدم قدرتهم على ضبط مشاعرهم • ولكن يبدو أن الشراح قد فشلوا فى ملاحظة أن البكاء عند غير قليل من الشعوب ، يعد طريقة تقليدية لتحية الغرباء أو الأصدقاء بخاصة هؤلاء الذين اجتمع شملهم بهم بعد غيبة طويلة ، وأن هذه التحية على هذا النحو هى فى الغالب تحية تقليدية لا تفوق فى العاطفة المصحوبة بها عادة السلام بالأيدى أو عن طريق رفع القبعة ، ومن شأن الأمثلة التالية أن توضح رأينا هذا •

فهناك فى العهد القديم نفسه أمثلة أخرى لتحية الأقرباء أو الأصدقاء على هذا النحو • فعندما كشف يوسف عن نفسه لأخوته فى مصر ، قبلهم وأجهش فى البكاء بصوت مرتفع الى درجة أن سمعه المصريون الذين يسكنون فى الجانب الآخر من البيت • ولكن يبدو أن

بكاء يوسف في هذه المناسبة كان تعبيراً طبيعياً عن مشاعره وليس مجرد عمل تقليدي . فمن المؤكد أنه اندفع في البكاء متأثراً برؤية أخيه بنيامين الأول مرة بعد غيبة طويلة ، إذ لم يتمالك يوسف نفسه عند رؤيته أحب أخوته إليه الذي كان قد فقدته زمناً طويلاً ، فترك الحجرة التي كان الناس قد تجمعوا فيها ، واندفع مسرعاً إلى حجرته وأخذ يبكي وحده حتى استطاع أن يتمالك نفسه ويكف عن البكاء ، ثم غسل عينيه المحمرتين ، ومسح الدموع عن خديه ، وعاد إلى أخوته بوجه صارم . ومرة أخرى بكى يوسف عندما تقابل مع أبيه الهرم في « جاسان » ، فقد مال على رقبة أبيه وأخذ يبكي وقتاً طويلاً (١) . وفي هذه المرة كذلك كانت دموع يوسف تنبع من قلبه عندما وقع بصره على الرأس الأشيب وقد نكس أمامه ، وعندما تذكر حب أبيه له في أيام صباه . وعندما تقابل الصديقان العزيزان داود ويوناتان في ساعة حالكة لآخر مرة ، قبل أحدهما الآخر وبكيا معاً في صوت واحد حتى بالغ داود في بكائه ، إذ كانا قد شعر بأنهما لن يرى أحدهما الآخر بعد ذلك . ونحن نعتقد هنا كذلك . أن البكاء لم يكن مصطنعاً . ومرة أخرى نقرأ في سفر طوبيا كيف أن طوبيا عندما وفد غريباً على بيت قريته « رعوثيل » في « اكباتان » وكشف عن شخصه لضييفه « قفر رعوثيل وقبله وبكى » . وربما كان البكاء في هذا الموقف كذلك نتيجة المفاجأة السارة أكثر من كونه امتثالاً لعادة اجتماعية .

ومهما تكن دوافع البكاء في هذه الأمثلة عند العبريين فإنه من المؤكد أن الإجهاش في البكاء عند شعوب أخرى في ظروف اجتماع الناس بعضهم ببعض أو افتراقهم عن بعضهم بعضاً ، تلك الشعوب

(١) « فأرسل يهوذا أممه إلى يوسف ليري الطريق أمامه إلى جاسان . ثم جاءوا إلى أرض جاسان . فشد يوسف مركبته وصعد لاستقبال إسرائيل أبيه إلى جاسان . ولما ظهر له وقع على عنقه وبكى على عنقه زمناً » . (سفر التكوين ، الأصحاح السادس والأربعون ٢٨ ، ٢٩) .

التي كانت تعيش في مستوى حضارى أدنى من مستوى العبريين ، لم تكن في كثير أو قليل سوى تقليد شكلى لسلوك فرضه المجتمع المذهب ، ومن بين هذه الشعوب التي لا يمكن أن تدعى محافظتها على آداب السلوك ، وهى تعبر في الوقت نفسه في عنف عن عاطفتها بالبكاء ، سواء كان ذلك التعبير صادقا أم مصطنعا ، « الهلوريون » سكان « نيوزيلنده » . فقد روى عنهم « أن مزاجهم العاطفى يتضح أكثر ما يكون عند رحيل الأصدقاء بعضهم عن بعض أو عند اجتماع شملهم . فإذا خرج صديق في رحلة قصيرة الى « بورت جاكسون » أو الى « فان ديمانز لاند » ، فإنهم يقومون بعرض كبير للتعبير عن مشاعرهم المسطحية . ويبدأ هذا العرض بأن ينظر المودعون الى بعضهم البعض نظرة غامزة ، ثم ينشجون ويصيحون صيحة رقيقة ، ثم تأخذ الدموع تترقرق في أعينهم ، وتتجههم وجوههم ، ويدلفون الى جانب الشخص الراحل ويتعلقون برقبتة . وعند ذاك يصرخون دفعة واحدة ويمسحون وجهه وذراعيه بحجر القداحة ، ويصرخون بطريقة لا تحتمل ويظلون يغمرون هذا الشخص بالدموع والقبلات ويلوثونه بالدم حتى يكاد يختنق ويتوق الى الهرب منهم . وعند عودة الأصدقاء أو عند القيام بزيارتهم لهم على بعد ، فإنهم يقومون بهذه الأفعال نفسها ولكن بغير نظام . ومن العسير ألا تنسكب الدموع من عينيك عند رؤية هذا المنظر المحزن وعند سماع العويل الصاخب والأصوات المتنافرة التي يطلقونها . وفي هذا كله مبالغة في اظهار العواطف ، ذلك أنه في وسع هؤلاء أن يظلوا واقفين أو جالسين على بعد من الشخص الذى يتحتم عليهم أن يبكوا على فراقه ، حتى يتهيأون لهذه اللحظة ويتدبرون أمرها ، التي يندفعون فيها نحوه في شغف ظاهرى ويمسكون بفريستهم ، (فهذا هو أفضل تعبير عن ذلك) ويعملون على انهاء أنفسهم ونفاد صبره . والشيء الذى يستحق التنويه به في هذه العملية ، هو أنه بالرغم من مقدرتهم على البكاء في كل المناسبات ، فإنهم يكفون عن البكاء كلية عندما يطلب منهم ذلك ، أو عندما يأخذ منهم التعب مبلغه . لقد سبق لى أن

استمتعت ذات مرة برؤية هذا المنظر في قرية « كايكوهي » التي تبعد عن « وايمانى » بحوالى عشرة أميال • فقد كان قد عاد الى هذه القرية ست من الأصدقاء والأقرباء من زيارة « للتاميس » بعد غيبة ستة شهور • وبينما كان الجميع منصرفين الى البكاء الثقيلدى ، جفقت امرأتان دموعهما فجأة اثر اشارة أشارت بها احدهما للآخرى ، وانتهيتا من ابداء عواطفهما ، وقالتا للجمع المحتشد في سذاجة بالغة : « اننا لم نفرغ من العويل بعد • سنذهب لنضع — الطعام في الفرن ونطهيه ونعد المسال لنضعه فيها ، ثم نعود لنستأنف بكاءنا • فإذا لم يتمكن من العودة بعد حين فسنعود في المساء لنواصل بكاءنا » • ثم ختمتا عبارتهما المعولة بأن توجهتا للحاضرين وقالتا : « أليس الأمر كذلك ؟ أليس الأمر كذلك ؟ » • وفي أعقاب هذا الحديث معهما حول نفاقهم هذا بخاصة وأنهم يعلمون أنهم لا يكثرثون كثيرا ، عدم اكترائهم بثمن ثمرة البطاطس ، بما اذا كانوا سيرون هؤلاء الذين سيكون من أجلهم • وعند ذاك أجابتا قائلتين : « ها ! إن حب النيوزيلندى كله خارج قلبه ، انه في عينيه وفي فمه » • وكثيرا ما وقع القائد البحار « ب • ديلون » فريسة لهذه المظاهرات العاطفية الصاخبة • وقد أخبرنا كيف أنه كان يجهد نفسه حتى يستطيع أن يتجاوب معهم بطريقة مناسبة لهم ، فقال « إن من عادة النيوزيلانديين أنه اذا اجتمع شمل الأقرباء أو الأصدقاء بعد غيبة طويلة فإنهم يذرفون الدمع ويلصقون أنوفهم بعضها ببعض • وكثيرا ما قمت معهم بهذه الاحتفالات بدافع المجاملة • ولو أنني كنت أهمل أداء هذه الأفعال معهم ، لاتهمت في صداقتى لهم ، ولنظروا الى نظرة أفضل من نظرتهم للبربرى بقليل ، وذلك لمخالفتى لقواعد آداب النيوزيلنديين • على أن قلبى الجامسـد لم يكن يستجيب في كل المناسبات للبكاء ، اذ كان يختلف عن طبيعة قلوبهم • ولكن كان يكفى لاصطناع الحب الحقيقى أن أنضع منديلى على عينى لبعض الوقت وأن أعول بطريقتهم • ولم يكن هؤلاء القوم يحاسبون الأوربى الغريب على عدم مشاركتهم هذا الاحتفال ، أما

بالنسبة لى ، فكان يتحتتم على آداؤها ، اذ كنت بالنسبة لهم ، «ثونجاتا مورى » أى مواطن نيوزيلندى كما كان يروق لهم أن يسمونى » • على أننا نقراً مرة أخرى أن « اظهر هذه العواطف كان يميز المقابلات النيوزيلندية ، بينما كانوا يقومون بوداع أحبّتهم دون الاستعانة بهذه المجاملات الظاهرية • فاذا تقابل الرجال والنساء بعد غيبة طويلة فإنهم يلصقون أنوفهم بعضها ببعض ويعولون ويذرفون الدمع ، وفى الوقت نفسه يحكون لبعضهم البعض عن أهم الأحداث التى حدثت لهم منذ غيابهم عن بعضهم البعض • ذلك لأنهم لا يعرفون الحزن الصامت • فاذا حدث لقاء بين أقرباء من الدرجة الأولى بعد غيبة طويلة ، فإنهم يستمرون فى لصق أنوفهم بعضها ببعض وفى العويل مدة نصف ساعة • أما اذا حدث لقاء عرضى بين طرفين فإنهم يلصقون أنوفهم بعضها ببعض ثم ينصرفون على التو • وتسمى هذه التحية عندهم « هونجى » ومعناها « الشم » • ومن شأن هذه التحية ، كما هو الحال فى عادة أكل الملح عند الشرقيين ، أن تمحو العداوة بين الأعداء • ولانتلاقى الشفاء فى أثناء تأدية هذه التحية ، اذ أنهم كانوا يمتنعون عن تقبيل بعضهم البعض » •

واذا تقابل الأقرباء بين السكان الأصليين فى جزر أندمان « بعد غيبة عدة أسابيع أو شهور ، فإنهم يعبرون عن سعادتهم بهذا اللقاء بأن يجلسوا متقابلين وقد التفت أذرعهم حول أعناق أقربائهم ، ثم يكون ويعولون بطريقة تجعل الشخص الغريب يتصور أن حادثاً مؤسفاً قد حدث لهم • والمواقع أنه ليس هناك أدنى فرق بين فرحهم بلقاء حبيب وحزنهم على فقد عزيز • وفى العادة تبدأ النساء بالعويل ، ثم تصاحبهن الرجال على التو • ويظل ثلاثة أو أربعة منهم يكون فى نعمة واحدة ، حتى يكفوا عن البكاء عندما يشعرون بالإرهاق » • وعند شعب « مونجىلى تاهيل » الذى يسكن حى « بيلاسبورى » فى الهند ، « لا تختلف عن ذلك تقاليد استقبال الأقرباء الذين كانوا متغييبين فترة طويلة ، فجماعة النساء فى كل حالة يجلسن ويكين بصوت عال • أما

إذا عاد الابن الى بيت والديه بعد غياب عدة شهور ، فإن أول ما يفعله أن يجلس عند قدمي والديه ويلمسها • ثم يأتي اخوته وهو يجلس على هذا النحو ، وكل يأتي بدوره ويضع يديه على كتفيه ويبكي بصوت عال ، ثم يحكى له في نغمة معولة حدثا مما حدثا في أثناء غيابه • ويتطلب آداب السلوك عند « الشاوهانيين » الذين يسكنون الأقاليم الوسطى في الهند ، أن « تبكى النساء إذا تقابلن مع أقرباء لهن جاءوا لزيارتهم من مكان بعيد • فإذا تقابلت امرأتان في هذه الحالة ، فإنهما تبكيان معا بعد أن تضع كل منهما رأسها على كتف الأخرى ، ويديها الى جانبها ، وين أثناء البكاء تغير كل منهما وضع رأسها مرتين أو ثلاثا ، وتصبح بنوع قرابتها لها إن كانت أما لها أو أختا الى غير ذلك • أما إذا توفي فرد في العائلة ، فإن النساء يصرخن قائلات « آه يا أمي • أو آه يا أختي • أو آه يا أبي • • لماذا لم أمت أنا الإنسان السيئ الحظ بدلا منك ؟ » فإذا بكيت امرأة بمصاحبة رجل فإنها تمسك بجانبيه وتضع رأسها على صدره • أما الرجل فيصيح بها بين الحين والآخر قائلا : « لا تبكى كفاك بكاء » • فإذا كانت امرأتان تبكيان معا ، فإنه من آداب السلوك أن تكف كبراهما عن البكاء أولا ، ثم تطلب بدورها من زميلتها أن تفعل ذلك • فإذا لم يكن يعرف أيهما أكبر سنا ، فإنهما تستمران في البكاء في بعض الأحيان مدة ساعة من الزمن حتى يثير بكأؤهما مشاعر المتفرجين الأصغر سنا • وهما تستمران على هذا النحو من البكاء حتى يقدم شخص أكبر منهما سنا ، ويطلب من أحديهما أن تكف عن البكاء •

ويبدو أن عادة إذراف الدمع بوصفها علامة على الترحيب ، كانت منتشرة بين القبائل الهندية التي كانت تسكن جنوب أمريكا وشمالها على حد سواء • فقد كانت تفرض الآداب الاجتماعية على « التوبيين » الذين يسكنون في البرازيل بالقرب من « ريو جانيرو » ، أنه عند دخول زائر غريب كوخا يتوقع أن يحتفى به ، فإنه يجلس في أرجوحة مضيئة ، ويمضى بعض الوقت ساكنا متأملا • ثم تأتي النساء ويجلسن

على الأرض حول الأرجوحة ، ثم يخفين وجوههن بأيديهن وينفجرن في البكاء ، وهن يرحبن به ويطرينه في الوقت نفسه • وينتظر من الضيف الغريب بدوره ، وسط هذه المظاهرات الصاخبة ، أن يبكى مشاركة لهن ، فإذا لم يستجب له الدمع الحقيقي ، فإن أقل ما يجب عمله من جانبه ، أن يتنهد من أعماق قلبه ، وأن ينظر قدر الأمكان نظرة ملؤها الأسى • فإذا قام الضيف بهذه الشكليات على الوجه الأكمل وفقا لما تقرضه قواعد أدلب « النوبيين » ، فإن مضيفه الذى ظل حتى هذا الوقت متفرجا غير مبال وغير مكترث بما راه ، يقترب من ضيفه ويبادلته الحديث • وتتبع قبيلة « لينجوا » فيما بينها ، وهى قبيلة هندية تسكن في « شاكو » ، شكلا من أشكال الآداب وذلك عندما يتقابلون مع شخص عزيز لديهم طالت غيبته عنهم • فإذا تقابل هندی مع عزيز لديه غاب عنه فترة من الزمن ، فانهما يذرفان قليلا من الدمع قبل أن ينطق أحدهما بكلمة • فإذا تصرفا على غير هذا النحو ، فإن هذا يعد اهانة للضيف أو يعد على الأقل دليلا على أنه غير مرحب به •

وقد وصف المستكشف الأسباني « كابيسادى فاكا » في القرن السادس عشر عادة مشابهة للعادة السابقة كانت تتبعها قبيلتان هندية كانتا سكان جزيرة نائية ، يبدو أنها كانت تقع محل شاطئ تكساس فقال : « هناك في هذه الجزيرة يسكن شعبان يتحدثان لغات مختلفة ، أحدهما يسمى « الكابوكويون » والآخر « الهاتيون » • ومن عادة هذين الشعبين أنهما إذا تعرف شخصان أحدهما على الآخر ، أو إذا تقابلا مع بعضهما البعض بين الحين والآخر ، فانهما يبكيان ما يقرب من نصف ساعة قبل أن يتحدث أحدهما مع الآخر • ثم يهمن الشخص المستقبل ويقدم كل ما يمتلك لزائره الذى يتقبل هذه الأشياء ، ثم يمكث فترة ويأخذها ويرحل • وقد يحدث أن يبتعد أحدهما عن الآخر بمجرد تقديم الهدية دون أن ينطق أحدهما ببنت شفة » • وقد وصف رجل فرنسى كان يدعى « نيكولا بيروه » ، وكان قد عاش بين الهنود عدة سنوات في نهاية القرن السابع عشر أنه عندما تزور جماعة « اسيو »

قرية من قرى أصدقائهم « الأثاوا » يجهشون في البكاء وفقا للعادة المتبعة ، أمام كل من يقابلهم من سكان القرية ، تعبيرا عن ابتهاجهم بليقياهم « وقد كان هذا الرجل الفرنسي نفسه هدفا ، أو بالاحرى فريسة لهذه المظاهرات المحزنة • فعندما أرسله حاكم « نيوفرانس » ليتعامل مع القبائل الهندية التي كانت تعيش فيما وراء نهر المسيسيبي ، اتخذ لنفسه مسكنا عند شاطئ هذا النهر ، وهناك استقبل رسلا من « الأيويين » وهم جيران « الشيو » وحلفاؤهم ، وكانت قريتهم تقع على مسيرة عدة أيام جهة الغرب • وقد كان هؤلاء يرغبون في إقامة علاقة طيبة مع المندوب الفرنسي • وقد وصف مؤرخ فرنسي مقابلة هؤلاء الهنود « لبيروه » المسكين ، فقال : أنهم ظلوا يبكون أمامه حتى جرت دموعهم على أجسامهم • ثم أخذوا يمسحون رأسه ووجهه وملابسه باللعباب والأوساخ الخارجة من أنوفهم وأفواههم حتى تقزز الرجل الفرنسي من هذه القاذورات وكاد يشعر بالمرض • وقد كان هؤلاء الرسل طوال هذا الوقت يولولون ويصرخون • ولم يجد الرجل الفرنسي مفرا من أن يشهر في وجوههم السكاكين والمخارز • فما أن وقعت أبصارهم عليها حتى كفوا عن هذه الضوضاء • ولما لم يكن مع هذا الوفد مترجم ، فإنهم لم يتمكنوا من الأقصاح عن رغبتهم ، ومن ثم فقد عادوا من حيث أتوا دون أن يحققوا غرضهم • وبعد بضعة أيام جاء الى الرجل أربعة من الهنود كان أحدهم يتكلم بلغة يعرفها الفرنسي • فقال له : إن قريتهم تبعد عن النهر بمقدار سبعة فراسخ ، وأنه جاء يدعوه لزيارتهم ، فقبل الفرنسي الدعوة • وعندما أبصرت النساء الرجال الفرنسيين قدامين ، جرين الى الغابات والجبال وهن يمددن أيديهن نحو الشمس • ولكن عشرين من الزعماء قدموا نحوهم وقدموا « لبيروه » غليون السلام ثم حملوه على جلد بقرة حتى أوصلوه الى كوخ الزعيم • وبعد أن وضعوه داخل الكوخ ، أخذوا يكون هم وزعيمهم على النحو المألوف لديهم ، كما أخذوا يمسحون

رأسه بلعابهم • وإفرازات أنوفهم • وبعد ذلك جففوا أعينهم وأنوفهم
وقدموا له غليون السلام مرة أخرى • ثم يضيف المؤرخ الفرنسى
قائلا : « اننى لم أر شعبا بين شعوب العالم يبكى بكاء هذا الشعب •
فلا يتم مقابلاتهم إلا بالبكاء ، كما لا يتم فراقهم إلا بالبكاء » •

الفصل السادس

المهد ..

(عند الحجر المنتصب)

على النصب

بعد أن قام يعقوب بخدمة خاله « الأبان » عدة سنوات ازدادت في أثنائها ثروته في الأغنام والماعز بفضل نشاط يعقوب ومهارته ، مل الأخير هذه الخدمة الطويلة وقررايه على أن يعود بزوجاته وأولاده وكل ما معه الى أرض آباءه . ويحق لنا أن نفترض أن ما دفع يعقوب لأتخاذ هذا القرار ليس مجرد الحساسه بالحنين لوطنه . حقا لقد كان يعقوب قد مل هذه الحياة ، هذا فضلا على أن نبض شبابه الدافئ ، إن كان قد عرف هذا النبض أصلا ، كان قد كف عن تحريك مزاجه الواقعي البارد في جوهره . ومع ذلك فهو لم يتخذ هذه الخطوة مدفوعا بحنينه الى مرتع صباه وحبه لوطنه ، وإنما المحتمل أكثر من ذلك أنه كان قد أخذ يحسب في هدوء مكسبه المادى من خدمته لخاله . حقا أنه كان سعيدا بأنه استطاع بفضل اجتهاده ومكره معا في غضون هذه السنوات أن يحتفظ بثمرة قطعان الماشية في حظيرته بدلا من أن يحتفظ بها في حظيرة خاله ، ولكنه كان يرى أنه لما زال تقادرا على أن يغنم أكثر من ذلك . ولقد كان قد اعتصر الرجل الكهل كما تعتصر الليمونة ، وكان الوقت قد أصبح مناسبا تماما الآن يستخدم موهبته في مجال آخر يدر عليه مزيدا من المكسب . ولكنه لما رأى بثاقب فكره أن خاله يمكن أن يعترض على رحيله بالجزء الأكبر من قطعان الماشية ، فقد قرر في شيء من التريث محاولة تجنب المشاحنات العائلية ،

بأن يهرب في أثناء الليل في ضوء القمر • ولكي يقوم يعقوب بتنفيذ هذه المخططة ، كان يتحتم عليه أن يطلع زوجاته على هذا السر ولكنه يبدو أنه شك في طريقة استقبالهن لهذا النبأ ، ولهذا فقد فاتحن في هذا الموضوع في شيء من الرفق ، فبدأ حديثه معهن بنعمة متملقة وأخبرهن بتغير سلوك أبيهن معه • ثم حكى لهن بعد ذلك في روع زائف كيف أن الرب ناصره فحول قطيع أبيهن من عنده إليه • ولكي يخلع على المؤامرة مزيدا من الحبكة ، أخبرهن في نهاية الأمر ، والوميض يسطع في عينيه ، فيما يبدو ، كيف أنه رأى رؤيا في الليلة الماضية ظهر له فيها ملاك الرب وطلب منه أن يرحل الى وطنه • ولم يجد يعقوب ضرورة بعد ذلك لأن يحوم حول هذا الموضوع أكثر من ذلك ، لأن زوجاته أبدین الاستعداد للموافقة على خطته ، وأعلن في صراحة يمازجها الريب — بأنهن يضعن أنفسهن في خدمته • بل إنهن رفعن أصواتهن بالشكوى إليه من أن أباهن المبذر قد ضيع الثروة التي كان قد قبضها ثمنا لزواجهن ، ولم يعد لديه ما يمكن أن يعطيه أو يورثه لهن • ومن ثم فقد أبدین الاستعداد للتكر لأبيهن ومرافقة زوجهن الى البلاد الغربية النائية التي تقع فيما وراء النهر الكبير • ولكنهن قبل أن يجهزن أمتعتهن استعدادا للرحيل تذكرت « راحيل » الذكية ، لحسن الحظ ، أن أباهما على الرغم من أنه لم يعد يملك أى شيء ، الا أنه مازال يحتفظ بالآلهة المنزلية التي ربما استعانت لهذا التدبير المدبر ضد صاحبها ، فتحاول أن تدرك عنه ما يلحق به أذى وأن تعاقبهم جزاء إثمهم • ومن ثم فقد احتالت لسرقة هذه الآلهة وأخفتها بين أمتعتها دون أن تخبر زوجها بذلك ، اذ كانت تخشى أنه ربما وقع تحت وطأة وخز ضميره ، فيرد الآلهة المسروقة الى صاحبها •

وعلى هذا النحو كانت الأسرة على استعداد للرحيل ، وانتظرت اللحظة الحاسمة التي تتمكن فيها من الرحيل خلسة دون أن يقع عليها بصر أحد • وقد حانت هذه اللحظة عندما رحل « لابان » ليقضى بضعة أيام في عيد جز الأغنام • عند ذاك همت القافلة بالرحيل ، أما النساء

والأطفال فقد ركبوا الإبل وقد سارت من قدامهم ومن خلفهم قطعان الماشية التي ملأت الجو بثغائها • وقد كان سير القافلة بطيئا بالضرورة ، اذ لم يكن يتسنى للأغنام والماعز أن تسير سيرا حثيثا ، ولكنها كانت قد استمرت في سيرها طيلة يومين ، عندما علم « لابان » في اليوم الثالث برحيلهم ، فخف مع أخويه ليلحق بهم • وبعد مسيرة شاقة دامت سبعة أيام تقابلوا مع طابور طويل من الهاربين يسير سيرا متثاقلا بين غابات جبل جلعاد الجميلة • وربما كان الهاربون قد وصلوا الى مكان فسيح في الغابة ، حيث أخذت الأغنام ترعى في الموج الخضراء ، وربما كانوا قد وصلوا الى وهدة عميقة حيث كانت الإبل ترعى في أجمة قصب ، أو حيث كان تقطيع المواشى يشق طريقه في مياها • وعلى كل فقد نشب الشجار بين الطرفين عند ذاك • وبدأ لابان حملته على يعقوب بتأنيبه بصوت جهورى على سرقة آلهته وسلب بناته كما لو كن أسرى حرب • ولم يكن يعقوب يعلم شيئا عن سرقة الآلهة ، فرد عن نفسه هذه التهمة في حراسة بالغة ، وقال له أنه ليس بلص أو مدبر لسرقة أشياء تعد ملكا له شخصيا وعليه أن يقوم بتفتيش أمتعتهم ، فإن هو عثر على الآلهة في أمتعة أحدهم فله الحق عندئذ أن يقتل السارق • وعند ذاك قام « لابان » بتفتيش الخيام خيمة بعد الأخرى في دقة ، ولكنه لم يجد أثرا للآلهة ، لأن راحيل الذكية كانت قد أخفت التماثيل في محفة الجمل وجلست فوقها وهى تضحك في أكمامها ، بينما كان والدها ينقب بدقة في خيمتها •

وقد كان فشل لابان في العثور على الآلهة المسروقة دافعا لأن يبتعد يعقوب ثقته في نفسه تماما • اذ من المحتمل أنه كان قد شعر في بداية الأمر بالخزي في مواجهة خاله الذى خدعه وتركه في موقف حرج للغاية • أما الآن فقد بدأ يشعر أنه كسب موقفا أخلاقيا ساميا ، ومن ثم فقد انقلب على خصمه اللئيل ، في حذق بالغ وانتهال عليه يكشف له حقارته الأخلاقية • فرد عن نفسه التهمة الى دبرها له بسرقة الآلهة ، وصرح له بأن زوجاته وقطعانه حق له بعد أن قام بخدمته

متفانيا طيلة سنين عديدة • ثم أسهب في نعمة مثيرة للشفقة ، في شرح الصعاب التي تحملها في خدمة قطعان ماشيته ، وزوح الشرف التي كان يباشر بها عمله • ثم ختم خطبته الملهبة بتهديد خاله بأنه لو لم يكن يتلقى الرب المعين له ، لجعل خاله خادما مخلصا له ، وجعله يعيش بلا سترة على ظهره أو ملجم في جيبه • ولم يكن للخال أية وسيلة للمعارضة أمام هذه الفصاحة البالغة ، بل أنه بدأ يشعر بأنه لم يبلغ باع زوج بناته في الفصاحة والقدرة على الخداع • ولا بد للإنسان ، لكي يقف منه موقف المناوىء ، أن يكون متزودا بأسلحته • ومن ثم فقد اكتفى « لابان » بأن رد عليه في حزن بأن بناته وأطفالهن وقطعان ما شيته قد أصبحوا ملكا له ، أى أن كل ما غنمه يعقوب إنما كان ملكا لخاله « لابان » • وقد كانت هذه الإجابة أكبر من محاولة الرد بالحجج اللبقة ، بل انها قد تجاوزت حدود إمكان الدفاع عن النفس الرهين بتلك الظروف • ولكن كلا من الطرفين لم يكن مستعدا للدخول في معركة • ومن ثم فقد اتفقا على أن يرحلا في سلام من قبل أن يصلا الى حد إشهار السيف في وجه بعضهما البعض ، فاستأنف يعقوب رحلته بغنيمته الكبيرة وعاد لابان خاوى الوفاض الى أهله • ولكنهما قبل أن يفترقا ، نصبا حجرا كبيرا على نحو ما ينصب العمود ، وجمعا فوقه ركاما من الأحجار الأقل حجما ، وأكلا الخبز معا وهما جالسان أو واقفان فوق هذا الركام • ومن شأن هذا الركام أن يشير الى الحدود التي لا ينبغي أن يتعداها كل منهما بهدف إيذاء الطرف الآخر • وفضلا على ذلك فإن هذا الركام كان بمثابة شاهد عليهما عندما يرحل كل منهما في طريقه • ولهذا فإن العبريين والسريانيين يطلقون عليه اسم « نصب الشهادة » • وفي نهاية الاتفاق قام الطرفان بذبح الضحية وتناول وجبة عادية ، ثم عاد كل الى خيمته وقد انتهيا الى المصلح ، وإن كان صلحا زائفا • وقد كان يعقوب بدون شك سعيدا بكفائه السياسية • أما « لابان » فلم يكن راضيا بطبيعة الحال بما حدث • وإنما ظل ساكنا متظاهرا بالرضاء على كل حال • وفي الصباح

الباكر ، استيقظ « لابان » وقبل أحفاده وبناته وتمنى لهم التوفيق وعاد الى أدراجه • أما يعقوب فقد استأنف رحلته الى بلاده •

إن السياق العام للحكاية السابقة ينحو الى أن يبين أن النصب الذى أقامه لابان ويعقوب فى المكان الذى افترقا عنده ، لم يكن نصبا يشهد بصداقتهما ومحبتهما وإنما كان شهادة على شكهما وعدم ثقتهما فى بعضهما البعض • ومن ثم فقد استخدمتا ركام الأحجار ليكون ضمنا ماديا على رعايتهما لمعاهدة السلام التى عقداها فيما بينهما • أى أن هذا النصب كان بمثابة إجراء أو وثيقة فى هيئة حجر وضع عليه الطرفان المتعاهدان أيديهما ، حتى اذا نقض أحدهما العهد ، عوقب الخائن • فالنصب الحجرى لم يكن ينظر اليه بوصفه مجرد كومة من الأحجار ، بل بوصفه شخصا أو روحا قويا أو إلها ينظر بعين اليقظة الى الطرفين المتعاهدين ويذكرهما بعدهما • ويتضح هذا من خلال الكلمات التى وجهها « لابان » الى يعقوب عند إتمام شعائر العهد فيما بينهما ، فلقد قال له : « ليراقب الرب بينى وبينك حينما يتوارى بعضنا عن بعض ، أنك لا تذل بناتى ولا تأخذ نساء على بناتى • ليس انسان معنا ، أنظر ، الله شاهد بينى وبينك (١) » • ومن ثم فقد سمي هذا الركام باسم « برج المراقبة » (المصفاة بالعبرية) ، كما سمي « صخرة الشهادة » ، لأنه كان يقوم بمقام الرقيب والشاهد معا •

وينتمى الحجر المنتصب وركام الأحجار اللذان حكى عنهما هذه الأسطورة المثيرة بدون شك ، إلى طبقة الآثار الحجرية الطبيعية التى لاتزال ترى بكثرة فى المنطقة التى تقع فيما وراء نهر الأردن بما فى ذلك جبل جلعاد حيث كان الفراق بين يعقوب ولابان كما تحكى القصة • وقد أشار « كانون تريسترام » الراحل ، الى هذا الموضوع وذلك فى أثناء

(١) سفر التكوين ٤٩ : ٥٠ •

حديثه عن بلاد موآب فقال : « إن جزءا من طريقنا كان يقع إلى جانب وادى « عتابيا » الذى يتجه جنوبا الى « الزرفاء » وهو واد صغير ينحدر انحدارا سريعا . وهناك فى هذا المكان صادفنا لأول مرة ، عند منحدر صخرى مرتفع ، ضريحا يتكون من أربعة أحجار خشنة عارية ، ثلاثة منها موضوعة على حافة المنحدر مكونة ثلاثة جوانب من شكل مربع ، أما الحجر الرابع فيقع فوقها كما لو كان غطاء لها . ويبلغ طول كل حجر حوالى ثمانية أقدام . وعندما اتجهنا شمالا ، وقعت أبصارنا مرارا على هذه الأضرحة ، بحيث أننا كنا نصادف ما يفوق العشرين منها فى تجوال واحد ، ولكنها مشيدة على نحو واحد . وتقع هذه الأضرحة بدون استثناء على جوانب التلال الصخرية ، ولا يقع على قممها على الإطلاق . فالأحجار الثلاثة الكبيرة الموضوعة على حافة المنحدر ، يقع كل منها جهة الزواية اليمنى للحجر الآخر ، وهى جميعا تكون دغامة للحجر الصلب الذى يغطيها الذى كان يبلغ طوله من ستة الى عشرة أقدام . وهذه الأضرحة تعد أمكنة يستريح عندها العرب الرعاة الذين طالما أبصرناهم مستقلين فوقها يراقبون قطيعهم . ويبدو أن هذه الأضرحة لا توجد الا فى الأقاليم الذى يقع بين « زاره » (١) « كاليرهوى » و « حشبون » ، اذ أنها لا توجد على الإطلاق فى الأقاليم المشابهة لهذا الأقليم الذى يقع جنوبا فى هذه المنطقة . على أننى سبق أن رأيت هذه الأضرحة فى أثناء زيارتى لفلسطين ، وكان الكثير منها يقع فى الجهات الجرداء من جبل جلعاد فيها بين جبل « أوشح » و « الجرش » . ومن العسير علينا أن ندرك سبب تشييد هذه الأضرحة على جوانب التلال . والشئ الذى يلفت النظر فضلا على ذلك ، هو أننى لم أصادف ضريحا يتكون من أربعة

(١) « زاره » هو الاسم الحالى لكاليرهوى . انظر :

P. Abel, Géographie de la Palestine, Paris-Lecoffre Gabada,
1938, Etudes Bibliques, tome I, p. 87.

أحجار سفيلة • فإذا وقع بصرنا على ضريح متهدم ، فإن عدد أحجاره عندئذ يتكون من أربعة أحجار لا أكثر ولا أقل • ونظرا لوضعية التربة ، لم يكن من اليسير إقامة هذه الأضرحة تحت الأرض • وعلى الرغم من أنني لم أجد أثرا لهذه الأضرحة أو أية أضرحة من منسوع آخر في الأماكن المجاورة ، فإنه من المحتمل أن السكان الأولين كانوا قد شيدوها في أماكن أخرى ، ثم نقلتها الأجناس التي جاءت من بعدهم حتى تستغل الأرض في الزراعة ، في حين أنهم لم يمسوا تلك الأضرحة التي كانت تقع على جوانب التلال الجرداء التي لم تكن تصلح للزراعة على الإطلاق • وهناك شيء آخر يجدر بنا أن نذكره ، هو أن الطبقات الثلاث من النصب الأولية التي عثر عليها في موآب ، أعنى الحجر الدائري والأضرحة وركام الأحجار ، توجد في أعداد كبيرة في ثلاثة أماكن مختلفة في هذا البلد ، ولكنها لا توجد مختلطة على الإطلاق ، فركام الأحجار توجد جهة الشرق في الطريق الذي يؤدي إلى سلسلة الجبال العربية ، والأحجار المستديرة توجد في جنوب « كاليرهي » ، وأما الأضرحة فتقع في شمال هذا الوادي • وربما أشارت هذه الظاهرة إلى وجود ثلاث قبائل متجاورة كانت تعيش في هذه الأماكن فيما قبل التاريخ ، وكان لكل منها احتفالاتها وطقوسها الدينية الخاصة بها • أما العرب المحدثين • فمن الطبيعي أن يربطوا بين هذه الأضرحة وبين الجن » •

لقد سبق أن رأينا أنه عندما وضع « لابان » و « يعقوب » ركام الأحجار فوق الحجر المنتصب ، جلسا (١) فوق هذه الأحجار وأخذوا

(١) تترجم الرواية المنقحة هذه العبارة التي ترد في سفر التكوين الإصحاح الواحد والثلاثين صفحة ٦٤ على النحو التالي : « ثم تناولوا طعامهما بجانب هذا الركام » . بينما تقول الرواية الأخرى المعتمدة « ثم تناولوا طعامهما فوق هذا الركام » . على أن العبارة المقابلة لهذه العبارة التي ترد في النص ترجح صحة الرواية المعتمدة على الرواية الأخرى . إذ من المؤكد أن المعنى الأولي للظرف « عند » يعني « فوق » وليس هناك داع لأن

يتناولان الطعام • ومن المحتمل أن تناول الطعام فوق الأحجار يقصد به التصديق على العهد • وربما استطعنا أن نستوضح السبب في الاعتقاد في أن تناول الطعام على الأحجار يعد تصديقا على العهد من خلال عادة نرويجية وصفها المؤرخ الدانماركي القديم « ساكسوجراماتيکوس » فقال : « عندما كانت الشعوب في الزمن القديم تنصب ملكا عليهم ، كانوا يقفون على أحجار صلبة الحجر » • فربما كانت الشعوب تعتقد أن صلبة الحجر تمر إلى الشخص الذي يقف عليه وبذلك تؤكد قسمه • فنحن نقرأ عن شخص أسطوري بعينه يدعى « راجاه الجاوى » كان يحمل لقب « راجاه سيلا بيرواتا » وهو يساوى لقب « واتو جوننج » وقد خلع عليه هذا اللقب لأنه وقف ثابتا على الجبل كالحجر فاكسب منه قوته وشجاعته بدون عون أو مساعدة • وفى الهند عندما يحتفل براهمانى بزواجه ، يجعل الزوج زوجته تدور حول النار ثلاث مرات ، وفى كل مرة يجعلها تخطأ بقدمها اليمنى على حجر الرص وهو يصيح بها : « لتطىء بقدمك هذا الحجر ولتكن صلابتك من صلابته • ولتتغلبى على الأعداء وتطئهم بقدميك وهذه الشعيرة القديمة التى وضعها كتب الشعائر الآرية فى الهند الشمالية ، تبناها الناس فى الهند الجنوبية خارج نطاق الطبقة البراهمانية • فالزوجان فى هذه المنطقة « يدوران حول النار المقدسة ثم يرفع الزوج بيديه قدم زوجته اليمنى ويضعها على حجر الرصى ، ويكرر فعل هذا سبع مرات • وتعرف هذه الشعيرة باسم « سابتا بادى » (أى سبعة أقدام) ، وهى تعد أهم شعائر الزواج وأكثرها تأكيداً للرباط الزوجى • ذلك أن الزوجة تحض على أن تكون صلبة على الدوام صلبة الحجر الذى تضع عليه قدمها » • ويحدث مثل هذا فى الاحتفال

نتجاوز هذا المعنى فى هذا المجال • (المؤلف) ويؤكد رأى المؤلف عبارة العهد القديم التى تقول « وقال يعقوب لآخوته التقطوا حجارة فآخذوا حجارة وعملوا رجمة وأكلوا هناك على الرجمة » . (سفر التكوين الاصحاح الحادى والثلاثون آية ٤٦) •

(المترجمة)

بدخول الغلمان في مجتمع الرجال عند البراهمانيين • إذا أنهم يجعلون
الغلام يطاءً بقدمه اليمنى على حجر بينما يرددون العبارة الآتية :
« لتطأ بقدمك هذا الحجر ، وتكن صلباً مثل صلابته • لتحطم هؤلاء
الذين يبحثون لك عن أذى ولتنتصر على أعدائك » • وعند الاحتفال
بالزواج عند الكوكيين الذين يسكنون شمال « كاشار » • « يضع كل
من الزوجين قدما على حجر كبير موضوع وسط القرية • ثم يأتي
الزعيم (جاليم) ويرشهما بالماء وينطق بعبادة توجه النصائح العامة
للزوجين وتحضهما على الإخلاص • ثم يتاركهما ويتمنى لهما المذرية
الكثيرة » • ويعتقد سكان مدغشقر أنه من الممكن للشخص أن يتحصن
ضد البركة الأرضية المتقلبة ، بأن يدفن حجرا تحت مكان رئيسي في
بيته أو تحت عتبة بابه •

ويمكننا أن نفسر بناء على هذا الأساس ، عادة القسم على حجر
في الوقت الذي يضع فيه الشخص فوقه قدما أو قدميه معا • والغرض
من هذا فيما يبدو ، هو أن خواص الحجر التي تتمثل في صلابته
وتحملة ، تنتقل على نحو ما الى حالف اليمين ، وبذلك يتأكد الناس من
عدم خنثه بيمينه • فقد كان هناك في أثينا حجر وقف عليه الرؤساء
التسعة عندما أقسموا أن يحكموا بالعدل وفقا للقوانين • كما يقع على
بعد ضريح القديس كولومبا في « ايونا » حجر أسود • ولا يرجع
هذا الحجر بالسواد الى لونه ، اذ أن لونه رمادي في الحقيقة •
ولكنه وصف بهذا اللون نظرا لتأثيره على من يحنث بيمينه ، وذلك اذا
ما اتهم شخص بالخيانة بعد أن يكون قد وقف عليه وأقسم اليمين
بالطريقة المألوفة ، فالأيمان التي تقسم عليه تكون قاطعة مهما تكن
الخلافاً بين المتعاهدين •

وقد سلم « ماك - دوغالد » ملك الايسليين ، أتباعه ، حقوقهم
في أراضيهم التي تقع في الجزر والقارة ، وذلك بأن رفع يديه وركع
على الأحجار السوداء • ثم أقسم أمام كثير من الشهود وهو على هذا

النحو ، أنه لن يعود فيطالب بهذه الحقوق التي منحها لم • وقد كان هذا الإجراء بديلاً عن امضائه على صك حقوقهم • ومعنى هذا أنه إذا كان الشخص واثقاً مما قد عزم عليه ، فإنه يقول بطريقة ايجابية : ان لدى الخيار في أن أقسم على هذا الموضوع على الأحجار السوداء • وقد كان هناك في جزيرة « فلادا » ، وهي جزيرة أخرى من جزر الهيريد ، حجر أزرق مستدير كان الناس يحلفون عليه أصدق الايمان • وقد كان من المؤلف أن يوضع حجر داخل حائط ملتصق بأبريشة « ليرج » التي تقع في «سوذر لاند شير » ، وكان يسمى حجر العهد • « وقد ذاعت شهرة هذا الحجر بوصفه وسيلة ، بل مقدسة ، لعقد الصفقات وضمان الوفاء بالوعد وتوثيق المعهود • فإذا أمسكت الأطراف المتفقة على أمر من الأمور بأيدي بعضها البعض فوق هذا الحجر ، فأنهم يكونون بذلك قد الزموا أنفسهم بعهد صارم لا تنتهك حرمة »

وشبيه بهذه العادات تتبعها أجناس بدائية تعيش في افريقيا والهند • فإذا اختلف شخصان من « البوجيين » الذين يسكنون افريقيا الشرقية عند حدود الحبشة ، فأنهما في بعض الأحيان يفضان نزاعهما عند حجر بعينه يقف فوقه أحدهما ثم يدعو عليه الشخص الآخر بأن تجل به أقسى اللعنات إذا هو حنث بيمينه • وكلما نطق بلعنة رد عليه رفيقة الذي يقف على الحجر بقوله « آمين » • ويقسم « الأكامبيون » الذين يسكنون في افريقيا الشرقية البريطانية أغلط الايمان عند شيء يطلقون عليه أسم « كيثيتو » • وهم يعتقدون أن هذا الشيء تملكه قوى سحرية تقتل الحانث باليمين • وأمام هذا الشيء توجد سبعة أحجار يقف عليها حالف اليمين بحيث يضع كعبيه على حجرين منها • وفي « نايمو » إحدى قرى « البانجهوليين » في أسام ، توجد كومة من الأحجار الغريبة في شكلها يقف عليها الناس ليقسموا أيمانهم المقدسة • وفي « جوشيجونج » التي تقع في تلال « جارو » في أسام يوجد كذلك حجر يقسم عليه الناس أكثر أيمانهم قدسية • فإذا قدم

أحدهم ليقسم اليمين ، فانه يصافح الحجر أول الأمر ، ثم يصيح بالاله ، « ماهاديفا » ، ويداه مرفوعتان ومتشابكتان ، وعيناه مثبتتان على التلال ، لكي يشهد على صدق يمينه . وبعد ذلك يلمس الحجر والفرع يشيع في وجهه ، ويحنى رأسه له ويصيح مرة أخرى بالاله ماهاديفا . وعندما يفصح عن رغبته بعد ذلك يحملق في التلال ويضع يده اليمنى على الحجر . ويقسم « الجارويون » كذلك وهم واقفون على الأحجار الشهابية ويقولون « ليقنننى الاله » « جويرا » (اله الاضاءة) بأحد هذه الأحجار اذا كنت أقول كذبا . ونلاحظ أن وظيفة الحجر في هذه الحالة جزائية أكثر من كونها تأكيد العهد . فالحجر موضوع في هذا المكان لا لكي يكسب القسم صلابة الحجر بل ليطالب انتقام اله الاضياءة من الحانث باليمين . وربما كان هذا هو الهدف نفسه من القسم « الساموآنى » . ويتلخص هذا القسم في أنه حينما كان الأصوص يقسمون على براءتهم في حضرة الزعماء ، فانهم « كانوا يضعون حفنة من الأعشاب على الحجر أو على أى شى آخر يعتقد في أنه يمثل اله القرية ثم يقول كل منهم وهو واضح يده على الحجر : « اننى أضع يدى على الحجر في حضرة زعمائنا المجتمعين ، فاذا كنت قد سرقت الشىء المعنى فلأمت في الحال » .

فالحجر في هذه الحالة الأخيرة ، وربما في بعض الحالات الأخرى ، كان ينظر اليه على أنه ممتلك لروح الهى يمكنه من أن يسمع القسم وأن يحكم على صدقه وأن يعاقب الحانث باليمين . فالإيمان الذى كان يقسم بها على الأحجار التى كان لينظر اليها على أنها آلهة على وجه التأكيد ، كانت كما هو واضح ذات طابع دينى ، حيث أنها كانت تتضمن نداء الى القوى الخارقة للعادة أن تحل غضبها بالآثم . على أن الحجر في بعض الأمثلة الأخرى السابقة ، كان يظن فيما يبدو ، أنه يؤثر تأثيرا مباشرا من خلال خواصه الطبيعية التى يتميز بها وهى الثقل والصلابة وخاصية القصور الذاتى . وبناء على ذلك فان القسم في هذه الحالات ، أو في أية احتفالات أخرى ، به طابع سحرى صرف . فالرجل يكتسب

يخوِّص الحجر القيمة ، تماما كما يكتسب شحنة كهربائية من بطارية •
أى أن الشخص يصاب بالصاعقة في الحالة الأولى ويكتسب شحنة
من الكهرباء في الحالة الثانية ، إذا أمكننا أن نستخدم هذا التعبير • على
على أنه ليس من الضروري أن يكون كلا من المغزى الدينى والسحرى
الحجر متميزين على هذا النحو في أذهان المقسمين ، ذلك أن الغموض
والاختلاط يعدان من مميزات الفكر البدائى • وربما كان من واجبننا
على الدوام أن نحلل هذا الخلط الغريب الى عناصره •

ويبدو أن هذين الضربين المختلفين من التفكير ، أعنى التفكير
السحرى والتفكير الدينى قد تداخلا في حكاية العهد الذى تم بين يعقوب
ولابان عند ركاب الأحجار كما تروى في الكتاب المقدس • فمن الواضح
أن الطرفين المتعاهدين من ناحية ، قد خلعا صفتى الحياة والادراك
على الأحجار وعندما نادا عليها فى خشوع أن تشهد على اتفاقهم ، تماما
كما يبأل يوشع الحجر الكبير الذى كان يقع تحت شجرة البلوط لكى
يكون شاهدا على العهد الذى تم بين الرب التى تحدث بها الى بنى
اسرائيل • (١) فركام الأحجار أو الحجر الكبير الذى كان يوضع
منتصبا وسطها ، كان أشبه بتمثال « يانوس » (٢) الذى كان له رأسان
ينظر بهما فى اتجاهين لكى ينظر بعيون يقظة الى كل من الطرفين
المتعاهدين • ومن ناحية أخرى فربما كان أفضل تفسير لتناول الطعام

(١) من الأفضل أن نشير هنا الى نص التوراة وهو : « وكتب يوشع
هذا الكلام فى سفر شريعة الله • واخذ حجرا كبيرا ونصبه هناك تحت
البلوطة التى عند مقدس الرب • ثم قال يشوع لجميع الشعب : ان هذا
الحجر يكون شاهدا علينا لانه قد سمع كل كلام الرب الذى كلمنا به فيكون
شاهدا عليكم لئلا تجحدوا الهكم » .

(سفر يوشع • الاصحاح الرابع والعشرون آية ٢٦ ، ٢٧)
(المترجمة)

(٢) اله الأبواب والبدائيات عند الرومان •
(المترجمة)

على ركام الأحجار ، ان كان يمكن لهذا التفسير أن يكون سليماً ، هو أنه محاولة لإقامة علاقة ودية بين الطرفين المتعاهدين بتناولها طعاماً واحداً في الوقت الذي يدعم فيه عهدهما عندما يكتسب من الأحجار التي جلسا عليها ، صفتي القوة والصلابة •

وإذا كان القارئ الذي ينحو تفكيره إلى الشك ، ما زال يتشكك فيما إذا كانت الأرض التي يقف عليها الشخص يمكن أن تؤثر في قيمة القسم الأخلاقية ، فانني أذكره بعبارة « بروكوبيوس » التي يمكن أن تزيل شكه • فقد أخبرنا هذا المؤرخ المدقق عن طريقة استطاع بها ملك فارسي أن يستخلص الحقيقة من شاهد تآثر ضده وكان يميل • بل يسعى دائماً ، لأن يجنب بايमानه • فعندما اعتلى « باكوريوس » عرش بلاد الفرس مساورة الشك في أن « أرساكيس » ملك أرمينيا التابع له ، قد دبر ثورة ضده • فأرسل في طلبه وواجهه بخيانتته له • فرد ملك أرمينيا عن نفسه هذه التهمة بمهارة ، وأقسم بكل الآلهة بأن مثل هذا التدبير لم يطرأ على ذهنه قط • وعند ذلك دبر ملك الفرس خدعة أرشده إليها سحرته ، يتمكن بها من فضح الخائن ، فأمر بأن يفرش بلاطه الملكي بروث الحيوان ، بحيث يفرش نصفه بروث فارسي ، والنصف الآخر بروث أرميني ، ثم سار مع مواليه على هذه الأرض وهو يؤنبه على نواياه المخادعة • وهنا بدأ التناقض الغريب في دفاع الملك الأرميني عن نفسه ، إذ أنه كان كلما وطئت قدماه على الجزء المفروش بالروث الفارسي ، أقسم بأغلظ الأيمان بأنه أخلص خادم للملك الفارسي • ولكنه ما أن ينتقل إلى الجزء المفروش بالروث الأرميني حتى تتغير نغمة حديثه ، واذ به ينهال على مولاه ويهدده بالانتقام من اهانتته له ، ويعدد له ما يمكن أن يفعله ضده إذا ما استرد حريته • فإذا عاد وداس بقدمه جزء الأرض المفروش بالروث الفارسي عاد إلى تذله وتضرعه ، واستخدم كل أساليب التذلل في طلب العفو من مولاه • وبهذا نجحت الخدعة واقتضح الخائن • ولكنه لما كان

يجرى في عروق هذه الخائن الدم الملكى حيث أنه كان « أرساكيدي »
فان ملك فارس لم يأمر بقتله ، وانما عاقبه كما يعاقب الأمراء المذنبين ،
فحبس طيلة حياته في سجن يسمى « قلعة النسيان » • وسبب هذه
التسمية هو أن السجن اذا اجتاز مدخله الكئيب وأغلق الباب دونه ،
فلا ينبغي لأحد أن يذكر اسمه والا أعدم • وفي هذا السجن كان يدخل
الخائنون ويظلون به حتى تفسد أجسامهم ، وفي هذا السجن قضى
ملك أرمينيا الحانت باليمين بقية أيام حياته •

ويبدو أن عادة تشييد ركام الأحجار بوصفها شاهدا على العهد
لم تنقرض في سوريا حتى اليوم • فمن أشهر الأضرحة التي توجد
هناك ضريح هارون الذى يقع على جبل هور (١) • ويزور الحجاج هذا
المقبر ويتضرعون للنبي هرون أن يشفى مرضاهم ، ثم يجمعون الأحجار
ويشيّدونها في شكل قبوة لتكون شاهدا على الأيمان التي يقسمونها على
لسان مرضاهم •

(١) اسمه الحالى : جبل عكار —

P. Abel, op. cit., I, p. 302.

الفصل السابع

يعقوب عند مخاضة نهر اليبوق

بعد أن افترق « يعقوب » عن « لابان » عند ركام الأحجار ، سار في طريقه في رفقة زوجاته وأبنائه وقطعان ما شيعته ، متجها الى الجنوب ، تاركا وراءه جبال جلعاد الشاهقة الباردة التي تكسوها الغابات ، وشق طريقه في ربوع وادي ييوق العميق الذي يقع على بعد آلاف الأقدام أسفل الجبل . والهبوط الى هذا الوادي من فوق قمم الجبال يستغرق عدة ساعات . فاذا وصل المسافر الى أسفل تلك الوهدة العميقة بعد هذه الرحلة الشاقة ، فإنه يشعر أنه قد مر في أجواء طبيعية مختلفة ، فمن الجبال العالية التي يهب فيها النسيم البارد وتغطيها غابات الصنوبر يهبط الى قرية « برمة » ذات الجو الصحي المنعش خلال مسافة ساعة من الزمن ، حيث تنتشر أشجار الفاكهة والشجيرات والأزهار ، وحيث يطفئ المسافر ظمأه من المياه الباردة التي تتدفق من نبع جميل عندما يخلد للراحة في الظهيرة . فاذا استمر في الهبوط فإنه يسير منحدرًا الى مسافة ألفي قدم حيث يشعر بأنه يتنسم الهواء الحار وسط مزروعات غنية شبه استوائية تنتشر في أعماق وادي نهر ييوق الكبير . وهذا الأخدود موحش ورائع كل الروعة ، وعلى جانبيه ترتفع الصخور في شكل عمودي على وجه التقريب الى ارتفاع شاهق . فاذا نظرت الى أعلى من خلال الصخور النائقة أو المنحدرات ، فإن بصرك يصطدم بزرقة السماء . أما عند أسفل هذا الأخدود العتي ، فيتدفق نهر اليبوق بتياره القوي . وتختفي مياهه الزرقاء ، وإن يكن

لمسافة قصيرة ، وسط غابة كثيفة من أشجار الدفلى الطويلة التى تضى
أزهارها القرمزية لونا ذهبيا على الوهدة فى الصيف البكر • ويجرى
النهر الأزرق ، كما اصطلح على تسميته اليوم ، فى سرعة وقوة ، اذ قد
يصل ارتفاع مياهه ، حتى فى الأيام العادية الى سرج الفرس ، بل
انه فى بعض الأحيان يتعذر الخوض فى مجراه حيث تفيض مياهه على
الأعشاب والأحراش التى تنمو على شاطئيه المرتفعين • وطريق
الصعود من مخاضة النهر عند الجهة المقابلة له ، أى فى الجانب
الجنوبى ، منحدر للغاية ، ذلك أن الطريق يلتف فى أثناء صعوده ،
بحيث يتحتم على المسافر أن يترجل ويقود حصانه • وفى هذا الطريق
المساعد الطويل كان يعقوب يسير وحده متلکئا الى جانب المخاضة وقت
الغسق ، وهو يرقب البعير المتعب ويسمع صياح الرعاة وقد أخذت
أصواتهم تخفت فوقه شيئاً فشيئاً ، حتى اختفى مرآهم كما اختفت
أصواتهم على البعد وفى الظلام •

وربما ساعدنا هذا المنظر على تصور المغامرة الغريبة التى خاضها
يعقوب عند عبوره النهر • وكان قد أرسل قدامه زوجاته وأولاده
وخادماته ليخوضوا النهر على ظهور الجمال • أما قطعان ما شيتته
ورعاتها فقد سبقت القافلة أو لحقت بها • وبذلك بقى يعقوب وحده فى
مخاضة النهر • ولقد كان الوقت ليلاً ، وكانت ليلة من ليالى الصيف
يسطع فيها القمر فيما يبدو ، اذ لم يكن من المعقول أن يحاول يعقوب
عبور النهر بهذه القافلة الطويلة فى الظلام ، أو فى الشتاء ، عندما يكون
مجرى النهر سريعاً وعميقاً • ومهما يكن الأمر فقد بدا ليعقوب رجلاً
أخذ يناضل مع يعقوب طوال الليل حتى بزغ الصباح وأخذ ضوؤه
يتسرب الى ذروة الغابات التى تنتشر فى أعلى جوانب الوادى فوق
الرجلين المتصارعين فى ظلا الوادى • ثم نظر هذا الشخص الغريب
الى أعلى وأبصر الضوء فقال ليعقوب : «أطلقنى لأنه قد طلع الفجر» (١) •

وعلى هذا النحو كذلك انتزع جوبيتر نفسه من بين الأذرع « الخمين »
 المغرمة به قبل تتروغ الغسق ، كما اختفى شبوح والد « هملت » عند
 صياح الديكة • وكذلك حذر مفيستوفيليس فاوست وهو في سجنه
 وضربات المشنقة ترن في أذنه ، أن يسرع لأن النهار ، وهو آخر نهار
 في حياة « جريتشى » قد أوشك على المبروع • ولكن يعقوب تعلق بالرجال
 الغريب وقال له : « لا أطلقك ، ان لم تباركنى » (١) وعند ذاك سأله الرجل
 الغريب عن اسمه ، وعندما ذكر يعقوب اسمه أجابه هذا الشخص قائلاً :
 « لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل لأنك جاهدت مع الله
 والناس وقدرت » (٢) • ولكن عندما استفسر يعقوب عنه قائلاً :
 « أخبرنى باسمك » (٣) • رفض هذا الرجل أن يذكر اسمه ولكنه منح
 يعقوب البركة التى طلبها واختفى • وعند ذاك أطلق يعقوب على هذا
 المكان اسم « فنيئيل » أى « وجه الرب » • فلقد فسر هذا الاسم
 بقوله : لأنى نظرت الله وجها لوجه ونجيت نفسى » (٤) • وسرعان
 ما أشرقت الشمس بعد ذلك وسطعت على وجه يعقوب • ولكنه وجد
 نفسه يعرج إثر ذلك ، اذا كان خصمه قد مس عظمة فخذه فى أثناء صراعه
 معه • « لذلك لا يأكل بنو إسرائيل عرق النساء الذى على حق الفخذ
 الى هذا اليوم ، لأنه ضرب حق فخذ يعقوب على عرق النساء » (٥) •

والقصة على هذا النحو تبدو غامضة ، ومن المحتمل ان مؤلفى سفر
 التكوين قد أغفلوا بعض ملامحها الأساسية عندما اشتموا فيها رائحة
 الوثنية • ومن ثم فان أى تفسير لها انما يعتمد على الفرض • ولكننا
 اذا ربطنا هذه القصة باللامح الطبيعية للمكان الذى جرت فيه حوادثها

-
- (١) سفر التكوين • نفس الاصحاح والآية •
 - (٢) سفر التكوين • نفس الاصحاح آية ٢٨ •
 - (٣) سفر التكوين • نفس الاصحاح آية ٢٩ •
 - (٤) سفر التكوين • نفس الاصحاح آية ٣٠ •
 - (٥) سفر التكوين • نفس الاصحاح آية ٣٢ •

من ناحية ، واذا ربطناها بالأساطير الأخرى المشابهة لها التى سنعرض لها وشيكا من ناحية أخرى • فاننا نفترض بادىء ذى بدء أن هذا الغريم الغامض الذى تصارع معه يعقوب هو روح النهر أو شيطانه ، وأن صراع يعقوب معه كان من أجل انتزاع البركة منه • وهذا يفسر سبب تخلف يعقوب عن قافلة النساء والأطفال وقطعان الماشية ، وبقائه وحده فى الظلام فى مخاضة النهر • وربما حسب يعقوب أن اله النهر المنعزل يفرع من وقع أقدام القافلة وأصوات خوضها المياه ، فيدفعه هذا لأن يختفى فى بحيرة عميقة ، أو بين أشجار المدفل التى تنمو على مسافة آمنة بعيدة ، حتى اذا ما مر الراكب وساد الهدوء النهر فيما عدا صوت التيار الرتيب الهامس ، دفعه الفضول لأن يخرج من مخبئه ليستطلع أحوال النهر ، ويعرف سبب هذا الهرج والمرج • وعند ذاك يكون يعقوب الماكر فى انتظاره ، فينقض عليه ويتشبث به حتى يحصل منه على البركة التى يسعى اليها • وقد أمسك « مينيلوس » على هذا النحو باله البحر « بروتئوس » الذى كان يرقد منعزلا وقت الظهيرة بين الحواجز وفوق الرمال الصفراء ، ليرغمه على أن يخبره بتكهناته وهو ممتنع عن ذلك • وعلى هذا النحو كذلك أمسك « بيليوس » بالهة البحر « ثيتيس » واتخذها زوجة له • وفى كلتا الأسطورتين الاغريقتين حاول روح الماء ذو الجسد المطيع الأملس ، أن ينزلق من قبضة أسره مرة بعد الأخرى مغيرا شكله من أسد الى حية ، ومن حية الى سائل وهكذا ، حتى وجد فى النهاية أن محاولاته تضيع هباء وأنه ان ينجح فى الانفلات من يد خصمه العنيد ، فريضخ لمطلبه وأعطاه المنحة التى يسعى اليها • وكذلك حول اله النهر أشيلئوش نفسه الى حية ثم الى شبح لكى ينفلت من البطل الجرىء هرقل الذى أمسك به لكى يستولى على « ديجانيرا » الجميلة ، ولكن محاولات آله النهر ضاعت هباء •

وكل هذه الأساطير المشابهة لأسطورة يعقوب تؤكد أن غريم يعقوب فى الرواية الأصلية لهذه الحكاية قد حاول أن يغير شكله لكى يهرب من أسره اللوح • وربما اتضح أثر هذا التحول فى الحكاية

التي تحكى عن ظهور الرب للنبي « اليا » عند جبل « حوريب » • فربما تحول الرب المتمنع في الشكل الأصلي لهذه الحكاية الجلية الى ريح وزلزال ونار على التوالي لكي يهرب من النبي ، ولكنه هزم أمام اصراره ، وكشف له عن نفسه في صوت خافت رقيق (١) • ذلك أنه من الملاحظ أن أرواح المياه لا تنفرد من بين الكائنات الخارقة للعادة بمنحها البركة أو النبوءة لهؤلاء الذين ينتظرونها ويمسكون بها • فقد قيل ان الاله « الفريجيانى » « سيلينوس » كان يمتلك على الرغم من عاداته الطائشة ، مقدرة كبيرة على المعرفة التي لم يكشف عنها مضطرا الا الى « بروتيوس » • وقد استطاع « ميداس » ملك « فريجيا » أن يمسك بهذا الاله في لحظة ضعف ، عندما قدم له الملك خمرا ممزوجا بماء نبع بعينه ، فشربه متلظفا • فلما صحا من سكره وجد « سيلينوس » نفسه أسيرا ، وكان عليه أن يؤنب الملك بحديث طويل عن الدنيا وغرور الانسان ، حتى أطلق الملك سراحه • وقد احتفظ لنا بعض كتاب العصر القديم المبجلين بنص دقيق في قاييل أو كثير لتلك الخطبة التي ألقاها الاله السكير المرح بجانب نبع أو بجانب من الزهور • كما قيل أن « نوما » قد أمسك بالالهين الساذجين « بيكوس » و « فانوس » عن طريق خدعة شبيهة بخدعة ميداس وارغماهما على أن يأتيا « بجوبيتر » من السماء عن طريق سحرهما وتعاويذهما •

وربما استطعنا أن ندعم وجهة نظرنا في أن خصم يعقوم الذى ظهر له عند مخاضة نهر اليبوق ، هو إله النهر نفسه ، اذا لاحظنا أنه كان من عادة كثير من الشعوب استرضاء أرواح الأنهار التي تخشى

(١) « واذا بالرب عابر وريح عظيمة وشديدة قد شقت الجبال وكسرت الصخور أمام الرب • ولم يكن الرب في الريح • وبعد الريح زلزلة ولم يكن الرب في الزلزلة • وبعد الزلزلة نار ولم يكن الرب في النار وبعد النار صوت منخفض خفيف • (سفر الملوك الاول — الاصحاح التاسع عشر من آية ١١ — ١٣) •

لخطورتها وثقلها • وينصح « هيزود » من يعبر النهر قائلاً : « عليك قبل أن تعبر النهر ، أن تنظر الى المياه الجارية وأن تصلى وتغسل يديك ، لأن من يخوض النهر دون أن يغسل يديه ، فانه يتعرض لغضب الآلهة » • وعندما عزم « كليومينيس » ملك اسبرطة على غزو « أرجوليس » ، جاء بجيشه عند شواطئ « أراسينوس » . وقدم ضحية للنهر • ولكن النبوءة نصحت بعدم عبور النهر • عند ذاك ، أشار الملك أنه على الرغم من اعترافه بوطنية اله المياء في عدم خداعه قومه • فانه يصر على غزو « أرجوليس » • ثم قاد جيشه الى الشاطئ وقدم ثورا ضحية للنهر ونقل جيشه في سفن الى بلاد العدو • وعندما تجمع الفرس تحت زعامة « اكسيركس » عند نهر « ستريمون » قدم المايجيانيون أفراسا بيضاء ضحية للنهر كما قاموا بشعائر أخرى قبل عبوره • وبالمثل قدم « لوبسولوس » على رأس الجيش الروماني ثورا ضحية لنهر الفرات قبل أن يعبره • وكان « البروثيانيون » يقفون على شاطئ النهر ويأخذون جرعة منه ويشربونها ثم يتضرعون لاله النهر لكي يدعهم يعبرونه أو لكي يمنحهم السمك ، وبعد ذلك يرمون فيه حبوب الذرة لاسترضائه • بل ان الهنود الكولاديلارين ما زالوا حتى اليوم يقومون بشعيرة تجرع جرعة من مياه النهر قبل أن يعبروه سيرا على الأقدام أو ممطين ظهور الأفراس • وكان سكان ويلز القدماء « يدقون الأرض بأرجلهم ثلاث مرات قبل أن يعبروا المجرى المائي في الظلام ، وذلك لكي يحولوا عنهم غضب الأرواح والسحرة » •

وتعتقد قبائل البانتو التي تسكن في افريقيا الجنوبية الشرقية أن « الأنهار تسكنها الشياطين أو الأرواح الشريرة ، ومن ثم كان من الواجب استرضاء هذه الأرواح قبل عبور مجرى مائي مجهول لديهم ، وذلك بالقاء حفنة من الذرة فيه أو أى شيء آخر ، وان لم تكن له أية قيمة فعلية » • وعندما يعبر الماسيون الذين يسكنون افريقيا الشرقية مجرى مائيا ، فانهم يرمون فيه بعض الحشائش بوصفها هبة له ، ذلك لأن الحشائش التي تعتمد عليها ماشيتهم في غذائها ، تلعب دورا

أساسيا في معتقدات الماسيين وطقوسهم • وقبل أن يخوض المسافر النهر عند « الباجانديين » الذين يسكنون افريقيا الوسطى ، فإنه يسأل روح النهر أن يجعل عبوره آمنا ، ثم يرمى له ببعض حبوب البن منحة له • فإذا جرف التيار شخصا الى عرض الماء ، فإن أصدقاءه لا يحاولون انقاذه ، لأنهم يخشون أن يأخذهم روح النهر كذلك إذا ما حاولوا انقاذ صديقهم الغريق ، ذلك أنهم يعتقدون أن الروح الذي يحرس هذا الشخص قد تركه تحت رحمة روح النهر ، ومن ثم فهو ميت لا محالة • وقد كانت توجد في أماكن معينة عند نهري « ناكيزا » و « سيزيوا » في أغوندا كومة من الأعشاب والعصى على كل من شاطئيه ، وكان كل من يعبر أحد النهرين يطرح بعض الأعشاب أو العصي على تلك الأكوام قبل أن يعبر النهر • وكان هذا بمثابة منحة لروح النهر حتى تضمن له عبوره الآمن • وكان الناس بين الحين والآخر يضعون عند هذه الأكوام منحا أعلى ثمنا ، كأن يحضرون معهم بعض الجعة أو حيوانا أو دجاجة أو بعض الأقمشة المصنوعة من لحاء الشجر ، ويربطون هذه الأشياء في كومة الأعشاب أو العصي ويتركونها هناك ثم يرحلون بعد أن يصلوا لروح الماء • بل ان الكاهن كان يقوم بواجب التقديس لهذين النهرين، وان لم تكن توجد هناك معابد لهذا الغرض • وقد اشتهرت عشيرة « بين » بصفة خاصة بعبادتها لنهر « ناكيزا » ، وكان شيخ هذه العشيرة هو الكاهن • فإذا فاض النهر ، لم يكن يحاول أى فرد من أفراد هذه العشيرة أن يخوض في النهر ، وكان الكاهن يمنعهم في صرامة من العبور ، ومن كان يفعل ذلك منهم كان يقتل •

ويعترض مجرى نهر النيل عند مكان ما في أعاليه يسمى « شلالات كاروما » ، صف من الأحجار العالية • وهناك تنحدر المياه عبر منحدر طويل أشبه بالبوابة الى عمق عشرة أقدام • وتحكى الرواية الشعبية أن هذه الاحجار وضعها « كاروما » الذي كان وسيطا أو أليفا للروح الكبير في هذا المكان • فسر الروح الكبير بهذا الحاجز الذي شيده

خادمه وكافأه بأن أطلق اسمه على هذه الشلالات • وقد تعود ساحر أن يقف عند هذا المكان ليقود مثل هؤلاء الأتقياء الذين يودون عبور النهر • وعندما كان « سبيك » ورفقاؤه يعبرون نهر النيل عند هذا المكان ، ذبحت جماعة من « البانييوريين » الذين كانوا يسافرون معه ، جديا عند كل شاطئ من شاطئيه بعد أن شقه طوليا وسط صدره وأمعائه ، ثم بسطوا الجديين على ظهريهما فوق الحشائش وفرو الشجر على نحو ما ييسط النسر ، ثم خطت فوقهما الجماعة المسافرين حتى تضمن نجاح رحلتها • وقد قام ساحر الشلالات بتوجيههم الى المكان المناسب لتقديم الضحية •

ويعد نهر « اثورى » أحد الروافد العليا لنهر الكنغو ، الحد الفاصل بين الأرض العشبية والغابة الكبيرة • « وعندما كنت على وشك أن أعبر بقاربى المياه الزرقاء المتدفقة فى سرعة ، تلك التى يبلغ اتساع مجراها مائة وخمسين ياردة ، أبصرت على الشاطئ المقابل لى شكلين مصغرين لبيتين بنيا عند حافة النهر تماما ويشبهان فى كافة تفصيلاتهما أكواخ الفلاحين • وقد أعرض الزعيم الشيخ عن أن يفسر لى مغزى هذين البيتين ، ولكننى أخبرت بعد لئى أنهما قد شيذا ليكونا هيئتا للزعيم السالف الذى أمر بأن يعوض أرواح النهر عن الجهد الذى تبذله فى حراسة طرق الذين يعبرون النهر • ومنذ ذلك الوقت ، عندما توشك قافلة على العبور عند شاطئ النهر ، يحمل قليل من الطعام الى بيتى الأشباح اشارة لهم بأن القافلة تطلب حمايتهم لعبور النهر » • ويقوم « الأبويون » الذين يسكنون اقليم « أوكا » فى نيجيريا الجنوبية بذبح شاة ودجاجة وتقدمها ضحية للنهر ، اذا كانوا يقومون بدفن جثة ميت ، وكان عليهم أن يحملوها عبر النهر » •

ويعتقد الباداجيون وهم قبيلة تسكن تلال « نيلجهيرى » فى الهند الجنوبية فى وجود إله يسمى « جانجاما » « يتواجد عند كل مجرى مائى بخاصة عند نهري « كوندى » و « بيكار » • وقد كان من عادة

كل مالك لقطيع من الماشية أن يرمى في هذين النهرين ، إن شاء أن يعبرهما في أثناء فيضانهما ، بربيع روبية ، إذ كان يحدث دائما أن يجرف تيارهما قطعان ما شيتهم ويغرقاها • ومن بين الآثام الكبيرة التي كانت تعدد للشخص المتوفى في أثناء القيام بشعائر جنازته ، أنه قد عبر النهر دون أن يدفع دية الولاء للاله جانجاما » • وكذلك كان ينظر « المتودايون » وهم قبيلة صغيرة ، وإن تكن أكثر شهرة من سائر القبائل التي تسكن هذه التلال نفسها ، إلى نهري « تاياكه — بايكارا » و « باكهوار — أفالانشي » بوصفهما الهين أو مأوى الهين • وقد كان يتحتم على كل من يعبر هذين النهرين أن يخرج يديه من ردائه علامة على المتبجيل • وفي الزمن الماضي لم يكن يسمح للناس بعبور هذين النهرين إلا في أيام محددة من الأسبوع • فإذا عبر هذين النهرين المقدسين رجلان يكونان ابنين لأخ وأخته ، فإنه يتحتم عليهما أن يؤديا شعائر خاصة ، فإذا اقتريا من أحد النهرين فانهما يقطفان بعض الحشائش ويمضغانها ، ويقول أحدهما للآخر : « هل سأنتصر على النهر ؟ هل سأتمكن من عبور النهر ؟ » • ثم يذهبان إلى الشاطئ ، ويغمس كل منهما يده في الماء ثلاث مرات ويملؤها بالماء ويرميها بعيدا عنه • ثم يعبران النهر بعد ذلك وقد أخرج كل منهما يده خارج ردائه على النحو المألوف •

وقد أحرقت جثة زعيم مشهور من قبيلة « أنجونى » التي تسكن أفريقيا الوسطى البريطانية ، بجوار نهر من الأنهار • بل إنه من عادة هذه القبيلة حتى اليوم أن يحيوا النهر عند عبورهم له بتحية عميقة تخرج من أعماق حناجرهم ولا يحيون بها إلا ملوكهم • وإذا عبر أحدهم أى نهر من الأنهار في قارب ، فإنه يعترف أمامه بكل آثام خيانتة التي كان متهم بها في حق رفاقه • وهو يفعل هذا فيما يبدو ، بناء على تصويره أنه إن لم يفعل هذا فسوف يغرق في النهر • ويعتقد « التروود — جانيون » الذين يسكنون « سيليبيس الوسطى » أن أرواح المياه التي تتقمص أشكال حيات تسكن البحيرات العميقة ومنحدرات الأنهار •

ومن ثم فإن الناس يتخذون حذرهم من هذه الكائنات الخطيرة • فاذا كان الترورادجى على وشك أن يقوم برحلة عبر النهر ، فإنه غالبا ما يصيح وهو واقف على المشاطىء ويقول : « لن أقوم بهذه الرحلة اليوم ، سأقوم بها غدا » • فاذا استمعت الأرواح الى هذا القول ، وكان من بينهما روح يتربص بالمسافر ، فإن هذا الروح يصدق أن رحلة هذا الرجل قد تأجلت. حقا الى الغد ، ومن ثم فهو يؤجل كذلك طعنته له الى اليوم التالى • وفى أثناء ذلك يهبط التروود جانبا الماكر الى النهر فى هدوء ، وهو يسخر فى أكمامه من سذاجة روح الماء الذى استطاع أن يخدعه •

وعلى الرغم من أن الأسباب الحقيقية التى تدعو الى اتباع هذه العادات التى تختص بتقديس الأنهار ستظل مجهولة لنا ، إلا أنه يبدو أن الدافع العام وراء اتباعها هو الخوف والفرع من الأنهار التى ينظر اليها إما على أنها كائنات مشخصة قوية أو انها مأوى لأرواح قوية • وتتضح كل الموضوع فكرة أن النهر كائن مشخص فى هيئة نهر من خلال عادة تنتشر بين « الكاكهيين » الذى يسكنون بورما الشمالية • فاذا حدث ان غرق أحدهم فى النهر فى أثناء عبوره ، فإن الشخص الذى يقع على عاتقه الانتقام من النهر يتردد على شواطئ النهر الآثم مرة كل عام ، ويملا وعاء بمائه ويضربه بسيفه كما لو كان يضرب عدوا آدميا • وقد حدث ذات مرة فيما يقال ، أن غاض نهر النيل حتى غطى الأرض بمقدار ثمانية عشر زراعا ، وأخذت الرياح القوية تقذف بالأمواج على بعد ، وعند ذلك أمسك فرعون برمحه وأخذ يضرب به التيار الجارف ، ولكنه عوقب بسبب اندفاعه وقلة ورعه بفقد بصره • ومرة أخرى نقرأ أنه عندما سار « كيروس » لغزو تابل ، وكان يعبر نهر « جينديس » ، جرف التيار أحد أفراسه البيضاء المقدسة التى كانت تصاحب الجيش فى مسيرته وأغرقه • فهدد المالك النهر وهو فى ثورة غضبه من ارتكاب النهر لهذا الجرم ضد مقدساته ، بأن يجعل مياهه ضحلة حتى يمكن المرأة أن تخوض فيها دون أن تبتل ركبناها • وبناء

على ذلك أمر جيشه بحفر قنوات تحولت اليها مياه النهر من مجراه الرئيسي • وبهذا انشغل الجيش طوال الصيف في تحقيق الرغبة الطفولية لهذا الطاغية المستطير ، بدلا من أن ينشغلوا بغزو بابل •

وليست أرواح الأنهار هي الكائنات الالهية الوحيدة التي حاربها الرجال الجريئون أو عاقبوها • فعندما أطاحت العاصفة بأول جسر شيده « اكسيركس » عند « هيليس بونت » ليمر عليه جيشه ، أصدر الملك حكمه على المضيق في ثورة من غضبه بأن يضربه ثلاثمائة ضربة وأن يقيده بالسلاسل • وبينما كان الناس ينفذون هذا الحكم ويضربون المياه بأسواطهم ، كانوا يصيحون : « أينها المياه المرة ، ان سيدك قد أنزل بك هذا العقاب لأنك أخطأت في حقه ، وهو الذي لم يسبق له أن أخطأ في حقك • وسوف يعبرك الملك اكسيركس طوعا أو كرها • وانك لتستحقين الا يقدم أحد لك التضحية لأنك مياه مخادعة ومذاقك مر » • وقد قيل : أن الكلتيين القدماء كانوا يخوضون وسط الأمواج وهي تتخبط على الشاطئ ، ويضربونها بسيوفهم ورماحهم ، كما كانوا يريدون اصابة المحيط نفسه بجراح أو بث الرعب في نفسه • ويحكى التروودجايون الذين يسكنون « سيليبس الوسطى » أن قبيلة من قبائلهم كانت تشتهر بتصرفاتهم الحمقاء ، جاءت الى شاطئ البحر في أثناء جزره ، وابتنوا في الحال كوخا عند شاطئ المياه مباشرة • فلما جاء مد البحر ، وهدد الكوخ ، تصوروا أن البحر كائن مهول يريد أن يبتلعهم ، ومن ثم فقد حاولوا تهدئة غضبه بأن رموا له بكل مؤونة أرزهم • ولكن لما استمر المد في الازدياد ، هبوا على الماء بسيوفهم ، ورماحهم وسكاكينهم القاطعة ، بقصد اصابة الكائن الخطير بجراح أو إفزاعه حتى يضطر الى التراجع • كما حدث ذات مرة أنه عندما كانت جماعة من « الأرافووين » ، وهم قبيلة جبلية تسكن الساحل الشمالى التابع انغينيا الجديدة المتابعة للاحتلال الهولندى ، تلهو بين الأمواج ، جرفت منحصرة ثلاثة منهم وأغرقتهم • ولكى ينتقم رفقائهم لغرقهم ، صوبوا بنادقهم وسهامهم ورماحهم عدة

ساعات الى الأمواج المتلاطمة • وربما مكنتنا هذه الحكايات التي
تشخص المياه بوصفها كائنات حيا يمكن أن يعثره الفرع وأن تقهره
القوة الجسدية ، من تفسير مغامرة يعقوب الغريبة عند مخاضة نهر
الييوق •

أما ما يحكى من أن يعقوب أصيب في عصب معين في فخذه اثناء
صراعه مع خصمه الذى ظهر له في اثناء الليل ، فمن الواضح أنها
محاولة لتفسير امتناع العبريين عن أكل الجزء المقابل لهذا عند الحيوان •
وكل من هذه الحكاية وتلك العادة ، لها ما يماثلها لدى بعض القبائل
الهندية التى تسكن أمريكا الشمالية ، هؤلاء الذين يقطعون على الدوام
باطن ركبة الغزال الذى يذبحونه ويرمونها • ويقدم الهنود المثيروكيون
سببين لاتباع هذه العادة : أولهما « أنه عندما يتمزق هذا العصب ،
يتقلص داخل اللحم ، ومن ثم فكل من يأكل ، لسوء حظه ، من هذا
الجزء فان أطرافه تتقلص على هذا النحو » • أما السبب الثانى فهو
أنه اذا أكل الصياد هذا الجزء ولم يفصله ويرمه ، سرعان ما يحل
به التعب في رحلته ، وكلا السببين يشير الى عقيدة سحر المشاركة ،
وان كان مفعول السحر يختلف في كلا السببين ، فالسبب الأول يفترض
أنه اذا أكل شخص من الجزء الذى تقلصت العضلة بداخله ، فان الجزء
المقابل لذلك في جسم الانسان يتقلص كذلك • أما السبب الثانى فيبدو
أنه يفترض أنك اذا قطعت العصب الذى لا يستطيع الغزال السير
بدونه ، فانك بالمثل تكون عاجزا عن السير على هذا النحو • وكلا
السببين يرتبط كل الارتباط بفلسفة الانسان البدائى • وربما كان
أحد التفسيرين كافيا لفهم مثل هذا التحريم عند العبريين • ويمدنا
سفر التكوين ، وفقا لهذه النظرية ، بقانون دينى لعادة كانت تتركز في
الأصل على عقيدة سحر المشاركة وحدها •

وحكاية صراع يعقوب مع الشيخ الذى ظهر له في الليل ، بقصد
انتزاع البركة من خصمه المتمنع قبل الغسق ، لها ما يناظرها في خرافات

المكسيكيين القدماء • فقد كان هؤلاء يعتقدون أن الاله الكبير « تركاتلييوكا » تعود أن يتجول في أثناء الليل في هيئة مارد يلتف في ملاءة ذات لون ومادى ويمسك رأسه بيديه • وعندما أبصر الناس الجبناء هذا الشبح المخيف • سقطوا على الأرض مغشياً عليهم ، وماتوا اثر ذلك • على أن رجلاً شجاعاً من بينهم أمسك بالشبح وأخبره بأنه لن يتركه يرحل حتى تشرق الشمس • فتوسل الشبح اليه أن يتركه ، وهدده بأنه ان لم يفعل ذلك فسوف يحل عليه اللعنة • وكان على الرجل ان شاء أن ينتصر على الشبح المخيف ، أن يظل ممسكاً به بشدة الى أن توشك الشمس على البزوع • فاذا نجح في هذا غير الشبح من نعمته ، ووافق على أن يمنح الرجل أى هبة يطلبها مثل الثروة والقوة التى لا تقهر ، بشرط أن يرفع الرجل يده عن الشبح ويدعه يرحل قبل الغسق • وقد تسلم الانسان المنتصر من خصمه المهول الذى انهزم في مشادة عنيفة مع الانسان أربع شوكات من نوع معين علامة على نصره • وطبيعى أن مثل هذا الرجل الجرىء ينتزع قلب الشبح من صدره ويلفه في قطعة من القماش ويحمله معه الى بيته • ولكنه عندما عاد الرجل بغنيمته الى بيته ، وخلع النقاب عنها لم يجد شيئاً سوى بعض الريش الأبيض أو شوكة أو ربما حفنة من الرماد أو طنفسة مهلهلة •

الفصل الثامن

قدح يوسف

عندما جاء اخوة يوسف الى مصر ليحصلوا على القمح في أثناء فترة المجاعة ، وكانوا على وشك أن يعودوا الى فلسطين ، أمر يوسف أتباعه أن يخفوا قدحه الفضي الذي يشرب منه في جوال أخيه بنيامين . وما كاد الاخوة يخرجون من المدينة ، وأصبحوا على بعد خطوات منها ، حتى أرسل يوسف خادمه في أثرهم متهما اياهم بسرقة القدح . ومن ثم أخذ يبحث في أجولتهم حتى عثر على القدح المفقود في جوال بنيامين . وعند ذاك أخذ الخادم يعنف الاخوة على نكرانهم لجميل سيده الذي عاملهم في كرم ، فاذا بهم يقابلون هذه المعاملة الطيبة بسرقة قدحه الثمين . ثم قال لهم الخادم « لماذا جازيتم ثرا عوضا عن خير . أليس هذا هو الذي يشرب سيدي فيه وهو يتفائل به . أسأتم ما صنعتتم (١) » وعندما رجع الاخوة الى يوسف أعاد عليهم هذه العبارات التأنيبية وقال لهم : « ما هذا الفعل الذي فعلتم : ألم تعلموا أن رجلا مثلي يتفائل (٢) » . ويمكننا أن نخلص من هذه العبارة أن يوسف كان يتباهى بصفة خاصة بمقدرته على اكتشاف المص عن طريق قدح التكهن .

وليست عادة استخدام القدح وسيلة للتكهن بالعادة غير المألوفة

(١) سفر التكوين الاصحاح الرابع والاربعون آية ٤ ، ٥ .
(٢) نفسه .

في الزمن القديم والحديث معا ، وإن اختلفت طريقة استخدامه لهذا الغرض • فنحن نقرأ أن الفيلسوف « ازيدوروس » الذي كان من أتباع مدرسة الأفلاطونية الحديثة ، تقابل مع امرأة متدينة كانت تمتلك مقدرة غريبة على التكهّن • وقد تعودت هذه المرأة أن تصب ماء رائقا في قدح زجاجي ، وتتنبأ من خلال ما يترأى لها في المياه بالحوادث التي ستحدث في المستقبل وقد كان التكهّن عن طريق النظر في الماء يعد نوعا من أنواع التكهّن ، وقد أطلق عليه الاغريق اسم « هيدرومانتيا » • وفي بعض الأحيان كان يوضع في الماء حجر كريم من نوع معين لكي يستحضر عن طريقها صور الآلهة • وقد قيل ان الملك « نوما » كان يتكهّن عن طريق صور الآلهة التي كانت تبدو له في الماء ، وأنه كان يستخدم قدحا لهذا الغرض • ومن المحتمل أكثر من ذلك أنه كان يرى صور الآلهة على صفحة مياه النبع المقدس « ايجيريا » ، وذلك عن طريق الروح الذي كان مقترنا به • وعندما كان « التراليون » الذين كانوا يسكنون « كاريا » يرغبون في التحقق من نتيجة الحرب « الميثريداتية » ، كانوا يستخدمون صبيا يعلن ، عندما يحملق في الماء ، أنه يرى صورة الاله « مير كوري » ، ثم يتغنى من خلال الكشف الالهي بالحوادث المستقبلية ، بمائة وستين بيتا من الشعر • وقد قيل ان الفرس كانوا يشتهرون بمقدرتهم على التكهّن من خلال النظر في الماء ، وقد انتقلت هذه الطريقة في التكهّن الى الغرب عن طريقهم بحرف •

على أننا ليس لدينا علم بالطريقة التي اتبعها يوسف في الكشف عن السارق أو أية أمور أخرى عن طريق قدحه السحري ، ولكننا نعتقد أنه كان يستمد استدلالاته عن طريق الصور التي كانت تترأى له في الماء • ومن المؤكد أن هذه الطريقة في التكهّن لا تزال تتبع في مصر ، وربما كانت منتشرة في هذا البلد المحافظ على التقاليد منذ العصور القديمة • والاسم الحديث لهذه الطريقة في التكهّن هو « المرأة السحرية » • « وهي تستخدم على نطاق واسع على النحو التالي :

يطلب من غلام ساذج (لا يزيد عمره على اثني عشر عاما) أن ينظر في قدح مملوءا بالماء ومنقوش عليه بعض العبارات ، بينما تلصق في غطاء رأسه من الداخل ورقة منقوش عليها كتابات كذلك وتتدلى فوق جبينه • ثم يعطر هذا الغلام بالبخور بينما يتمم المشعوذ ببعض العبارات • فإذا سئل الغلام بعد وقت عما يراه في القدح ، فإنه يقول انه يرى شخصا تتحرك في الماء كما لو كانت تتحرك في مرآة • عند ذاك يطلب منه المشعوذ أن يصدر أوامر للروح بأن تنصب خيمة على سبيل المثال ، أو أن تحضر القهوة والعليون ، فتلبى هذه المطالب في الحال • ثم يطلب المشعوذ من المتفرجين المفضولين أن يذكروا اسم شخص يرغبون في أن تظهر صورته على صفحة الماء فيذكروا له اسم شخص حي أو ميت • وعند ذاك يأمر الغلام الروح أن تحضر له هذا الشخص • وفي لحظات تظهر صورة هذا الشخص على صفحة الماء ويأخذ الغلام في وصفه • ولكن الأوصاف التي يسردها كما رأينا ذلك بأنفسنا ، تبتعد دائما عن الحقيقة • فإذا توجه لـغلام بذلك اعتذر بأن الصور التي ظهرت أمامه لم تتوسط القدح ، وظل نصفها دائما مختفيا • على أنه كان يرى في أحيان أخرى صور الشخص كما هي ، بل كان يراها متحركة • وإذا حدثت سرقة ، سئلت المرأة السحرية في بعض الأحيان عن السارق كما شاهدنا ذلك بأنفسنا في إحدى المناسبات • (ويطلق على هذه العملية اسم ضرب « المندل » • وفي هذه المناسبة اتهم الصبي شخصا ثبتت براءته كلية بعد ذلك ، ولكن الصبي اتهمه عمدا بالسرقة ، كما اتضح لنا ، رغبة في ايذائه • ولهذا السبب فقد كافحت الحكومة هذه الشعوذة التي كانت منتشرة على نطاق واسع فيما مضى • ومع ذلك فإن الناس ما زالوا يمارسونها حتى اليوم •

وقد تكون المرأة السحرية التي تستخدم في التكهن في مصر حبرا يصب في راحة يد المشعوذ بدلا من كونها قدحا ممثلا بالماء ، ولحسن الاجراءات التي تتبع في كلتا الحالتين واحدة • فالشعوذ يدعى أنه يرى

صور الأشخاص التي يطلب المتفرج استحضارها ، أحياء كانوا أم أمواتا . كما تستخدم مرآة الجد السحرية في الكشف عن السارق وعن أمور أخرى ، كما هو الحال مع القدر المملوء بالماء . والأشخاص الذين يستعان بهم في هذا الغرض هم الصبية دون البلوغ ، والفتاة العذراء ، وعبدة سوداء ، والمرأة الحامل . ولكن يبدو أن الصبي دون البلوغ كان أكثرهم استخداما في هذا الغرض . فيرسم في راحة يد الصبي مربع سحري بالحبر ، وفي وسط هذا المربع يصب الحبر الذي يكون المرآة السحرية . وبينما يحمل المتكهن في هذه المرآة ، يحرق البخور وتحرق معه ورقة مكتوب عليها بعض التعاويذ . وعندما كان « كينج ليك » في مصر أرسل في طلب ساحر ليقدّم له نموذجا من هذا السحر الذي يمارسه . وكان هذا الساحر رجلا ذا هيئة وله لحية طويلة ، ويرتدي عمامة كبيرة تلفت النظر وملابس فضفاضة . ثم جاء هذا الساحر بصبي وجعله يحمل في الحبر الذي وضعه في راحة يده ليصف شكل الرجل الانجليزي الذي يذكر اسمه « كينج ليك » . وعند ذاك طلب « كينج ليك » استحضار صورة ناظر مدرسته في « اتون » واسمه « كت » . وكان هذا الناظر شرسا مستبدا قصير الجسم ذا مزاج حاد ، وله حاجبان أشعثان يضرب لونهما إلى الحمرة ، إلى غير ذلك من الملامح التي تتفق مع هذه الصفات . وعند ذاك قال الصبي إنه يرى في مرآة الحبر صورة فتاة شقراء ذات شعر ذهبي وعينين زرقاوين ووجه شاحب وشفاه حمراء . فلما انفجر « كينج ليك » في الضحك إثر هذا التصريح ، أعان الساحر الذي انتابته المربكة ، بأن هذا الصبي لا بد أن يكون قد ارتكب اثما ، ومن فقد ركله برجله وطرده .

وقد كانت هناك أشكال أخرى من التكهّنات تتبع في جهات أخرى من أنحاء العالم . فقد كان الناس قد تعودوا في الدول الاسكندنافية أن يذهبوا إلى منجم مساء كل خميس لكي يروا في الدلو المملوء بالماء صورة السارق الذي سرقهم . وليست عند التاهيتيين « سوى وسيلة

واحدة لاكتشاف سارق أى نوع من السرقة ، وذلك بأن يلجأوا الى شخص تتملكه روح التكهّن ويؤكد لهم على الدوام أنه قادر على وجه السارق ينعكس على صفحة ماء موضوع فى قرعة مفرغة » • ويدعى بعض المتكهّنين فى نيو غينيا الجنوبية المشرقة أنهم يكشفون عن وجه الآثم فى صفحة المياه فى بركة يذاب فيها بعض زيت جوز الهند • وإذا خرج رجل عند الاسكيمو فى رحلة بحرية ولم يرجع فى الوقت المحدد لرجوعه ، فإنهم يلجأون الى ساحر يتعهد بأن يؤكد لهم ما اذا كان هذا الشخص ما زال على قيد الحياة أم أنه قد توفى • ومن ثم فإنه يستدعى أقرب قريب لهذا الشخص المتغيّب ، فيقوم برفع رأس الساحر بعصاه ويدعه ينظر فى برميل به ماء ، ثم يعلن الساحر أنه يرى على صفحة الماء صورة البحار المتغيّب وقد انقلب به القارب ، أو يراه جالسا فيه ويجدف بمجدافه • وبذلك يهدىء من نفس اقاربه المقلقين عليه بأن يؤكد لهم سلامته ، أو أنه يحمل لهم نبأ وفاته فيدعهم لأحزانهم •

على أن الوعاء الممتلئ بالماء لا يمثل الوسيلة المادية الوحيدة للمرأة السحرية ، التى تستكشف الحقيقة عن طريقها • فالطريقة التى تتبع فى الهند لاكتشاف السارق هى أن تكتب كل اسم من أسماء الذين تقع عليهم التهمة على كرة منفصلة من العجين أو الشمع ، ثم ترمى هذه الكرات فى وعاء به ماء • فالكرة التى تحمل اسم السارق تطفو ، وفقا لاعتقادهم ، فوق سطح الماء ، فى حين تستقر سائر الكرات فى القاع • وقد تعود الشباب فى أوروبا أن يلجأوا الى أساليب عدة من التكهّن فى « أمسية منتصف الصيف » ، لكى يتأكدوا من مصيرهم فى الحب • فالفتاة فى « دورسنشاير » تكتب الحروف الأيجدية على قصاصات من الورق قبل أن تذهب للنوم فى تلك الأمسية ، وتضعها فى وعاء به ماء ، بحيث تكون الأحرف مقلوبة • وهى تتوقع فى الصباح أن تجد الحرف الأول من زوج مستقبلها قد انقلب الى اعلى ، فى حين تظل سائر الحروف فى وضعها المقلوب •

وفي بعض الأحيان تقرر المصائر عن طريق اسقاط مادة ما في وعاء به ماء ويحكم الشخص على مصيره من خلال الوضع أو الشكل الذي تتخذه المادة في الماء . فالطبيب في قبيلة « باهيمبا » أو « بانيانكولى » وهى قبيلة رعوية تسكن افريقيا الوسطى في محمية أوغندا ، يأتى في بعض الأحيان بوعاء به ماء ويرمى فيه بأعشاب معينة تحدث زبدا عندما توضع في الماء . ثم يرمى كذلك أربع حبات من البن في الماء ويراقب الوضع الذى تسير فيه . ومن خلال هذا الوضع أو من خلال طريقة انقلابها في الماء في أثناء طفوها ، تتحدد أرادة الآلهة ، وفي بعض الأحيان يتكهن الكاهن في قبيلة « جارو » التى تسكن في أسام ، عن طريق قدح ممتلئ بالماء وبضعة حبات من الأرز الجاف ، فهو يمسك بالقدح في يده اليسرى ويسقط فيه حبات الأرز حبة حبة ويذكر اسم روح من الأرواح عند اسقاط كل حبة . فاذا حدث عند ذكر اسم روح من هذه الأرواح أن اصطدمت حبتان وهما تطفوان على سطح الماء ، فان هذه الروح هى التى ينبغى عليه أن يتضرع اليها . وفي مرتفعات سكتلاندا يتكهن الناس عن طريق أوراق الشاي أو عن طريق رواسب الشاي التى تبقى في فنجان . بل ان النساء غير المتزوجات في اسكتلاندا يذهبن حتى اليوم زرافات الى أمثال هؤلاء المنجمين ، ليخبروهن ، مقابل اعطائهم قدرا من الشاي ، بالأزواج الذين يناسبنهن . وطريقة التكهن في هذه الحالة تكون عن طريق مراقبة نظام أوراق الشاي المتخلفة في الفنجان ، وذلك بعد أن تغطى الثمالة المتخلفة جوانب الفنجان جهة اليد اليمنى وتصب من الفنجان . كما يستعان في انجلترا ببقايا الشاي أو القهوة المتخلفة في فنجان للتعرف على النبوءات . وبالمثل يتكهن الناس في مقدونيا من خلال القهوة المتخلفة في الفنجان . « وقد تشير فقاعة واحدة تظهر في وسط فنجان القهوة الى أن صاحب الفنجان له صديق واحد وفي مخلص . فاذا تجمعت عدة فقاعات عند حلقة الفنجان ، فان هذا يشير الى أن الشخص منقلب في مزاجه العاطفى ، مشتت في عبادته الدينية . كما

يختلف في تفسير رواسب القهوة حسب الشكل الذى تتخذه ، فإذا انتشرت حول جوانب الفنجان من الداخل فى شكل نهيرات وجداول ، فإن هذا يعنى رخاء فى المال ، وهكذا .

وهناك وسيلة مستحبة للتنبؤ تتبع فى أوروبا ، وذلك عن طريق صب رصاص أو شمع منصهر فى وعاء به ماء ، ثم تراقب الأشكال التى يتخذها الرصاص أو الشمع وهما يأخذان فى التجمد . وتتبع هذه الطريقة فى التنبؤ بالمستقبل فى كل من ليتوانيا والسويد واسكتلندا وأيرلندا . كما أن الأيرلنديين يعتقدون أن الجنيات تتسبب فى أحداث مرض يسمى « أسانى » . ولكى ينتبأ المنجمون بما اذا كان هذا المرض سينتشر أم لا ، أو يتنبأون بطريقة للشفاء منه فى حالة انتشاره ، فانهم يستعينون فى ذلك بقطع من الفحم يضعونها فى وعاء به ماء رائق .

ويحق لنا أن نفترض بعد عرضنا لهذه الأمثلة أن يوسف كان يستعين بطريقة أو أخرى من هذه الطرق للتكهن عن طريق قدحه الفضى .

الباب الثالث

عصر القضاة والملوك

(م ٣٤ — الفولكلور)

الفصل الأول

موسى في صندوق

اللقش

يمكننا أن نقول إن عصر الشيوخ والآباء عند بنى إسرائيل ينتهى بموت يوسف • وقد وصفت مجموعة من السير تميزت بألوانها الحية وتصويرها الرائع ، رحلة هؤلاء الشيوخ والآباء من شواطئ الفرات إلى شواطئ نهر النيل • وهنا يترك المؤرخ هذه الحقبة من الزمن لفترة يسدل فيها الستار على الفصل الأول من تاريخ بنى إسرائيل • وعندما ارتفع الستار مرة أخرى على المشهد نفسه ، كانت قد ولت حقبة من الزمن تقدر بأربعمئة سنة نمت في أثنائها أسرة الشيوخ وأصبحت أمة • من هنا يبدأ تاريخ هذه الأمة وعلى رأسها يقف موسى بشخصيته القوية ، ذلك المشرع والقائد الكبير الذى قيل انه خلص شعبه من العبودية التى عاش فيها فى مصر ، وقادهم فى تجوالهم عبر البصراء العربية ، وشرع لهم قوانينهم ، حتى توفى فى نهاية الأمر على مرأى من أرض الميعاد التى لم يقدر له أن يطأها بقدمه •

وعلى الرغم من أننا لا نملك السبب الكافى الذى يجعلنا نشك فى صحة هذه الرواية فى خطوطها المعريضة ، فان قصة موسى البطولية ، كما هى الحال فى كثير من قصص الأبطال الوطنيين قد زخرف نسيج واقعها. الرزين بخيوط من الخيال المبهج فى العصور المتأخرة • ومع ذلك فان التعبير الذى دأخل هذا النسيج لم يكن كبيرا الى درجة أنه لم يحل دون تعرفنا على العناصر الأساسية لهذه الحكاية • فما زالت

الحكاية تمكنا من أن نتخيل ملامح الرجل وهو يرتدى ملابس الساحر البهية الفضفاضة ، عندما واجه فرعون وتسبب في إنزال المحنة بأرض مصر • وما زال في وسعنا أن نتخيل الملامح الانسانية من خلال الهالة النورانية لهذا البهاء غير العادي الذي أشرق على ملامح القديس والنبى وهو يهبط من الجبل حيث تحدث مع الرب وتسام باليد شريعة قومه الجديدة • ومما هو جدير بالملاحظة حقا ، هو أنه على الرغم من أن موسى أكثر اقترابا من الجِد الفاصل في تاريخ بنى اسرائيل من سائر شيوخهم الذين سبقوه ، الا أن عناصر الخيال والمعجزات قد داخلت قصته في عمق أكثر مما داخلت قصص أجداده • فعلى الرغم من أن أجداده قد اتصلوا من جيل لآخر بالرب ، كما قيل ، أما وجها لوجه أو في رؤياهم ، الا أنه لم يكن أحد منهم صانعا للمعجزات والعجائب التى تكرر حدوثها في تاريخ موسى • فبينما نراهم هم أمامنا يتحركون بين الناس بوصفهم بشرا ، ومنصرفين للأعمال العامة ، ومشاطرين للناس أغراهم وأحزانهم ، اذ نرى موسى من ناحية أخرى ، منذ بدء حياته حتى نهايتها ، منعزلا عن الناس لتأدية رسالته ، ومن ثم فقد كان يعيش في أفق بعيد عن حياة الناس العاديين الفانين ، دون أن تتسبب اليه تلك الزلات التى تتسبب اليهم ، وهى تلك الزلات التى أنصفت ، بلمسة رقيقة من ريشة المصور ، لونا حيا على صور آبائه • ولعل هذا هو السبب في أن انسانية ابراهيم واسحق ويعقوب البسيطة تمسنا عن قرب أكثر مما يمسننا شخص موسى الذى يتميز بالروعة ، وان يكن يتميز بالانعزالية •

وتحيط ميلاد موسى ، شأن كل أحداث حياته ، هالة من الخيال • فقد قيل ان سلالة يوسف وأخوته وهم أبناء اسرائيل ، تكاثرت في سرعة في مصر بعد موت يوسف وأخوته ، الى درجة أن أخذ المصريون ينظرون اليهم بعين الفزع وعدم الثقة ، وحاولوا أن يحولوا دون تكاثرهم عن طريق تشغيلهم في الأعمال الشاقة التى ربما قضت عليهم ، ولكن لما فشلت هذه المعاملة في تحقيق النتيجة المرغوبة ، أمر الملك المصرى بقتل

أطفالهم الذكور أثر ولادتهم • ولكن لما كانت القابلات اللاتى كلفن بتنفيذ هذا الأمر القاسى يتهربن من تنفيذ ذلك ، فقد أمر الملك شعبه جميعا بأن يطرح كل طفل ذكر يولد للعبريين فى النهر • وعندما ولد موسى فى هذه الظروف ، أخفته أمه أول الأمر طيلة ثلاثة شهور ، ولكنها لما لم تستطع إخفاءه أكثر من ذلك ، فقد صنعت له سفطا من القش ، أو بالأحرى من نبات البردى وطلته بالطين والقار ، ووضعت فيه طفلها • ثم حملت السفط والحزن يملؤها ، ووضعت بين الأعشاب على شاطئ النهر ، ورحلت ، بينما ظلت أخت موسى الكبرى واقفة على شاطئ النهر لتراقب ما يحدث له • وتصادف أن كانت ابنة فرعون ملك مصر ، تستحم فى النهر • فلما أبصرت السفط بين الأعشاب أرسلت إحدى خدماتها لتحضره • ولما فتحت الأميرة السفط وأبصرت الطفل ، مدت يدها لتمسكه ، فبكى الطفل • فأشفقت عليه وقالت : « هذا من أولاد العبرانيين » (١) وبينما كانت تنظر للطفل ، جاءت أخت الطفل ، التى كانت ترقب من بعيد ما يحدث وقالت للأميرة : « هل أذهب وأدعو لك مرضعة من العبرانيات لترضع لك الولد • فقالت لها ابنة فرعون ، اذهبنى • فذهبت الفتاة ودعت أم الولد • فقالت لها ابنة فرعون اذهبنى بهذا الولد والرضع لى وأنا أعطيك أجرك • فأخذت المرأة الولد وأرضعته • ولما كبر الولد جاءت به الى ابنة فرعون فصار لها ابنا • ودعت اسمه موسى وقالت لأنى انتشلته من الماء » (٢) •

وعلى الرغم من خلو قصة ميلاد موسى وترعرعه فى كنف أمه ثم فى كنف ابنة فرعون من العناصر الخارقة للعادة ، الا أنها تحتوى على ملامح يمكننا أن ننسبها ، بعد شئ من التدبر ، الى مجال الفولكلور أكثر من أن ننسبها الى التاريخ • اذ يبدو أن القاص ، لكى يزخرف معجزات حياة البطل ، رغب فى أن يحكى كيف تعرض الرجل العظيم

(١) سفر الخروج ، الاصحاح الثانى آية ٦ •
(٢) سفر الخروج ، الاصحاح الثانى من آية ٧ الى ١٠ •

أو المرأة العظيمة للخطر ساعة ميلاد الطفل ، وكيف أن الطفل لم ينقذ من الموت المحقق ، إلا من خلال حادثة تبدو للعين العادية أنها حدثت صدفة ، وإن تكن قد أثبتت حقا أن يد القدر قد تدخلت لتنقذ الطفل المعجز من أجل المصير الكبير الذي ينتظره . ومثل هذه الأحداث ينظر إليها في كثير من الحالات بوصفها زخرفة اخترعها القاص . ولمسات تصويرية أضافها لكي يسمو بتأثير القصة البسيطة التي رأى أنها لا تليق بجلالة هذا الموضوع .

وقد تعرض مؤسس روما نفسه ، وذلك وفقا للحكاية الرومانية ، في طفولته للخطر . وربما كان مصيره الهلاك ، لولا تدخل العناية الالهية وارسالها ذئبة وطائر تقار الخشب . وتجرى هذه الحكاية على النحو التالي : لقد كانت تقع مدينة « ألبا لونجا » تلك المدينة البيضاء الشاسعة ، عند منحدر جبال ألبان ، وكانت تحكمها أسرة من الملوك تدعى أسرة « سيلفي » أو أسرة « الغابات » . وفي هذه الفترة من الزمن كان الرعاة ما يزالون يرعون قطعان ما شيتهم على تلال روما ، وكانت الذئاب ما تزال تعوى في الممرات المعشبة التي كانت تقع بينها . وحدث في هذا العصر أن كان لأحد ملوك « ألبا » ، وكان يدعى « بزوكا » ابنان ، أحدهما كان دعى « نوميتير » ، والآخر « أموليوس » . وكان « نوميتير » هو الأخ الأكبر ، ومن ثم فقد عينه أبوه خليفة على العرش من بعده . ولكن الأخ الأصغر الذي كان طموحا وإن كان عديم الضمير ، سعى في أبعاد أخيه الأكبر عن العرش بالقوة لكي يحل محله . ولم يكتف الأخ الأصغر بذلك ، وإنما دبر مؤامرة ليحصن بها قوته المعتصبة وذلك بأن يحرم أخاه المظلوم من أن يكون له وريث من بعده . ومن أجل هذا أمر بقتل ابن « نوميتير » الوحيد ، كما أغرى ، أو بالأحرى أرغم ابنته التي كانت تدعى « ريانسيلفيا » أن تكرس حياتها لعبادة الالهة « فستا » (١) ، وأن تقسم على أن تظل عذراء طوال

(١) الالهة النار عند الرومان . (المترجمة) .

حياتها • ولكن « سيلفيا » أصبحت فيما بعد في حل من هذا القسم عندما اكتشفت أنها حامل • وقد ولدت فيما بعد توأماً ذكراً، ادعت أن الإله مارس أبوهما • ولكن عمها القسّاسى لم يسلم بهذا الادعاء وأمر بأن يرمى بالولدين في النهر • وقد كان نهر « التير » في ذلك الوقت قد فاض وأغرق شواطئه بحيث لم يتمكن الخدام الذين كلفوا باغراق المطفلين ، من الوصول الى النهر ، واضطروا أن يتركوا الصندوق الذى وضع فيه الطفلان في المياه الضحلة عند سفح تل « بلاتين » ، وهناك تركوا الطفلين لمصيريهما • فلما بكى الطفلان جذب صراخهما ذئبة • فجاءت نحوهما وأخذت ترضعهما بلبنها وتعلق الأوساخ عن جسميهما • وقد خلدت هذه الحكاية في شكل تمثال من البرونز لذئبة توضع طفلين ، وظل هذا التمثال منتصباً في مكان الحادثة طيلة عصور الأباطرة ، ثم حفظ فيما بعد في متحف الكابيتولين في روما حيث لا يزال موجوداً به حتى اليوم • وقد روى البعض أن طائر نقار الخشب كان يساعد الذئبة في اطعام الطفلين وفي حراستهما • حيث ان كلا من الذئب وطائر نقار الخشب كانا مختصين بعبادة الإله مارس ، فقد أثار هذا الحادث من جديد الجدل حول بنوة الطفلين الإلهين لكل من « روفولوس » و « ريموس » •

ويبدو أن هذه الحكايات العجيبة كانت تحكى بصفة خاصة عن مؤسسى الممالك والدول ، هؤلاء المذنبين ضاع مع الزمن نسبهم وتاريخ نشأتهم • ومن ثم فقد ملأ المقاص هذه الفجوة التى خلفتها ذاكرة الإنسان بأحداث من خياله • وقد أمدنا تاريخ الشرق بمثال لمثل هذه القصص السحرية التى ألقت الضوء على بداية عهد الامبراطورية القوية ، فقد كان « سرجون » الأكبر أول ملك سامى حكم بابل في حوالى سنة ٢٦٠٠ ق • م • وقد استطاع هذا الملك أن يخلد اسمه عن طريق انتصاراته الرائعة وأعماله البناءة ، ولكنه على الرغم من ذلك فإنه لم يكن يعرف له أب • وهذا هو كل ما نعرفه من النقوش التى قيل انها كانت قد نقشت على أحد تماثيله • وقد نسخت هذه الكتابات

في القرن الثامن قبل الميلاد وأودعت في المكتبة الملكية في نينوى حيث
اكتشفت في العصر الحديث . وفي هذه الوثيقة يحكى الملك تاريخ حياته
المبكرة على النحو التالي :

أنا « سرجون » ، الملك القوى ، ملك أكاد
كانت أُمى سيدة متواضعة ، أما أبى فلا علم لى به
ولكن عمى كان يسكن الجبال
ومدينتى هى « أزوريانو » التى تقع على شاطئ الفرات
وقد حملتنى أُمى المتواضعة وولدتنى سرا
ثم وضعتنى فى سلة من الأسل وأحكمت اغلاقها بالقار
وطرحتنى فى النهر الذى لم تغرقنى مياهه
ثم حملنى التيار الى السقاء « أكى » فحملنى معه
« أكى » السقاء ... انتشلنى من المياه
« أكى » السقاء كفلنى كما يكفل ابنه
« أكى » السقاء عينى بستانيا له
وبينما كنت أعمل بستانيا ، أحببتنى الالهة عشتروت
ولادة أربع سنوات حكمت المملكة
وحكمت الشعوب ذات الرءوس السوداء وأخضعتها .

ونشبه حكاية ابعاد الطفل سرجون فى سلة من الأسل وضعت
عند شاطئ النهر حكاية ابعاد موسى الطفل فى سبط من القش الذى
وضع بين الأعشاب عند شاطئ النيل . وحيث أنه ليس هناك مجال
للمشك فى أن الحكاية البابلية أقدم بكثير من الحكاية العبرية ، فإنه
يترتب على هذا أن كاتب سفر الخروج ربما كان يعرف الحكاية البابلية ،
وأنه ألف الحكاية العبرية على نمطها . على أنه من المحتمل من ناحية
أخرى أن تكون الحكايتان قد نشأتا مستقلتين من الجذور العامة للخيال
الشعبى . ومن ثم ، فحيث أننا نفتقر الى دليل يمكن أن يحسم فى تأثير

أى الحكايتين بالأخرى ، فلا مجال اذن لأن ندلى بوجهة نظر فى هذا الموضوع •

على أن النظرية التى تقول باستقلال احدى الحكايتين عن الأخرى يؤيدها الى حد ما وجود أسطورة هندية مماثلة لهاتين الحكايتين تحتوى عليها الملحمة الهندية الكبيرة « ماهابهاراتا » • ومن الصعب أن ندعى أن مؤلف هذه الملحمة كان على علم بالحكاية السامية بحيث يكون قد حاكها فى أسطورته • وتحكى الأسطورة الهندية أن اله الشمس كان قد وقع فى غرام ابنة الملك التى كانت تدعى « كونتى » أو « بيريت » ، وولدت منه ابنا « جميلا كالأفلاك السماوية » • وقد ولد هذا الابن « متمنطقا بالسلاح ، ولابساً قرطاً ذهبياً وضياء ، وله عينا أسد وكتفا بقرة » • ولما خشيت الابنة من أن يفتضح أمرها ، ومن غضب أمها وأبيها منها ، « وضعت » ابنها ، بناء على نصيحة خادمتها ، فى سلة لا تتسرب اليها المياه ، وغطته بملاءات لينة ناعمة مصنوعة من خيوط الأمليد المجدولة ، ووضعت تحت رأسه وسادة جميلة ، ثم أسلمت السلة لنهر « آسفا » والدموع تترقرق فى عينيها •

وبعد ذلك عادت الى القصر وقد كتمت أحزانها فى قلبها ، حتى لا يفتضح وجهها الحزين سرها • وحمل التيار السلة وبداخلها الطفل حتى أوصلها الى نهر الكنج الذى حملها بدوره الى شاطئ مدينة « تشامبا » التى تقع فى مقاطعة « سوتا » • وتصادف أن كان رجل من قبيلة « سوتا » يسير مع زوجته على شاطئ النهر ، عندما وقع بصره على السلة ، فجرها من الماء • وعندما فتحها أبصر طفلاً « جميلاً كشمس الصباح ، متمنطقاً بدرع ذهبى ، ويزين وجهه الجميل قرط براق » • ولما كان هذان الزوجان لم ينجبا أطفالاً ، فقد قال الرجل لزوجته عندما وقع بصره على الطفل الجميل : « لقد أرسلت الى الآلهة هذا الطفل بكل تأكيد لعلمها أننى لم أنجب أبناء » • ومن ثم

فقد تبني الزوجان هذا الطفل الذي ترعرع في كنفهما ، وأصبح راميا بارعا للسهام وأطلقا عليه اسم « كارثا » • أما أم الطفل فقد كانت تعلم أخبار الطفل أولا بأول عن طريق جواسيسها •

وتشبيه بهذه القصص ما يحكى عن « تراكهان » ملك « جيلجيت » ، وهى بلدة تقع على ارتفاع خمسة آلاف قدم فوق سطح البحر فى قلب جبال الهمالايا الثلجية • ولما كانت « جيلجيت » تتميز بجوها وموقعها المتوسط ، كما كانت تشتمل على مساحة شاسعة من الأراضى الخصبة ، فقد كانت مركزا لحكام تعاقبوا عليها عبر الأجيال ، فرضوا سيطرتهم فى قليل أو كثير من العنف على الأودية والممالك المجاورة • من أشهر هؤلاء الحكام بدون منازع كان الملك « طرخان » الذى كان يحكم فى حوالى مطلع القرن الثالث عشر ، وكان ، فيما روى ، أعظم هؤلاء الحكام وأكثرهم زهوا ، ومازال الناس يشغلون أنفسهم بروايات حكايات عن كنوزه وأفعاله • وتجرى حكاية ميلاده وإبعاده على النحو التالى : كان والد طرخان واسمه « ترا - طرخان » ملكا على جيلجيت ، وكان متزوجا من امرأة تنتمى الى عائلة ثرية فى « داريل » • ولما كان الزوج يهوى لعبة البولو ، فقد تعود أن يذهب الى « داريل » كل أسبوع ليمارس لعبته المحبوبة اليه مع اخوة زوجته السبعة • وذات يوم كان الجميع يلعبون بحماس بالغ الى درجة أنهم اتفقوا فيما بينهم أن الغالب فيهم يحكم على الآخرين بالموت • وقد كانت المباراة طويلة وحامية ، ولكن الملك أحرز النصر فى نهاية الجولة ، ونفذ الحكم فى الاخوة السبعة بوصفه رياضيا صادقا • وعندما رجع الى بيته بروح عالية بدون شك ، وأخبر زوجته بنتيجة المباراة المؤلمة ، وان كانت محتمة ، كانت الملكة أبعد من أن تشاركه فرحه بنصره ، بل انها استاءت لجريمته ، أو بالأحرى بتنفيذه حكم الشنق فى اخوتها السبعة ، وعزمت على أن تنتقم لهم منه ، فوضعت له الزرنيخ فى طعامه ، فهلك فى الحال وحكمت بدلا منه • وكانت الملكة تعلم ، وهى تتخذ هذه الخطوة الجريئة، أنها حامل من الملك • ثم وضعت طفلا ذكرا بعد وفاة زوجها بشهر ،

وسميت ابنها « طرخان » . ولكن الأم كانت ما تزال حزينة كل الجزن على فقد اخوتها الى درجة أنها لم تطق النظر الى ابن قاتلهم . ومن ثم فقد وضعت الطفل في صندوق خشبي ورمته به سرا في النهر . فحمل التيار الصندوق بعيدا الى « هودار » وهي قرية تقع في ضاحية « تشيلاز » . وتصادف أن كان أخوان فقيران يجمعان الحطب من من الشاطئ ، عندما أبصرا الصندوق يطفو على الماء ، ولما كانا يعتقدان أن الصندوق ربما احتوى على كنز ، فقد غاص أحدهما في الماء وجر الصندوق الى الشاطئ . وحتى لا يثير الأخوان فضول الناس إذا ما سارا بالصندوق الذي يحمل الكنز المتوقع عاريا ، فقد أخفياه بين عيدان الحطب وسارا به الى بيتهما . وعندما فتحا الصندوق، فوجئتا لدهشتهم بأن بالصندوق طفلا حيا جميلا . فتسلمته منهما أمهما وشملته برعايتها . ويبدو أن الطفل كان قد جلب معه البركة لأهل البيت ، اذ سرعان ما أخذت تبدو على الأسرة التي كانت معدمة من قبل ، امارات الثراء . وتفاءلت الأسرة بالطفل الذي كان سببا في هذا الخير . ولما شب الطفل عن الطوق وبلغ الثانية عشرة من عمره ، شعر برغبة شديدة في زيارة « جيلجيت » التي طالما سمع عنها الكثير من الأخبار . فرحل اليها في صحبة أخويه في الرضاع . وفي أثناء الطريق، مكثوا بضعة أيام في مكان يسمى « بالداس » ، كان يقع على قمة تل من التلال . في هذا الوقت كانت أم الصبي الملكة ما تزال تحكم في جليجيت ، وكانت قد وقعت فريسة للمرض . ولما لم يكن هناك من يخلفها في الحكم ، فقد أخذ شعب جليجيت يبحث عن ملك غريب ليحل محلها . وذات صباح ، وبينما كانت كل شئون الدولة معلقة بظهور الملك الجديد ، أخذت ديوك القرية تصيح . ولكنها لم تصح صياحها المألوف ، « كوك آه دودلى — دو » بل صاحت : « بلداس تام نايبى » . ومعنى العبارة « هنا ملك بينكم في باداس » . واثر ذلك أرسلت الرسل الى « بلداس » لتحضر كل شخص غريب تقع عليه أبصارهم . وتقابل الرسل مع الأخوة الثلاث الغرباء وأحضروهم

الى الملكة ، ولما كان « طرخان » مشوق القد ذا هية ، فقد أخذت تتحدث معه دون اخوته ، ومن خلال حديثها معه عرفت قصة حياته • ولشدة سعادتها عرفت أن هذا الغلام الجميل هو ابنها الذى فقدته عندما رمت به فى النهر وهى فى غمرة حزنها على فقد اخوتها ، وحنقها على زوجها الراحل • وعند ذاك احتضنت الأم ابنها ونادت به ملكا على جيلجيت من بعدها •

وقد افترض بعض الباحثين أن الحكايات الشبيهة بحكاية ابعاد موسى الطفل وطرحه فى الماء بقايا عادة قديمة كانت تتبع بقصد اختبار بنوة الأطفال الشرعية لأبائهم • فقد كان الأطفال يطرحون فى الماء حيث يتركون لمصيرهم • فاما أن يطفوا ، أو يستقروا فى قاع الماء • والطفل الذى يطفو يعد طفلا شرعيا ، أما الطفل الذى يستقر فى الماء ، فان المجتمع يرفضه بوصفه ابنا غير شرعى • وربما اتضح فى ضوء هذا الفرض ، أن ميلاد الطفل فى كثير من الحكايات السابقة يصور على أنه حدث خارق للعادة ، ويرتبط بهذا ميل المتشككين الى اعتبار الطفل مرادفاً للمشيء الخارج عن المؤلف • ومن ثم حكى الأسطورة الاغريقية أن كلا من الطفلين « برسيوس » ، و « تيليفوس » كانا ابنى الاله زيوس ، وبالمثل البطل هرقل • كذلك حملت الأم العذراء فى التوأم « رومولوس » ، فى الأسطورة الرومانية ، عن طريق الاله « مارس » • كما عزت الأميرة فى الملحمة الهندية ، حملها فى ابنها لاحتضان اله الشمس لها • أما فى الحكاية البابلية من ناحية أخرى فقد كان الملك سرجون ، أقل حظا من أبطال الاغريق الهنود والرومان ، أو لنقل أكثر صدقا منهم ، عندما اعترف فى صراحة بأنه كان يجهل أباه • أما حكاية التوراة فلم تذكر شيئا عن شرعية بنوة موسى • لكننا اذا تذكرنا أن عمران والد موسى كان متزوجا من عمته ، وأن موسى كان ثمرة هذا الزواج ، واذا تذكرنا أن القانون العبرى المتأخر قد أبطل مثل هذا الزواج باعتباره زنا ، فربما ساورنا الشك ، ونرجو ألا ينتهم بالتعسف فى هذا الشك ، أن أم موسى فى

الشكل الأصلي الحكاية كان يدفعها سبب خاص في طرح ابنها في النهر ، وأنها لم تفعل هذا رضوخا الأمر عام صدر من فرعون بطرح كل أطفال العبريين في الماء • ومهما يكن الأمر في الحكاية العبرية فإنه يبدو أنه كانت من عادة الشعوب الأخرى ، أن تطرح الطفل في الماء لتقرر ما إذا كان الطفل شرعيا أم غير شرعي ، ومن ثم كانت تقرر الإبقاء عليه أو اعدامه • فقد قيل ان الكلتيين كان يحكمون نهر الراين في أمر شرعية أبنائهم أو عدم شرعيتهم ، فقد كانوا يرمون أطفالهم في النهر ، فإذا كان الأبناء أولاد زنا ، أغرقهم النهر الملتجهم ذو المياه الصافية • أما إذا كانوا أبناء شرعيين ، حملهم النهر في رفق على سطحه ، ودفعهم الى أحضان أمهاتهم اللاتي كن يقفن مرتجفات في انتظار حكم النهر • وبالمثل حكى الناس في افريقيا الوسطى للمكتشف « سيكي » عن حاكم مشهور كان يسكن بالقرب من « أوروري » إحدى ضواحي « أونيبورو » التي تتبع ولاية « كيميزبرى » ، أنه كان يزين أطفاله بالخرز ويرمهم في نهر نيانزا لكي يتأكد من شرعية بنوتهم له • فإذا غرق الأطفال في الماء ، كان ذلك دليلا على أنهم ينتسبون لأب آخر ، أما إذا طفوا ، فإنه يعيدهم الى حضانتهم •

الفصل الثاني

شمسون ودليله

يبدو شمسون البطل المارد ، ذا شخصية غريبة بين قضاة بنى اسرائيل الكبار . وقد ذكر الكتاب المقدس أن شمسون كان يشغل منصب القضاة في بنى اسرائيل طيلة عشرين عاما ، ولكنه لم يذكر شيئا عن احكامه القضائية التي أصدرها وفقا لشخصيته القضائية . وإذا كان لنا أن نصدر حكما على فحوى أحكام شمسون من خلال طبيعة أفعاله ، فانه يحق لنا أن نتشكك فيما إذا كان هذا الرجل يعد مفخرة في تاريخ القضاء الاسرائيلي ، ذلك أن موهبته كانت أكثر ما تتمثل في الحداث الشغب والعراك وفي احراق مؤن الذرة التي يختزنها الناس ، وفي كثرة التردد على بيوت الدعارة . أى أن شمسون كان يبدو في شخصية الطليق الفاجر الخليع أكثر مما كان يبدو في شخصية القاضي الكفء الصارم . ومن ثم فنحن لن نعالج الآن قائمة جافة من الأحكام القانونية ، وانما سنعالج حكايات مغامراته المسلية غير اللائقة ، في الحب والحرب ، أو بالأحرى في القرصنة . ذلك أننا اذا قبلنا الحكايات التي دونت عن هذا الطائش الفاجر ، ونحن ملتزمون بها بدون شك ، فاننا نجد أنه لم يقم قط بحرب نظامية ، كما لم يقم بعصيان وطني مسلح ضد الفلسطينيين الذين ظلموا قومه ، وانما كان يقوم بمجرد هجوم مفاجيء عليهم بوصفه البطل الفرد أو الفارس المتجول ، ثم يضربهم بفك حمار أو بأى سلاح آخر يقع في يده . وحتى في هذه الغارات التي تقوم على السلب ، (اذ أنه لم يكن يتورع عن أن يسلب ضحاياهم من ملابيسهم ، ومن المحتمل من ثروتهم) كانت فكرة تخليص قومه من العبودية ، كما يتضح من كل الشواهد ، آخر ما يتراءى

له • وعندما كان يقوم بمذبحة للفلسطينيين ، كما كان يفعل ذلك كثيرا ، في تهور بالغ ، وبارتياح قلبى ، فانه لم يكن يفعل هذا بدافع وطنى أو دهاء سياسى ، وإنما بدافع جحد شخصى صرف يهدف الى الانتقام من هؤلاء الذين أساءوا له ولزوجته وولدهما • فقصته من بدايتها حتى نهايتها هى قصة مغامر أنانى مخادع تحركه ثورات عاطفية جامحة ، ولا يكثر بشئ سوى ارضاء نزواته الوقتية • ولم يخفف من حدة نذالة هذه الشخصية وابتذالها المؤلف سوى تلك القوة الخارقة للعادة ، والبسالة الطائشة ، ونمط مقيت من الفكاهة • وقد رفع هذا كله القصة الى نوع من الملحمة الهزلية من النوع الذى كتبه « أريستو » (١) • وإذا كانت هذه العناصر قد أضفت الجدة على قصة معارك هذه الشخصية ، فانها لم تقلل من احساسنا بالنفور من هذه الشخصية الغريبة المختالة المتعطرة ، وبخاصة اذا وضعناها جنبا الى جنب مع شخصيات القديسين والأبطال الذين صوروا في معرض التاريخ الاسرائيلى • وربما تمثلت الحقيقة فى أن المبالغة فى تصوير شخصية شمسون ترجع الى لمسات مصور القصة أكثر مما ترجع الى الحقيقة التاريخية • اذ من المحتمل أن الحوادث العجيبة المسلية التى رويت عن تاريخ حياة هذه الشخصية السيئة السمعة ، قد انسابت فى غير ضابط بوصفها حكايات شعبية ، مع تيار التراث الشفاهى ، وذلك قبل ان تبلور بزمن طويل فى ذاكرة الشعب حول شخصية رجل حقيقى باسل من سكان النجاد والحدود ، ومن نوع الرجال العبريين الذين كانوا يعيشون على السلب والنهب ، الذى اشتهر بوصفه بطل بنى اسرائيل فى كثير من الغزوات التى كان يقوم بها عبر الحدود الى سهول فلسطين الغنية ، بفضل مزاجه الحاد وقوته الخارقة وجسمه القوى • ذلك لأنه ليس هناك سبب مقنع يجعلنا نشك

(١) شاعر ايطالى كوميدى عاش فى نهاية القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر . (المترجمة) .

في وجود أساس صلب من الواقع يرتكز عليه هذا التكوين المهلهل الخيالي الذي تتشف عنه أسطورة شمشون • ومما يؤكد كل النأييد وجود رواية محلية أصلية لحكاية شمشون ، ويعارض في الوقت نفسه نظرية الأسطورة الفلكية التي يمكن أن يلجأ إليها أصحابها في تفسير قصة البطل الأسمر ، أن مناظر قصة حياة هذا البطل قد صورت في أخص خصائصها من ميلاده الى مماته في بلاد وأمكنة بعينها ••

وأكثر ما يتضح تدخل القاص في هذه الحكاية ، في وصف الكارثة التي حلت بالبطل بسبب خداع امرأة منافقة له ، بعد أن استطاعت أن تستدرجه حتى اكتشفت سر قوته وأفشته الى أعدائه • وتجري حكاية هذا الخداع على النحو التالي :

« وكان بعد ذلك أنه أحب امرأة في وادي سوري اسمها دليلة • فصعد إليها أقطاب الفلسطينيين وقالوا لها : تملقيه وانظري بماذا قوته ومائة شاقل فضة • فقالت دليلة لشمشون أخبرني بماذا قوتك وبماذا توثق لاذلاك ؟ • فقال لها شمشون اذا أوثقوني بسبعة أوتار طرية لم تجف ، أضعف وأصير كواحد من الناس • فأصعد لها أقطاب الفلسطينيين سبعة أوتار طرية لم تجف فأوثقته بها والكمين لابت عندها في الحجرة • فقالت له ، الفلسطينيون عليك يا شمشون • فقطع الأوتار كما يقطع فتيل المشاقة اذا شم النار ولم تعلم قوته • فقالت دليلة لشمشون ، ها قد خلتني وكلمتني بالكذب ، فأخبرني الآن بماذا توثق ؟ • فقال لها اذا أوثقوني بحبال جديدة لم تستعمل أضعف وأصير كواحد من الناس • فأخذت دليلة حبالا جديدة وأوثقته بها وقالت له ، الفلسطينيون عليك يا شمشون ، والكمين لابت في الحجرة • فقطعها عن ذراعه كخيظ • فقالت دليلة لشمشون حتى الآن خلتني بالكذب • فأخبرني بماذا توثق ؟ فقالت لها اذا ضفرت سبع خصل رأسي مع السدي ، فمكنتها بالوتد • وقالت له • الفلسطينيون عليك

يا شمشون • فانتبه من نومه وقطع وتد النسيج والسدى • فقالت له ، كيف تقول أخبرك وقلبك ليس معي ؟ هو ذا ثلاث مرات قد ختلنني ولم تخبرني بماذا قوتك العظيمة ؟ ! • ولما كانت تضايقه بكلامها كل يوم وألحت عليه ، ضاقت نفسه الى الموت • فكشف لها كل قلبه وقال لها : لم يعمل موسى رأسى لأنى نذير الله من بطن أمى • فان حلقت تفارقني قوتي وأضعف وأصير كأحد الناس • ولما رأت دليلا أنه قد أخبرها بكل ما في قلبه أرسلت فدقت أقطاب الفلسطينيين ، وقالت اصعدوا! هذه المرة فانه قد كشف لى كل قلبه • فصعد اليها أقطاب الفلسطينيين وأصعدوا الفضة بيدهم • وأنامته على ركبتيها ودعت رجلا وحلقت سبع خصل رأسه وابتدأت باذلاله وفارقته قوته • وقالت الفلسطينيون عليك يا شمشون • فانتبه من نومه وقال أخرج كل مرة • وانتفض • ولم يعلم أن الرب قد فارقه • فأخذه الفلسطينيون وقلعوا عينيه ونزلوا به الى غره وأوثقوه بسلاسل نحاس وكان يطحن في بيت السجن » (١) •

وهكذا نرى ان العبريين كانوا يعتقدون أن قوة شمشون المهولة كانت تكمن في شعره ، وأن مجرد حلق خصلات شعره الطويلة الشعثاء للتي كانت تتدلى على كتفيه ، ولم تحلق منذ نعومة أظفاره — كان كافيا أن يسلبه قوته المخارقة للعادة ، ومن ثم يصبح عاجزا عن القيام بأعماله البطولية • وهذا الاعتقاد في أن بعض الأحياء من الرجال والنساء ، وبخاصة هؤلاء الذين يعتقد في امتلاكهم لقوة خارقة للعادة مثل شمشون ، ينتشر في جهات كثيرة من أنحاء العالم • فقد كان أهالى جزيرة « أمبوينا » ، وهى جزيرة تقع في جزر الهند الشرقية ، يعتقدون أن قوتهم تكمن في شعرهم وأنهم يفقدون تلك القوة اذا ما قصوا خصلات شعرهم • وبالمثل كان النثم أمام المحكمة الهولندية في هذه

(١) سفر القضاة ، الاصحاح السادس عشر من آية ٤ الى ٢١ •

الجزيرة يصر على عدم الاعتراف بجريمته ولو تعرض للعذاب ، حتى
تقص خصلة من شعره وعند ذاك يعترف بجريمته في الحال • وقد
حدث أن اتهم رجل بجريمة قتل وتعرض لأقصى انواع العذاب حتى
يعترف بجريمته دون أن يبدى أى ألم ازاء هذا التعذيب • ولكنه
عندما أبصر رجلا يحمل مقصا في يده ، سأل عن الغرض من حمل
الرجل لهذا المقص • ففيل له أنهم يريدون أن يقتصوا له شعره ، وعند
ذاك توسل اليهم في الحال الا يفعلوا ذلك ، لأنه سوف يعترف لهم
بكل شيء • ومن ثم فقد تعودت السلطات الهولندية أن تقص شعر
المتهم ، اذا فشل التعذيب في حمله على الاعتراف • وما زال سكان
« سيرام » وهى جزيرة أخرى من جزر الهند الشرقية ، يعتقدون أنه
إذا حلق شبابهم شعورهم فان الضعف والوهن ينتابهم أثر ذلك •

وقد ألف الأوروبيون أن يعتقدوا أن القوة الشريرة عند السحرة
والعرافين تستكن في شعورهم ، وأنه ليس هناك من شيء يؤثر في
هؤلاء الأوغاد طالما كانوا يحتفظون بشعورهم على رءوسهم • ومن
ثم فقد جرت العادة في فرنسا أن يخلق كل جزء من أجسام الذين
يتهمون بالشعوذة ، وذلك قبل تسليمهم الى من يقوم بتعذيبهم • وقد
رأى « ميلايوس » رأى العين التعذيب الذى تعرض له بعض الأفراد
في تولوز حتى يعترفوا بجرائمهم وظلوا على هذا النحو من الاصرار
حتى عروا من ملابسهم وخلق كل جزء من أجسامهم • كما كانت هناك
امرأة تعيش حياة ورعة فيما يبدو ، ولكنها اتهمت بممارستها السحر ،
ومن ثم فقد تعرضت لشتى أنواع التعذيب الذى تحملته بشكل
لا يصدق عقله ، حتى دفعها ازالة شعرها عن جسدها كله الى الاعتراف
بتهمتها • وقد كان المحقق المرموق « سبرنجر » يكتفى بخلق رأس
المتهم بممارسة السحر أو الشعوذة ، في حين أمر زميله المتطرف
« كومانوس » بخلق شعر جسم إحدى وأربعين امرأة قبل أن يحكم
عليهن بالموت حرقا • وكان قد فوض تفويضا كاملا لأن يكون مدققا
في هذا العمل على نحو ما فعله ، حيث أن الشيطان نفسه كان قد

خطب من أعلى منبر كنيسة « نورث بيرويك » ليطمئن اتباعه بأن أكد لهم أن الأذى لن يلحق بهم قط « طالما كانوا يحملون شعرهم على أجسامهم ، وأنه لن يسمح لأحد بأن يزيل هذا الشعر عنهم » • وقد كان يحدث ما يشبه هذا في مقاطعة « باستار » في الهند • « فعندما كانت تثبت التهمة ضد رجل من هذه المقاطعة بأنه يمارس السحر ، فإن الجمهور كان ينهال عليه ضربا ، كما كان يحلق شعره ، حيث أن قوى الشر تكمن في شعره وتخلع أسنانه الأمامية حتى لا يستطيع ترديد التعاويذ • أما النساء اللاتي يتهمن بممارسة الشعوذة ، فانهن يتعرضن لمثل هذا الامتحان القاسي • فإذا ثبتت تهمتهم ، فانهن ينلن العقاب الذى يناله الرجال المشعوذين • وفضلا عن حلق شعورهن ، فانها كانت تربط فى شجرة فى مكان عام » وعندما كانت المرأة تتهم بممارسة السحر عند « البهيليين » وهم شعب بدائى يسكن الهند الوسطى ، فإنها كانت تتعرض لصنوف من التهديد التى تحملها على الاعتراف باثمها ، كأن تعلق أمامها على شجرة رعوس أشخاص سبق أن حكم عليهم بالشنق ، وكأن يوضع الفلفل فى عينيها ، وتقص خصلة شعر من رأسها وتدفن فى الأرض » حتى تنفصم آخر عروة بينها وبين قواها الشريرة السالفة » • وقد كان « الأزتيكيون » فى المكسيك يعاقبون السحرة والمشعوذين على هذا النحو ، « فعندما كان هؤلاء يقومون بأفعالهم الشريرة ، ويحين الوقت الذى ينبغى أن يوضع فيه حد لحياتهم المقيتة ، يلقى القبض عليهم وتحلق خصلة من الشعر من قمة رعوسهم ، فتسلب منهم مقدرتهم على التنجيم والشعوذة ، وفى النهاية يحكم عليهم بالموت ، فتنتهى بذلك حياتهم الكريهة •

وليس غريبا ان يجد هذا الاعتقاد الذى ينتشر على نطاق واسع ، مكانا له فى الحكايات الخرافية • فكل ما يبدو فى الحكاية الخرافية من خيال منطوق ، انما هو مرآة تنعكس عليها المعتقدات الحقيقية التى كان يعتقدوها الناس الذين نشأت بينهم هذه الحكايات • فساكن جزيرة نياس التى تقع بعيدا عن الشاطئ الغربى من سومطرة يحكون

أنه كان في سالف الأزمان زعيم بعينه يدعى « لآبو — ماروس » • وقد هاجر هذا الزعيم من « مكاسار » المتى تقع في « سيليبس » بسبب الزلازل ، ورحل مع رفاقه إلى « نياس » • وكان من بين الذين شاطروه مصيره في الأرض الجديدة ، عمه وزوجة هذا العم • ووقع ابن الأخ النذل في حب زوجة عمه ، ودبر مؤامرة لكي يمتلكها لنفسه • وعندئذ هرب عمه المعبذ إلى « مالكا » حيث طلب من سلطان « جوهوري » أن يساعده في الانتقام من ابن أخيه • فوافق السلطان وأعلن الحرب على « لآبو ماروس » • في هذه الأثناء حصن الزعيم المخادع مكان إقامته بسور شائك من فروع البامبو بحيث باءت محاولات السلطان وجيشه بالفشل في سبيل الاستيلاء على هذا المكان عنوة • فلما انهزم السلطان على هذا النحو في هذه المعركة المكشوفة لجأ إلى الخديعة • فعاد إلى بلاد « جوهوري » ، وحمل سفنه بالحصر الأسبانية ثم أبحر مرة أخرى إلى « نياس » ، ورسا بعيدا عن قلعة عدوه ، وشحن ببنادقه بالحصر بدلا من البارود والمفرقات ، وصوبها إلى قلعة عدوه • وفي الحال تطايرت الحصر في الهواء كوابل من البرد ، وغطت سور القلعة الشائك ، كما غطت الشاطئ المجاور • ولما أحكم السلطان الفخ على هذا النحو ، انتظر ما يفعله عدوه • على أنه لم ينتظر طويلا ، عندما أبصر امرأة عجوزا تجوس على طول الشاطئ خلصة ، وتأخذ إحدى هذه الحصر ، بينما كانت سائر الحصر تنتشر حولها في اغراء • وسعدت المرأة بهذا الاكتشاف ومضت تحمل أنباء هذه الحصر إلى الجيران ، عند ذاك خف الجميع إلى هذا المكان ، وفي لحظة لم يصبح السور الشائك عاريا من الحصر فحسب ، وانما هو محطما إلى الأرض • ولم يبق أمام السلطان سوى أن يسير بجيشه إلى القلعة ويستولى عليها • وعند ذاك هرب الجيش المدافع عنها ، ووقع الزعيم النذل أسيرا في يد أعدائه الظافرين الذين حكموا عليه بالاعدام • على أنهم لم يستطيعوا أن ينفذوا هذا الحكم فيه لأنهم عندما رموه في اليم ، لم يغرقه المساء • فلما طرحوه وسط كومة

من الحطب المحترق ، لم تحرقه النار • فأنهالوا على جسمه بالسيوف ، ولكن السيوف لم تخترقه • وعند ذاك أدركوا أنه لا بد أن هناك قوى سحرية تتملكه • فلجأوا الى زوجته عساهم يلمسون عندها النصيح في كيفية قتله • ورضخت الزوجة لمطلبهم وأفشت سر زوجها الخطير كما فعلت دليلة مع شمشون ، وأخبرتهم بأن هناك شعرة صلبة كالسلك النحاسي بين شعر رأس زوجها ، وأن حياته ترتبط بهذه الشعرة • فلما انتزعت الشعرة من رأس الزعيم ، فارقت روحه في الحال • ونلاحظ في هذه الحكاية كما هو الحال في غيرها من الحكايات ، أن الشعر لا يعد مكمنا لقوة الشخص فحسب ، بل يعد كذلك مكمنا لروحه • ومن ثم فإن فقدان الشخص لشعره يعنى فقدانه لحياته •

وكثيرا ما تتردد في تراث الاغريق الأسطوري حكايات شبيهة بحكاية شمشون ودليلة • فقد حكى أن « نيسوس » ملك « ميجارا » ، كانت له شعرة ذات لون ذهبي أو أرجواني وسط رأسه • وقد كان هذا الملك معرضا للموت اذا ما انتزعت هذه الشعرة من رأسه • فلما هاجم الكريتيون « ميجارا » وانتصروا عليه ، وقعت ابنة « ميجارا » في حب « ميتوس » ملك الكريتيين • ولم تتورع الابنة عند ذاك من انتزاع هذه الشعرة من رأس أبيها الذي توفي في الحال • ووفقا لرواية أخرى انه لم تكن تستقر في هذه الشعرة روح « ميجارا » ، بل قوته • فلما انتزعت هذه الشعرة من رأسه وهن العظم منه ، وبذلك تمكن « نيسوس » من قتله • وهذه الرواية الأخيرة أقرب لقصة شمشون ودليلة من الرواية الأولى منها • وقد قيل ان « بوزايدون » قد أكسب « بيتريلاوس » الخلود بأن منحه شعرة ذهبية فوق رأسه • ولكن عندما استولى « أمفيتيو » على « تاقوس » موطن « بيتريلاوس » ، ووقعت ابنة الأخير في حب « أمفيتريو » ، انتزعت الشعرة التي كانت تستقر فيها روح أبيها ، وبذلك قضى أبوها نحبه • وتحكى حكاية شعبية أغريقية عن رجل كانت تكمن قوته في ثلاث شعرات ذهبية في رأسه • فلما انتزعت أمه هذه الشعرات من رأسه ، انتابه الوهن

والجبن ، ثم قتل بيد أعدائه من بعد • وهناك حكاية أغريقية أخرى تحتوى على أثر من حكاية « نيسوس » و « سيسلا » ، وتحكى أن ملكا كان يعد أقوى رجال عصره ، وكانت له ثلاث شعرات فى صدره تكمن فيها قوته • فلما خرج لمحاربة ملك آخر ، كانت زوجته المخادعة قد انتزعت هذه الشعرات من صدره ، وبذلك أصبح أضعف الرجال فى هذه الحرب •

وتشبه حكاية خداع دليلة الغادرة لعشيقتها شمشون ، عندما كشفت لإعدائه عن سر قوته ، ما يحكى فى التراث الكلتى والسلافى من حكايات شبيهة بذلك • ووجه الاختلاف بين الحكايات الكلتية والسلافية من ناحية ، والحكاية العبرية من ناحية أخرى ، هو أن قوة البطل أو روحه لا تكمن فى الحكايات الأولى ، فى شعره ، بل تكمن فى شيء خارجى مثل بيضة أو طائر • فهناك حكاية روسية تحكى ان ساحرا بعينه يسمى « كاشتشاي » أو « كوششاي الذى لا يموت » ، خطف أميرة وحبسها فى قلعته الذهبية • وبينما كانت الأميرة تسير ذات يوم فى حديقة القلعة وحيدة حزينة ، تقابل معها أمير من الأمراء وعرض عليها أن تهرب معه • وسعدت الأميرة بهذه الفكرة ، وذهبت الى الساحر وقالت له بألفاظ ناعمة رقيقة : « أتوسل اليك يا أحب رجل عندى أن تخبرنى : ألن تموت أبدا » ؟ فأجابها قائلاً : « أجل ، بل أننى سأموت » • فقالت له : « حسنا ، ولكن أين مكن موتك ؟ هل هو فى هذا المسكن الذى تعيش فيه ؟ » فقال لها : نعم انه بكل تأكيد فى هذا المسكن ، انه يكمن فى الكنيسة التى تقع تحت عتبة الباب • عند ذاك أتت الأميرة بالكنيسة وألقت بها فى النار • وعلى الرغم من أن النار المتهمة بالكنيسة فإن « كوششاي الذى لا يموت » ظل حيا لأنه لم يذكر لها شيئا عن شعره • فلما رأت الأميرة الماكرة الذكية أنها لم تنجح فى محاولتها الأولى ، جاءت مرة أخرى مقطبة وجهها وقالت له : « انك لا تحبنى حبا صادقا ، لأنك لم تخبرنى بالمكان الحقيقى الذى يكمن فيه موتك • ومع ذلك فأننى لست غاضبة منك لأننى أحبك من صميم قلبى » • وبهذه الكلمات المتملقة استدرجت

الساحر الى أن يخبرها بحق بالمكان الذى يكمن فيه موته • فضحك الساحر وقال لها : « لماذا تلحين وراء هذا الموضوع ؟ ومع ذلك فسوف أخبرك بذلك بدافع حبى لك • فهناك فى حقل بعينه تنمو ثلاث شجرات من البلوط ، وهناك تحت جذور أكبر هذه الشجرات تعيش دودة • فإذا ! تمكن أحد من العثور على هذه الدودة وقام بسحقها فاننى سأموت على الفور » • وبهذه الكلمات رحلت الأميرة على انثو الى حبيبها وأخبرته بقول الساحر ، فهم فى البحث عن الشجرات حتى وجدها واستخرج الدودة وسحقها • ثم أسرع الى قلعة الساحر حيث وجده ما يزال على قيد الحياة • فلجأت الأميرة مرة ثالثة الى جيلة تملقت بها الساحر ولاطفته حتى غلبته بخداعها وفتح لها مكنون صدره وأخبرها بالحقيقة وقال لها « ان موتى يكمن فى المحيط الشاسع بعيدا عن هذه الأمكنة جميعا ، وليس من اليسير الحصول عليه • ففى هذا المحيط توجد جزيرة ، وهناك فى هذه الجزيرة تنمو شجرة بلوط يستقر تحتها صندوق حديدى بداخله سلة بداخلها أرنب برى • وبداخل الأرنب بطة وبداخل البطة بيضة • ومن يستطيع أن يعثر على البيضة ويهشمها ، فانه يقتلنى فى الوقت نفسه • وحصل الأمير بطبيعة الحال على هذه البيضة التى كان من شأنها أن تقرر مصيره ، وواجه الساحر وهو يحمل البيضة فى يه • وقد كان فى وسع الساحر أن يقتله ، لولا أن الأمير أسر وهشم البيضة بين يديه • وفى تلك اللحظة صرخ الساحر من الألم وتوجه الى الأميرة الخادعة التى كانت واقفة وهى تبتسم فى شماتة وقال لها : « ألم يكن حبى لك هو الذى دفعنى لأن أخبرك بالمكان الذى يستكن فيه موتى ، واذا بك تكافئينى على هذا النحو ؟ » • ثم حاول أن يمد يده لياخذ السيف الذى كان معلقا أمامه على المشجب • ولكنه قبل أن يفعل هذا سحق الأمير البيضة ، فتوفى الساحر فى الحال •

وفى رواية أخرى لهذه الحكاية نفسها ، أن الأميرة طلّت المكنسة بالذهب عندما أخبرها كذبا أن موته يكمن فيها • فلما كان وقت العشاء

أبصر الساحر بريق الكنسة من تحت عتبة الباب فسألها في حدة :
« ما هذا الذى فعلته ؟ » فقالت له « أترى كيف أننى أقدرك ؟ »
فقال لها : « أيتها المرأة الساذجة ، لقد كنت أمزح معك عندما أخبرتك
أن موتى يكمن فى الكنسة • فموتى يكمن فى الحقيقة فى سور القلعة
المصنوع من فروع البلوط » • فلما خرج الساحر فى اليوم التالى ،
جاء الأمير وطلب السور كله بالذهب • فلما عاد الساحر فى المساء وكان
وقت العشاء ، نظر من النافذة فبهره بريق الذهب الذى طلى به
السور • فقال لها : « بحق الشيطان ، ما هذا الذى فعلته ؟ » فقالت
له : « لعلك تتأكد كيف أننى أقدرك • وإذا كنت أنت عزيزا، على كما
ترى ، فان موتك يعز على كذلك • ولهذا فقد طليت السور الذى يستقر
فيه موتك بالذهب » • وخدع الساحر بقول الأميرة وأبدى الرغبة
الصادقة فى أن يكشف لها سر البيضة الخطيرة • وعندما حصل الأمير
على البيضة بمساعدة بعض الحيوانات الصديقة له ، وضع البيضة
فى صدره وعاد الى قلعة الساحر • وكان الساحر يجلس آنذاك فى
شباك قلعته مشئت العقل • وعندما وصل الأمير واطلع الساحر على
البيضة ، صار الضياء فى عينه ظلما وتحول الى شخص خنوع لين •
ثم أخذ الأمير المنتصر يلعب بها ويقذفها من إحدى يديه الى الأخرى ،
وكوششائى الذى لا يموت يتخبط من ركن الى ركن فى الحجرة • وفى
النهاية هشم الأمير البيضة ، فسقط الساحر ميتا •

وتحكى حكاية سييرية أن ساحرا بعينه يدعى « الصلب الأصيل »
خطف زوجة أمير وحبسها فى كهفه • وأخذ الأمير يسعى حتى عرف
مكانها وأخبرها بأن تسعى جاهدة فى اغراء « الصلب الأصيل » لكى
يكشف لها عن مكن قوته • فلما عاد « الصلب الأصيل » الى مسكنه ،
فالت له زوجة الأمير : « هلا أخبرتنى بالمكان الذى تكمن فيه قوتك
المهولة ؟ » فقال لها الساحر : « يا زوجتى العزيزة ، ان قوتى تكمن فى
سيفى » • فاتجهت المرأة الى السيف وأخذت تصلى له • فلما رأى
الصلب الأصيل ما فعلته ، سخر منها وقال لها : « أيتها المرأة الحمقاء

ان قوتى ليست فى سيفى ، وانما فى رمحى وسهمى » • فتوجهت المرأة الى الرمح والسهم وأخذت تصلى لهما • عند ذاك قال لها « الصلب الأصيل » : « اننى اعتقد يا زوجتى العزيزة ان هناك وراءك معلما ماهرا يبحث على أن تبحثى عن المكان الذى تكمن فيه روحى • بل اننى أود أن أقول ان زوجك ما زال على قيد الحياة ، وهو الذى يبحث على هذا » • ولكن الزوجة أكدت له أن ليس هناك من يدفعها الى هذا • ولما رأت أنه قد ضلها للمرة الثانية انتظرت بضعة أيام ثم عاودت السؤال عن سر قوته • فقال لها : « حيث أنك تفكرين كثيرا فى هذا الموضوع ، فسوف أخبرك بحق عن مكانها : هناك فى مكان بعيد يوجد جبل شاهق ، وعند هذا الجبل يسكن ثعلب يستقر داخل قلبه طائر • وفى هذا الطائر تسكن قوتى • على أنه ليس من اليسير القبض على هذا الثعلب ، لأنه يستطيع أن يحول نفسه الى كائنات مختلفة » • وعندما خرج الساحر فى اليوم التالى من كهفه جاء الأمير وعلم من زوجته المكان الحقيقى الذى تكمن فيه قوة الساحر فخف الى الجبل وهناك جاهد بمعونة أصدقائه من الطيور والكائنات المهولة مثل النسر والباز والتنين أن يمسك بالثعلب ، أو بالأحرى أنثى الثعلب التى كانت تغير نفسها الى أشكال مختلفة • ثم شق قلب الثعلب وانتزع منه الطائر وأحرقه فى النار • وفى تلك اللحظة سقط « الصلب الأصيل » ميتا على الأرض •

وتحكى حكاية سييرية أخرى أن قتيلا كان يسكن فى طاحونة مائية وابتلع ابنى ملك من الملوك واحدا تلو الآخر • فلما خرج الابن الثالث ليبحث عن أخويه ، ووصل الى الطاحونة المائية ، لم يجد هناك سوى امرأة عجوز حكمت له عن هذا الكائن المهول الذى يدير الطاحونة ، كما أخبرته أنه قد ابتلع أخويه ، ثم نصحته فى نهاية الأمر أن يرحل عن هذا المكان على الفور قبل أن يلقى مصير أخويه • ولكن هذا الأخ الذى كان شجاعا وماكرا فى الوقت نفسه ، قال لها : « هات الى أذنك واستمعى جيدا لما سوف أقوله لك • اسألى التنين

أين يذهب ، وأين تكمن قوته • فان أخبرك بذلك قبلى أمامه هذا المكان بشدة ، كما لو كنت تحببته كل الحب حتى تتوصل الى معرفة هذا السر ثم أخبرينى بعد ذلك بما حدث » • وعندما عاد التنين الى مسكنه سألتها المرأة العجوز قائلة : « بحق الاله أخبرنى أين كنت ، وأن تذهب بعيدا عن هذا المكان ، فانك لم تخبرنى قط بالمكان الذى ترحل اليه » • فأجابها التنين قائلاً : « نعم ياسيدتى العجوز ، اننى أرحل بعيدا » • عند ذاك أخذت تتملقه المرأة العجوز وتقول له « ولكن ما الذى يدعوك لأن ترحل بعيدا ؟ ألا تخبرنى بالمكان الذى تستقر فيه قوتك • اننى لو علمته لانهلت عليه تقبيلًا : فابتسم التنين وقال لها : « ان قوتى تستكن هناك فى مكان النار هذا » • فأخذت المرأة العجوز تقبل مكان النار وتلاطفه • فلما أبصرها التنين وهى تفعل ذلك انفجر ضاحكا وقال لها : « أيتها المرأة البلهاء ان قوتى ليست فى هذا المكان ، وانما تكمن فى شجرة النباتات العطرية التى تنمو أمام مسكنى » • فانهالت المرأة على الشجرة تقبلها وتلاطفها • فضحك التنين منها مرة أخرى وقال لها : « دعى عنك هذه الافعال أيتها المرأة العجوز ، فقوتى ليست فى هذه الشجرة » • فقالت له المرأة : « وأين تكمن قوتك اذن ؟ » فرد عليها قائلاً : ان قوتى تكمن فى مكان بعيد لا يمكنك الوصول اليه • فهناك فى مملكة أخرى غير تلك المملكة ، توجد بحيرة تقع أسفل مدينة الملك • وفى هذه البحيرة يعيش تنين فى جوفه ثور • وفى جوف هذا الثور تعيش حمامة ، وبداخل هذه الحمامة تستكن قوتى » • وبهذا كشف التنين عن سره • فلما خرج فى صباح اليوم التالى ليقوم بمهام عمله اليومى وهو التهام الناس ، جاء الأمير الى المرأة العجوز التى أطلعتة على سر التنين • وبطبيعة الحال خف الأمير فى الحال للوصول الى البحيرة التى تقع فى البلاد النائية • وبعد صراع مرير استطاع أن يقتل التنين المائى • ثم شق صدره وانتزع منه الحمامة التى كانت تكمن بداخلها قوة التنين المهول الذى يدير الطاحونة المائىة • وبعد أن سأل الحمامة عن أخويه وكيفية ارجاع

الحياة اليهما ، لوى رقبة الحمامة فمات التتير الشرير فى تلك اللحظة بطبيعة الحال • والى هنا تتوقف الحكاية ولا تذكر شيئاً عن موضوع الأخوين والأميرة •

وكثيراً ما يرد هذا الموضوع فى الحكايات الكاتية ، فقد روى عازف كمان كفيف كان يعيش فى جزيرة « اسلاى » ، أن عفريتاً خطف زوجة ملك من الملوك كما خطف حصانيه واحتفظ بالجميع فى وكره • ولكن الحصانين هاجما العفريت وداساه بأقدامهما بحيث أصبح عاجزاً حتى عن الزحف • ثم قال للملكة وهو على هذه الحال : لو أننى لم أحتفظ بروحى بعيدة عنى لقتلنى هذان الحصانان من زمن • عند ذاك سألته الزوجة قائلة : « وأين تكمن اذن روحك يا عزيزى ؟ اننى أقسم لك بالكتب المقدسة أن أزعاجها » فقال لها العفريت : « انها تكمن فى حجر » بوناش • فلما خرج العفريت فى الصباح وضعت الملكة الحجر فى شكل منظم للغاية استلقت نظر العفريت عندما عاد فى غسق المساء ، ومن ثم فقد قال لها « لماذا وضعت الحجر على هذا النحو المنظم ؟ » فأجابته قائلة : « لان روحك تستكن فيه » • فقال لها : « لقد أدركت الآن أنك ستقدمين واجب الاحترام لروحى ، اذا ما علمت مكانها الحقيقى • فروحى لا تكمن فى هذا الحجر ، وانما تكمن فى عتبة باب مسكنى » • فلما كان الصباح نظمت الزوجة العتبة وزينتها • فلما عاد العفريت سألها قائلاً : « ما الذى دفعك لأن تفعلى هذا ؟ » فأجابته : « أليست روحك كامنة فيها ؟ » فقال لها « اننى أرى الآن أنك ستولين روحى كل عنايتك اذا ما علمت أين تكمن على وجه الحقيقة » • فقالت له : « وهذا ما سوف أفعله » • فقال : « ان روحى لا تكمن فى عتبة مسكنى كما أخبرتك • وانما هنالك لوح حجرى يقع تحت عتبة المسكن ، وتحت هذا اللوح يرقد كبش مخصى ترقد بطة داخل معدته ، كما أن هناك بيضة داخل معدة هذه البطة • وبداخل هذه البيضة تقع روحى » • فلما خرج العفريت فى الصباح ، رفعت الزوجة وزوجها الحجر وأخرجوا الكبش المخصى ثم شقا بطنه وأخرجوا

اللبطة وانتزعا من تجويفها البيضة • وأخذت الزوجة البيضة بين يديها وهشمتها • ومع هذا الوقت كان العفريت عائدا الى وكره في غسق الليل • فلما تهشمت البيضة خر ميتا •

ومرة أخرى تقرا في حكاية من حكايات « أرجيليشاير » ، ان ملك « سورشا » وكان ماردا مهولا ، اختطف زوجة راع من « كروواشان » وأخفاها في الكهف الذي كان يسكنه • وبعد جهيد تمكن الراعي بمساعدة بعض الحيوانات الخيرة أن يصل الى هذا الكهف الذي أخفى فيه الملك المارد زوجته • ولما كان المارد ، لحسن الحظ ، متغيبا ، فقد أخفت الزوجة زوجها في مكان علوى من الكهف وغطته ببعض الملابس • فلما وصل الملك المارد أخذ يتشمم حوله وقال لها : « اننى أشتم رائحة شخص غريب في هذا الكهف » • فأنكرت الزوجة ذلك وأوحت اليه بأنه انما يشتم رائحة طائر صغير قامت بشوائه • على أنها قالت له متوسلة : « ولكننى أود أن تخبرنى ، أين تكمن روحك ، حتى يمكننى أن أرهاها » • فقال لها : « إنها تكمن في حجر رمادى يقع بعيدا هناك » • فلما خرجت الزوجة في صباح اليوم التالى أتت بالحجر وألبسته رداء ووضعته في المكان العلوى من الكهف • فلما عاد المارد سألها قائلا : « ما هذا الشيء الذى يرتدى ذاك اللباس ؟ » • فقالت له : « انه روحك يا عزيزى • ولا بد من أن أرهاها » • فقال لها : « لقد أدركت الآن مدى حبك لى ، ولكن روحى ليست في هذا الحجر » • فسألته قائلة : « وأين هى اذن ؟ » فقال لها : « انها تكمن داخل شاة ذات لون رمادى وتعيش عند جانب التل » • فخرجت الزوجة في صباح اليوم التالى وأحضرت الشاة وألبستها رداء ووضعتها في الجانب العلوى من الكهف • فلما عاد في المساء سألها قائلا : « وما هذا الشيء الذى ألبسته الرداء على هذا النحو ؟ » فقالت له : « انه روحك يا عزيزى » • فقال لها : « ولكنها ما تزال بعيدة عن ذلك » فقالت له : « إنك تكلفنى اذن جهدا كبيرا في رعاية روحك • ولقد كذبت على مرتين متتاليتين » فقال لها : « اننى أعتقد الآن أنه يمكننى أن أخبرك

بمكانها الحقيقي ، ان روحى تكمن تحت قدم حصان كبير فى حظيرة الخيول ، فهناك فى مكان بعيد توجد بحيرة صغيرة ، وعلى سطح هذه البحيرة توجد سبع قطع من جلود الحيوان • وفوق هذه الجلود سبع حبات من المخلنج • وأسفل هذا كله توجد سبعة ألواح من خشب البلوط • وهناك فى البحيرة سمكة كبيرة بداخلها بطة تستقر فى جوفها بيضة • وأخيرا هناك شوكة سوداء داخل هذه البيضة • فإذا استطاع شخص أن يلوك هذه الشوكة بأسنانه فاننى أتوفى فى الحال • على أنفى أشعر أينما كنت اذا ما مس أحد قطع الجلود السبعة ، وحبات المخلنج السبع ، وألواح البلوط السبعة • واننى أحتفظ بفأس بأعلى باب الكهف ، وبدون الاستعانة بهذه الفأس فى قطع هذه الأشياء بضربة واحدة فانه لا يمكن الوصول الى قاع هذه البحيرة » • فلما خرج الملك المارد فى صباح اليوم التالى للقنص فوق التل • جاهد الراعى بمعونة الحيوانات الخيرة التى سبق أن ساعدته من قبل ، فى الحصول على الشوكة المصيرية ولاكها بأسنانه قبل أن يتمكن المارد من الوصول اليه • وما كاد يفعل هذا حتى سقط المارد جثة هامدة •

ويحكى أهالى « جيلجيت » التى فى مرتفعات الهند الشمالية الغربية حكاية شبيهة بهذه الحكاية • فهم يروون أنه كان يحكم « جيلجيت » فى سالف الأزمان ملكا غولا يدعى « شرل بادات » • وكان هذا الملك الغول يكلف أتباعه باختطاف الاطفال وتقديم لحومهم طعاما لغذائه ، ومن ثم كان يسمى « بأكل اللحوم البشرية » • وكان لهذا الملك الغول ابنة تدعى « سكبنه » أو « ميوكهاى » تعودت أن تقضى شهور الصيف فى مكان جميل يقع على قمة الجبال ، فى الوقت الذى كانت تصطلى فيه « جيلجيت » بحرارة الوادى الذى كانت تقع فيه بين الجبال • وذات يوم كان أمير وسيم يدعى « شامشير » يقتنص فى الجبال بالقرب من مصيف الاميرة • ولما تعب الامير من القنص استراح هو ورفاقه وقت الظهر القائظة فى ظل شجرة تقع بالقرب من نبع • فى تلك اللحظة ساق القدر ، أو ساق الصدفة خادمة

الأميرة الى هذا المكان ، لكي ترد من النبع . فلما رأت هؤلاء الغرباء نائمين في هذا المكان ، عادت الى سيدتها وأخبرتها بالامر . فغضبت الأميرة من تطفل هؤلاء على مكان اقامتها ، واستدعتهم اليها . ولكنها عندما وقع بصرها على الأمير الجميل ، هدا غضبها وأخذت تتحدث معه طويلا حتى المساء . وكان كلما طلب الأمير أن يهبط الجبل ، منعه الأميرة وطلبت منه أن يحكى لها عن مغامراته وأفعاله الباسلة . وفي النهاية لم تستطع أن تخفى مشاعرها ، وطلبت منه أن يتزوجها . فوافق الأمير في شيء من التردد لأنه كان يخشى عدم موافقة أبيها الشرير أن تتزوج من غريب مثله . ومن ثم فقد قررا أن يحتفظا بسرية زواجهما، وتزوجا في تلك الليلة بعينها .

وما كاد الأمير يفوز بالأميرة حتى أسرف في طموحه ، وأخذ يسعى لأن يكون ملكا على هذه المملكة . ومن ثم فقد أوعز الى الأميرة أن تقبل أباه ، وأن تحمل لواء الثورة ضده . ووافقت الأميرة بدافع حبها لزوجها ، أن تدبر معه مؤامرة قتل والدها . ولكنها أدركت أن هناك عقبة تحول دون اتمام مهمتها ، هي أن الملك الغول « شرى بادات » كان من سلالة الجان ، ومن ثم فلم يكن يخشى أن يطعن بسيف أو برمح لان هذه الاسلحة لم تكن تؤثر في جسمه ، كما أنه لم يكن أحد يعرف طبيعة روحه . ولهذا فقد كان أول واجب على الأمير الطموح ، لكي يحقق مأربه ، أن يعرف طبيعة روح هذا الملك الغول على وجه التحديد . ومن ذا الذي يستطيع أن يستمد منه هذا السر أكثر من ابنته . وذات يوم أخبر الأمير زوجته ، اما بدافع اشباع رغبتها في التخلص من أبيها ، أو رغبة منه في اختبار اخلاصها له ، بأنها لن ترى أباه قط اذا ما اصفرت أوراق شجرة بعينها وذبلت . ولما كان الوقت خريفا ، اذ كان الصيف قد أوشك على الانتهاء ، فقد أخذت أوراق تلك الشجرة في الاصفرار والذبول . وظنت الأميرة أن ساعة وفاة أبيها قد حانت . وعند ذاك هبطت الجبل وهي تعول ، ربما بدافع وخز ضميرها ازاء الجريمة التي ترتكبها ضد أبيها ، ورحلت الى « جيلجيت » . ولشدة

دهشتها أبصرت أباه الملك الغول يتمتع بكامل صحته ويتناول غذاءه كعادته من لحم الأطفال • فتراجعت الى الوراء ، واعتذرت عن اقتحام جلسة أبيها وأخبرته بأن قديسا أنبأها بأنه مع ذبول أوراق شجرة بعينها تذبل حياة أبيها ويموت • ثم قالت له : « وفي هذا اليوم أبصرت أوراق تلك الشجرة وهي تذبل فخشيت عليك ، وجئت أرتمي عند قدميك • ولكن شكرا لله أن هذه النبوءة لم تتحقق وأن هذا القديس قد أثبت أنه نبي مزيف » • وتحرك قلب الغول بعاطفة البنوة وقال لها : « ليس في وسع أحد في الوجود يا بنتي العزيزة أن يقتلني ، لأنه ما من أحد يعرف طبيعة روحى • فكيف يتسنى لأحد أن يقتلني دون أن يعرف طبيعتها ؟ ان القدرة على ايدائي فوق مقدرة أى انسان » • وعند ذاك أجابت الاميرة بأن سعادتها تتوقف على حياته وعلى أمنه ، وحيث انها تعلم أنها أعز ما لديه في الوجود ، فليس عليه أن يخشى أن يطلعها على سر روجه ، لأنها اذا عرفت هذا السر ، ففى وسعها أن تأخذ حيطتها ضد أى فال شرير ، وأن تحميه ضد الاخطار التى تتهدده ، وبذلك تؤكد حبها لأبيها عندما توقف حياتها على أمن والدها • ولكن الأب الغول الحذر لم يكن يثق فيها ، وحاول أن يصرفها عن معرفة الحقيقة ، كما فعل « شمشون » ، وكما يفعل المردة فى الحكايات الخرافية ، باعطائها اجابات مراوغة أو خاطئة • ولكنه كشف لها فى نهاية الامر عن سره الخطير عندما غلبه لجأها أو عندما طمأنه تملقها • فقال لها ان روجه مصنوعة من الزبد • فاذا رأت نارا مشتعلة فى قلعبته أو حولها ، فلتعلم حينذاك أن هذا يكون آخر يوم فى حياته ، اذ كيف يمكن لزبد روجه أن يقاوم لهيب النار المشتعلة • ولم يكن يعلم الأب الغول أنه بقوله هذا كان يدع سره فى يد امرأة ضعيفة وابنة عاقبة كانت تدبر مؤامرة للقضاء عليه •

وبعد أن قصت الابنة الغادرة مع أبيها السليم النية بضعة أيام ، عادت الى مصيفها فوق التلال حيث كان ينتظرها زوجها شامشير بفارغ الصبر • وسعد كل السعادة عندما أطلعت على سر روح أبيها • ولما كان

الزوج قد عزم على أن يبذل كل ما في وسعه لأن يقضى على هذا الملك الغول ، فقد وجد الآن الطريق ممهدا لأن يحقق رغبته • وقد استعان في تنفيذ خطته بأتباع الملك الذين كانوا يتوقعون شغفا لأن يتخلصوا من هذا الغول ، وبذلك ينقذون من تبقى من أطفالهم من شرايته • وقد كان أتباع الملك عند حسن ظن الأمير ، فما ان علموا بأن هناك من يود تخليصهم من هذا الغول ، حتى انضموا اليه طوعا واستعد الجميع للقضاء على هذا الوحش في عرينه • وقد كانت الخطة التي عمدوا اليها بسيطة للغاية إذ كان عليهم أن يشعلوا النار حول القلعة ، فتتصهر بتأثير حرارتها روح الملك وتتحلل • على أن الأمير أرسل زوجته الى أبيها في « جيلجيت » قبل أن يقوم بتنفيذ خطته ببضعة أيام بعد أن أصدر اليها أوامر صارمة بأن تحتفظ بسرها ، حتى تثبت في نفس أبيها الغول احساسا بالطمأنينة • وبذلك أصبح الجو معسدا لتنفيذ الخطة • فعندما أرخى الليل سدوله ، خرج الناس من بيوتهم يحملون المشاعل وحزما من الخشب • وعندما اقتربوا من القلعة ، بدأت تشعر روح الملك المصنوعة من الزبد بالقلق وتملكه احساس بالضجر • وعند ذاك أرسل ابنته في ساعة متأخرة من الليل لتعرف سر هذا الاحساس الغريب الذي تملكه • فخرجت الابنة الخائنة الخادعة الى الخارج وتلكأت بعض الوقت حتى تترك الفرصة للمتمردين لكي يصبحوا على مقرب من القلعة ، ثم عادت الى أبيها وحاولت أن تؤكد له أنه إنما يشعر بخوف كاذب ، اذ لم يحدث قط شيء يبعث في نفسه هذا الاحساس بالقلق • ولكن احساس الملك الداخلي بالخطر الداهم كان أقوى من أن تريله محاولات ابنته المخادعة • فخرج من حجرته ليرى أن ظلام الليل قد محته مشاعل النار التي تحيط بالقلعة • ولم يكن هناك وقت للتردد أو التلكأ ، وسرعان ما اتخذ قراره ، فقفز في الهواء متجها نحو « شوتورخان » ، وهي منطقة ثلجية تقع بين الجبال العالية التي تحيط « بجيلجيت » ، وهناك أخفى نفسه تحت الثلوج • ولما لم تذب روحه هناك بين الثلوج ، فقد ظل يعيش هناك حتى هذا اليوم • ومع ذلك فما زال سكان جيلجيت يعتقدون أنه

سيعود يوما ليحكمهم ويلتهم أطفالهم بغيظ مضاعف • ومن ثم فانهم يحتفظون بنار كبير مشتعلة طوال ساعات ليلة ليالى شهر نوفمبر — وهو اليوم الذى يعد ذكرى لهروب هذا الغول من جيلجيت حتى يطردوا شبح هذا الملك اذا ما حاول الرجوع اليهم • وفى تلك الليلة لا يجرؤ أحد على النوم ، ولذلك فهم يصرفون الوقت فى الرقص والغناء حول النار المضطربة •

وهنا يتضح التطابق العام بين هذه الحكاية الهندية وحكاية شمشون ودليلة من ناحية • والحكايات السلافية والكلتية من ناحية أخرى • وربما كان هذا التشابه أكثر اقترابا لو أن قاص الحكاية الهندية كان قد ذكر الاجابات المزيفة المضللة التى يمكن أن يكون الغول قد قدمها لابنته فيما يختص بسر روحه • ذلك أنه بمقارنة هذه الحكاية بالحكايات السلافية والعبرية والكلتية التى تشبهها ، فإنه يحق لنا أن نفترض أن الغول الماكر قد خدع ابنته عن طريق التظاهر بأن روحه تستقر فى أشياء لاعلاقة لها بها • وربما كانت احدى اجاباته المضللة لابنته هى أن روحه تستقر فى أوراق شجرة بعينها ، حتى اذا اصفرت أوراق تلك الشجرة ، فإن هذا يكون علامة على موته • ولكننا نرى أن هذه النبوءة الخاطئة قد قيلت على لسان شخص ثالث بدلا من أن يقولها الغول نفسه •

وبينما تبدو وجوه التشابه بين هذه الحكايات السلافية والكلتية والهندية من ناحية ، وحكاية شمشون من ناحية أخرى فى فكرتها العامة ، فإنها تختلف عنها فى جانب واحد مهم على الأقل • فتعاطف القارئ فى حكاية شمشون يتركز حول الساحر المخدوع الذى يصور بصورة محبوبة بوصفه شخصية وطنية وبطل قوم ، فنحن نعجب بأعماله ، ونشفق عليه فيما تحمله من أذى حتى مات • كما أننا فى الوقت نفسه نشمئز من خداع تلك المرأة الفاجرة الماكره التى جرت عليه بحبها الزائف مصائب لم يكن ينتظرها من جانبها • أما فى

الحكايات الهندية والكلتية والسلافية ، فان التركيز الدرامي حول هذا الموقف عكس هذا تماما ، ذلك أن المشعوذ يصور في صورة غير مستحبة بوصفه ساحرا يمارس قوته الخارقة في تحقيق أغراض شريرة ، ومن ثم فنحن نمقت جرائمه ، ونبتهج لهزيمته • كما أننا نصفق للمرأة الماكره التي أفشت سره لأعدائه ، أو نحن نغفر لها على الأقل هذا الخداع ، لأنها لم تكن تبغى سوى الانتقام من شر لحق بها هي وبقومها من قبل هذا الساحر • وبناء على ذلك فان دور كل من الشرير والضحية ينعكس في الأدباء المختلفين لموضوع واحد • ففي حكاية شمشون ودليلة يصور شمشون بوصفه الضحية البريئة ، كما تصور المرأة بوصفها الشخصية الشريرة الماكرة • أما في الحكايات السلافية والكلتية والهندية ، فان الساحر يمثل شخصية الشرير الماكر ، في حين أن المرأة تقوم بدور الضحية البريئة ، أو أنها على الأقل تقوم بصفة عامة بدور الزوجة المخلصة لزوجها ولقومها • وقد لا يساورنا شك كبير في أنه لو كانت لدينا الرواية الفلسطينية لحكاية شمشون ودليلة ، لوجدنا الوضع يختلف بالنسبة للشرير والضحية عنه في الحكاية العبرية ، فربما وجدنا شمشون مصورا بوصفه الشرير المخادع الذي سلب وقتل الفلسطينيين العزل ، ولربما بدت لنا دليلة بوصفها الضحية البريئة لشراسة شمشون ، ولكنها سعت بسرعة بديتها وشجاعتها النادرة أن تنتقم في الحال مما لحق بها من شر ، وأن تخلص قومها من هذا الوحش الذي طالما عذبهم في قسوة • ففي حالة النزاع بين الشعوب يختلف موقف البطل والشرير وفقا لاختلاف نظرة كل شعب له ، فقد يبدو الرجل نفسه أروع بطل اذا نظر اليه من الجانب الآخر • كما أننا نراه من وجهة نظر شعب من الشعوب محاطا بأكاليل الزهور ، بينما نراه من وجهة شعب آخر مرجوما بالأحجار • أى أننا يمكننا أن نقول على وجه التقريب ، ان كل شخص استطاع أن يثبت وجوده في خضم الحوادث التاريخية المضطربة ، انما هو أشبه بالمهرج الذي يرتدى رداء تتعدد ألوانه • وهذه الألوان تختلف حيثما نظر اليها من الأمام أو من الخلف أو من اليمين أو من اليسار •

فكل من أعدائه وأصدقائه ينظرون اليه من جانبيين متقابلين ، ومن الطبيعي أن كلا منهما لا يرى إلا اللون الذي يراه من ناحيته • ومن ثم كان من واجب المؤرخ المنصف أن ينظر الى هؤلاء المهرجين من كل جانب وأن يصورهم بأرديتهم ذات الألوان المتعددة ، ولا يصورهم في أردية بيضاء فحسب كما يبدون لأصدقائهم أو في أردية سوداء فحسب كما يبدون لأعدائهم •

الفصل الثالث

حزمة الحياة

عندما يترك المسافر الأراضي الخصبة التي تتوسط أرض الميعاد ، ويتجه شرقا الى البحر الميت ، فانه يخترق في بداية الأمر سلسلة من التلال الممتدة والوديان التي تغطيها الحشائش والنباتات الطفيلية . فاذا استمر في سيره في هذا الاتجاه فان المنظر الطبيعي يتغير أمامه ، اذ تختفي أمامه الأعشاب الخضراء والنباتات الشوكية ، ويجد نفسه يمر تدريجيا في منطقة جرداء جافة ، هي عبارة عن مساحات هائلة من الرمال ذات اللون الأصفر أو البني ، ومن الأحجار الجيرية المتفتتة ، والحصى المبعثر . ولا يخفف من حدة جفاف هذه المنطقة سوى مجموعة الشجيرات الشائكة والنباتات المتسلقة ذات العصارة . وبعد ذلك لا تكاد تقع العين الى مسافة عدة أميال على شجرة أو مسكن لانسان ، أو على أي مظهر من مظاهر الحياة . انما هي مجرد سلاسل من التلال المتشابهة التي تنتظم في تتابع لا نهائي رتيب ، فهي جميعا ذات لون أبيض ، منحدره وضيقه ، كما يتخلل جوانبها عذد لا نهاية له من الأجراف الجرداء . وتلوح للمسافر قممها وهي تعلو الى السماء في حدة وصلابة ، وذلك في أثناء صعوده من المسطحات العريضة التي يكسوها الطين الأبيض الناعم وتخترقها أحجار الصوان التي تعزل كل سلسلة من التلال عن السلسلة الأخرى التي تقع خلفها . وتبدو المنحدرات الأكثر قربا لهذه التلال المنعزلة ، كما لو كانت الأمطار الغزيرة المفاجئة قد مزقتها وشقققتها . أما المرتفعات التي تقع على بعد فتوحى بأنها أكوام من الرماد ذات شكل شيطاني . وفي بعض الأماكن يسمع لوقع أقدام الخيل صوت عميق ، وفي بعض الأماكن

الأخرى تنزلق الأحجار والرمال من تحت حوافر الخيل • أما في
الأخاديد العديدة فإن الصخور تتوهج بتأثير حرارة الشمس الحارقة
التي تتسلط عليها من سماء تخلو كلية من السحب • فإذا استمر
المسافر في طريقه شرقا ، فإن الطبيعة المنعزلة التي تحيط به هنا
وهناك تتألق بين اللحظة والأخرى بمرأى البحر الميت بمياهه التي
تضرب الى الزرقة الدكناء تجرى في تجويف بين التلال عاكسة بذلك
نوعا من التناقص الممتع بين زرقتها المتلألئة وألوان الصحراء الرتيبة
الجافة • حتى إذا صعد المسافر آخر سلسلة من هذه التلال ، ووقف
على حافة الصخور الكبيرة ، فإنه يفاجأ أمامه بمنظر رائع ، فهناك
أسفل منه بجوالى ألفى قدم يقع البحر الميت واضحا كل الوضوح
ممتدا من طرفه الأدنى الى طرفه الأبعد ، كما تبدو له شواطئه التي
تتكون من صخور صلبة صخرة تلو الأخرى وندوءات يقع بعضها وراء
بعض تفصلها الأخاديد العميقة التي تتخللها أراض تتوغل في المياه
الزرقاء المهادئة ، بينما تشمخ جبال موآب وراء البحيرة حتى تختفى
في الأفق البعيد ملتحمة بالسماء ذات اللون اللازوردى • فإذا اخترق
المسافر البحر الميت عبر ينابيع « عين جدى » فإنه يجد نفسه فوق
قمم صخور مدرجة ذات شكل عمودى على وجه التقريب ، قد نحت
فيها درب ملتف ذو صخور خشنة يؤدي الى سهل في شكل حدود
ينحدر الى حافة المياه • وفي هذا الدرب يتحتم على المسافر أن يترجل
ويقود حصانه في حرص وهو يهبط هذا الدرب المنحدر كل الانحدار •
غذا كان وراءه مسافرون آخرون ، فأنهم يخطون في حذر ، لأن أية
انزلاق لأقدامهم قد ترحلهم حرجا يتدحرج في سرعة الى أسفل ويصيب
المسافر الذى يسير في أمان عبر الدرب • وعند سفح هذه الكتل
الصخرية يتفجر نبع « عين جدى » (النبع الطفل) من فوق الصخر
بمياهه الدافئة الغزيرة في شكل شلال يتدفق وسط واحة نضرة تنمو
فيها نباتات نصف استوائية • وكل هذا يفاجئ المسافر كل المفاجئة عندما
يجد نفسه قد ترك البرية القفر التي تخلو منها المياه بعد أن قضى
ساعات في عبور أرضها الوعرة • وهذه البرية هي التي أطلق عليها

العبريون اسم « يشمون » أى الخراب أو برية يهوذا • وهى تمتد من مياه البحر الميت المرة والصالفة فى الوقت نفسه ، حتى جبل الزيتون على بعد ساعتين من بوابات معبرون (الخليل) وبيت لحم وأورشليم •

والى هذه البرية الموحشة هرب داود من عدوه المعتيد « شاعول » الذى ظل يقتفى أثره ، طالبا الحماية • وبينما كان يختبئ هناك مع عصابة من الرجال المهزومين الذين جمعهم من حوله ، زارته « أبيجايل » المرأة الجميلة الحكيمة زوجة المزارع الغنى « نابال » الذى كان يمتلك قطعانا من الغنم ، والذى كان قد تعهد له الشاب الطريد داود فى صدق بالغ ألا يسرق غنمه • على أن المزارع الساذج اللفظ لم يدرك قيمة هذه الخدمة التى تقدمها له هؤلاء المطاردون ، ورفض بازدراء ما طلبه منه زعيمهم فى أدب جم أن يزوده بسلفة من المؤن • وحركت هذه الالهانة احساس داود البالغ بكرامته ، ومن ثم فقد اتخذ طريقه عبر النشلال الى هذا المزارع على رأس أربعمئة رجل من أشداء الرجال ، كل منهم يحمل سيفه العريض فى جنبه • وكان داود على وشك أن يتخذ طريقه مباشرة الى مزرعة هذا المزارع عندما قابلته زوجته التى استطاعت بكلماتها الرقيقة أن تلطف من حدة كبرياء الزعيم الغاضب ، بل انها أتت اليه بما هو أفضل من الكلمات ألا وهو قافلة من الحمير المحملة باللحوم والشراب من أجل جماعته التى كاد المجوع أن يقتلها • فى الحال تبدد غضب داود بتأثير جمال المرأة وكلماتها الناعمة وبمراى الحمير المحملة بالزاد • واستقبل داود الزوجة التى جاءت لتعتذر عن تصرفات زوجها بلطف جم ووعداها ألا يتعرض له بخطر • ولكنه لم ينس أن يلمح لها بنظرة معبرة بأن الشمس لم تكن لتشرق على مزرعة زوجها فى صباح اليوم التالى ، لو لم تهم بمقابلته • وبعد ذلك تركها داود بعد أن خلع عليها بركته ، ثم ولى ظهره هو وجماعته ، وقافلة الحمير من ورائه ، وعاد الجميع من حيث جاءوا بعد أن قطعوا على أنفسهم العهد ألا يتعرضوا لهذا المزارع بسأى

أذى • أما الزوجة فربما ابتسمت وتنهدت وهي تنظر خلفها ترقب هؤلاء الرجال الأشداء الذين أحرقت الشمس وجوههم ، وهم يواصلون الخطو في رشاقة حتى اختفوا وراء أقرب سلسلة من التلال • ثم عادت الى بيتها وقد انزاح عن قلبها عبء ثقيل ، لتجد زوجها المزارع الساذج مع رجاله يعبون الشراب بعد أن فرغ من جز الخراف بوقت طويل ، دون أن يشغل باله بما قد حدث فوق التلال • فتركت الزوجة الحكيمة زوجها على ما هو عليه ، دون أن تطلعه على شيء مما حدث • ولكن عندما أفاق الزوج في اليوم التالي أخبرته بما فعلته ، وفي الحال شعر الزوج بأن قلبه كاد يكف عن الخفقان ، إذ كانت الصدمة أكبر من أن يتحملها الزوج • ولم تكد تمضي عشرة أيام حتى كان قد لفظ أنفاسه • وبعد مرور بعض الوقت على وفاته خرجت الأرملة فوق التلال لتلحق بزعيم العصابة المطاردة •

وهناك عبارة تستلقت نظرنا بين عبارات الاطراء التي ذكرتها « ابيجايل » الساحرة لداود المرهف الحس ، عند مقابلتها الأولى له • فلقد قالت له : « وقد قام رجل ليطاردك ويطلب نفسك ولكن نفس سيدي لتكن محزومة في حزمة الحياة مع الرب الهك وأما نفس أعدائك فليرم بها كما من وسط كفة المقلاع » (١) ••

ومما لا شك فيه أن هذه العبارة استعارية ، ولكن الاستعارة فيها غريبة وغامضة بالنسبة لأي كاتب انجليزي • ومعزى هذه العبارة هو أن أرواح الأحياء يمكن أن ترتبط في حزمة ضمانا لسلامتها • أما في حالة أرواح الأعداء فإن الحزمة تحل وتتبعثر أرواحهم منها وتذروها الرياح • ولا يمكن أن تعترى الشخص العبرى هذه الفكرة حتى وإن كانت مجرد صيغة تعبيرية ، ما لم تكن هذه الفكرة ترتبط في ذهنه بعقيدة تتصل بنظرتهم الى الروح • وإذا كان هذا التصور يبدو من وجهة نظرنا نحن الذين نرى أن الروح تظل ملازمة للجسد طالما كانت الحياة

(١) سفر صموئيل الأول ، الاصحاح الخامس والعشرون آية ٢٩ •

تدب فيه ، منافيا للطبيعة ، فهو قد يبدو طبيعيا بالنسبة للشعوب الأخرى
التي يختلف تصورها للحياة عن تصورنا كل الاختلاف . فهناك في
الحقيقة عقيدة تنتشر بين الشعوب البدائية انتشارا واسعا ، تتخلص
في أن الأرواح يمكن أن تغادر الجسد ، بل انها كثيرا ما تغادره ، دون
أن ينجم عن هذا الوفاة العاجلة . فالأشباح والشياطين وأشرار الناس
الذين يحملون ضغينة لشخص ما — كل هؤلاء يقومون بسرقة الروح
من الجسد بقصد القضاء على صاحبها . واذا نجحوا في ذلك وتمكنوا
من اعاقبة الروح فترة طويلة ، فان صاحبها يمرض ويموت . وهذا هو
السبب في أن الناس الذين يوحدون بين أرواحهم وظلالهم أو صورهم
التي تنعكس على مسطح عاكس ، يخافون كل الخوف من آلة
التصوير ، لأنهم يعتقدون أن المصور الذي صور أشكالهم ، قد انتزع
أرواحهم أو ظلالهم معها . وها هو ذا مثال من بين عشرات الأمثلة
التي تؤيد هذا القول . نصب مستكشف آلة تصويره في قرية من
القرى التي تقع في أدنى مجرى نهر « يوكون » في « ألاسكا » ، وذلك
لكي يأخذ صورة للاسكيمو وهم يتحركون بين بيوتهم . وبينما كان
يركز آلة تصويره على هذا المنظر جاءه زعيم القرية وأصر على أن
ينظر معه أسفل قطعة القماش . فلما سمح له المستكشف بذلك ، ونظر
هنيهة على الأشكال المتحركة على زجاج العدسة ، رفع رأسه
على التو وأسرع الى قومه وقال لهم : « احذروا ، فلقد أخذ كل ظلالكم
في صندوقه » وعند ذاك دب الذعر بين الناس ، واختفوا في لحظة في
فوضى واضطراب في بيوتهم . فآلة التصوير ، أو مجموعة الصور ،
تعد وفقا لهذه العقيدة حزمة من الأرواح أو صندوقا ترص الأرواح
فيه ، كما يرص السردين في العلب استعدادا لتصديره .

وقد تنتزع الأرواح من الأجسام لتحقيق غرض خير . فالرجل
البدائي يعتقد فيما يبدو أن الانسان لا يبتلى بالموت ، طالما كانت
روحه غير معرضة للأذى ، سواء كانت داخل جسمه أم خارجه . وبناء
على ذلك فان الرجل البدائي يتصور أنه اذا نجح في انتزاع روحه

من جسده والاحتفاظ بها في مكان ما بعيدا عن أى سوء ، فانه سيظل خالدا ، طالما بقيت روحه في هذا المأمن بعيدة عن الأذى وعن الازعاج . ولذلك فان الرجل البدائي القلق على حياته ينتزع روحه أو روح صديقه في بعض الأحيان في أوقات الخطر في حرص بالغ ، ويودعها في مكان آمن ، حتى يزول الخطر ثم يستعيدها بعد ذلك . ومثال ذلك أن كثيرا من الشعوب تعد الانتقال من بيت لآخر فترة عصيبة تحيط فيها الاخطار بأرواحهم . وفي مثل تلك الظروف العصيبة ، يجمع الكاهن في « ميناهاسا » وهو اقليم في « سيليبس » ، أرواح الأسرة في حقيبة يحتفظ بها عنده حتى يزول الخطر ، ثم يعيد كل روح على حدة الى صاحبها . وعندما يحين الوقت الذي تضع فيه المرأة طفلها في سيليبس الجنوبية ، فان الرسول الذي يذهب ليستدعى الطبيب أو الداية يأخذ معه سكيناً حادة أو أى آلة أخرى مصنوعة من الحديد . وهذه الآلة التي يحملها معه تمثل روح المرأة التي يعتقد أنها تكون أكثر أمانا اذا كانت خارج جسدها في هذا الوقت العصيب . ومن ثم فانه يتحتم على الطبيب أن يحرص على هذه الآلة ، لأنها متى فقدت ، فان روح المرأة تفقد معها . ولهذا فهو يحتفظ بهذه الآلة في بيته حتى تنتهي المرأة من وضع طفلها ، وعند ذاك يحمل اليها الوديعة الثمينة ويتسلم أجره منها . وفي جزر « كاي » تشق ثمرة جوز هند مجوفة إلى شقين ، ثم يلحم الشقان بعناية وتعلق الثمرة في بعض الأحيان كما رأينا ذلك . وهذه الثمرة تحتضن روح الطفل المولود حتى لا تقع فريسة للأرواح الشريرة ان لم يحتفظ بها على هذا النحو . وتظل الروح في حالة غير مستقرة بين هذين الشقين حتى يلتحما تماما . ويتخذ الاسكيمو في ألاسكا إجراء احتياطيا شبيها بهذا الإجراء للمحافظة على روح الطفل المولود . فالطبيب يحول الروح الى شكل تعويذة سحرية يضعها في حقيبته ، وبذلك تكون الروح في مأمن من أى أذى أينما وضعت هذه الحقيبة . وعندما تخرج المرأة في نيوغينيا الجنوبية الشرقية حاملة طفلها في حقيبة « يتحتم عليها أن تربط في ازارها فرع نبات متسلق

من أى نوع ، ومن الأفضل أن تربطه فى الحقيقة التى يستلقى فيها
الطفل ، بحيث يجرجر وراءها على الأرض • فإذا حدث أن تجول روح
الطفل خارج جسده فإنه ينبغي أن يعد للروح شئ يتمكن من التسلق
عليه حتى يدخل الجسد مرة أخرى وهل هناك وسيلة مناسبة تعين الروح
على التسلق أكثر من هذا النبات المتسلق الذى يصادفه أمامه
فى الطريق ؟ •

وربما كانت أكثر الأمثلة قرباً من « حزمة الحياة » ، حزم
« شورونجا » وهى عبارة عن مجموعة من الأحجار المسطحة المسواه
ومن العصى التى تحتفظ بها قبيلة « أرونوتا » وبعض القبائل الأخرى
التي تسكن استراليا الوسطى بعناية كبيرة وسرية تامة فى كهوف
وشقوق الصخور • وكل حجر من هذه الأحجار السحرية ، وبالمثل
كل عصا ترتبط ارتباطاً وثيقاً بروح فرد من أفراد العشيرة حيا كان
أم ميتاً • ذلك أنه بمجرد أن تدخل روح الطفل بطن أمه لكى يولد
فيما بعد ، يوضع حجر من هذه الأحجار أو هذه العصى فى المكان
الذى شعرت فيه المرأة لأول مرة بحركة فى بطنها • ثم يأخذ الزوج
بمغونة الزوجة فى البحث عن حجر هذا الصبى أو عصا • فإذا عثرا
على الحجر أو انتزعا العصا من أقرب شجرة صلبة ، فإن الأب يسلمها
الى زعيم حيه الذى يودعها بدوره مع سائر الأحجار والعصى فى
المخزن المقدس الذى يقع بين الصخور • وكثيراً ما تربط هذه الأحجار
فى شكل حزم • وهى تعد أكثر الممتلكات قدسية عند القبيلة ، وتحجب
الأمكنة التى توضع فيها بمهارة عن الأنظار ، فتوصد مداخل الكهوف
بالأحجار التى ترص بطريقة طبيعية للغاية حتى لا تثير حولها الشكوك •
ولا يعد المكان الذى تخبأ فيه الأحجار والعصى وحده مقدساً ، وإنما
يشتركه هذه القدسية كل ما يحيط به • فلا ينبغي أن تمس النباتات
والأشجار التى تنمو من حوله بأى حال من الأحوال ، كما لا ينبغي
التحرش بالحيوانات التى تتجول من حوله • وإذا تمكن شخص هارب
من أعدائه أو من الآخذ بثأره منه ، أن يلجأ الى هذا المكان المقدس ،
فانه يظل فى أمان طالما بقى فى نطاق حدوده • ويعد فقدان هذه

« الشورونجا » ، وهو الاسم الذى يطلق على هذه العصى والأحجار التى ترتبط بأرواح أحياء ووفيات جماعة من الجماعات ، أكثر الشرور خطرا يمكن أن تحل بهذه الجماعة • فإذا سرققتها منهم جماعة من البيض المتهورين ، فان الأهالى ، كما يعرف ذلك عنهم ، لا يبرحون خيامهم طول أربعة عشر يوما ويكون فى أثنائها وينتحبون على خسارتهم ويطلون أجسامهم بالجص ، وهو شعار الحزن على الأموات عندهم •

وتعد هذه المعتقدات والممارسات التى تنتشر فى استراليا الوسطى فيما يختص « بالشورونجا » وكما سبق أن لاحظ ذلك « مسرز » و « سبنسر » و « جيلين » بحق : « تحويرا للفكرة التى عبرت عنه شعوب كثيرة ، والتى ، وفقا لها ، ينظر الرجل البدائى الى روحه بوصفها شيئا ماديا يمكن أن يضعه ، وفقا لتصوره ، فى مكان آمن بعيدا عن جسمه اذا تطلبت الضرورة ذلك • فإذا تعرض جسمه للخطر بشكل أو بآخر ، فان روحه التى تقع بعيدا عن جسمه • تظل بعيدة عن الأذى » • على أن الأرونتين فى العصر الحاضر لا يعتقدون فى أن هذه الأحجار والعصى المقدسة هى المكان الحقيقى الذى تستكن فيه أرواحهم ، بمعنى أن تحطيم احدى هذه العصى أو الاحجار يؤدى بالضرورة الى هلاك الرجل أو المرأة أو الطفل الذى ترتبط روحه بهذا الحجر أو بتلك العصا • ولكننا نصادف فى تراثهم أخبارا واضحة عن أن أجدادهم كانوا يودعون أرواحهم فى هذه الأشياء المقدسة • فقد قيل على سبيل المثال ، ان بعض الرجال الذين ينتسبون الى الطوتم « القط البرى » ، كانوا يحتفظون بأرواحهم فى الـ « شورونجا » التى تعودا أن يعلقوها على عامود مقدس فى المخيمة ، عندما يخرجون للقنص • فاذا عادوا من رحلتهم ، فانهم يأخذونها من العامود ويضعونها حيث كانت • والغرض من تعليق الـ « شورينجا » على العامود عندما تخرج الجماعة للقنص ، هو الاحتفاظ بأرواحهم فى أمان حتى يعودوا •

وبناء على ذلك فان هناك من الأسباب ما يدعونا بحق لأن نعتقد

أن حزم العصى والأحجار المقدسة التى ما يزال « الأرونتيون » وغيرهم من القبائل التى تسكن استراليا الوسطى يحتفظون بها فى عناية كبيرة فى أماكن مقدسة ، كان يعتقد فيما سبق أنها مسكن لروح كل فرد من أفراد الجماعة • وطالما كانت هذه الحزم مربوطة ربطا محكما وموضوعة فى مكانها المقدس ، ظلت أرواح الناس كذلك فى أمان وفقا لهذا الاعتقاد • فإذا ما حل رباط هذه الحزم وتبعثر ما فيها ، فإنه ينجم عن ذلك أسوأ العواقب • وربما كان من قبيل المتسرع أن نؤكد أن الساميين البدائيين كان يحتفظون بأرواحهم فى العصى والأحجار التى كانوا يودعونها فى الكهوف وشقوق الصخور فى قفار بلادهم ، ولكنه ليس من قبيل المتسرع أن نؤكد أن مثل هذا الاعتقاد يمكن أن يفسر على نحو بسيط وطبيعى كلمات أبيجايل التى وجهتها للزعيم الطريد ، وهى : « وقد قام رجل ليطاردك ويطلب نفسك ، ولكن نفس سيدى لتكن محزومة فى حزمة الحياة مع الرب الهك ، وأما نفس أعدائك ، فليرم بها كما من وسط كفة المقلاع » •

ومهما يكن الأمر فإنه يبدو أن العبريين حتى زمن متأخر نسبيا ، كانوا يمارسون نوعا من السحر الذى يهدف الى القبض على أرواح الأحياء واحتجازها بقصد الحاق الضرر البالغ بهم • وقد أشار النبى « حزقيال » الى هؤلاء السحرة الذين كانوا يمارسون هذا السحر الأسود فى العبارة الآتية :

« وأنت يا بن آدم فاجعل وجهك ضد بنات شعبك اللواتى يتنبأن من تلقاء ذواتهن وتنبأ عليهن ، وقل هكذا قال السيد الرب • ويل للواتى يخطن وسائد لكل أوصال الأيدي ، ويصنعن مخدات لرأس كل قامة لاصطياد النفوس • افتصطن نفوس شعبى وتستحيين أنفسكن • وتتجسئن عند شعبى لأجل حفنة شعير ولأجل فتات من الخبز لامانة نفوس لا ينبغى ان تموت واستحياء نفوس لا ينبغى أن تحيا — بكذبكن على شعبى السامعين للكذب • لذلك هكذا قال السيد الرب • ها أنا ضد وسائدكم التى تصطدن بها النفوس كالفرارخ ، وأمزقها عن

أذرعكم وأطلق النفوس التى تصطدنها كالفراخ ، وأمزق مخداتكن وأنقذ شعبي من أيديكن ، فلا يكونون بعد فى أيديكن للصيد ، فلتعلمن أنى أنا الرب (١) .

ويبدو أن هذه الممارسات الشائنة التى كان يتبعها هؤلاء النساء اللاتى أشار اليهن النبى ، كانت عبارة عن محاولات للقبض على الأرواح الشاردة فى شبك وقطع من الأقمشة وبذلك يتمكن من قتل بعض الناس عن طريق امتهان أرواحهم امتهانا لا هوادة فيه ، كما يتمكن من انقاذ بعضهم الآخر ، وهم المرضى فيما يبدو ، وذلك عن طريق أسر أرواحهم الشاردة واعادتها الى أجسامهم . ومازال المشعوذون والسحرة فى كثير من بقاع العالم يقومون بمثل هذه الأفعال المشينة لتحقيق الغرض نفسه . فقد تعود زعماء « الفيجانين » على سبيل المثال ، أن يأسروا أرواح المجرمين فى أوشحة ، وعند ذاك يتعرض هؤلاء المساكين الذين سلبوا أهم جزء من أجسامهم الى الهزال ويموتون . وبالمثل كان المشعوذون فى « جزيرة الخطر » التى تقع فى الباسفيك ، يأسرون أرواح المرضى فى شرك ينصبونها بالقرب من بيوت المرضى ، ويظلون يراقبون الأرواح وهى تأتى خافقة حتى تأسر بين خيوط الشباك . ويعقب هذا وفاة المريض المحتمة ان أجلا أو عاجلا . وتصنع الشباك من خيوط متينة بها عقد ذات أحجام مختلفة لتأسر الأرواح ذات الأحجام المختلفة كذلك ، كبيرة كانت أم صغيرة ، سميئة كانت أم نحيلة . أما عند زنوج افريقيا الغربية ، « فينصب السحرة شركهم على الدوام لأسر روح المريض التى تهيم خارج جسده فى أثناء نومه . فإذا استطاعوا أسرها فانهم يربطونها ويضعونها فوق النار الموقدة فى زوارقهم ، وعند ذاك تحضر المريض الوفاة فى الموقت الذى ترتعد فيه الروح فوق النار . ولا يقوم السحرة بهذا العمل بدافع العداء الشخصى أو الانتقام ،

(١) سفر حزقيال الاصحاح الثالث عشر من آية ١٧ الى ٢١ .

بسل هو مجرد عمل عادي يقومون به على الدوام • ولهذا فان الساحر لا يأبه بشخصية الروح التي تقع في شركه لأنه سيتسلم أجره عند اعادة هذه الروح الى صاحبها ، بصرف النظر عن يكون الشخص الذي تنتسب اليه الروح • وبالمثل كان الأطباء السحرة الذين لم يكن تسمى هذه الأفعال التي سمعتم ، يحتفظون بملاجيء تلجأ اليها الأرواح الشاردة وهي الأرواح التي كانت تتجول ثم وجدت عند رجوعها الى الأجساد ، أن مكانها قد شغلتها المـ « سيسا » ، وهي روح تنتمي الى الطبقة الدنيا • وهؤلاء الأطباء يحتفظون بالأرواح ويرسلونها لتقدم المساعدة للمرضى العاجزين عن شفاء مرضهم • وقد حدث ذات مرة بين « الباوليين » الذين يسكنون ساحل العاج ، أن أخرجت روح زعيم من الزعماء بتأثير سحر أحد أعدائه الذي نجح في أن يأسرها في صندوق • عند ذاك أمسك رجلان برداء من أردية الزعيم ، بينما أخذت ساحرة تتلو بعض التعاويذ • ثم أعلنت الساحرة بعد وقت أن الروح قد أسرت في الرداء • وبناء على ذلك لف الرداء في سرعة حول الزعيم حتى يسترد روحه • ويقوم السحرة في الملايو بأسر أرواح النساء اللاتي وقعوا في حبهن ، في طيات عمائمهم ، ثم يصنعونها في أحزماتهم يتجولون بها نهارا • أما في أثناء النوم فإنهم يضعونها تحت وسائدهم • وقد تعود الكاهن بين « المتروود جانين » الذين يسكنون « سيلامبيس الوسطى » ، أن يدلى حول صدره وعلى ظهره خيطا رصت عليه القواقع البحرية التي يأسر بداخلها أرواح الأعداء ، وذلك عندما يخرج مرافقا لحملة حربية • وقد كانت هذه القواقع تسوى في شكل شعب ، وتعقف ، فاذا دخلت الروح القوقعة حالت الشعب والعقوف ، وفقا لتصورهم ، دون هروبها • أما الطريقة التي كانت يجرى بها الكاهن الروح حتى تدخل في الأسر ، فكانت تجري على النحو التالي : عندما يدخل المحاربون أرض الأعداء ، يرحل الكاهن الى القرية التي يرمون مهاجمتها • وهناك عند مدخل هذه القرية ، يضع الخيط الذي ترص فيه القواقع في شكل دائري ، ثم يدفن داخل الدائرة بيضة وأمعاء دجاجة تفاعل بها الجيش قبل خروجه

الى الحرب • ثم يهز الكاهن الخيط سبع مرات في هذا المكان ، ويستدعى أرواح الأعداء في هدوء ويذكر اسما من أسماء أفراد القرية ويقول : « ياروح فلان وفلان ، تعالى ودوسى على دجاجتى ، لقد نسبت اليك تهمة ارتكاب الخطأ ، فلتجىء » • ثم ينتظر هنيهة بعد ذلك ، فاذا سمع رنيننا للقواقع ، فان هذا يكون علامة على أن روح عدو من الأعداء قد دخلت المقوقعة حقا ، وأن المقوقعة قد أسرتها بداخلها • وفى اليوم التالى يذهب الرجل الذى وقعت روحه فى الشرك ، رغم أنفه الى المكان الذى ينتظر فيه الأعداء الذين أسروا روحه ، وبذلك يقع فى يسر فريسة فى أيديهم •

ومثل هذه الممارسات يمكن أن تعين على تفسير أعمال الساحرات العبريات اللاتى تحامل عليهن حزقائيل • اذ يبدو أن هؤلاء النسوة اللاتى كن طريقات المجتمع ، كن يأسرن الأرواح فى أوشحتهن عن طريق طرحها على رعوس ضحاياهم ، كما كن يحتجن أسراهم من الأرواح فى شباك كن يربطنها حول أذرعهن •

وبناء على ذلك فانه يبدو أن العبريين كانوا يحتفظون منذ عصورهم التاريخية الأولى بفكرة أن الروح تعد شيئا منفصلا عن الجسد ، وأنه من الممكن عزلها عن جسم الانسان فى أثناء حياته ، اما عن طريق أعمال السحر الشريرة ، أو بناء على رغبة الشخص نفسه الذى يسعى الى الاحتفاظ بها فى مكان آمن لمدة تطول أو تقصر • واذا كان أحد أنبياء بنى اسرائيل الكبار قد صور لنا السحرة العبرية وهى تقوم بعملها الشيطانى لاجتذاب أرواح الآخرين ، فربما قدم لنا نبى آخر كبير من أنبيائهم لمحة عن سيدة تنتمى الى الطبقة العليا فى اورشليم وهى تحمل روحها معها فى سلة صغيرة • فبعد أن وصف هذا النبى فى أسلوب من الطعن والسخرية تطهر بنات زيون (١) المتعاليات وتمسكن

(١) وقال الرب من أجل ان بنات صهيون يتشامخن ويمشين ممدودات الأعناق وغامزات بعيونهن وخاطرات فى مشيهن ويخششن بأرجلهن • يصلح السيد بنات صهيون ويعرى الرب عورتهم • ينزل السيد فى ذلك اليوم

بأهداب الدين ، هؤلاء اللاتى كن يسرن بعيون فاترة وخطوات وثيدة ،
أخذ النبى أشعياء يستعرض الجواهر والحلى والأردية والشيلان ،
وغير ذلك من الملابس والحلى المبهجة التى كانت هؤلاء النساء
المترفات الأنىقات يرتدينها • ومن بين قائمة الزينة الرخصية التى
ذكرها ، أشار الى « مأوى الروح » • وهذا التعبير الذى ترجم ترجمة
أدبية لا يتغير فى العهد القديم • وقد شرح المترجمون والشرح
المحدثون هذا المأوى بأنه « صناديق العطور » ، (وزجاجات العطور)
أو ما أشبه ذلك • ولكن ربما كان مأوى الروح هذا أشبه بتعاويذ كان
يظن أن روح حاملها تنسكن فيها • وقد أدرك المفسرون لعبارة النبى
هذه ، أن كثيرا من الحلى الرخيصة التى ذكرها النبى كانت بمثابة
تعاويذ سحرية فيما يبدو ، كما ما يزال يعد كثير من أنواع الحلى
الذى يرتديه الأشخاص فى الشرق حتى يومنا هذا • على أن الكلمة
التى تأتى بعد « مأوى الروح » فى النص العبرى ، نقلت فى « الترجمة
الانجليزية المعتمدة » الى كلمة « تعاويذ » : أما الكلمة العبرية الأصلية
فمستمدة من فعل معناه « أن يهمس » أو « أن يسحر » •

على أن تفسير « مأوى الروح » على هذا النحو ، لا يعنى
بالضرورة استبعاد تعريفها بأنها زجاجات العطور ، فقد كان مجرد
شم العطور من وجهة نظر شعب من الشعوب كالشعب العبرى الذى
كان يرى أن أساس الحياة هو التنفس ، يمثل مظهرا روحيا ، ومن ثم
فإن استنشاق عير الروائح العطرية يمكن أن يعمل على نماء الحياة
بالأنفاس • وبناء على ذلك فإنه من الطبيعى أن ينظر الى الشيء
نفسه الذى يتضمن هذه الروائح ، سواء كان زجاجة من العطر أو
بخورا ، أو زهرة ، بوصفه مركزا لاشعاع القوى الروحية ، أى أنه
مكانا مناسباً تنزود منه الروح بالأنفاس متى رغب الشخص أن يفعل

زينة الخلائيل والصفائر والأهلة والحلق والأساور والبراقع والعصائب
والسلاسل والمناطق وحناجر الشمامات والاحراز •
(اشعياء ، الاصحاح الثالث من ١٦ الى ٢٠) •

هذا لبعض الوقت • وربما كانت أقوال الشعراء خير ما يستعلن به
لتوضيح أفكار الشعب ومعزى هذه الأفكار • فالشاعر يقول :

لقد أرسلت لك في وقت متأخر إكليلا من الزهر

لا بقصد تيجيلي لك بقدر ما اننى

أبته أملى فى ألا يذوى

فلتتشقى عبيره

وترديه الى مرة أخرى

فطالباً كانت أزهاره مزدهرة وذات أريج عطر

فاننى لا أقسم بها ، بل بك

ويقول شاعر آخر • •

أيتها الورود الذابلة الجميلة

انك لم تصبحى بعد مكانا لحبى

فإذا كان يظن أن الجمال يضى من حياته وروحه على روح
الزهرة حتى تظل نضرة ، فليس غريبا أن المرأة نفسها تستعين كذلك
بزجاجة العطر حتى تظل روحها نضرة • ومهما يكن الأمر فإن هذه
الخيالات القديمة ان كانت قد عاشت بحق ، من الطبيعى أن تفسر
السبب فى اطلاق اسم مأوى الروح على زجاجة العطر • وعلى
كل فان المسادة الفولكلورية التى نشأت حول العطور لم تدرس بعد •
وربما استغناء الدارشن ، فى بحثه لهذا الموضوع كما هو الحال فى
بحث أى موضوع فولكلورى آخر ، من أقوال الشعراء الذين يدركون
بالفطرة ما ينبغى علينا أن نعلمه عن طريق الحقائق العملية • حقا
انه بدون لمساة الخيال الشاعرى ، يصعب علينا أن نتعمق مشاعر
الناس • ومن ثم فإن البحث العقلانى ذا العاطفة المفاخرة سيطر
يطرق دون جذرى مدخل عالم الخرافة المصنوعة من أكاليل الورود
السحرية • وإذا كان « جرائد جريد » من هؤلاء العقلانيين ، فان
البواب الذى يقف حارسا لمدخل عالم الخرافة ، لن يفتح له هذا
المدخل •

الفصل الرابع

ساحرة عين دوز

من الشخصيات المأساوية في تاريخ بني إسرائيل ، شخصية الملك « شاعول » أول ملك حكم الأمة اليهودية فقد طالب الشعب اليهودي بأن يحكمهم ملك مدني بعد أن أعلنوا تمردهم على حكم الكهنة الذين كانوا يتظاهرون لهم أنهم يحكمونهم باسم الرب وبارشاده المباشر . وقد كان آخر هؤلاء الأساقفة النبي « صموئيل » الذي رضح في اذعان لمطالب الشعب وعين « شاعول » ملكا على بني إسرائيل . وربما أشبهت هذه الثورة تلك الثورة التي يمكن أن تحدث في دولة البابا ، لو أن الناس بدافع احساسهم بالضغط الكنسي وسوء الحكم ، أعلنوا تمردهم ضد البابوات ، وأرغموا الأسقف الحاكم على أن يسلم الأصولجان الأرضي ، وهو ما زال ممسكا بمفاتيح السماء ، لحاكم مدني . وقد سعى صموئيل في براءة ، وهو الذي عرف بعنفه في سياسة الأمور بقدر ما كان من أكثر الشخصوس الكهنوتية صرامة ، لا أن يمسح « شاعول » فحسب ، بل عينه ملكا جديدا على شعبه ، تركزت من حول آمال بني إسرائيل .

وقد كانت تلك الشخصية التي وقع عليها اختيار صموئيل جديرة بأن تكسب اعجاب الناس وولاء الجماهير . ومما ميزه لأن يكون من الطبيعي جاكما على شعبه ، جسمه الفارع التي ينبض بالهياة ، وشهامته وجسارته وقيادته الماهرة ، وشجاعته الباسلة في ميدان الحرب . ومع ذلك فان هذا الجندي الشعبي الجسور ، كان يخفي وراء مظهره الزائع ، نقاط ضعف خطيرة في شخصيته ، فقد كان ينزع

الى الشك والغيرة ، كما كان صفراوى المزاج ، ضعيف الارادة ، متردداً فى اتخاذ قراراته • وكان فوق هذا كله مصابا باكتئاب ألح على فكره ، الذى لم يكن منظما على الاطلاق ، وكان يصل به فى بعض الأحيان الى مشارف الجنون • ولم يكن يخفف من حدة هذا الاكتئاب الذى يغشى نفسه عدة ساعات مظلمة سوى الألحان الموسيقية المهادئة • ومن أكثر الصور التى صورها له المؤرخ العبرى نابضة بالحياة ، صورة ذلك الملك الوسيم وهو يجلس غارقا فى كتابته ، بينما يقف داوود الصبى المنشد ذو الخدين الورديين ، يعزف على أوتار قيثارته الحانا عذبة ، حتى يخفى التقطيب من جبين الملك ويتصالح مع أفكاره المصطنعة •

وربما اكتشف « صموئيل » بعينه النفاذة هذه الجوانب الضعيفة فى شخصية « شاعول » ، وكانت هذه الجوانب موضع اعتباره ، عندما رضخ لرغبة الشعب فى أن يعين بدلا منه من يخلفه فى ادارة شئون البلاد العليا • وربما اعتمد على هذا عندما عين « شاعول » بوصفه الحاكم البراق والقناع المزخرف الذى يخفى بكل تأكيد وراء الملامح العسكرية للجندى الشجاع الدمث سيماء صارمة لنبي لا تلبس عريكته • وربما تصور « صموئيل » انه سيعامل الملك كما لو كان دمية تلبس التاج فوق رأسها وتمسك الصولجان فى يدها وترقص على المسرح القومى على أنغام طيف مؤتمرة بأمر من يقف وراء الأنظار • فاذا كان « صموئيل » قد قدر كل هذه الأمور عندما ساعد شاعول على اعتلائه العرش ، فان الأحداث قد أكدت صدق تقديره فيما بعد • فطالما كان صموئيل على قيد الحياة فان « شاعول » لم يكن سوى آلة فى أيدي صموئيل التى كانت تفوق بكثير قوة يديه • فلقد كان النبي « صموئيل » بحق احدى القوى النزاعة الى السلطة بطبيعتها وأحدى القوى المتعصبة التى صبت فى قالب من الحديد ، تلك القوى التى تسىء الى عزمها الذى لا ينتنى من أجل إرادة السماء ، فتسير قدما من غير انحراف الى هدفها ، ضاربة عرض الحائط بكل الاعتراضات

وقد أوصدت قلبها دون الاحساس بالشفقة وبالعاطفة الانسانية الرقيقة . وعندما كان « شاعول » مكتفيا بتنفيذ أوامر ناصحه المتعطرس ، ومعتزفا له بما في ضميره كما يعترف أمام الأب الروحي ، كان « صموئيل » يسمح له بأن يتبخر أمام الشعب ، وهو يحمل التاج الوهمي فوق رأسه . فلما حاول « شاعول » أن يحيد قيد انملة عن أوامر رئيسه الروحي ذى القلب المتحجر ، حطم صموئيل الملك الدمية وألقى به جانبا كما يلقي الانسان بآلة كفت عن القيام بوظيفتها . ثم عين النبي سرا خليفة لشاعول ، هو دواد المنشد ، وولى ظهره للملك الذى وخزه ضميره وأعلن توبته . ورفض أن يراه مرة أخرى ، بل انه أعلن عليه الحداد طوال حياته كما لو كان قد توفى بحرق .

ثم ساءت الأمور مع « شاعول » بعد ذلك . فبعد أن حرم الساعد القوية التى طالما ركن اليها طويلا ، تملكه العند والشرود أكثر من ذى قبل فزاد اكتئابه وتضاعفت شوكه ، ولم يعد يستطيع التحكم فى مزاجه الذى كان يتميز بالثقل ، فاستسلم لثورات الغضب وحاول الاعتداء على داود بل على ابنه يوناتان . وعلى الرغم من أن نوبات الغضب العاطفى كان يعقبها نوبات الحزن العاطفى ، فان أحدا لم يكن يخطيء ما انتاب طبيعته من تلف ، تلك الطبيعة التى كانت تتميز بالنبل ذات يوم .

وفى الوقت الذى كانت تتجمع فيه سحب الغروب فى حياته الآفلة ، حدث أن الفلسطينيين الذين سبق له ان شن عليهم حربا طويلة شغواء ، هاجموا بلاده بقوة كما لم يحدث من قبل . وعند ذاك وجه اليهم شاعول القوة الاسرائيلية لتعترض طريقهم ، وعسكر الجيشان تجاه بعضها البعض عند سفوح القتال وبينهما سهل - « يزرعئيل » العريض (١) وكانت عشية الغد الذى يتقرر فيه مصير بنى اسرائيل .

(١) يسمى حاليا مرج بن عامر .

وَتَكُن الْمَلِكُ كَانَ يُتَطَلَعُ إِلَى الْمَعْرَكَةِ الْحَاسِمَةِ بِشَكِّ كَبِيرٍ ، وَشُعْرٍ كَمَا لَوْ
كَانَ ثَقُلًا مِنْ حَدِيدٍ يَرْقُدُ فَوْقَ رُوحِهِ الْوَاهِنَةِ • وَظَنَّ الْمَلِكُ أَنَّ الرَّبَّ قَدْ
تَخَلَّى عَنْهُ ، لِأَنَّ كُلَّ الْمَحَاوَلَاتِ الَّتِي بَذَلَهَا مُسْتَعِينًا بِكُلِّ صُورِ الْإِلَهَامِ
لِتُكْشَفَ عَنِ الْمُسْتَقْبَلِ ، قَدْ بَاءَتْ بِالْفُشْلِ ، فَقَدْ كَانَ الْأَنْبِيَاءُ صَامِتِينَ
وَالنَّبِيُّ خَرَسَاءَ ، بَلْ إِنَّهُ لَمْ يَرِ فِي نَوْمِهِ الثَّقِيلِ آيَةً رُؤْيَا تَسْطَعُ
بِبَرِيقٍ مِنَ الْأَمَلِ • حَتَّى الْمَوْسِيقَى الَّتِي طَالَمَا اسْتَعَانَ بِهَا فِي أَبْعَادِ
الْأَحْزَانِ عَنْ نَفْسِهِ ، لَمْ تَعُدْ طَوْعَ ارَادَتِهِ ، فَلَقَدْ أَبْعَدَتْ ثَوْرَاتِ غَضَبِهِ
الْمَوْسِيقِيِّينَ عَنْهُ ، هَؤُلَاءِ الَّذِينَ طَالَمَا لَعَبُوا عَلَى أَوْتَارِ آلَاتِهِمْ وَعَزَفُوا
بِكُلِّ مَا يُمْكِنُ أَنْ تَخْرُجَ هَذِهِ الْأَوْتَارُ مِنَ الْحَانِ عَذْبَةً لَتَهِيَ لِنَفْسِهِ
الْمُتْعَبَةِ وَلَوْ لَحِظَةً خَالِيَةً مِنَ الْعَذَابِ • وَلَمْ يَسْتَطِعْ شَاءَءٌ فِي يَأْسِهِ
أَنْ يَقَاوِمَ التَّفَكِيرَ فِي صُمُوئِيلَ ، ذَلِكَ الْمُنَاصِحُ الْمَخْلَصُ الَّذِي طَالَمَا
الْتَمَسَ لَدَيْهِ الْعَوْنُ فِي الْأَيَّامِ السَّعِيدَةِ ، وَلَكِنْ صُمُوئِيلُ كَانَ يَرْقُدُ آنَذَاكَ
فِي قَبْرِهِ فِي « الرَّامَةِ » • وَهَذَا لَاحَتْ لِلْمَلِكِ فِكْرَةٌ : أَلَيْسَ مِنَ الْمُمْكِنِ
أَنْ يَسْتَحْضِرَ رُوحَ صُمُوئِيلَ مِنْ قَبْرِهِ وَيَنْتَرِعَ كَلِمَاتِ الْأَمَلِ وَالسَّلَوى مِنْ
شَبَحِهِ ؟ • لَقَدْ كَانَ هَذَا مُمَكِنًا ، وَإِنْ كَانَ عَسِيرًا ، لِأَنَّهُ كَانَ قَدْ نَفَى
بِنَفْسِهِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَمَارِسُونَ السَّحَرَ الْأَسْوَدَ • وَعِنْدَ ذَلِكَ اسْتَفْسَرَ
عَنْ هَؤُلَاءِ مِنْ خِدَامِهِ ، وَعَلِمَ مِنْهُمْ أَنَّ هُنَاكَ سَاحِرَةً مَا تَرَالِ تَعِيشُ فِي
قَرْيَةٍ « عَيْنُ دُور » الَّتِي تَقَعُ بَيْنَ التَّلَالِ عَلَى الْجَانِبِ الْبَعِيدِ مِنَ الْوَادِي ،
عَلَى بَعْدِ عِدَّةِ أَمْيَالٍ نَحْوَ الشَّمَالِ • فَقَرَّرَ الْمَلِكُ أَنْ يَلْتَمِسَ عِنْدَهَا النَّصِيحَةَ
وَأَنْ يَجْعَلَهَا ، إِنْ كَانَ هَذَا مُمَكِنًا ، تَضَعُ حِدَا لَشَكْوِكَ وَمَخَاوِفَهُ • وَلَكِنَّهُ
أَدْرَكَ أَنَّهُ يَقُومُ بِمَغَامَرَةٍ خَطِرَةٍ ، لِأَنَّ الْجَيْشَ الْفِلَسْطِينِيَّ بِأَسْرِهِ كَانَ
قَدْ اتَّخَذَ مَوْقِعَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَرْيَةِ السَّاحِرَةِ ، وَإِذَا رَحَلَ إِلَيْهَا فِي وَضَحِ
النَّهَارِ فَإِنَّ هَذَا يَعْنِي نَهَايَةَ حَيَاتِهِ • وَمَنْ ثَمَّ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ بَدٌّ مِنْ أَنْ
يَنْتَظِرَ حَتَّى يَرْخَى اللَّيْلَ سِنْدُولَهُ •

وَبَعْدَ أَنْ جَهَّزَ الْمَلِكُ كُلَّ شَيْءٍ لِلْمَعْرَكَةِ الْيَوْمِ التَّالِيِ ، ذَهَبَ إِلَى خِيَمَتِهِ
لَا لِيَنَامَ ، إِذْ أَنَّ الثَّوْرَةَ الَّتِي كَانَتْ تَعْلَى فِي دَمِهِ قَدْ أَبَتْ عَلَيْهِ الرَّاحَةَ ،
وَلَكِنْ لِيَنْتَظِرَ فِي تَمَلُّلٍ بَالِغِ السَّاعَةِ الَّتِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَغَادِرَ فِيهَا خِيَمَتَهُ

تحت جناح الليل • فلما غربت الشمس وأخذ الظلام ينتشر في الأرجاء ترك الملك أبهته الملكية التي كان قد بدا فيها وشيكا أمام جيشه ، ولف جسمه الفارع في رداء عادي ورفع أهداب خيمته واختلس الخطا في جناح الليل يتبعه اثنان من رجاله ، بينما كان جنوده من حوله يغطون في النوم في ضوء النجوم ، وقد سطعت وجوههم ببريق النار التي كادت تخبو في كتل الأخشاب المتراصة هنا وهناك • أما في الجانب الآخر من التل ، فقد أبصرت عينه على هذا المدى نار الحراسة المشتعلة في جيش أعدائه ، كما أخذ يستمتع في سكون الليل أصوات الصخب والموسيقى التي نقلتها إليه الرياح عبر الوادي وكأنها تحمل إليه النصر الذي يتوقعه عدوه في الغد القريب •

وسار المغامرون الثلاثة عبر الوادي حتى وصلوا الى سفح التلال ، مبتعدين عن النقط الأمامية لمعسكر العدو ، وهناك أخذوا في صعود هذه التلال • وهناك قادهم درب يقع عند كتف الجبل الى قرية عين دور الفقيرة حيث تلتصق أكواخها بالصخور التي تقع على المنحدرات الحجرية الجرداء • وهناك على البعد ، جهة الشمال ، كان يشمخ جبل « تابور » أسود صلبا ، كما كانت تبدو قمة جبل « هيرمان » الثلجية في ضوء النجوم شاحبة ذات شكل شيطاني • على أن المسافرين لم يكن لديهم الوقت بله الرغبة في تأمل المنظر الليلي • فما أن اقترب رفقاء الليل الى مسكن الساحرة ، حتى قصاد المرشد الملك الى كوخها • وقد كان النور يسطع من نافذة الكوخ ، عندما طرق المرشد بابه في هدوء • وكأن الساحرة كانت في انتظارهم ، إذ أن صيوت امرأة نادى بهم أن يدخلوا • فخطوا الى داخل الكوخ وأغلقوا الباب دونهم ، ووقفوا منتظرين قدوم الساحرة • وحيث أن الكاتب الديني لم يذكر شيئا في وصف تلك الساحرة ، فإنه يحق لنا أن نصفها من خلال تصوراتنا لها ، فربما كانت الساحرة شابة شقراء ذات عيني متألقتين وشعر فاحم • وربما كانت عجوزا شمطاء عمشاء ذات شعر مجعد ، قد خلا فمها من الأسنان ، واقترب أنفها الأقنى من ذقنها ،

وانحنى ظهرها من الوهن والهرم ، فليس في وسعنا على كل حال ،
 أن نقطع بشكلها ، ولكن الملك بدون شك قد أمعن النظر كثيرا في شكلها
 ثم أخبرها دون التواء بسبب زيارته لها ، وقال لها اعر في لى بالجان ،
 واصعدى لى من أقول لك » (سفر صموئيل الاول • الاصحاح
 الثامن عشر والعشرون آية ٨) • ولكن الساحرة اعترضت على مطلبه
 وذكرت زائرها الذى لم تكن قد تحققت بعد من شخصه ، بحملة
 الملك ضد السحرة والعرافين ، ومن ثم فان الاستجابة الى مطلبه
 تكلفها حياتها • ولم توافق الساحرة على استخدام قواها السحرية
 لصالح الملك ، الا عندما أكد لها هذا الغريب ذو القامة الفارعة ، في
 لهجة بين الأمر والتوسل ، بشرفه ، أن الأذى لن يلحق بها قط من جراء
 تحقيقها لمأربه • وعند ذلك سألته الساحرة : « من أصعد لك ، فقال
 اضعدنى لى صموئيل » ، (السفر نفسه ونفس الاصحاح آية ١١) •
 وفوجئت الساحرة بسماعها هذا الاسم ، وحملت في وجه الزائر
 وأدركت أنه هو الملك بعينه فصرخت في فزع في وجهه عندما تصورت
 أنها وقعت في الفخ وقالت له : « لماذا خدعتنى وأنت شاعول »
 (آية ١٢) • ولكن الملك طمأنها ، وأكد لها أنه سيمنحها صفحا ملكيا ،
 وزجائها أن تبدأ بتعويضاتها ، ومن ثم فقد بدأت في عملها ، وأخذت
 تحلق في عمق فيما بدا لزائرها انه مجرد فراغ • ولكن الملك أدرك
 من خلال نظرتها الزائفة الحائرة أنها ترى شيئا خفيا عنه • وعند ذاك
 سألها الملك عما بدا لها ، فقالت : « رأيت آلهة يصعدون من الأرض •
 فقال لها ما هي صورته • فقالت رجل شيخ صاعد وهي مغطى بجبة •
 فعلم شاعول أنه صموئيل • فخر على وجهه على الأرض وسجد •
 فقال صموئيل لشاعول لماذا اقلقتنى باصعادك إياي • فقال شاعول
 قد ضاق بى الأمر جدا • الفلسطينيون يحاربونى والرب فارقتى •
 ولم يعد يجيبنى لا بالانبياء ولا بالأحلام ، فدعوتك لى تعلمنى
 ماذا أصنع • (سفر صموئيل الاصحاح الثامن والعشرون من ١٣ الى
 ١٥) ولكن الملك البائس وجد الشبح قاسيا صعب المراس كما فعل
 صاحبه في أثناء حياته ، عندما أدار ظهره غاضبا للملك الذى بلغ من

جراته أن عارض وصيته • فقد سأل الرجل الكهل الذى لم تعرف الرحمة طريقا الى قلبه ، فى نعمة قاسية ، سأل الملك المتذلل كيف أنه جرؤ بحق الرب ، على أن يطلب النصيح من نبي الرب • ثم أنبه مرة أخرى على عصيانه أو امره وذكره بنبوته التى سبق له أن أخبره بها ، وهى أن المملكة ستؤخذ منه وتمنح لداود ، وطلب منه ان يعمل على تحقيق تلك النبوة • ثم ختم تعنيفه له بأن صرح له أن الغد يحمل هزيمة بنى اسرائيل وانتصار الفلسطينيين ، وأنه قبل أن تغرب شمس أخرى سيكون شاعول وأولاده معه فى العالم الآخر • وبهذه الكلمات اختفى الشبح فى باطن الأرض ، أما شاعول فقد وقع مغشيا عليه •

والعلنا ندرك من هذه الحكاية المفصلة أن عادة تحضير الأرواح أو استدعائها بقصد التماس النصيح عندها عن طريق النبوة ، كانت مألوفة لدى الاسرائيليين القدماء ، وأن التشريعات الصارمة التى كانت تهدف الى تحريمها ، لم تستطيع أن تقضى عليها كلية • بل ان سلوك « شاعول » الذى لم يتردد فى حزنه البالغ ، فى التماس الثعون من محضرى الأرواح أنفسهم ، هؤلاء الذين أذلهم فى فترة ازدهار دولته ، يكشف لنا عن مدى رسوخ هذه العادة فى العقيدة الشعبية أو فى خرافات هذا الشعب • ومن ثم فان تصرف « شاعول » على هذا النحو يعد مثالا للميل الى الارتداد الى الوثنية الذى تنبه اليه أنبياء بنى اسرائيل ولم يرتضوه لقومهم • وقد كان هذا الارتداد يظهر بقوة فى محن الدولة العصبية غير العادية أو فى أوقات الخطر ، عندما كان يبدو للناس عدم جدوى التشريعات الدينية الصحيحة فى اقناع الناس بالأمور الغيبية • فالثقافة الاسرائيلية فى صورته الحالية التى يرجح أنها أحدث من عهد شاعول بكثير وان تضمنت عرفا قديما جدا ، ينص على الحكم بالموت رجما بالحجارة ، على كل من يمارس مهنة السحر أو يقوم بتسخير الأرواح ، أى على كل من يمارس مهنة تحضير الأرواح بقصد التماس النصيح لديها عن طريق النبوة • وعلى

الرغم من هذا التحريم ، فان من بين العادات التى أحيها الملك « منسى » الذى حكم بعد عصر « شاعول » بزمان طويل عادة استحضر الأرواح (١) ، فلقد أخرج هذا الملك المتطير هؤلاء الذين كانوا يمارسون السحر الأسود ، من جحورهم وزواياهم التى كانوا قد اختفوا فيها هربا من القانون ، وسمح لهم بأن يمارسوا عملهم جهرا فى وضوح النهار . ولكن الملك الورع « يوشيا » تصدى فى زحمة اصلاحه الدينى لمحضى الأرواح ، سحرة كانوا أم عرافين ، ونسبهم الى طبقة المجرمين ، تلك الطبقة التى أصبحوا ينتمون اليها منذ أن مارسوا سحرهم (٢) . ويتضح من حكاية مقابلة « شاعول » لشبح « صموئيل » أن الشبح لم يظهر الا للساحرة . ولكن على الرغم من أن الملك لم ير الشبح ، فانه كان فى وسعه أن يسمع صوته ، وأن يجيبه بدون وساطة . ويمكننا أن ننتهى من ذلك فى شئ من الثقة الى أن هذه الطريقة كانت احدى الطرق التى كان يتبعها السحرة والعرافون الاسرائيليون للتحدث الى موتاهم ، فقد كانوا يتظاهرون باستدعاء الروح ورؤية شبح الميت ، فى حين لا يبصر هؤلاء السذج الذين يطلبون استحضرهم شيئا ، بل يسمعون صوتا يحسبونه لغفلتهم صوت الروح ، وهو فى الحقيقة اما أن يكون صوت الساحر نفسه أو صوت مساعده . ومهما يكن مصدر هذا الصوت ، فان فى مثل هذه الأحوال لم يكن يصدر من الساحر نفسه ، وإنما كان يأتى من مصدر خارج عنه يظنه المستفسر الغر المصدر الذى يقف فيه الشبح غير المرئى . ومثل هذه التأثيرات الواضحة يمكن ان يصطنعها هؤلاء الذين

(١) « وعبر ابنه فى النار وعاف وتفاعل واستخدم جانا وتوابع واكثر عمل الشر فى عينى الرب لاغاظته » . سفر الملوك الاصحاح الحادى والعشرون آية ٦ .

(٢) « لا يوجد فيك من يجيز ابنه أو ابنته فى النار ولا من يعرف عرافة ولا عائف ولا متضائل ولا ساحر ، ولا من يرقى رقية ولا من يسأل جانا أو تابعة ولا من يستشير الموتى ، لأن كل من يفعل ذلك مكروه عند الرب . وبسبب هزم الأرجاس الرب الهك طاردهم من أمامك » . (سفر التثنية ، الاصحاح الثامن عشر من آية ١٠ - ١٢) .

يتكلمون من أجوافهم • وهؤلاء تكون لديهم أذن ميزة العمل بدون مساعد ، وبذلك يقتلون من فرصة افتضاح أمرهم •

ولقد أخبرت الساحرة شاعول أن روح صموئيل صعدت من الأرض ، وربما كانت قد تمكنت عن طريق استخدام موهبتها الصوتية أن تصطنع صوتا أشبه بصوت منبعث من داخل الأرض ، عميق وذى صرير حسبه الملك صوت « صموئيل » المتوفى ، اذ كان يظن أن الأتسباح تتحدث من باطن الأرض بمثل هذا الصوت العميق • وعلى كل فان محضر الأرواح لم يكن على الدوام يبذل جهدا فى محاكاة صوت الشبح من داخل نفسه ، وان كان يفعل هذا فى كثير من الأحيان على سبيل ايهام المستمعين السذج أنه صوت الروح الذى يتعامل معه أو صوت شبح الشخص المقدس لديهم • وهنا يقال ان الروح الذى يتعامل معه محضر الأرواح أو شبح الشخص الذى يستدعى ، قد تقمص محضر الأرواح ، حيث أن الصوت الغريب يخرج من جوفه • وسواء كان الصوت يصدر من جوف الأرض أو من جوف محضر الأرواح ، فان الشبح نفسه فيما يبدو ، كان يقف متواضعا فى خلفية المشهد • فنحن لا نعتقد أن السحرة العبريين بفنونهم السحرية المتخلفة، كانوا قادرين ، شأنهم شأن رفقاءهم من السحرة فى العصور المتأخرة ، على مفاجأة المعتقدين وبث الروح فى نفوسهم عن طريق عرض أشكال للمردة أمامهم مرسومة بمادة قابلة للاشتعال على حيطان حجره مظلمة ، ثم تشعل النار فى هذه المادة فى اللحظة المناسبة ، فينفجر فى الظلمة فجأة ضوء متوهج يؤكد بالدليل العلمى سحر هذه العقيدة •

ويبدو أن عادة تخضير الأرواح كانت مألوفة عند العبريين وغيرهم من الشعوب السامية • والدليل الواضح على هذا يتمثل فى النشيد الثانى عشر من ملحمة جلجامش • ويصور البطل جلجامش فى هذا النشيد حزينا على فقد صديقة « ايبانى » ، ثم أخذ يتوسل الى

الآلهة وهو على هذا النحو من الأسى ، نكى تحضر له روح صديقه
الراحل من العالم الآخر • ولكن الآلهة اعترفت له ، آلهة تلو
الآخر ، بعجزها عن تحقيق مأربه • فتوسل في نهاية الأمر الى الاله
« نيرجال » ، اله الأموات ، وقال له : « أتوسل اليك أن تفتح حجرة
القبر (وأن تشق الأرض) ، حتى تصعد روح « ايايانى » من باطنها
كالرياح • وأضعى الاله فى عطف لتضرعه ، وفتح حجرة القبر ، وشق
الأرض ، وجعل روح « ايايانى » تصعد من باطن الأرض كالرياح •
وتحدث جلجامش الى الشبح الذى استدعى من باطن الأرض ، وعلم
منه الحالة المحزنة التى يعيش فيها الأموات فى العالم الآخر ، حيث
يغوص الدود الذى يلتهم أجساد الموتى فى التراب ، كما يغوص فيه
غير ذلك من الأشياء • على أن الشبح لطف من حدة كآبة هذه الصورة ،
بأن قدم لجلجامش معلومات عن السلوى التى تكلفها طقوس الدفن
لأرواح المحاربين الذين يسقطون فى المعركة بالقياس الى الحالة المؤسفة
التى يعيشها هؤلاء الذين تتمرغ أجسادهم فى التراب دون أن تؤدي
لهم طقوس الدفن فى ميدان القتال •

وقد كان الإغريق القدماء يقومون باستدعاء أرواح الموتى ، اما
بقصد استقاء معلومات منها أو بقصد تهدئة غضبها • ويرد أول
مثال لتحضير الأرواح فى الأدب الإغريقى فى الفقرة الشهيرة من
ملحمة الأوديسا ، حيث أبحر أوليسىوس الى الأرض المظلمة التى تقع
عند نهاية أطراف المحيط ، وهناك استدعى أشباح العالم السفلى •
وكان على أوليسىوس ، لكى يتمكن من الحديث معها ، أن يحفر خندقا ،
وأن يقدم شاة ضحية ويترك دمها يسيل فى الخندق • وعند ذاك
تجمعت الأشباح الواهنة العطشى من حول الخندق • وبعد أن
شربت الدماء ، أسرت الى البطل بكلمات مطمئنة ، بينما كان يجلس
بجانب الخندق وهو شاهر سيفه لكى يحافظ على النظام فيما بينها :
حتى لا يتجرع أحد منها السائل الثمين فى غير دوره •

ويبدو أن عادة استدعاء الأرواح من العالم الآخر عند الاغريق القدماء ، لم يكن يقوم به محضرو الأرواح في أى مكان دون تمييز ، وإنما كانت هناك بعض الأمكنة الخاصة حيث كان يعتقد أن محضر الأرواح يتصل ،تصلا مباشرا بالعالم السفلى عن طريق ممرات أو فتحات تمرق منها الأرواح صاعدة أو هابطة حسب الأوامر التى يصدرها لها محضر الأرواح . وهذه الأمكنة كانت تعرف بأمكنة نبؤة الموتى . وهناك عند هذه الأمكنة يتم ، فيما يبدو ، التعامل الشرعى مع أشباح الراحلين .

وقد كان أحد أمكنة نبؤة الموتى يقع عند « أرنوم » فى «ثيسبورتيس» حيث استدعى « أورفيوس » الموسيقىار الأسطورى دون جدوى ، فيما يقال ، روح محبوبته « أويريديس » التى فقدها . وفى عصر متأخر رحل « برياندر » حاكم « كورينثا » المتجبر الى هذا المكان نفسه ، ليسأل شبح زوجته « ميليسا » عن وديعة كان قد أودعها شخص غريب عنده ، ثم وضعها « برياندر » فى مكان ما نسيه فيما بعد . ولكن شبح الزوجة رفض أن يجيب عن سؤاله ، لأن زوجته أخبرته بأنها عارية وتقاوى البرد ، حيث أن الملابس التى كان قد دفنها زوجها معها لم تنفعها لأنها لم تحرق عند دفنها . ولما استمع « برياندر » الى هذا القول ، دعا كل نساء « كورنثا » للاجتماع فى محراب « هيرا » فجاءت النساء الى هذا المحراب فى أبهى ملابسهن كما لو كن قد جئن ليشهدن حفلا كبير . وما كدن يتجمعن فى هذا المكان ، حتى طلب هذا المتجبر من حراسه أن يحيطوا بهذا الجمع المرح ، وأن يأمرؤا كل امرأة وكل فتاة أن تخلع ملابسها . ثم جمع هذه الملابس ووضعها فى حفرة وأحرقها وفاء للزوجة المتوفاه ، وبهذه الطريقة تصور « برياندر » أن الملابس وصلت الى زوجته . فلما استدعى شبح زوجته مرة أخرى ، وأعاد عليه السؤال عن الوديعة المفقودة ، كانت الزوجة قد استدفأت وشعرت بالراحة وأصبحت مستعدة للإجابة عن سؤاله . ويبدو أن الأماكن التى تجاوز هذا المكان ، كانت على

صلة كذلك بأرواح الموتى وإن لم تكن مأهولة بها ، ذلك أن أسماء
أنهار العالم الآخر كانت تطلق على المياه المجاورة لها • فقد كان
يجرى بجوارها نهر « أخيون » ، كما كان يجرى بعيد من هذا
النهر ، نهر « كوكينوس » الذى سمي بذلك « نسبة الى العويل الذى
سمع عاليا عند مجرى هذا النهر الحزين » • وربما كان المكان
المحدد الذى كان يتم الاتصال عنده بالعالم الآخر ، هو قرية من القرى
التي يطلق عليها اليوم اسم « جليكى » ، حيث تشير بقايا أعمدة
الجرائيت وبعض قطع من رخام الأفارين الأبيض الى مكان معبد
قديم • وينبع نهر « أكرون » الذى يسمى اليوم نهر « سوليوتيكو »
أو « فناريونيكو » من جبال « سولى » الموحشة الجرداء ، التي كانت
تتمتع ذات يوم بجانب من الشهرة ، ثم ينحدر النهر بطيئا بليدا عكرا
خلال سهل ممتد تكثر به المستنقعات حتى يصب في البحر • وقبل أن
يجتاز النهر السهل منحدرًا من الجبال التي تقف خلف السهل كما
لو كانت حائطا رماديا ضخما يحترق أخدودا عميقا مظلمًا يعد من أكثر
الأخاديد عمقا وحلقة في بلاد اليونان • وعلى الجانب الآخر تعلو
النتوءات في شكل عمودى عند حافة المياه الى ارتفاع مئات من الأقدام ،
وتغطى جوانبها وأخاديدها أشجار البلوط القصيرة والشجيرات • ثم
ترتفع الجبال بعد ذلك حيث تتراجع جوانب الأخدود عن الخط
العمودى ، الى ما يربو عن ثلاثة آلاف قدم • وهناك تنمو أشجار
الصنوبر عند جوانبها الناتئة ، فتضيف بذلك جلالا قاتما الى هذا
المنظر • ويقود المسافر طريقا خطرا على طول افريز يقع أعلى جانب
الجبل حيث يحمق المسافر الى أعماق هذه الوهدة المهولة ليرى النهر
وهو يندفع مرغيا مزبدا • وفي أغلب الأحيان يقتحم النهر في شكل
شلال هوة مظلمة تقع بعيدا كل البعد عن المسافر الى درجة أن خرير
المياه يختفى في الهواء قبل أن يصل الى مسمعه • فالمنظر في عمومه
يجمع بين عناصر الروعة والوحدة والعزلة بدرجة تجعله ملائما لأن يثير
في النفس إحساسا بالضيق المترج بالخوف والكآبة • ولهذا فقد
كان كذلك ملائما لأن يتصور الناس أنه مرتبط بالقوى المخارقة • وليس

غريبا بعد ذلك أن القدماء كانوا يتخيلون أن هذه الجبال العابسة والمستنقعات الموحشة والأنهار الكثبية ، كانت مسكنا لأرواح الموتى •

وقد كان هناك مكان لنبوّة الموتى يقع عند « هرقليا » في « بيثينيا » • وقد لجأ الى هذا المكان الملك الاسبرطى « باروزانياس » الذى هزم الفرس في معركة « بلاتيا » • وهناك حاول أن يستدعى شبح فتاة بيثنطية تدعى « كليونيكا » كان قد قتلها عرضا ، وأن يسترضى شبحها • فظهر له الشبح وأخبره في لغة غريبة أنه سوف يتخلص من كل متاعبه عندما يتحتم عليه أن يعود الى السبرطة • وقد تحققت النبوة بموت الملك العاجل •

على أننا لا نملك أية معلومات عن الطريقة التى تظهر بها الأشباح ، وفقا لاعتقاد الناس ، وتجيب عن أسئلة المتسائلين • ومن ثم فإننا لا نستطيع ان نقرر ما اذا كانت هذه الأشباح تظهر للمستفسر نفسه ، أو أنها كانت تظهر للساحر المكلف باستدعائها وحده • كما أننا لا نعرف ما اذا كان الشخص الذى اختصته الأشباح بالظهور له ، يراها فى اليقظة أم فى المنام • وعلى كل فان الاتصال بأرواح الراحلين فى بعض أماكن النبوة الاغريقية كان يتم ، فيما نعلم ، عن طريق الرؤيا • ومن بين هذه الأماكن ، مكان نبوة العراف « موبسوس » فى سيليسيا • ويخبرنا « بلوتارك » أن حاكم سيليسيا الذى كان ينزع الى الشك الدينى ، وكان صديقا للفلاسفة الأبيقوريين الذين كانوا يسخرون من القوى الخارقة ، قرر فى احدى المناسبات ، أن يختبر نبوؤة هذا المكان • فكتب سؤالا على لوح دون أن يطلع أحدا عليه ، ثم ألصق عليه غطاء وسلمه الى عبد معتق كان يثق فيه ، وطلب منه أن يدع شبح العراف يجيب عن السؤال الخفى المكتوب على اللوح • وبناء على ذلك رحل العبد الى معبد « حوبوس » ونام هناك وفقا لما هو مألوف • وفى الصباح أبلغ الحاكم أنه قد رأى فى رؤياه كأن رجلا وسيما يقف بجانبه ، وفتح فاه واختفى بمجرد أن نطق بكلمة واحدة هى

« أسود » • وتحير أصدقاء الحاكم الذين كانوا قد اجتمعوا ليستمعوا الى رسول العالم الآخر ويتهكموا به من هذه الاجابة المقتضبة • أما الملك فما ان سمع هذه الاجابة حتى خر ساجدا على نحو ما يسجد الانسان متعبدا • وقد تبين سبب سلوك الملك على هذا النحو ، عندما أزيل الغطاء عن اللوح وقرأ محتواه بصوت عال ، وكان الملك قد طرح فيه السؤال التالى : « هل أضحى بثور أبيض أم أسود » • وقد هزت مطابقة هذه الاجابة عن سؤال الحاكم ، الفلاسفة الأبيقوريين الساخرين أنفسهم • أما الحاكم فقد قدم ثورا أسود ضحية وظل يقوم بواجب التقديس للعراف المليت حتى نهاية حياته •

وقد حكى بلوتارك النقى برضاء واضح تلك الحادثة التى نجحت فى دحض مزاعم المتظاهرين بالكفر بقوة الأشباح • ثم عاد فحكى حادثة أخرى شبيهة بالحادثة الأولى ، قيل انها حدثت فى ايطاليا • فقد فقد رجل غنى كان يدعى « اليسيوس » ، وكان من سكان تيرينا الافريقية التى تقع فى « بروتيوم » ، فقد ابنه ووريثه « ايوثينيوس » بوفاة غامضة مفاجئة • ولما كان قد خشى أن تكون هناك لعبة دنيئة وراء فقد وريثه ، فقد لجأ الأب القلق الى مكان نبوة الموتى • وهناك قدم حيوانا ضحية ، ثم نام كما كانت العادة المتبعة فى هذا المكان المقدس ، ورأى رؤيا تمثل له فيها والده الذى أخذ يتوسل اليه فى أن يعينه على اكتشاف حادثة موت ابنه • فرد عليه شبح الأب قائلا : « اننى قد ظهرت اليك من أجل هذا الغرض نفسه ، وأنا آمل أن تستمد أجابتك من هذا الرجل الشاب » • قال ذلك وهو يشير الى شاب يسير فى أعقابه ، وكان يشبه ابن الرجل الغنى الذى فقدته وأعلن الحداد عليه • عند ذاك سأل « اليسيوس » هذا الشاب ، وقد فوجئ بالشبابه التام بينه وبين ابنه وقال له : « ومن تكون أنت أيها الشاب ؟ » فأجاب الشبح : « اننى ابنك بحق • خذ هذا » • وسلم الى « أليسيوس » لوحا كتبت عليه بعض العبارات

التي تذكر أن ابنه قد مات ميتة طبيعية لأن الموت كان أفضل له
من الحياة » •

وقد تعودت قبيلة « ناساموني » في الزمن القديم ، وهي قبيلة
كانت تسكن شمال ليبيا ، أن ينام أفرادها فوق قبور أجدادهم ،
سعيًا وراء أحلام النبوءة ، فقد كانوا يعتقدون ، فيما يبدو ، أن أرواح
أجدادهم المتوفين تصعد من قبورها لتقدم لهم النصيحة والسلوى •
وما زال بعض « الطوارق » سكان الصحراء يفعلون ذلك حتى
اليوم • فإذا خرج الرجال في رحلة بعيدة ، فإن زوجاتهم ترتدين أبهى
الملابس وتخرجن إلى قبور الأجداد وتتمن فوقها • وهناك تستدعين
روح جد من الأجداد ليطلعهن على أخبار أزواجهن • وعند ذاك تظهر
لهن روح تدعى « ادييني » في هيئة رجل • فإذا استطاعت امرأة منهن
أن تكسب ود هذا الروح ، فإنه يخبرها بكل ما يحدث في الرحلة •
أما إذا فشلت في كسب وده ، فإنه يبعد عنها • وبالمثل « توجد مجموعة
من القبور ذات شكل بيضاوي ضخم بالقرب من « أوجيدت » في شمال
الصحراء • فإذا شاعت سيدة من « أزعار » أن تعرف أخبارا عن زوجها
الغائب ، أو عن ابنها أو عشيقها ، فإنها تذهب إلى هذه القبور وتنام
بينها • وهي تعتقد أنها ستري على وجه التأكيد رؤيا في منامها
تمدها بالأخبار التي تسعى إلى معرفتها • وبالمثل يذهب « التروود —
جانيون » الذين يسكنون « سيليبيس الوسطى » ، في بعض الأحيان
إلى القبور وينامون فوقها ، بقصد التماس النصيحة من الشبح في
رؤياهم •

وتحتوى مأساة « أخيل » التي تقع تحت عنوان « الفرس » ،
على أكبر وصف مسهب لعملية استحضار الأرواح في الأدب الاغريقي •
ويصور منظر المسرحية عند قبر الملك « دارا » حيث نجد الملكة
« أتوسا » زوجة « اكسيركيس » تنتظر في شغف أخبار زوجها وأخبار
الجيش القوي الذي يقاده زوجها ضد الفرس • ولكن الرسول يصل

حاملاً أخبار هزيمة الفرس الساحقة عند « سلاميس » . وعند ذاك
تقرر الزوجة في حزنها ولهفتها ، أن تستحضر روح « دارا » من
قبره لتلتمس عنده النصيحة في هذا الأمر المجلل . ومن أجل ذلك
قدمت للميت قرباناً من اللبن والعسل والماء والخمر وزيت الزيتون
في الوقت الذي كانت الجماعة تردد فيه أناشيد السحر التي يناشدون
بها آلهة العالم الآخر لكي تحضر لهم روح الملك المتوفى في وضوح
النهار . وعند ذاك تصعد الروح من الأرض . ولما علم الروح
بالكارثة التي حلت بالجيش الفارسي ، قدم النصيحة والتحذير
لشعبه المنحدر . وتشير هذه الرواية بوضوح الى أن الشبح يمكن
أن يظهر في وضوح النهار ، وليس فقط في الأحلام . على أننا لا نستطيع
أن نقرر ما اذا كان الشاعر يصف شكلاً من أشكال تحضير الروح الذي
كان يتبع عند الأغريق أو عند الفرس ، أم يصور ذلك ببساطة من
محض خياله . ومن المحتمل أن هذا الوصف يرتكز على طقوس
اعتاد محضرو الأرواح الأغريق أن يمارسوها إما عند أمكنة نبوءة
الموتى المعروفة ، أو قبور أشخاص بعينهم حيث يسعون لالتماس
النصيحة من أشباحهم . وقد روى « فيلوستراتوس » الذي دون
ترجمة حياة الفيلسوف الفيثاغوري « أبولينوس النيانى » ، أن هذا
الفيلسوف قد استحضر زوج « أخيل » من قبره في « تسييسالى » .
وقد ظهر له البطل على رابية في هيئة شاب وسيم طويل القامة ، وتحدث
معه بأسلوب ودى للغاية واشتكى له من أن أهل « تسييساليا » قد
كفوا منذ زمن طويل عن أن يقدموا له التضحيات عند قبره ، وقد
اعترف عالم نحوى بعينه يدعى « أبيون » وكان يعيش في عهد
« بلينى » الشاب ، أنه استحضر روح هوميروس وسأله عن والديه
وموطنه (أى عن والدى هوميروس وموطنه) (١) . وقد رفض هذا
النحوى فيما بعد أن يفشى هذا السر ، من ثم فإن الاجيال التي

(١) إضافة للتوضيح . (المترجمة) .

أنت من بعد لم تستفد من هذه المجاورة الجريئة في حل مشكلة هوميروس
عند رأس النافورة •

وقد قدم لنا الشاعر « لوكان » بأسلوبه المطنب الرخيص وصفا
رتيبا لمقابلة تمت ، كما يقول ، بين « سيكستوس بومبيوس » ابن
بومباي الكبير وساحر من « تيسسالي » ، وذلك قبل وقوع معركة
« فارساليا » • وقد حاول « سيكستوس » الذي لا يستحق أن يكون
ابنا « لبومباي » العظيم كما تعود « لوكان » أن يقول ذلك عنه ،
حاول بدافع الشغف لمعرفة مستقبل المعركة ، لا أن يتحدث عند
أمكنة نبوءة الآلهة الشرعية ، وإنما تحدث مع السحرة ومحضري
الأرواح • وأعاد له ساحر خبيث كان يسكن بين القبور ، بناء على
طلب الابن ، الحياة الى جسد لم يكن قد دفن بعد • وقد أخبر الروح
الذي حل بالجسد بالفتنة التي رآها بين ظلال منظر الكارثة التي
توشك أن تحل بالدولة الرومانية • وبعد أن أبلغ الرجل الذي بعث
مرة أخرى هذه الرسالة ، طلب من الساحر أن يصنع معه صنيعا طيبا
في مقابل ذلك ، وهو أن يدعه يموت مرة أخرى ، وذلك لصالحه وصالح
الجميع • فوافق الساحر على ذلك وجمع في هدوء كومة من الحطب
سار عليها الجسد بدون مساعدة أحد ، ثم أحرق معها في هدوء •
ومن المؤكد أن السحرة التيسساليين كانوا يحاطون بسمعة سيئة
في العصور القديمة • ومن المحتمل أن عملية تحضير الأرواح كانت أحد
صنوف السحر الأسود الذي كانوا يمارسونه • على أننا لا نعلم
كثيرا على وصف « لوكان » المزخرف كل الزخرفة للطقوس التي كانت
تتبع في استحضار الأرواح • وربما كانت رواية « هوراس » عن
الساحرين اللذين شاهداهما وهما يصبان دماء الحمل الأسود في حفرة
بقصد استدعاء الأرواح لكي تجيب عن تساؤلاته ، أكثر احتمالا من
رواية « لوكان » • وقد تحدث « تيبولوس » عن ساحرة كانت تستحضر
الأرواح من قبورها عن طريق تعاويذها • كما أنه حكى أنه كان في عهد
« تيبيريوس » شاب ذو حسب وإن كان ضعيف العقل ، يدعى

« ليو » ، كان يشتغل بالسحر الأسود ، وكان يستعين بشخص يدعى « جونيوس » لكي يستدعى له أرواح الأموات عن طريق السحر .

وقد قيل ان كثيرا من أباطرة الرومان الأشرار كانوا يحضرون الأرواح بقصد اخماد ثورة الفرع التي كانت تنتاب ضمائرهم القلقة من جراء تذكرهم لجرائمهم ، مثل جريمة الانتقام من الأرواح . فقد روى أن « نيرون الجبار لم تعرف الطمأنينة الى نفسه سبيلا بعد أن قتل أمه « أجريينا » . وكثيرا ما اعترف أن طيفها كان يملكه وأن هذا الطيف كان يفرغ عليه جام غضبه بضربه بالسياط وحرقة باللهيب . ولكنه عبثا حاول أن يستدعى شبحها عن طريق الطقوس ، وعبثا حاول أن يهدئ من غضبها . وبالمثل كان « كراكالا » الجبار السفاح المسلوب العقل ، يتصور أن شبح أبيه « سيفيروس » وأخيه المقتول « جبيتا » يلاحقانه بالسيوف . وقد كان يستعين بالسحرة لتهدئة ثورة غضبهما . ومن بين الأشباح التي استحضرها السحرة له ، روح والد الامبراطور ، وروح الامبراطور « كوموديوس » . ولكن لم يتعطف شبح من الأشباح التي استعان بها هذا الملك السفاح ، وتحدث معه سوى شبح قريبه « كومودس » . وحتى هذا الشبح لم يسر اليه بعبارة تعزية أو أمل . وكل ما استطاع أن يستخلصه منه هو أنه ألمح له في خزن بقدم محاكمة مفزعة . ولم يزد هذا القول روح « كراكالا » المذنبه سوى مزيد من الفرع .

ولم تكن عادة تخضير الأرواح قاصرة على الشعوب المتحضرة ، بل كانت تمارسها كذلك القبائل البدائية . فقد انتشرت بين بعض القبائل الافريقية ، عادة استئطارة أرواح الملوك والزعماء المتوفين بوصفها مكمنا للنبوءات ، وذلك عن طريق الكهنة والكاهنات الذين كانوا يتظاهرون بأن روح الحاكم المريض تملكهم ، وأنهم يتحدثون بلسانه . فقد كان يبنى ، على سبيل المثال ، لكل شبح ملك يتوفى عند قبيلة « باجتدا » التي تسكن وسط افريقيا معبد يحتفظ فيه بقدمية

بالغة بعظمة فكه السفلى • والغريب في هذا الأمر أن الجزء الذى يتعلق به الشبح أشد المتعلق من جسد صاحبه عندما يتوفى هو ، وفقا لاعتقاد هذه القبيلة ، عظمة فكه • ومن المألوف عندهم أن يبنى هذا المعبد فى شكل مخروطى كبير ، وأن يكون مقسما الى حجرتين ، حجرة داخلية وأخرى خارجية • وفى الحجرة الداخلية ، أو فى قدس الأقداس ، كان يحتفظ بعظمة الفك فى أمان داخل تجويف فى باطن الأرض • ويهب المتنبىء أو أى وسيط آخر تكون وظيفته استلهام شبح الملك من حين لآخر ، نفسه الى هذا المكان المقدس ، بأن يشرب جرعة من الجعة وجرعة من اللبن فى جمجمة الملك • فاذا شاء أن يستدعى الروح ، فإنه يأتى بعظمة الفك من الحجرة الداخلية ملفوفة فى رداء مزخرف ويضعها على عرش فى الحجرة الخارجية ، حيث يجتمع الناس ليستمعوا الى النبوءة • وفى مثل هذه المناسبات يخطو المتنبىء الى العرش ويخاطب الروح ويخبرها بالمهمة المكلف بها ، ثم يشعل غليوناً أو غليونين ، بعد أن يملأهما بالتبغ الذى يزرع فى البيوت ، وعندما يتصاعد الدخان مهبطاً الجو للنبوءة ، ينتاب المتنبىء الهذيان ويتحدث مقلداً صوت الملك ، كما ينطبق بعبارات خاصة به ، لأن روح الملك ، فيما يعتقد الناس ، تكون قد تقمصته • وعلى كل فإنه يصعب استيضاح الكلمات التى يتلوها فى سرعه ، ولهذا فإن قسيساً يحضر لكى يفسرها للحاضرين • فاذا فرغ الملك الحى من سؤال الملوك المتوفين عن أمور تختص بشئون مملكته فإنه يزور معابدهم ، معبداً تلو الآخر ، حيث يحتفظ فى ورع دينى بتعاويذهم •

وفى بعض الأحيان تسكن أرواح الزعماء الموتى عند قبائل البانتو ، أجسام الرجال والنساء الأحياء ، وينطقون بالنبوءة من خلال أفواههم • فاذا تملك الروح رجلاً من الرجال فإنه يأخذ فى الزئير كما يزار الأسد • وتجتمع النساء معاً وتقرعن الطبول وهن يصحن بأن الزعيم قد جاء ليزور القرية • ثم يمتنبا الرجل الذى تملكه الروح بمستقبل حروبهم ويحذر الناس من تفقد الأسود لهم قريباً • ولا

يسمّح لهذا الوسيط في أثناء هبوط الوحي عليه ، أن يأكل أى نوع من الطعام قد طهى على النار ، وانما يكتفى بأكل العجين غير المخمر .
على أن القدرة على التنبؤ يختص بها النساء في العادة دون الرجال .
وهؤلاء النبيات يصرحن بأن زوح زعيم من الزعماء تملكهن . وعندما يشغرن بقرب هبوط الالهام الروحاني عليهن ، فانهن يطلين وجوههن بلون أبيض ليجذبن الروح اليهن ، ويمسحن أنفسهن بالدقيق الذي له سحر ديني ، وفقاً لاعتقادهن ومقدرة على التطهير . ثم تقرع بعضهن الطبول بينما يرقص البعض الآخر ، وهن يغنين جميعا أغنية سحرية ذات فواصل غريبة . وعندما يصلن في النهاية الى ذروة السحر الديني ، تسقط النساء اللاتي تملكهن الأرواح على الأرض ، وينفجرن في ترتيل أغنية غامضة في ضوت منخفض ، يفسرها الأطباء للمتفرجين الذين يقفون واجمين من الفرع ، على أنها صوت الروح .

ومن عادة زنوج توجولاند الجنوبية المتكلمين بالايوى أن يستدعوا روح الميت بعد أن يفرغوا من اقامة الشعائر الجنائزية لوفاته . وعند ذلك يحمل أقرباء الشخص المتوفى الى الكاهن طعاما مطهيا ويخبرونه بأنهم في أحضار الماء لروح أخيه المراحل . فيتسلم الكاهن منهم الطعام والخمر وقواقع صفراء ثم يصطحبهم الى حجرته ويغلق بابها وراءه . وهناك يستحضر الروح التي تأخذ في البكاء عند وصولها ثم تتحدث الى الكاهن . وفي بعض الاحيان تدلى الروح ببعض الملاحظات عن الفرق بين الحياة فوق الأرض وحيتها . وفي بعض الاحيان يتحدث في موضوعات خاصة كأن يتحدث عن الطريقة التي توفي بها . على أنه في كثير من الاحيان يذكر اسم الساحر الشرير الذي قتله بسحره . وعندما يسمع أصدقاء الميت الذين يقفون في الخارج عويل الشبح وشكواه داخل الحجرة ينفجرون في البكاء ويصيحون قائلين : « ما أشد شفقنا عليك » . وفي النهاية يرجوهم الروح أن يهدأوا ثم يرحل عنهم . وتلتبس قبيلة كيسي ، وهي قبيلة زنجية تسكن عند

حدود « ليبيريا » ، النصح من أرواح الزعماء المتوفين الذين تشيد لهم تماثيل صغيرة عند قبورهم وتعد مقرا للنبوءة . ولهذا الغرض توضع التماثيل على لوح خشبي يحمله رجلان على رأسيهما . فاذا وقف الرجلان وهما يحملان اللوح ساكنين تماما ، فان هذا يعنى أن الروح يجيب عن سؤال المتسائل بالنفى . أما إذا تأرجحوا يمنة ويسرة ، فان هذا يعنى أن الروح يجيب بالإيجاب . وفى جزيرة « أمبريم » ، وهى إحدى جزر الهبريد الجديدة تستخدم التماثيل الخشبية التى تمثل الأجداد بوصفها وسيلة اتصال بين الناس وبين أرواح المتوفين . فاذا اعترض رجل أمرا من الأمور فانه يصفر مع هبوط الليل بالقرب من تمثال الجد . فاذا سمع عقب صفيره صوتا ، فانه يعتقد أن روح قريبه المتوفى قد تقمصت التمثال ، وعند ذاك يسر له متاعبه ويطلب منه العون .

وقد كان « الماوريون » سكان نيوزيلندة يشعرون بالخشية اذا أرواح اقربائهم المتوفين ، وبخاصة الزعماء والمحاربين منهم ، كما كانوا يقومون بتقديسها . فقد كانوا يعتقدون أن هذه الأرواح ترقب على الدوام رجالهم الأحياء ، فتحميهم فى الحرب وترصد لهم أى خرق لقانون المحرمات المقدس . وتسكن هذه الأرواح فى العادة تحت سطح الأرض . ولكنها قد تصعد الى السطح اذا راق لها ذلك ، فتتقمص أجسام الرجال ، بل وبعض الأشياء الجمادية فى بعض الأحيان . وقد كانت بعض القبائل تحتفظ فى بيوتها بتماثيل خشبية يخصص كل منها لروح من أرواح الأجداد يتقمص التمثال لكى يتحدث مع الأحياء فى مناسبات خاصة . ويتم الاتصال بين روح الجد (أتو) والأحياء عن طريق الرؤيا . وقد يتحدث معهم مباشرة فى أثناء سيرهم . ولا يشبه صوت هذا الروح أصوات الناس العاديين ، وإنما هو نوع من الصوت الغامض الذى يغد مزيجا من المصغر والهمس . وقد خص الأهالى الكاتب الانجليزى الذى ندين له بهذه المعلومات بميزة التحدث مع روحى زعيمين كانا قد توفيا منذ عدة سنوات . وقد تم اتصال هذا

الكاتب بهذين الروحين بواسطة امرأة عجوز شبيهة بساحرة عين دور .
يعتقد الأهالي أن أرواح أجدادهم تظهر عند طلبها .

ويدعى الكهنة والكاهنات في جزيرة « توكاهيفا » ، وهى إحدى
جزر « الماركين » أنهم يمتلكون القدرة على استحضار أرواح الموتى
الذين يسكنون أجسام هؤلاء الكهنة والكاهنات لبعض الوقت ،
يتحدثون فى أثناءها مع أقرباء الميت الأحياء . وتستدعى الأرواح عادة
فى حالة مرض أحد أفراد الأسرة عندما يرغب أصدقائه فى الاسترشاد
بنصيحة الشبح . وقد شهد كاتب فرنسى كان يعيش فى هذه الجزيرة
فى النصف الأول من القرن التاسع عشر إحدى اللقاءات بين محضر
الأرواح والروح ، ووصفها . وقد تم اللقاء ليلا فى بيت رجل مريض
بقصد التأكد من حالته المرضية . وكان الوسيط فى هذه المناسبة كاهنة
أمرت بإطفاء النار المشتعلة فى الحجرة حتى يسودها الظلام . ثم
استحضر روح سيدة كانت قد توفيت منذ بضع سنين تاركة وراءها
مالا يقل عن اثنى عشر زوجا يكون فراقها ، من بينهم هذا الرجل
المريض . وقد كان هذا الزوج أحب هؤلاء الأزواج إليها . وقد أنبأه
شيحها فى غير مداراة أو إطناب بموته القريب . وفى بداية الأمر بدا
صوت الشبح كأنه تقادم من على بعد ، ثم أخذ يقترب تدريجيا حتى
استقر على سقف البيت .

وتقوم قبيلة « ماريندينيز » التى تستوطن الشاطئ الغربى من
غينيا الجديدة التابعة للاحتلال الهولندى ، فى أثناء الاحتفال ببلوغ
الصبي سن النضج ودخوله فى مجتمع الرجال ، باستحضار أرواح
الأجداد من العالم السفلى ، وذلك عن طريق ضرب الأرض بشدة
ليلا بثمرة جوز الهند مدة ساعة كاملة . وبالمثل يستدعى
« التورادجانيون » الذين يتحدثون اللغة البارية ويسكنون « سيليبس
الوسطى » ، فى أثناء احتفالاتهم ، أرواح الزعماء والأبطال المتوفين ،

وهى الأرواح التى تقوم على حراسة القرية ، وذلك عن طريق ضرب أرض المعبد بعصاة طويلة .

واذا دب خلاف بين أفراد « الكايانيين » ، سكان « بورنيو » ، عند تقسيم تركة ، فإن المتنازعين يتصلون فى بعض الأحيان بساحر محترف أو بعراف ليستدعى لهم روح المتوفى ، ويسألونه عن رغبته فى تقسيم تركته . على أن تحضير روح المتوفى فى هذه الحالة لا يتم إلا بعد جنى محصول الموسم الذى يعقب الموت . فاذا حان ميعاد جنى المحصول ، فإن الورثة يصنعون نموذجا لبيت لكى يأوى اليه الروح مؤقتا . ويوضع هذا النموذج فى ساحة البيت بجانب باب حجرة المتوفى بعد أن يملأوه بالطعام والشراب والدخان لانعاش الروح . والى جوار هذا البيت الصغير يقيم الساحر ويتمتم بتعاويذه طالبا من روح المتوفى أن تدخل بيتها ، ويعود فى الوقت نفسه أفراد أسرة المتوفى . وينظر الساحر من حين لآخر داخل البيت الصغير حتى يعلن فى النهاية أنه لم يعد داخل البيت الصغير أثر لمأكل أو مشرب . وعند ذاك يدرك الناس أن الشبح قد دخل البيت الصغير وأكل وشرب ما به من طعام وشراب . وفى أثناء ذلك يتظاهر الساحر بأنه يصغى الى همس الروح داخل البيت الصغير ، وهى تقفز وتفرق على نحو ما تفعل الدجاجة . وفى النهاية يفصح الروح عن رغبته فيما يختص بتوزيع التركة ، متحدثا بضمير المتكلم ومقلدا طريقة الميت فى الحديث وخصائصه الأخرى . فاذا صدرت التعليمات بخصوص تقسيم التركة على هذا النحو ، فإن الورثة ينفذونها فى العادة وفقا لما أمر به الشيخ .

ويعتقد الباتاكيون سكان سومطرة الوسطى أن أرواح الموتى ، لكونها شيئا غير مادي ، لا يمكن أن تتصل بالأحياء إلا عن طريق تقمصها شخصا حيا . ولهذا فانهم يختارون وسيطا ملائما ، يستطيع ، بوصفه وسيلة يستعان بها فى تبليغ رسالة الشبح ، أن يقلد صوت

صاحب الشبح وطريقته في الكلام ومشيته ، بل وطريقة ملبسه • وقد تصل مشابهته للمتوفى الى درجة كبيرة بحيث يتأثر أقرباؤه الأحياء بهذا الشبه ، فينفجرون في البكاء • ثم يذكر الشبح ، عن طريق الوسيط ، اسمه وأسماء أقربائه ، ويصف تجوله بين الأحياء ، كما يفشى أسرار عائلته التي كان يحتفظ بها في أثناء حياته ، الأمر الذي يؤكد لأقربائه أنهم حقاً يتحدثون مع شبح أخيهم الراحل • فإذا كان أحد الافراد طريقه في غابة أو في أى مكان آخر ، فان أصدقائه سيشفى أو سيموت • وإذا انتشر وباء بين الناس ، فان الشبح يتهيج ، وعند ذاك تقدم له التوضيحات حتى يمكنه أن يحمى الناس من العدوى بهذا المرض • فإذا كان هناك رجل عاقر ، فانه يستعلم من الشبح عن طريق الوسيط ، عن كيفية انجابه أطفالاً • كما أنه يستشار عند حدوث سرقة فيما اذا كانت السرقة ستترد • وإذا ضل أحد الافراد طريقه في غابة أو في مكان آخر ، فان أصدقائه الشغوفين عليه يسألون الشبح عن المكان الذى ضل فيه صاحبهم طريقه • فإذا سئل الوسيط عن الطريقة التى يمتلكه بها الشبح ، فانه يجيب بأنه يرى الشبح يقدم نحوه ، ثم يشعر كأن شخصاً ينتزعه ، وأن رجله قد صارتا خفيفتين بحيث يتهيا له أنه يقفز • كما يبدو له أن الناس قد تضاعلت أجسامهم وأصبغت بلون أحمر ، وأن البيوت تدور حول نفسها • ولا يستطيع الوسيط أن يسيطر على الشبح على الدوام ، اذ قد يتركه الشبح بين الحين والآخر في فترة الوحي ويلهو من حوله • فإذا انتهى الوسيط من عملية استحضار الروح ، فان المرضى قد ينتابه في كثير من الأحيان اثر ذلك ، وقد يموت •

وتمارس عملية استحضار الأرواح وسط ثلوج القطب الشمالى ، كما تمارس في الغابات والأحراش الاستوائية • فنحن نقرأ عن شامانى من سكان اسكيمو لابرادور ، تعود أن يقدم خدمات الأصدقاء عن طريق استحضار أرواح الموتى ، متى رغب أحد الأحياء أن يستعلم من الشبح عن حالة راحل أو عن المكان الذى وصل اليه شخص يقوم

برحلة بحرية • ولكم يتم الاتصال بين هذا الوسيط والروح ، فان الوسيط يعصب عينى المستفسر عن أحد هذه الأمور ثم يدق الأرض بعصاه ثلاث مرات • وفى المرة الثالثة يظهر له الروح ويجيب عن أسئلة الشامانى • وبعد أن يستقى منه الشامانى المعلومات التى يريد ، فان الشبح يعود الى مكانه بعد أن يدق الشامانى الأرض بعصاه ثلاث مرات أخرى كذلك • وتسمى هذه الطريقة فى استحضار الروح « استحضار الروح عن طريق العصا » • ويتبع الاسكيمو سكان « الاسكا » طريقة مماثلة لهذه الطريقة فى استحضار الروح • فهم يعتقدون أن الروح يصعد من العالم السفلى ويمر خلال جسم الشامانى ويتحدث من خلاله بوضوح • ثم يرد الشامانى الشبح الى مكانه عند ما يدق الأرض بقدمه • على أن الناس الذين ينزعون الى الشك يرون أن الوسيط يتحدث من جوفه عندما يجيب عن أسئلة المتسائلين •

وتعد عملية تحضير الأرواح فى الصين شيئا طبيعيا ، حيث أن تقديس الموتى يعد عنصرا أساسيا فى ديانة الصينيين • ويبدو أن الذى يقوم بهذه العملية أساسا فى الوقت الحاضر هم النساء العجائز • وتنتشر هذه العادة فى « كانتون و « أموى » بصفة خاصة • وكثيرا ما رأى رئيس القساوسة « جراى » رأى العين فى أثناء اقامته فى « كانتون » كثيرا من عروض هذا الفن •

ويقال إن عادة استدعاء أرواح الموتى بقصد التماس النصيح لديها ، منتشرة كل الانتشار فى « أموى » ، حيث تحترف النساء هذه العملية • ويبدو ان هؤلاء النسوة لا يتمتعن فى وسط الرجال بسمعة طيبة من ناحية صدقهن • فاذا قلت لرجل فى أثناء مجرى حديث عام « انك تحضر أرواح الموتى » ، فان هذا معناه أنك تتهمه بالكذب والتلفيق • ومن ثم فان النساء اللاتى يحضرن الأرواح يفضلن أن يقمن بهذا العمل فى المحيط النسائى ، والا فانهن يتعرضن

لسخرية الرجال الشاكين • وفي هذه الحالة تقوم النسوة بتحضير
الارواح في مكان مغلق في مسكنهم الخاص • أو في البهو الرئيسي من
معبد الأسرة • وعند ذاك يسمح لكل فرد من أفراد الأسرة بأن يشهد
هذا العمل • وكثير من الأسر تلزم نفسها باتباع قاعدة
عامة ، وهي سؤال روح قرييهم مرة على الأقل بعد
وفاته بزمان ليس بالطويل ، عن طريق وساطة هؤلاء
المساحرات ، للتأكد من أنه يعيش في راحة في العالم الآخر ، ولمعرفة
ما اذا كان من الممكن للأسرة التي تبدى له كل الحب ، أن تفعل شيئاً
لراحته • وتقوم الاسرة باستحضار الروح في يوم ذى طالع ميمون ،
فيكنس البيت ويرش بالماء لأن الأرواح تنفر من القذارة ومن
التراب • ثم يقدم للروح على سبيل الاغراء ، الطعام والحلوى ،
كما يشعل البخور ، وكل هذا يوضع فوق معبد الأسرة ، أو على
منضدة عادية اذا كانت هناك ضرورة لتحضير الروح في حجرة
منعزلة • فاذا جرت عملية تحضير الروح في حجرة منعزلة ، فانه يتحتم
على احدى النساء أن تذهب الى المعبد حيث توجد الألواح التي يعتقد
في أن أرواح أفراد الأسرة تستقر فوقها ، وتضيء شمعتين ، وتشعل
ثلاث أعواد من البخور في المعبد ، ثم تدعو الروح أن يترك الألواح
وأن يتبعها • ثم تعود المرأة بعد ذلك الى حجرتها في تؤدة تحمل
أعواد البخور بين أصابعها ثم تضعها في وعاء أو في فنجان وتضع معها
بعض الأرز النقي • وبعد ذلك تبدأ الوسيطة في عملها ، فتتلو التعاويذ
بينما تداعب أوتار قيثارة أو تضرب على الطبول • وبمرور الوقت
تصاب بالتشنج وتتأرجح ذات اليمين وذات الشمال والعرق يتصبب
من جسدها • وهذه المظواهر تؤخذ على أنها شاهد على وصول الشبح •
ثم تمسك امرأتان بالوسيطة وتجلسانها على كرسى حيث تهوى عليه
وهي في حالة ذهول أن اغماء ، ويدها تستندان الى المنضدة • ثم يطرح
غطاء أسود على رأسها • وفي هذا الوضع التشنجي تكون المرأة مستعدة
للإجابة عن الأسئلة وهي ترتجف وتهتز على مقعدها ، وتضرب المنضدة

في عصبية بيدها أو بعصاة • وعند ذاك يتحدث الروح عن أحواله في
المعالم الآخر ، كما يخبر أهله بما يمكن أن يقوموا به لتحسين حالته
أو لتخليصه كلية من متاعبه • كما انه يخبرهم بما اذا كانت التضحيات
التي قدمت له قد وصلت سليمة الى هدفها أم أنها فقدت ، أو أصابها
التلف في طريقها اليه عن طريق البريد الروحاني • ثم يعدد لهم بعد
ذلك رغباته ، وما يرغب في الحصول عليه • كما انه يخص أسرته بتوجيه
النصح اليها في شئونها العائلية • وهو في هذا كله يتحدث بلغة غريبة •
وقد تكون ملاحظاته ذات صلة بالأسئلة التي تطرح عليه ، وقد
لا تتصل بها على الإطلاق • وقد يدور حوار هامس ، أو بالأحرى
حديث بين الوسيطة والروح • ثم ترتعد الوسيطة فجأة في نهاية الأمر
وتفريق ، وتقوم معلنة أن الشبح قد رحل عنها • وفي نهاية المشهد
تقوم بجمع الأرز وأعواد البخور في الوعاء وتتسلم اجرها وترحل •
وينظر المتفرجون بطبيعة الحال الى الأحوال التي تمر بها الوسيطة في
أثناء تأديتها عملها على أنها تمثل مراحل اتصالها بالعالم الآخر ، وان
كنا نرى ان هذا الفعل ليس سوى اشارة على الشذوذ النفسي والتشنج
العصبي • ولكن المتفرجين ينظرون الى هذه الحالات بوصفها حالة
يتملكها الروح فيها ، سواء كان ذلك الروح الذي يطلب استدعاؤه
لاستشاره في أمر من الأمور ، أو ذلك الذي تألفه الوسيطة وتحدث
معه عادة • أي أن الناس ينسبون لها القدرة على الرؤية الثانية التي
تتمكن عن طريقها من رؤية الشبح • كما أن حالتها التشنجية تشير
الى الوقت المناسب الذي تغادرها فيه روحها لتزور العالم الآخر
حيث تتقابل مع روح الشخص المتوفى وتحدث معه • كما أن شفيتها
الهامستين تشيران الى ما يدور بينها وبين الروح من حديث • وربما
حق لنا أن نتساءل : لماذا ترحل روحها الى العالم الآخر لتقابل روح
الميت اذا كانت روحه مستقرة على المنضدة ؟ ان مثل هذا السؤال
لا يمكننا أن نجيب عنه اجابة شافية •

من هذه الرواية يتضح أن الساحرة الصينية تستدعي في بعض

الأحياء أرواح الموتى ، لا بطريق مباشر ، بل بواسطة روح آخر
مألوف لديها يكون رهن أمرها • « فأركيداكون جراي » يخبرنا أنه
« يوجد في الصين ، كما هو الحال في بلاد أخرى ، أشخاص بعينهم ،
وغالبا ما يكونون من النساء العجائز ، يعترفون بأن أرواحا مألوفة
لديهم تتملكهم على الدوام ، وأنهن يستطعن أن يستدعين أرواح الموتى
لتتحدث مع الأحياء » • وفي هذه الحالة فإن الساحرات الصينيات
يشبهن الساحرات الاسرائيليات في الزمن القديم ، اللاتي كن
يعتمدن فيما يبدو ، على مساعدة الأرواح المألوفة لديهن في استحضر
الأرواح الأخرى • فعندما طلب « شاعول » من ساحرة « عين دور »
أن تستحضر له شبح صموئيل قال لها : « أتوسل اليك أن تتكهنى
لى بالروح التابع ، واصعدى لى من أقول لك » (١) ••

ولعل هذه الأمثلة تبين لنا كيف أن عادة تحضير الأرواح كانت
تنتشر انتشارا كبيرا بين الأجناس البشرية المختلفة •

(١) سفر صمويل - اصحاح ٢٨ آية ٨ •

الفصل الخامس

جريمة الاحصاء

ومن حكايتين مشهورتين بين حكايات سفرى صمويل وأخبار الأيام ، نعلم أن « يهوه » أبدى كراهيته فى مناسبة من المناسبات ، نحو القيام بتعداد الشعب اليهودى • ويبدو أنه كان يعد هذا العمل جريمة أبشع من جريمة غلى اللبن أو المشى على عتبة البيت • فنحن نقرأ أن « يهوه » أو ربما الشيطان ، قد أوحى الى الملك داود بفكرة مشئومة ، وهى أن يقوم بتعداد قومه • ومهما يكن مصدر هذا الوحي على وجه التأكيد ، لأن الكتاب الدينيين يختلفون حول هذا الموضوع ، فإن نتيجة هذا العمل ، أو على الأقل عاقبته ، كانت حلول الكارثة ببنى اسرائيل ، فقد تناقص عدد الاسرائيليين اثر ذلك التعداد مباشرة نتيجة انتشار وباء الطاعون ، ونظر الناس الى هذه الكارثة بوصفها جزاء طبيعيا لجريمة عدهم • بل ان خيالهم المتهيج صور لهم ، وقد أحاط بهم شبح الطاعون من كل صوب ، شبح «ملاك الخراب » ، وهو واقف بين المسحب مشهرا سيفه فوق « اورشليم » ، تماما كما حدث زمن الوباء الكبير الذى حل بمدينة « لندن » ، وذلك اذا اعتمدنا على رواية « ديفو » عند ما ازدحمت الطرقات بالناس وقد توهموا انهم أبصروا شبحا مفرزا يتماوج فى الهواء • ولم يلق الشبح الذى توهمه الاسرائيليون بسيفه جانبا ، كما لم يكف الناس المكلمون عن التجول فى شوارع اورشليم ، الا عند ما اعترف الملك داود بالآثم بجريسته ، وعند ما قدم التضحية لتهدئة غضب الرب •

وليس اعتراض « يهوه » أو بالأحرى اليهود على تعداد الناس ،

سوى مثال لعقيدة عامة كان يؤمن بها كثير من الشعوب الجاهلة عندما كانوا يابون كل الآباء أن يعد أفرادهم ، أو رءوس قطعان ماشيتهم أو ممتلكاتهم بصفة عامة • ويبدو أن هذه الخرافة الغربية ، اذ أنها تعد كذلك بحق ، مألوفة لدى زنوج افريقيا • فعند قبيلة « الباكونجو » التى تسكن أعالي نهر الكونغو ، « يكون الحظ العاثر حليف المرأة ان هى عدت أولادها عدا متتاليا ، لأن الأرواح الشريرة ترهف السمع الى عددهم فتصيب عندئذ بعضهم بالموت • وبالمثل فان الناس لا يرغبون فى الحساء عددهم ، لأنهم يعتقدون أن هذا من شأنه أن يجتذب انظار الأرواح الشريرة اليهم ، فيموت بعضهم أثر ذلك • فقد حدث فى عام ١٩٠٨ ان أراد حكام ولاية الكونغو أن يقوموا باحصاء المواطنين بقصد جباية الضرائب • فأرسلوا ضابطا مع بعض الجنود ليقوموا بتعداد السكان • فثار الأهالى وأوشكوا على أن يشنوا الحرب ضده ، لولا أنه كان برفقة عدد كبير من الجنود • وليس من غير المتحمل أن تكون هناك معارك قد نشبت بين البيض والسود فى بقاع أخرى من افريقيا ، لا بسبب رفضهم لدفع الضريبة ، بل بسبب معارضتهم لعددهم ، وذلك خوفا من أن تستمع الأرواح الى عددهم فتقضى عليهم » • ومثل هذا يحدث بين قبيلة « بولوكا » أو « بانجالى » التى تسكن أعالي الكونغو ، « فالمواطن يتطير كل التطير اذا عد أولاده ، بل انه يعادى هذه الفكرة كلية ، لأنه يعتقد أنه اذا كان قام بعد أولاده أو اذا ذكر عددهم على الوجه الصحيح ، فان الأرواح الشريرة سوف تسمعه ، فتختطف بعض أولاده إثر ذلك • ومن ثم فانك اذا سألته هذا السؤال البسيط وهو : « كم عدد أولادك ؟ » ، فانك بذلك تحرك مخاوفه وتهيج تطيره • ومن ثم فانه يجيبك على التو : « لست ادرى كم عددهم » • فان أنت ألححت عليه فى السؤال ، فانه يخبرك بأن عددهم ستون أو مائة أو أى عدد آخر يخطر بباله • بل انه يفعل هذا مع غير أولاده الذين يتعاطف معهم تعاطفه مع أولاده ، فلا يذكر لك عددهم على وجه التحديد وانما يذكر عددا كبيرا يدعو الى

المتساؤل • وهو لا يفعل هذا بقصد خداع المتساؤل ، بل يقصد خداع الأرواح الشريرة التي تعيش في كل زمان ومكان » •

وبالمثل فإن قبيلة « ماساي » التي تسكن إفريقيا الشرقية لا تقوم بعد أفرادها أو حيواناتها خوفاً من أن يتخطف الموت رجالهم أو حيواناتهم وفقاً لتصورهم • ومن ثم فإنهم يعدون الحشد الكبير من الناس أو الحيوانات بالعشرات أو بالمئات أو الألوف • فإذا كان المعدود جماعة صغيرة من الناس أو الحيوانات ، فإنهم يعدونهم عداً كلياً في حذر بالغ ، دون أن يذكروا الرقم على وجه التحديد • أما الذين توفوا من الناس ، أو ما توفي من حيوان ، فإنه يعد عداً منتظماً ، لأنهم لا يخافون على هؤلاء من نقص عددهم • « وتابى قبيلة » « واساناي » التي تسكن شرق إفريقيا البريطانية كل الإباء أن يعد أفرادها خوفاً من أن يموت أحد الذين عدواً بعد ذلك بزمن قصير • ولما كانت قبيلة « أكامبا » ، وهي قبيلة أخرى في نفس المنطقة تهتم كل الاهتمام بثروة قطيعها ، فإنها تحرص على اتباع بعض العادات الخرافية المحددة ، والا لحق الشر بقطعان الماشية • ومن بين هذه العادات الحرص على عدم عد رعوس القطعان • فإذا عاد القطيع إلى القرية ، فإن مالكة يلقي مجرد نظرة عليه ليتبين ما إذا كان رأس منه قد فقد • ولا يقتصر تحريم العد على المواشي في هذه القبيلة ، بل يتعداها إلى كل الكائنات الحية ، وبصفة خاصة البنات • وقد تحدث أحد الثقات عن هذه العادة عند هذه القبيلة فقال : « إن هذه القبيلة لديها بعض التطيرات ، فيما يبدو ، فيما يختص بعد قطعان ماشيتها • فالرجل الذي يملك قطيعاً كبيراً من الماشية لا يعرف عدد رعوس هذا القطيع ، ولكنه يرقبه هو أو زوجته في أثناء رحيله ليرى ما إذا كان رأس تميزه علامة خاصة ، قد فقد • وإذا كان رب الأسرة يعرف بطبيعة الحال عدد أولاده ، فإنه لا يرغب في أن يخبر أي فرد خارج أسرته بعددهم الحقيقي • وهناك رواية تحكى أن رجلاً كان يدعى « موندانجولا » ، كان يعيش في تلال « ابيتي » • وكان لهذا

الرجل عدد كبير من البنين والبنات الذين كان يزهو بهم ويقول انه يستطيع بمساعدتهم أن يقاوم أى هجوم من قبل « ماساي » • وذات ليلة فاجأته قبيلة « ماساي » وقتلته هو وأولاده • وقد نظر الناس الى هذا الحادث بوصفه جزاء طبيعيًا لزهو هذا الرجل بعدد أولاده • وإنه لمن الصعوبة بمكان أن يعرف الشخص الغريب عدد أفراد أسرة من أسر قبيلة « أكيويو » ، وهى قبيلة تسكن شرق أفريقيا البريطانية ، ولو معرفة تقريبيّة • وسرعان ما يدرك المتحدث الغريب من الأمهات أن الحديث حول عدد الأولاد على وجه الدقة يعد مجلبة للشراء • ومثل هذا العزوف عن عد الأفراد يتفق مع مقت الإسرائيليين في الزمن القديم لعد الأفراد • أما اذا شاء المسئول أن يجيب سائله اجابة مهذبة عن عدد أولاده ، فانه يقول له : « تعالى معى وأبصرهم بنفسك » • وتعتقد قبيلة « جالا » في شرق أفريقيا ، أن عد القطيع ينجد غالبًا سيئًا ، وأنه يحول دون تكاثره • وبالمثل تعتقد قبائل الهوثنتوت أن عد أفراد المجتمع أو جماعة من الجامعات علامة على حدوث شر كبير ، فهم يتوقعون اثر ذلك أن يتوفى أحد أفرادهم • وقد قيل إن مبشرا قام بعد عماله من الأهالى ، وهو جاهل بهذه العقيدة ، فدفع خيافته ثمنًا لهذا الخطأ •

ويبدو أن عادة التطير بين الناس ، تنتشر بصفة عامة في شمال افريقيا • فقد قيل ان اغتراض الجزائريين على الحكام الفرنسيين بسبب سعيهم وراء القيام باحصاء السكان ، كان يرتكز الى حد كبير على تخكم هذه العقيدة في نفوسهم • والا يقتضّر هذا الاعتقاد على عد الأشخاص ، بل يتعداه الى عد مكاييل المحاصيل ، وهو عمل له طابع مقدس من وجهة نظر بعض الشعوب • فالشخص الذى يعد مكاييل الحبوب في « وهران » لا بد أن يكون في حالة من الطهارة الشعائرية • وهو بدلا من أن يعد المكاييل عدا تصاعديا منتظما ، أى يقول : واخذ واثنين وثلاثة وهكذا ، فانه يقول : « باسم الله ، واحد ، بركتان ، اثنان ، يا كرم النبى ، ثلاثة ، سنربح بأمر الله ، أربعة ، في عين الشيطان ، خمسة ، في عين ابنه ستة ، الله يمنحنا البركة ، سبعة ،

وهكذا حتى يصل الى عدد اثني عشر فيقول : الكمال لله • ويحدث مثل هذا في فلسطين عندما تعد مكاييل الحبوب • فيقول كثير من المسلمين عند الكيل الأول : الله واحد • وعند الكيل الثاني : ليس له ثان • ثم يذكرون مباشرة العدد ثلاثة وأربعة • « وهناك أعداد كثيرة يتشاعم عرب فلسطين من ذكرها ، ومن بينها العدد خمسة • ولذلك فهم بدلا من أن يذكروا هذا الرقم ، فانهم يقولون : « يدك » ، إشارة الى عدد أصابع اليد الخمسة • ورقم سبعة يعد كذلك رقما شؤما وهو أمر يثير التعجب ، ولذلك فهم يملكون عليه دون ذكره ، أو انهم يذكرون كلمة « بركة » بدلا منه • وعند ذكر العدد تسعة يقول المسلم : « صلوا على النبي » • كما أنه لا يذكر العدد احدى عشر • فالشخص الذي يعد ويصل الى الرقم « عشرة » ، يذكر رقم اثني عشر بعد ذلك مباشرة • وربما كان الغرض من عدم ذكر الأعداد المفردة هو خداع الأرواح الشريرة التي ربما تثقب في انتظار سرقة المحصول أو اتلافه ، والتي قد تكون من الغباء بحيث يغيب عنها فهم هذه الطريقة الغريبة في العد •

ويراعى سكان جزر « شورتلاند » التي تقع في غرب الباسفيك ، اتباع بعض الشعائر والتقاليد عند بناء بيت الزعيم ، فعند تسقيف البيت يوضع عن كل زاوية في السقف قدر محدد من أوراق شجر جوز الهند المصفرة • ولكنه لا يسمح للناس بعد هذه الأوراق لأن عدّها يجلب سوء الحظ للبيت • فإذا كان عدد الأوراق أقل من المطلوب ، لأنهم لم يعثروا على مزيد منها ، فانهم يؤجلون بناء البيت الذي قد يكون قد أوشك على الانتهاء • وهكذا قد يؤدي الخطأ في تقدير الحساب الى خسارة كبيرة • ويمكننا أن نحكم بناء على ذلك على نظرة الناس الخطيرة في عد الأوراق ، فأفضل لهم أن يضحوا بثمرة عملهم من أن يعدوها • وبالمثل فان هنود « شيروكي » في شمال أمريكا « لا يعدون البطيخ أو الشمام ، كما انه لا ينبغي أن تفحص هذه الثمار عن قرب وهي ما تزال في طور النمو ، والا حال ذلك دون نموها •

وقد حدث أن قام الضابط الحاكم في « فورت سيمبسون » في كولومبيا البريطانية ، بعمل اجزاء لهنود المناطق المجاورة ، فتوفي عدد كبير منهم إثر ذلك مباشرة بتأثير وباء الحصبة • ومن الطبيعى أن يغزو الهنود هذه الكارثة الى ما قام به الضابط من عد الزنوج ، تماما كما عزا الملك داود انتشار الطاعون الى جريمة عده لقومه « • ولا يحفظ هنود أوهاما عدد سنوات أعمارهم ظنا منهم أن الروح الشرير يمكن أن يصل الى مسمعه عدد هذه السنوات » •

ومثل هذه الخرافات ما تزال تعيش في أوروبا وفي بلدنا حتى هذا اليوم • فقد كان « الملاييون » يعرضون ، ومن المحتمل انهم ما زالوا يفعلون هذا حتى اليوم ، عن عد أفرادهم ، وعن الجهر بعددهم المحدد ، اذ انهم يتوقعون أن هذا العمل نذير بحدوث كارثة قد تحدث اثر القيام بعملية العد مباشرة • وفي الأماكن الجبلية في اسكتلندة ، « تتشائم الأسرة بعد رعوس قطعان ما شيتها أو قطعان ماشية أخرى ، وبصفة خاصة في يوم الجمعة • فصاحب البقر يعرف كل واحدة بلونها وحجمها أو بأية علامة أخرى ، ولكنه من المحتمل أنه يجهل العدد الكامل للقطيع • كما أن الصياد لا يذكر عدد السمك الذى اصطاده في رمية شبكة واحدة أو طوال اليوم ، لأن هذا يؤدي الى تغيير خطه في صيد السمك » • وعلى الرغم من أن كل هذه الأخبار التى قدمناها قد اعتمدنا فيها على كاتب عاش في القرن الثامن عشر ، إلا أن مثل هذه التطيرات كانت تنتشر في اسكتلندا حتى القرن التاسع عشر ، ومن المحتمل أنها لم تنقرض حتى يومنا هذا • وقد قيل لنا « انه يعتقد في اسكتلندا أن الحظ العاثر يلحق بمن يذكر عدد قطعان الماشية أو الأقراس أو السمك أو أية منقولات أخرى يملكها الفرد ، حية كانت أم جمادا • كما قيل ان الاعتقاد ساد في بعض الوقت في أن انتشار وباء الجدري يجيء في أعقاب القيام بتعداد السكان » • ويجرص مجتمع الصيادين الذين يسكنون الساحل الشمالى الشرقى في اسكتلندة على عدم عدسفتهم وهى في عرض البحر بحال من الأحوال • كما أنهم

لا يقومون بعد جماعة من النساء أو الرجال أو الأطفال • ولا شيء
يسىء الى جماعة الصيادات. وهن يسرعن في الشارع لبيعن السمك
أكثر من أن يشار اليهن بالبنان. ويذكر عددن بصوت مرتفع • ولهذا
فان زوجات الصيادين في قرية « أو شميتي » ، وهي قرية تقع على
شاطيء « فورفار شاير » ، يتزعجن لصياح الأولاد الأشقياء الذين
يثيرون اليهن ويرددون هذه العبارات :

واحد ، اثنين ، ثلاثة

واحد ، اثنين ، ثلاثة

هل ترى عددا كبيرا من زوجات الصيادين

نعم اننى أرى عددا كبيرا منهن •

ولم يكن الصيادون يتشاءمون بعد أفرادهم فحسب ، بل كانوا
يتشاءمون كذلك بعد سمكهم. ومراكب صيدهم •

« ولا ينبغي للمزارع في « لينكولن شاير » ، أن يعد شياهاه على
وجه التحديد في موسم الاخصاب • وربما جاز لنا أن نعتقد أن هذا
التحريم يرتبط بفكرة أن عدد الأغنام على نحو دقيق يقدم للقوى
الشريفة معلومات دقيقة تستخدمها في اينذاء الماشية في الوقت
المناسب • ولقد رأيت راعيا تبدو عليه البحيرة لأن سيده كان يجهل
الضرر الذى يلحق به من جراء اضرارها على عدد رءوس قطعان ماشيته •
فعطى الرغم من أن هذا السيد كان متساهلا في معاملة الرعاة ، إلا أنه
كان يحصر كل صباح على أن يعترف على وجه الدقة عدد اللشياه التى
ولدت • والسبب الذى دفع الراعى الى هذه التحيرة هو بعينه الذى
يدفع الناس لأن يخيبوا حينما يسألون عن أعمارهن بقولهم : « اننى
أبلغ من العمر ما يبلغ لسانى » ، وأكثروا بعض الشيء من أسناننى
« وقد لاحظ « جايدور » في Melusine (ج ٩ ، ص ٣٥) أنه
يتحدث على العجائز ألا يذكرن أعمارهن • فان اضطروا الى ذلك فانهم

يجيبون بأنهم يبلغون من العمر قدر خنصرهم • ويجيب الأهالي في « جودار فيل هاينولت » عند ما يسألون عن أعمارهم بقولهم . « اثني في عمر العجل ، فكل عام يساوي اثني عشر شهرا » • ولا يقتصر التطير بعد الشياه على « لا نكولين شاير » ، بل ينتشر كذلك في انجلترا • فقد كتب لي صديق يسكن في قرية في « وارفيك شاير » منذ بضع سنين يقول : « انه من العسير أن تموت المخرافات ، فبالأمس سألت امرأة عن عدد الشياه التي يملكها زوجها ، فأجابت بأنها لا تعرف عددها • ولما رأت الدهشة تشيع في وجهي أضافت قائلة : « أنت تعرف يا سيدى أن ذكر عددها يجلب الشر » ثم قالت : « وعلى كل فنحن لم نفقد أى رأس منها حتى اليوم » • وقد كان زوج هذه السيدة موظفا في البريد ويملك دكانا بالقرية ، أى كان من الناحية الفكرية أعلى مستوى من المزارع » •

ويحذر الناس في الدانمارك من عد البيض الذي ترقد عليه الدجاجة حتى لا تطأ الدجاجة الأم البيض وتقتل أفراخها • فاذا فقس البيض ، لا ينبغي أن تعد الفراريج والا أصبحت فريسة سهلة للصقر أو الحداة • وبالمثل لا ينبغي أن تعد الثمار أو زهورها والا ذبلت الزهور وسقطت الثمار قبل أوان نضجها • ويعتقد الناس في شمال جوتلاند أنك إذا عدت الفئران التي اصطادتهم قطة ، أو تلك التي اكتشفتها صدفة ، فإن عدد الفئران يتزايد • وبالمثل اذا عدت البراغيث أو القمل أو أية حشرة أخرى • وقد قيل إن الأرمن والاغريق كانوا يعتقدون أنهم اذا عدوا الدمامل في أجسامهم فانها تتكاثر • وبالمثل فان هناك اعتقادا جرمانيا سائدا يدعو الى عدم عد النقود خوفا من نقصها • كما يعتقد سكان « بلاتينيت العليا » وهو حى في « بافاريا » ، أنه لا ينبغي أن تعد الأرغفة وهي في الفرن والا لن تنضج جيدا • وبالمثل يقول سكان « فرانكونيا العليا » وهو حى آخر في « بافاريا » أنه لا يجوز أن تعد الزلاية في أثناء طهيها لأنك اذا فعلت هذا ، فإن النساء الصغيرات ساكنات الغابة اللاتي تشتين هذا الطعام ، لن

تحصلن عن شيء منه • وإذا حرمن من هذه الغذاء هلكن ، ومن ثم
فان شجر الغابة يذبل ويموت • ولكي يتجنب الناس حدوث ذلك ،
فانهم يحذرون من عد الزلابيا وهي في طاسة التحمير • وتتبع مثل
هذه العادة في اسكتلندا وان اختلف سبب اتباعها بعض الشيء ،
« اذ لا يجوز عد الكعك الذى يخبز في البيت في أثناء خبزه ، لأن
الجنيات يأكلن الكعك الذى حصر عدده ، وهو ما زال في الفرن ،
ومن ثم فهو لا يمكث داخل الفرن حتى يكتمل نضجه » •

ويمكننا أن نرجع بناء على ذلك أن اعتراض اليهود في عهد الملك
داود على حصر عددهم ، لم يكن يرتكز سوى على أساس من المتطهير
الذى تأكد عند ما انتشر بينهم وباء الطاعون بعد اجراء عملية العد
مباشرة • وما زال عرب سوريا حتى اليوم يكرهون فكرة أن يعدوا
أو أن يعدوا ، فقد قيل لنا ان هؤلاء العرب يأبون أن تعد خيامهم
وفرسانهم وقطعان ما شيتهم لأن الشر يلحق بهم ان هم فعلوا ذلك •

على أن المشرع اليهودى تساهل في عادة تحريم تعداد السكان
الى حد كبير في العصور المتأخرة • فقد أباح أن يعد قومه على شرط
أن يدفع كل فرد للحاكم نصف « شاكل » (١) جزية لحياته ، حتى لا
ينتشر الوباء بين الناس • ويبدو أن غضب الرب بسبب ارتكاب
جريمة تعداد السكان ، قد هدا عند ما تسلم من الناس هذه الجزية
المتواضعة •

(١) أى نصف مثقال من الفضة •

الفصل السادس

حراسة عتبة المعبد

كان هناك في معبد أورشليم ثلاثة من الموظفين ، الذين يبدو أنهم كانوا من الكهنة ، وكانوا يلقبون « بحراس الباب » (١) . فماذا كانت وظيفة هؤلاء على وجه التحديد ؟ قد يقال أنهم كانوا مجرد حراس للمعبد . ولكن اللقب الذي خلع عليهم يشير الى أن وظيفتهم كانت أكبر من ذلك بكثير . ذلك أن هناك كثيرا من المخرافات الغريبة قد نشأت حول موضوع عتبات الأبواب في كل من العصور القديمة والحديثة . فقد قال النبي « صفنيا » على لسان يهوه : « وفي ذلك اليوم أعاقب كل الذين يقفزون فوق العتبة الذين يملأون بيت سيدهم ظلما وغشاء » . (سفر صفنيا الاصحاح الاول آية ٩) ويبدو من هذا التصريح أن من يتخطى العتبة واثبا يرتكب إثما يستحق عليه غضب الرب شأنه شأن اثم الخداع والغش . وقد كان الاله الفلسطينى « داجون » الذى كان موطنه « أشدود » ، ينظر لمن يطأ عتبة الباب نظرتة للأثم ، فنحن نقرأ أن كهنة هذه الاله وعباده كانوا يحرسون على ألا يخطوا عتبة المعبد بأقدامهم اذا دخلوه . وما تزال هذه العادة تتبع حتى اليوم في هذه المناطق . فقد تحدث الكابتن « كوندرا » عن عادة سورية فقال : « انه يعد من سوء الطالع أن يطأ الشخص بقدمه

(١) انظر سفر ارمياء الاصحاح الخامس والثلاثون آية ٤ .
« ودخلت بهم الى بيت الرب الى مخدع بنى جنان بن يجدليا ، رجل الله الذى بجانب مخدع الرؤساء الذى فوق مخدع معسيا بن شلوم حارس الباب » . وكذلك نفس السفر الاصحاح الثانى والخمسين آية ٢٤ .
« وأخذ رئيس الشرط سرايا الكاهن الأول وصفنيا الكاهن وحارسى الباب الثلاثة » ..

عتبه الباب • ومن ثم فانه يوجد في كل المساجد حاجز خشبي عند بابه ، حتى يضطر من يدخله أن يخطو فوقه عند دخول المسجد • ومثل هذه العادة تتبع في الأضرحة الريفية • وهذه الأضرحة تعد معابد صغيرة للأولياء ، وهي توجد في كل قرية على وجه التقريب في سوريا ، وهي تعد المركز الحقيقي لعبادة الفلاحين • « ويبدى الأهلئ تقديسا كبيرا لهذه الأضرحة ، حيث يعتقد الناس أن الأولياء يسكنونها على الدوام في صورة غير مرئية • ومن ثم فان المزارع يخلع حذاءه عند دخول الضريح ، ويراعى ألا تطأ قدماء العتبة » •

ويشير بقاء هذه العادة في سوريا حتى اليوم الى أن حراس عتبة المعبد في أورشليم ، ربما كانوا خفرا يقفون عند مدخل البناء المقدس لكي يمنعوا من يريد دخوله من أن يطأ العتبة بقدمه • ومما يؤيد هذا الفرض أننا نلاحظ وجود مثل هؤلاء الحراس في أماكن أخرى حيث يقومون بنفس المهمة • فعندما زار « ماركوپولو » قصر بكين في عهد الملك الشهير « كوبلاي خان » ، وجد عند باب كل قاعة (وفي كل مكان كان يحل فيه الامبراطور) ، رجلين ماردين ، يقف كل منهما على جانب من جانبي الباب ، وفي يد كل منهما رمح • وقد كانت مهمة هذين الحارسين مراقبة كل من يدخل القاعة حتى لا يطأ العتبة بقدميه • فاذا فعل أحد الزائرين ذلك ، خلعا عنه ملابساه ، ومنعاه من استردادها الا اذا قام بدفع دية • وقد يصفعانه عدة صفعات ولا يردان له الملابس • فاذا كان الزائرون من الغرباء الذين يجهلون تلك العادة ، فان بعض الأمراء يستقبلونهم ويشرحون لهم تلك العادة • فالصينيون كانوا يعتقدون في الحقيقة أن كل من يطأ عتبة الباب بقدمه ، يلحق به الأذى • وعلى الرغم من اصرار الحراس على تنفيذ هذا النظام عند دخول الزائرين القصر ، فانهم كانوا يتهاونون في اتباعه عند خروجهم منه ، لأن بعض الزائرين يكونون قد أصيبوا بالسكر وأصبحوا غير قادرين على التحكم في خطوات أقدامهم • « على أن حراس العتبة في بكين ، وفقا لرواية « فريا — أدوريك » الذي سافر الى الشرق

في مطلع القرن الثالث عشر ، لم يكونوا يلفتون نظر من يدخل القاعة الى هذا التحريم ، بل سرعان ما يصوبون الرماح الى كل من أخطأه الحظ ووطئ بقدمه إحدى عتبات القصر . وعندما كان الراهب « دي روبروكي » الذي كان يعمل سفيرا للويس الرابع عشر في بكين ، في بلاط « مانجوخان » ، حدث أن وطئ أحد رفاقه عتبة الباب بقدمه في أثناء خروجه من القاعة ، وعند ذلك أمسك الحراس بهذا الرجل المتهم وأحضروه الى « البولجاى » ، وهو قاضى القضاة ، أو سكرتير البلاط الذى كان يصدر الحكم على هؤلاء بالحياة أو الموت . ولما علم هذا القاضى أن هذا الرجل المذنب قد ارتكب هذا الاثم نتيجة جهل منه بتلك العادة ، عفا عنه ولكنه لم يسمح له بعد ذلك بدخول أى بيت من بيوت « مانجوخان » . أما الراهب فقد كان سعيد الحظ لأن ينجو بنفسه . ولم يكن تقريح العظام هو أسوأ عقاب يناله مرتكبو هذا الجرم في هذه البلاد ، فقد روى « بلاتو كاريبنى » الذى سافر الى بلاد التتار في منتصف القرن الثالث عشر ، أى قبل وفادة « روبروكي » ببضعة سنوات ، أن أى شخص كان يطأ عتبة كوخ الأمير التتارى أو عتبة خيمته بقدمه ، كان يجر من خلال حجر أعد لهذا الغرض أسفل الكوخ أو الخيمة ، ثم يقتل دون رحمة أو هوادة . ويعبر المثل المنغولى بايجاز عن السبب الذى تركز عليه هذه الأحكام الصارمة على النحو التالى : « لا تطأ العتبة بقدميك لأن هذا يعد جرما » .

على أن هذه العادة لم تكن تقتصر في العصور الوسطى على التتار أو المغول ، فقد كان الخلفاء العباسيون « يرغمون كل من يدخل قصورهم أن يخروا ساجدين عند عتبة بوابة القصر التى طعموها بقطعة حجر من حجر الكعبة الاسود وذلك لخلق مزيد من الرهبة على هذه العتبة ، حيث أن الناس قد تعودوا أن يخروا ساجدين لهذا الحجر . وقد كانت العتبة مرتفعة بعض الشيء عن الأرض وكل من بطأها بقدمه ينظر اليه على أنه قد ارتكب جرما » . وعندما زار

الرحالة الايطالى « بييترو فالى » قصر ملوك الفرس فى أصفهان فى مطلع القرن السابع عشر ، لاحظ أن « أكبر مظاهر التقديس كانت تقام عند بوابة مدخل القصر • وقد كان هذا التقديس كبيرا الى درجة أنه كان محرما على كل شخص أن يطاء بقدمه المدرج الخشبى المرتفع بعض الشيء عن الارض • بل ان الناس كانوا يقبلون هذا الدرج فى كل مناسبة ، كما لو كان شيئا مقدسا ثمينا » • فاذا نجح أحد المجرمين فى أن يخطو فوق العتبة ويدخل القصر ، فانه يكون بذلك قد أصبح فى حماية الحرم المقدس ، ولا يستطيع أحد عند ذاك أن يصيبه بسوء • فعندما كان « بييترو ديلا فالى » فى أصفهان كان يعيش فى القصر رجل ذو مكانة • وكان الملك متحاملا على هذا الرجل وعزم على أن يقتله • ولكن المذنب أسرع ودخل القصر ، وبذلك أصبح فى مأمن من الاعتداء عليه • ولو أنه كان قد خطا خارج البوابة ، لكان قد نفذ فيه حكم الاعدام فى الحال • ولم يكن أحد يمنع من دخول القصر • واذا استطاع شخص أن يخطو فوق العتبة التى يتحتم عليه تقبيلها ، كما سبق أن أشرت الى ذلك ، فان من حقه عند ذاك أن يطلب الحماية • وباختصار فان هذه العتبة كانت تقديس كل التقديس ، الى درجة أن اسمها وهو « أستانى » ، كان يطلق على البلاط والقصر الملكى نفسه •

وقد كانت تنتشر عادة تقديس المسكن على هذا النحو ، وتجنب لمسها ، بين الشعوب البدائية ، كما كانت تنتشر بين الشعوب المتحضرة • ففى « فيجى » ، كان يحرم على كل فرد الجلوس على عتبة المعبد ، فيما عدا الزعيم الذى يتمتع بمكانة مرموقة • على أن الجميع كانوا يحرصون على ألا يخطوا بأقدامهم عتبة مكان قد خصص لعبادة الآلهة ، فالأشخاص ذوى المسكنة يعبرون فوقها ، أما عامة الناس فيزحفون فوقها ، على أيديهم وأرجلهم • ويحدث هذا كذلك عندما يخطو الناس فوق عتبة بيت الزعيم والفرق طفيف فى الحقيقة بين من يتمتع بمكانة

مرموقة وذلك الذى يتمتع بالمكانة الدينية من الدرجة الثانية ، فالأول يعد نفسه قريبا للاله ، كما ان الناس كثيرا ما يتحدثون عنه بوصفه الها ، وهو فى بعض الأحيان يجهر بحقه فى الألوهية . وفى غرب أفريقيا « غالبا ما يسد مدخل قرية من القرى بحاجز خفيف مؤقت ، ولا يسمح للمرور من هذا الحاجز سوى عن طريق بوابة ضيقة ذات عقد ومصنوعة من الشجيرات التى تتوجها الزهور والأوراق . ويعتقد السكان أن هذا الحاجز ، زغم ضعفه ، يحول دون دخول الأرواح الشريرة داخل القرية ، حيث أنهم يعلقون على العقد تعاويذهم الفيتيشية . فإذا كانت القرية على أبواب حرب حقيقية ، سد هذا المدخل بجذوع الشجر ، حيث تدور خلفه معركة حقيقية لا بين الانسان والأرواح الشريرة ، وإنما بين الانسان والانسان . وفى بعض الأحيان تفرس شجرة فى وضع أفقى عبر العتبة الضيقة لحماية هذه البوابة ويتحتم على الزائر الغريب ألا يطىء بقدمه هذه الشجرة ، وإنما يعبر فوقها . فإذا كان أهالى القرية يتوقعون شرا مستطيرا ، فإنهم يسكبون على البوابة فى بعض الأحيان دم نعجة أو شاة تقدم ضحية لهذا الغرض » . ولا يسمح لفرد من بين قبيلة « ناندى » التى تسكن شرق أفريقيا البريطانى ، أن يجلس عند باب بيت أو عند عتبه ، كما لا يجوز للرجل أن يمس عتبة داره أو يمس أى شئ آخر فى بيته ، فيما عدا سريريه ، طالما كانت زوجته تقوم بإرضاع طفلها . وبالمثل لا يسمح لأحد فى مراکش أن يجلس عند عتبة البيت أو عند مدخل الخيمة . فإذا خالف شخص هذا التحريم ، فإن الناس يعتقدون أنه سيقع فريسة للمرض ، أو أنه سيتسبب فى حدوث شر لأهل البيت . ولا يجوز لأى شخص فى قبيلة « كورا » وهى قبيلة « درافيدية » فى « ميرزابو » أن يمس عتبة البيت سواء عند دخوله للبيت أو خروجه منه . ويقول « الكورميون » الذين يكونون طبقة المزارعين الرئيسية فى أقاليم الهند الوسطى « أنه لا يجوز لأى شخص على الإطلاق أن يجلس عند عتبة بيته ، لأن هذا مكان مخصص للالهة « لا كشيى » ، الهة الثروات . فالجلوس على

العتبة اذن يعد امتهاناً لها • وبالمثل تنتظر قبيلة « كالموك » الى الجلوس فوق عتبة البيت بوصفه جرماً •

ونلاحظ من خلال معظم هذه الأمثلة أن تحريم الجلوس على عتبة البيت أو لمسها يعد تحريماً عاماً كلياً • فليس لأحد ، كما سبق أن رأينا ، أى يجلس فوق العتبة ، أو أن يمسها فى أى وقت أو فى أى ظرف من الظروف • ونستثنى من ذلك حالة واحدة رأينا فيها أن التحريم مؤقت ومشروط ، وهى انه لا يجوز للرجل فى قبيلة « ناندى » أن يمس عتبة داره ، اذا كانت زوجته تقوم بارضاع طفل لها • ولكننا رأينا أن هذا التحريم لا يقتصر على عتبة الدار ، بل يتعداها الى كل شىء فى البيت فيما عدا سريره الخاص به • على أن هناك أحوال أخرى يقتصر التحريم فيها صراحة على أحوال خاصة بعينها ، وإن كنا لا نتصور أن التحريم كان محدداً للغاية على هذا النحو ، وأن الناس فى غير هذه الظروف المشار إليها كانوا أحراراً فى إبطاء العتبة بدون قيد أو شرط • ومثال ذلك أنه من المألوف عندما يعود رجل الى بلده تانجير بعد تأديته لفريضة الحج فى مكة ، أن يحمله أصدقاؤه فوق العتبة ويضعونه على سريره • ومع ذلك فإنه من الخطأ ان ندعى ، أن الرجال والنساء فى مراکش ، كانوا فيما عدا ذلك أحراراً فى أن يطاءوا بأقدامهم الأعتاب أو أن يجلسوا فوقها ، فلقد رأينا فى مراکش أنه لم يكن يسمح لأحدى بأى حال من الأحوال أن يجلس فوق عتبة داره أو فوق عتبة خيمته • ومن عادة سكان مراکش كذلك ، أن تحمل العروس عند دخولها بيت زوجها ، وذلك حرصاً من أقربائها على ألا تمس قدمها عتبة بيتها • على أن عادة حمل العروس فوق عتبة بيت المزوج الذى تدخله لأول مرة تنتشر فى جهات كثيرة من العالم ، كما أن الباحثين قاموا بدراستها فى كل من الزمن القديم والحديث ، وفسروها تفسيرات مختلفة • وربما كان من الأفضل أن نقدم أمثلة لهذه العادة قبل أن نعرض لوجوه النظر المختلفة فى تفسيرها • •

نفى فلسطين فى الوقت الحاضر « تحمل العروس فوق عتبة الباب

بحيث لا تمس قدمها عتبة بيت زوجها ، والا كان الحظ العثر حليفها • ويراعى الصينيون اتباع هذه العادة في شكل أكثر دقة • فعند « الهاكاين » على سبيل المثال ، تقوم امرأة عجوز ، يختارها الزوج ، بمساعدة العروس عندما تصل الى بيت زوجها وتحملها فوق العتبة وهي جالسة على كرسى ، بعد أن توضع فوق العتبة حديدة المحراث القاطعة بعد حرقها في النار وغمسها في الخل ، ثم يتلقفها أقرباؤها الذين يقفون على الجانب الآخر من العتبة • وربما اختلفت هذه العادة بعض الاختلاف من مكان لآخر في الصين • فوفقا لرواية أخرى ، تنسب فيما يبدو لبلدة « كانتون » والأماكن المجاورة ، أن العروس عندما تنزل من محفتها عند باب زوجها ، « تحملها خادمة فوق ظهرها ، وتخطو بها فوق نار تشتعل بالفحم النباتي اشتعالا بطيئا ، وترص على جوانبها الأحذية التي كان المدعوون يرتدونها في موكب العروس لتقدم هدية لزوج المستقبل • ثم تحمل خادمة أخرى وهي تخطو فوق النار كذلك ، صينية وضع فوقها عدد من الأعواد التي يتناول بها الصينيون طعامهم ، وكذلك بعض الأرز وبذور الفوفل » • ومن عادة « الموردينين » في روسيا ، أو ربما كانت من عاداتهم ، أن تأتي العروس الى بيت زوجها محمولة على أذرع بعض المدعوين • وفي جاوة وجزر سوندا الأخرى ، يحمل العريس بنفسه عروسه بين أذرع ليوصلها الى داخل بيته • وفي « سيراليون » ، تحمل امرأة عجوز العروس فوق ظهرها وتغطيها برداء جميل وذلك عندما يقترب المرافقون للعروس من بلدة الزوج ، لأنه لا يسمح لأي رجل أن يراها بعد ذلك الوقت الا بعد أن تفض بكارتها • ثم تبسط الحصر على الأرض حتى لا يمس الذين يحملون العروس الأرض بأقدامهم • وعلى هذا النحو تحمل العروس الى بيت زوجها • وعند قبيلة « أتونجا » وهي قبيلة تسكن إفريقيا الوسطى البريطانية غرب بحيرة نيانزا ، ترافق مجموعة من الفتيات الصغار العروس الى بيت زوجها حيث يكون هو في انتظارها • ثم تقف العروس عند عتبة باب الزوج ولا

يسمح لها بعبور العتبة إلا بعد أن يقدم لها العريس معزقة • وعند
ذاك تضع قدما على عتبة الباب ، ثم يقدم لها الزوج قطعة من القماش
طولها ياردتان • وعندئذ تخطو الزوجة بقدميها داخل البيت وتقف
بالقرب من الباب حيث تتسلم هدية هي عبارة عن عقد من الخرز
أو ما أشبه ذلك •

ولعلنا ندرك من هذه الروايات الأخيرة أن تحريم العروس من إبطاء
عتبة البيت الجديد يفهم ضمنا ولا يعبر عنه صراحة • ولكن العروس
بين الشعوب الآرية من الهند حتى اسكتلندا ، تحرص كل الحرص
على ألا تمس عتبة بيت زوجها ، ومن ثم فإنها تعبرها أو تحمل فوقها •
فقد كانت القاعدة عند الهنود القدماء على سبيل المثال ، أن تعبر
العروس عتبة زوجها بادية برجلها اليمنى بحيث لا تقف على العتبة •
ويقال ان هذه العادة نفسها تتبع عند السلافيين الجنوبيين وعند
سكان موستار في « هير تسيجوفينا » وفي « بوجادي كاتارو » • وفي
« ألبانيا » عندما تصل الجماعة المرافقة للعروس الى بيت الزوج ،
يراعى أفراد هذه الجماعة أن يعبروا فوق عتبات الحجرات ، وبخاصة
الحجرة التي توضع فيها أكاليل الزهر بادئين بالرجل اليمنى • وفي
سلافونيا يحمل العروس الى بيت زوجها أفضل رجل • ولا يجوز
للعروس في بلاد اليونان في العصر الحاضر أن تمس العتبة بل تحمل
فوقها • وبالمثل كانت تمنع العروس في العصور القديمة في روما من
أن تخطى الأرض بقدميها • ومن ثم فإنها كانت تحمل فوقها • وفي بعض
جهات « سيليزيا » تحمل العروس عند عبور عتبة بيتها الجديد • وكذلك
كانت من عادة سكان ضواحي « ألتمارك » أو ربما ما تزال من
عاداتهم ، أن تصل العروس الى بيت زوجها في عربة • وعند وصولها
يأخذ الزوج بيدها ، ويحملها الى داخل بيته بحيث لا تلمس أرجلها
الأرض ، ثم يضعها بجانب الموقد • كما جرت العادة في سويسرا
الفرنسية أن تقابل امرأة عجوز العروس عند باب بيت زوجها ، وتنتثر
فوقها ثلاث حفنات من القمح • وعند ذاك يحملها الزوج بين أذرعها

فوق عتبة الباب حتى لا تدوسها بقدميها • وقد قيل ان عادة حمل العروس فوق عتبة الباب كانت تتبع فيما مضى في « اللورين » وفي بعض بقاع فرنسا • وفي « ويلز » « كان يعتقد أن الحظ العثر يجرى في اثر العروس ان هي وضعت قدميها على العتبة أو بالقرب منها ، ومن ثم فان العروس كانت تحمل بعناية بعد الانتهاء من احتفالات الزواج فوق العتبة ثم تدخل الى بيت الزوج » • وقد كان المألوف في بعض جهات استكلندا حتى مطلع القرن التاسع عشر ، عندما تصل العروس برفقة المدعويين الى بيت الزوج أنها « كانت تحمل فوق العتبة أو فوق الدرجة الاولى من السلم ، حتى لا يصيبها السحر أو الشؤم » •

ولعلنا نتساءل بعد ذلك ، ما المغزى الذي يقع وراء حمل العروس فوق عتبة باب الزوج ؟ لقد أشار بلوتارك الى أن هذه العادة التي كانت تتبع في روما ، وربما كانت أثرا متخلفا لعادة اختطاف « نساء سابينا » ، اللاتي كان الرومانيون يتخذون منهن زوجات • وبالمثل الى بين زوجها مع مراعاة ألا تطأ قدماها عتبة الباب • وهذه العادة قديمة ، وهي عادة اختطاف الزوجات من القبيلة المعادية ، وحملهن عنوة الى بيوت الأعداء • ولكن لعله مما يعارض وجهة النظر هذه أن عادة حمل العروس فوق العتبة من الصعب فصلها عن عادة تخطي العروس للعتبة دون أن تمسها قدماها • ففي هذه العادة الأخيرة ليس هناك ما يشير الى عنف أو اكراه ، وإنما تشير العروس مختارة الى بين زوجها مع مراعاة ألا تطأ قدماها عتبة الباب • وهذه العادة فيما نعلم ، قديمة قدم العادة الأولى ، إن لم تكن سابقة عليها ، حيث أنها هي العادة التي دونت في كتب التشريع الهندية القديمة التي لا تذكر شيئا عن عادة حمل العروس فوق العتبة • وبناء على ذلك ، فإننا يمكننا أن ننتهي الى أن عادة حمل العروس عند زفافها الى بيت الزوج ، هي بكل بساطة اجراء احتياطي لتجنب العروس من أن تمس العتبة بقدميها • وبناء على ذلك فهي ليست نسوي مثال واقعي

لذلك الحذر البالغ في عدم ايطاء العتبة بالأقدام ، وهو حذر ينتشر بين كثير من الشعوب كما رأينا • وإذا كنا ما زلنا في حاجة الى مزيد من الاستدلال الذي يؤيد معارضتنا لتفسير هذه العادة من خلال عادة اختطاف النساء القديمة ، فاننا نشير الى عادات الزواج في «سالميت» وهي جزيرة تقع بالقرب من بومباي • فوفقا لعادات الزواج في هذه الجزيرة ، يحمل خال الزوج نفسه أولا فوق العتبة الى بيته ، ثم يحمل العروس من بعده • وحيث أنه من العسير أن يفسر حمل الزوج الى بيته بوصفه أثرا متخلفا لعادة أسر الأزواج ، فإنه يتحتم علينا كذلك ألا نفسر كذلك حمل العروس فوق العتبة من خلال هذا الغرض •

على انه ما زال علينا أن نتساءل : وما السبب إذن في هذه المعارضة الشديدة للمس الأعتاب ؟ ولماذا تتخذ كل هذه الاحتياطات الدقيقة لتجنب الاتصال بجزء من البيت ؟ من المحتمل فيما يبدو أن هذه العادة ترتكز على اعتقاد ديني أو خرافي ، في أن هناك خطرا يستكن في الأعتاب يمكن أن يؤثر على هؤلاء الذين يطئونها بأقدامهم أو يجلسون فوقها وقد رأى العالم « فارو » وهو أحد الجهابذة الفولكلوريين ، أن عادة حمل العروس فوق العتبة كانت تهدف في الأصل تجنبها من ارتكاب نوع من الدنس إذا ما وطأت قدمها شيئا مقدسا كان مكرسا للآلهة « فستا » • ويعد رأى « فارو » العالم الأثرى الرومانى في ارجاعه هذه الشعيرة الى نوع من الشك الدينى ، أقرب الى الحقيقة من العالم الأثرى « بلوتارك » الذى رأى أن يربط هذه العادة بعادة أخرى أو بالأحرى بموضوع اختطاف الزوجات عنوة • فمن المؤكد أن الرومانيين كانوا ينظرون الى الأعتاب بوصفها شيئا مقدسا الى حد بعيد ، لا لاتصالها بالآلهة فستا فحسب ، ولكن لكونها ترتبط في العموم بإله ما ، يمكن أن يعد حارسا للبوابة الالهية « أى حارسا للأعتاب • وهذا الاله هو « ليمينتينوس » الذى انتقده الآباء المسيحيون في عنف ، فقد عرضته مكانته المتواضعة في الحياة لمزاعم تتسم بالغباء والمهانة •

وتعتقد بعض الشعوب التى تعيش فى بقاع أخرى أن الاعتاب تسكن الارواح • وربما كان هذا الاعتقاد فى حد ذاته كافيا لتفسير الاحجام عن وطء العتبة بالأقدام أو الجلوس فوقها ، حيث انه من الطبيعى أن يزعج هذا السلوك الكائنات الملهولة التى تتخذ مسكنها فى هذا المكان • ففى مراكش يعتقد الناس أن العتبة يسكنها الجن • ويبدو أن هذا الاعتقاد هو السبب الذى يدفع المراكشيون لأن يحملوا العروس فوق عتبة بيتها الجديد • وفى أرمينيا يعتقد الناس كذلك أن الاعتاب تعد مسكنا للأرواح • وحيث أنهم يظنون أن المتزوجين حديثا يكونون بصفة خاصة معرضين لتأثير الأرواح الشريرة ، فانهم يجعلون رجلا يقف فى انتظارهم لحمايتهم وهو شاهر سيفه • ويقوم برسم علامة الصليب على الحائط عند كل باب من الأبواب • وقد قيل ان سكان روسيا فى زمن الحادهم ، كانوا يعتقدون ان أرواح البيت تتخذ مكانا لها تحت الاعتاب • ويرتبط بهذا الاعتقاد أن من يبنى بيتا جديدا فى ليثوانيا ، يضع أسفل العتبة صليباً أو أى شئ آخر يتوارثه الناس جيلا عن جيل • ومن المؤلف كذلك فى ليثوانيا ان الأب يحمل ابنة هنيئة فوق العتبة بعد تعميده ورجوعه من الكنيسة • « وربما يهدف الأب من ذلك أن يدع هذا الفرد الجديد فى رعاية آلهة البيت » • كما يتحتم على الشخص ، عندما يخطو فوق العتبة أن يصنع علامة الصليب ، ولا يجوز له فى بعض الأماكن أن يجلس فيها • وكذلك يغسل جسم الاطفال الذين أصابتهم العيون الشريرة بالمرض ، عند أعتاب الأكواخ حتى يطرد المرض خارج الباب بمعوثة آلهة الرومان (بينات) التى تسكن عند هذه الاعتاب • « وهناك اعتقاد جرمانى يمنع الشخص من أن يطأ العتبة بقدمه اذا دخل بيتا جديدا ، لأن هذا يسئ الى الارواح الفقيرة » • كما يعتقد الايسلنديون أن من يجلس على عتبة الفناء تهاجمه الاشباح •

ومن المحتمل ان الناس يعتقدون فى بعض الأحيان ان الارواح التى تستقر عند الاعتاب هى ارواح الموتى • وهذا الاعتقاد ينتشر حيثما

تجرى عادة دفن الموتى أو دفن بعضهم تحت عتبة البيت فعند قبيلة « وانافيتا » التى تسكن فى شرق افريقيا على سبيل المثال ، « يدفن الرجل المتوفى ، وفقا للعادة المتبعة ، عند باب كوخ أكبر زوجاته سنا . ومن واجب هذه الزوجة ان تحرض على الا ترعج الضبع المتجولة بقايا جثة زوجها . على ان أسرة « موينجارى » وعشيرة « نديجهيرى » ، يفضلان . ان يكون قبر الزوج داخل كوخ الزوجة ، أما النساء فيدفن بالقرب من مداخل بيوتهن . وأما الأبناء الذين لا يحتفل بدفنهم ذكورا كانوا أم اناثا فيطرحون فى حفرة أو فى خندق يبعد قليلا عن الأكواخ ولا ترعى قبور هؤلاء الأبناء بعد ذلك ، وان نهش حيوان مفترس هذه القبور والتهم ما بها من أجساد . وبالمثل نجد أن المزارعين فى روسيا يدفنون الأطفال الجهيضين تحت عتبة الباب ، حيث أنهم يظنون ان أرواح الأطفال ترغب فى سكنى هذا المكان . ويحدث ما يشبه هذا فى « بلاسبور » وهو حى يقع فى أقاليم الهند الوسطى » . فالطفل الجهيض أو ذلك الذى توفى قبل مرور اليوم السادس على ولادته ، وهو يوم التطهير « شهانى » ، لا يحمل خارج البيت ليدفن بل يوضع فى وعاء طينى (جارا) ويدفن عند مدخل البيت أو فى فناءه . ويقول البعض انهم يفعلون ذلك لكى تلد الأم طفلا آخر . ويحدث هذا فى حى « هيسار » فى « البنجاب » . « فالبشناويين يدفنون الأطفال الموتى عند عتبة البيت معتقدين بذلك ان فى هذا ارتداد الروح الى الأم . وتنتشر هذه العادة فى حى « كانجارا » حيث يدفن جسد الطفل أمام الباب الخلفى » . وفيما يختص بالهنود الشماليين بصفة عامة ، فاننا نقرأ ان « الطفل عندما يموت ، يدفن عادة تحت عتبة البيت ، اذ ان الناس يعتقدون ان روح الطفل ستولد فى الأسرة مرة أخرى عندما يسير الوالدان على قبره كل يوم » . وهذا الاعتقاد فى تناسخ الأرواح يفسر تلك العادة التى تنتشر وسط افريقيا وهى عادة دفن المشيمة أسفل الباب أو فى الحقيقة تحت عتبة الأكواخ . فكثير من الناس يعتقدون ان المشيمة كائن انسانى ، وهى الأخت المتوأم للطفل الذى يولد قبل

نزلوها بفترة قصيرة • والأم تأمل فيما يبدو ، أن روح الطفل الميت أو روح توأمه تمر الى رحمها لكي يولد مرة أخرى ، وذلك اذا ما دفن الطفل الميت أو دفنت المشيمة تحت العتبة •

ومن الغريب حقا ' ان مثل هذا الدواء يستخدم حتى الزمن الحديث في علاج بعض الشرور التي تنتاب الأبقار على الرغم من ان الأشخاص الذين يمارسونه أو ينصحون به ، ليست لديهم فيما يبدو فكرة واضحة عن الطريقة التي يتم بها العلاج من خلال اتباع هذه العادة ، ففي حي « كليفلاند » في « يوركشاير » ، يرى الناس أنه من قبيل الحقيقة ان البقرة اذا ولدت عجلا جهيضا في مكان الحلب فانه من المحتمل كل الاحتمال ان تحذو حذوها سائر الأبقار التي تكون معها في هذا المكان ، الأمر الذي يسبب للمالك خسارة كثيرة • على ان الناس لا يقدمون سببا لهذه الظاهرة ، أو لما يعارضها في حالة عدم حدوثها • والعلاج الوقائي لهذه الحالة ، أو بتعبير آخر العلاج الفولكلورى لها ، هو ازالة عتبة المكان الذى حدثت فيه هذه الحادثة ، والقيام بحفر حفرة عميقة تتسع لدفن العجل الجهيض ، بحيث يوضع على ظهره وتكون أرجله مرفوعة الى أعلى • ثم تغطى الحفرة بالتراب وتقام عليها العتبة كما كانت أول الامر • وقد سأل الدكتور « أتكينسون » رجلا ذكيا في يوركشاير حول سبب استمرار هذه العادة الغريبة فقال في لهجته المحلية : « ان هذه العادة ما تزال تتبع حتى اليوم ، وقد كان أبى يمارسها فيما مضى • واذا كان أبى قد فعل ذلك منذ سنين خلت ، فلا بد ان يكون العجل الجهيض الذى دفنه قد بلى تماما ، ولهذا فاننى أقوم بدفنه مرة أخرى » • فمن الواضح ان هذا الرجل يعنى بذلك ان النفع الذى يعود على الناس من وراء دفن العجل الجهيض ، لا يدوم الى الأبد ، ومن ثم يجب ان يعزز هذا الأثر بعملية دفن جديدة • وبالمثل كتب لى مدير مزرعة كبيرة تقع بالقرب من كمبردج ، منذ بضعة سنوات يقول : « أخبرنى راعى بقر أخيرا ان العلاج الوحيد للأبقار عندما ينتشر وباء الاجهاض بينها ، ان يدفن أحد العجول

الجهيضة تحت البوابة التى تمر خلالها العجول كل يوم » • وقد سبق أن دون هذا العلاج منذ مائة عام رجل انجليزى كان مهتما بالآثار القديمة فقال : « ان العجل السقط أو الجهيض يدفن فى الطريق الذى كثيرا ما يسير فيه القطيع ، وهذا يقضى الى حد كبير على هذا المرض الذى قد يصيب الابقار • وهذه العادة تنتشر على نطاق واسع فى « سافولك » • وربما كان مغزى هذا الاعتقاد القديم ان روح العجل المدفون تتقمص البقرة التى تمر فوقه ، ومن ثم فهو يولد مرة أخرى • ولكنه ليس من المحتمل أن يكون تفسير عملية السحر على هذا النحو قد استمر فى انجلترا حتى العصر الحديث •

وبناء على ذلك ، فان الجو السحري الذى أحاط بالأعتاب فى الخيال الشعبى ، ربما كان مرده جزئيا الى عادة دفن الأطفال الصغار الميتين أو الحيوانات الميتة تحت الأعتاب • ولكن هذه العادة لا يمكن ان تفسر وحدها هذا التقديس الخرافى للأعتاب ، حيث ان هذا التقديس قد ارتبط كذلك بعتبات الخيام كما ارتبط بعتبات البيوت • ولست أعلم فى حدود مشاهداتى وقرائاتى ، ان هناك شاهدا أو احتمال وجود شاهد يشير الى عادة دفن الميت أسفل مدخل الخيمة • فالمراكشيون لا يعتقدون فى ان أرواح الموتى هى التى تسكن تحت الأعتاب ، مهما تكن طبيعة الكائنات الروحية التى يعتقد الناس فى أنها تسكنها ، توضحها كل الوضوح عادة ذبح الحيوانات عند الأعتاب على سبيل الضحية ، وارغام الناس الذين يدخلون البيت على ان يخطو فوق دم الحيوان المنسكب • وتذبح الضحية عند العتبة غالبا ، فى اللحظة التى توشك فيها العروس أن تدخل بيت زوجها للمرة الأولى • فعند قبيلة « براهويس » فى « بلوخستان » ، تجلس العروس التى تنتمى الى الطبقة الشعبية المتيسرة ، فى محفة على جمل ، بينما يسير الزوج بجانبها ممطيا حصانا ، وذلك حتى لا يسير كل منهما سيرا مجهدا على الاقدام • فاذا وصلا الى بيت العرس ، تذبح شاة عند العتبة وتعتبر الزوجة فوق الدم المنسكب بحيث يترك الدم علامة على

أحد نعلى حذائها • ثم يؤخذ بعض الدم ويوضع فى فنجان وتغمس فيه حزمة من الأعشاب ثم تدهن أم العريس جبهة العروس بالدم وهى تخطو فوق العتبة • ويحدث مثل هذا فى احتفالات الزواج فى « ميهارده » فى سوريا ، اذ تذبح شاة خارج باب البيت وتعبّر العروس فوق الدم فى أثناء انسكابه من الحيوان • ويبدو أن هذه العادة تنتشر بين اليونانيين والبروتستانتين • « وفى مصر ، يذبح الأقباط شاة عند دخول العروس بيت العرس ، ويتحتم عليها أن تعبر فوق الدم المنسكب على العتبة عند مدخل البيت » • وتقديم الضحية للميت عند عتبة البيت عادة عند قبيلة « بامبار » التى تسكن منطقة أعالى النيجر ، كما يسكب الدم على الحائطين اللذين يقعان على جانبى المدخل • وعلى عتبة الباب كذلك يقوم الصبى الذى يكلف بحمل حبوب الذرة من البيت الى الحقل عند الاحتفال ببذر الذرة بتحية أشباح الأجداد • ويبدو أن هذه العادات تعكس فكرة البامباريين فى أن أرواح الموتى تسكن بصفة خاصة عتبة البيت القديم •

وكل هذه العادات المختلفة يتجلى مغزاها ، اذا كان الاعتقاد يتمثل فى أن العتبة تعد مسكنا للأرواح التى يجب أن يسترضيها كل من يدخل البيت أو يخرج منه فى مواسم بعينها • وهذا الاعتقاد نفسه يفسر كيف أن الناس فى كثير من البلاد ، وفى ظروف بعينها كانوا يحرصون على ألا يمسوا الاعتاب ، وكيف أن الناس فى بعض البلاد كانوا يعينون حراسا يقفون عند الاعتاب لكى يراقبوا تنفيذ هذا التحريم فى صرامة • وربما كان الحراس الذين كانوا يقفون عند مدخل معبد أورشليم أشبه بهؤلاء الحراس ، على الرغم من أن « الكتاب المقدس » لم يشر فى شىء الى العمل الذى كانوا مكلفين بالقيام به •

الفصل السابع

أشجار البلوط والتربنتين المقدسة

احتلت شجرة البلوط وشجرة التربنتين المكان الأول بين الأشجار المقدسة عند العبريين القدماء ، وكلا النوعين ما زال ينمو في فلسطين . وتختلف الشجرتان عن بعضهما البعض من حيث النوع اختلافا كبيرا ، ولكنهما في الوقت نفسه تتشابهان تشابها كبيرا من حيث الشكل . ولهذا فانه يبدو أن العبريين القدماء كانوا يخلطون بينهما ، أو أنهم على الأقل ، كانوا يضعونهما تحت صنف واحد ، ويسمونهما بأسماء مختلفة . ومن ثم فانه ليس من اليسير دائما معرفة ما اذا كانت الإشارة في عبارات بعينها في العهد القديم الى شجرة البلوط أو الى شجرة التربنتين .

ولا تزال تثبت في فلسطين حتى اليوم ثلاثة أنواع من البلوط . وأكثر هذه الأنواع وفرة ، ذلك النوع الشوكي الدائم الاخضرار (*Quercus Pseudo-coccifera*) . ويشبه هذا النوع في شكله العام وفي لون أوراقه ، أشجار البلوط التي تنمو في الجزر في بلادنا تشابها تاما ، فيما عدا أن أوراق شجر البلوط الفلسطيني من النوع الشائك . كما أنها تختلف في شكلها عن أوراق أشجارنا كل الاختلاف ، فهي أكثر تسبها بأوراق البهشمية (١) . ويسمى الأهالي هذا النوع اسم سنديان ، أما اسم البلوط فتطلق على الصنف نفسه بكافة أنواعه . وهذا النوع الشائك الدائم الاخضرار من البلوط « هو الى حد كبير أكثر الأنواع وفرة في الشام ، وهو يغطي التلال الجبلية بخاصة في

(١) نبات ذو ورق صقيل شائك الأطراف ، وزهر صغير ضارب الى البياض .

فلسطين في شكل غابات كثيفة من الأشجار التي يبلغ ارتفاع كل منها من ثمانية أقدام الى اثني عشر قدما والتي تأخذ في التفرع من أسفل وتكسوها في وفرة أوراق صغيرة صلبة دائمة الاخضرار ، كما ينتشر جوز البلوط فيه بوفرة • ويكون هذا النوع تسعة أعشار نباتات جبل « الكرمل » ، كما أنه ينمو بمثل هذه الوفرة على وجه التقريب على الكشوح الغربية في الجبل الشرقي بלבnan ، كما ينتشر في كثير من منحدراتها ووديانها • بل ان جذوره تعيش في باطن الأرض في الأماكن التي اختفت فيها الأشجار ، ويقوم الناس بانتزاعها من باطن الأرض ، واستخدامها في الوقود ، كما يفعل سكان الوديان التي تقع جنوب بيت لحم • ونادرا ما تنمو غابات البلوط في سوريا في حجمها الكامل ، نظرا لأن السوريين يقومون باجتثاث الغابات في غير قيد » ••

والنوع الثاني من غابات البلوط التي تنمو في فلسطين هو الذي يسمى ببلوط فالونيا *Guercus acgilops* • وهذا النوع يغير أوراقه في مواسم معينة ويشبه الى حد كبير أشجار بلوطنا الانجليزي من حيث نموه وشكله العام ، ومن حيث خلو غاباته من الأحرار والأدغال • وانما تعلو أشجاره فوق ساق قوية كثيرة العقد الى مسافة تبلغ من عشرين الى ثلاثين قدما ، كما يبلغ قطرها من ثلاثة الى سبعة أقدام • وأوراق هذه الأشجار كثيفة ، كما أنها تبدو في منظرها الطبيعي أشبه بالحديقة لأنها تنمو في الغالب في فضاء الغابة المفتوح • ويندر وجود هذا النوع من الأشجار في الجنوب في حين يكثر في الشمال • وبينما تنمو هذه الأشجار متفرقة فوق جبل « الكرمل » ، فهي تكثر فوق جبل تابور ، وتتكاثر في شكل غابة في شمال هذا الجبل • وفي مدينة « باشان » يتوافر نوع البلوط ذو الأوراق الشائكة الدائمة الاخضرار • وهي تلك التي يتحدث عنها الأنبياء العبريون بدون شك بوصفها نموذجا للكبرياء والقوة • ذلك لأن شجرة البلوط في هذا المكان ذات حجم سحري ، بخاصة تلك التي تنمو في الوديان المنخفضة • ويأكل الأهالي ثمارها الكبيرة ، بينما يستخدم الصباغون

جوزتها في أصباغهم ، ويسمونها فالونيا وهي تصدر على نطاق واسع •

وأما النوع الثالث من أشجار البلوط التي تنمو في فلسطين فهو الذي يسمى باللغة اللاتينية (Quercus infectoria) ؟ ، وهذا النوع يغير أوراقه ذات اللون الأبيض من أسفلها ، في مواسم معينة • وليس هذا النوع مألوفاً مثل النوعين السابقين ، ولكنه ينمو على جبل الكرمل كما ينمو بوفرة بالقرب من « قادش » وهي مدينة « قادش نفتاني » القديمة • وتبدو هذه الأشجار رائعة نظراً لوفرة نسيجها النباتي ، ولونها الأحمر الداكن ولعان سطحها اللزج • ولم ير « كانون تريسترام » أشجار ضخمة من هذا النوع في أي مكان ، كما أنه لم ير منه شيئاً في جنوب السامرة •

وما زال الفلاحون ينظرون الى أشجار البلوط التي تنمو بوفرة في جهات كثيرة في فلسطين نظرة تقديس أساسه التصورات الخرافية • فقد ذكر « طومسون » في معرض حديثه عن أكلة البلوط الجميلة التي تقع بالقرب من بحيرة الحولة « فيالا » في شمال فلسطين ، فقال : « ان هذه الأشجار التي نجلس تحتها الآن ، يعتقد الناس في أنها مأوى للجن والأرواح • فكل قرية من قرى هذه الأودية على وجه التقريب أو تلك التي تقع على الجبال ، تنبت فيها شجرة بلوط ضخمة أو أكثر من شجرة يقدها الناس بناء على هذه الفكرة الخرافية • ويعتقد الأهالي أن كثيراً من الأشجار في هذه المنطقة يسكنها أشباح بعينها يطلق عليها اسم « بنات يعقوب » ، وهي تسمية غريبة ومبهمه لم أتمكن من أن أجد لها تفسيراً مقنعاً • ويبدو أن هذه التسمية تشير الى بقايا عبادة الأوثان القديمة التي قضى عليها القانون الاسلامي شكلاً ، ولكنه لم يتمكن من محوها كلية من نفوس الناس • فقد استسلم المسلمون بحق لمثل هذه الخرافات ، شأنهم شأن أي طبقة أخرى في المجتمع • وترتبط بدون شك بهذا التصور عند المسلمين ، عادة دفن أوليائهم والأدعياء من الأنبياء عند هذه الأشجار حيث يشيدون لهم

أضرحة أو مزارات • فجميع الطوائف غير المسيحية تعتقد في أن
أرواح الأولياء ترغب في العودة الى الأرض لتزور بصفة خاصة
أماكن قبورها •

وفي قرية « بلودان » الرومانسية التي يلجأ اليها سكان دمشق
هروبا من حر الصيف ، توجد « آثار معبد بعل القديم • وما زال
الفلاحون ينظرون الى أكمة البلوط العتيقة التي تنمو على السفح
أسفل هذا المعبد نظرة تقديس خرافي » • « ففى وادى » « بردى »
بالقرب من دمشق ، حيث ما تزال بعض الطقوس الوثنية تنتشر بين
المسلمين ، قمت بزيارة أيكيتين من أشجار البلوط من النوع الدائم
الاخضرار • وهاتان الأيكيتان يتخذهما الفلاحون أمكنة يتوسلون عندها
لأوليائهم • فاذا ما تحققت لهم رغبة كانوا قد سبقوا أن نذروا
نذرا عند تحقيقها ، فانهم يذهبون الى احدى الأيكيتين في يوم معين
من أيام السنة ، ويكسرون جرة هناك ، أو أنهم يضعون آنية جديدة
في كهف صغير يقع أسفل صخرة في احدى الأيكات • وقد نظرت في
هذا الكهف ورأيت ممتلئا حتى مدخله بالأواني المختلفة التي قدمها
الناس لهذا المكان المقدس • وأما في الأكمة الأخرى ، فأنت ترى
هناك أكواما هائلة من كسر الجرار • وهناك أكمة أخرى مقدسة
من أشجار البلوط تقع عند « باينو » في شمال سوريا ، حيث توجد
بين أشجارها آثار كنيسة يونانية • وقد علمنا أن الناس يقدسون
شجرة بلوط ضخمة عتيقة تنمو في قرية تركية في شمال سوريا ، فعند
هذه الشجرة يحرق الناس البخور ويقدمون النذور ، تماما كما يفعلون
عند بعض الأضرحة • وليس هناك في المناطق المجاورة لهذه الشجرة
قبر لأحد الأولياء ، ولكن الناس يقدسون الشجرة نفسها •

وفي كثير من الأحيان تنمو أشجار البلوط المقدسة منفردة أو في
شكل أكمة بالقرب من جامع ذي مؤذنة بيضاء أو بجوار أضرحة
أولياء الله المسلمين التي يمكن للمسافر أن يراها من أحد أطراف سوريا
الى الطرف الآخر منها • وكثير من هذه المآذن البيضاء والأيكات

المخضرة يتوج قمم التلال • ومع ذلك فليس هناك من أحد يعرف متى أصبحت هذه الأشجار أضرحة مقدسة ، ومن الذى خلع عليها هذه القدسية ، وما سبب قدسيتها • وكثير من هذه الأشجار قد كرس لتقديس البطارقة والأنبياء ، والقليل منها خصص لتقديس المسيح ورسله • كما أن بعضها يحمل أسماء أبطال شعبيين ، وبعضها الآخر يرتبط بأشخاص أو بأمكنة وحوادث ذات أهمية محلية • ومن المحتمل أن تقديس الكثير من هذه الأمكنة ذات المكانة السامية يرجع الى عصور سحيقة • وعلى الرغم من تعاقب الممالك والديانات على هذه الأمكنة ، فقد ظلت كما هى حتى اليوم ، ومما يؤكد هذا أن بعض هذه الأمكنة يتردد المسلمون سكان الصحراء ، وطائفة المتأولة (١) والدرزية ، وكذلك المسيحيون واليهود • ومن ثم فإننا لا نجد فقط فى هذه الأماكن ذات المنزلة السامية » ، وتحت كل شجرة خضراء تنمو على الجبال العالية وفوق التلال ، آثارا ترجع الى زمن بالغ فى القدم وتشير الى معتقدات الانسان القديم ، وانما نجد أيضا مباني حديثة ذات قباب تبرز وسط تلك الأيكات • واذا لم يكن كل هذا كفيلا بأن يجعلنا نشعر بقدسية هذه الأمكنة ، فانه يدفعنا لأن نتساءل عنها فى الحاح • فأحد هذه الأماكن المقدسة يقع فوق قمة جبل من جبال لبنان شرق قرية « جيزين » ، محاطا بأشجار البلوط المقدسة ، وقمة هذا الجبل ذات شكل بيضاوى ، وتحيط بها الأشجار المخضرة على الدوام » •

وقد كتب كاتب آخر كثيرا ما تجول فى الأرض المقدسة حول تأثير هذه الأماكن ، فقال : « ان المسافر فى فلسطين كثيرا ما يقع بصره على مجموعات الأشجار التى تحيط بقبة بيضاء ، هى عبارة عن مبنى منخفض من الأحجار يبرز من بين الأوراق ذات اللون الأخضر الداكن • فاذا تساءل المسافر عن هذا البناء ، قيل له انه لولى من الأولياء أو قديس من القديسين ، وهو يعنى أن بداخل هذا البناء قبر ولى أو

(١) هم الشيعة الجعفرية •

قديس ذائع الصيت • وتقع هذه الأبنية عادة ، وان كان هذا لا يحدث على الدوام ، فوق قمم التلال • ويمكن رؤيتها من حول هذه التلال من كل مكان على بعد عدة أميال • وبعضها يعد معلما للبلاد فيراه المسافر من على بعد مسافة كبيرة • فاذا سألت عن هؤلاء الأولياء فانك تجد ان الكثير من معالم حياتهم قد ضاع في مجاهل التاريخ • والحقيقة أن التفسير الحقيقي لقدسية هذه الأماكن ، هي أنها كانت في العصور القديمة أماكن شيدت عندها معابد الكنعانيين • ولم يكن الاسرائيليون قد خربوا كل تلك الأماكن المقدسة عندما استولوا على الأرض المقدسة كما نعلم من نصوص كثيرة في العهد القديم ، ولكنها أصبحت فيما بعد السبب فيما نسب اليهم من آثام • وفي العادة تنمو حول قبة الولي أكمة تنتشر فيها بصفة خاصة أشجار البلوط ، ويبدو ان هذه الأشجار بعينها هي التي كانت تنمو في هذه الأماكن أيام العبريين القدماء وبصفة خاصة على التلال • وإلى جانب أشجار البلوط التي تكون عادة من النوع الدائم الاخضرار ، لا من النوع الذي يغير أوراقه على نحو ما يحدث في غاباتنا الانجليزية ، تنمو أشجار التربنتين وأشجار الطرفاء والسدر أو البنك Zizyphus - spina Chrisri وأحيانا يسميها الأوربيون Dom ، وغير ذلك من الأشجار التي تنمو جنباً الى جنب مع الأشجار • وفي بعض الأحيان ينمو في هذا المكان شجرة واحدة يقبع في ظلها قبر الولي • ويتكون الضريح نفسه من بناء حجري بسيط ليست له نوافذ في أغلب الأحيان ، وبداخله محراب • ويراعى ترميم هذا الضريح على الدوام ، كما أنه يطلى بين الحين والآخر من الداخل والخارج بالطلاء الأبيض • وفي بعض الأحيان يوجد القبر داخل البناء تحت القباب ، وهو عبارة عن مبنى قبيح من الحجر مشيد فوق القبر ، ويبلغ ارتفاعه حوالي ثلاثة أقدام • وفي كثير من الأحيان يكون ارتفاعه غير عادي ، مثل قبر « يوشع » • الذي يقع بالقرب من السلط شرق الأردن ، اذ يبلغ ارتفاعه حوالي ثلاثين قدماً •

وكذلك كتب الكابتن « كوندرا » في معرض حديثه عن الديانة الفعلية لا الاسمية للمزارعين السوريين في أيامنا هذه فقال : « ان الدين المعترف به في هذا البلد هو الاسلام . ومبادئ هذا الدين بسيطة ، فهي تتلخص في الايمان بآله واحد ورسول واحد . ومع ذلك فقد يعيش الانسان شهورا في جهات نائية في فلسطين دون أن يبصر أو أن يسمع مؤذنا يؤذن للصلاة . ولا يعنى هذا ان الناس لا يعيشون حياتهم بدون دين يشكل سلوكهم اليومي ، ففي كل قرية على وجه التقريب يشاهد بناء صغير تعلوه قبة بيضاء ، وهذا البناء يعد المكان المقدس في القرية الذي تطلق عليه أسماء مختلفة ، فهو يسمى قبة ، ومزارا ، ومقاما . والكلمة الأخيرة عبرية وقد استخدمت في الكتاب المقدس اشارة الى أماكن الكنعانيين المقدسة التي أمر بنو اسرائيل بتخريبها . وتقع هذه الأضرحة فوق قمم الجبال العالية ، وفوق التلال وتحت كل شجرة خضراء . فالمكان الذي يختار لاقامة المقام هو بعينه الذي يقع عليه الاختيار في عهد موسى لاقامة المعابد ، وهو يراعى فيه أن يكون بارزا ، ففوق قمة الجبل أو عند حافته تسطح قبة صغيرة في ضوء الشمس وقد انتشرت فوقها فروع شجرة من أشجار البلوط أو من أشجار التربينتين . وبجانب أشجار النخيل المنعزلة أو وسط أشجار اللوتس العتيقة التي تنبت عند نبع ، تشرف شجرة على بناء منخفض يقف منعزلا أو محاطا بالقبور المنخفضة في الجبانة الصغيرة . وينظر الى الأشجار التي تنبت بجوار المقام نظرة تقديس على الدوام ، بل انه يحتفظ بالفروع التي تسقط منها داخل هذا البناء المقدس .

وتختلف شكل الأضرحة حسب درجة أهميتها ، فهي في بعض الأحيان تكون مجرد أرض جرداء يحيط بها سور من الأحجار ، كما هو الحال في ضريح النبي « جبرين » . وفي بعض الأحيان يكون الضريح بناء معماريا فخما تزينه النقوش وأحجار الزينة كما هو الحال في مسجد أبي هريرة (أحد صحابة النبي) الذي يقع بالقرب من

« بينة » • ولكن المقام يكون في العادة بناء ذا طابع حديث ويبلغ محيطه حوالي عشرة أقدام وتعلوه قبة دائرية مطلية بالطلاء الأبيض الناصح ، وبداخله محراب يقع عند الحائط الجنوبي • وتزين الحوائط التي تحيط بالبواب كما تزين العتبة الحجرية بالصور الزيتية ، وقد تطلّى بطلاء برتقالي يشبه لون الحناء • كما يوضع الى جانب العتبة ابريق ممثليء بالماء ليشرّب منه زوار الضريح • وفي العادة يوجد داخل المقام قبر صغير تتجه رأس ساكنه الى جهة الغرب ، ويتجه جسده الذي يوضع مستقليا على جانبه الأيسر ، كما هو المألوف ، جهة مكة • وفي بعض الأحيان تغطى أرض الضريح بالحصر ، كما يحتفظ داخل المقام في الغالب بمحراث أو بأى شئ آخر ذى قيمة ، حيث يظل في مأمن من أيدي أكثر اللصوص جرأة حيث لا يجرؤ لص على أن يسيء الى الولي الذي يجد الناس في ضريحه مكانا آمنا يحتفظون فيه ببعض ممتلكاتهم •

ويجسد هذا المقام العقيدة الحقيقية للمزارعين ، فهو مقدس قدسية المكان الذي أقام عنده الولي ذات مرة وفقا لتصور الناس (ومن ثم فقد سمي مقاما نسبة الى اقامة الولي في هذا المكان) • أو أنه مقدس لارتباطه بحادثة تتصل بتاريخ الولي • وهذا الضريح ينظر اليه على أنه المركز الذي يشع منه تأثير هذا الولي • فاذا كان الولي ذا مكانة روحية عالية فان تأثيره قد يمتد الى مسافة عشرين ميلا من حوله • واذا كان الولي سمح النفس ، فانه يمنح السعادة والصحة لزارثريه وغير ذلك من البركات • أما اذا كان غاضبا من الناس ، فانه يحل عليهم لعناته ، كأن يصيب بعض أفرادهم بالجنون أو ينزل بهم الموت • فاذا أحس الناس بتصرف غريب في سلوك أحدهم فانهم يقولون : « لقد أصابه الشيخ بالأذى » • كما يقال أنه أفضل للمجرم أن يقر بجريمة القتل التي ارتكبها وبذلك ينقذ نفسه ، من أن يقسم كذبا عند ضريح شيخ له مكانته بأنه لم يرتكب هذا الجرم ، لأنه ان فعل هذا فان وسطاء الولي الروحانيين يقتلونه حتما •

« وليست طريقة تقديس المقام معقدة • فعند هذا الضريح يسكن حارس على الدوام • وقد يكون هذا الحارس شيخا من بين الأهالى ، وقد يكون أكبر الرجال سنا فى القرية ، وفى بعض الأحيان يكون درويشا يسكن بالقرب من الضريح • كما يسكن عند المكان المقدس شخص يقوم بملء الماء وبنظافة المكان • ويتركز التقديس حول الضريح نفسه ، حيث يسكن الولى فى صورة غير مرئية كما يتوهم الناس • فاذا دخل المواطن الضريح ، خلع حذاءه عند العتبة ، ويأخذ حذره على ألا تمس قدماه عتبة الضريح ، كما عليه أن يحذر القيام بأية حركة من شأنها أن تسيء الى القوى الالهية التى تسكن هذا المكان • فاذا انتشر وباء فى القرية تقدم النذور الى المقام • وكثيرا ما رأيت زوجات فقيرات أو أمهات قد مرض أزواجهن أو أطفالهن يزرن الضريح ، وقد أحضرن معهن مصباحا زيتيا يضعنه أمام الضريح ويوقدنه • ويوفى نذر الولى عن طريق تقديم ضحية يطلق عليها اسم « كود » أو العوض ، فتذبح شاة قريبا من المقام ويؤكل لحمها فى وليمة تبركا بالشيخ » •

ولا تستخدم الفروع التى تسقط من الأشجار المقدسة سواء كانت أشجار البلوط أو التربنتين أو أشجار الطرفاء أو أى شجر آخر ينمو بالقرب من هذه الأمكنة المقدسة فى الوقود ، لأن المسلمين يعتقدون أنهم اذا استخدموا خشب الشجرة المقدسة فى الأعمال اليومية حلت عليهم لعنة الولى واستقرت عندهم •

ولهذا فإن من المناظر الغريبة أن نرى فى هذه الأمكنة حيث ينذر خشب الوقود ، أكواما من فروع الأشجار الجافة مطروحة على الأرض • ولا يجزؤ المسلمون على حرق هذه الفروع الا فى احتفال يقام للأولياء • أما الفلاحون المسيحيون ، فهم أقل دقة فى مراعاة ذلك لأنهم فى بعض الأحيان يستخدمون هذه الفروع المتساقطة فى وقود أفرانهم سرا •

وبناء على ذلك ، فان عبادة هذه الأماكن ذات المكانة السامية ، وبالمثل الأشجار الخضراء ، تلك العبادة التي حرمها الملوك العبريون وأنبيأؤهم منذ آلاف السنين ، لا تزال تعيش بوضوح في هذه الأماكن نفسها حتى اليوم . أى ان هؤلاء المزارعين لم يتغيروا الا قليلا ، رغم تعاقب الامبراطوريات على مر السنين ، ورغم قيام الثورات الروحية والاخلاقية التي غيرت من وجه عالمنا المتمددين .

ولنشر على سبيل المثال الى بعض هذه الأماكن المقدسة المحلية . فهناك فوق سلسلة من التلال تقع بالقرب من بحيرة فيالا في شمال فلسطين ، توجد هضبة صغيرة تغطيها أكمة من أشجار البلوط النبيلة ؛ متخذة بحق شكل غيضة جلييلة تثير في النفس السحر الدينى العميق . وفى وسط تلك الأكمة يقف ضريح الولى أو الشيخ « عثمان حازورى » . ولا يختلف هذا الضريح عن أضرحة المسلمين العادية فى شىء ، ويحيط به حائط حجرى كالح . والى أسفل هذا الضريح مباشرة ، توجد نافورة صغيرة عند طرف أكمة تسمى باسم الولى . وهناك فوق جبل « أوشعا » ، وهو أعلى جبل من جبال جلعاد قبر شهير للنبي هوشع تظله شجرة بلوط نبيلة دائمة الاخضرار . وهذا القبر يقدهسه المسلمون والمسيحيون واليهود على السواء . فقد تعود الناس أن يحجوا الى هذا القبر ليقدموا الضحية و يقيموا الولائم ويؤدوا الصلاة . ويعد المنظر الذى يشرف عليه هذا الضريح من أجمل مناظر فلسطين . وربما فاق فى جماله ، وإن لم يكن فى مداه ، أشهر المناظر التى يشرف عليها جبل « نبو » حيث وقف موسى متأملا ، قبل موته مباشرة ، أرض الميعاد التى لم تطأها قدمه والتى كانت تسطع أضواؤها الأرجوانية وظلالها عبر وادى الأردن العميق .

ثم هناك ضريح « هابيل » الذى يقف فوق صخرة بجوار نهر « أبانا » فى لبنان وتحيط به أشجار البلوط الجلييلة . وهذا الضريح بناء ذو قبة كسائر الأضرحة العادية واليه يحج المسلمون . وفى تل القاضى الذى كان يسمى فى الزمن القديم « وان » ، حيث تتبع

الروافذ السفلى لنهر الأردن ، تكثر الأضرحة التي ترتبط بأشجار البلوط المقدسة • وتل القاضي هذا عبارة عن رابية طبيعية من الحجر الصخري يبلغ ارتفاعها ثمانين قدما وعرضها نصف ميل • وتقع هذه الرابية فوق سهل فسيح وتكسوها مجموعة من أشجار الزيتون والبلوط التي تنحدر الى « بانياس » حيث توجد منابع نهر الأردن العليا • فموقع هذه الرابية في الحقيقة رائع كل الروعة • وعلى الجانب الغربى من الرابية توجد أكمة كثيفة لا يسهل اختراقها ، وتنمو فيها أشجار البلوط والدفلى الذى تتغذى من منابع النهر السفلى • وهذه المنابع عبارة عن نافورة رائعة أشبه بحوض من المياه المزبدة ، ويقال انها أكبر نافورة لا فى سوريا وحدها بل فى العالم بأسره • وعلى الجانب الشرقى من الرابية يطل نبع آخر من منابع نهر الأردن • وتقف الى جانب هذا النبع ، وبجوار بعضها البعض شجرتا بلوط وتربنتين نبيلتان ، وقد ظللتا قبور الأولياء المسلمين ، وتدلّت من فروعهما الخرق ونفائيات النذور •

وفى كثير من الأحيان نجد أشجار البلوط مزينة بخرق الفلاحين ، وان لم تكن هذه الأشجار بجوار قبور الأولياء أو اضرحتهم • ففى « سلوان » التى تقع مكان شيوخ القديمة ، تنبت شجرة بلوط كريمة تسمى « بلوطة ابراهيم » • وهى احدى الشجيرات التى تسكنها الأرواح ، وتتمتع بشهرة ذائعة فى هذا المكان • وعلى هذه الشجرة يعلق الفلاحون المتطيرون الخرق على فروعها لاسترضاء الأرواح التى « تسكنها » ، وفقا لاعتقاد الأهالى • « فاذا سرنا الى الوراى بعض الشئ فاننا نمر بمجموعة من أشجار البلوط الضخمة تتدلى من فروع شجرة منها خرق ذات أشكال وألوان متعددة • ويحق لنا أن نتساءل بعد ذلك : ما الهدف من تعليق هذه الزينة على فروع الأشجار ؟ ربما اعتقد الناس أن احدى هذه الشجرات تعد مأوى للأرواح الشريرة ، ومن ثم كانت وظيفة هذه الخرق هى حماية الناس من شرور هذه الأرواح • ومثل هذه الأشجار التى يعتقد الناس فى أنها مأوى

للأرواح الشريرة تنتشر في كل مكان في فلسطين ، ويخشى السكان المتطيرون أن يناموا تحتها » . وربما تمكن المسافر من رؤية احدى هذه الشجرات المسكونة من ناحية بيروت القديمة ، وهى عبارة عن شجرة بلوط جليلة دائمة الخضرة وتنو على حافة الجبال الناتئة ، ويلقى الناس على فروع هذه الشجرة قطعاً من ملابسهم على سبيل التقرب من هذه الشجرة ، حيث أنهم يعتقدون أن قوة ما تسكن الشجرة ولها القدرة على شفاء المرضى . وأحد جذور هذه الشجرة يرتفع فوق الأرض في شكل قبو . وقد تعود الناس الذين يقاسون من مرض الروماتيزم أو الليمباجو ان يزحفوا من خلال هذا القبو حتى يشفوا من آلامهم . كما أن النساء الحوامل يزحفن كذلك من خلاله حتى تكون ولادتهن ميسرة . وفي اليوم الحادى والعشرين من شهر سبتمبر يرقص الرجال والنساء طوال الليل ، كل جنس على حدة بجانب الشجرة . ويبالغ الناس في تقديس هذه الشجرة الى درجة أنه اذا تجرأ شك وانتزع أحد فروعها ، فانه يصاب بشلل في ذراعه .

وتوجد أضرحة الأولياء بين الأيكات في بقاع مختلفة من وادى الأردن الأعلى ، وجميعها مخصص لتقديس « بنات يعقوب » . ويمكن رؤية احدى هذه الأضرحة من مدينة « صفد » وهو عبارة عن مسجد صغير وبداخله قبر . والناس يعتقدون أن فتيات عذراوات حسناوات يسكنه ، ومن ثم فقد تعودوا أن يشعلوا البخور عند مدخل هذا الضريح . وقد حاول ضابط شجاع . أصبح فيما بعد ضابطاً مرموقاً ، ثم اشترك فيما بعد في الاشراف على شئون فلسطين ، حاول ان يبحث عن بنات يعقوب في هذا القبر ، ولكنه لم يعثر لهن على أثر . وربما يشير هذا الربط بين بنات يعقوب وأشجار البلوط الى اعتقاد الناس في أن لشجر البلوط حوريات أو آلهة تسكنه .

والكلمة التى تشير الى شجرة البلوط عند العبريين تشبه تلك الكلمة التى تسمى بها شجرة التريبتين كل التشابه . والاختلاف الوحيد بين اللفظتين يتمثل في حروف العلة التى اضافها المخطوط

الماسورى الى النص فى العصور الوسطى • ولم يتفق الباحثون حول تحديد نوع الشجرة التى تشير اليها كل من هاتين الكلمتين ، ذلك لأن الشك يساورنا ، عندما تعترضنا احدى هاتين الكلمتين فى نص من نصوص العهد القديم ، فيما اذا كان المقصود بها شجرة البلوط أو شجرة التربينتين • وما تزال شجرة التربينتين مألوفة فى فلسطين ، وهى تنبت اما مفردة أو فى شكل مجموعة من الشجرات التى تختلط بأشجار البلوط ، ويطلق عليها الأهالى اسم شجرة البطم • وهذه الأشجار تنتشر فى جنوب وشرق فلسطين حيث أنها تنمو بصفة عامة فى بيئة أكثر دفئا وجفافا من البيئة التى تنمو فيها شجر البلوط • وتبدو شجرة التربينتين من على بعد شبيهة فى شكلها فى شكلها العام بشجرة البلوط • ومن النادر أن تنمو هذه الأشجار فى شكل كثيف أو فى شكل أكمام ، ولا توجد منها غابات على الاطلاق ، وانما تقف هذه الشجرة بمفردها فى شكل سحرى فى بعض الوهاد العارية أو على جانب التل حيث لا ترتفع فوقها فى الغابة أية شجرة أخرى • وعندما تذبل أوراقها فى بداية الشتاء ، تكون حينئذ شبيهة بشجرة البلوط الانجليزية التى تعرف بقصرها وجذعها ذى العقد الكثيرة ، كما أنها تشبهها فى أغصانها المنتشرة غير المتناسقة وفروعها القصيرة • وأوراق هذه الشجرة ذات شكل ريشى ، وأما وريقاتها فأكبر من أوراق شجر المستكاء • ويميل لونها الى الخضرة المشرية بالحمرة الداكنة ، ولكنه لا يصل الى دكنة أوراق شجر الخرنوب • ويندر ظهور هذه الأشجار كلما اتجهنا شمالا ، ومع ذلك فهى تعد الشجرة الوحيدة التى تخفف من رتابة خطوات الأغنام وهى تسير فى طريق منحدر لا نهائى يقودها الى موآب القديمة وأمون ، والى المنطقة التى تحيط بهيشبون • على اننا نصادف فى الوهاد القليلة التى تقع جنوب نهر اليبوق • كثيرا من هذه الأشجار التى تفوق فى حجمها تلك التى لا تزال تنمو غرب نهر الأردن » •

على أنه اذا حق لنا أن نحكم من خلال ما كتبه الرحالة فى أثناء

اشاراتهم المتعددة نسيبها الى هاتين الشجرتين ، فاننا ننتبين أن شجر التربنتين أقل انتشاراً في فلسطين من شجر البلوط • كما أن الناس فيما يبدو ، لا ينظرون اليه على الدوام نظرتهم الخرافية الى شجر البلوط • ومع ذلك ، فان تقديس شجرة التربنتين ليس نادراً • فقد ذكر « كانون تريسترام » أن كثيراً من أشجار التربنتين ما تزال حتى يومنا هذا موضع تقديس السكان المجاورين لها • كما أن الناس يرون أن أفضل مكان لدفن الشيخ البدوي ، هو أسفل شجرة تنمو بمفردها • ويورد أحد الرحالة الشرقيين ذكر شجرة « أم الخلقان » (١) التي تنمو عند مشارف الصحراء • وهم يعنون بها شجرة التربنتين التي تغطيها الخرق التي يقدمها الناس نذراً لها بدافع التطير أو بدافع ارتباطهم النفسي • وفي مكان آخر يتحدث هذا الكاتب نفسه عن شجرة التربنتين التي تنمو عند منبع نهر الأردن ، وقد تدلت من فروعها الخرق • وفي موآب تنمو أشجار البلوط بصفة عامة ، والبلوط الدائم الخضرة ، وكذلك شجر التربنتين والخرنوب والزيتون أيا كان نوعه ، اما مرتبطة بمكان مقدس أو تنمو بمفردها • ففي الحالة الأولى يبدو أنها لم تنم أصلاً مستقلة عن المكان المقدس الذي تظله ، كما أنها ليست لها وظيفة مستقلة عن تلك الوظيفة التي تربطها بالولى الذي يعد مصدر نموها وسبب نضرتها ، والقائم على حمايتها • وأما الشجرة التي تنمو مفردة ، فلا تتمتع بمزايا المكان المقدس المشيد على بعد منها • وهذا النوع ينمو فرادى بجوار نبع أو فوق تل أو قمة جبل • ولقد مررت بشجرة من أشجار التربنتين ذات أوراق خضراء كثيفة تنمو بالقرب من « الطيبة » التي تقع في الجنوب الغربي من « الكرك » غير بعيد من « الخنزيرة » ، وقد غطت فروعها الخرق • وهذه الشجرة تعد موضع تقديس كبير من قبل عرب هذا الحي • وقد سألت عن قبر الولي الذي يرتبط بهذا المكان المقدس ، فأجابني عربي كان قد فرغ من صلاته فقال : « ليس هنا مكان لقبر » • فلما سألته بعد ذلك : « ولكن لماذا تأتي الى هذا المكان وتصلى عنده ؟ » أجاب على الفور :

(١) لعلها التي كان العرب يسمونها قديماً « ذات الانواط » •

« لأن هنا في هذا المكان يعيش رجل مقدس » • فقلت له : « وأين هو ؟ » فقال : « ان كل الظلال التي تحيط بالشجرة تعد مأوى له كما أنه يسكن الشجرة وفروعها وأوراقها » • ومرة أخرى تجد بين أطلال القلعة الرومانية « الرميّة » في موآب ، شجرة خضراء من أشجار التربنتين • ولا يجرؤ أي عربي أن ينتزع فرعاً من فروعها حتى لا تصيبه روح الولي التي تسكن الشجرة بأذى • فلما سألت عما إذا كان روح الولي يعيش في الشجرة ، أجاب بعض العرب بأن روحه هي التي تكسب الشجرة قوتها ، كما أجاب البعض الآخر بأن روحه تعيش أسفلها • وهكذا نجد أن فكرتهم حول هذا الموضوع باهتة • ومن ثم فهم جميعاً يتفقون حول اجابة واحدة وهي « الله أعلم » • وقد أخبرنا الأب « جوسن » الذي ندين له بهذه المعلومات ، أخبرنا عن شجرة التربنتين التي تنمو في موآب فقال : « ان روح الولي التي يقدسها الناس في هيئة تلك الشجرة تتخذ مكان سكناها من حول الشجرة ، فهي لا تستطيع أن تبرح هذا المكان ، وانما تعيش أسيرة فيه كما لو كانت تعيش في سجن • فموقف هذا الولي يختلف عن سائر الأولياء الذين لا يرتبطون بمكان واحد وانما يتنقلون في الأماكن التي يستدعي فيها عبادهم أرواحهم • فاذا نام البدوي بدافع الخشوع تحت شجرة من هذه الأشجار المقدسة ملتصقا الشفاء من روح الولي ، فان روح الولي كثيراً ما تظهر له في رؤياه وتكلفه بعمل ما أو تحثه على تقديم الضحية ، وهو يلبي هذه الأوامر على الدوام •

وربما أدركنا من خلال هذه الأمثلة أن روح الولي المستكنة في الشجرة ، ليست سوى روح الشجرة التي كان يعبدها الوثنيون في العصور القديمة • وقد عاشت هذه العقيدة في صورة واضحة عبر العصور الإسلامية والمسيحية • ويؤكد هذا رواية الأب « جوسن » عن تقديس العرب الخرافي لهذه الأشجار ، فقال : « ان المجموعة الرائعة من هذه الاشجار تلك التي تسمى مايسة وهي التي تقع في جنوب كيراك وتتمتع بنفس الشهرة والتقديس اللذين تتمتع بهما

الأشجار الأخرى • وبالمثل تتمتع شجرة الدغل بشجرة وقوة سحرية كبيرة ، وان كانت لا تظلل قبر أى ولى من الأولياء • ولم يذكر لى أى شخص على نحو مؤكد أن هناك وليا مدفونا عند تلك الشجرة وانما تملؤهم الشجرة نفسها بالورع على حد قولهم • والويل للعربى الذى يجروء على أن يقطع فرعاً من فروعها بلة ورقة من أوراقها ، فسرعان ما تعاقبه روح الشجرة فى الحال وربما تسببت فى موته • وقد حدث أن ترك رجل بدوى كيساً ممتلئاً بالشعير فى حماية الشجرة • فعثرت نعجتان من بين قطيع جار له كانتا قد ضلتا طريقهما على الشعير وأكلتا • عند ذاك أرسلت روح الشجرة ذئباً فى أثرهما فأكل النعجتين فى مساء اليوم نفسه • فالشجرة نفسها هى التى تعاقب ، وهى التى تمنح الخير • فالذى يلمس أوراقها يكتب له الشفاء من مرضه • ومن ثم فان البدوى لا ينسى عندما يمر بشجرة من أشجار ما يسه أو اشجار الدغل ، أن يمرر غصناً أخضر من أغصانها على وجهه وأذرعته ، حتى يجنب نفسه المرض أو لكى يكتسب قوة جديدة • فعملية اللمس كافية لأن توصل اليهم بركة الشجرة ، ومن المرضى من ينامون فى ظلها حتى يشفوا من أمراضهم ، كما أنهم يعلقون الخرق على فروعها بقصد التماس بركتها • ولهذا فانك ترى هذه الخرق فى أعداد كبيرة واشكال متنوعة • وفى اليوم الذى يعلق المريض خرقة على الشجرة يبرأ من مرضه ، لأن المرض يلتصق بالشجرة على حد تعبير الأهالى • على أن بعض هؤلاء الأهالى الذين يفكرون تفكيراً عقلانياً على نحو ما ، يذكرون أن الخرق التى يعلقونها على الشجرة لا يقصد بها سوى تخليد ذكرى زيارتهم لتلك الشجرة • وفى بعض الأحيان يربط العربى بالشجرة التى يمر بها قطعة من القماش • أو قد يترك هراوته إما رمزاً لتقديسه للشجرة أو لأنه يهدف الى ضمان بركة الشجرة له فى المستقبل • وليس من غير المألوف فى الواقع أن تقابل بعض العرب وهم يربطون قطعة من القماش الأخضر أو الأحمر (ومن النادر أن يكون لونها أبيض ، أما اللون الأسود فلا يستخدم على الإطلاق) بأحد فروع الشجرة المقدسة ، لكى يضمن لطفل محبب لديه الصحة

الوافرة • وفضلا عن ذلك فأننى عثرت عند شجر « مايسة » عدد
خصلات من الشعر مربوطة فى فرع من فروع شجرة منها • وقد فسر
لى مرافقى هذه الظاهرة على النحو التالى فقال : « لقد زارت سيدة
مريضة هذه الشجرة ، فقصت شعرها وربطته بالشجرة علامة على
تقديسها لها » •

وتعد شجرة التربنتين الشجرة الرئيسية فى بيئة موآب الدافئة
الجافة ، بينما تزدهر أشجار البلوط فى أحياء جلعود والجليل التى تقع
فى الشمال حيث يكون الجو أكثر برودة وأكثر أمطارا • ومن الطبيعى
بناء على ذلك أن تكون شجرة التربنتين هى الشجرة المقدسة أساسا فى
الجنوب ، وأن تكون شجرة البلوط هى الشجرة المقدسة أساسا فى
الشمال • ولكنه يبدو ، اذا حكمنا من خلال روايات الرحالة ، أن
الفلسطينيين بشكل عام يألّفون أشجار البلوط • ومن ثم كانت هى
الشجرة التى يقدسها الفلاحون أكثر من غيرها من الأشجار • وبناء
على ذلك فانه يحق لنا أن ننتهى ، اذا وضعنا فى اعتبارنا مدى تشبث
الناس بأشكال المعتقدات الخرافية ، وتعلقهم بها عبر العصور ، أن
سكان هذا البلد الوثنيين كانوا يقدسون شجرة البلوط فى العصور
القديمة أكثر من تقديسهم لأية شجرة أخرى • وبناء على ذلك فاننا
اذا ساورنا الشك فيما اذا كانت الكلمة العبرية فى العهد القديم تشير
الى شجرة البلوط أو الى شجرة التربنتين ، فانه ينبغى علينا أن نرجح
أنها تشير الى شجرة البلوط • ويؤكد هذا أن المترجمين الاغريق
القديما ، وكذلك القديس « جيروم » كانوا ينقلون الكلمة التى يشك
فى اشارتها فى العهد القديم الى شجرة البلوط أو الى شجرة التربنتين ،
الى الكلمة المقابلة لها فى لغتهم والتى تعنى شجرة البلوط لا شجرة
التربنتين • وقد فعل منقحو الترجمة الانجليزية المعتمدة هذا كذلك ،
باستثناء فقرتين ترجم فيها المنقحون كلمة « آلون » العبرية الى
كلمة Oak الانجليزية أى البلوط ، كما ترجموا كلمة « آله »
العبرية الى كلمة Terebinth الانجليزية أى التربنتين • أما خلاف

هذا فقد كانوا يترجمون كلمة « آله » العبرية الى كلمة Oak على الدوام ، ثم ذكروا في الهامش أن كلمة Terbinth هي كلمة أخرى تقابل « آله » العبرية (١) .

ومما يؤكد أن الوثنيين العبريين القدماء كانوا يقدسون شجرة البلوط ، تلك الاشارات التي أشار اليها الأنبياء فيما يختص بهذه العقيدة الخرافية . فالنبي هوشع يقول : « يذبحون على رؤوس الجبال ويبخرون على التلال تحت البلوط واللبنى والبطم لأن ظلها حسن . لذلك نزنى بناتكم وتفسق كنانكم . لا أعاقب بناتكم لأنهن يزنين ولا كنانكم لأنهن يفسقن لأنهم يعتزلون مع الزانيات ويذبحون مع الناذرات الزنى » (٢) .

فالنبي هنا يشير الى عادة البغاء التي كا يسبغ عليها الصفة الدينية لممارستها في ظل الأشجار المقدسة . ويقول النبي « حزقيال » مشيرا الى تلك الأكمات المقدسة التي يقدسها قومه الكفرة : « فتعلمون أنى أنا الرب اذا كانت قتلاهم وسط أصنامهم حول مذابحهم على كل أكمة عالية وفي رؤوس كل الجبال وتحت كل شجرة خضراء وتحت كل بلوطة غيباء الموضع الذى قربوا فيه رائحة سرور لكل أصنامهم (٣) . ومرة أخرى يتحدث النبي أشعيا عن الآثمين الذين هجروا الرب فيقول : « لأنهم يخجلون من أشجار البطم التي اشتبهتموها وتخزون من الجنات التي اخترتموها ، لأنكم تصيرون

(١) الشجرة التي يرد ذكرها بصفة عامة في الترجمة العربية للعهد القديم هي شجرة البلوط .

(انظر على سبيل المثال . سفر الخروج الاصحاح الثانى عشر آية ٦ ، والاصحاح الثالث عشر آية ١٨ . والاصحاح الرابع عشر آية ١٣ . وسفر التثنية ، الاصحاح الحادى عشر آية ٣٠) .

وقد يرد اسم الشجرة الثانية تحت اسم البطم (انظر سفر القضاة الاصحاح السادس آية ١١ . وسفر أشعيا الاصحاح السادس آية ١٣) (المترجمة) .

(٢) سفر هوشع الاصحاح الرابع آية ١٣ وما بعدها .

(٣) سفر حزقيال الاصحاح السادس من آية ١٣ .

كبطمة قد ذبل ورقها وكجفة ليس لها ماء » • ثم يقول مؤلف النبوة الأخيرة الذى يذكر على أنه النبی أشعيا وذلك فى معرض حديثه عن انتشار الوثنية فى عصره : « أما أنتم أولاد المعصية نسل الكذب المتوقدون الى الأصنام تحت كل شجرة خضراء ، القاتلون الأودية تحت شقوق المعقل » (١) • والضحية التى يشار إليها هنا هى بدون شك التضحية بالأولاد الى الاله « ملك » • ويشير النبی أرميا الى هذه المعتقدات موجهها حديثه فى نعمة انفعالية الى بنى اسرائيل الآثمين فيقول : « أيضا فى أذيك وجد دم نفوس المساكين الأزياء • لا بالنقب وجدته ، بل على كل هذه » (٢) • وهنا يبدو أن دماء الأطفال الذين كانوا يقدمون ضحية ، كانت تلتخ بها شجرة البلوط المقدسة • أو أنها كانت تقدم إليها على نحو آخر ما • وينبغى أن نذكر فى هذا المجال أن الضحايا كانوا يذبحون قبل أن تحرق أجسادهم فى النار حتى يمكن استخدام دمائهم قربانا للأشجار أو طلاء لها • فقبيلة « جالا » التى تسكن فى شرق افريقيا ، تسكب دماء حيواناتهم عند سفح أشجارهم المقدسة حتى لاتذبل أشجارهم • وفى بعض الأحيان يطلون جذعها وفروعها بالدم والزبد واللبن • وتقديس قبيلة « الماساي » فى شرق افريقيا نوعا من نبات التين الطفيلى الذى يلتف تدريجيا حول جذع الشجرة الرئيسية فى شكل جذور وفروع لولبية بيضاء براقية • وهذه الأشجار يتقرب إليها الماسيون عن طريق ذبح نعجة ، وسكب دمائها عند جذورها • وعندما يقدم الفونومايون سكان السودان الفرنسى الضحية للأرض حتى تمنحهم المحصول الطيب ، فانهم يسكبون دماء الدجاج المذبوح على شجر التمر هندی وغيره من الأشجار المقدسة • وتقدم قبيلة « البامبار » التى تسكن أعالي النيجر ، الشياة والنعاج والدجاج ضحية لأشجار البامبو أو أية أشجار مقدسة أخرى ، كما يسكبون الدماء فوق جذوع تلك الأشجار فى الوقت الذى يصلون فيه للأرواح التى تسكن الشجرة • وعلى هذا

(١) سفر اشعيا ، الاصحاح السابع والخمسين آية ٤ ، ٥ .

(٢) سفر أرميا (الاصحاح الثانى آية ٢٤) •

النحو كان « البرويسيون » يسكبون دماء ضحيّتهم فوق شجره البلوط التى تنمو عند « روموت » • ويقول « لوكان » ان كل شجرة فى أيكه « درويديكال » المقدسة فى مرسيليا كانت تغسل بدماء الشخص الذى يقتل ضحية لها •

ولكن اذا كان أنبياء بنى اسرائيل فى العصور المتأخرة قد أشاروا الى عبادة أشجار البلوط أو التربنتين بوصفها طقسا من طقوس الوثنية، فهناك شواهد عديدة أخرى تشير الى أن أشجار البلوط أو التربنتين المقدسة كانت تلعب دورا رئيسيا فى العقيدة الشعبية فى العصور السابقة على ذلك عند بنى اسرائيل ، بل انها تشير الى أن يهوه نفسه كان مرتبطا بتقديس هذه الأشجار كل الارتباط • وعلى كل ، فانه يجدر بنا أن نشير الى ان الرب أو ملائكته كثيرا ما ظهروا لأحد البطارقة القدامى أو للأبطال عند شجرة البلوط أو عند شجرة من أشجار التربنتين • فقد كان أول ظهور يهوه لابراهيم عند شجرة بلوط أو عند شجرة من أشجار التربنتين ، كانت تنمو فى « شكيم » وتعد مكانا للنبوة • وهناك ابنتى ابراهيم معبدا (١) • ومرة أخرى نقرأ ان ابراهيم كان يسكن الى جانب شجرة بلوط أو شجرة تربنتين كانت تنمو فى ممرا فى حبرون (٢) • وهناك ابنتى كذلك معبدا للرب • وهناك فى هذا المكان بجانب شجرة البلوط أو التربنتين التى كانت تنمو فى « ممرا » « ظهر له الرب فى شكل ثلاثة رجال بينما كان يجلس فى خيمته وقت الظهيرة (٣) • وهناك فى ظل الأشجار أكل الرب من

(١) واجتاز ابرام فى الأرض الى مكان شكيم الى بلوطة مورة • وكان الكنعانيون حينئذ فى الأرض • (سفر التكوين الاصحاح الثانى عشر آية ٦) •

(٢) « فنقل ابرام خيامه واتى واقام عند بلوكات ممرا التى فى حبرون • بنى هناك مذبحا للرب » •

(سفر التكوين الاصحاح الثالث عشر آية ١٨) •

(٣) « وظهر له الرب عند بلوطات ممرا وهو جالس فى باب الخيمة وقت حر النهار • فرفع عينيه ونظر واذا ثلاثة رجال واقفون لديه » • (سفر التكوين الاصحاح الثامن عشر آية ١ ، ٢) •

اللحم وشرب من اللبن واللبن الرائب الذى قدمه الشيخ الجليل له • وكذلك ظهر ملاك الرب « لجدعون » وجلس تحت شجرة البلوط أو التربنتين التى كانت تنمو فى « عفره » ، وأحضر له « جدعون » الذى كان منشغلا بدرب القمح ، لحم جدى وحساء ، كما أحضر له فطيرا غير مختمر ليأكل تحت شجرة بلوط • ولكن الملاك ، بدلا من أن يأكل الطعام ، طلب من جدعون أن يضع اللحم والفطير على صخرة وأن يسكب الحساء • ثم أشعل نارا من الصخر بلمسة من عصاه ، فأثت على اللحم والفطير • ثم اختفى الضيف السماوى بعد ذلك • أو ربما اختفى ساكن الشجرة • وابتنى جدعون اثر ذلك معبدا عند هذا المكان كما فعل ابراهيم من قبل (١) •

وقد كانت هناك شجرة بلوط أو تربنتين تعد مكانا للنبوة بالقرب من شكيم ، وكانت هناك شجرة أخرى بالقرب من ممرات • على أننا لانعرف ما اذا كانت هذه الشجرة هى بعينها التى ظهر عندها الرب لابراهيم • ويبدو أن اسم الشجرة وهو « شجرة العرافين » ، يشير الى أن مجموعة السحرة أو الكهنة ، كما نميل الى أن نسميهم على هذا النحو ، التى كانت قد استخدمت لها مكانا عند الشجرة المقدسة ، لكى يفسروا لطالبي النبؤات حفيف الأشجار فى الهواء وهديل حمام الغاب بين فروع الأشجار ، وغير ذلك من سائر أشكال النبوة التى تكشف عنها روح شجرة البلوط لعبادها • وما تزال وهدة شيخيم الجميلة التى تحتضن أشجار الزيتون وحدائق البرتقال وأشجار النخيل ، وترويهما الجداول ذات المياه الوفيرة ، لا تزال تعد أغنى بقاع فلسطين • كما أنه يبدو أنها كانت فى الزمن القديم مكانا لعبادة الأشجار • ومهما يكن من أمر فاننا نصادف مرارا فى معرض تاريخها ، ذكر أشجار البلوط أو التربنتين التى يبدو من سياق الكلام أنها كانت مقدسة ، فقد أخذ يعقوب الأصنام أو « ربات البيت الغريبة » ، كما أخذ الأقراط التى تستخدم فيما يبدو — بوصفها تعاويذ ، ودفن كل

(١) سفر القضاة ، الاصحاح السادس من ١١ — ٢٤) •

ذلك تحت شجرة البلوط أو التربنتين التي كانت تنمو في شكيم (١) .
ويذكر « أو يستاسيوس » أن هذه الشجرة كان شجرة تربنتين وأن
سكان المناطق المجاورة لها كانوا يقدسونها حتى عصره . وكان قد
شيد معبدا بجانب هذه الشجرة وكان الناس يقدمون فيه التضحيات .
وقد نصب النبي يوشع تحت شجرة البلوط التي كانت تنبت عند المكان
المقدس للرب في شكيم ، حجرا ، ليكون شاهدا على قومه عندما
قال لهم : « ان هذا الحجر يكون شاهدا علينا لأنه قد سمع كل كلام
الرب الذي كلمنا به ، فيكون شاهدا عليكم لئلا تجحدوا الهكم » (٢) .
كما نصب أهالي « شكيم » « أبيمالك » ملكا عند شجرة بلوط في
شكيم ، اذ كانوا يعتقدون أن شجرة البلوط ترتبط بالملك برابطة ما ،
حيث أننا نقرأ في مكان آخر عن شجرة كانت تسمى « بلوطة الملك » ،
وكانت تنمو عند حدود موطن سبط بني آشر . وقد دفنت عظام الملك
شاعول وعظام أولاده وفقا لرواية من الروايات تحت شجرة بلوط أو
تربنتين عند جبل جلبوع . وعندما توفيت « ديبورا » وصيفة
« رفقة » ، دفنت تحت شجرة بلوط في « بيت ايل » ، من ثم سميت
هذه الشجرة « شجرة البلوط الباكية » . ومن المحتمل أن شجرة
البلوط الباكية كانت هي بعينها الشجرة التي قابل عندها شاعول ،
بناء على تعليمات صموئيل النبي ، وقبل أن يتوج بمدة قصيرة ، ثلاثة
رجال كانوا ذاهبين لتقديم الضحية للرب عند « بيت ايل » ، فحيوه
وقدموا له رغيفين من أرغفتهم . وهذه التحية التي حيا بها الرجال
الثلاثة ملك المستقبل عند شجرة البلوط ، تذكرنا بظهور الرب لابراهيم
في هيئة ثلاثة رجال عند بلوطة « ممرا » . وربما أشارت تحية الرجال
عند شجرة البلوط في الرواية الأصلية لهذه الحكاية الى مغزى أبعد من
ذلك الذي تكشف عنه الرواية المتأخرة لها . فاذا ربطنا حادثة مقابلة

(١) فأعطوا كل الالهة الغريبة التي في أيديهم والاقراط التي في آذانهم
فطمرها يعقوب تحت البطمه التي عند شكيم .

(سفر التكوين الاصحاح الخامس والثلاثون آية ٤) .

(٢) سفر يشوع الاصحاح الرابع والعشرون آية ٢٧ .

الرجال الثلاثة لشاءول قبل تتوجه ملكا ، بحادثة تتويج « أبيمالك » عند شجرة البلوط ، فاننا نستدل من ذلك على أن الملك شاءول كان ينتظر من شجرة البلوط التي ربما ظهرت له في شكل ثلاثي أن تظهر له لتباركه في حفل تتويجه • وبناء على ذلك ، وفي ضوء هذا التفسير فان دفن عظام شاءول تحت شجرة البلوط يتطلب ، فيما يبدو ، تفسيراً جديداً • فالملك الذي سبق أن باركته روح الشجرة في بداية حكمه ، كان جديراً بأن ينام نومته الأخيرة تحت شجرة البلوط •

على أن أكثر الشجرات شهرة في فلسطين القديمة وأكثرها ألفه بين الناس كانت فيما يبدو هي شجرة البلوط أو التربنتين التي كانت تنمو عند « ممرا » ، لأن الرب ظهر عندها لابراهيم جد بني اسرائيل الأكبر في هيئة ثلاثة رجال ، فهل كانت هذه الشجرة شجرة بلوط أم شجرة تربنتين ؟ هنا تختلف الشواهد القديمة ، ولكنها ترجح في معظمها انها كانت شجرة تربنتين • فقد أخبرنا « يوسفوس » أن كثيراً من الآثار التي كانت في عهد ابراهيم والتي كانت مبنية بعناية من الرخام الجميل ، كانت تقع في « حبرون » ، وعلى بعد مائتي ياردة من البلد كانت تنمو شجرة تربنتين ضخمة للغاية قيل انها قد نبتت في هذا المكان منذ بدء الخليقة • ويمكننا ان نفترض ان هذه الشجرة على الرغم من عدم تصريح « جوزيفوس » بذلك ، هي بعينها التي قيل ان ابراهيم قابل عندها الملائكة وتحدث معهم • وقد أكد « أريبوس » أن هذه الشجرة كانت موجودة حتى عصره ، أي حتى مطلع القرن الرابع الميلادي ، وان المكان الذي تنمو فيه كان يقدسه سكان الأماكن المجاورة • وقد صور الضيوف الثلاثة الغامضين الذين أخذوا حصتهم مما قدم لهم ابراهيم تحت الشجرة تصويراً مقدساً • وأوسط هؤلاء الثلاثة ، يفوق الآخرين وقاراً في هذا التصوير وقد تحدث عنه الشيخ الجليل قائلاً : « انه الهنا بعينه • وهو منقذنا الذي عزف عن تقديسه حتى من عرفه » • وقد كان السكان المجاورين لهذا المكان يقدسون الملائكة الثلاث • ويذكرنا هؤلاء لشدة دهشتنا بالآلهة الثلاثة الذين

كانت تقديس صورهم عند شجرة البلوط المقدسة التي كانت تنمو في بلدة « روموفى » ، المركز الدينى للبروسيين الوثنيين • وربما كان الناس يعتقدون ان الاله الشجرة الذى كان موجودا فى كل من « حبرون » و « روموفى » ، قد تمثل لهم لسبب ما فى شكل ثلاثة من الرجال • وقد كتب حاج من « بوردو » وهو مؤلف أقدم « دليل المسافرين فى أورشليم » ، عام ٣٣٣ بعد الميلاد يقول ان شجرة التريبتين كانت تنمو على بعد ميلين من حبرون ، « وأن قسطنطين أمر ببناء كنيسة جميلة هناك • على أننا نستدل من طريقة كتابته على أن كلمة « التريبتين » لم تكن سوى اسم لمكان ، أما الشجرة نفسها فلم يكن لها وجود فى ذلك الوقت ، ذلك أن « جيروم » الذى كتب مؤلفاته فى نهاية القرن الرابع الميلادى ، قد ذكر أن هذه الشجرة لم يكن لها وجود فى هذا المكان • فشجرة البلوط التى تنسب لابراهيم أو الى بلدة « ممرا » ، وفقا لقوله ، كانت تنمو حتى عصر قسطنطين ، وأن مكان هذه الشجرة كان يقدهه الناس المجاورين لها بناء على ما توهمه الناس من أن ابراهيم قد تقابل فى هذا المكان مع ملائكة الرب » •

وعندما قرر قسطنطين ان يبنى كنيسة عند الشجرة المقدسة ، أفصح عن غرضه فى خطاب أرسله الى « أوزيبوس » أسقف قيسارية ، الذى احتفظ لحسن الحظ فى زمنه بنسخة من خطاب الامبراطور • وأشار الآن الى الفقرة الخاصة بالشجرة المقدسة • فقد قال قسطنطين : « ان المكان الذى يسمى « عند بلوطة ممرا » الذى اتخذ ابراهيم عنده مسكنا له كما نعلم ، قد دنسه بعض الناس المتطيرين بطرق شتى • فقد قيل ان أكثر الأصنام دلالة على الكفر قد وضعت بهذا المكان ، وأن معبدا شيد بالقرب منه حيث كان الناس يقدمون على الدوام التضحيات الدنسة • واذا كان هذا يبدو غريبا فى عصرنا ، وغير جدير بهذا المكان المقدس ، فاننى استسمحكم بأن أخبركم أننى قد كتبت الى صديقى الكونت « أكايوس » الموقر ،

آمره بأن يحرق دون ما تلكؤ كل الأصنام التي توجد عند هذا المكان ،
وأن يهدم المعبد وأن يعاقب كل من يجرؤ بعد ذلك على اقتتراف اثم
يسىء الى قدسية هذا المكان • وقد أمرنا بأن يزين المكان بمبان كنسية
فحسب حتى يصبح مكان اجتماع لائق بالقديسين » •

ومن هذا الخطاب يتضح ان الامبراطور يتحدث عن شجرة البلوط
المقدسة لا عن شجرة التربنتين • وبالمثل فقد عرفها المؤرخان الكنيسان
« سقراطيس » و « سوزومينوس » ، بأنها شجرة بلوط • على اننا
لا نعتد كثيرا بشهادة هؤلاء حيث أن الثلاثة قد اقتفوا أثر مخطوط
« سبتراجنت » الذى أشار الى الشجرة على أنها شجرة بلوط وليست
شجرة تربنتين • ومن المحتمل أنه من قبيل الاختلاف مع المرجع
« سبتراجنت » أن أشار « ايوزيوس » الى « بلوطة ابراهيم » فى
الفقرة نفسها التى ذكر فيها أن شجرة التربنتين تعيش فى عصره •
وقد ترك لنا المؤرخ الكنسى « زوسوميوس » وصفا لافتا له قيمته عن
الاحتفال الذى كان يعتد كل ضيف عند الشجرة المقدسة منذ زمن
قسطنطين وربما قبل ذلك • فقد قال :

« ومن الواجب على الآن ان أذكر الأمر الذى أصدره الأمبراطور
قسطنطين الخاص بما سمي « بلوطة ممرا » ، فهذا المكان الذى يطلق
عليه الآن اسم « التربنتين » يقع شمال جبرون بما يقرب من ستة
أميال ، ويبعد عن اورشليم بما يقرب من ثلاثين ميلا • وانها لقصة
حقيقية تلك التى روت عن ظهور « ابن الرب » لابراهيم بصحبة الملائكة
الذين أرسلوا لعقاب شعب سودوم ، وإنبائه ابراهيم بميلاد ابنه •
وما زال الناس المجاورون لهذا المكان يقيمون فيه احتفالا فى كل
صيف كما يقيمه السكان الذين يعيشون فى مناطق نائية فى فلسطين
وكذلك الفينيقيون والعرب • كما يجتمع كثير من الناس فى هذا المكان
للتجارة فيبيعون ويشترون ، حيث أنهم يختزنون بضائعهم لحين قدوم
هذا الاحتفال • أما اليهود فهم يحيون هذا الاحتفال لأنهم يخلدون

في زهو ذكرى جدهم الأكبر ابراهيم • وأما الاغريق فهم يحيون هذا الاحتفال بدعوى زيارتهم للملائكة • وأما المسيحيون فهم يفعلون ذلك كذلك لأنه قد ظهر للرجل التقى في هذا المكان وهذا الزمان « الواحد » الذي ولد فيما بعد من العذراء ليخلص البشرية • فكل طائفة تقدر اذن هذا المكان وفقا لعقيدتها ، فالبعض يصلى لرب العباد جميعا ، والبعض يبتهل الى الملائكة ويسكب الخمر أو يشعل البخور أو يقدم ثورا أو نعجة أو شاة أو ديكاً ضحية ، ذلك أن كل رجل يظل يغذى حيوانا طوال العام وينذر أن يقدمه باسمه واسم أسرته ضحية لهذا المكان في وقت الاحتفال • ويمتنع الرجال عن مخالطة النساء إما بدافع الاحترام لهذا المكان أو خوفاً من أن يلحق بهم شر نتيجة غضب الرب • هذا على الرغم من أن النساء يتجملن ويتزين خصيصاً لهذا الاحتفال ويظهرن سافرات في هذا الجمع من الناس • ومع ذلك ، لا يسلك رجل منهم مسلكاً شهوانياً على الرغم من أن الجنسين يعسكران معا وينامان معا في مكان واحد • والناس يضربون خيامهم في هذا المكان حيث أن الأرض ممهدة وخالية من الزرع وتخلو من كل مبنى فيما عدا ابراهيم القديم الذي يقع عند شجرة البلوط والبئر الذي شيده • وفي أثناء هذا الاحتفال لا يستمد أحد المياه من هذا البئر وإنما يشعل بعضهم الشموع أو يسكب الخمر أو يلقي فيه الكعك والنقود والروائح والبخور ، وذلك وفقا للعادة الاغريقية • ومن ثم فربما كان الامتناع عن الشرب من مياه البئر في ذلك الوقت يرجع الى أن مياهها تكون غير ملائمة للشرب بعد أن برمى فيها بهذه الأشياء • وقد أخبرت والدته زوجة قسطنطين التي كانت قد زارت هذا المكان وفاء لنذر ، أخبرته بشعائر هذه الاحتفالات التي كانت تقام وفقا للطقوس الاغريقية ••

ومن هنا يتضح أن عادة تقديس الشجرة المقدسة والبئر المقدس في حبرون ظلت مسيطرة على عقول الناس حتى اعترف بالدين المسيحي ديناً رسمياً للدولة الرومانية • ويبدو أن هذا السوق الذي

كان يقام مع الاحتفال الصيفى كان يجتذب التجار من كثير من بقاع العالم السامى ، كما أنه قد لعب دورا حزيناً فى تاريخ اليهود ، لأن عددا كبيرا من أسرهم ، رجالا ونساء وأطفالا قد بيعوا عبيدا فى هذا السوق بعد أن أخضعهم الرومانيون اثر تمردهم الأخير عام ١١٩ بعد الميلاد . وبهذا انتهت الأمة اليهودية فى المكان بعينه الذى قيل عنه فى تراثهم أنه قد أسسه ابراهيم عند شجرة بلوط أو تربنتين كانت تنمو عند ممرا » . ولا تزال هذه الشجرة واقفة ، هى أو بديلتها فى حقل يكثر فيه العشب ويقع على بعد ميل ونصف ميل غرب حبرون . وهذه الشجرة عتيقة وجميلة ودائمة الاخضرار ، وهى تعد من أكرم الأشجار التى تنمو فى جنوب فلسطين . ويبلغ محيط جذعها ثلاثة وعشرين قدما ، كما يبلغ امتداد فروعها حوالى تسعين قدما . وبهذا تكون شجرة البلوط قد فازت فى منافستها على شجرة التربنتين فى هذا المكان المقدس عند ممرا ، اذ ليس هناك شجرة تربنتين واحدة ضخمة تنمو فى « جبرون » .

الفصل التاسع

الاماكن العالية عند بنى إسرائيل

يطلعنا العهد القديم فى كثير من نصوصه ، على أن أماكن العبادة التى كانت مألوفة عند الاسرائيليين القدماء ، كانت تقع فوق المرتفعات الطبيعية حيث تظلها فى كثير من الأحيان أو فى العموم أوراق الأشجار الكريمة • ويبدو أن معظم هذه الأماكن المقدسة لم تكن مغلقة ، بل كانت مفتوحة للسماء • على أنه كانت هناك فى بعض الأحيان أغشية بهيجة متعددة الألوان على هيئة سقف ، تظلل الشعارات المقدسة التى كانت تقف منتصبة فى شكل عامود خشبى أو نصب حجرى ، وتقيها من شمس الصيف وأمطار الشتاء • وقد ظل الاسرائيليون يترددون على هذه الأماكن أحقاباً طويلة بعد أن استقروا فى فلسطين ، ليقدموا الضحية • وهناك فى ظل أشجار البلوط والترينتتين ، كان يؤمهم الأنبياء والملوك الأتقياء ، لا بقلوب تخلو من الاحساس بالاستياء ازاء هذه العبادة فحسب ، بل بقلوب يحثها الدافع الداخلى على الالتجاء الى هذه الأماكن المقدسة لارضائها وطمعاً فى بركتها • على أن تعدد أماكن العبادة كان كفيلاً بأن ينمى عند جهة الناس عقيدة الايمان بالآلهة المتعددة التى كانت تقدر فى هذه الأماكن • ومن ثم فقد مالت عقيدة الايمان بالرب الواحد التى كانت تعتز بها العقول الاسرائيلية المبتهرة الى التحلل فى شكل الاعتراف الضمنى بتعدد الآلهة أو البعول • فكل بعل كان يسيطر من فوق قمة العامود الخشبى المرتفع ، وكل منها كان مسئولاً عن توزيع ما تمنحه الشمس والأمطار للناس من خصب ونماء فى دائرة المزارع التى تحيط به • كما كانت هذه المزارع بدورها تتطلع الى هذا البعل ، تطلع القرى الإيطالية الى

نصرائها من القديسين ، لكى يباركها ويمنحها الغنى فى قطعانها ومواشيها
وحقولها وحدائق عنبها وزيتونها • وقد أثار هذا التحول اللاشعورى ،
وعلى هذا النحو البسيط ، الايمان النظرى بالرب الواحد الى الايمان
العملى بالآلهة المتعددة ، أثار تساؤلات الأنبياء وقلقهم ازاء هذا
الانحلال الدينى الذى أدى بدوره على وجه السرعة الى انحطاط خلقى
عارم أدت اليه تلك الشعائر الدنسة التى كانت تؤدى فى أمكنة بريئة •
وعلى الرغم من تلك القدسية التى خلعتها الطبيعة نفسها على مسارح
هذه الأحداث البريئة ، لما أشاعته بين ربوعها من صفاء وأمن ، فان
هذه الأمكنة كانت تغد ، فيما يتعلق بالأفكار الدينية والتأملات
المستغرقة ، الشهادة الصامتة على تلك الشعائر ، بله الشهادة الخجلية
الكارهة لهذه الأفعال • وقد ساعد على تدعيم هذه الاعتبارات الدينية
والأخلاقية ، اعتبارات أخرى يمكن أن نسميها سياسية ، وهى تلك
الاعتبارات التى كانت تبدو للعقل العبرى القديم الذى كان ينظر الى
كل الامور من خلال ضباب الألوهية الذهبى ، مغلفة بمظهر الاحكام
التى كان يتهدد بها المدبر للأحداث ، الآثمين وفاعلى الشر ، ويسرى
تنفيذها فيهم • وقد كانت قوى الامبراطوريتين الآشورية والبابلية
المتصاعدة قد تهددت فى بادىء الأمر حريات الممالك الصغيرة
التى نشأت فى فلسطين ، ثم قضت عليها بعد ذلك • وقد كانت العقول
المستتيرة فى بنى اسرائيل قد رأت بثاقب بصيرتها منذ زمن طويل ،
تلك الكوارث المقبلة عليهم وتنبؤوا بها ، فغلقت تدبرها وتنبؤوا بغلاف
من التكهّنات النبوية الشاعرية • ولما أدرك أصحاب هذه العقول
الأخطار التى تهدد أمتهم ، حسبوا انهم قد وضعوا أيديهم على منبع
الخطر متمثلا فى عبادة شعبهم لتلك الأماكن العالية التى تعدوا فيها ،
عن طريق انزلاقهم فى طريق تقديس الآلهة المتعددة ، على حق الجلالة
الربانية ، ولطخوا بغواياتهم اللاأخلاقية طهارة عبادة الرب الواحد •
ولما تصوروا على هذا النحو أن أساس الشر دينى ، فقد كان العلاج
الذى اقترحوه دينيا كذلك • وقد تبلور هذا العلاج فى القضاء على
عبادة الأماكن العالية وعلى من سnehروا على رعايتها من الفجرة ،

وتركيز كل الاحتفالات الدينية في اورشليم ، حيث تضمن لهم الطقوس الأكثر وقارا وانتظاما ، الخالية من كل دنس والقي تتمثل في شفاعاتهم اليومية وترتيل مزاميرهم وتقديم الضحايا التي تفوح رائحتها الشهية، تضمن لهم حب الرب اياهم وحمايته لأرضهم جميعا • وبعد أن اختمرت هذه الفكرة في نفوس كبار أنبياء بنى اسرائيل اتخذت شكلا عمليا في الإصلاح المشهور الذي نسب للملك يوشيا • علي أن هذا الاجراء الذي احكم تدبيره ، وعلقت على تنفيذه الآمال ، أثبت عدم قدرته على الصمود أمام انحلال دولة يهوذا ، كما انه لم يحل دون سقوطها • اذ لم يمض جيل واحد على اليوم الذي أزيلت فيه هذه الأضرحة العالية وشيد المعبد على « جبل صهيون » الذي أصبح المعبد الوطنى الشرعى الوحيد ، حتى فتحت اورشليم أبوابها للعدو ، وسيقت زهرات شبابها أسرى الى بابل •

وقد اعتمدنا في بعض معلوماتنا عن الأماكن المقدسة المحلية التي تركز حولها الى حد كبير مصير الأمة اليهودية ، على تشهير الأنبياء بتلك الأماكن • ويشير الربط الدائم بين هذه الأماكن • ويشير الربط الدائم بين هذه الأماكن المقدسة والأشجار الخضراء في معرض قدح الأنبياء لها الى أن الأشجار وبخاصة المخضرة على الدوام ، كانت تعد ملمحا مميزا لهذه المعالم المقدسة • فالنبي ارميا يتخذت عن آثام قومه ويقول : « كذكرينهم مذابحهم وسواريهم عند أشجار خضر على أكام مرتفعة » (١) • ثم يقول مرة أخرى : « وقال الرب لى في أيام يوشيا الملك ، هل رأيت ما فعلت العاصية اسرائيل • انطلقت الى كل جبل عال وإلى كل شجرة خضراء ، وزنت هناك (٢) • كما كتب النبي حزقيال متحدثا باسم الرب قائلا : « فلما أتيت بهم الى الارض التي رفعت لهم يدي لأعطيهم اياها فأرأوا كل تل عال وكل شجرة غيباء فذبحوا هناك ذبائحهم وقربوا هناك قربانهم المغيطة ، وقدموا هنيئك روائح سرورهم وسكبوا هناك سكائبهم » (٣) • وفي

(١) سفر ارميا الاصحاح السابع عشر آية ٢ •

(٢) سفر ارميا الاصحاح الثالث آية ٦ •

(٣) سفر حزقيال الاصحاح العشرون آية ٢٨ •

سفر التثنية الذى يعتقد أنه « كتاب التشريع » الأساسى ، وهو الكتاب الذى بنى عليه « يوشيا » اصلاحه تنطق الكلمات التالية باللعنة على الأماكن العالية ومرافقها الوثنية : « تخربون جميع الأماكن حيث عبدت الأمم التى ترثونها آلهتها على الجبال الشامخة وعلى التلال وتحت كل شجرة خضراء ، وتهدمون مذابحهم وتكسرون انصابهم وتحرقون سواريتهم بالنار ، وتقطعون تماثيل الهتهم وتمحون اسمهم من هذا المكان » (١) . ونحن نعرف أن الملك شاءول جلس فى زمن مبكر ، قبل أن تصبح قمم التلال المخضرة ذات سمعة سيئة ، فى ظل شجرة تمر هندى وأمسك برمحه للملكية ، وقد أحاط به ناصحوه وأتباعه .

لقد سبق أن رأينا أن هذه الأماكن العالية فى فلسطين ، تلك التى تتوجها الأشجار المقدسة وبصفة خاصة أشجار البلوط الدائمة الاخضرار ، لا تزال حتى اليوم المكان المقدس الذى يتضرع اليه المزارعون المسلمون على الرغم مما تكشف عنه رواياتهم التى تحكى عن رقود أوليائهم المسلمين تحت ظلها الرهيب ، من طابع وثنى قديم . وانه لمن قبيل التفكير الصائب أن نشارك الكتاب المحدثين افتراضهم ، هؤلاء الذين كثيرا ما تجولوا فى الأرض المقدسة ، أن الكثير من قمم التلال الظليلة على الأقل ، هى الأماكن بعينها التى كان الاسرائيليون القدماء يقدمون عندها التضحيات ، ويشعلون البخور . وقد ظلت هذه الأماكن المقدسة الموهلة فى القدم ، التى تشرف على مناظر رائعة ، ظلت عبر الأزمنة ، رغم جهود المصلحين وفؤوس محطى الصور ، المركز الرئيسى للديانة الشعبية . وربما حق لنا أن نبعد أكثر من ذلك ونفترض أن هذه الهضاب المخضرة التى تبرز فى روعة وسط المساحات الشاسعة من الأراضى الجرداء ، ومزارع الزيتون ذات اللون الأزرق الرمادى ، هى البقية من الغابات القديمة التى كانت ذات يوم تكسو أطراف البلد على بعد أميال بعيدة ، حتى أزالها الرجل العملى من

(١) سفر التثنية الاصحاح الثانى عشر من آية ٢ الى ٣ .

الأماكن المنخفضة ليفسح مكانا لزراعته ، في الوقت الذي أخذت فيه معتقدات الناس تعاني من ضآلة ما تخلف من الأماكن المقدسة . وقد ظلت هذه الأماكن المتخلفة فوق المرتفعات تشير الى آلهة الاجمات التي تراجعت أمام فأس رجل الغابة . واذا كانت الأجمات المقدسة على الأقل قد نشأت فيما يبدو على نحو هذا في الأماكن الأخرى ، فان مشابهة هذه الأكمات بأكمات فلسطين تدعم افتراض أن السبب المماثل قد نجم عنه تأثيرا مماثلا في فلسطين .

فشعب « أكيكويو » الذي يسكن شرق افريقيا البريطانية ، كان في الأصل شعبا زراعيا ، ولم يكن يملك سوى قليل من قطعان الماشية ، وان كان يملك قطعان الماعز في كل قرية وزبما الشياه كذلك . وقد اضطر هؤلاء أن يزيلوا الغابات ليفسحوا مكانا لزراعتهم . وقد ساعد حرق هذه الغابات على خصوبة التربة . ومن المحتمل أن غابات كينيا ، كانت متصلة بغابات « أبزدار » في وقت من الأوقات ، وأن هذه المساحة كلها كانت تغطيها الغابات . والدليل الوحيد الذي يشير الى هذه الغابات التي كانت تنمو ذات يوم ، هي تلك المجموعات المتنوعة من الأشجار التي تغطي قمم التلال التي تنتشر بدورها في كل مكان في هذا البلد . وهذه التلال ينظر اليها اليوم نظرة تقديس ، كما أنه لا يسمح بقطع الأشجار التي تنمو فيها . وبهذا أنقذت تلك الأكمات من المصير الذي تعرضت له سائر الغابات . ويعد تل « كاهومبو » « أحد التلال التي تغطيها الأكمال المقدسة التي توجد بوفرة في بلد « كيكويو » . وحيث أنه لا يسمح لأحد بقطع الأشجار أو اجتثاث الأحرش التي تنمو تحتها ، خوفا من انتشار المرض كما يعتقد الناس ، فقد كسيت هذه التلال في العموم بالأشجار العالية التي تنمو وسط الأحرش الكثيفة . وقد أصبحت هذه الأحرش في « كاهومبو » مأوى لعدد من الضباع التي لا تقدم لها الأرض الجرداء أو حتى المزروعة منها ، غذاء يماثل غذاء تلك الأحرش . وعلى قمة التل يوجد سطح تحيط به أجمة . وهذا المكان يعد المكان المقدس الذي يطلق عليه

الأهالى « أثورى ألياكورو » . فاذا حدثت مجاعة أو شحت مياه الأمطار ، فان الناس يقررون فيما بينهم أن يقدموا ضحية لهذا المكان . وعند ذاك يبقى جميع الناس فى أكوأخهم ، ولا يسمح لأحد أن يغادر مكانه عدا أربعة عشر رجلا كهلا (وازورى) . وهؤلاء الذين يعدون الكهنة المختارون ، يصعدون الى التل ومعهم شاة . وهم لا يأخذون معهم نعجة قط لأن الاله « ناجى » لا يقبل النعاج فى مثل هذه المناسبة . ثم تشعل النار عند قمة التل وتقتل الشاة عن طريق الامساك بفمها وأنفها حتى تموت خنقا . ثم ينتزع جلدها الذى يقدم لأحد أطفال هؤلاء الرجال العجائز ليرتديه . أما الشاة فتطهى ويغمس فى شحمها فرع شجر ، وترش الأشجار المحيطة بهم بهذا الشحم . وبعد ذلك يأكل هؤلاء الرجال العجائز بعض لحم الشاة والا فان الضحية لا تقبل . أما سائر اللحم فيحرق فى النار ويترك الاله ناجى ليأكله . وبمجرد أن يفرغ الرجال من تأدية هذه الشعائر تأخذ السماء فى الازعاج وهم يهبطون التل ، كما يهطل البرد بشدة الى درجة أن يضطر الرجال العجائز الى أن يغطو رؤوسهم بملابسهم ويهرعون الى بيوتهم . وبعد ذلك تهطل المياه فوق التلال وتتدفق حول جوانبها » . وعلى نحو هذا قيل ان النبى « اليا » قدم الضحية فوق قمة جبل الكرمل المخضرة ، حتى تهطل الأمطار ويضع حدا للقط الذى ابتلى به بنو اسرائيل سنين عديدة . وما كاد النبى يفرغ من تأدية شعائره حتى تجمعت سحابة من مياه البحر ، وأظلمت السماء وهرع الملك الوثنى فى مركبته الى أسفل الجبل حتى يهرب من المطر الغزير الذى أخذ يهطل من السماء الغاضبة كالينبوع المتدفق ، فى الوقت الذى أخذ يبصر فيه ما انتاب الأنبياء المزيفون من حيرة .

والمعروف عن الموند الذين يسكنون « تشسوتا ناجبو » فى البنغال « انهم لا يصنعون تماثيل لآلهتهم ، ولا يقدسون أشكالا رمزية . ومع ذلك فهم يعتقدون أن الآلهة — رغم كونها غير مرئية — يمكن أن تسترضى ويتضرع اليها عن طريق تقديم الضحية لها . وعند ذاك

ترضخ لطلبهم وتتخذ لها مأوى لبعض الوقت في الأماكن الخاصة لعبادتها التي تتمثل في أماكنهم العالية وأجماتهم • وهذه الأماكن المقدسة عبارة عن كتل من الصخور التي لا يزيد عددها ولا ينقص • وأما الأجمات فهي عبارة عن بقايا غابات أصلية ، اعتنى بأشجارها عبر الأجيال • ثم تركت بعض الأشجار بعد أن أزيلت الغابات من حولها حتى لا تهجر الآلهة هذه الأمكنة عندما تنزعج لسقوط الأشجار الى تحتوى بها • بل ان الآلهة ما تزال حتى اليوم تعبر عن غضبها اثر قطع شجرة من الأجمة المقدسة (التي يسمونها جاهيرا أو سارنا) بأن تمنع سقوط الأمطار الموسمية • ولكل قرية من قرى قبيلة « موندا » ، أجمة تقع بالقرب من القرية • والأهالي يعرفون أن هذه الأجمات بقايا غابات قديمة احتفظوا بها لتكون مأوى لآلهتهم • ويعتقد الأهالي أن إلـ « ديساولى » ، وهو الإله الحارس للقرية ، يأوى مع زوجته « جهار — ارا أو مابورو » الى الأجمة عند ما يريدان أن يسمعا الى توسلات الناس • ولكل قرية « ديساولى » الذي لا يتعدى نفوذه حدود القرية التي تقع أجمته في نطاقها • فاذا رغب رجل من قرية ما أن يفلح أرضا في قرية أخرى ، فانه يتحتم عليه أن يقدم عطايا لـ « الديساوليين » • وتعد آلهة الأجمات مسئولة عن المحصول ومن ثم فانها تقديس بصفة خاصة في أعياد الزراعة المهمة • كما أن الناس يبتهلون لها في حالات المرض • ويخبرنا كاتب آخر عن موضوع أثر الآلهة في حياة الناس فيقول : « انه على الرغم من ازالة الجزء الأكبر من الغابات الأصلية بالفؤوس أو حرقا بنار جارا حيث نشأت مكانها قرى الموندانيين ، فان كثيرا من هذه القرى لا تزال تحتفظ بجزء أو بأجزاء من الغابة الأصلية التي تستخدم بوصفها أجمات مقدسة (سارنا) • وفي بعض قرى الموندانيين لا تمثل الغابة الأصلية سوى مجموعة صغيرة من الأشجار العتيقة التي تستخدم بوصفها « سارنا » للقرية • ولا يعترف الموندايون معابد سوى هذه « السارنات » ، ففيها تسكن الآلهة ، وعندها تقام الشعائر بين الحين والآخر ، كما تسترضى عن طريق تقديم التضحيات لها •

ونحن نفترض أن هذه الآلهة المحلية المسئولة عن الثروة الزراعية تلك التى تسكن هذه الأجمات التى تعد بدورها بقايا غابات أصلية ، تقترب كل القرب من أبعال الكنعانيين الذين كانوا يسكنون مثلها الأشجار التى تنمو فوق قمم التلال المجاورة للقرى . وهناك كانت هذه الآلهة تتسلم أول محصول تنتجه الأرض على سبيل الامتنان لمنحها الفلاحين المحصوم الوافر والأمطار الغزيرة .

ومرة أخرى نجد عند حدود أفغانستان والهند ، « أن التلال المتاخمة لها غالبا ما تكون عارية من الحقول وخالية من السكان ، ومع ذلك فإن المتجول بين أنحائها يصادف بين الحين والآخر بعض الزيارات فوق قمم بعض الجبال أو الصخور التى يتعذر الوصول إليها . ومن ثم فهى تذكرنا بالأماكن العالية عند بنى اسرائيل . وهناك تنمو بعض أشجار القمر هندی التى توقفت عن النمو ، أو أشجار النبق أو الزيزفون Zieg jyplus jiyule وتتدلى من فروع هذه الأشجار عدد لا حصر له من الخرق ، وقطع القماش الملونة ، لأن كل من ينذر نذرا ويتضرع للضريح يتحتم عليه أن يعلق قطعة من القماش فى فرع الشجرة ، بوصفها رمزا مرثيا على وفائه بالنذر » . وتقع إحدى هذه الأضرحة الشهيرة فوق سلسلة جبال سليمان . وعلى الرغم من المشقة التى يعانيتها الناس فى سبيل الوصول الى هذه الجبال . فان مئات من الحجاج يحجون اليها كل عام ، كما يحمل المرضى على أسرتهم الى هناك على أمل أن تشفيهم بركة الولي . وهذه الأسرة اما أن توضع على ظهور الجمال أو يحملها أصدقاء المريض الذين يسيرون بها أكثر من مائة ميل حتى يصلوا الى إحدى هذه الزيارات . ولهذه الأضرحة خاصية أخرى وهى شيوع ممتلكاتهم فى رحابها لمدة طويلة ، وهم على ثقة من أنهم سيجدونها كما هى دون أن تمسسها يد بعد مدة طويلة قد تصل الى بضعة أشهر . ومن بين خصائص هذه الأضرحة كذلك أن قطع أى فرع من فروع الأشجار المحيطة بها يعد اثما . ومن ثم كانت الأضرحة هى المكان المخضر الوحيد الذى يقع بين

التلال ، ذلك لأنه يبتعد عن التخريب المسرف الذى تقوم به القبائل
فى غيره من الأماكن التى تنمو فيها الغابات والأحراش •

ومن الواضح أن هذه الزيارات أو الأضرحة الجبلية التى تنتشر فى
أفغانستان : تشبه أضرحة الأولياء التى تنتشر اليوم فى الأماكن العالية
فى فلسطين • فكلاهما يقع فى العادة فوق قمم الجبال ويحاط بالأشجار
التي لا يسمح بقطعها أو إتلافها ، وكلاهما يستمد قدسيته فيما
يعتقد الناس ، من قبور القديسين • كما أنه من المألوف أن تودع فى
رحابهما الودائع الخاصة حيث تظل فى أمان تام دون أن تمتد إليها يد •
كما أن الحجاج يتركون عند كل منها ما يشهد على زيارته لها متمثلاً
فى تلك الخرق التى تعلق على فروع الأشجار •

وعند قبيلة شيرميس فى روسيا « تعد الأكمات المنعزلة فى الوقت
الحاضر أمكنة لتقديم الضحية وإقامة شعائر الصلوات • وتعرف هذه
الأكمات باسم « كجوس — أوتو » • أما فى الأيام السالفة فقد كانت
القبيلة تقدم الضحية لآلهتها وسط الغابات • ويقع اختيار الناس على
هذه الأمكنة فى العموم عن طريق ظهور امارات تشير الى إدارة القوى
الالهية ، كأن يتفجر نبع فى مكان ما فى الغابة على نحو مفاجئ وعند
ذاك يصبح هذا المكان هو المكان المقدس الذى تؤدى فيه الصلاة •
ويفضل « الشيرميون » الذى يسكنون فى « أوبا » الأماكن العالية
التي تجاور الغدران • وقد ظلت هذه الأماكن العالية تحتفظ بقدسيتهما
حتى بعد أن عملت فأس رجل الغابة فى أشجار الاماكن المجاورة » •

فاذا تسنى لنا أن نقرن الأماكن المقدسة التى كانت فى فلسطين
فى العصور القديمة ، تلك الأماكن التى أساءت كثيراً الى الأنبياء
المتأخرين ، بغيرها من الأكمات التى أشرنا اليها عند شعوب أخرى ،
فاننا نرجح أن الأكمات الفلسطينية كانت بقايا غابات قديمة • وقد
أصبحت هذه الأكمات فيما بعد أشبه بالجزر الصغيرة الخضراء التى
تركت منعزلة فوق الجبال ، حتى تكون ملاذا للمؤلهين السذج الذين

جرمهم الرجل المزارع من غاباتهم الشاسعة • وعلى الرغم من ذلك ،
فإن هذا الرجل المزارع ما زال يعتقد بأنه ملزم بدفع دية مقابل المحصول
الذي تنتجه الأرض لهؤلاء الأبعال بوصفهم المالكين الحقيقيين لهذه
الأرض • ومن المحتمل أن العامود المقدس (أشيرا) الذي كان
يرتبط بتلك الأماكن المقدسة المحلية ، لم يكن سوى ساق إحدى
الأشجار المقدسة التي انتزعت فروعها يد الإنسان أو أنها انتزعت بفعل
العوامل الطبيعية • وما زال في وسعنا اليوم أن نكتشف مثل هذه
الرموز الدينية التي تطورت مع الزمن عند قبيلة « كايان » التي تسكن
في بورنيو • فهؤلاء البدائيون يعتقدون في وجود أرواح معينة خطيرة
يطلقون عليها اسم « نوه » • ومن المألوف لدى أفراد هذه القبيلة ،
عندما يطهرون مساحة من الأرض من الأعراش تمهيدا لزراعة الأرز ،
« ان يتركوا بعض الأشجار القليلة فوق مكان مرتفع حتى لا يسيئون
الى روح هذا المكان إذا ما سلبوه كل الأشجار التي تعد المكان
الذى يأوى اليه • وفي بعض الأحيان تنتزع فروع مثل هذه الأشجار
ولا يترك في أعلاها سوى بعض الفروع • وفي بعض الأحيان يربط
عامود طويل بالشجرة حتى يصل الى قممتها فتنتشر فوقه أوراق هذه
الشجرة • وفي بعض الأحيان يعلق في هذا العامود صليب خشبي بحيث
يتدلى منه ويتأرجح في الهواء » •

الفصل التاسع

الأرملة الصامته

من عادة بعض الشعوب ، ان لم يكن من عادة شعوب العالم جميعا ، أنه عندما تتعرض أسرة لوفاة فرد منها ، تفرض على الأحياء قيود معينة تحدد من زوايا متعدد حرية الفرد التي يتمتع بها في حياته العادية . وكلما كانت صلة الأحياء بالميت أكثر قربا ، كانت القيود التي تفرض عليهم أكثر تعنتا . وعلى الرغم من أن أسباب فرض هذه القيود لا تزال مجهولة في الغالب لمن يضطر أن يخضع لها ، إلا أن الشواهد العديدة تشير الى أن كثيرا من هذه القيود ، ان لم يكن جميعها ، قد نشأ نتيجة الخوف من شبح الميت والرغبة في الهروب من ترقباته غير المستحبة ، بصرف نظره عنهم ، اما عن طريق طرده أو اغرائه ، أو ارغامه على أن يذعن لمصيره ويكف عن مضايقة أهله وأصدقائه . وقد كان العبريون القدماء يراعون اتباع كثير من القيود عند حدوث الوفاة . وهذه القيود قد يعبر عنها العهد القديم صراحة أو قد يشير اليها عرضا . وربما استطعنا أن نضيف الى قائمة القيود التي تفرض سلوكا معيناً على المكومين لوفاة ميت ، تلك القيود التي يمكن جمعها من الكتابات المقدسة ، قيودا آخر لم يطرأ على ذهن الكتاب الدينيين ، اذ لم يثيروا اليه في كتاباتهم ، وان دلت عليه أصول الألفاظ ، وأكدته العادات المتشابهة التي تتبعها الشعوب الأخرى .

فربما كانت كلمة الأرملة العبرية تتصل في أصلها بصفة تعنى

« الخرس » (١) • وإذا كان تحليل اللفظ على هذا النحو سليما ، فإنه يبدو حينئذ أن المعنى العبرى لكلمة الأرملة هو ، « المرأة الصامتة » • وهنا يتسنى لنا أن نتساءل : لماذا يتحتم أن ترتبط كلمة الأرملة بالصمت ؟ اننى أفترض ، وان كنت لا أدعى الثقة البالغة في هذا الفرض ، أن هذه التسمية يمكن ان يفسرها انتشار العادة التى تفرض الصمت على الأرملة لبعض الوقت ، وربما كان لوقت طويل ، بعد وفاة زوجها •

فالأرامل عند قبيلة « كوتو » ، وهى احدى القبائل التى تسكن الكونغو ، تعلن الحداد على أزواجهن مدة ثلاثة أشهر قمرية • وفى هذه الفترة يحلقن شعورهن ويجردن أنفسهن من كل ملابسهن ، على وجه التقريب ، ويطلين أجسادهن بالجص ، ويقضين الشهور الثلاثة الأولى فى بيوتهن صامتات • ومثل هذه العادة تتبعها قبيلة « سيهانكان » التى تسكن مدغشقر ، وان كانت المدة التى تكف فيها الأرملة عن الكلام تطول عن ذلك ، فقد تدوم أكثر من ثمانية أشهر ، وقد تمتد الى عام كامل • وفى خلال هذه المدة تتجرد الأرملة من زينتها ، وتغضى جسمها بحصيرة خشنة ، ولا يقدم لها سوى معلقة مكسورة وطبق مكسور لتتناول بهما طعامها • ولا يسمح لها أن تغسل وجهها أو يديها ، بل تقتصر على غسل اطراف أصابعها • وعلى هذا النحو تظل طوال النهار فى البيت دون أن يسمح لها بالحديث مع من يدخله • وتعد الأرملة عند قبيلة « ناندى » التى تسكن فى شرق افريقيا البريطانى نجسة طالما كانت فى فترة الحداد ، كما أن حديثها لايتجاوز الهمس وان كانت لا تمنع عن الكلام كلية • وقد ذكر كاتب فى معرض وصفه لقبية « نيثينام » ، وهى احدى القبائل الهندية التى كانت تسكن كاليفورنيا والتى تعرف الكاتب حق المعرفة على طرق معيشتها

(١) من المحتمل أن كلمة الارملة تتصل بكلمة « اليم » Ilem

وتعنى الخرساء • يبدو أن مؤلفى معجم اكسفورد العبرى يفضلون هذا الأصل لكلمة الارملة ، حيث أنهم يرجعون الكلمتين الى أصل واحد • (انظر المعجم العبرى والانجليزى للعهد القديم للمؤلفين : ف • براون ، س • ا • برجز • (اكسفورد ١٩٠٦ ص ٤٨) •

في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر ، ذكر أن الأرملة التي تسكن حول « أوبورن » تكف عن الكلام مهما تكن المناسبة أو الذريعة اللتان تتطلبان منها الكلام ، وذلك طوال فترة الحداد التي تدوم شهورا بعد وفاة زوجها ، وقد تدوم سنة أو أكثر . وهذه الحقيقة لم استمع اليها رواية ، بل إنها حقيقة ابصرتها بعيني . فاذا كانت الأرملة من بين الهنود الذين يسكنون عند نهر المسيسيبي ، فان حديثها لا يتجاوز الهمس لمدة شهر بعد وفاة زوجها . فاذا اتجهنا جنوبا الى « كوزومبوس » فاننا نجد أن هذه العادة تختفي تماما . أما عند الهنود « الكواكيوتليين » الذين يسكنون كولومبيا البريطانية ، فان الأرملة تجلس بلا حراك مدة أربعة أيام بعد موت زوجها وهي ترفع ركبتيها الى ذقنها . وبعد ذلك يتحتم عليها ألا تبرح المكان نفسه مدة ستة عشر يوما ، وان كان يسمح لها في أثناء تلك الفترة أن تمد رجليها دون أن تحرك يديها . وطوال هذه الفترة كلها لا يسمح لأحد أن يتحدث معها ، لأنهم يعتقدون أنه اذا تجرأ أحد وقطع عليها صمتها ، فانه يعاقب بموت أحد أقربائه . وهذه القيود بعينها يتحتم على الرجل الأرملة أن يراعيها بدقة عند وفاة زوجته . وبالمثل يتحتم على الأرملة عند هنود بلاكولا الذين يسكنون المنطقة نفسها أن تصوم أربعة أيام بعد وفاة زوجها . وفي هذه الفترة لا يجوز لها أن تنطق ببنت شفة والا ظهر لها شبح زوجها ، وفقا لاعتقادهم ، وكنتم أنفاسها حتى تموت . ولهذا السبب نفسه يلتزم الأرملة الصمت ويمتنع عن تناول الطعام بعد وفاة زوجته . والملاحظ هنا أن السبب الذي يعزى لامتناع كل من الأرملة والأرملة عن الكلام هو الخوف من جذب انتباه شبح الميت الخطير ، بل المؤذي بحق .

على أن عادة التزام الأرملة للصمت لايراعى اتباعها في دقة بالغة في أي مكان كما يراعى بين بعض القبائل البدائية التي تستوطن وسط استراليا وشمالها . فالأرملة عند قبيلتي « وادومان » ، و « موديورا » ، وهما قبيلتان تسكنان في المناطق الشمالية عند نهر فيكتوريا ، لا تلتزم

وحدها الصمت طوال ثلاثة أسابيع أو أربعة بعد موت زوجها ، ولكن يشاركها ذلك أخوة المتوفى • وفى أثناء هذه الفترة توضع جثة الزوج على فروع شجرة بعد رص الفروع جنباً الى جنب ، وتظل الجثة على هذا النحو حتى يتحلل اللحم تماماً ويبقى العظم • وبعد ذلك تُلَف العظام فى لحاء الشجرة ، وتحمل الى خيمة خاصة حيث يجلس حولها أفراد القبيلة ينتحبون • وبعد انتهاء احتفالات الحداد تحمل العظام مرة أخرى الى الشجر وتترك هناك الى الأبد • وفى أثناء هذه الفترة التى تبدأ بالوفاة وتنتهى بوضع العظام عند الشجرة ، لايجوز لأحد أن يأكل نباتاً طوطمياً أو حيواناً طوطمياً ينتسب اليه المتوفى • ولكن عندما توضع عظام الميت فى مقرها الأخير بين فروع الشجرة يخرج رجل كهل أو رجلان الى الأحرش ويبحث عن بعض النباتات أو الحيوانات الطوطمية التى ينتسب اليها المتوفى • فإذا كان الطوطم ثعلباً سريع العدو على سبيل المثال ، فان الرجل العجوز يمسك ببعض هذه الثعالب ويعود بها الى الخيمة • وهناك توقد النار وتوضع فوقها الثعالب لتطهى • وفى أثناء ذلك تذهب النساء اللاتى يلتزم الصمت ، أعنى الزوجة الأرملة وزوجات أخوة المتوفى ، الى النار ويضعن رءوسهن وسط الدخان المتصاعد ويصحن « ياكاي • ياكاي » • ثم يضرب رجل عجوز رءوسهن بخفة ، ويرفع يده اليهن لكى يعضعن اصبعاً منها • فإذا أدبت الشعائر على هذا النحو أصبحت النساء فى حل من تبعة الصمت ويسمح لهن بالكلام فى حرية اثر ذلك • أما الثعالب المشوية فيأكل منها أولاً بعض اقرباء المتوفى من الذكور ثم يسمح لسائر الناس أن يأخذوا نصيبهم هذا من اللحم المشوى •

ومرة أخرى نجد عند قبيلة أرونكا التى تسكن وسط استراليا ، ان النساء الأرامل يلطخن شعورهن ووجوهن وصدورهن بالجص • ويمكن صامتات بلدة محددة حتى ينتهى الاحتفال باقامة الشعائر ، ثم يسمح لهن بعد ذلك بالكلام • وتجرى هذه الشعائر عند هذه القبيلة على النحو التالى : اذا شاعت الأرملة أن تبعد عنها دواعى الصمت ، فانها تجمع بعض الحبوب الصالحة للأكل أو بعض الدرناات فى وعاء

خشبي كبير ثم تلتطخ نفسها بالجص عند خيمة النساء حيث تقيم هناك منذ وفاة زوجها • ثم تحمل الوغاء الخشبي وتسير في صحبة بعض النسوة حتى تصل الى وسط الخيمة العامة التي تقع بين الحيين اللذين يسكنهما شطرا القبيلة وهناك تجلس النساء وتولولن بصوت مرتفع • وعند ذاك يأتي اقرباء المتوفى من الرجال ، سواء هؤلاء الذين ينتسبون اليه بطريق مباشر مثل الأبناء والأخوة الذين يصغرونه ، أم هؤلاء الذين ينتسبون اليه بأى نوع من القرابة ، ليشاركوا في هذا الاحتفال • فيتسلم هؤلاء وعاء الحبوب أو الدرنات من يدي الأرملة ، ويضع أكبر عدد منهم أيديهم فوقه ويصرخون • « واه • واه • واه • » • وعند ذلك تكف النساء جميعا عن العويل كما يسكت الرجال الذين يشاركون هذا العويل فيما عدا أرملة المتوفى • وبعد وقت قصير يحمل الرجال الوعاء المملوء بالحبوب أو الدرنات أمام وجه المرأة ، ويمررونه أمام خديها دون أن يمس وجهها ، من الجانب الأيمن الى الجانب الأيسر ، بينما يصرخ الجميع : « واه • واه • واه • » • وعند ذلك تكف الأرملة عن العويل الذي شاركها فيه الرجال في صوت ذليل • وبعد بضع دقائق يحمل وعاء الحبوب أو الدرنات الى مؤخرة الرجال الذين يجلسون في اثناء ذلك القرفصاء على الأرض ، وكل يحمل درعه بين يديه ويضرب به الأرض أمام النساء الواقفات • ثم يتفرق الرجال اثر ذلك الى خيامهم ويأكلون الطعام الذي جمعتة أرملة المتوفى في الوعاء • وعند ذلك تكون الأرملة في حل من الصمت وان استمرت تلتطخ جسمها بالجص •

وقد فسر « سبنسر » و « جيلين » مغزى هذه الشعائر الغريبة التي تحل لأرملة المتوفى الكلام بعد فترة الصمت المحددة فقالا : « ان مغزى هذه الشعائر التي يرمز اليها بجمع الأرملة للدرنات أو حبوب الحشائش ، وهو أن الأرملة قد أوشكت على ان تستأنف حياة المرأة العادية ، تلك الحياة التي ظلت معلقة طوال فترة بقائها في الخيمة ، اى في اثناء ما يمكن أن نسميه بفترة الحزن العميق • وهذا الرمز

يقترب في الحقيقة كل الاقتراب من رمز الورقة ذات الأطراف السوداء التي تعبر بها الشعوب المتحضرة عن حزنها ، فيما عدا أن الرمز الثاني قد عبر بطريقة ظاهرية واضحة عما تعبر به هذه الشعوب بطريقة متنكرة خفية . وأما تقديم الأرملة لوعاء الحبوب لأولاد المتوفى وأخوته فهو إشارة الى انها قد قضت فترة الحداد الأولى كما ينبغي أن تقضى ، كما أنها تهدف من ذلك كذلك الى كسب رضائهم ، وبخاصة أخوة المتوفى الأصغر منه سناً ، هؤلاء الذين يظلون مستائين لبعض الوقت من المرأة التي تعيش بعد وفاة زوجها ، وفقاً لاعتقاد هؤلاء الناس . والحق أن أخ المتوفى الأصغر له الحق أن يصيب زوجة أخيه بالسهم . إذا قابلها وهي تقوم بعد وفاة زوجها بفترة قصيرة ببعض الأعمال النسائية العادية ، مثل البحث عن جذور اليام . والسبب الوحيد الذي يقدمه الأهالي لتفسير هذا الشعور العدائى ، هو أنه يحزنهم كل الحزن أن يقع بصرهم على أرملة الفقيد بعد موت زوجها بزمان قصير ، لأنها حينئذ تذكرهم بفقيدتهم . على أن هذا السبب لا يمكن أن يكون السبب الوحيد لهذا الشعور العدائى ، حيث أننا نجد أنه لايجوز لأخوة المتوفى الكبار الآخرين أن يفعلوا فعل الأخ الأصغر . ومن المحتمل كل الاحتمال أن القبيلة ، وهي ان تصبح الأرملة عند نهاية فترة الحداد ، زوجة لأحد أخوة المتوفى الذين يصغرونه . وهؤلاء هم الذين ينبغي عليها أن تتجنب رؤيتهم أثر موت زوجها في حذر بالغ .

ومرة أخرى نجد بين قبيلتي « أونماتجيرا » و « كاييتش » اللتين تسكنان وسط استراليا ، أن الأرملة يحرق شعرها بأكملها ، بأن تمرر عصاه مشتعلة بالقرب منه . كما أنها تغطي جسمها برماد من النار التي توقد في الخيمة . وهي تعيد تغطية جسمها بالرماد عدة مرات طوال فترة الحداد . فان لم تفعل هذا ، يعتقد أن روح الميت الذي يقتفى أثرها على الدوام يقتلها وينهش لحمها . وفضلاً عن ذلك فإنه يحق لأصغر أخوة الزوج أن يجلدوها بقسوة ، بل يقتلها ، إذا حدث

ان قابلها في أثناء فترة حدادها العميق وهي مجردة من دلائل الحزن .
ومن واجب الأرملة كذلك أن تلتزم الصمت الذي يدوم في العادة
عدة شهور بعد موت زوجها حتى يخلصها منه أصغر اخوته . واذا حان
هذا الوقت فانها تحمل لهذا الأخ الأصغر كمية وافرة من الطعام ،
فيأخذ قدرا منه في يده ويلمس به فمها ، مشيرا بذلك الى أنها قد
تحررت من الصمت ، ويجوز لها أن تقوم بأعمالها النسائية اليومية .

وما تزال تبعة الصمت التي تفرض على النساء الأرامل بعد موت
زواجهن في قبيلة « وارا مونجا » التي تقطن وسط استراليا أكثر
غربة وأكثر مدعاة للتساؤل . وتتمثل تلك الغربة في أن تبعة الصمت
لا تقتصر على الأرملة وحدها التي تلتزم الصمت طوال فترة الحداد
التي قد تستغرق عاما ، وانما يشاركها في ذلك والددة الزوج واخواته
وبناته ، وأما أو أمهاتهن ، وأن كن أكثر من زوجة . وأكثر من هذا
فانه يشارك هؤلاء الصمت عدد كبير من النساء اللاتي يعدهن الأهالي
من قريبات المتوفي خلافا لما نفعل . ومن ثم فانه ليس من غير
المألوف أن نجد العدد الأكبر من النساء يمتنعن عن الكلام في
خيامهن . وحتى بعد انتهاء فترة الحداد ، فان بعض النساء تفضلن
السكوت واستخدام لغة الاشارة التي أتقنها نتيجة المران . وليس
من النادر أن يسود الصمت التام بين مجموعة من النساء في الخيام ،
ويدور في الوقت نفسه حوار صامت تستخدم فيه الأصابع أو بالأحرى
الأيدي والأذرع وكثير من الاشارات التي تتم عن طريق وضع
الأيدي أو الأكواع في أوضاع مختلفة . وقد كان هناك في مقاطعة
« كريك » منذ بضعة سنين امرأة عجوز ظلت ممتنعة عن الكلام وعن
فتح فمها الا عندما تأكل أو تشرب ، وظلت على هذا النحو طيلة عشرين
عاما ، حتى دفنت في لحدها . فاذا رغبت الأرملة الوارامونجية في أن
تسترد حريتها في الكلام بعد فترة صمت تطول أو تقصر ، فانها تلجأ
الى ابنائها الحقيقيين ومن هم بمثابة ابنائها من أفراد القبيلة ، وتقدم
لهم منحة من الطعام كما هو المألوف في هذه الحالات . وتؤدي هذه

الشعيرة على نحو بسيط للغاية ، فالأرملة تحضر الطعام الذى يتألف عادة من كعكة كبيرة مصنوعة من بذور الحشائش ، ثم تعض اصبع كل رجل يخلصها من قيد الصمت ، وبعد ذلك تتكلم ماشاء لها الكلام . ويبقى بعد ذلك أن نضيف أن الأرملة فى قبيلة « وارانونجا » تحلق شعرها وتجرح رأسها من الوسط فى هيئة شق طولى ، وتتمرر عصاة مشتعلة فى هذا الجرح . ومن الطبيعى أن يكون هذا الجرح فى بعض الأحيان خطيرا للغاية .

ولا يسمح للمرأة عند قبيلة « ديري » التى تسكن وسط استراليا بالكلام ، حتى يجف الجص الذى تطلو به جسدها ، علامة على الحزن ، ويتساقط من تلقاء نفسه . وفى أثناء هذه الفترة التى قد تدوم أشهرا ، لا يجوز لها أن تتحدث مع غيرها الا عن طريق الإشارة .

وهنا يحق لنا أن نتساءل : لماذا تلتزم الأرملة الصمت مدة تطول أو تقصر بعد وفاة زوجها ؟ ان السبب فى اتباع هذه العادة فيما يبدو ، هو الخوف من جذب نظر شبح زوجها الخطير . وهذا السبب يعزوه هنود « بلاكولا » فى وضوح لاتباع هذه العادة كما تفسر به قبيلنا « أونماتجيرا » و « كايثش » عادة طلاء الأرملة جسدها بالرماد . فالهدف الأساسى من وراء اتباع هذه العادة هو غيما يبدو ، اما الرغبة فى تضليل الشبح أو مضايقته وطرده . فالأرملة تروغ منه عندما تظل صامته كما أنها تضايقه وتجعله ينفر منها عندما تتجرد من زينتها وتحلق شعرها أو تحرقه ، وعندما تغطى جسمها بالجص أو الرماد . وهذا التفسير تؤكد بعض العادات الاسترالية الخاصة .

فنحن نلاحظ بادية الأمر أن الأرملة تلتزم الصمت عند قبيلتى « وادومان » ، و « مودبورا » ، طالما ظل لحم زوجها الراحل يكسو عظامه . ولكن بمجرد أن يتحلل لحم الجسد ويتعري العظم ، تتحرر أرملة الفقيد من الصمت . وهنا تتضح الفكرة العامة فى أن شبح الميت يسكن بقايا جسده العفن ، طالما كانت هناك بقايا من اللحم فوق

عظامه • فاذا بلى اللحم كلية ، فانه يرحل الى عالم الأرواح الذى يقع قريبا أو بعيدا من العالم الأرضى • وحيثما ينتشر هذا الاعتقاد ، فانه من الطبيعى تماما ان تلتزم المرأة الصمت طالما كان جسد زوجها فى مرحلة التحلل ، اذ من المحتمل فى هذه الفترة ، وفقا لاعتقادهم ، أن تسكن الروح الأماكن المجاورة وأن يكون معرضا فى أية لحظة لأن يجتذبه صوت زوجته المألوف لديه •

ثم اننا نلاحظ من ناحية أخرى أن علاقة الأرملة بأحد اخوة الزوج الراحل الأصغرين ، عند قبائل « زرونتا » و « أونماتجيرا » ، تؤيد الغرض فى أن الدافع وراء القيود التى تفرض عليها هو الخوف من شبح الميت • اذ يبدو أن أحد اخوة الزوج الراحل الذين يصغرونه ، يقوم بدور الرقيب على أرملة أخيه فى أثناء فترة حدادها ، فهو يرى ما اذا كانت تراعى التقاليد التى تتبع فى مثل هذه الظروف ، ومن حقه ان يعاقبها بقسوة ، وله أن يقتلها ان هى تحلت من هذه التقاليد • كما أننا نلاحظ أن أحد اخوة الزوج الراحل الذين يصغرونه هو الذى يحرر أرملة أخيه نهائيا من الصمت ، عند قبيلتى « أونماتجيرا » و « كاييتش » ، أى أنه هو الذى يعيدها الى مجرى الحياة العادية • وهذه العلاقة الخاصة التى تربط الأرملة بأصغر اخوة زوجها الراحل ، تتضح كل الوضوح عندما نعلم أن الأرملة تصبح زوجة هذا الأخ بعد انتهاء فترة الحداد ، كما يحدث ذلك عندما تكون العادة المتبعة أن تتزوج الأرملة أحد اخوة زوجها الراحل الذين يصغرونه • وهذه العادة تتبع بحق عند القبائل الثلاث وهى « ارونقا » و « اونماتجيرا » ، و « كاييتش » التى تلتزم فيها الأرملة الصمت بعد وفاة زوجها ، وتقف من اخوته الأصغرين موقفا خاصا • فالعادة المتبعة عند قبيلة « ارونقا » أن الأرملة تصبح عند نهاية فترة الحداد زوجة لأحد أخوة الزوج الراحل الذين يصغرونه • أما فيما يختص بقبيلتى « أونماتجيرا » « كاييتش » ، فقد قيل « ان من أهم خصائص عادات الزواج عندهما أن تتزوج الأرملة بأحد الاخوة الأصغرين لا بأكبرهم » • وهذا يحدث كذلك عند قبيلة « ديري » التى تفرض الصمت على الأرملة فى أثناء

فترة الحداد ، وبعد ذلك تتزوج بأحد الاخوة الأصغرین لزوجهما الراحل الذى يناديه أبناؤه بلقب الأب • أما عند القبائل البدائية الأخرى التى تعتقد أن شبح الزوج الراحل يسكن زوجته ويضايقها بترقباته غير المرغوب فيها ، فإنه من الطبيعى أن تعتقد هذه القبائل أن زواج الأرملة مرة أخرى يعرض الزوج الجديد للخطر من جراء غيرة الزوج الراحل منه ، عندما يجد أن زوجته تعيش فى كنفه • وقد سبق أن أشرت فى مكان آخر الى هذا الأخطار المتخيلة التى تحدث عند زواج الأرملة مرة أخرى • وربما ساعدنا هذا على أن نفهم كيف أن الأخ عند القبائل الاسترالية التى أشرنا اليها يراقب بعين ساهر مسلك أرملة أخيه الأكبر الراحل • فالدافع فيما يبدو ليس هو الاحترام الفزى لشرف أخيه الراحل ، بقدر ما هو اعتبار شخصى يخص سلامته ، وذلك اذا خاطر وتزوج بأرملة أخيه قبل أن تتخلص كلية من شبح زوجها الراحل عن طريق اتباعها لكل التقاليد التى تفرض عليها لهذا الغرض ومن بينها التزام الصمت ••

ومن ثم فإن تشابه العادات المنتشرة انتشارا واسعا بين الشعوب المختلفة يدعم فرضنا ، وهو أن الأرملة عند العبريين القدماء كانت فى مرحلة مبكرة من تاريخهم تلتزم الصمت لفترة بعد وفاة زوجها بقصد الانفلات من شبح الزوج • وربما كان كذلك على أحد اخوة الزوج الراحل الأصغرین بعد ذلك ، ان يراقب اتباع زوجة أخيه لهذه الشعائر بدقة ، لأنه ربما كان مرشحا للزواج منها بعد انتهاء فترة حدادها ، وفقا لعادة زواج الأرملة من أحد اخوة الزوج المتوفى الأصغرین • على انه ينبغى علينا ان نلاحظ بعيدا عن هذه الدراسة المقارنة لتلك العادة ، أن الشاهد المباشر على عادة الصمت التى كانت تفرض على الأراامل عند العبريين القدماء ، ليس أكثر من كونه تحليلا لغويا لأصل كلمة الأرملة العبرية ، وهو تحليل قد تكتفه الشكوك • وحيث أن الاستدلالات التى تبدأ من تحليل أصول الكلمات وتنتهى الى افتراض عادة من العادات ، غير مؤكدة كل التأكيد ، فإننى لا أستطيع أن أدعى لفرضى هذا أى قدر بعيد من الاحتمال •

الفصل العاشر

إيليا (١) والغربان

لم يرد هذا الفصل في النسخة المختصرة التي قمنا بترجمتها . وقد ترجمته عن الطبعة الأصلية و أضفت الى هذا الباب ، نظرا لأن موضوع الغراب يعد من الموضوعات الشائعة في التراث الشعبي . وقد سبق ذكره في أكثر من موضع في فصل الطوفان الكبير .

ان أول رسالة أوحى بها الرب الى النبي ايليا ، وفقا لأقوال المؤرخين العبريين ، هي تلك التي أمره فيها أن يذهب الى « أخاب » ملك بني اسرائيل ويخبره أن أرضه لن ترى الندى أو المطر لعدة سنوات . وحيث أن النبي قد قام بتبليغ رسالة الرب ، فإن الرب لم يتركه يهلك في هذا الجذب ، فلقد أوحى اليه الرب قائلا : « انطلق من هنا واتجه نحو المشرق وأختبئ عند نهر كريث الذي هو مقابل الأردن ، فتشرب من النهر . وقد أمرت الغربان أن تعولك هناك . فانطلق وعمل حسب كلام الرب وذهب وأقام عند نهر كريث الذي هو مقابل الأردن . وكانت الغربان تأتي اليه بخبز ولحم صباحا ، وبخبز ولحم مساء . وكان يشرب من النهر ، وكان بعد مدة من الزمان أن النهر ييس لأنه لم يكن مطر في الأرض » (٢) .

وعادة ما يرتبط نهر كريث في الروايات الشعبية بوادي الصلت الذي ينحدر شرقا من أرض الميعاد المرتفعة ، وينفتح على سهل الأردن

(١) هو الذي يسميه العرب النبي الياس .

(٢) سفر الملوك الأولى ١٧ : من ١ - ٧ .

غير بعيد من أريحا • وسواء أكان هذا الربط بين النهر والوادي من قبل المؤرخين صحيحا أم غير صحيح ، فليس هناك شك في أن هذا المنظر الطبيعي ملائم للأسطورة كل الملاءمة • فهذه الوهدة تعد أكثر الوهاد قفرا وأكثرها سحرا في فلسطين • وهى عبارة عن أخدود كبير بير الجبال وتحيط به نتوءات الجبال العابسة • وهذا الأخدود ضيق للغاية الى درجة أن عرضه لا يكاد يبلغ عشرين ذراعا في أسفله • وفيه يشق النهر مجراه وسط أجمة من الخيزران والأسل والدفلى • وبذلك يقابل هذا الشريط الأخضر جوانب الصخور الجرداء التى تحيط به من كل جانب • وربما ذكرت المسافر هذه الوهدة بعمقها وضيقها ، بالأخدود الشهير الذى ينشق بين الصخور الحمراء فى أرض البتراء (سلع) • وهناك فى بعض أماكن هذا الطريق الذى يقود الى اورشليم حتى وادى نهر الاردن ، يتجلى للرائى منظر رائع لتلك الوهدة ، فبعد أن يسير المسافر بضع ساعات فى هذا المكان المنعزل الذى يتميز به ذلك الانحدار بين التلال الجيرية ذات الأخاديد الجارفة ، يشعر بالانتعاش لمراى هذا الشريط الأخضر ، ولصوت خرير المياه الذى يصعد اليه من أعماق هذه الوهدة العميقة ، حتى فى ليالى الخريف التى تعقب الصيف القاطط الجاف • فاذا نظر الى أسفل هذا الجرف الذى يصيب الانسان بدوران ، فربما وقع بصره على الغربان والنسور والصقور الضخمة ذات الشكل الأسطورى وهى تطير مندفعة الى أسفل •

وربما لجأ ايليا الى هذا المكان الأعزل الموحش الذى قلما تسقط فيه الأمطار على مدار السنة ، الى أن تنتقضى سنوات القحط التى أوحى بها الرب اليه ، وأخبر بها الناس بدوره • وربما لم يخالط ايليا أحدا فى هذا المكان سوى الوحوش والطيور البرية •

على أن هذه الوهدة وسكانها لم يتغيرا من ذلك الحين حتى عصرنا هذا ، اللهم الا القليل • فما زالت الوعول تسكن صخورها ، وما زال طائر القاوند يرفرف بأجنحته فوق مياهها العميقة ، وما زال الحمام البرى يعيش فى شقوق الصخور ، وما زالت الطيور السوداء تنتشر

فوقه أجنحتها ذات البريق الذهبى عندما تتلألأ فى أشعة الشمس .
واذا كان النبى ايليا هو أول من لاذ بتلك الوهدة البرية العميقة هروبا
من الحياة ، فهو لم يكن آخر ناسك لجأ اليها ، فهناك وهناك يبصر
الرائى فى أماكن قد يصعب على المسافر الوصول اليها ، نقوشا على
الصخور ، حيث كان النساك المتعبدون يتخذون مسكنهم ، ثم أصبحت
بعد ذلك حتى اليوم مسكنا للغربان والصقور والنسور .

وينفتح الأخدود الكبير فجأة على سهل الأردن عن طريق بوابة
طبيعية هى عبارة عن ذورة ذات شكل مخروطى من الحجر الجيرى
تقع على كلا الجانبين . وهنا يقود الطريق المسافر من اورشليم فجأة
الى أحد المناظر الرائعة فى فلسطين . إذ يأخذ الطريق فى هذا المكان فى
الانحدار المفاجئ الى أسفل مهبطه عند السهل . وعند ذاك يقع بضر
المسافر على غابة مخضرة تتغذى أشجارها بالمياه الجارية التى تتدفق فى
الوعدة ، وبمياه الينابيع الوافرة التى تتدفق من الصخرة الجيرية التى
تقع فى الشمال على بعد . وتشغل هذه الغابة الدائمة الاخضرار التى
تعد مأوى لعدد لا حصر له من البلابل والطيور ذات الريش الجميل
الذى يتألق فى الشمس بألوانه الخضراء والارجوانية والزرقاء ، مثل
طائر القاوندى الهندي ذى الريش الارق وطائر التمرة الجميل ، تشغل
جانبا من أريحا مدينة النخل . ويمتد خلف المدينة سهل منعزل ممتد
يقطعه على البعد صف من الأشجار التى تشير الى مجرى نهر الأردن
وفيما بعد ذلك تشمخ منحدرات مواب التى تكسوها الغابات بسلسلة
جبالها التى تعلو فى حدة وسط السماء الصافية . أما فى الشمال فيمكن
رؤية جبل كورانتا الذى يشتهر بغوايته فى الروايات الشعبية . وهو
عبارة عن تل ذى شكل مخروطى يعلو شرفات الصخور ويتوجه حطام
كنيسة . وتمتد فى الجوانب مياه بحر الميت الهادئة التى تحيط بها
الجبال المنعزلة من كل جانب . فاذا كان النبى ايليا قد ترك صومعته
فى الوعدة ، واتجه الى اورشليم ، فلا بد أنه قد أبصر أمامه هذا
المنظر بعد أن يكون قد اجتاز الممر الملتف العميق ، واستراح هنيهة

ليلقى نظرة على الطبيعة من خلفه • ثم استأنف سيره بعد ذلك متجها الى أعلى حيث تقع المدينة •

وربما أوحى لكاتب حكاية اطعام الغربان لايلىا ، وجود هذه الطيور بكثرة في وادى الصلت ، لأن الغربان ، كما رأينا ، ماتزال تبني أعشاشها في هذا الأخدود ، ويمكن رؤيتها من أعلى وهى تحلق في أجوائه •

حقا ان الغربان تلفت نظر المسافر في أنحاء هذه المنطقة المنعزلة التى تمتد من اورشليم حتى البحر الميت • وقد قال « كانون تريسترام » في هذا الصدد : « ان مجموعات الغربان أكثر مجموعات الطيور غرابة في هذا المكان ، وأكثر ما يميزه ، وأن يكن الصنف الصغير منها يفوق في عدده الصنف الكبير • فهى قريبة في كل مكان للعين والأذن ، كما أن رائحتها التى تفوح من حولها ، تذكر المسافر بتأثير وجودها في هذا المكان • أما الصخب الذى تحدثه بنعبيها عندما تجلس حول المعبد — فيصم الآذان • فنعيب غراب القيلولة وثرثرة الغربان العادية تتحد معا فبغمر النعيب الأجش للغربان المسنة • على أن ألحان مئات من أنواع الغربان الصغيرة تعلو هذا الضجيج كله • ولقد تعودنا أن نرى هذا الجيش كل صباح عند الشفق ، عندما يمر في صفوف طويلة فوق خيامنا متجها الى الشمال • وتتقود غربان القيلولة الطريق على هيئة كتيبة واحدة متماسكة ، وخلفها على بعد منها ، تطير الغربان العادية في شكل متفرق • وقبل أن تهجع هذه الغربان في مرقدتها ، تعقد اجتماعا صاحبيا للغاية فوق أشجار جبل الزيتون وجبل قدرون • ولا يسكن هذا الصخب الا بعد غروب الشمس • وعند ذاك تختلط الغربان جميعا في غير تميز وتأوى الى مهجعها في المكان المقدس • » بل ان ان هذه الأنواع الثلاثة من الغربان تعيش في الطرف الجنوبي من البحر الميت حيث تشرف قلعة ماسادا القديمة على برية من التلال الملحية القفرة الموحشة • ولقد كان بصرنا يقع على الدوام في أثناء تجوالنا أسفل جبل سدوم الملحي ، على مجموعات من الغربان الكبيرة وهى تقبع على الصخور الملحية • ولايعرف في الحقيقة سبب لتجمعها في هذا

المكان ، اللهم الا اذا كانت ترغب في العزلة • وقد حدث ذات مرة ان أبصرنا وقت الغروب عند الجانب الشرقى من البحر الميت بجوار مكان كان لزمان قريب ساحة للقتال ، سربا من الطيور آكلة الجيفة التى اشتمت رائحة المعركة من بعيد فتدفقت الى هذه المكان من جهة الجنوب • فحيثما وجدت أجساد الموتى ، تدفقت النسور وكذلك الغربان والصقور والحدأ وغربان شمال البلاد العربية في شكل باقات » •

على أن الغربان قد قدمت للنبي ايليا في البرية خدمة غير مألوفة ، ذلك لأن الناس كثيرا ما كانوا ينظرون اليها بوصفها مصدرا للتكهن ، بل انهم كانوا يعتقدون أنها تمتلك قدرة على التنبؤ • فالأغريق كانوا يقدسون هذه الطائر ، ويربطون بينه وبين أبوالو اله النبوءة • كما كان العرافون الاغريق يستمدون النبوءة من نعييه • وفضلا عن ذلك فان من كان يرغب في اكتساب قوة الوهية ، كان يأكل قلب الغراب ، معتقدا بذلك أن قلبه يحتوى على مقدرة على النبوءة • كما كان الرومانيون يعتقدون أن الغراب يستدعى سقوط الأمطار وهو يمشى متبخترا ذهابا وأيابا على الرمال • وما زال الناس في بعض جهات أوربا يعدون نعيب الغراب نذيرا بالموت • ويتصور الهنود الليلوويون الذين يسكنون كولومبيا البريطانية ، أن من يحرس الغراب روحه يكون ممتلكا لمنحة القدرة على التنبؤ ، فيستطيع بصفة خاصة أن يتنبأ بالموت وأحوال الجو • فالغراب يعد بحق في الأساطير التى تدور على الألسن بين القبائل الهندية التى تسكن غرب أمريكا ، أحد شخوصها الرئيسية •

ويرجع السبب في خلق هذه الفتنة السحرية وهذه القدسية على الغراب الى سلوك هذا الطائر الأفحم الذى يتسم بالحكمة والرزانة • فالغراب وفقا لكاتب مرموق « هو أكثر الطيور تطورا فيما يبدو • فلا بد أنه كان يتبع الصياد والقناص فيما قبل التاريخ بحدة بصره وذكائه وشجاعته ، لكى يفترس نفاياتهما دون أن يتحرش بهما ، تماما

كما نجده في عصرنا الحاضر يتعقب تحركات هؤلاء الناس لهذا الغرض نفسه . كما أنه كان يلزم رعاة العصور الأولى الذين لم يكونوا ينظرون اليه بغير اكتراث ، حيث أنه كان يشتهر بما يشتهر به الآن من رغبة في اقتناص الحيوان الضعيف وقتله . ومع ذلك فإن الغراب لا يعتمد في حياته على الانسان ، حيث أنه يعيش حياته مستقلا عنه . وفضلا عن ذلك فإن كثيرا من الشعوب منذ العصور القديمة كانت تحس ازاء هذا الطائر احساسا يشوبه التقديس أو الخرافة . وقد كان هذا الإحساس قويا الى درجة أنه كان يطغى على الإحساس بعدم الثقة ، ولا نقول الكره ، ازاء هذا الطائر . بل ان هذا الإحساس ظل ينتشر حتى أصبح يعيش في بعض الأماكن حتى يومنا هذا .

ويحكى « بلينى » حكاية توضح بطريقة لافتة كيف كان الرومانيون ينظرون الى الغراب نظرة تقديس ، عندما كانت روما في أوج عظمتها . فقد حدث في عهد الملك تيبيريوس أن غرابين ابتنيا عشهما على سطح معبد « كاستور وبواوكس » . وبعد مدة طار أحد هذين الغرابين ، ومشى مختالا في حانوت حذاء واتخذ فيه مسكنا له . ولم يجرؤ الحذاء على مضايقة الغراب حيث أنه كان ينظر اليه نظرة ملؤها الورع الدينى ، اما لشخصه في حد ذاته ، أو لصلته بالمكان المقدس الذى كان يسكنه . وقد تعود هذا الغراب أن يطير من الحانوت كل صباح ويقف على المنبر الذى يقع في الساحة العامة ، ويحيى المارة السائرين الى أعمالهم بطريقة دمثة ، ثم يقوم بتحية الامبراطور وولديه « دروزوس » « وجرماتيكوس » بصوت مميز ذاكرة أسماءهم جميعا ، ثم يعود الى الحانوت بعد قيامه بواجب الكياسة على هذا النحو . وقد تعود الغراب أن يفعل هذا الأمر طيلة سنين عدة حتى تمكن جذاء آخر كان يجاور الجذاء الأول من قتل الغراب . وقد تصور الناس أن الجذاء قام بقتل الغراب اما حقدا على جاره الجذاء الذى كثر رزقه بسبب هذا الغراب ، أو لأن الغراب نفسه أتلف له

أحذيته ، فقتله في ثورة غضبه • ومهما كان الدافع ، فقد كان هذا اليوم يوم شؤم في حياة هذا الخذاء • ذلك أن الناس ذعروا لموت صديقهم القديم وهبوا في ثورة غضبهم ، وطرّدوا الخذاء الجاحد من حانوته ، ولم يقر قرارهم حتى سفكوا دم هذا الكافر • أما الغراب المتوفى ، فقد احتفل بجنائزه احتفالا شعبيا حضره آلاف المواطنين • وقد حمل نعش الفقيد على أكتاف اثنين من الأثيوبيين اللذين يشبهان الغراب في سوادهما ، كما تصدر الجنائز عازف على العود وصار يعزف بألحانه الرهيبة ، بينما حملت أكاليل الزهر من كل صنف معبرة عن مدى تقدير الشعب وحزنه على هذا الفقيد • وبهذه الطريقة المؤثرة سارت الجنائز الى القبر الذي شيّد له على بعد ميلين من طريق « أبايان » • ويعلق المؤرخ على هذه الجنائز فيقول ، انها كانت جنازة لم يحتفل بها لأمير من قبل ، وان انتقام الناس من قاتل الغراب كان أبشع من انتقام « سكيون الافريقى » •

ومن الخصائص التى خلعت على الغراب مزيدا من التقديس من وجهة نظر الشعوب ، مقدرته على تقليد صوت الانسان • ولم يؤكد هذه القدرة « بلينى » وحده وانما حكى عنها كذلك الكتاب المحدثون • « فجولد سميث » يؤكد : « أن الغراب يستطيع أن يفعل ما يعجز طير من الطيور الأخرى عن فعله معا • ففى وسع الانسان أن يدرّبه على الصيد كما يدرّب الباز ، وفى وسعه أن يدرّبه على أن يقتفى أثر الصيد وأن يحضره الى القنّاص كما يفعل كلب الصيد ، وفى وسع الانسان أن يدرّبه على الكلام كما يدرّب الببغاء • ولكن ربما كان أغرب ما فى ذلك كله أن يدرّب الغراب على الغناء فيغنى كما يغنى الانسان ، ولقد رأيت غرابا يغنى « بلاك جوك » بوضوح وصدق وروح مرحة • وكذلك كتب « ياريل » فى كتابه « تاريخ الطيور الانجليزية » فقال : « ان الطيور الانجليزية التى تمتلك مقدرة على تقليد صوت الانسان هى الغراب والعقّوق وأبو زريق والزرزور • وقد زوى عن مقدرة الغراب على تقليد صوت الانسان كثيرا من الحكايات • وربما

كانت الحكايتان التاليتان تعتمد في روايتهما على الثقبات الذين لا يشك في صدقهم ، أقل انتشارا من غيرها من سائر الحكايات • فقد دربت الغربان على النطق بجمل قصيرة بوضوح كما يصنع مع الببغاوات • ومن بين هذه الأغربة غراب يمتلكه السيد « هنسلو » ، أحد أتباع القديس البان • فهذا الغراب يتحدث بوضوح الى درجة أننا عندما سمعناه لأول مرة خيل إلينا أن هذا الكلام يصدر عن انسان • وهناك غراب آخر يسكن في « كاثام » • وقد أبدى هذا الغراب مهارة فائقة في هذا الأمر • ولما كان هذا الغراب يسكن بالقرب من بيت الحراس ، فكثيرا ما نادى على الحراس الذين حسبوه شخصا يستدعيهم للقيام بواجب الخفر ••

ومن المحتمل كذلك أن عادة الغراب في أكل أجسام الموتى قد ساعد على نظرة الناس اليه في خوف ورهبة • فمن المألوف أن البدائيين كانوا يعتقدون أنه في وسعهم أن يكتسبوا صفات الميت عن طريق أكل جزء من جسده • وربما تصورا على هذا النحو أن الطيور المفترسة التي تعيش على أكل الرمم ، تمتلك لهذا السبب صفة الحكمة وغير ذلك من الصفات التي كان يتصف بها الشخص المتوفى • وعلى هذا النحو يرجع تقديس كثير من القبائل التي تسكن افريقيا الشرقية للضبغ : الى هذه العادة الى حد كبير ، وذلك نتيجة التهام الضباع لأجساد موتاهم • فقبيلة « ناندى » التي يأكل أفرادها جزءا من جسد الميت ، وفقا لعاداتهم ، بقصد اكتساب خصائصه ، يقدسون الضباع لهذا السبب ، ويعتقدون أنها تتحدث على نحو ما يتحدث الانسان ، وأنها على اتصال بأرواح الموتى • فاذا توفي عدد كبير من الأطفال في أسرة واحدة فإن الأبوين يضعان المولود الجديد لبضع دقائق في الطريق الذي تمر فيه الضباع ، آملين بذلك أن تتشفع الضباع للطفل لدى أرواح الموتى ، فتتركه يعيش • فاذا عاش هذا الطفل فإنه يسمى باسم الضبع • وكذلك تنظر قبيلتنا « باجيو » و « وانيا موزو » ، وهما قبيلتان تسكنان في افريقيا الشرقية ، الى الضباع التي ترمى اليها بأجساد الموتى لكي تلتهمها ، نظرة تقديس •

وكثيرا ما تعتقد هاتان القبيلتان أن عويل ضبع من الضباع في المساء
انما يشير الى صوت آخر شخص توفي في الحى • ويقول « الوانيا —
موزيون » أنهم لا يستطيعون أن يقتلوا الضبع لأنهم لا يعرفون
ما اذا كان هذا الكائن ينتسب الى أحد أقربائهم ، كأن يكون هذا
الشخص الغريب خاله أو جده ، أو لا ينتسب لهم • وربما كان
مرد هذا الاعتقاد الى أن أرواح الموتى الذين تلتهم الضباع أجسادهم،
تحيا بداخلهم مرة أخرى • وبناء على هذا ، فربما كانت عادة تعريض
جسد الميت لهذه الحيوانات ، بالإضافة الى الاعتقاد في انتقال روح
الانسان اليها ، كافيا لأن يهى للناس أن يتصوروا وجود علاقة بين
الناس والوحوش والطيور المفترسة مثل الضباع والنسور والصقور
والغربان • وما زال السؤال جديرا بالبحث حول مدى انتشار عادات
الحيوانات الضاربة بحيث أنها يمكن أن تحيط الغراب بصفة خاصة ،
بهالة من الاحترام بين عامة الشعوب •

الباب الرابع

القانون

الفصل الأول

مكانة القانون في التاريخ اليهودي

ربما كان من الأفضل ، قبل أن نمضى في فحص بعض القوانين اليهودية الخاصة ، أن نلقى نظرة سريعة على مكانة القانون بوصفه كلا في تاريخ بنى اسرائيل ، وذلك في حدود ما أكده الدارسون المحدثون من خلال أبحاثهم النقدية .

وربما كانت أهم نتيجة توصل اليها النقد التاريخي واللغوي للعهد القديم ، بل وأكثرها صحة ، هي البرهنة على أن سن التشريع في أسفار موسى الخمسة في الصورة التي هي عليه الآن ، لا يمكن أن يكون موسى قد أعلنها في الصحراء وفي موآب قبل أن يدخل الاسرائيليون فلسطين ، وأنها لم تتخذ صيغتها النهائية الا بعد استيلاء « بختنصر » على اورشليم عام ٥٨٦ ق.م ، عندما حمل اليهود معه الى المنفى . أى أن الجانب القانوني في الأسفار الخمسة ، باختصار ، لا يرجع تأليفه في الصورة التي هو عليها الآن ، الى عصر مبكر في تاريخ بنى اسرائيل ، وانما يرجع الى عصر متأخر . فهذا التشريع بصرف النظر عن أنه لم يعلن قبل أن تستولى الأمة اليهودية على أرض الميعاد ، كتب ونشر القليل منه فيما يبدو ، قرب نهاية استقلال هذه الأمة ، كما ألف الجزء الذي اصطلح النقاد على تسميته بالتشريع الكهنوتي الأول مرة في الصورة التي هي عليه الآن ، إما في فترة السبي البابلي أو بعده .

على أننا نرى أنه من الضروري أن نميز بين عصر القوانين في حد ذاتها ، والتواريخ التي خرجت فيها الى العالم في شكل شريعة

مكتوبة • وقليل من التفكير كفيل بأن يقنعنا أن القوانين بصفة عامة لا تخرج إلى الوجود كاملة في اللحظة التي تصاغ فيها ، كما خرجت أثينا من رأس زيوس • فالتشريع والتقنين شيئان مختلفان كل الاختلاف • أما التشريع فهو قانون ذو نفوذ لنظم سلوكية محددة لا تنتشر ولا تصبح ملزمة بوصفها قانونا قبل أن تعتمد السلطة العليا قرارها الملزم • بل ان القوانين الجديدة نادرا ما تكون ابتداءا جديدا كاملا ، بل لا يمكن أن تكون كذلك • وانما هي تركز دائما على وجه التقريب على أساس عادة قائمة ، بل وتتقضى وجودها ضمنا • كما أنها تركز على رأى شعبى يتلاءم في كثير أو قليل مع القوانين الجديدة ، بحيث تكون العقول مهيأة في هدوء لمدة طويلة لتقبلها • فلا يمكن لأكثر الحكام الدكتاتوريين استبدادا في العالم أن يفرضوا على الشعب قانونا جديدا مطلقا يكون مخالفا بوجه عام لميولهم وتيار مزاجهم الطبيعى ، وثائرا على آرائهم وعاداتهم الموروثة ، ومستهزئا بأكثر ما يتعلقون به من مشاعر وآمال • بل انه كان دائما في أكثر عصور التشريع ثوريه عنصرا محافظا يعمل على تقبل المجتمع لهذا التشريع وطاعته له • فالقانون الذى يستجيب الى حد ما مع ماضى الشعب ، هو وحده الذى يمتلك قوة من نوع ما للتكيف مع مستقبل هذا الشعب • أما أن يعاد بناء المجتمع من أساسه ، فهو مشروع وهمى • ويظل هذا المشروع غير ضار ، طالما كان محصورا في نطاق أحلام الفلاسفة الطوباويين • ولكنه يكون خطيرا ، بل من المحتمل أن يكون هداما اذا خرج الى حيز التنفيذ سواء عن طريق الحكام الدكتاتوريين ، أو عن طريق الزعماء الذين يدلون على جهلهم منذ المحاولة الأولى بعناصر المشكلة الأساسية التى دفعوا بأنفسهم لحلها • فالمجتمع نمو وليس تكوينا ، وعلى الرغم من أنه من الممكن أن نحور هذا النمو وأن نشكله في أشكال مختلفة ، تماما كما يستخرج البستاني بفنه أزهارا ذات شكل أكثر جمالا وأبهج لونا من الأزهار البسيطة التى تنمو في الحقول وفي المروج وبين الأسوار الخضراء ، وعلى شاطئ النهر ، فانه في وسعنا أن نشكل المجتمع من جديد في حدود

ضيقة تماما ، كما يشكل البستاني زهرة الزنبق أو الوردة • ففى كل قانون كما هو الحال فى كل بنات ، عنصر قديم ، واذا استطعنا أن نتقنى أثر هذا العنصر حتى نصل الى منبعه الأصلى فان هذا سيقودنا الى الورا ، الى أقدم مراحل الحياة الانسانية ، سواء كان هذا يختص بحالة بعينها أو بأصل الحياة فى العموم •

فاذا انتقلنا بعد ذلك من التشريع الى التقنين ، فإنه يتضح عند ذاك احتمال قدم القوانين المقننة كل الوضوح ، الى درجة أنه يبدو من نافلة القول أن نؤكد ذلك • واذا كانت أشهر المدونات القانونية فى العالم هى مدونة جستنيان التى عرفت باسم « ديجست » أو « بانديكتى » ، فهذه المدونة هى مجموعة اقتباسات من أعمال رجال القانون الرومانيين القدماء بنص أصحابها الذين ذكرت أسماءهم بعد كل اقتباس على حده • ومعنى هذا أن المدونة الرومانية ليست مجموعة من القوانين الجديدة ، بل هى ببساطة تجميع جديد لقوانين قديمة كانت تعيش فى الامبراطورية لعدة قرون • أما أشهر القوانين الحديثة فهو القانون الفرنسى الذى أصدره نابليون • وعلى الرغم من أن هذا القانون قد حل محل المجموعة الهائلة من نظم التشريعات المنفصلة المحلية التى لوحظ أن المسافر الفرنسى يغيرها كثيرا أكثر مما يغير أفراسه ، وعلى الرغم من أن هذا القانون كون ، بدون شك ، وحدة متكاملة من التشريع ، إلا أنه على العكس يعد « وليد القانون الرومانى العرفى بالاضافة الى سنن الملوك وقوانين الثورة » • وحسبنا هذا المثال الذى يشير الى مجموعات القوانين الحديثة ، اذ أنه يعد من قبيل الاسهاب أن تقدم مزيدا من هذه الأمثلة •

ويبدو أن التشريع عند الأمم السامية كان يسير على هذا النحو • وأقدم قانون فى العالم وصلنا عن العصور القديمة هو قانون حمورابى، ملك بابل الذى حكم حوالى سنة ٢١٠٠ ق • م • على أنه ليس هناك ما يجعلنا نفترض أن التشريعات التى يتضمنها هذا القانون تعد خلقا جديدا كل الجدة للمشرع الملكى ، بل ان الاحتمال والشاهد كذلك

يؤيدان على العكس وجهة نظر أن الملك البابلي لم ينشئ بنية قوانينه
الا على أساس من التقاليد والعادات البالغة في القدم التي ورثها
قومه عن الساميين القدماء الذين كانوا يعيشون في بابل من قبل ،
وهم السوماريون ، أو هو على الأقل اعتمد في تأليفها على جزء من
هذه العادات والتقاليد . وقد كان هذا الشعب السامي متعصبا
لتلك العادات والتقاليد وكان يعدها مقدسة كما قدسها الملوك وأجازها
القضاة . وبالمثل فإن النقاد الذين يرجعون مجموعة التشريعات التي
تسمى بشريعة موسى ، الى العصور السابقة مباشرة على فقدان
الامة اليهودية استقلالها ، أو التالية لذلك بزمن ليس بالطويل ،
يدركون تماما أن هذه الشريعة حتى في صيغتها النهائية لم تسجل
التقاليد والعادات الشعائرية فحسب ، بل انها أكدتها ، وهى تلك
العادات والتقاليد التي يعد كثير منها ، بل أكثرها أهمية ، أقدم بدون
شك من العصر الذي اتخذت فيه أسفار موسى الخميس شكلها
النهائي ، أى في القرن الخامس قبل الميلاد . ومما يؤكد ببساطة
هذه النتيجة التي تقرر القدم البالغ لعادات بنى اسرائيل الشعائرية
الرئيسية مقارنة هذه العادات بعادات غيرهم من الشعوب . فمن شأن
هذه المقارنة أن تكشف أن ما تتضمنه العادات العبرية من آثار بدائية ،
بل همجية ، ليس بالقليل . ولا يمكن أن تكون هذه الآثار قد انطبعت
في الشريعة الموسوية عندما ظهرت في صيغتها القانونية لأول مرة ،
بل لا بد أنها ارتبطت بها منذ عصور قديمة ، ربما ترجع الى فجر
تاريخ الجنس البشرى . وسوف نشير الى بعض هذه الآثار في خاتمة
بحثنا . ومن الممكن للباحث بطبيعة الحال أن يضاعف هذه الآثار التي سوف
نعددتها ، فعادة الختان وعادة اقامة بعض الشعائر التي تختص
بالاعتقاد في نجاسة المرأة وكذلك عادة استخدام كبش الفداء ، كل
هذه العادات لها ما ينظرها في عادات القبائل البدائية التي ما تزال
تعيش في كثير من بقاع العالم .

وما ذكرته يعد كافيا لازالة الخطأ فيما يدعيه نقاد الكتاب المقدس
ببساطة من وجود أصل متأخر لكل القوانين التي تتضمنها الشريعة

العبرية ، وذلك عندما أرجعوا الصيغة النهائية للقانون العبرى المقنن الى عصر متأخر • وربما كان الأفضل كذلك قبل أن ننتعمق بحثنا حول الشريعة العبرية ، أن نصحح خطأ آخر من الممكن أن يبرز بين تلك الآراء النقدية • ذلك أنه لا يعنى بحال من الأحوال فقدان الدليل فى قليل أو كثير أن ما يسمى بالشريعة الموسوميه فى أسفار موسى الخمسة قد نشأت عن موسى ، ان واضح هذه الشريعة لم يكن سوى شخص أسطورى مصدره الخلق الشعبى والخيال الكهنوتى ، وأن هذه الشخصية قد اخترعت لتفسر أصل قوام الأمة اليهودية الدينى والدنيوى معا • فمثل هذا الاستدلال يخالف الحقيقة ، ومن شأنه أن يحدث نوعا من التحريف لا بالنسبة للدليل المدقق الذى ينصف حقيقة موسى التاريخية فحسب ، وانما بالنسبة لقوانين الاحتمال بوجه عام ، اذ نادرا ما تحدث الحركات الوطنية والدينية الكبيرة الا بدافع قوة عظماء الرجال ، أو أنها لا تحدث على الاطلاق الا بتأثيرهم • فالربط بين وجود بنى اسرائيل واليهودية وموسى ، يساوى تماما الربط بين أصل البوذية وبوذا ، كما أنه يساوى تماما الربط بين المسيحية والمسيح ، وبين الاسلام ومحمد • حقا ان هناك نزوعا فى بعض الاتجاهات فى عصرنا الحاضر لادعاء أن التاريخ قد صنعتته دوافع جمعية عمياء لم تكن فى حاجة الى توجيه العقول غير العادية والهامها ، ولكن هذا الفرض الذى يترتب على الاعتقاد الخاطىء الضار فى المساواة الطبيعية بين الناس ، أو يدعم به ، يناقض ما تعلمناه من التاريخ بقدر ما يناقض التجارب الانسانية • فالجماعة الشعبية تحتاج الى قائد ، وبدون هذا القائد تنزع هذه الجماعة الى التخریب ، فى الوقت الذى لا تملك فيه سوى مقدرة ضئيلة على البناء ، وقد لا تمتلكها على الاطلاق • وبدون أفكار الرجال العظام وكلماتهم وأفعالهم وتأثيرهم فيمن حولهم ، ما كانت أمة عظيمة قد بنيت ، وما كان لأمة عظيمة أن تبني • وقد كان موسى نموذجا للرجل العظيم ، وهو يعد بحق مؤسس أمة بنى اسرائيل • ولو أننا جردنا تاريخ حياته من الملامح المعجزة التى تتجمع دائما حول ذكرى الأبطال الشعبيين ، كما تتجمع الطحالب

والحشائش تجمعاً طبيعياً حول الأحجار ، فاننا نجد أن ما روى عنه في التاريخ العبري المبكر صحيح في أصله فيما يبدو . فقد تمكن موسى من استجماع قوى الاسرائيليين ضد المصريين الذين اضطهدوهم ، وقادهم الى القفار حيث حياة الحرية ، وبذلك صنع منهم أمة ، وطبع نظمهم الدينية والدنيوية بطابع من عبقريته البارزة ثم مات ، بعد أن قادهم الى مواب وهو على مرأى من أرض الميعاد التي له تطأها قدمه .

ويميز النقاد في مجموعة القوانين المعتقدة التي تكون الجزء الأكبر من أسفار موسى الخمسة ثلاث مجموعات أو تكوينات قانونية على الأقل . وهذه المجموعات الثلاث تختلف عن بعضها البعض في تاريخها وطابعها . وهي تشتمل وفقاً لترتيبها التاريخي على كتاب العهد : وقانون سفر التثنية وقانون سفر الكهنوتى . وإذا ألقى القارئ نظرة سريعة على هذه المصادر فربما ساعده ذلك على تفهم مكانة كل مصدر منها في تاريخ التشريع العبري ، وذلك في نطاق ما أكدته النقاد من خلال فحصهم لها . وقد كثرت الآراء التي أثبتت حول النتائج — التي توصل اليها النقاد كما أنها تعد بالغة في التعقيد بحيث يصعب علينا أن نسردها في هذا المجال . ومن ثم فإن القارئ الذي يرغب في التعرف على هذه الآراء ، عليه أن يرجع الى الأعمال الكثيرة التي تتعلق بهذا الموضوع ، ويسهل عليه الحصول حيث يجد تلك الآراء مدونة تدويناً كاملاً .

ويعرف أقدم قانون في أسفار موسى الخمسة بما يسمى كتاب العهد ، وهو الذى يتضمن سفر الخروج ، من الاصحاح العشرين آية ٢٢ الى الاصحاح الثالث والعشرون آية ٣٣ . وقد سمي هذا القانون بالتشريع الأول . وهو يتصل كل الاتصال بسفر الخروج ، الاصحاح الرابع والثلاثون في آية ١١ الى ٢٧ ، وهو ما يسمى في بعض الأحيان بكتاب العهد الصغير . وقد أدمج كتاب العهد في المصدر الألوهى الذى يعتقد بوجه عام أنه كتب في شمال فلسطين في مطلع

القرن الثامن الميلادي على الأكثر • أما كتاب العهد الصغير فيحتوى على المصدر اليهودى الذى يعتقد بوجه عام أنه كتب فى أرض الميعاد فى عصر مبكر عن كتابة المصدر الألوهى ، أى أنه كتب فى القرن التاسع قبل الميلاد • ولكن القوانين فى حد ذاتها كانت تعيش فيما يبدو بوصفها قانونا أو مجموعة منفصلة قبل أن تتجمع فى هذه المصادر بزمان طويل • بل إنه من الممكن الادعاء أن هذه القوانين حتى قبل تقنينها كانت تنتشر بوصفها نظما عادية • وربما كان يرجع الكثير منها الى عهد بالغ فى القدم • ويصور كتاب العهد فى العموم الحياة فى عهد الملوك والقضاة الأول • أما المجتمع الذى يصور فى هذا التشريع ، فهو مجتمع ذو بنية بسيطة ، فالحياة فيه تعتمد أساسا على الزراعة ، كما أن مصدر الثروة فيه هى المنتجات الحيوانية والزراعية • أما أسس القانون المدنى والجنائى ، فهى تلك التى مازال عرب الصحراء يتبعونها حتى اليوم ، وهى تشتمل على قانون الأخذ بالثأر وقانون التعويض المالى • فالقانون يعاقب القاتل بالأخذ بالثأر منه • أما المتهم البرىء فيبحث عن ملجأ له فى معبد الرب • وتعد السرقة والاساءة للوالدين وممارسة السحر من بين الجرائم التى يعاقب عليها القانون • فإذا ارتكب الشخص اساءة من نوع آخر ، فإما أن يعين نفسه فيها أو يرفع شكواه الى المكان المقدس • فإذا أحس الشخص بظلم يقع عليه ، فإنه يأخذ لنفسه بالثأر وفقا لهذا القانون • وهو نفس قانون « العين بالعين » الذى مازال سائدا بين العرب ، كما أنه كان القانون السائد بين الكنعانيين • فإذا شاء الشخص أن يثأر لنفسه وفقا لهذا القانون ، فإنه يعتمد فى ذلك على نفسه •

أما المجموعة الثانية من القوانين التى يميزها النقاد فى أسفار موسى الخمسة فهى تلك التى يشتمل عليها سفر التثنية • ويحتوى هذا السفر على الجزء الأكبر من سفر تثنية الاشتراع فى الصورة التى عليها الآن ، فيما عدا المقدمة التاريخية والفصول الختامية • ويتفق النقاد المحدثون فى العموم ، فيما يبدو ، على أن سفر التثنية

هو « كتاب القانون » الذى عثر عليه فى معبد أورشليم عام ٦٢١ ق . م . ، وهو الكتاب الذى اتخذهُ الملك يوشيا أساساً لاصلاحه الدينى . وأهم الملامح الأساسية لهذا الاصلاح الدينى هو أولاً ازالة الأماكن المقدسة المحلية جميعها أو « الأماكن العالية » التى كانت تنتشر فى ربوع البلاد ، وثانياً تركيز عبادة « يهوه » الشعائرية فى معبد أورشليم وحده . وقد أكدت أسفار موسى الخمسة هذين الأساسيين تأكيداً قوياً . ويبدو أن الملك المصلح قد استمد من تعاليم هذا السفر مبادئه التى وضعها موضع التنفيذ ، كما استلهم منه الهدف الدينى المفعم بالحماس الذى شد أزره وبعث فى نفسه الحيوية فى سبيل تحقيق هذا العمل المصنى . ومن السهل ارجاع تأثير الملك المصلح بتعاليم هذا السفر فى عمق الى تلك الوعود المباركة التى وعد بها كاتب السفر من يطيع القانون على سبيل الجزاء وتلك اللعنات التى توعدها بها كل من يخالفه .

ومن ثم فإن الاصلاح الذى أعلنه « يوشيا » ، كان ذا أثر بالغ للغاية ، لا من ناحية المبادئ التى فرضها فحسب ولكن من ناحية كيفية نشر هذه المبادئ كذلك . فقد كانت هذه هى المرة الأولى فيما نعلم فى تاريخ بنى اسرائيل التى نشر فيها بنفوذ الحكومة ، قانون مكتوب بوصفه قانون الحياة الأسمى للأمة كلها . أما قبل ذلك فقد كان القانون عرفاً وليس دستوراً كما كان منتشراً فى معظمه بين الناس بوصفه مجرد عادات يستجيب اليها كل فرد بدافع قوتها وحسب اختلاف وجهات النظر الشعبية ، وبدافع قوة العادة التى يمكن الاهتداء فى تفسيرها من خلال التقاليد الموروثة إن لم يكن هذا التفسير قد ضاع فى ظلام العصور القديمة . حقا ان بعض هذه العادات قد دون فى شكل مجموعة من القوانين الموجزة التى يحتوى كتاب العهد على جزء منها على الأقل فيما نعلم . ولكنه لا يبدو أن هذه القوانين كانت تقديساً رسمياً ، بل كانت مجرد كتب صغيرة توجد فى نطاق الملكية الخاصة . أما المصادر الحقيقية للقوانين فكانت تتمثل فيما يبدو ، فى هؤلاء الكهنة الذين كانوا يعيشون فى الأماكن المحلية المقدسة،

هؤلاء الذين نقلوا من جيل الى جيل تلك النظم الطقوسية والدينية التي تكاد ترتبط بها القوانين الأخلاقية كل الارتباط في المجتمع البدائي . فعندما كان الشك يساور الناس في عادة من العادات ، أو عندما كانوا يتنازعون حول شيء قانوني ، كانوا يلتمسون مشورة الكهنة الذين كانوا يصورون أحكامهم في كفاءة دون كفاءة القضاة العاديين ، وإن كانوا ينطقون بها على لسان الرب الذي كانوا يستخيرونه ويفسرون ارادته بالقرعة أو عن طريق وسائل أخرى من وسائل النبوءة . وهذه القرارات الشفاهية التي كان يصدرها الكهنة كانت تمثل القانون . وقد كانت هي « التوراة » في مغزاها الحقيقي سواء من الناحية التوجيهية أو التعليمية ، وذلك قبل أن تستخدم كلمة « التوراة » بمعناها الضيق لتدل في بادئ الأمر على القانون بصفة عامة ، ثم على القانون المدون في أسفار موسى الخمسة بصفة خاصة . على أن التوراة لم تكن في مغزاها الأصلي ، توجيهيا كان أو تعليميا ، قاصرة على تعاليم الكهنة ، بل كانت تتضمن فضلا عن ذلك تلك التعاليم والتحذيرات التي نطق بها الأنبياء بدافع اعتقادهم هم وسامعيهم في قدسيتها . ومن ثم فقد كانت هناك توراة تنسب للأنبياء ، وأخرى تنسب للكهنة وكلاهما اشتركا منذ بادئ الأمر ولعصور طويلة بعد ذلك ، في كونهما تعاليم شفاهية غير مدونة .

ولا يعد ظهور مجموعة قوانين سفر التثنية في صيغتها المكتوبة حلقة في تاريخ الشعب العبري فحسب ، ولكنه يعد حلقة في تاريخ الانسانية جمعاء . ذلك أن هذه القوانين المكتوبة تعد الخطوة الأولى في سبيل تدعيم الكتابة المقدسة ، وبالتالي كانت الخطوة الأولى في احلال الكلمة المكتوبة ، بوصفها النظام الأعلى الثابت للسلوك الانساني ، محل الكلمة المنطوقة . وقد كان من جراء اتمام هذه العملية عن طريق اكمال الشريعة في القرون التالية ، أن وضع الفكر الانساني في أغلال لم يستطع العالم الغربي أن يتخلص منها كلية منذ ذلك الحين . فقد كانت الكلمة المنطوقة من قبل حرة وبالتالي كان التفكير حرا ، حيث إن

الكلام لم يكن سوى أفكار في شكل أصوات وحروف منطوقة • وكذلك كان الأنبياء يتمتعون بحرية كاملة في الفكر والكلام لأن أفكارهم وكلماتهم كانت تستلهم من وحى الاله ، فيما كان يعتقد الناس • بل ان الكهنة كانوا أبعد ما يكونون التصاقا بالتراث • وعلى الرغم من أن الرب لم يكن يتحدث بألسنتهم ، الا أنهم هيئوا لأنفسهم ، بدون شك ، مجالا واسعا في تشغيل الجهاز النبؤى مستخدمين في ذلك طريقة القرعة ، أو أية وسيلة أخرى يمكن أن يتعطف بها الرب ويوضح رغبته للمستعلمين الملهفين • فلما خضعت النبوءات للكتابة أصبحت ثابتة ومعادة على نمط واحد ، أى أنها تحولت من مرحلة الانسياب الى الجمود ، ثم الى مرحلة التبلور بكل ما يتميز به هذا التبلور من ثبات ودوام • ذلك أن الحرف الميت حل محل الكلمة النامية الحية ، كما أن الكتابة جردت النبی بل والكاهن من خصائصهما حيث أن وظائف الكهنة لم تكن قربانية بل نبؤية • ومن ثم فقد أصبح بنو اسرائيل هم « شعب الكتاب » • أما الحكم والمعارف فلم تعد تستمد من الملاحظة المستقلة ، ولا عن طريق التأمل الحر في الانسان والطبيعة ، وانما أصبحت تستمد من الشروح المضافة الى الوثيقة المدونة • ولما أفسح المؤلف المجال للشارح ، كرست الموهبة الوطنية التي كانت سببا في نشأة الكتاب المقدس ، جهودها ، في كتابة التلمود •

واذا كان في وسعنا أن نؤكد بثقة كبيرة ، التاريخ الذى نشرت فيه شريعة سفر التثنية ، فانه ليس في وسعنا أن نحدد تاريخ تأليفها • وقد اكتشفت هذه الشريعة وذاعت في السنة الثامنة عشرة من حكم يوشيا (٦٢١ ق • م) ، ولا بد أنها كانت قد كتبت اما في الفترة السابقة على حكمه ، أو أنها ألقت في حكم خليفته « منسى » ، ذلك لأن الشواهد التى تتضمنها هذه الشريعة تؤكد أن تأليفها لا يمكن ان يكون أكثر قدما من هذا التاريخ ، وأنه من المؤكد أنها قد ألقت في القرن السابع ق • م • وفى العموم فان أكثر الفروض احتمالا تشير الى أن سفر التثنية قد كتب في عهد الملك « منسى » ، وأنه قد احتفظ

بها في أمان بعيدا عن الأعين بأمر من هذا الملك الشرير ، حتى قدر لها أن تخرج الى الوجود في أثناء عملية ترميم المعبد المقدس الذي قام به « يوشيا » الورع • حقا ان الشك قد ساور بعض الباحثين في بعض الأحيان في أن هذا السفر قد لفته كهنة المعبد الذين سعوا في احتيال بالغ في خداع الملك الطيب في أنه عمل بالغ في القدم • ولكن هذا الشك ربما بدا اجحافه وعنفه لأي فرد ينظر بعين الحق الى الاستعداد البالغ الذي هياه التشريع الجديد لاستقبال الحكام من خدمة الدين في اورشليم الذين سحبت الدولة اعترافها بهم ، وحرمتهم الكنيسة من أوقافهم وأصبحوا لذلك مشردين بلا مأوى ، ولم يكن أمامهم سوى أن يرحلوا الى العاصمة لكي يعيشوا في مستوى أقرانهم الحضريين ، ويتمتعوا بكل ما لمنصب الكهنة من تقدير مادي ومعنوي • ولن نكون مبالغين في حكمنا على رجال الدين الذين كانوا في اورشليم ، اذا افترضنا أنهم تمسكوا بالنظام القديم ، وأنهم لم يبدوا استعدادهم لفتح اذرعهم وجعبتهم لآخوانهم المحتاجين الوافدين عليهن من البلاد الا تحت ضغط القانون الصارم •

ومهما يكن جهلنا بمؤلف سفر التثنية ، فليس هناك مجال للشك في أنه كان مصلحا نزيها ، مدفوعا بدافع الحب الصادق لبلده ، ورغبة مخلصه في الاصلاح الديني والأخلاقي الخالص ، ذلك الاصلاح الذي كانت تتهدده الاعتقادات الخرافية والاسراف الشهواني اللذين اتخذ الناس من الأماكن المقدسة المحلية مجالا لممارستها • وسواء كان هذا المؤلف كاهنا أم نبيا ، فانه من الصعب علينا أن نقرر ذلك ، لأن سفر التثنية يخلط بوضوح بين المسائل الكهنوتية أو الشرعية بوجه عام ، بروح النبوة • وربما بدا من قبيل التأكيد أنه كتبه بدافع التأثير الملهم بكبار أنبياء القرن الثامن وهم عاموس وهوشع وأشعيا • ولما كان المؤلف اصطنع وجهة نظرهم في استعلاء القانون الأخلاقي فوق القانون الشعائري ، فقد قدم نظاما للتشريع أقامه على مبادئ دينية وأخلاقية وعلى التقوى والانسانية وعلى الحب المتبادل بين الرب

وشعبه وبين الناس بعضهم بعضا • وقد كان من الطبيعي ، لكى يقنع سامعيه وقراءه بهذه المبادئ ، أن يستغرق فى الانفعال الجاد بل الدفاع الشجوى الذى هو أقرب الى حيوية الخطيب وحماسه منه الى هدوء رجل القانون وصرامته • فالتأثير الذى يتركه على القارئ الحديث ، هو تأثير الواعظ الذى ينساب فى مجرى الخطابة المتقدمة أمام جمهور ساه يحتشد فى ممرات مدوية فى كنيسة واسعة الأرجاء • بل اننا نكاد نرى عينيه المضطربتين وملامحه المثلثة التى تلاحق نبرات صوته الجمهورى ، وهو يتردد تحت السقف المقبى ويدوى فى آذان المستمعين بانفعالات مختلفة تتراوح بين التأكيد المطمئن والأمل ، والحزن المؤثر والتوبة ، والفرع المسيطر واليأس • حتى اذا وصل الى النعمة العالية من التحذير المفرع والوعيد بغضب الرب البالغ ، وأتى الى الحديث عن الاثم والمعصية ، خفت صوته حتى يتلاشى نهائيا فى السكون • وليس فى العهد القديم منافس يقف مع هذه الخطيب على قدم المساواة ، كما لاحظ هذا بحق أحد النقاد الموقنين فى حسن ختام خطبته الذى عبر عنه بقوة انفعالية ثابتة •

وعلى الرغم من أن الاصلاح الذى كان يهدف اليه مؤلف سفر التثنية كان ينبع بدون شك من دوافع مخلصية وحماس بالغ فى تنفيذه ، فانه يحق لدارس فلسفة الأديان ، اذا ارتكز على وجهة نظر نظرية ، أن يعبر عن شكه فيما اذا كان تركيز العبادة فى مكان مقدس واحد كان يشير الى الرجعية لا التقدمية فى الدين • فاذا ارتكز فى شكه على وجهة نظر عملية ، فانه يحق له كذلك أن يعبر عن شكه فيما اذا كان هذا الاصلاح قد لازمه نوع من الاحساس بعدم الارتياح الذى اهتزت معه كفة مزاياء • ففكرة أن الرب لا يعبد عبادة حقيقية الا فى اورشليم ، تبدو من الناحية النظرية فكرة ساذجة ، بل هراء بالنسبة للعقول الحديثة التى ارتبطت بفكرة ان الله يعيش فى كل زمان ومكان ، ومن ثم يتسنى لعباده أن يعبدوه فى أى مكان وزمان • حقا ان الفكرة المجردة فى أن الرب موجود فى كل مكان من الأفضل أن يعبر عنها فى

عبادة الأماكن المقدسة المنتشرة في طول البلاد وعرضها ، أكثر من أن يعبر من خلال تقديسه في مكان مقدس واحد يشيد في العاصمة • وأما من الناحية العملية فإن الدين القديم قبل فترة الإصلاح ، كان يتمتع بميزات واضحة تفوق ميزات الدين الجديد • فالرب في ظل النظام القديم ، كان يسكن عند عتبة دار كل رجل ، إذا أمكننا أن نقول ذلك • ومن ثم فإن العابد كان يلجأ إليه في كل حالة يعاني فيها من شك أو متاعب أو أحزان أو آلام • أما في ظل النظام الجديد فلم يكن يتيسر له هذا الأمر • فلكى يصل الفلاح الى معبد أورشليم ، كان يتحتم عليه في كثير من الأحوال أن يتحمل مشقة السفر الطويل ، وهو نادرا ما كان يفعل هذا لانشغاله الدائم بعمله في مزرعته الصغيرة • وليس عجيبا بعد ذلك أن يتنهد في بعض الأحيان بعد أن فرض عليه النظام الجديد ، شوقا الى الناموس القديم • وليس غريبا أنه كان يعد تحطيم أماكنه المقدسة تدنيسا لها ، تماما كما قد يبدو للشعوب القديمة عندما كانت تحطم الأشجار العتيقة مثل أشجار الدردار والسدر « التي كانت تنام في ظلها المقدس » • فإذا كان يمكن لنا أن نتصور مدى افتقاد شعبنا البسيط الساذج في حزن لرأى البرج الرمادي الذي ألفوا رؤيته ، أو مرأى ذلك الصرح الذي يبرز بين الأشجار أو يطل من فوق التل ، إذا ما اختفى أمامهم ، فأننا يمكننا كذلك أن نتصور كيف كان المزارعون العبريون يصغون دون جدوى ، لصوت أجراس يوم السبت ، وهي تدق عبر الحقول وتدعوهم لاقامة الصلاة في بيت العبادة الذي كثيرا ما اجتمعوا فيه هم وأجدادهم لعبادة رب الجميع • انه يحق لنا أن نتصور أن المزارع العبري لم يكن يختلف أساسا عن احساس مزارعينا ، عندما هب عليه الإصلاح الديني كالاعصار ، مبتدئا من أطراف البلد • وربما كان قد أبصر بقلب مثقل محطى التماثيل الدينية وهم يهفون بفؤوسهم عليها هدمًا وتخريبًا • فهناك عند قمة التل وفي ظل شجرة البلوط ذات الأوراق — الكثيفة المنتشرة ، كان يقدم هو وآباؤه من قبل ، العام تلو العام ، بشائر المحصول الناضج ،

وبشائر عناقيد العنب الأرجوانية • وكم رأى بعينه الدخان الأزرق المتصاعد من الضحية في الهواء الساكن فوق الأشجار • وكم تصور أن الرب يسكن غير بعيد عنه ، ربما في صدع سحابة بعيدة هناك تنفذ فيها أشعة الشمس في بهاء يغلفه الضباب ، وربما كان موجودا هنا أو هناك على مقربة منه يستنشق رائحة الشواء الطيب ، فيباركه هو وثروته لأنه قدم له الضحية • أما بعد الإصلاح فقد أصبح يرى قمم التلال عارية ومنعزلة ، كما لم يعد يرى الأشجار القديمة التي طالما نشرت ظلالها فوق هذه التلال • وبالمثل لم يعد هناك أثر للعمود الرمادي القديم الذي طالما صب عليه قربان الزيت وأصبح مجرد قطع متناثرة من الأحجار • وهنا بدا له أن الرب قد هجره الى العاصمة ، ومن ثم فانه يتحتم عليه ان يرحل وراءه أينما وجدته • وربما كانت الرحلة اليه طويلة ومضنية ، بحيث لم يكن يتسنى لرجل الأقاليم أن يتحملها الا في ظروف نادرة • فقد كان يدلف فوق التل وفي الوادي الصغير حاملا معه قربانه حتى يصل الى اورشليم ، حيث يشق طريقه خلال شوارعها المزدحمة ويدفع بنفسه وسط ضجيجها المختلط • وهناك ينقظم مع كبشيه في صف طويل من المتعبدین الذين التهت أقدامهم من السير وكسا تراب الرحلة ملابسهم ، بينما يأخذ الكاهن الجزار الذي شمر عن اكمامه في ذبح الكباش الواقفة أمامه ، كل في دوره • حتى اذا أتى دور ذبح كبشيه ، فينسب دمه المتدفق الى بحر الدماء الذي يغطي فناء المكان المقدس • ومهما قيل له بأن هذا المكان المقدس أفضل من مكانه القديم ، ومهما تصور أن الرب نفسه يسكن في هذه الأبنية الجليلة والأقنية الفسيحة لكي يشاهد هذه الدماء المتدفقة ، ولكي يستمتع الى غناء كورس المعبد ، فان أفكاره كانت تعود به الى الورااء مصحوبة بما يشبه الحسرة على سكون قمم الجبال وظلال الأشجار العتيقة ، والمنظر الذي كان يشرف على الطبيعة الآمنة • ومع ذلك لابد أن يكون هؤلاء الكهنة أكثر منه حكمة ، ولابد أن يكون ما حدث قد تم بإرادة الرب • هذه الأفكار الساذجة هي التي ربما كانت تساور رجل الضواحي البسيط عند حجته الأولى لأورشليم بعد

اتمام الاصلاح الدينى • وربما لم يكن بعض سكان الضواحي قد رأى بهاء المدينة الكبيرة وفسادها السياسى الا لأول مرة ، لأننا نفترض أن مزارعى أرض الميعاد كانوا ملازمين لريفهم فى هذه الأيام ملازمة المزارعين الانجليز للاحياء البعيدة عن العاصمة • بل ربما عاش الكثير منهم ومات ، دون أن يبعد مرة واحدة عدة أميال ، عن قريته الأصلية •

ولكن فترة الاصلاح التى عاشتها مملكة يهوذا لم تدم طويلا ، اذ لم يكد يمر جيل واحد بعد وضع يوشيا للاصلاح الدينى والأخلاقي ، حتى كانت الجيوش البابلية قد زحفت الى اورشليم واستولت على المدينة وحملت معها الملك وزهرات شبابه الى الأسر • وبهذا كانت الأسباب التى دعت الى الاصلاح هى بعينها التى قضت عليه فى مهده ، ذلك لأننا لا نشك فى أن الخوف المتزايد من الغزو الأجنبى ، كان هو أحد الحوافز التى أيقظت الضمير اليهودى وشدت سواعد خير رجالهم لى ينقذوا أنفسهم قبل فوات الأوان ، والا استولى البابليون على المملكة الجنوبية ، فتلاقى نفس المصير الذى لاقته المملكة الشمالية ، عندما استولى عليها الآشوريون قبل ذلك بقرن من الزمان • ولكن السحب كانت قد أخذت فى الارتفاع تدريجيا من الشرق وغطت كل سماء أرض الميعاد • وكان الملك الورع ووزراؤه يعملون ، وشبح العاصفة يتهددهم ، وعودها يطن فى آذانهم ، بقصد اتمام الاصلاح الدينى الذى كانوا يأملون به أن يبعدوا به شبح الكارثة التى تلوح أمامهم • ذلك أنهم كانوا قد عزوا هذا الخطر الوطنى الى آثام قومهم التى تمثلت فى الاعتقاد الأعمى فى القوى الخارقة ، ذلك الاعتقاد الذى كان سر قوة السلوك الاسرائيلى ، بل سر ضعفهم أمام العالم ، ومن ثم فقد تصور هؤلاء المصلحون أنه من الممكن وقف غزو الجيوش الفاتحة عن طريق القضاء على العبادة الوثنية وعن طريق انشاء نظام أفضل لشعائر العبادة • ويبدو أنهم لم يطرأ ببالهم قط ، عندما تهدد الخطر استقلالهم السياسى ، أن يعمدوا الى استخدام الأسلحة المادية التى يمكن أن يلجأ اليها بالفطرة فى مثل هذه الظروف الخطيرة ،

من هم أقل منهم تدينا ، فبناء الجصون وتقوية أسوار أورشليم ،
وتمرين الرجال وتسليحهم ، والبحث عن عون أصدقائهم من الأجانب ،
كل هذه الأمور التي تملئها الفطرة السليمة على العقل الوثنى ، لم تكن
تبدو لليهودى ، سوى خيانة ليهوه الذى يستطيع وحده أن ينقذ شعبه
من أعدائه . حقا لقد كان العبريون القدماء لا ينظرون الى مجريات
الأمور الطبيعية فى حوادث التاريخ ، الا كما ينظر الى سقوط الأمطار
وهبوب الرياح وتغيرات الفصول . وحسبه أن يتلمس فى هذه الحوادث
بصمات الرب كما يتلمسها فى أحوال الطبيعة . وهذا القبول الهادى
لتفسير كل الأمور كليا من خلال وساطة القوى الخارقة ، كان عقبة
كثودا فى سبيل الوصول الى الاتفاق الهادى فى حجرة المداولات فيما
يتعلق بالأمور السياسية ، تماما كما يمكن أن يكون عقبة فى طريق
الفحص العلمى الهادى للأحوال الطبيعية .

على أن ثقة اليهودى لم تهتز على الإطلاق فى التفسير الدينى
للتاريخ ، عندما فشل يوشيا فى اصلاحه الدينى الذى كان يهدف من
ورائه تجنب الكارثة الوطنية . بل ان ثقتهم فى أهمية الطقوس الدينية
وفى الشعائر ، بوصفها الأساس الأول للرخاء الوطنى بصرف النظر عما
اعترى هذه الثقة من ضعف نتيجة انهيار الاصلاح والمملكة معا ، قد
أكدتها الكارثة فيما يتراءى لنا تماما . فبدلا من أن يثور الشك فى
نفوسهم ازاء هذه الحكمة المتقنة للمعايير الدينية التى كانوا قد تبناها ،
فقد انتهوا الى أن ما حدث كان نتيجة عدم تنفيذهم تلك المعايير كما
ينبغى . ومن ثم فانهم ما كادوا يستقرون فى أسرهم فى بابل ، حتى
طالبوا أنفسهم بنظام أكثر دقة فى تأدية الشعائر الدينية التى كانوا
يأملون عن طريقها أن يكتسبوا محبة الرب ، فيخرجهم من منفاهم
ويعيدهم الى أرضهم . وقد وضع حزقيال التخطيط الأول للنظام
الجديد فى منفاه عند نهر خيبر . ولا بد أن حزقيال الذى كان كاهنا
بقدر ما كان نبيا ، كان على علم بشعائر الأماكن المقدسة الأولى . ومما
لاشك فيه كذلك أن النظام الذى اقترحه ليكون برنامجا مثاليا للاصلاح

الدينى فى المستقبل ، كان يركز على خبرته السابقة • ولهذا فقد كان هذا النظام يشتمل على ما هو جديد بقدر ما كان يشتمل على كثير من الشعائر القديمة ، فقد طالب بمزيد من الشعائر المقدسة البسيطة ، ومزيد من التضحية الخاشعة ، ومزيد من الفصل بين خدمة الدين وجمهور المؤمنين ، ومزيد من العزل التام بين المعبد وما يحيط به وبين اتصال الوثنيين به • وقد كان التعارض بين حزقيال الذى عاش بعد فترة السبى البابلى وبين الأنبياء الكبار الذين عاشوا قبل هذا السبى ، شاذًا ، بينما نجد السالفين قد ركزوا اهتمامهم حول تعليم الفضيلة الأخلاقية ، وراعوا الأفكار الطقوسية والشعائرية بوصفها الوسيلة الوحيدة التى يستطيع الإنسان أن يكسب بها رضا الرب ، نجد أن حزقيال قد عكس العلاقة بين هذين الأمرين ، فلم يكن لديه الكثير ليقوله عن المثل الأخلاقية ، بينما كان عنده الشيء الكثير ليقوله عن الشعائر • وقد طور المفكرون وكتاب المدرسة الكهنوتية البرنامج الذى نشره حزقيال فى السنوات الأولى من السبى واستمر تطوره حتى بعد النكسة بأكثر من قرن من الزمان ، عندما جعل منه عزرا فى اورشليم عام ٤٤٤ ق.م. النظام المتفتح للقانون اللاوى • والوثيقة التى تحتوى على ثمرة هذا العمل والفكر هى القانون الكهنوتى الذى يكون اطار أسفار موسى الخمسة • ومع ظهور هذا القانون تبدأ الفترة اليهودية ، كما تم عن طريقه تحول بنى اسرائيل من أمة الى مؤسسة دينية • وهذا القانون الكهنوتى الذى دون على الحجر المائل فى واجهة معبد اورشليم ، يكون الجزء الثالث والأخير من مجموعات القوانين التى ميزها النقاد فى أسفار موسى الخمسة • ومن أهم الآراء التى أعلنها النقاد المحدثون فيما يتعلق بالعهد القديم ، هو تأخر ظهور هذا القانون •

الفصل الثاني

لا تطبخ الجدى فى لبن أمه

من الطبيعى أن يفاجأ القارىء عندما يجد بين وصايا الرب المقدسة التى جهر بها للإسرائيليين القدماء ، الوصية الثالثة « لا تطبخ جديا بلبن أمه » • ولن تقل دهشة القارىء عندما يدرس بعناية فقرة من الفقرات الثلاث التى دونت فيها هذه الوصية ، بل ان دهشته تبلغ عند ذاك ذروتها • ذلك أنه يبدو أن نص هذه الفقرة يشير ، كما سبق أن ذكر ذلك بعض النقاد المرموقين ، وهم جوته ومن سبقه ، أن هذه الوصية كانت فى الحقيقة احدى الوصايا العشر الرئيسية • وهذه الفقرة تقع فى الاصحاح الرابع والثلاثين من سفر الخروج • فهناك فى هذا الاصحاح حكاية تشير الى أن الرب قد أوحى الى موسى مرة أخرى بالوصايا العشر ، بعد أن حطم موسى الألواح الحجرية الأولى التى كانت قد كتبت عليها الوصايا لأول مرة ، وذلك عندما ثار على قومه بسبب عبادتهم للأوثان • ومن ثم فإن الوصايا التى تقدم فى هذا الاصحاح هى نسخة ثانية من الوصايا العشر الأولى • ومما يؤيد هذا القول ويبيعه عن كل شك تلك الآيات التى ترد قبل وبعد تقديم الوصايا • ويبدأ هذا الاصحاح على النحو التالى : « ثم قال الرب لموسى انحت لك لوحين من حجر مثل الأولين • فأكتب أنا على اللوحين الكلمات التى كانت على اللوحين الأولين اللذين كسرتهما » • (سفر الخروج الاصحاح الرابع والثلاثون الآية الأولى) • ثم يتبع هذا حكاية مقابلة الرب لموسى فوق جبل سيناء واملأته موسى الوصايا العشر مرة أخرى • حتى اذا أتينا الى قرب نهاية الاصحاح فاننا نقرأ : « وقال الرب لموسى أكتب لنفسك هذه الكلمات ، لأننى بحسب هذه الكلمات

قطعت عهدا معك ومع اسرائيل • وكان هناك عند الرب أربعين نهارا وأربعين ليلة لم يأكل خبزا ولم يشرب ماء • فكتب على اللوحين كلمات العهد الكلمات العشرة • (سفر الخروج ، الاصحاح الرابع والثلاثون من آية ٢٧ — ٢٩) • وقد لا يتطرق إلينا شك بعد ذلك في أن كاتب هذا الاصحاح يقصد بالكلمات العشر ، وصايا موسى العشر ••

وهنا تبرز لنا مشكلة وهي أن الوصايا التي دونت في هذا الاصحاح لا تتفق كلية مع النص الأكثر ذيوعا للوصايا العشر المدون في الاصحاح العشرين من سفر الخروج ، وهي تلك الوصايا التي نقرأها مرة أخرى في الاصحاح الخامس من سفر التثنية • وفضلا عن ذلك فإن الوصايا المدونة في الاصحاح العشرين من سفر الخروج التي هي موضوع بحثنا ، لم تدون على نحو ما دونت به الوصايا الأولى من ايجاز ودقة ، بحيث أنه يمكن التمييز بين الروايتين تمييزا تاما • على أن مشكلة التمييز بين الروايتين لا تتضاءل بل هي بالأحرى تتزايد عندما نجد أن « كتاب العهد » الذي يعرفه النقاد المحدثون بوصفه أقدم مجموعة من القوانين التي تشتمل عليها أسفار موسى الخمسة ، يشتمل على رواية مزدوجة لهذه الوصايا • وبينما يضيف كتاب العهد صعوبة أخرى في سبيل إزالة الابهام عن هذه الوصايا ، فإن اشتماله على الرواية المزدوجة يقدم في الوقت نفسه دليلا جديدا على أصالة الرواية القديمة للوصايا العشر التي تتضمن الوصية المعنية وهي : « لا تطبخ جديا بلبن أمه » •• ولا يختلف النقاد حول الرواية القديمة للوصايا العشر من حيث الكم ، ولكنهم يختلفون فحسب في توضيح وصية أو وصيتين من تلك الوصايا كما يختلفون في ترتيب الوصايا الأخرى • وفيما يلي عدد الوصايا التي قدمها ك • بودي في كتابه (تاريخ الأدب العبري) ، التي يعتمد في سردها على نص الوصايا العشر كما وردت في الاصحاح الرابع والثلاثين من سفر الخروج • ولكنه بالنسبة لوصية واحدة فضل رواية الوصايا العشر التي وردت في كتاب العهد •

١ - لا تعبد من دوني الهة آخر •

- ٢ — لا تصنع لنفسك آلة مسبوكة •
- ٣ — لى كل فاتح رحم •
- ٤ — ستة أيام تعمل ، أما اليوم السابع فتستريح فيه •
- ٥ — اجعل عيد الخبز غير المختمر فى الشهر الذى ينضج فيه
الذرة •
- ٦ — وتصنع لنفسك عيد الأسابيع أبكار حصاد الحنطة وعيد
الجمع فى آخر السنة •
- ٧ — لا تذبح على خمير دم ذبيحتى •
- ٨ — ولا تبت الى الغد ذبيحة عيد الفصح •
- ٩ — أول أبكار أرضك تحضره الى بيت الرب الهك •
- ١٠ — لا تطبخ جديا بلبن أمه •

ويتفق الوصايا التى عرضها « فيلهاوزن » من حيث العدد مع هذه الوصايا فيما عدا أنه حذف وصية : « ستة أيام تعمل ، أما اليوم السابع فتستريح فيه » ، كما أنه عرض وصية « وتصنع لنفسك عيد جمع الحنطة فى آخر السنة » بوصفها وصية منفصلة عن الجزء الأول المرتبط بها •

ويتفق الأستاذ ر • ه • كينيت بوجه عام مع « بودى » و « فيلهاوزن » فى عدد هذه الوصايا ، ولكنه يختلف عن « بودى » فى اعتبار وصية عيد حصاد الحنطة بوصفها وصية مستقلة ، كما يختلف عن « فيلهاوزن » فى صيغة وصية يوم الراحة الأسبوعى • كما يختلف معهما فى اعتماده على رواية الفصل الرابع والثلاثين من سفر الخروج • وها هى ذى نص الوصايا العشر عند « كينيت » ، وما نضعه بين الأقواس يعد زائدا عن رواية سفر الخروج •

- ١ — (أنا يهوه الهك) • لا يكن لك آلهة أخرى أمامى •
- ٢ — تحفظ عيد الفطير • سبعة أيام تأكل فطيرا كما أمرتك •

- ٣ - لى كل فاتح رحم وكل ما يولد ذكرا من مواشيك بkra من
ثور وشاة •
- ٤ - يوم السبت لى • ستة أيام تعمل وأما اليوم السابع
فتستريح فيه •
- ٥ - وتصنع لنفسك عيد الأسابيع أبكار حصاد الحنطة •
(آية ٢٢) •
- ٦ - وعيد الجمع (تحتفل به) فى آخر السنة •
- ٧ - لا تذبح على خمير دم ذبيحتى ، ولا تبت الى الغد ذبيحة
عيد الفصح •
- ٨ - (ولا يبيت شحم عيدى الى الغد) « سفر الخروج اصحاح
٢٣ آية ٢٥ » « سفر الخروج - الاصحاح ٣٤ الجزء الثانى من آية
٢٥ ، ويقتصر ذلك على عيد الفصح » ••
- ٩ - أول أبكار أرضك تحضره الى بيت الرب الهك (آية ٢٦) •
- ١٠ - لا تطبخ جديا بلبن أمه (آية ٢٦) •

وأيا كانت الرواية التى نفضلها بين روايات الوصايا العشر ، فان
اختلافها جميعا عن الرواية المعروفة لدينا ، يثير دهشتنا • ففى
الروايات التى أشرنا اليها تختفى القيم الأخلاقية كلية • اذ أنها تشير
جميعا بدون استثناء الى أمور تتعلق بالشعائر ، أى أنها وصايا دينية
بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، فهى تتعرض فى دقة وبطريقة تثير الشك
الى صغائر الأمور • أما عن العلاقة بين الانسان والرب وبين الانسان
والانسان ، فليس هناك شئ يذكر بهذا الصدد • وعلاقة الرب بالانسان
وفقا لهذه الوصايا أشبه بعلاقة السيد الاقطاعى بأتباعه ، فهو يفرض
عليهم أن يؤدوا له حقه ، بله أتفه مظاهر هذا الحق • ولكنه لا يهتم بعد
ذلك بعلاقة هؤلاء الأتباع بعضهم ببعض ، طالما أن هذه العلاقة ليست
لها صلة بالجزية التى يدفعونها له • وكم تختلف هذه الوصايا مع الوصايا
الست التى تقع فى الاصحاح العشرين من سفر الخروج وهى : « أكرم
أباك وأمك • لا تقتل • لا تزن • لا تسرق • لا تشهد على قريبك

شهادة زور • لا تشته بيت قريبك • لا تشته امرأة قريبك ولا عبده
ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئاً مما لقريبك » •

فاذا تساءلنا ، أى هاتين الروايتين المختلفتين للوصايا العشر أكثر
قدماً ، فإن الإجابة عن ذلك لن تكون مثيرة للشكوك • وكم يقر بالنا اذا
افترضنا ، معارضين فى ذلك الروايات المتشابهة ، أن الوصايا الأخلاقية
التي كانت فى الأصل تكون جزءاً من القانون القديم ، قد حذفت منه
لتفسح المجال لوصايا تختص بمجرد اشارات الى شعائر بعينها • أليس
من المحتمل على سبيل المثال أن وصية « لا تسرق » قد حذفت من
الرواية الأصلية وحلت محلها وصية : « ولا يبيت شحم عيذى الى
الغد » ؟ وان وصية « لا تقتل » قد استبدلت بوصية « لا تطبخ جدبا
بلبن أمه » ؟ • ولكن مجرى التاريخ البشرى جميعه لا يدعم هذا
الفرض ، فكل الاحتمالات تؤيد ان الرواية الأخلاقية للوصايا العشر ،
اذا تسنى لنا أن نسميها كذلك ، حيث أن الاتجاه الأخلاقى يكون أهم
عناصرها ، كانت متأخرة عن الرواية الشعائرية • ذلك أن الاتجاه العام
لتيار المدنية ، كان ولا يزال ، بل ونأمل أن يظل هكذا فى المستقبل ،
ينحو نحو تأكيد سمو القيم الأخلاقية فوق الشعائر • وقد كان هذا
التأكيد الدافع الأول لتعاليم الأنبياء العبريين أولاً ، وتعاليم المسيح
ثانياً • ومن ثم فأننا لن نكون مخطئين اذا افترضنا أن التغير الذى
اعتري الوصايا العشر من الاتجاه الشعائرى الى الاتجاه الأخلاقى ،
قد تم بتأثير أحد الأنبياء •

على أنه اذا جاز لنا أن نفترض ، ونحن مطمئنون لهذا الفرض
فيما اعتقد ، ان الرواية الشعائرية للوصايا العشر هي أقدم الروايتين ،
فمازال علينا أن نتساءل : لماذا كانت وصية تحريم طبخ الجدى بلبن
أمه من الأهمية بمكان ، بحيث أنها احتلت مكاناً فى قانون العبريين
البدائى ، بينما استبعدت عن هذا القانون تلك الوصايا التي تبدو لنا
أكثر أهمية بحق ، مثل تحريم القتل والسرقة والزنا ؟ » فهذه الوصية
شكلت صعوبة فى طريق نقاد العهد القديم ، كما أنهم تعرضوا لتفسيرها

من وجوه نظر متعددة • فقد قيل أنه قلما يوجد في التشريع الشعائري بأسره قانون أصر عليه الإله أو أساء الناس استعماله كل الاساءة مثل قانون تحريم طبخ الجدى بلبن أمه • فمثل هذه الوصية التي حرص الرب أو المشرع بوجه عام على أن يطبعها في أذهان الناس ، لهي جديرة منا بدراسة متأنية • وإذا كان الشارحون قد فشلوا حتى اليوم في تأكيد مغزاها الحقيقي ، فربما كان هذا يرجع الى وجهة النظر التي استخدموها في تفسيرها ، أو كان يرجع الى نقص المعلومات التي اعتمدوا عليها ، أكثر مما يرجع الى صعوبة حقيقية في المشكلة نفسها • فالافتراض الذي لقي رواجا في كل من العصور القديمة والحديثة والذي مؤداه أن هذه الوصية هي إحدى الوصايا التي تدل على الانسانية المهذبة ، يتعارض مع فحوى الوصايا بوصفها كلا ، وهي تلك التي تتضمن هذه الوصية • فالمشرع الذي لم يلتفت قط الى مشاعر الناس ، كما يبدو هذا من سائر الوصايا العشر البدائية ، لا يبدو أنه قد التفت لمشاعر الأمومة عند الفعاج ، ومن ثم فانه أولى لنا أن نتبنى وجهة نظر أخرى ، وهي أن هذا التحريم كان موجها ضد بعض الشعائر السحرية أو الوثنية التي رفضها المشرع وسعى في القضاء عليها • وقد ساند هذا الرأي بعض الدارسين المرموقين ابتداء من « مايمونديس الى » و « روبرتسون سميث » ، بوصفه أكثر الآراء احتمالا ، وأن كان هذا الرأي لا يركز على أى شاهد ايجابى ، حيث انه لا يمكن الاعتماد في كثير أو قليل على عبارة ينقصها الدليل تروى عن كاتب مجهول عاش في القرون الوسطى ، ويعد أحد أفراد الطائفة القرائية (١) • وقد ذكر هذا الكاتب « انه كان من عادة الوثنيين القدماء ، عندما كانوا يجمعون المحصول ، أن يطهوا الجدى في لبن أمه ، ثم يرشون اللبن على الأشجار والحدائق وبساتين الفاكهة ، بوصفه طقسا سحريا ، معتقدين بذلك أن هذه الأشجار تمنحهم مزيدا من الثمار في العسام التالي » • وربما كان هذا التفسير سليما طالما كان يشير الى تصور خرافي يعد

(١) مذهب يهودى نشأ في بغداد في القرن الثامن الهجرى قوامه رفض التمسك بسنة التلمود . (المترجمة) •

أساس هذا التحريم • ومن ثم يجدر بنا أن نتساءل عما إذا كان من الممكن اكتشاف ما يشبه هذا التحريم مدعماً بالأسباب ، بين القبائل الرعوية البدائية التي تعيش في العصر الحاضر ، ذلك لأنه يبدو من ظاهر هذا التحريم أنه ينتشر بين الشعوب التي تعتمد في حياتها على تربية قطعان الماشية أكثر من تلك التي تعتمد على الزراعة •

ويبدو أن القبائل الرعوية التي تسكن في أفريقيا تنفر في العصر الحاضر من غلى ألبان ماشيتهم • وهذا النفور متمكن من نفوس الناس وينتشر في الوقت نفسه على نطاق واسع • وهو يرتكز على الاعتقاد في أن البقرة التي يغلى لبنها تكف عن ادرار اللبن بعد ذلك • بل وربما مات الحيوان نتيجة الحاق الأرواح الشريرة الأذى به ، إذا لم يتجنب هذا التحريم • كما أننا نرى أنه على الرغم من أن لبن الأبقار والزبد الذي يصنع من هذا اللبن يعدان الغذاء الرئيسى للمسلمين الذين يسكنون « سيراليون » وما جاورها من الأماكن ، فإنهم يمتنعون عن غلى اللبن خوفاً من أن يجف لبن البقرة التي أخذ منها هذا اللبن • بل إنهم لا يبيعون اللبن لمن تعود أن يغليه • وتتبع قبيلة « بالوم » مثل هذا التحريم فيما يختص بالبرتقال ، فهم لا يبيعون البرتقال لمن يرمى قشره في النار « لئلا يتسبب هذا في اسقاط الثمار التي لم تنضج بعد » • وهنا يبدو أن تحريم غلى اللبن عند الشعوب السالفة الذكر يرتكز على أساس السحر التعاطفى ، فهم يفترضون أن اللبن ، حتى بعد أن يحلب من البقرة يظل مرتبطاً بالحيوان بعلاقة حية ، بحيث أن البقرة صاحبة اللبن تضار ، بدافع التعاطف بمثل الاساءة التي أسىء بها لبنها • ومعنى هذا أن غلى لبن البقرة في الوعاء يساوى تماماً غليه في ضرعها ، وهذا من شأنه يجعل لبن البقرة يجف في مكانه الطبيعى • وهذا التفسير تؤكدته معتقدات المسلمين والمراكشيين ، وإن كان هذا التحريم يقتصر على وقت محدد ، هو الوقت الذى يعقب ولادة العجل مباشرة • فهم يعتقدون أن « اللبن إذا غلى فوق النار في تلك الفترة ، فإن البقرة تصاب بمرض في ضرعها ، أو أنها تكف عن ادرار اللبن أو أن

نسبة الدسم تقل في لبنها • فإذا حدث أن سال اللبن الذي حلب من البقرة لأول مرة في النار ، فانه من المحتمل أن يموت العجل أو تموت البقرة • وعند قبيلة « آيت ورياغل » يجب ألا يغلى لبن البقرة الذي حلب منها بعد ثلاثة أيام من ولادتها العجل ، ويظل غليه محرما حتى ينقضى أربعون يوما على الولادة • فإذا غلى اللبن في هذه الفترة فانه من المحتمل أن تموت البقرة ، أو أن لبنها لا يعطى سوى كمية قليلة من الزبد » • وهنا نلاحظ أن تحريم غلى اللبن ليس تحريما كلياً ، وإنما يقتصر على فترة معينة بعد ولادة العجل ، يعتقد أن البقرة تكون في أثنائها على علاقة عاطفية مع عجلها ومع لبنها أكثر من أى وقت آخر • فالتحديد هنا اذن له مغزاه وهو يؤكد تفسير منع غلى اللبن بصفة عامة ، أكثر مما يضعفه • ويتأكد التفسير أكثر من ذلك من خلال الاعتقاد الخرافى فيما تصاب به الأبقار اذا ما سقط لبنها في النار • واذا حدث هذا في الأوقات العادية فانه يعتقد أن البقرة أو لبنها يصاب بضرر • أما اذا حدث هذا بعد ولادة العجل بزمن قصير ، عندما يكون اللبن متجنبنا كثيفا ، فانه من المتوقع ، وفقا للعقيدة ، أن يموت العجل أو تموت البقرة • ومن الواضح أن الفكرة في ذلك أنه اذا سال لبن الحلبة الأولى بعد الولادة على النار في مثل هذا الوقت الحرج فانه يماثل تماما سقوط البقرة نفسها أو عجلها في النار وموت أحدهما حرقا • وهكذا تتمثل علاقة المشاركة بين البقرة وعجلها من ناحية ، وبينها وبين لبنها من ناحية أخرى • ويتضح مجرى هذا التفكير من خلال خرافة مشابهة لهذا تنتشر بين قبيلة « نورادجا » التى تسكن « سيليبيس الوسطى » فهذه القبيلة تستخدم نبيذ البلح على نطاق واسع ، كما تستخدم رواسب الخمر خميرة في طهى الخبز • ولكن بعض بطون القبائل ترفض استخدام هذه الرواسب من أجل السبب الذى يرفض الأوربيون استخدامها وهو الخوف من أن النخلة التى يستخلص النبيذ من ثمارها ، لا تقدم مزيدا من عصارات النبيذ ، ومن الممكن أن تجف اذا ما تعرضت رواسب الخمر للنار في أثناء عملية طهيها • ويشبه تحريم تعريض رواسب الخمر للنار حتى لا تجف النخلة التى يستخلص من ثمارها

الخمير ، يشبهه تماما تحريم تعريض القبائل الأفريقية اللبن لحرارة النار ، حتى لا يجف زرع البقرة التي يحلب منها اللبن أو حتى لا تتعرض في الحقيقة للموت • كما يشبه هذا أيضا معارضة قبيلة « بولوم » لرمى قشر البرتقال في النار لئلا تحترق شجرة البرتقال التي جمع منها هذا البرتقال مشاركة للقشر المحترق فتسقط ثمارها أثر ذلك •

وعادة تحريم غلى اللبن خوفا من اصابة الابقار بأذى ، قاسم مشترك بين القبائل الرعوية التي تسكن في وسط افريقيا وشرقها • فعندما قام « سبيك » و « جرانت » برحلتها الشهيرة من زنجبار الى منابع نهر النيل ، مرا باقليم « أوكوني » الذي يقع جنوب بحيرة فيكتوريا نيانزا • وكان ملك البلد يعيش في قرية « نوندا » ويملك ثلاثمائة بقرة حلوب • ومع ذلك فقد كانت مشكلة شراء اللبن تواجهها كل يوم • وقد كنا نضطر الى غلى لبننا حتى نحفظ به سليما خوفا من اليوم التالي • وقد كان الاهالي يعارضوننا في غلى اللبن وفقا لعاداتهم ، ويقولون : « ان البقر سيكف عن ادرار اللبن ان فعلتم هذا » • وبالمثل يخبرنا « سبيك » أنه قد تسلم قدرا من اللبن من بعض نساء « داهوما » (باهيما) اللاتي قام بعلاجهن من رمد في عيونهن • وهو يضيف الى ذلك قائلا : « على اننى لم أكن أتمكن من غلى اللبن الا سرا والا كفت الابقار عن ادرار اللبن بدعوى أن غلى اللبن يعد رقية أو سحرا تمرض بتأثيره الابقار ويجف لبنها » • وغلى اللبن عند قبيلة ماساي التي تسكن في شرق افريقيا التي تعيش أو كانت تعيش على الرعى وعلى منتجات قطعان ماشيتها أو أبقارها « يعد اساءة شائنة يمكن أن تكون سببا كافيا لاعمال القتل في قافلة من القوافل • ذلك أنهم يعتقدون أن غلى اللبن يتسبب في أن تكف الأبقار عن ادراره » وبالمثل كانت تعتقد قبيلة « باجندا » التي تسكن وسط افريقيا أن غلى اللبن يجعل البقرة تكف عن ادراره • ولم يكن يسمح لأى فرد أن يغلى اللبن الا في حالة واحدة هي : « عندما تحلب البقرة لأول مرة بعد أن تضع وليدها • يسلم اللبن للصبي المكلف بالرعى الذي

يحملنه بدوره الى أى مكان فى المرعى حيث يطلع رفاقه من الرعاة على البقرة وعجلها • ثم يأخذ الصبى فى غلى اللبن ببطء حتى يجمد • وعندئذ يأخذ هو ورفاقه فى أكله • وهذه القاعدة واستثناءؤها تنتشر بين قبيلة « باهيما » أو « بانبييانكولى » ، وهى قبيلة رعوية تسكن وسط افريقيا • « فاللبن لا ينبغى أن يغلى حيث أن الغلى يضر بصحة الابتقار ، وربما تسبب فى موت بعضها ولكنه يغلى لاستخدامه فى بعض الشعائر ، وذلك عندما يسقط الحبل السرى عند الوليد • ثم يصبح لبن البقرة الذى كان مقدسا حتى ذلك الوقت عاديا • فاللبن الذى يحلب من البقرة التى وضعت وليدها حديثا يعد محرما لعدة أيام حتى يسقط الحبل السرى عن العجل الوليد • وفى هذه الاثناء يرحل فرد من أفراد الاسرة ليشرب اللبن • ولكن عليه أن يراعى ألا يلمس لبنا يحلب من بقرة أخرى » • وكذلك « يعد اللبن الذى يحلب من البقرة فى الاسبوع الاول بعد ولادتها محرما » عند قبيلة « ثونجا » وهى قبيلة من قبائل البانتو وتسكن فى جنوب شرق افريقيا • فلا ينبغى أن يمزج بأى لبن يحلب من أبقار أخرى حيث ان الحبل السرى لم يكن قد سقط عن العجل الوليد بعد • ومع ذلك فمن الممكن أن يغلى اللبن وأن يشربه الأطفال ، حيث ان الأطفال يخرجون عن مجال التحريم • وبعد ذلك لا يغلى اللبن على الاطلاق ، لا لأن هناك شيئا محرما يخشونه ولكن لأنه ليس مألوفًا • ولم يقدم الاهالى تفسيرًا واضحًا لمحرقات اللبن • ومن المحتمل أن قبيلة « ثونجا » قد نسيت الاسباب الرئيسية لهذه القيود المألوفة فى استعمال اللبن ، حيث ان بلادهم تقع فى الاقليم التابع للبرتغال ، وبالقرب من خليج « ديلاجوا » ، وكانت منذ قرون على صلة بالأوروبيين • ومن الطبيعى بناء على ذلك أنها تعيش فى أحوال أقل بدائية من سائر قبائل وسط افريقيا التى كانت تعيش حتى منتصف القرن التاسع عشر منعزلة كلية عن التأثير الاوروبى • ولكننا عندما نقارن عادات هذه القبائل الرعوية التى احتفظت بأفكارها البدائية وعاداتها مع تغيير بسيط فيها نتيجة انعزالها ، بعادات قبيلة ثونجا ، فاننا ننتهى فى شئ من التأكيد أن

الدافع الرئيسى وراء تحريم غلى اللبن عند قبيلة « ثونجا » كذلك ، هو الخوف من اىذاء الابقار التى تستمد منها اللبن عن طريق المشاركة السحرية .

فاذا رجعنا الى قبيلة « باهيما » التى تسكن فى وسط افريقيا ، فأننا نجدهم يصرحون بقولهم : « ان الاوربي اذا مزج اللبن بالشاي ، فإنه يتسبب فى قتل البقرة التى تدر اللبن » . وتنتشر بين هذه القبيلة أفكار غريبة تتصل بدرايتهم بالابقار وبطريقة التصرف فى ألبانها . فمن المؤلف أن نسمع عن رجل يملك قطعيا من الماشية أخبارا أسطورية مثل « رفض بقرة ما لادرار اللبن نتيجة غلى لبنها » . وهذه العبارة الأخيرة من المحتمل أنها تشير الى سوء فهم طفيف عن فكرة المواطنين حول هذا الموضوع . ولكننا نستطيع عن طريق المقارنة أن نحكم بأن هذه القبيلة تعتقد فى أن البقرة لن تكف عن ادرار اللبن ، لأنها لن ترضخ لذلك ، وانما لعدم قدرتها على ذلك ، حيث أن ضرعها يجب بتأثير الحرارة التى غلى فوقها لبنها . وكذلك نجد عند قبيلة « بانيورو » وهى قبيلة رعوية أخرى تسكن وسط افريقيا أن القاعدة هى : « ألا يغلى اللبن ولا يدفأ على النار خوفا من الاذى الذى يصيب القطيع على هذا النحو » . ومثل هذا يحدث بين قبيلة « صومالى » التى تسكن فى شرق افريقيا ، « اذ يحرم غلى لبن الجمال خوفا من اصابتها بالسحر . وتنتشر عادة تحريم غلى اللبن من أجل هذا السبب فيما يبدو ، بين الجاليين الجنوبيين الذين يسكنون المنطقة نفسها ، كما تنتشر بين قبيلة « ناندى » التى تسكن شرق افريقيا ، وقبائل « الواجوجو » و « الواميجى » و « الواهومبا » التى كانت تعيش حتى زمن متأخر فى شرق افريقيا الالمانى . ومن بين القبائل التى تسكن السودان المصرى البريطانى ، يرفض الهاونداوانيون غلى اللبن وتشاركهم قبيلتنا أرتيجا وأشرف هذا الفعل » وقد قيل ان مثل هذا الاعتقاد فى العلاقة التعاطفية بين « البقرة ولبنها الذى تدره يعيش بين بعض الشعوب المتأخرة فى أوربا حتى العصر الحاضر . فعندما

يغلى « الاستثونيون » اللبن الذي تدره البقرة لأول مرة بعد الولادة يوضع خاتم من الفضة أو يوضع صحن أسفل وعاء الحلب قبل أن يجلب فيه اللبن • وهم يفعلون هذا « حتى يظل ضرع البقرة سليما ولا يفسد لبنها » • ويعتقد هؤلاء كذلك « أن اللبن اذا سال على النار في أثناء غليه فان ضرع البقرة يصاب بمرض » • وبالمثل يعتقد مزارعو بلغاريا أن « اللبن إذا سال على النار في أثناء غليه ، قلت كمية اللبن التي تدرها البقرة ، وربما كفت البقرة عن ادراجه كلية » • وعلى الرغم من أنه ليس هناك اعتراض على غلي اللبن في هذه الأحوال الأخيرة ، إلا أن هذه الشعوب تتشائم من تدفق اللبن فوق النار واحتراقه ، لأن اللبن المحترق ، وفقا لاعتقادهم ، يصيب البقرة صاحبة هذا اللبن بأذى ، أما عن طريق ايداء ضرعها أو يحول بينها وبين ادراج اللبن • ولقد سبق أن رأينا أن الموريين في مراكش يصطنعون بدقة مثل هذه الأفكار • ولسنا في حاجة لأن نفترض أن هذا التصور الخرافي قد انتقل من مراكش الى بلغاريا ثم الى استونيا أو انتقل على العكس من استونيا الى بلغاريا ثم الى مراكش ، إذ أنه من الممكن أن تنشأ مثل هذه التصورات مستقلة في هذه البلاد الثلاث في شكل هذه القوانين الأولية نتيجة ترابط الافكار التي عرفتھا العقول الانسانية جمعاء ، وهي تلك الافكار التي تركز على أساس الاعتقاد في سحر المشاركة • وربما فسر مجرى هذا التفكير عقيدة الاسكيمو في تحريم غلي الماء داخل البيت في أثناء القيام بصيد سمك السلامون « لأن ذلك يضر بعملية الصيد » • ونحن نعتقد ، وان كنا لا نستند الى دليل في هذا الاعتقاد ، أن غلي الماء في البيت في مثل هذا الوقت ، يؤذى السمك أو يفزعه وهو في النهر ، وذلك عن طريق المشاركة ، وبذلك يضار صيدهم له •

وربما كان الدافع وراء الوصية العبرية القديمة وهي « لا تطبخ الجدى بلبن أمه » ، هو الخوف المماثل لخوف تلك الشعوب من التأثير على موردھم الرئيسي في الرزق • وقد نفھم من هذه الوصية أن

هناك اعتراضا ، وفقا لهذه النظرية ، حول طبخ الجدى فى أى لبن كان ، لأن أى نعمة يغلى لبنها تصاب بأذى سواء كانت هى أم جدى بعينه أم غريبة عنه • وربما كان السبب فى الحرص على ذكر لبن الام بصفة خاصة هو أن لبن الام بطبيعة الحال كان أكثر استخداما لهذا الغرض ، أو لأن اىذاء النعمة فى مثل هذه الحالة يكون مؤكدا أكثر منه فى أية حالة أخرى • فالنعمة فى هذه الحالة تكون على صلة تعاطفية مزدوجة مع جديها ولبنها اللذين أخرجتهما من أحشائها ، ومن ثم تكون معرضة للخطر المضاعف الذى تتعرض له النعمة الغريبة عن هذا الجدى ، فاما أن يجف لبنها أو تموت بتأثير الحرارة والغلى •

على أننا يمكننا أن نتساءل : « اذا كان التحريم يختص ببساطة بغلى اللبن فلماذا يذكر الجدى بصفة خاصة فى هذه الوصية ؟ » ربما أمدتنا عادة قبيلة « باجندا » ، ولا نقول نظريتهم ، بالجواب عن هذا السؤال • فمن المعروف أن اللحم المطهى فى اللبن عند هذه القبيلة يعد من الأطعمة المفضلة عندهم ، وأن الأولاد الأشقياء والأشخاص الآخرين الذين لا يلزمون أنفسهم بالمبادئ الخلقية ، ولا يفكرون الا فى متعهم الشخصية أكثر من التفكير فى ثروتهم الحيوانية ، يكافئون أنفسهم على اثمهم ، كلما استطاعوا خلسة أن يفعلوا ذلك غافلين المتاعب التى تصيب الأبقار والنعاج المسكينة نتيجة تجنبهم لهذا المحذور • وبناء على ذلك فربما كانت الوصية العبرية « لا تطبخ الجدى بلبن أمه » موجهة الى مثل هؤلاء الأوغاد الذين كان يلعنهم الرأى الجماعى لأنهم يوجهون ضربة خطيرة لمصدر غذائهم الرئيسى • ولعل هذا يفسر لنا كيف أن غلى اللبن من وجهة نظر الشعوب البدائية الرعوية يعد جريمة أبشع من جريمة السرقة أو القتل ، لأنه بينما تصيب السرقة أو القتل بعض الأفراد بأذى ، فان غلى اللبن شأنه شأن تسميم الآبار ، يهدد القبيلة كلها ويحرمها من مورد غذائها الرئيسى • ربما كان هذا هو السبب فى أننا لا نجد أثرا فى الرواية الأولى للوصايا العشر العبرية ذكرا للوصيتين التاليتين : « لا تسرق » و « لا تقتل » ، ونجد محلها وصية « لا تطبخ الجدى فى لبن أمه » ••

ويبدو أن فكرة علاقة المشاركة بين الحيوان واللبن الذي يحلب منه ، تفسر نظما أخرى معينة تنتشر بين القبائل الرعوية ، ولم يفسر بعضها التفسير الكافي حتى اليوم . فاللبن هو الغذاء الرئيسى عند قبيلتي « دامارس » و « هيرورو » اللتين تستوطنان جنوب غرب افريقيا . ولكن عند هاتين القبيلتين لا يغسل وعاء اللبن الذى يشربونه منه على الاطلاق ، لأنهم يعتقدون تماما أن البقرة تكف عن ادرار اللبن اذا ما غسل هذا الوعاء . ويبدو أن تفسير هذه العادة هو أن ازالة المادة المتخلفة من اللبن فى الوعاء معناه ازالة البقية الباقية من اللبن من ضرع البقرة . فالقاعدة المتبعة عند قبيلة « ماساي » هى « انه لا ينبغى حلب اللبن الا فى أوعية تصنع لهذا الغرض . ولا تغسل هذه الأوعية بالماء ، بل يكتفى بتنظيفها برماد الخشب للتأكد من نظافتها » .

وكما ان قبيلة « هيرورو » الرعوية تمتنع عن غسل وعاء اللبن بالماء مراعاة لسلامة أبقارها ، كذلك تتجنب قبيلة « باهيما » الرعوية غسل أجسامهم بالماء لهذا السبب نفسه . « فالرجال والنساء على السواء لا يستحمون ، لأن الاستحمام يؤذى قطعان ماشيتهم وفقا لاعتقادهم ، ومن ثم فهم ينظفون أجسامهم بطريقة جافة وذلك عن طريق دهن أجسامهم بالزبد وتدليكها بالتراب الأحمر بدلا من استخدام الماء ، ثم يدهنون أجسامهم مرة أخرى بالزبد » . فاستعمال الماء فى الاستحمام « يعرض القطيع بل الأسرة للأذى فيما يقال » .

وفضلا عن ذلك فان بعض القبائل الرعوية تعتقد أن قطعان ماشيتها تتأثر بفعل المشاركة ، لا عن طريق المادة التى تستخدم فى تنظيف أوعية اللبن فحسب ، بل عن طريق المادة التى يصنع منها الوعاء كذلك . فقبيلة « باهيما » تحرم استخدام أى وعاء مصنوع من الحديد فى الحلب، وتستخدم بدلا من ذلك أوعية مصنوعة من الخشب أو قشر القرع العسلى أو الطين . أما الأوعية الأخرى فقد يؤدى استخدامها فى حلب اللبن الى الاضرار بالماشية وقد يتسبب فى مرضها . « ولهذا فان أوعية

اللبن التى تستخدمها قبيلة « بانبيورو » تصنع كلها على وجه التقريب من الخشب أو من القرع العسلى ، على الرغم من أنه من الممكن العثور على أوعية طينية فى الحظيرة التى يحفظ فيها اللبن » • وبالمثل « كانت كل أوعية اللبن عن وجه التقريب تصنع من الخزف ، والقليل منها كان يصنع من الخشب عند قبيلة « باجندا » ، كما أن الأهالى يرفضون استعمال الأوعية المصنوعة من الصفيح أو الحديد لأن استخدامها يؤذى الماشية » • أما عند قبيلة « ناندى » ، « فإن الوعاء الوحيد الذى يسمح باستخدامه فى الحلب هو الوعاء المصنوع من قشر القرع • فإذا استعمل وعاء آخر فإن هذا يعرض القطيع للضرر وفقا لاعتقادهم » • وكثيرا ما تتصور قبيلة « أكويو » « أن استخدام وعاء آخر غير الوعاء المصنوع من قشر القرع الذى يخالف تلك الأوعية المصقولة التى يستعملها الأوربيون فى حلب اللبن ، من شأنه أن يؤدى الى جفاف لبن الحيوان » ••

وقد تبالغ بعض القبائل الرعوية فى التعبير عن اعتقادها فى أن الأبقار على علاقة تعاطفية طبيعية مباشرة مع لبنها حتى بعد أن ينفصل عنها ، الى درجة أنها تتجنب مزج اللبن باللحم أو الخضر ، لأن مثل هذا المزج يسيء الى البقرة التى حلب منها اللبن • فقبيلة « ماساي » تحرص كل الحرص على أن تبعد اللبن عن اللحم ، لأنه وفقا للتصور العام الذى يسود بينهم ، أن مزج اللبن باللحم يصيب أضرع البقر صاحبة اللبن بالمرض ، فتكف بناء على ذلك عن ادرار اللبن • ومن ثم فهم نادرا ما يرضخون لاغراء بيع ألبانهم ، ولا يفعلون ذلك الا فى حذر بالغ ، لئلا يتسبب المشترى فى اصابة أبقارهم بالمرض ، اذا ما مزج لبنهم باللحم • ومن أجل هذا السبب نفسه فانهم يتجنبون الاحتفاظ باللبن فى وعاء سبق أن طهى فيه لحم ، كما لا يوضع اللحم فى وعاء يستخدم فى حلب اللبن • ومن أجل هذا فاننا نجدهم يمتلكون مجموعتين مختلفتين من الأوعية تعزل عن بعضها بعضا لهذا السبب • وتتفق قبيلة « باهيما » مع قبيلة « ماساي » فى معتقداتها وممارساتها • فقد شاء ضابط ألمانى كان

يعسكر في بلادهم ، أن يستبدل بأحد أوعية طهيه وعاء من أوعيتهم التي تستخدم في حلب اللبن • ولكنهم رفضوا ذلك بدعوى أن اللبن إذا صب في الوعاء الذي سبق أن طهى فيه اللحم ، ربما تسبب في موت البقرة صاحبة اللبن •

ولا تحرص هذه القبائل على ألا تخلط اللبن في وعاء سبق أن طهى فيه اللحم فحسب ، بل تحرص على ألا تخلطه كذلك في أمعاء الانسان ، لأن الخطر في هذه الحالة يتهدد البقرة كذلك • وكذلك تحرص القبائل الرعوية التي تعيش على ألبان قطعان ماشيتها وعلى لحمها على ألا تأكل اللحم وتشرب اللبن في آن واحد • وانما هم يفصلون بين شرب اللبن وأكل اللحم أو العكس بفترة زمنية • بل انهم في بعض الأحيان يأخذون دواء مسهلا لينظف معدتهم من أخذ الطعامين حتى يتمكن الانسان من تناول الطعام الآخر • ومثال هذا « أن غذاء قبيلة الماساي يتكون من اللحم واللبن فحسب • وبينما يخصص لبن الأبقار للرجال المحاربين ، تشرب النساء لبن الماعز • ويعد من قبيل الاساءة البالغة أن يشرب الشخص اللبن (الذى لايسمح بغليه) ويأكل اللحم في آن واحد • ومن ثم فان الماسايين يعيشون عشرة أيام على اللبن وحده ثم يأكلون اللحم وحده عشرة أيام أخرى • وهم يراعون عدم اختلاط الطعامين في المعدة الى درجة أنهم يتناولون بين الفترتين دواء مسهلا » • وهذه العادة نفسها تفرض على المحاربين ، فهم لا يأكلون سوى اللبن والعسل مدة تتراوح بين اثني عشر يوما ، ثم لا يأكلون سوى اللحم والعسل مدة أخرى مماثلة • وفي أثناء الفترتين يأخذون مسهلا قويا يتكون من مزيج من الدم واللبن يجعلهم يتقيأون الطعام كما يسبب لهم الاسهال وذلك لكي يتأكدوا من عدم وجود فضلات من الطعام الأول في أمعائهم • وهكذا يرى مدى حرصهم في ابعاد اللبن عن الدم واللحم • وقد قيل لنا بصراحة انهم لا يفعلون ذلك مراعاة لصحتهم بل مراعاة لقطعان ماشيتهم ، لأنهم يعتقدون أن لبن الأبقار يقل اذا لم يفعلوا هذا • فاذا شعر فرد من قبيلة « ماساي » على غير العادة برغبة في أكل اللحم وشرب اللبن في يوم واحد ، فانه يزج بعود من الحشائش في حلقه مراعاة

منه في تجنب الشر ، وبذلك يتقياً الطعام الأول ويتمكن من أكل الطعام الثاني . وعلى نحو هذا لا تشرب قبيلة واشامبا اللبن وتأكل اللحم في وجبة واحدة ، إذ أنهم يعتقدون أن هذا يسبب الموت المباشر للبقرة التي أخذ منها اللبن . ومن ثم فإنهم لا يرغبون في بيع اللبن الى الأوروبيون خوفاً من أن يتسبب المشتري الجاهل أو الطائش في قتل الحيوان اذا ما اختلط اللبن باللحم في معدته . وقبيلة باهيما قبيلة رعوية تعيش أساساً على ألبان قطعان ماشيتها . ولكن زعماءها وأثرياءها يخلطون اللحم بوجبة اللبن وإن كانوا « لا يأكلون لحم البقرة وحده أو أى لحم آخر الا في المساء ، ثم يشربون الجعة بعد ذلك . وهم لا يأكلون أى نوع من الخضر مع لحم البقر كما يتجنبون شرب اللبن بعد أكل اللحم لبضع ساعات . وأحياناً يشربون اللبن في الصباح بعد تناولهم وجبة اللحم في المساء . ذلك أنهم يعتقدون اعتقاداً راسخاً أن الأبقار تتعرض للموت اذا ما اختلط اللبن باللحم والخضر في المعدة » . وبالمثل تمتنع قبيلة « بانبيورو » عن شرب اللبن مدة اثنتى عشرة ساعة بعد وجبة اللحم والجعة . وهم يقولون أن هذه الفترة ضرورية ، « لأن تناول الطعام المختلط يتسبب في إصابة الماشية بالمرض » . « ولا يؤكل اللحم ويشرب اللبن معا » عند قبيلة « ناندى » التي تسكن شرق أفريقيا البريطانية . فاذا شربوا اللبن فإنهم لا يأكلون اللحم طوال أربع وعشرين ساعة . كما أنهم يأكلون أولاً اللحم المطهى في الحساء ثم يأكلون بعد ذلك اللحم المشوى ، وبعد ذلك يمتنعون عن شرب اللبن مدة اثنتى عشر ساعة وبعدها يشربون الماء المذاب فيه الملح . فاذا لم يكن الملح يستخرج من مستنقع مائى متوافر فإنهم يشربون الدم بدلاً منه . ويشذ الأطفال الصغار عن هذا النظام وبالمثل الأولاد والبنات الذين أجريت لهم عملية الطهارة منذ وقت قريب ، وكذلك النساء اللاتي وضعن أطفالاً قبل ذلك بزمان قصير ، كما يشذ عنه الذين يعانون من مرض شديد . فكل هؤلاء الذين يطلق عليهم اسم « بيتوريك » يسمح لهم بأكل اللحم وشرب اللبن في آن واحد . أما اذا شذ أحد غير هؤلاء عن هذا النظام ، فإنه يجلد في غير هوادة ولا رحمة » . وبالمثل يحرم شرب اللبن وأكل اللحم في

آن وأحد عند قبيلة «سوك» الرعوية التى تقطن شرق أفريقيا البريطانى .
وعلى الرغم من أن الكتاب الذين سجلوا عادات قبيلتى «ناندى»
و «سوك» الخاصة بهذا الموضوع لم يثيروا الى سبب هذا التحريم ،
الا أن مقارنة عادات هذه القبيلة بعادات القبائل السالفة الذكر ، تتيح
لنا أن ندعى فى شىء من الثقة ، أن الدافع وراء تحريم أكل اللحم وشرب
اللبن فى آن واحد بين قبيلتى «ناندى» و «سوك» ، هو الخوف من
أن اختلاط الطعامين فى معدة الأكل يمكن أن يعرض الأبقار للأذى ،
ان لم يكن للخطر .

وما تزال تنتشر مثل هذه العادة التى تدعو الى الفصل بين اللحم
واللبن فى المعدة عند الاسرائيليين فى أيامنا هذه ، وان لم تراع مثل هذه
الصرامة فى اتباعها . فاليهودى الذى يأكل اللحم أو يشرب حساءه ،
لا ينبغى عليه أن يأكل الجبن أو أى شىء آخر من مستخرجات الألبان
مدة ساعة بعد أكل اللحم . وهناك أوعية خاصة لكل منهما ، وكل مجموعة
من الأوعية تعلم بعلامة خاصة ، ومن ثم فإن الوعاء الذى يستخدم فى
اللبن لا يستخدم فى طهى اللحم . بل انهم يعزلون السكاكين التى
تستخدم فى قطع اللحم عن تلك التى تستخدم فى قطع الجبن أو السمك .
وفضلا عن ذلك ، فإن اللبن لا يطهى مع اللحم على موقد واحد
ولا يوضعان على المائدة فى آن واحد . بل ان غطاء المنضدة يغير عند
وضع الطعام الآخر عليها . فإذا كانت الأسرة فقيرة ولا تمتلك سوى
غطاء واحد للمنضدة ، فإنه ينبغى عليها على الأقل ، أن تغسل هذا الغطاء
قبل أن تضع عليه اللبن بعد أن سبق لها أن وضعت عليه اللحم . وهذه
الأحكام التى حاكت حولها المهارة الحاخامية تشكيلية من التفريعات
الدقيقة ، قد استمدت جراحة من وصية تحريم طبخ الجدى فى لبن
أمه . وقد لا يساورنا شك فى ضوء هذه الشواهد التى جمعت فى هذا
المفضل فى أن هذه القواعد والوصية المتصلة بها تنتمى مجتمعة حقا الى
جزء من الارث المألوف الذى انتقل الى اليهود منذ الزمن الذى كان
يعيش فيه أجدادهم حياة الرعى ، ويعتمدون أساسا فى غذائهم على

ألبان مواشيهم ، ومن ثم كانوا يراعون سلامة هذا الغذاء من أن يلحق به أذى ، كما تفعل قبائل أفريقيا الرعوية في عصرنا هذا •

على أن اختلاط اللبن باللحم لا يمثل الخطر الوحيد الذى تسعى قبائل افريقيا الرعوية أن تتجنبه خوفا على قطعان ماشيتها باتباعها القواعد المذكورة فى نظام الأكل ، وانما هم يخشون كذلك من اختلاط اللبن بالخضر ، ومن ثم فهم يتجنبون شرب اللبن وأكل الخضر فى آن واحد ، لأنهم يعتقدون أن المزج بين الطعامين فى المعدة يمكن أن يؤذى القطيع بشكل أو بآخر • فقبيلة « باهيما » الرعوية التى تسكن فى « أنكولى » « تحرم أكل أنواع مختلفة من الخضر ، مثل البقول والفاصوليا والبطاطا ، على أى فرد من أفرادها ، ما لم يقض فترة صوم تبلغ بضع ساعات بعد أكل الخضر ، وقبل تناول اللبن • فاذا دفع الجوع شخصا لأن يأكل الخضر ، فإنه يتحتم عليه أن يصوم بعض الوقت بعد أكلها • ويفضل أن يأكل فى هذه الحالة نبات « النب » • ومع ذلك يتحتم عليه أن يصوم مدة تتراوح بين عشر ساعات واثنى عشرة ساعة قبل أن يشرب اللبن مرة أخرى • فشرب اللبن فى أثناء وجود الخضر فى المعدة يؤذى صحة الأبقار وفقا لاعتقادهم » • ومثل هذا يتبع عند قبيلة « بايرو » التى تسكن فى « أنكولى » ، « والتى تعتمد فى غذائها على البطاطا والفاصوليا السودانى • فهم لا يسمحون بشرب اللبن حيث أنه يؤذى الماشية » وعندما كان « سبيك » يقوم بجولته بين قبيلة « باهيما » أو « واهوما » ، كما يسميها ، لاحظ المشقة التى يعانيتها الناس من جراء هذا التشكك • فعلى الرغم من وفرة قطعان الماشية عندهم ، فإن الناس لم يقدرُوا على بيع ألبانهم لنا لأننا كنا نأكل الدجاج ونوعا من البقول يسمى « ماهاراجو » • « فمنذ دخلنا « كازاجو » ، لم نستطيع أن نحصل على قطرة من اللبن لا بطريق ودى ولا بأى ثمن • ولقد رغبت فى أن أتعرف على الدافع وراء اصرار قبيلة واهوما على هذا الفعل ، فعلمت أن هناك خوفا خرافيا يملكهم من جراء بيع اللبن • فكل من أكل لحم الخنزير أو السمك أو الدجاج أو البقول التى تسمى « ماهاراجو » ، ثم

تذوق بعد ذلك منتجات أبقارهم ، فانه يعرضها للخطر » • وقد أجاب ملك البلد على تساؤلات « سبيك » فقال : « ان الفقراء وحدهم هم الذين يعتقدون ذلك • ولما رأى أننا في حاجة الى اللبن خصص لنا بقرة من أبقاره لكي تمدنا باللبن • وفي قبيلة « بانبيورو » ، « تحرص الطبقة المتوسطة التي تقتنى الأبقار وتعمل كذلك بالزراعة ، كل الحرص في نظام أكلهم على عدم أكل الخضر وشرب اللبن في آن واحد • فالذين يشربون اللبن في الصباح لا يأكلون أى طعام آخر حتى المساء • والذين يشربون اللبن في المساء ، لا يأكلون أى نوع من الخضر حتى اليوم التالي • وهم يتجنبون أكل البطاطس والبقول بصفة خاصة • وكل من يأكلهما يمتنع عن شرب اللبن مدة يومين • وهم يفعلون هذا لكي يبعدوا اللبن عن اللحم أو الخضر في المعدة • فالطعام المختلط ، وفقا لاعتقادهم ، يصيب قطعان الماشية بالمرض » • ومن ثم فان هذه القبيلة « لا تقدم اللبن للزائر القريب أثناء زيارته للحظيرة ، لأنه ربما كان قد أكل من قبل بعض أنواع الأطعمة المحرم مزجها باللبن ، فتصاب الماشية بالضرر ، اذا لم يكن هذا الشخص قد تخلص من بقايا الخضر في معدته • ولكنهم يعبرون عن كرمهم للزائر بأن يقدموا له طعاما آخر مثل الجعة ولحم البقر ، حتى تكون معدته معدة لشرب اللبن في صباح اليوم التالي • فاذا لم يكن في الحظيرة لبن يكفيهم ، فان بعضهم يأكل الخضر في المساء ويصوم عن شرب اللبن حتى صباح اليوم التالي • فاذا لم تكن هناك خضر ، فانهم يأكلون البطاطا • ومن الضروري بعد هذا أن يمتنعوا عن شرب اللبن مدة يومين بعد أكل البطاطا حتى تصبح المعدة خالية منها تماما قبل أن يسمح لهم بشرب اللبن » • ويحرم أكل الخضر كلية في هذه القبيلة على الرعاة لأن تناولهم لها كما يقولون ، يعرض صحة القطيع للخطر أكثر من الأفراد العاديين ، نظرا لاختلاطهم الدائم بالقطيع ، وذلك اذا اختلط طعام باللبن في معدتهم • ومن ثم كان من الحكمة أن يملى هذا النظام تحريم أكل الخضر كلية على الرعاة •

وعند قبيلة « باجندا » « لا يسمح لأى شخص أن يأكل البقول

أو يمص قصب السكر أو يشرب الجعة ، أو أن يدخن الدخان الهندي ، ثم يشرب اللبن في الوقت نفسه • فالشخص الذي يشرب اللبن يصوم عن الطعام عدة ساعات قبل أن يسمح له بأكل الطعام المحرم • ولا يسمح له بشرب اللبن في نفس المدة بعد تناوله لهذه الأطعمة » • والرجل في قبيلة « سوك » الذي يمتنع عن شرب اللبن ، يمتنع عن شرب اللبن مدة سبعة أيام • ومما لا شك فيه أن هذا التحريم عند هاتين القبيلتين ، وأن لم يقرر هذا صراحة ، سببه التأثير الضار الذي تتعرض له الماشية نتيجة اختلاط الأطعمة في المعدة • وبالمثل فإن قبيلة « ماساوى » التي تهتم كل الاهتمام بثروة قطيعها وتخشى عليها من الضرر ، وتعتقد كل الاعتقاد في أن الحيوان يصاب بأذى إذا ما غلى لبنه أو شرب مع اللحم ، تحرم على المحاربين كلية أن يأكلوا الخضر • وأولى للمحارب في هذه القبيلة أن يموت جوعاً من أن يأكل الخضر • بل إن تقديم الخضر له يعد اهانة بالغة له • فإذا نسي المحارب وتذوقه ، فإنه يمتن كل الامتنان ولا تقبل أية امرأة أن تتخذ زوجاً لها •

ولا تشجع الشعوب الرعوية التي تعتقد في أن أكل الخضر يهدد ثروتهم الأولى من حيث أنه يقلل مئونتهم من اللبن أو يمنعها عنهم ، على ممارسة الزراعة • وبناء على ذلك فليس غريباً أن نعلم « أن الزراعة في « بونورو » يتجنبها من يشتغل بالرعى • وإذا قامت زوجة رجل ينتمى إلى بطن من بطون قبيلة تشتغل بالرعى بفلاحة الأرض ، فإنها تعرض نفسها للايذاء ، لأنها تعرض القطيع للخطر » • ومن ثم فإن النساء في البطون الرعوية في هذا البلد ، « لا تعمل شيئاً خلاف القيام بحلب اللبن وغسل أوعية اللبن ، ذلك لأن العمل اليدوى يعد عملاً وضيعاً من وجهة نظرهم • كما أن فلاحة الأرض بصفة خاصة تؤذى قطيعهم » • وحتى عند قبيلة « باجندا » الذين يفلحون أرضهم بجد نظراً لعنايتهم بتربية القطيع ، لا يسمح للمرأة أن تفلح حديقته في الأربعة الأيام الأولى بعد ولادة بقرة من أبقار زوجها • وعلى الرغم من أن سبب المنع لم يذكر ، فإنه يمكننا في ضوء الشواهد السالفة

أن نستخلص أن الدوافع وراء الامتناع عن فلاحه الأرض هو الخوف من أن المرأة تعرض العجل وأمه للمرض ، بل للموت ، اذا فلحت الأرض في هذه الأيام •

وفضلا عن ذلك فان بعض القبائل الرعوية تمتنع عن أكل لحم بعض الحيوانات المتوحشة بناء على سبب ضمنى أو صريح ، هو أنهم اذا أكلوا لحم هذه الحيوانات ، فان مواشيهم تصاب بأذى • ومثال ذلك : « هناك خرافة تنتشر انتشارا قويا بين قبيلة « سوك » التى تسكن شرق افريقيا البريطانى ، تتلخص فى أن أكل لحم فى خنزير برى معين يسمى ، « كيبثورينى » يترتب عليه أن يجف لبن قطيع الرجل الذى أكل من لحم الخنزير • على أن هذه الخرافة لا تعيش الا بوصفها رواية شعبية فى السهول التى لا تعيش فيها الخنازير » • وتعتقد هذه القبيلة نفسها أنه « اذا أكل رجل غنى سمكا ، فان لبن قطيعه يجف » • وعند قبيلة « ناندى » ، « لايجوز أكل لحم حيوانات بعينها ، اذا كان من الممكن الحصول على طعام آخر • وهذه الحيوانات هى ظبى المستنقعات وحمار الوحش والفيل ، والكركدن (الخرتيت) والمها السنغالى ، والريم الافريقى العادى والأزرق • فاذا أكل أحد أفراد هذه القبيلة لحم أحد هذه الحيوانات ، لا يسمح له أن يشرب اللبن مدة أربعة أشهر على الأقل ، وبعد أن يتناول دواء مسهلا مستخلصا من شجرة « سيجيتيت » ، بعد مزجه بالدم • « ويستثنى من هذه القبيلة عشيرة « كيباسيسو » ، فأفراد هذه العشيرة يطلقون لانفسهم العنان فى شرب اللبن فى اليوم التالى من أكل لحوم هذه الحيوانات الطاردة • ومن بين هذه الحيوانات التى تسمح قبيلة « ناندى » بأكل لحمه فى حدود معينة ، هو الظبى الذى يعد حيوانا نجسا • وهم يطلقون عليه اسم « شيماكيموا » ، ومعناه « الحيوان الذى لا يجوز أن يتحدث عنه » • ومن بين أنواع الطيور البرية التى ينظر اليها نظرتهم الى الظبى ، طائر الدراح • حقا انهم يأكلون لحم هذا الطائر ولكنهم لا يأكلونه بعد شرب اللبن الا بعد مضي عدة شهور • ولم تذكر أسباب

لهذه القيود ، ولكنه يحق لنا ، في ضوء الشواهد السالفة أن ندعى بشيء من الثقة ، أن الامتناع عن تناول اللبن شهورا عدة بعد أكل هذه الحيوانات أو الطيور البرية ، هو الخوف على الأبقار ، إذا ما اختلط لبنها بلحوم هذه الحيوانات والطيور في معدة الأكل . وربما كان هذا الخوف نفسه هو الذى يقف وراء انتشار تلك العادة بين قبيلة « واتاتورو » التى تسكن فى شرق افريقيا . فإذا تناول رجل من هذه القبيلة لحم بقر وحشى معين (يسمى بوفو بلغة السواحلى) فلا يجوز له أن يشرب اللبن فى اليوم نفسه .

وربما كان من الواجب علينا أن نتعمق البحث أكثر من هذا ونتساءل عما إذا كان سبب امتناع بعض القبائل الرعوية عن أكل لحوم الحيوانات الطاردة بصفة عامة أساسه الخوف الخرافى من إيذاء القطيع عندما يختلط اللبن بلحم الحيوانات المتوحشة فى المعدة فى أثناء عملية الهضم . فقبيلة « ماساي » ، على سبيل المثال ، وهى قبيلة تشتغل أصلا بالرعى فحسب ، وتعيش كلية على لحوم الماشية ودمها وألبانها ، تزدرى ، كما قيل ، أى نوع من لحم الحيوانات الطاردة كما تزدرى لحم السمك والدجاج . وقد قيل كذلك ان قبيلة ماساي لم تكن تأكل أى نوع من لحوم الحيوانات المتوحشة فى الزمن القديم ، عندما كان جميع أفرادها يمتلكون قطعانا من الماشية . ولكن بعضهم بدأ يأكل لحم الغزال ، بعد أن فقد ماشيته . ولما كانوا يمتنعون عن أكل لحوم الحيوانات الطاردة ، واقتصروا فى صيدهم على الوحوش أكلة اللحم كتلك التى كانت تفترس ماشيتهم ، فان قطعان الحيوانات المفترسة أكلة العشب أخذت تنتشر انتشارا يستلفت النظر فى ربوع بلاد الماسايين ، ومن ثم أصبح من المألوف رؤية البقرة الوحشية وحمار الوحش والغزال وهم يرعون فى أمان بين الماشية بالقرب من حظائر الماسيين ، دون أن تبدى الماشية أى فزع . وعلى الرغم من أن قبيلة الماساي فى العموم لم تكن تصيد الحيوانات المفترسة أو تأكل لحومها ، فانها كانت تستثنى من هذه القاعدة حيوانين مميزين . وقد

قيل ان « العلند » هو أحد الحيوانات الطاردة القليلة التي يصطادها
 الماسيون ، فهو يطارد حتى يتعب ثم يطعن بالسهم . ومن الغريب
 أن قبيلة الماساي تأكل لحمه أيضا لأنها تعدّه نوعا من أنواع البقر .
 وأما الحيوان الوحشي الآخر الذي تطارده قبيلة ماساي ويؤكل لحمه
 فهو الجاموس البري الذي يبالغون في تقدير لحمه وجلده معا .
 ولكننا علمنا « ان الجاموس لا يعد من الحيوانات الطاردة عند قبيلة
 ماساي . ومن المحتمل انهم ينظرون الى الجاموس البري نظرتهم
 الى العلند ، على أنه نوع من الأبقار . واذا كان الأمر كذلك فان سبب
 صيدهم الجاموس البري والعلند والتهام لحومها يكون واحدا ، وهو
 الاعتقاد في أن هذه الحيوانات لا تختلف في جوهرها عن الماشية ومن
 ثم يعد قتلها وأكل لحمها عملا مشروعاً . فالنتيجة العملية ليس حولها
 أي شك فيما يبدو ، وان كان هذا التصنيف وفقا لعلم الحيوان يدعو
 الى التساؤل . وقد اصطنعت قبيلة « باهيما » ، وهي قبيلة رعوية
 أخرى تعيش أساسا على ألبان ماشيتها ، نفس النظام الذي يعتمد
 على تصنيف مشابه لملكة الحيوان ، فنحن نعلم « أن هذه القبيلة لا تأكل
 سوى أنواع قليلة من الحيوانات المفترسة ، وهذه الأنواع تتحدد
 تماما بتلك التي تدخل في تصنيف الأبقار مثل الجاموس ونوع أو اثنين
 من أنواع البقر الوحشي ، والظبي والهرتبيس ، في حين أن لحوم
 الماعز والشياء والدجاج وكل أنواع السمك يعد ، من ناحية أخرى ،
 « ضارة ويحرم أكلها على أي فرد من أفراد القبيلة تحريما كليا » .
 وربما كان السبب في هذا هو أن هذه الأنواع من المواشي لا يمكن
 أن تعد من أنواع الأبقار ، وفقا لأي تفسير متحرر لأجناس البقر .
 ولما كانت قبيلة باهيما الرعوية لا تسمح الا بأكل القليل من الحيوانات
 المتوحشة ، فانها لاتهتم بعملية القنص ، على الرغم من أنها تصطاد
 الوحوش التي تبحث عن الفريسة متى وجدوها منهكة في المطاردة .
 « أما قنص سائر أنواع الحيوانات الطاردة فهو متروك كلية للعشائر
 التي تشتغل بالزراعة ، وتحفظ ببعض كلاب الصيد وتعيش في غذائها
 على لحوم هذه الحيوانات » . وبالمثل فان لحوم أكثر الحيوانات

توحشا محرمة على بطون قبيلة « باننيورو » الراعية ، ومن ثم فانه قلما يشترك أفراد هذه البطون في القنص ، اللهم الا اذا اقتضى الأمر صيد الأسود والظمور التي تبحث عن فريستها بين ماشيتهم » فالقنص اذن يقتصر على الأفراد الذين يشتغلون بالزراعة وهم يقومون بقنص الحيوان حتى يأكلوا لحمه » .

وربما كان السبب في ازدياد أكل لحوم الحيوانات الطاردة عند القبائل الرعوية التي أشرنا إليها في الحالات السابقة مصدره الاعتقاد في أن الأبقار تضار على التو متى امتزج لحم الحيوانات الطاردة بألبانها في بطون الرجال . ولكي يبعد الخطر عن الماشية فانه أما أن يمتنع الرجال عن أكل لحوم هذه الحيوانات كلية ، أو لا بد لهم ، على أسوأ حال ، أن يقضى الفرد منهم فترة بين أكل هذه اللحوم وشرب اللبن ، بحيث تكون المعدة قد تهيأت لاستقبال طعام جديد بعد أن تكون قد خلت من الطعام الآخر . والاستثناء الشاذ الذي يستلقت النظر من القاعدة العامة ، وهو سماح هذه القبائل لأفرادها بأكل لحوم الحيوانات التي تشبه الأبقار ، يشير الى تشابه مع العادة العبرية القديمة التي تميز بين الحيوانات النجسة والطاهرة . فهل يمكن أن يكون هذا التمييز بين الحيوانات المتوحشة على أساس النجاسة والطاهرة ، قد نشأ في مرحلة متخلفة للقبائل الرعوية التي ميزت في عالم الحيوان بين الحيوانات الشبيهة بالماشية المنزلية ، وتلك التي تختلف عنها ، ثم وضعت قانونا ذا أهمية بالغة يرتكز على أساس هذا التصنيف ، وهو أن النوع الأول يباح أكل لحمه والآخر يحرم أكل لحمه ؟ ان القانون الحقيقي الذي يميز بين الحيوانات النجسة والطاهرة كما يتمثل في الأسفار الخمسة الأولى معقد كل التعقيد فيما يبدو ، بحيث لا يسمح لنا باللجوء الى هذه الاستنتاج البسيط . ومع ذلك فان الأساس الأول لهذا القانون يعد بقية غريبة لمعتقدات بعض القبائل الافريقية التي تناولناها بالبحث . « هذه هي الحيوانات التي تأكلها : الثور والخروف والنعجة وذكر الأبل والغزال والسرور والنعاج البرية

وبقر الوحش والشمواة وكل حيوان ذى أظلاف مشقوقة ومجتر تأكل لحمه » • فهنا نجد أن اختبار مدى ملائمة الحيوان لأن يكون طعاما للإنسان تعتمد على صلته بالحيوانات المجترة الأليفة • وبناء على هذا الاختبار فإن الغزلان والبقر الوحشى تدخل ضمن الحيوانات الصالحة للأكل ، سليم للغاية ، تماما كما رأينا عند قبليتي « ماساي » و « بوهيما » اللتين تسمحان ، بناء على هذا الأساس ، بادخال أنواع متعددة من البقر الوحشى ضمن غذائهما ، وإن كان العبريون أكثر حرية فى تصنيف الحيوانات التى يسمح بأكل لحمها من الماسيين • وإذا كان هذا التصنيف العبرى قد نشأ أصلا ، فيما يبدو فى ظروف رعوية صرف ، فإنه من المحتمل أنهم قد وسعوا نطاقه ليواجه احتياجات الشعب الزراعى وذوقه •

والى هذا الحد أكون قد حاولت أن أقتفى أثر التشابه المحدد بين العادات الافريقية التى تتصل بغلى اللبن ونظام مزجه باللحم ، وفيما يختص بالتمييز بين الحيوانات من ناحية طهارتها ونجاستها وصلاحيتها وعدم صلاحيتها للأكل • وإذا كانت هذه الموازنات تركز على أساس سليم ، فإنها تنحى الى اثبات أن العادات العبرية التى تختص بكل هذه الأمور قد نشأت فى المرحلة الرعوية من مراحل مجتمعهم • ومن ثم ، فإنها تؤكد ما ورد فى تراث الاسرائيليين القومى من أن أسلافهم كانوا رعاة بدوا يتجولون بقطعان ماشيتهم وأغنامهم من مرعى الى مرعى طيلة عصور طويلة قبل أن يستقر أحفادهم ، بعد عبور نهر الأردن وهبوطهم من مرتفعات موآب المعشبة ، فى أرض فلسطين الغنية ، ويعيشوا حياة الزراعة المستقرة •

الفضل الثالث

إيذاء الجسم حزنا على الميت

كانت العادة عند الاسرائيليين القدماء أن يظهرُوا حزنهم على وفاة أصدقائهم عن طريق قطع أجسامهم وقص جزء من شعورهم بحيث تبدو صلعات فوق رؤوسهم • وقد ذكر النبي أرمياء متنبئًا بالدمار الذي كان من المتوقع أن يحل بأرض الميعاد ، كيف أن الناس سوف يموتون دون أن يجدوا من يقومون بدفنهم أو يؤدون لهم شعائر الحزن المألوفة فقال : « فيموت الكبار والصغار في هذه الأرض ، لا يدفنون ولا يندبونهم ولا يخدمون أنفسهم ولا يجعلون قرعة من أجلهم » • (ارمياء الاصحاح السادس عشر آية ٦) • ومرة أخرى نقرأ في سفر ارمياء كيف « أن رجالا أتوا من شكيم ومن شيلو (سلوان) ومن ومن السامرة ،ثمانين رجلا مخلوقى الله ومشققى الثياب ويبيدهم مقدمة ولبان ليدخلوهما الى بيت الرب » (ارماء : الاصحاح الحادى والأربعون آية ٤ - ٦) • وذلك بعد أن حمل بختنصر اليهود معه الى الأسر • وقد اصطنع هؤلاء الحجاج الأتقياء كل مظاهر الحزن العميق أسفا على الكارثة الكبرى التى حلت بأرض الميعاد وبأورشليم • وقد ذكر الأنبياء السالفون من بين عادات الحزن المألوفة التى كان يسمح بها الدين ، بل يأمر بها ، عادة قص الشعور الى درجة احداث صلعة فى الرأس ،وان لم يذكروا عادة تجريح الأجسام • فالنبي « عاموس » ، وهو أقدم نبي وصلتنا كتاباته ، يعلن على لسان الرب زوال دولة بنى اسرائيل ويقول : « وأحول أعيادكم نوحا وجميع أغانيكم مراثى وأصعد على كل الأحقاء مسحا ، وعلى كل رأس قرعة وأجعلها كمناحة الوحيد وآخرها يوما مرا » • (سفر عاموس ، الاصحاح الثامن آية ١٠) • ومرة أخرى نقرأ في سفر أشعيا : « ودعا السيد رب الجنود فى ذلك

اليوم الى البكاء والنوح والقرعة والتنطق بالمسح » • وقد تنبأ النبي « مخا » بالكوارث التي تحل بالمستقبل بالمملكة الجنوبية ، وطلب من الناس أن يستعدوا لاستقبال صحتهم فيخلقون رعوسهم كما يفعل المحزونون فقال : « كونى قرعاء وجزى من أجل بنى تنعمك ، وسعى قرعتك كالنسر لأنهم قد انتفوا عنك » • وليس المقصود بالنسر هنا هو النسر العادى ، كما هو الثابت فى الرواية الانجليزية وانما يقصد به طائر القرنين (١) ، الذى لا يكسو الشعر رقبتة ورأسه ، ويكسو ما دون ذلك ، وهذا المظهر لا يشاركه فيه النسر العادى • وقد ظل النبي « حزقيال » يكتب فى منفاه حتى بعد أن تحققت هذه النبوءات بغزو البابليين لأرض الميعاد ، وقال : « ويتنطقون بالمسح ويغشاهم رعب وعلى جميع الوجوه خزي وعلى جميع رعوسهم فرع » (سفر حزقيال) الاصحاح السابع ، آية ١٨) ••

ويبدو أن عادة تجريح الجسم وحلق جزء من الشعر علامة على الحزن ، كانت مألوفة لدى اليهود وجيرانهم وهم الفلسطينيون والمؤآبيون • فالنبي أرمياء يقول : « أتى الصلح على غزة • أهلك أشقلون (عسقلان) مع بقية وطائهم • حتى متى تخمشين نفسك » • (سفر ارمياء • الاصحاح السابع والاربعين آية ٥) • ثم يقول النبي نفسه وهو يتحدث عن دمار خموش وعلى الاحقاء مسح • على كل سطح موآب وفى شوارعها كلها نوح لانى قد حطمت موآب كأناء لا مسرة به يقول الرب » (سفر ارمياء الاصحاح الثامن والأربعين آية ٣٧ وما بعدها) • وكتب النبي أشعيا عن الموضوع نفسه فقال : « تولول موآب على نبو وعلى ميديا فى كل رأس منها قرعة كل لحية مجزوزة • فى أزقتها يأتزرون بمسح • على سطوحها وفى ساحاتها يولول كل واحد منها سيالا بالبكاء » (سفر أشعيا ، الاصحاح الخامس عشر ، آية ٢ وما بعدها) ••

(١) هو النسر الخرافى (المترجمة) •

وعلى الرغم من أن الاسرائيليين ظلوا يمارسون عادات الحزن هذه زمنا طويلا دون ابداء الاستياء منا ، فإن هذه العادات أصبح ينظر اليها فيما بعد بوصفها عادات بربرية وثنية * ولهذا فقد حرمت في الشرائع القانونية التي ألغت قرب نهاية الحكم الملكى اليهودى ، أى فى أثناء الأسر البابلى أو بعده * فنحن نقرأ فى أسفار موسى الخمسة التى ذاعت فى اورشليم عام ٦٢١ ق * م أى قبل الغزو ، الآيات التالية: « أنتم أولاد للرب الهكم * لا تخمشوا أجسامكم ولا تجعلوا قرعة بين أعينكم لأجل ميت ، لأنك شعب مقدس للرب الهك ، وقد اختاركم الرب لكى تكون له شعبا خاصا فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض » (سفر التثنية ، الاصحاح الرابع عشر الآية الأولى وما بعدها) * فهناك نجد أن تحريم هذه العادة يركز على مكانة دينية شاذة احتلها الاسرائيليون بوصفهم شعب يهوه * وقد نصحت هذه الأمة أن تكف عن التمسك بهذه العادات الغريبة وهى تلك العادات التى كانت قد انغمست فيها حتى ذلك الوقت دون أن ينسب اليها إثم فى ذلك ، والتى كانت تنتشر بين الشعوب الوثنية المجاورة لهم حتى ذلك الوقت * ونستطيع أن نحكم ، ما وسعنا ذلك ، على أن هذا التغير قد نشأ نتيجة تطور فى الحس الوجدانى الذى حارب مثل هذه المظاهر الغريبة فى الحزن بوصفها أفعالا ينفرد منها الذوق السليم والانسانية معا * ولكن المصلح غلف فكرته كما هو المؤلف ، فى رداء دينى ، لا بدافع اعتبار سياسى متعمد ، ولكن مجرد أنه لم يدرك ، اتفاقا مع أفكار عصره ، أية وسيلة أخرى يوافق الناس بناء عليها موافقة كلية على أى سلوك انسانى ، أكثر من الخوف من الرب *

وقد تكرر هذا التحريم نفسه فى التشريع اللاوى الذى ألف فى أثناء فترة السبى أو بعدها * فقد ورد فى هذا التشريع : « لا تقصروا رءوسكم مستديرا ولا تفسد عارضيك ، ولا تجرحوا أجسادكم لبيب ، وكتابة وسم لا تجعلوا فيكم * أنا الرب » (سفر اللاويين الاصحاح التاسع عشر آية ٢٧) *

ولكن يبدو أن المشرع قد تبين أنه ليس من اليسير أن يستأصل بجرة قلم عادات قد تأصلت في العقول الشعبية ، وطالما نظر إليها الشعب بوصفها عادات لا اثم وراءها ، لأنه ألح فيما بعد ، كما لو كان قد شعر باليأس من أن الناس جميعا سوف يهجرون تلك العادات المتبعة في ابداء الحزن ، على أن الكهنة على الأقل سوف يتجنبون تلك العادة كلية . فقال : « وقال الرب لموسى كلم الكهنة بنى هرون وقـل لهم : لا يتنجس أحد منكم لميت في قومه الا لأقربائه الأقرب اليه أمه وأبيه وابنته وأخيه وأخته العذراء القريبة اليه التي لم تصر لرجل ، لأجلها يتنجس . كزوج لا يتنجس بأهله لتدنيسه . لا يجعلوا قرعة في رعوسهم ولا يخلقوا عوارض لحاهم ولا يجرحوا في أجسادهم » . وقد أكدت الحوادث فيما بعد صحة الشكوك التي كانت تساور المشرع بالنسبة لكفاءة العلاج الذي شرعه للقضاء على هذه العادات الآثمة . فقد أخبرنا النبي أرمياء بعد ذلك بعدة قرون أن بعض اليهود كانوا وما زالوا يجرحون أذرعهم ويحدثون صلعات في رعوسهم تعبيرا عن حزنهم على الميت .

وقد كانت تنتشر عادة حلق الرعوس وتجريح الجسم أو تشويهه . بوصفهما إمارتين عن الحزن ، انتشارا كبيرا بين الأجناس البشرية ، واتجه الآن الى توضيح هاتين العادتين والاستفسار عن مغزيهما . واننى اذ أفعل هذا ، أركز اهتمامى بصفة خاصة حول عادة تجريح الجسم أو ايذائه أو خدشه بوصفهما أكثر العادتين غموضا وأجدرهما بالملاحظة .

وقد كان العرب الجاهليون ، شأنهم شأن اليهود ، يصطنعون من بين الشعوب السامية هاتين العادتين . فالنساء العربيات كن يمزقن الجزء العلوى من أرديتهن ويخدشن وجوههن وصدورهن بأظافرهن ، ويضربن أنفسهن بالأحذية ويقصصن شعورهن . فعندما توفي القائد العظيم خالد بن الوليد لم تكن هناك سيدة واحدة من قبيلته بنى المغيرة

الا وقد قصت خصلات شعرها ووضعتها عند قبره • وما تزال تنتشر مثل هذه العادات بين عرب موآب حتى اليوم • فعند وفاة فرد من أفراد الأسرة تخذش النساء وجوههن الى درجة أن يراق دمها ويمزقن أرديتهن عند الوسط • واذا كان الشخص المتوفى هو الزوج أو الأب أو أى شخص آخر تدنو قرابته منهن ، فانهن يقصصن ضفائرهن وينتشرنها على قبره أو يلففنها على رأس الصريح ، أو انهن يثبتن وتدين فى الأرض ، أحدهما عند رأس الصريح والآخر عند مؤخرته ، ويربطن ما بين الوتدين بحبل يعلقن عليه خصلات شعورهن •

وبالمثل كانت النساء عند الاغريق القدماء يقصصن شعورهن ويخذشن وجناتهن اذا ما توفى أحد أقربائهن الأدنون أو أحد أقربائهن الأعزاء لديهن • وفى بعض الأحيان يخذشن رقابهن بأظافرهن حتى تدمى • وبالمثل كان الرجال يخلقون شعورهم علامة على الحزن واحتراما للميت • فهو ميروس يخبرنا كيف ان المحاربين الاغريق غطوا جسد « باتروكلوس » فى طرودة بضفائر من شعورهم وكيف وضع « أخيل » فى يد صديقه المتوفى خصلة من الشعر كان أبوه « بيليوس » قد نذر لها لنهر « سبيركوس » ليقدّمها ابنه له اذا ما عاد سليما من الحرب • كما قيل ان « أورستوس » وضع خصلة من شعره على قبر أبيه القتيل « أغاممنون » • ولكن تشريع « سولون » الانسانى الذى شرعه فى أثينا حرم تلك العادة البربرية ، عادة خدش الجسم وايدائه بوصفهما مظهرين من مظاهر الحزن ، كما فعل التشريع الانسانى فى أسفار موسى الخمسة الذى صدر فى أورشليم • وعلى الرغم من أنه يبدو أن عادة قص الشعر تكريما للميت لم يمنعها القانون صراحة ، الا أنها ربما انقرضت فى أثينا بتأثير التقدم الحضارى • فما يبدو لنا على الأقل ، هو أن كلتا العادتين المتبعتين للتعبير عن الحزن لفقد الأقرباء والأصدقاء ، قد وصلت اليها فى كتابات الشعراء الذين صوروا حياة العصر البطولى وأخلاقه ، ذلك العصر الذى سبقهم بزمان طويل •

وكذلك كانت النساء الأشوريات والأرمينيات ينزعن الى خدش خدودهن تعبيراً عن الحزن ، كما نعلم ذلك من « كزينوفان » الذى ربما شاهد مظاهر الحزن عند هزيمة « العشرة آلاف » التى شارك فيها بوصفه جندياً ، وخلدها بوصفه كاتباً . ولم تكن هذه العسادة مجهولة عند الرومانيين القدماء لأن أحد قوانين « الألواح العشرة » الذى يرتكز على تشريع « سولون » ، حرم على النساء خدش خدودهن بأظافرهن عند الحداد . وقد اعتقد العلامة الرومانى القديم « فارو » أن جوهر تلك العادة كان يتمثل فى تقديم قدر من الدم عند قبر الميت ، وهو الدم السائل من خدود النساء بوصفه بديلاً ناقصاً لدماء الأسرى وهؤلاء الذين ضحوا بأنفسهم حتى الموت . وتؤكد عادات الشعوب الهمجية التى تعيش فى العصر الحديث ، كما سنرى وثنياً ، الى حد ما ، هذا التفسير لتلك العادة . فقد صور لنا « فرجيل » « أنا » وهى تشوه وجهها بأظافرها وتضرب صدرها بقبضتيها عندما وصل اليها نبأ وفاة أختها « ديدو » وهى واقفة بجوار النار المعدة لحرق جثث الموتى . على أننا نشك فيما اذا كان الشاعر يشير فى وصفه هذا الى عادة قرطاجانية ، أو الى عادة رومانية قديمة كانت تتبع فى ابداء الحزن على الفقيد .

وقد كان « السكيثانيون » يخلقون شعرهم بأكملهم ، ويجرحون أذرعهم ويخدشون جباههم وأنوفهم ويبترون آذانهم ، ويغرزون سهاماً فى أيديهم اليسرى ، عندما يتوفى ملك من ملوكهم . وقد كان من عادة « الهون » ، عندما يعلنون الحداد على موت فقيد ، أن يجرحوا وجوههم جرحاً بالغاً ، ويخلقون شعورهم .

وعلى هذا النحو أبدوا حزنهم على أتيل ، « لا عن طريق عويل النساء وبكائهن فحسب ، ولكن عن طريق تقديم قدر من دماء الرجال كذلك » . ومنذ عصر بالغ فى القدم تركز الشعوب السلافية تعبيرها عن الحزن على الفقيد فى الصراخ والعويل ، بينما يجرح المحزونون

وجوههم ، وهى عادة لا تزال تنتشر بين بعض سكان دالاماتيا ومونت
ديجرو » . واذا حدثت وفاة فى بيت من بيوت « المينجريلايين » فى
القوقاز . فان المحزونين يخذشون وجوههم ويشدون شعورهم كما انهم
يخلقون وجوههم بما فى ذلك حواجبهم وفقا لرواية من الروايات .
ووفقا لرواية أخرى ان النساء هى اللاتى يقمن بابداء شعائر الحزن
هذه ، فالأرملة تجتمع فى حجرة زوجها المتوفى مع قريباته ويسلمن
أنفسهن لأعمال العنف أو بالأحرى يسلمن أنفسهن للتعبير عن الحزن ،
فيشددن شعورهن ويلطمن وجوههن وصدورهن ، ويعترضن على حادث
الوفاة المؤسف . أما الشعر الذى ينتزعه من رؤوسهن فى هذه المناسبة ،
فيضعنه فيما بعد فى لحد الميت . ويجتمع الأقرباء فى مثل هذه المناسبة
عند قبيلة « أوسيتى » فى القوقاز فيعري الرجال رؤوسهم وأفخاذهم
ويضربون أنفسهم بالسياط حتى يسيل منها الدم . أما النساء
فيخذشن وجوههن ويعضضن أذرعهن ويشددن شعورهن ، ويضربون
صدورهن ، وهن يصرخن صراخا معولا .

ويبدو أن عادة تجريح الجسم ، بعيدا عن عادة بتر مفاصل
الأصابع ، تقل نسبيا بين القبائل الافريقية . ومن عادة الأحباش ،
عندما يحزنون على وفاة قريب أن يقصوا الشعور وينثروا الرماد على
رؤوسهم ويخذشوا خدودهم حتى يسيل منها الدم . واذا حدثت وفاة
عند قبيلة وانىكا التى تسكن فى شرق افريقيا ، فان الأصدقاء
والأقرباء يجتمعون ويعولون بصوت عال ، ويخلقون رؤوسهم
ويخذشون وجوههم . وعند قبيلة كيسى التى تعيش عند حدود ليبيريا
تغطى النساء أجسامهن عند الحزن على الميت ، كما يغطين رؤوسهن
بصفة خاصة بطبقة من الطين ، ويخذشن وجوههن وصدورهن
بأظافرهن . وقد تعودت الأرمل عند بعض قبائل كافير التى تسكن فى
جنوب افريقيا ، أن تبقى فى مكان منزل مدة شهر بعد وفاة زوجها ،
ثم تخلع ملابسها وتغسل جسمها ، وتجرح صدرها وذراعيها ورجليها
بحجر حاد ، بعد انقضاء هذه الفترة ، وقبل أن تعود لبيتها .

واذا كانت عادة تجريح الجسم عند الحزن تمارس في ندرة في افريقيا ، فانها كانت مألوفة بين القبائل الهندية في أمريكا الشمالية . فقد ألف أفراد قبيلة « تينيه » أو « دينى » التى كانت تسكن في شمال غرب أمريكا أن يجرحوا أجسامهم عند وفاة قريب ، ويقصوا شعورهم ويمزقوا ملابسهم ويتمرغوا في التراب . واذا حدثت وفاة عند قبيلة « كينسييتنوه » أو « كرى » التى كانت تنتشر في مساحة واسعة في غرب كندا ، فانهم يعبرون على هذا النحو عند أحزانهم . واذا كان الفقيد عزيزا عند اقرباءه الأدين يقصون شعورهم ويخزون الرماح والسكاكين في أفخاذهم وأذرعهم ويطلون وجوههم بالفحم . وعندما يحرق جسد الميت في النار المضطربة عند قبيلة « كيجانى » وهى فرع من هنود « تيلينكت » أو « تيلينجيت » في الاسكا ، فان أقرباء المتوفى يجتمعون ويؤذون أنفسهم بدون هوادة ، مزدريين أنفسهم كل الازدراء ، فيخدشون أجسامهم ويجرحون أذرعهم ويضربون وجوههم بالأحجار الى غير ذلك من الأفعال العنيفة . وهناك فرع آخر من هنود تيلينجيت يكتفى أفراده في مثل هذه المناسبة الحزينة بحرق شعورهم أو تشييطها بأن يزجوا برءوسهم في لهيب النار المضطربة المعدة لحرق الجثث بينما يكتفى البعض الآخر الذين يتسمون بشيء من التعقل في تصرفاتهم ، أو ربما لأن حزنهم على الفقيد لم يكن يصل الى درجة حزن الآخرين عليه ، بقص شعورهم وطلاء وجوههم برماد الجثة المحترقة .

وقد كان من عادة رجال ونساء هنود ولاية وشنطون الشجعان الذين يتميزون برءوسهم المفلطحة ، أن يعلنوا الحداد على المحارب المتوفى . بأن يقطعوا قطعة من لحمهم ويلقونها في النار مع جذوع الأشجار . واذا ألت كارثة بهنود هذه المنطقة كأن يتوفى زعيم مرموق أو تقتل جماعة من محاربيهم بيد قبيلة معادية ، فان الجميع يشتركون في اظهار هذه العواطف المحمومة ، فينتزعون شعورهم ويجرحون أجسامهم بحجر القداحة وكثيرا ما يصيبون أنفسهم بأذى بالغ .

« وقد كانت من عادة أقرباء الميت في قبيلة شينوك ، وغيرها من القبائل الهندية التي تسكن في أوريجون أو عند نهر كولومبيا ، أن يدمروا ممتلكاتهم ، ويقصوا شعورهم ، ويشوهوا أجسامهم ويجرحوها » .
وقد يتراءى للرائى ، عندما ينظر الى هذه القبائل الهمجية ، والدماء تسيل من أجسادهم ، أنهم لن يبرعوا من مثل هذه الأعمال المتوحشة التي يصنعونها بأنفسهم ، ولكن مثل هذه الجروح ، وان تكن سيئة ، ليست خطيرة . ولكى يجرح الرجل الهمجى نفسه ، فانه يمسك بجزء من جلده بين الابهام والسبابة حتى يبرز هذا الجزء ، ثم يأتى بسكين ويزجه في وسط ، فيترك هذا القطع ، بعد أن يعود الجلد الى وضعه الطبيعى ، جرحا بالغاً قبيح المنظر أشبه بالحجر . ومن هذا الجرح يتدفق الدم بغزارة . وبهذا يشوه أقرباء المتوفى أنفسهم بمثل هذه الجروح ، وربما بما هو أسوأ منها .

« واذا حدثت وفاة بين هنود شبه جزيره كاليفورنيا ، فان من يود أن يبدى لأقرباء الميت حبه له ، فانه ينتظر قدوم أقرباء الميت ، فاذا مروا به فانه يخرج من مخبأه زاحفا على وجه التقريب ، ويتغنى بصوت شاك حزين قائلاً : « هو ، هو ، هو » ، ثم يضرب رأسه بأحجار حادة مدببة ، حتى يسيل الدم على كتفيه . وعلى الرغم من أن هذه العادة البربرية كثيراً ما كانت تحرم ، الا أن الناس لا يبدون استعداداً للكف عنها » . وبمجرد أن تصعد روح الميت « عند الهنود » (الجالينوميريين) ، وهم فرع من الهنود البومبيين الذين يسكنون وادى نهر روسيا في كاليفورنيا ، « فانهم يلقون بالجة في وقار بين النار المضطربة المعدة لحرقها . وليس من اليسير وصف تلك المناظر البشعة التي يقومون بها من صراخ وعويل مفرع ، الى اصابة الجسم بجراح بالغة في أثناء احتراق الجثة . ويقول « جوزيف فيتش » انه قد رأى هندياً أصابه الهياج الى درجة أنه دفع بنفسه بين النار المتوهجة ، وانتزع قطعة من جسد الميت المحترق والتمها » . ويقص أقارب المتوفى الأدنون في بعض قبائل هنود كاليفورنيا شعورهم ، ويرمونها

في النار المضطربة ، في الوقت الذي يأخذون في ضرب أجسامهم
بالأحجار حتى تدمى •

ولكى يبدى هنود « سنيك » الذين يسكنون جبال روكي حزنهم
على الفقيد القريب أو على الفقيد الصديق ، فانهم يحدثون جراحا في
الأجزاء التي يتراكم فيها اللحم في أجسادهم • وكلما ازداد حبههم
للفقيد ، عمقوا الجرح في أجسادهم • وقد أكد هؤلاء لمبشر فرنسي أن
الألم الذي يملأ نفوسهم لفقد الميت يتسرب الى الخارج من هذه
الجروح • وقد أخبرنا هذا المبشر نفسه أنه تقابل مع مجموعة من نساء
« كرو » المكومات ، وقد غطت الدماء المتجلطة أجسامهن في صورة
بشعة الى درجة أن منظرهن كان يبعث على الشفقة بقدر ما كان يثير
الفرع • وقد كان هؤلاء النسوة المساكين ملتزمات بتجديد شعائر
الحزن في كل مرة يمررن فيها بجانب قبور أقربائهن • وقد كان من
المحرم عليهن أن يغسلن أجسامهن طالما كانت هناك بقعة متجلطة من
الدم فوقها • ومن عادة قبيلة « كومانثي » ، وهي قبيلة هندية تشتهر
باقتنائها الخيول في تكساس ، أن أفراس الرجل الميت تقتل في العادة
وتدفن معه حتى يتمكن المتوفى من أن يركبها في « بلاد الصيد السعيدة » •
كما يحرق أفضل متاعه لكي يكون معدا للاستعمال عند وصوله الى العالم
الأفضل • وعند ذاك تجتمع زوجاته الارامل حول أفراسه ، وقد حملت
كل منهن سكيئا في يد وحجر الشحذ في اليد الأخرى ثم يعولن
بصوت عال بعبارات حزينة بينما يجرحن أذرعهن وأرجلهن وأجسامهن ،
حتى ينتابهن التعب نتيجة تدفق الدم • كما يقص أفراد هذه القبيلة
شعر أعناق الأفراس وذيلها تعبيرا عن الحزن في هذه المناسبات ، كما
يقصون شعورهم أنفسهم ويجرحون أجسامهم بطرق شتى • وعند
هنود « أراباهو » تجرح النساء الحزيمات الجزء الأعلى والأسفل
من أذرعهن وكذلك أسفل ركباتهن جرحا سطحيا • ويحل المحزونون في
هذه القبيلة جدائلهم ، وفي بعض الأحيان يقصونها • وكلما ازداد حبههم
للفقيد الراحل ازداد قطعهم لشعرهم • ثم تدفن خصل الشعر

المقصود مع جسد الميت • وفضلا عن هذا فإنه يقص شعر ذيل الحصان الذى قتل ليرافق الميت فى حياته الآخرة ، وكذلك شعر عنقه ، وينثر الشعر على ضريح الميت • وعند وفاة الأب أو الأم أو الابن عند السوكيين والفوكسين • وهما يكونان قبيلة هندية أخرى ، فإن أقارب المتوفى ، « يجرحون أذرعهم وأرجلهم وأجزاء أخرى من أجسادهم • وهم لا يفعلون ذلك بقصد تعذيب الذات ، ولا بقصد إثارة الألم فى نفوسهم الأمر الذى يصرفهم عن تذكر خسارتهم • وإنما يفعلون ذلك بدافع الاعتقاد فى أن حزنهم الداخلى لابد أن يجد منفذا يتسرب منه • وليست هناك وسيلة أخرى للتخلص من هذا الحزن خلاف هذه الوسيلة » • وبالمثل يجرح أفراد قبيلة « داكوناس » أو سيوكس أذرعهم وأفخاذهم وأرجلهم وصدورهم وغير ذلك ، على هذا النحو عند موت صديق • ويعتقد الكاتب (١) الذى دون هذه العادة أنه من المحتمل أن هذه القبيلة تفعل هذا بقصد التخفيف عن آلامهم النفسية ، لأن هؤلاء الهنود أنفسهم كثيرا ما تعودوا أن يجرحوا أنفسهم وأن يمتصوا دماءهم ، وذلك لشفاء أنفسهم من ألم جسدى • وفى أثناء هذه العملية يغنون أو هم بالأحرى يرتلون التعاويذ التى يعتقدون أنها بدون شك تعينهم على الشفاء • وقد تعودت الأرملة فى قبيلة « كانساس » أو « كونساس » التى تسمى الولاية باسمها ، وهى فرع ينتمى الى أصل « سيووان » ، أن تخذش نفسها وان تطلو جسدها بالطين ، كما أنها تهمل لبسها وتظل على هذه الحالة الجنونية مدة عام • ثم يأخذها أكبر أخوة الزوج المتوفى لتكون زوجة له دون أن يقوم بأى نوع من الاحتفالات •

وهذه العادة التى تختص بحداد النساء الأرامل تنتشر على

William H. Keating

(١) هو الكاتب

Narrative of an expedition to the source of St. Peter's River.

وذلك فى كتابه

(نقلا عن النسخة الأصلية لهذا الكتاب ، ج ٣ ص ٢٨١)
(المترجمة)

نحو مشابه بين فروع أوماها في نيبيراسكا ، وهى فرع آخر ينتمى الى أصل « سيووان » • « فعند وفاة الزوج تبدى الزوجات من الهنود الحمر حزنهن المخلص على وفاة الزوج ، بأن يوزعن على الجيران كل شىء يمتلكنه ، ولا يحتفظن الا ببعض الملابس القليلة التى تكفى لتغطية أجسامهن لدرجة الاحتشام • ثم يخرجن من القرية ويجرحن أجسامهن ويأخذن فى العويل لفقد الميت دون انقطاع • فاذا كان للفقيد أخ ، فإنه يتخذ أرملة أخيه بعد قضاء فترة مناسبة على وفاة زوجها ، زوجة له ، دون أن يقوم بأى استعداد رسمى لذلك » • أما عند قبيلة « أوماها » فلا يقتصر هذا الحداد الصارم على النساء الأرامل ، « فأقارب الميت يطلون أنفسهم بالجص ، ويجرحون أنفسهم بالحجر القداح ويقطعون أجزاء من جلدهم ولحمهم ، ويخزون أجسامهم بالسهام • فاذا مشوا فانهم يمشون حفاة الأقدام على بعد من قومهم لاظهار حزنهم على الشخص المتوفى » • « فاذا توفى رجل له مكانة بين قومه ، فانهم يعلنون الحداد على النحو التالى : « يتقابل الشباب الذين فى مقتبل العمر عند مكان يقع بالقرب من مسكن المتوفى ويخلعون عنهم ملابسهم فيما عدا المؤزر • ثم يجرح كل منهم أعلى ذراعه جرحين ، ويزجون فى اللحم فرعا ذا عسلوج فى طرفه • ثم يتحركون فى صف واحد والدم يقطر من العسلوج المعلق فى أذرعهم ، حتى يصلوا الى مسكن الفقيد • وهناك يقفون فى مواجهة مسكنه فى صف بحيث تتلاصق أكتافهم ويغنون فى انسجام الأغنية الجنائزية على ايقاع فروع الصفصاف المتحركة ، وهى الأغنية الجنائزية الوحيدة التى تعرفها هذه القبيلة • وعند نهاية الأغنية يتقدم قريب من أقرباء الميت نحو المغنين ويرفع يده علامة على الشكر ، وينتزع فروع الصفصاف من أذرعهم ويرميها على الأرض » • وخلاف هذا ، فقد ألف أفراد هذه القبيلة ، ابداء لحزنهم على وفاة قريب أو صديق ، أن يقصوا خصلات شعورهم ويرموها على جسد الميت • وكذلك تقص

نساء هنود فرجينيا ضفائرن في بعض الأحيان ويرمينها على قبر الميت .

واذا حدثت وفاة بين هنود « وتاجونيا » ، يقوم المحزونون بتقديم واجب العزاء للزوجة الأرملة أو لأى قريب من أقرباء الرجل المتوفى ، وهم يحسرخون ويعولون ويغنون بطريقة أشد ما تكون كآبة ، ويعتصرون دموعهم ، ويخزون أذرعهم وأفخاذهم بأشواك حادة حتى تدمى . وفى مقابل ابداء هذه العواطف الحزينة يمنحون بعض الخزرات أو بعض الحلى الرخيص . وبمجرد أن يعلم الشخص من قبائل « فويجيان » بموت صديق أو قريب له ، فإنه ينفجر فى ابداء العواطف الحزينة ، فيبكى ويئن . كما أنه يجرح وجهه بقوقعة ذات طرف حاد، ويقص شعره حتى يبدو قصيرا . أما عند قبيلة أونا الفويجيانية ، فإن عادة جرح الوجه ابداء للحزن على الفقيد تقتصر على النساء الأرامل أو قريبات المتوفى .

وقد كان من عادة الاتراك القدماء أن يقطعوا وجوههم بالسكين حزنا على فقيدهم حتى يسيل الدم والدموع معا على وجناتهم . ومن عادة قبيلة « أورانج ساكاي » ، وهى قبيلة وثنية بدائية تعيش على الزراعة والصيد فى غابات شرق سومطرة التى يصعب على المسافر توغلها ، أن يقطع أفرادها وجوههم بالسكين حزنا على الميت قبل دفنه ، حتى يدعوا الدم يسيل على وجهه . واذا حدثت وفاة بين القبائل التى تتحدث لغة « رورو » التى تسكن عند منبع نهر سنت جوزيف فى نيوغينيا البريطانية ، فإن النساء الغربيات من المتوفى يضربن رؤوسهن ووجوههن وحذورهن ويطونهن وأذرعهن وأرجلهن بقواقع حادة حتى يتساقط الدم منهن ويقعن منهكات على الأرض . وعند قبيلتى « كويارى ، وتورايبى » اللتين تسكنان فى نيوغينيا ، يجرح المحزونون أجسامهم بالقواقع أو الحجر القداح حتى يتدفق الدم منهم بغزارة . وتعد فترة الحزن فى جزيرة « فاييتى » أو « افاتى » وهى إحدى جزر الهبيريد مناسبة للمعويل الشديد . كما أن المحزونين يخدشون وجوههم حتى يتدفق منها الدم .

ويحدث مثل هذا في جزيرة « ماليكولا » ، وهي جزيرة أخرى من جزر الهبريد الجديدة • فالمحزونون كانوا وما زالوا يقطعون أجسادهم حزنا على الفقيـد •

ويقدم الجاليلاريزيون سكان هالماهيرا ، وهي جزيرة تقع في غرب نيوغينيا شعورهم لروح قريبيهم المتوفى في اليوم الثالث لوفاته ، وهو اليوم التالي ليوم الدفن • وتقوم امرأة لم ترزأ منذ زمن قريب في موت أبيها أو أمها أو ابنها بتأدية واجبات المحزونين ، فتنتزع شعر أطراف حواجبهم وخصلات شعورهم ، وتعلق هذا الشعر على معابدهم • وبعد أن يقص شعر المحزونين على هذا النحو ، فانهم يذهبون الى البحر ليستحموا ويغسلوا شعورهم بجوز الهند المبشور حتى يتطهروا من لوث الميت ، لأنهم يعتقدون أن لمس جسد الميت أو الاقتراب منه يجعل الشخص نجسا ، ومن يتعرض لمثل هذا الدنس أو يأكل طعاما كان في البيت مع وجود جثة الميت ، فانه ، وفقا لتصورهم ، يفقد القدرة على رؤية الأرواح • واذا لم يقدم الأحياء شعورهم للميت ، ولم يقوموا بتطهير أنفسهم بعد ذلك فانه لا يتخلص وفقا لاعتقادهم كذلك ، من تعقب روح الأخ الميت أو روح الأخت الميتة لهم • فاذا توفي شخص بعيدا عن بيته ، على سبيل المثال ، ولم يكن نبأ موته قد وصل الى أسرته ، ولم يكن أفراد الأسرة ، بناء على ذلك ، قد قصوا شعورهم أو استحموا في اليوم الثالث لوفاته ، فان شبح الميت (الذي يطلقون عليه اسم صوصو) يسكنهم ويمنعهم من القيام بأعمالهم • فاذا عصروا جوز الهند بعد ذلك ، فانهم لا يستجلبون منه الزيت ، واذا سحقوا لب النخل ، لا يحصلون على وجبة تسد رمقهم ، واذا قاموا بالصيد فانهم لا يوفقون في اصطياد أى حيوان • ويظل الشبح يضايقهم ويعطل أعمالهم حتى يصلهم نبأ الموت • وعند ذاك يقصون شعورهم ويستحمون • ويعتقد البشر الكفاء الذى روى لنا هذه المعلومات أن تقديم الشعر للميت يخدع الشبح الساذج فيجعله يتصور أن أصدقاءه قد تبعوه في العالم الآخر • ولكننا نشك فيما اذا كانت درجة سذاجة

الأشباح قد تمتد بحيث انهم يأخذون خطأ خصلات الشعر على أنها هي نفسها الأشخاص الذين قصت هذه الخصلات من شعورهم •

ويبدو أن هذه العادات كانت تنتشر بين كل فروع الجنس البولونيزى الذى ينتشر انتشارا كبيرا فى الباسفيك • فمن المؤلف عند حدوث وفاة فى أوتاهايتى أن يحمل رفات الميت الى بيت أو كوخ بنى لهذا الغرض ويطلق عليه اسم « توبابو » • وهناك يترك حتى يتعفن ويتحلل اللحم تماما وتتخلف العظام • « وتبدأ شعائر الحداد بمجرد أن توضع الجثة فى الـ « توبابو » ، فتجتمع النساء عند باب أقرب قريبة للميت التى تكون بصدد ضرب هامتها مرات عديدة بسن سمك القرش حتى يتدفق منها الدم ويستقبل بحرص على قطع من القماش الكتان التى تطرح بعد ذلك فى نعش الفقيد ، ثم تفعل سائر النسوة بعد ذلك فعل هذه المرأة • ويتكرر حدوث هذا مدة يومين أو ثلاثة طالما كن متحمسات لهذا الفعل، وما زلن يبدين الأسف على فراق الميت • كما تستقبل الدموع التى تسكب فى هذه المناسبة على قطع من القماش وتقدم منحة للميت • ويقطع بعض الأفراد الأصغر سنا شعورهم ويرمونهم أسفل النعش مع عطايا أخرى • وترتكز هذه العادة على فكرة أن روح الميت الذى يعتقد أنه يعيش منفصلا عن الميت ، يخلق فى المكان الذى يستلقى فيه الجسد ويرقب أفعال الاحياء • وهو يمتن كل الامتنان بما يبدونه من مشاعر الحب والحزن » ووفقا لرواية كاتب آخر أن « التاهيتيين فى حالة الحزن، لا يعولون بصراخ عال ونغمة مؤثرة فحسب ، وانما يخلقون شعورهم ويمزقون ملابسهم ويقطعون أجسامهم بأسنان سمك القرش أو بالسكين بطريقة مفزعة • والآلة التى تستخدم عادة فى هذا الايذاء ، هى قصبة صغيرة يبلغ طولها حوالى أربع بوصات ومثبت فى جانبيها ست أسنان من أسنان سمك القرش • وتحفظ كل امرأة بهذه القصبة بعد زواجها لكى تستخدمها فى مناسبات الموت بلا رحمة • على أن البعض لا يكتفون بايذاء أنفسهم بهذه القصبة ، وانما يعدون آلة قصيرة أشبه بمطرقة الحداد ويبلغ طولها خمس أو ست بوصات • وهى مستديرة

عند طرف مقبضها ، ومثبت في طرفها الخشبي الآخر صفان أو ثلاثة من أسنان سمك القرش . وبهذه الآلة يقطعون أجسامهم دون هوادة عند موت قريب أو صديق ، كما يضربون رعوسهم وخدودهم وصدورهم حتى يتدفق الدم بغزارة من الجروح ، وفي الوقت نفسه يصرخون صراخا يصيب الانسان بالصمم ويبعث في النفس الألم . كما أن ملامحهم المشوهة وشعرهم الأشعث الممزق ، ودموعهم ودماءهم المختلطة التي تغطي أجسامهم ، ونظراتهم الهائجة ، وسلوكهم الجامح ، كل هذا يخلع عليهم مظهرا لا انسانيا مفرعا . وتقوم النساء أساسا بهذه الأعمال العنيفة ، ولكنهن لا يقمن بها وحدهن ، وانما يشاركن الرجال في هذه المناسبات ، هذه الأفعال الشائنة . فهم لا يقطعون أجسامهم فحسب وانما يأتون مسلحين بالهروات وغير ذلك من الأسلحة المميتة التي يستخدمونها في إيذاء أنفسهم . وترتدى النساء في بعض الأحيان في هذه المناسبات الكئيبة مئزرا يمسكن طرفه باحدى أيديهن لكي يستقبلن فيه الدم ، بينما يجرحن أنفسهن باليد الأخرى . ثم يجفف هذا المئزر بعد ذلك في الشمس ويقدم الأسرة المتوفى رمزا للود ، وهي تحتفظ به بدورها بوصفه دليلا على التقدير الذي كان يتمتع فيه الفقيد . وعند موت ملك أو زعيم كبير يجتمع مواطنوه ويمزقون شعورهم ويجرحون أجسامهم حتى تتغطي بالدم المتدفق ، وكثيرا ما يتشاجرون بالهروات والأحجار حتى يقتل منهم واحد أو أكثر . وربما ساعدتنا هذه المشاجرات التي كانت تحدث عند موت زعيم كبير في تفهم نشأة عادة مقاتلة الأسير حتى الموت التي نشأت في روما . فالقدماء أنفسهم أخبرونا أن هذه المشاجرات جرت لأول مرة في الجنائز ، وكانت بديلا لقتل الأسرى عند قبر الزعيم المتوفى . وقد أقام « بونيوس بروتس » أول عرض من هذا النوع في روما عام ٢٦٤ ق.م . تكريما لوالده المتوفى .

ولم يكن يقتصر استخدام نساء تاهيتي لأسنان سمك القرش بوصفه مبضعا لاسالة الدم من رعوسهم على مناسبات الموت ، بل كانت المرأة تستخدم هذا السلاح كذلك اذا حدث حادث لزوجها أو

لقريب من أقربائه أو صديق من أصدقائه أو لطفل من أطفالها • بل انها تستخدمه اذا وقع طفلها على الأرض ولحق به الأذى وعند ذاك تخلط دمها بدموعه • أما اذا توفي الطفل فان البيت يعج عند ذاك بالأقارب الذى يجرحون أجسامهم ويعولون بصوت مرتفع • « وفي هذه المناسبة يقطع الولدان شعرهما من جانب واحد بحيث يبدو قصيرا من جانب وطويلا من الجانب الآخر ، هذا بالإضافة الى سائر شعائر الحزن الأخرى • وأحيانا يقص الوالدان شعرهما في مساحة مربع في مقدمة الرأس ، وقد يترك البعض الآخر هذا الجزء ويقصون ما دون ذلك • وفي بعض الأحيان تترك خصلة من الشعر فوق كل أذن ، وأحيانا تترك خصلة فوق أذن واحدة ، كما أنه في بعض الأحيان يقص نصف الشعر على نحو قصير للغاية ويترك النصف الآخر لينمو • وقد تمتد شعائر الحزن هذه مدة عامين أو ثلاثة أعوام » • وربما فسر هذا عادة الاسرائيليين في احداث صلعات في رؤوسهم علامة على الحزن •

واذا توفي ملك أو زعيم كبير في هواى أو جزر السندوتش ، فان الناس يعبرون عن أحزانهم بأشكال شتى من الاعتداء على أنفسهم ، فهم لا يمزقون ملابسهم كلية فحسب ، وانما يضربون أعينهم وأسنانهم بالسوط والحجر ، وينتزعون شعورهم ، ويحرقون جسداهم ويقطعون • وأكثر عمليات التشويه التى تمارس في هذه المناسبات انتشارا ، هى عملية اقتلاع الأسنان عن طريق ضربها • وكل من الجنسين يتبع هذه العادة ، وان كان الرجال يقومون بها على نطاق واسع • وعند وفاة ملك أو زعيم بارز ، فانه يتوقع من الزعماء الآخرين والذين تربطهم به رابطة الدم أو الصداقة ، أن يعبروا عن علاقتهم به بكسر سن من أسنانهم الأمامية عن طريق ضربها بالحجر • فاذا فعلوا هذا ، فان اتباعهم يشعرون بالتزامهم باقتفاء أثرهم • وفي بعض الأحيان يكسر الرجل سنه بنفسه • ولكن الغالب أن يقوم بتأدية هذا له شخص آخر ، فيأتى هذا بعصاة ويغرسها بجانب السن ويدقها بالمطرقة حتى يقتلع

السن أو تكسر • فاذا تردد الرجال في فعل هذا ، فان النساء يقمن بهذا العمل لهم في أثناء نومهم • ومن النادر أن يقتلع أكثر من سن في مناسبة واحدة • ولكن لما كانت عملية الايذاء هذه تتكرر عند وفاة زعيم أو كبير فمن النادر رؤية رجال بالغين وقد اكتملت أسنانهم • بل ان كثيرا منهم فقد أسنانه الأمامية في كلا الفكين ، الأمر الذي ينجم عنه عيب في النطق ، بالإضافة الى الاضرار الأخرى • على أن هناك من يجروء على أن يشذ عن هذه القاعدة ويحتفظ بأسنانه كاملة •

وبالمثل فان أفراد قبيلة تونجان يقتلعون أسنانهم في فترات الحزن كما يحرقون أجسامهم ويحدثون فيها قرحا ، كما يغرزون أسنان سمك القرش في رؤوسهم حتى يتدفق منها الدم ، ويزجون السهام في أفخاذهم وفي الطرف الأسفل من ابطنهم وفي خدودهم حتى تدخل في أفواههم • ولقد أبصر بحار انجليزى توفى في مطلع القرن التاسع عشر في أثناء اقامته بين قبيلة تونجون ما قام به الناس من أعمال غريبة حزنا على ملكهم « فينو » ، وقد صور ذلك في وضوح بالغ • فقد أخبرنا أن الزعماء والنبلاء الذين اجتمعوا في هذه المناسبة أبدوا حزنهم على فقد ملكهم بأن أخذوا يقطعون أجسامهم ويضربونها بالسياط والأحجار ، ويقطعونها بالسكاكين والقواطع الحادة • وقد يجرى أحدهم أو اثنان منهم أو ثلاثة دفعة واحدة ، ثم يقفون وسط دائرة المتفرجين ليبرهنوا على حزنهم البالغ وتقديسهم لذكرى سيدهم وصديقهم الراحل • فيصرخ أحدهم قائلاً : « فينو ! اننى أعرف تماما ما يدور بخلدك ، لقد شئمت أن تتركنا وترحل الى بولوتو (أرض الأموات) • وبهذا تركت شعبك في شك من أمره • فاذا كنت تشك في اخلاصى أو اخلاص غيرى لك فما الدليل على عدم الاخلاص ؟ وهل هناك سلوك واحد من قبلنا يدل على عدم احترامنا لك » ؟ وبعد أن يقول هذا يضرب رأسه بقسوة ويجرحها جرحا عميقا بالسوط أو الحجر أو السكين وهو يصرخ بين الحين والآخر : « أليس هذا دليلا على اخلاصنا لك ؟ ألا يؤكد هذا ولاءنا واحتفاظنا بذكرى محاربنا الراحل ؟ » ثم يأتى شخص آخر

ويسير مستعرضا نفسه جيئة وذهابا في خطوات هائجة جامحة
ثم يدير سوطه في سرعة ويضرب نفسه به مرتين أو ثلاث مرات
بقسوة على أم رأسه أو خلف رأسه ، ثم يقف فجأة ويحلق في الدم
المتدفق ويصرخ قائلا : « واحسرتاه ياسوطى • من ذا الذى كان
يتصور أنك تفعل هذا الفعل الحسن بى ، وتمكننى من أن أبدى احترامى
للكى فينو • أبدا ، أبدا ، لن تستطيع بعد ذلك أن تهوى على
رءوس أعدائه • واحسرتاه على المحارب الشجاع العظيم الذى سقط
ميثا • أيها الملك ، لتكف عن أن تشك فى ولائى لك ، ولتتأكد من اخلاصى
لك » • وهناك من يرتكب أعمالا أعنف من هذا بأن يضرب رأسه ضربات
شديدة متتالية حتى يصاب بالدوار ويفقد صوابه لبعض الوقت •
كما يقوم البعض الآخر فى أثناء فترة الحزن على « فنو » بحلق
رءوسهم ، واحراق وجناتهم بقطع من القماش المضفر المحترق ، ودعك
جراحهم بثمار قابضة مسيلة للدم • ثم يضعون هذا الدم فى شكل
حلقات حول الجرح الذى يبلغ قطره بوصتين فيكون منظرهم بذلك
منفرا للغاية • وهم يكررون عملية الدعك هذه يوميا ، بحيث يسيل
منها الدم من جديد • أما الصيادون فيضربون رءوسهم ويكدمونها
بمجاديفهم دليلا على حبههم لسيدهم الراحل • وفضلا عن هذا فان كلا
منهم يرشق ثلاثة سهام فى كل خد فى اتجاه مائل ، بحيث تدخل أطرافها
داخل الفم وتتعلق رءوسها فوق الكتف ، بينما يسندها سهم آخر
يثبت فى ظهر الصياد ويمسك برءوس المجموعتين بحيث يكون شكلا
مثليا • وبهذا العتاد الغريب يسير الصيادون حول قبر المتوفى وهم
يخربون وجوههم ورءوسهم بالمجاديف ، أو يلدغون جلد صدورهم
ويرشقون بداخلها السهام • وكل هذا من أجل ابداء عواطفهم
للزعيم الراحل •

وكذلك كانت من عادة المحزونين فى جزر « ساموان » ، أن يظهروا
حزنهم عن طريق العويل المحموم والصراخ وعن طريق تمزيق
الملابس وتقطيع الشعر واحراق الجسم بشعلات من النار ، واصابته

بكدمات بضربه بالاحجار ، وجرحه بالاحجار الحادة والقواقع ، وأسنان سمك القرش حتى يغطي الدم أجسام المحزونين • وهذه التعبير لا يعنى ، وفقا لرأى الدكتور « جورج براون » ، تقديم الدم للآلهة ، بل يعنى أولا وقبل كل شئ ، ابداء العواطف نحو الفقيد والحزن على فراقه • ومثل هذا يحدث فى « مانجيا » احدى جزر هيرفاى • فمما يكاد الشخص المريض يلفظ أنفاسه ، حتى يصبغ أقرباؤه الأذنون وجوههم بالسواد ، ويقصون شعورهم ويضربون أجسامهم بأسنان سمك القرش حتى يتدفق الدم منها • وقد كان من المؤلف فى « رارتونجا » أن تكسر بعض الأسنان الأمامية ابداء للحزن على الميت • وعلى هذا النحو يعلن المحزونون أسفهم على الفقيد فى جزر ماركويزا • « فعندما يموت زعيم كبير ، تطلق أرملته ونساء القبيلة صرخات مدوية ، بينما يضربن جباههن وخدودهن وصدورهن بشظايا البامبو • وقد اختفت تلك العادة على الاقل فى « توكاهيفا » • أما فى مجموعة الجزر الجنوبية الشرقية ، فلا تزال النساء يتبعن تلك العادة ، فهن يدمين وجوههن بعد جرحها بجراح بالغة ، ويظهرن علامات الأسى فى جنازة القريب » •

وقد كانت عادة الحزن بين الموءورين فى نيوزيلندة شبيهة بهذا • « فزوجات الميت وأقرباؤه ، وبخاصة النساء يبدون حزنهم عن طريق قطع وجوههم وجباههم بالقواقع وقطع الزجاج البركانى الاسود ، حتى يتدفق الدم بغزارة ، ثم يتركونه يجف على وجوههم • وكما تغطت الوجوه بجلطات الدم بدا حزنهم أكبر على الفقيد • كما كان الشعر يقص دائما علامة على الحزن • وكان الرجال يقصون شعورهم من جانب واحد من الجبهة الى الرقبة » • ووفقا لرواية أخرى ان قطع الجسم من أجل الفقيد بين الموءورين لم تكن تقتصر بحال من الاحوال على الوجوه والجباه • « فكل أقرباء الميت وأصدقائه وعبيده وخدمه وأتباعه ، اذا كان يملك بعضا منهم ، يقطعون أجسامهم فى ايجاع ، بحيث يكون مرآهم مفزعا للرجل الاوربى • فهم يمسكون

بقطعة من حجر القداح (وتقدس هذه القطعة لسفكها الدم وبسبب الغرض استخدمت من أجله) بين الابهام والوسطى ويدخلونها في جادهم على مسافة تبلغ قدر طول الظفر • ثم يجرحون جبهتهم • ويمتد الجرح في شكل هلالى الى أسفل الوجه على كل من الجانبين ، كما تخدش الأرجل والأذرع والصدر بطريقة مؤلمة • وفى بعض الاحيان يجرح النساء صدورهن جرحا بالغا على نحو أشمل وأعمق مما يفعله الرجال •

وربما ليس هناك شعب تتبع فيه عادة تجريح الاجسام تكريما للميت ، اتباعا منظما وبقسوة بالغة كما يفعل سكان استراليا الأصليون السذج الذين ما زالوا يقفون عند أسفل المراتب الاجتماعية • فالارمل فى القبائل التى تسكن غرب فيكتوريا يعلن الحداد على زوجته مدة ثلاثة أشهر قمرية • وفى اليوم الثانى من كل شهر من هذه الشهور يصرخ ويعدد مآثر زوجته ويخدش جبهته الى أن يسيل الدم على خديه • كما أنه يغطى رأسه وجبهته بالجص ، فاذا كان بحبها حبا بالغا ويود أن يعبر عن بالغ حزنه لفقدائها ، فانه يحرق نفسه حول خصره فى شكل ثلاثة خطوط بلحاء شجر متوهج • أما الارملة فهى تعلن الحداد على زوجها مدة سنة قمرية ، فتقص شعرها باتقان ، وتحرق فخذيها بالرماد المتوهج الذى تضغطه عليهما بقطعة من اللحاء حتى تصرخ من الألم • وفى الليلة الثانية من كل شهر تبكيه بعويل وتعدد مناقبه وتجرح جبهتها حتى يتدفق الدم على وجنتيها • وفى الوقت نفسه تغطى رأسها وجهها بالجص • وينبغى عليها أن تفعل هذا مدة ثلاثة أشهر قمرية • ويخدش الاطفال جباههم حزنا على فقد والديهم • والوالدان عند سكان وسط فيكتوريا هما اللذان يجرحان جسميهما جروحا بالغة عند فقد ابن لهما • فالأب يضرب رأسه ويجرحها بالفأس ، والأم تحرق صدرها وبطنها بعصاة مشتعلة • وهما يفعلان هذا يوميا ولمدة ساعات حتى تنتهى فترة الحداد • ولا تحرق النساء الأرامل فى هذا القبائل صدورهن وأذرعهن وأرجلهن وأفخاذهن بالعصى المحترقة فحسب ، بل

يدعكن الرماد في جروحهن ويخدشن وجوههن حتى يختلط الدم بالرماد . وعند قبيلة كورناى التى تسكن في جنوب شرق فيكتوريا ، يقطع المحزونون أنفسهم بالاحجار الحادة والفؤوس حتى يتدفق الدم من رءوسهم وأجسامهم . واذا توفي رجل في قبيلة ماكجاراوانيت التى تقطن غرب فيكتوريا ، فان أقرباءه يصرخون عليه ويقطعون أنفسهم بالفؤوس وغير ذلك من الآلات الحادة لمدة أسبوع .

وعند قبائل جنوب موراى وأدنى نهر دارلنج يلهب المحزونون ظهورهم وأذرعهم ، وفي بعض الاحيان وجوههم بشعلات من اللهب المحترق ، حتى يترتب عن ذلك كدمات مؤلمة . ثم ينبطحون في عنف على القبر ، ويمزقون شعورهم عن طريق تدليك رءوسهم وأجسامهم بحفئات من التراب تدليكا مسرفا ، كما يدلكون قرحاتهم التى يضرب لونها الى الخضرة حتى يختلط الدم بالأوساخ في شكل مقرز للغاية . وقد تعود المحزونون في قبيلة كاميلارو ، وهى قبيلة كبيرة تسكن شرق « نيو سوٲ ويلز » ، وبخاصة النساء منهم أن يغطوا رءوسهم بكتل من الجص ، ثم يشقوا رءوسهم بالفؤوس حتى يتدفق الدم فوق الجص ويسيل على أكتافهم حيث يترك حتى يجف . وقد تحدث كاتب عن طريقة الدفن عند سكان نهر « موراى » فقال : « يجتمع كثير من النساء حول نعش الفقيد ، وهن قريبات المتوفى ، ويصرخن ويعولن عويلا مؤلما ، ويجرحن أفخاذهن وظهورهن وصدورهن بالقواقع وحجر القداح ، حتى يتدفق الدم بغزارة من الجروح » .

وتدوم فترة الحزن عند قبيلتى « كابى » و « وكا » اللتين تسكنان جنوب شرق كوين لاند بالقرب من نهر « مارى » حوالى ست أسابيع . « ففى كل ليلة ينبعث صوت صراخ من الجميع ويدوم بض ساعات يصحبه قطع الاجسام بأحجار القداح أو بأية آلة قطع أخرى . ويكتفى الرجال بثلم مؤخر رءوسهم . أما النساء فيجرحن أنفسهن من قمة رءوسهن الى أخمص أقدامهن ، ويتسركن الدماء تجف على

جلودهن » • أما في حي « بوليا » في وسط كوين لاند ، فان النساء يجرحن أفخاذهن بجروح داخلية و سطحية بأحجار حادة أو بقطع من الزجاج ، بحيث يحدثن جروحا في شكل متواز • وفي الاحياء المجاورة « لكوين لاند » يجرح الرجال أفخاذهم في المكان نفسه جرحا واحدا عميقا في شكل صليب • ويجرح أفراد قبيلة « كاكادو » التي تسكن في المنطقة الشمالية من استراليا رعوسهم في وقت الحزن حتى يتدفق الدم على وجوههم وعلى أجسامهم • ويفعل هذا الرجال والنساء على السواء • ثم يجمع بعض الدم بعد ذلك في قطعة من لحاء الشجر توضع بدورها ، فيما يبدو ، عند شجرة تقع في المكان الذي توفي فيه الشخص •

واذا حدثت وفاة في قبيلة « كاريرا » التي تقطن غرب استراليا ، فان أقارب المتوفى الرجال منهم والنساء يولولون ويقطعون فروة رعوسهم حتى يسيل منها الدم • كما يقص شعر المتوفى ويحتفظ به ، ويصنع منه خيوط يرتديها الأقارب • ومن المألوف عند قبيلة « نارينيري » وهي قبيلة تسكن جنوب استراليا أن يحرق جزء من جسد الميت فوق نار هادئة ثم ينزع عنه الجلد وبلون بمادة حمراء • وبعد ذلك بعلق الجسد عاريا على منصة • « وعند ذاك يصرخ أقارب الميت وأصدقاؤه ويعولون ويحلقون رعوسهم في أحكام ، ويدهنون أنفسهم بالزيت والفحم المسخوق • أما النساء فيغطين أجسامهن بالروث المقزز ويضربن أنفسهن ويقطعن أجسامهن ويظهرن عاطفة الحزن في عنف • ويحرص كل الاقارب على الحضور وعلى ألا يتغيب لحظة ابداء علامات الحزن حتى لا يتهموا في اشتراكهم في جريمة قتل المتوفى » •

ويفرض على الرجل في قبيلة « أرونتا » التي تسكن وسط استراليا أن يجرح نفسه عند الكتف حزنا على فقد حميه • فان لم يفعل هذا ، فربما قدمت زوجته لرجل آخر ، حتى يهدأ غضب شبح الاب الذي سيجه عدم ولاء زوج ابنته له •

ويحرق رجال « أرونقا » أكتافهم ، ويظل هذا الجرح الملتهب علامة على ولائهم لأحمائهم المتوفين • أما قريبات المتوفى في قبيلة «أرونقا» ، فيجرحن أنفسهن كذلك ويقطعن أجسامهن ابداء للحنن • وعلى الرغم من أنهن يفعلن هذا في جنون ، ألا أنهن مع اضطرابهن البالغ ، يحرصن على أن يدمين جزءا حيا من أجسامهن ، وانما يعملن القطع في فروة رؤوسهن وأكتافهن وأرجلهن • وتحلق النساء الأرامل شعورهن في قبيلة « وارا مونجا » في وسط استراليا ، ويقطعن فروة رؤوسهن من الوسط ، ويمررن في الجرح عصيا محترقة • وكثيرا ما ينجم عن هذا عواقب جسيمة • وتكتفى قريبات المتوفى الأخريات في قبيلة «وارا مونجا» بقطع فروة رؤوسهن وذلك عن طريق ضربها تباعا بعصى الياح حتى يسيل الدم على وجوههن ، بينما يجرح الرجال أفخاذهم بالسكين جروحا تختلف في درجة عمقها • وهم يعملون على توسيع هذه الجروح قدر الامكان بأن يربطوا خيطا متينا حول الرجل على جانبي الجرح • ويظل أثر الجرح على هذا النحو باقيا الى الابد • وقد أبصر رجل يحمل آثار جراح بلغ عددها مالا يقل عن ثلاثة وعشرين جرحا ، صنعها في جسمه في فترات الحزن المختلفة • وفضلا عن هذا ، فان رجال « وارا مونجا » يقطعون شعورهم في فترات الحزن بحيث تصير شعورهم قصيرة للغاية ، ثم يحرقون هذا الشعر المقصوص ويطلون فروة رؤوسهم بالجص ، بينما يخلق الآخرون شواربهم • وهم في كل عمل من هذه الأعمال يتبعون قواعد محددة ، فهم لا يجرحون الأفخاذ ، بل لا يقصون الشعر أو يحلقون شواربهم اعتباطا ، أو لمجرد الشعور بالحزن ، وانما ينبغي على الاشخاص الذين يؤدون هذه الافعال أن تكون قرابتهم للميت محددة ، وليست قرابة من أى نوع • وتخضع صلة القرابة في تصنيفاتها ومجموعاتها لما تعارف عليه سكان استراليا الاصليون وحدهم • « فاذا توفي رجل » في هذه القبيلة ، « وكان ينتمى اليك بصلة قرابة خاصة ، فلا بد أن تقوم بايذاء نفسك الايذاء المناسب لهذه القرابة ، كأن تجرح فخذك أو تقص شعرك ، وسواء كنت صديقا

شخصيا للميت آم لا أو كان المتوفى صديقك الحميم أم من ألد أعدائك
فلا بد أن تقوم بإيذاء نفسك إيذاء ما » •

ومما هو جدير بالملاحظة أن الدم المتدفق من قطع جسد المحزونين
الاستراليين يصب على جسد الميت مباشرة أو على الأقل يتساقط
على قبره • فقد تعود الرجال في بعض القبائل التي تسكن عند نهر
دارلنج ، أن يقفوا عند القبر المفتوح ، وأن يقوم كل منهم بجرح رأس
الآخر بقطعة خشب معقوفة ، ثم يحنون رؤوسهم فوق الضريح ، بحيث
يتساقط الدم على الجسد المسجي • فإذا كان الميت ذا شأن ، فإن
هذه العملية تتكرر بعد أن يلقي بعض التراب على الجسد المسجي •
ويحدث مثل هذا عند قبيلة « ميليا » — « أوبا » التي كانت تحتل
البلد القريب من بحيرة توروتا التي تقع بدورها في الشمال الغربي
من « نيو ساوث ويلز » • فإذا كان المتوفى محارباً فإن المحزونين
يجرحون رؤوس بعضهم بعضاً ، ويجعلون الدماء تسيل على الجسد
المسجي في القبر • « ولقد كنت أشهد حفلاً جنازياً عند قبيلة
باهكونجي التي تسكن في « بوركي » التي تقع على نهر دارلنج ،
عندما قفز الرجل الارمل (وتصادف أنه كان زعيماً من الزعماء) الى
القبر ، وأمسك شعره بأصابعه ، وإذا برجل أسود آخر جاء يقفز
وراءه ، وضربه ضربة قوية بقطعة من خشب معقوفة على مفرق رأسه ،
حتى سال الدم من الزعيم الذي قام بدوره بعمل نفس الفعل مع
رفاقه • وهذا الاجراء يجري وفق تصوري ، على سرير الوداع ، قبل
أن يدفن الميت » • وقد تعودت قريبات الميت في قبيلة أرونتا التي تسكن
وسط استراليا ، أن ترمي بأنفسهن على قبر الميت ، ويقمن بجرح
أجسادهن ورؤوسهن لبعضهن البعض ، بضربها بهراوة الحرب أو بعضي
الحفر حتى يسيل الدم فوق القبر ماراً بالجص الذي يطلون به
أجسامهن • كما وصف كاتب كيف أن الاهالي الذين يسكنون عند
نهر فاس في غرب استراليا يضعون جسد الميت بجانب القبر الذي
يحفرونه ثم « يجرحون أفخاذهم ويقولون عندما يسيل منها الدم •

لقد جئنا اليك بالدم • ثم يدكون الارض بقدم من أقدامهم •
ويرشون الدم من حولهم ويدعون الجروح بحزمة من فروع الاشجار،
ويرمونها وهي مدمية على الرجل الميت » ••

ومما هو جدير بالذكر كذلك ، أن السكان الأصليين في استراليا
يقدمون في بعض الاحيان شعرهم المقطوع ، ودمهم المسكوب لموتاهم •
فيخبرنا سير جورج جراى « أن أهالى بقاع كثيرة في استراليا يقطعون
أجزاء من لحاهم عند الجنائز ويمررونها فوق اللهب ويرمونها فوق
جسد الميت • وفى بعض الأحيان يقطعون لحية الميت ويحرقونها
ويدكون أجسامهم برماد الشعر المحترق » • واذا قارنا عادات
الاستراليين المحدثين بعادات العبريين القدماء فى الحزن ، فاننا نجد
سير جورج جراى يضيف قائلاً : « ان النساء جميعا يجرحن أنفسهن
ويخدشن وجوههن حزناً على الميت ، وهن كذلك يعبرون عن هذا الحزن
بأن يصنعن صلعة فى رعوسهن فيما بين أعينهن وهو المكان الذى تعودن
أن يمزقن جلده بأظفارهن » ••

ويبدو أن عادات الحزن عند سكان تاسمانيا الأصليين البدائيين •
تتفق مع العادات السالفة الذكر ، « فالنساء لا ييكن فقط بعد أن يغطين
رعوسهن المحلوقة بالجص ، ووجوههن بمزيج من الفحم وشحم حيوان
الأمو أو شحم أى حيوان آخر سمين ، ولكنهن يجرحن أجسامهن
بقواقع حادة وبالأحجار ، بل انهن يحرقن أفخاذهن بعصى محترقة •
كما تطرح الازهار فوق القبر ويغطى الجسد العزيز بالاشجار • أما
الشعر الذى يقصصنه فى أوقات الحزن ، فيطرح على ربوة » ••

ولقد استطعنا حتى الآن أن نقتفى أثر عادات قطع الجسم وقص
الشعر ، وهما من علامات الحزن على الميت ، بين قطاع كبير من
الشعوب ، ابتداء من أكثر الشعوب حضارة فى العصر القديم حتى
أكثرهم همجية فى العصر الحاضر ، وبقي لنا بعد ذلك أن نتساءل :
ما مغزى هذه الشعائر ؟ ان النيكوباريين يقصون شعر رعوسهم

وحواجبهم في أوقات الحزن للسبب الذي يعزونه ، وهو الظهور بمظهر متكرر لشبح الميت الذي يرغبون في الروغان منه ، لأنه ، وفقا لتصورهم ، لا يمكنه التعرف عليهم بعد أن يقصوا شعورهم • فهل من الممكن أن تكون الشعوب جميعا قد اصطنعت كلتا العادتين بقصد خداع الشبح أو طرده اذا ما أصبح أقرباء الميت الاحياء غير معروفين للشبح أو منفريين له ؟ ان كلتا العادتين تعتمد بناء على هذا الفرض ، على الخوف من الشبح • فالمحزونون يأملون عن طريق جرح أجسامهم وقص شعورهم ألا يتعرف عليهم الشبح أو ينفر من رؤسهم الملوقة وأجسامهم الدامية فيبتعد عنهم ، أي أنهم يهدفون الى التخلص من مضايقاته في كلتا الحالتين •

ولكن كيف يمكن أن يتفق هذا السبب مع الحقائق التي قدمناها ؟ من المؤكد أن الخوف من شبح الميت في استراليا يرجع الى أمر ما غير الذي ذكر بهذا الصدد • فلقد رأينا أن الرجل في قبيلة أرونكا اذا لم يجرح نفسه باثقان حزنا على وفاة حميه ، فان شبح حميه وفقا لاعتقادهم يغضب وينترع ابنته من أحضان هذا الزوج الذي عصاه ؛ لأنه لم ينفذ الوسيلة الوحيدة لتهديئة غضبه وهي تجريح جسده على نحو متقن • كما أننا رأينا أن الأرملة في قبيلتي « أونما تجيرا » و « كايئش » اللتين تسكنان وسط استراليا تغطي جسدها بالرماد وتجدد علامة الحزن هذه في أثناء فترة الحداد • فاذا لم تفعل هذا « فان شبح الميت « أنتيرينجا » الذي يقتفى أثرها على الدوام ، يقتلها وينهش لحمها » • فالخوف من الشبح واضح في هذه الحالات ولكنه لا يبدو منها أي هدف لخداع الشبح أو إثارة اشمئزازه عن طريق ظهور الشخص الحزين له في مظهر تتكرى أو جعل شكله منفرا له • بل ان شعائر الاستراليين في الحزن تهدف فيما يبدو على العكس ، الى ابراز المحزونين للشبح على هذا النحو لعله يكون مقتنعا بما يبدونه من امارات الحزن على الفقيده • فقبيلة أرونكا وغيرها من قبائل وسط استراليا ، يخشون من الحاق الاساءة بالشبح ومن ثم يكونون معرضين

لا يذائه ، اذا هم لم يبدوا امارات كافية على الحزن على فقيدهم • وقد قيل لنا بصدد ما يقومون به من طلاء جسم المحزون بالجص انه « ليست هناك أدنى فكرة لاختفاء شخصية المحزون عن شبح الميت ، بل ان الفكرة على العكس هي أن يجعلوا المحزون ، رجلا كان أو امرأة ، مميزا للشبح حتى تنتهى له الفرصة لأن يرى أن قريب الميت قد حزن كل الحزن على فقد قريبه » • أى ان عادات قبائل وسط استراليا تهدف باختصار فيما يبدو الى اشباع رغبة الشبح أو التودد اليه ، أكثر مما تهدف الى الروغان منه أو اشارة اشمئزازه • وهذا الهدف الحقيقى الذى تسعى اليه عادات الاستراليين فى العموم يؤيده ما يتبعونه من السماح لدم الشخص الحزين أن يسقط فوق جسد الميت أو فى قبره ، ووضع شعره المقصوص على الجسد المسجى • فهذه الأفعال لا يمكن أن تفسر الا من خلال كونها جزية تدفع لروح الميت أو عطية تمنح له بقصد اشباع رغباته أو تحويل غضبه عنهم • وبالمثل رأينا أن المحزونين فى قبيلة « أورانج ساكاي » التى تسكن سومطرة ، يتركون دمهم يسقط من جروحهم التى صنعوها بأنفسهم ، على قطعة من القماش التى تترك بجانب جسد الميت فى نعشه • وبالمثل فان عادة وضع الشعر المقصوص على جسد الميت أو فى قبره كانت تنتشر قديما وحديثا ، عند العرب والاغريق والمينجراليين وهنود أمريكا الشمالية والتاهيتيين والتاسمانيين ، بقدر ما كانت تنتشر بين سكان استراليا الأصليين • ومن ثم فانه يحق لنا أن ننتهى الى أن الهدف وراء اشباع رغبة الشبح أو الاستفادة منه كانت على الاقل دافعا من الدوافع التى دفعت الشعوب الى اصطناع تلك العادة التى نحن بصددتها وهى عادة اىذاء أجسام الأحياء • ولكن قولنا هذا لا يعنى أننا نؤكد أن استرضاء الشبح كان هو الهدف الوحيد الذى من أجله كان الناس يقومون بمثل هذه الأعمال الفظيعة ، فربما كانت الشعوب المختلفة تؤذى أجسامها أو تشوهها بتأثير دوافع عديدة ، وان من بين هذه الدوافع المختلفة الرغبة فى ابعاد شبح الميت الخطير وخذاعه •

على أنه ما زال علينا أن نتساءل : كيف تصورت هذه الشعوب أن تقديم الدم والشعر لشبح الميت يمكن أن يجلب السرور له أو يعود عليه بالفائدة ؟ فهل تعتقد هذه الشعوب أن الشبح يجد في هذين الشيئين مجرد تعبير عن حزن أصدقائه الصادق لموت قريبه ؟ • ان هذا التفسير هو الذي يعزوه الناهيتيون لهذه العادة بكل تأكيد • ذلك لأنهم يقدمون لشبح الميت دموعهم بالإضافة الى دمائهم وشعورهم • كما انهم يعتقدون أن شبح الميت « يرقب أفعال الأحياء وهو يمتن لابتداء مثل هذه المشاعر العاطفية الحزينة » • على أننا اذا كنا قد سمحنا لأنفسنا بأن ننتهم الانسان البدائي بالاثرة ، فربما نكون بذلك قد أسأنا الى الشبح البدائي ، اذا افترضنا أنه كان يطلب ضريبة الدم والدموع والشعر ، لا لسبب الا امتناع نفسه برؤية أقربائه من الأحياء في عذابهم وحرمانهم • ويبدو أنه كان يعتقد في الأصل أن الشبح يجنى فائدة ملموسة ونفعا ماديا من اظهار العاطفة والحب على هذا النحو • وقد أشار روبرنسون سميث أن الهدف من تقديم دماء المحزونين لشبح الراحل هو خلق عهد دموى بين الحى والميت ، ومن ثم يتأكد الأحياء من وجود علاقة ودية بينهم وبين الميت ، أو انهم يمهّدون لها بهذه الوسيلة • وقد أشار روبرنسون سميث ، بقصد تدعيم هذا الرأى ، الى عادة بعض الاستراليين الذى يسكنون عند دارلنج • فهؤلاء كانوا يقطعون قطعة من جسد الميت ويجففونها فى الشمس ثم يقطعون هذه القطعة الى أجزاء صغيرة يوزعونها على أقرباء الميت وأصدقائه • فيقوم بعضهم بابتلاع نصيبه ليكتسب الشجاعة والقوة ، فى حين يرميها البعض الآخر فى النهر حتى يجلب النهر لهم الفيضان والسماك ان كانوا فى حاجة اليهما • فهنا يبدو بدون شك أن تقديم الدم للميت وأخذ جزء من لحمه ، يخلق علاقة من نوع ما بين الأحياء والأموات سواء سمينا هذه العلاقة عهدا أو أى شىء آخر • وقد كانت هذه العادة تتبع بين قبيلة « كارييرا » ، فقد كان أفراد هذه القبيلة يقصون شعر الميت ويصنعون منه خيوطا يرتديها أقارب الميت ، بالإضافة الى عادة اصابة أجسامهم بجروح • فهنا يبدو مرة أخرى أن هناك فائدة متبادلة

بين الأحياء والأموات ، فالأحياء يقدمون دمائهم لقريبهم الراحل ، كما يأخذون منه بعض شعره في مقابل هذا •

ومع ذلك فان هذه الأفعال التي تشير الى علاقات طيبة متبادلة بين الأحياء والأموات قليلة للغاية ، بحيث لا نعدّها كافية لأن تنتهي الى هذه النتيجة وهي تعذيب الأقارب الذين رزئوا في عزيز لديهم ، عن طريق اصابة أجسامهم بجروح وغير ذلك من أنواع الايذاء الذي يقصد به دائما أو في العموم عقد عهد يضمن المساعدة والحماية المتبادلة بينهم وبين شبح الشخص المتوفى • ان غالبية الممارسات التي أشرنا اليها في هذا الفصل يمكن أن تفسر تفسيراً منطقياً بوصفها منحا يقدمها الأحياء للميت • ولكننا لا نجد بعض هذه العادات بل ولا أية عادة منها ، اذا استثنينا العادات الاسترالية ، يشير الى ما يقدمه الشبح لأقربائه الأحياء من ود في مقابل ما يقدمونه له • وبناء على ذلك فان الفرض الذي يمكن أن يفسر قطع الأحياء لأجسامهم من أجل الميت بوصفه محاولة لاقامة عهد دموى بينه وبين الأحياء ، ينبغي أن يستبعد فيما يبدو على أساس أن الشواهد لا تؤيد هذا الفرض كل التأييد •

على أن هناك تفسيراً أكثر وضوحاً وأكثر بساطة لعادة اصابة الأحياء أنفسهم بجروح تشير اليه عادات بعض القبائل الهمجية التي تمارس هذه العادة • فلقد رأينا أن عادة اصابة الأحياء لرؤسهم وترك الدم يتباقط منها على جسد الميت ، كانت تنتشر بين القبائل الاسترالية التي تسكن عند نهر دارلنج • أما العادة المتبعة اليوم بين هذه القبائل ، أو بالأحرى كانت متبعة بينهم من زمن ، فهي عادة الاحتفال بسن البلوغ • « ففي اليومين الأولين من هذا الاحتفال لا يشرب الولد سوى الدم الذي ينزف من شرايين أصدقائه الذين يتطوعون عن رضا بمدّه بالغذاء • فهو لاء الأصدقاء يربطون أذرعهم من أعلى ، ثم يقطعون شرايين أسفل الرباط ويجمعون الدم في وعاء

خشبي أو في قطعة من اللحاء في شكل طبق • ثم يركع الولد على ركبتيه في سرير المصنوع من فروع شجيرات الفوكسيا ، يضم يديه خلفه ويلعق الدم بلسانه من الوعاء الموضوع أمامه كما يفعل الكلب . وبعد هذا يسمح له أن يأكل لحم البط الى جانب شربه الدم « • ومرة أخرى نجد « أن المريض بمرض شديد أو الشخص الضعيف » بين هذه القبائل نفسها « يتغذى بالدم الذي يقدمه له أصدقاؤه من الرجال بالطريقة التي سبق أن شرحناها • ويرتشف الصبي هذا الدم بطريقة ساذجة ، فهو يرفع هذا الدم المتجمد الى فمه بين أصابعه والابهام • ولقد رأيتهم يطهون الدم في وعاء خشبي يوضع وسط الرماد المتوهج » • ومرة أخرى يخبرنا هذا الكاتب نفسه وهو يتحدث عن هذه القبائل نفسها فيقول : « وفي بعض الأحيان يحدث أن ينتقل الأفراد بخيامهم ويقومون برحلة طويلة عبر الأراضي الجرداء ومعهم الرجل المريض الذي يحمله رجال أشداء يتطوعون بدمهم للمريض حتى يصابوا بالضعف والاعياء ، ذلك لأنهم يعتقدون أن الدم هو أفضل غذاء للمريض » • وإذا كانت هذه القبائل الهمجية تقدم الدم غذاء للمرضى والضعفاء من أصدقائهم الأحياء فما المانع إذن أنهم كانوا يفعلون هذا مع أقربائهم من الأموات ؟ لقد كان سكان استراليا الأصليون شأنهم شأن كل القبائل الهمجية • يعتقدون أن روح الانسان تعيش بعد فناء الجسد • وقد يكون من الطبيعي بناء على ذلك أن الروح في حالة تحررها من الجسد ينبغي أن يمدّها أقرباؤها بالغذاء الأساسي الذي طالما كانوا يقدمونه له في حياته ليتقوى به • ولقد قدم أوليسيوس ، بناء على هذا الأساس نفسه ، عندما وصل الى أرض الأموات في بلد « سيميريان » النائبة شاة ضحية وجعل دمها يتدفق في خندق تجمعت حوله الأشباح الضعيفة في شغف ، وأخذت تشرب الدماء ، وبذلك استعادت قوتها وأصبحت قادرة على أن تتحدث مع البطل •

ولكن اذا كان الدم الذي يقدمه المحزونون كان يراد به انعاش

الشبح ، فما سبب تقديمهم الشعر له ؟ وقد نتصور أن الشبح يشرب الدم ولكن من الصعب أن نتصور أنه كان في حالة من الجوع الشديد بحيث يلتهم الشعر • ولكن ما زال علينا أن نتذكر أن الشعر ، وفقا لمعتقدات بعض الناس ، هو الشيء الأساسي الذي تسكن فيه قوة الشخص • وربما تصور هؤلاء أن قصى الشعر بناء على ذلك وتقديمه للميت ، يمدّه بمنبع من القوة لا يقل في وفرة وأثره الفعال عن الدم الذي يقدم له • وإذا كان هذا الفرض صحيحا فإن التطابق بين عادة إصابة الجسم بجروح وعادة قطع الشعر تبدو واضحة • على الرغم من أن هذا هو التفسير الحقيقي لكلتا العادتين ، فإن الشواهد التي بين أيدينا ليست كافية لكي تجعلنا نتحمس له في ثقة •

ومهما يكن الأمر فإن بحثنا السابق يميل لأن يؤكد وجهة النظر من حيث أن انتشار عادات قطع أجسام الأحياء ، وقص شعرهم بعد فقد عزيز لديهم ، نشأت في الأصل بقصد أرضاء روح الراحل وخدمتها على نحو ما • وبناء على ذلك ، فحيثما انتشرت هذه العادات ، فإنها تؤخذ كشاهد على أن الناس الذين اتبعوها كانوا يعتقدون في بقاء الروح بعد موت صاحبها ، وكانوا يرغبون في إقامة علاقة ودية معه • وبتعبير آخر ، فإن انتشار هذه العادات تعنى استرضاء الميت أو تقديسه • وحيث أنه يبدو أن العبريين قد مارسوا عادة إصابة الأجسام بجراح وعادة قص الشعر احتراماً لأقربائهم المتوفين ، فإننا نضمهم بشيء من الثقة الى زمرة القبائل المتعددة والشعوب التي كانت تنزع الى تقديس الأجداد في زمن أو آخر • وقد كانت هذه العقيدة تتمتع من بين كل أشكال الديانات البدائية بانتشار واسع ، وبتأثير كبير على الشعوب • ومن المحتمل أن العلاقة الوثيقة بين عادات الحزن وتقديس الأموات كانت معروفة لدى الاسرائيليين حتى قرب عصر الملوك • وربما أمدت المصلحين الدينيين في هذا العصر بالدافع الأساسي وراء تحريم عادات الحزن الغريبة هذه ، تلك التي عدوها بحق أثرا من آثار الوثنية •

الفصل الرابع

الثور الذى يؤذى بقرنه

لقد نص فى كتاب العهد ، وهو أقدم مجموعة من القوانين التى تحتوى عليها الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم ، على أنه « اذا نطح ثور رجلا أو امرأة فمات ، يرحم الثور ولا يؤكل لحمه . أما صاحب الثور فيكون بريئا . ولكن اذا كان ثورا نطاحا من قبل ، وقد اشهد على صاحبه ولم يضبطه ، فقتل رجلا أو امرأة ، فالثور يرحم وصاحبه أيضا يقتل » (١) . أما فى مجموعة القوانين الكهنوتية التى تعد أقدم بكثير من مجموعة القوانين الأولى ، فان القانون الذى ينظم عقوبة الحيوانات التى تنزع الى القتل ، ينص عليه فى وضوح أكثر من ذلك بوصفه جزءا من القانون العام للأخذ بثأر الدم الذى أوحى به الرب الى نوح بعد الطوفان . وهذا القانون هو : « غير أن لحما بحياته دمه لا تأكلوه ، وأطلب أنا دمكم لأنفسكم فقط من يد كل حيوان أطلبه ومن يد الانسان أطلب نفس الانسان ومن يد كل حيوان أطلبه . سأسفك دم الانسان بالانسان يسفك دمه لأن الله على صورته عمل الانسان » (٢) .

وقد كانت القبائل الهمجية تنفذ قانون الأخذ بثأر الدم على هذا النحو من الصرامة . حقا ان بعض هذه القبائل كانت تبالغ فى قانون

(١) سفر الخروج ٢١ : ٢٨ ، ٢٩ .
(٢) سفر التكوين ٩ : ٥ ، ٦ .

الأخذ بالثأر أكثر من هذا ، عندما كانت تطالب بتحطيم الأشياء المادية التي تسبب عرضا في قتل الكائنات الحية . ومثال هذا ، ان قبيلة « كوكي » التي كانت تستوطن « تشيتا جونج » في شمال شرق الهند ، كانت تميل الى الأخذ بالثأر من القاتل ، شأنهم شأن الشعوب الهمجية الأخرى . فجزاء القتل هو القتل . « فاذا قتل نمر أحد أفراد القبيلة بالقرب من قرية ، فان القبيلة بأسرها تهم وتقتفى أثر الحيوان . فاذا نجحوا في قتله فان أسرة المقتول تعد وليمة من لحم النمر المقتول انتقاما منه لقتله أحد أفرادها . فاذا فشلت القبيلة في قتل النمر في أثناء اقتفائها لآثره في المرة الأولى ، فانه يتحتم عليها أن تظل مقتفية أثره . وتظل أسرة القتيل موضع احتقار القبيلة ، كما تظل بعيدة عن اجتماعاتها حتى تنجح في قتل النمر أو بديله ، واقامة وليمة على لحمه . ويحدث هذا قتل نمر أحد أفراد جماعة من الصيادين أو أحد أفراد جماعة من المحاربين الذين يقومون برحلة انتقامية من عدو لهم ، فانه لا يستطيع فرد من أفراد إحدى هاتين الجماعتين العودة الى القرية قبل أن يقتل النمر ، والا لحق الخزي بهذه الجماعة . وهناك مثال آخر لهذه العادة يدعو الى مزيد من العجب هو : أنه اذا حدث أن هوت شجرة على رجل وقتلته عرضا ، فان أقرباءه جميعا يجتمعون ويعملون القطع فيها . ومهما يكن حجم الشجرة فانهم يواصلون قطعها حتى تصبح شظايا متناثرة يذرونها في الرياح ، لأنها كما يقولون كانت سببا في قتل اخيهم » .

وعلى هذا النحو ينتقم شعب « الأينو » ، وهو شعب بدائي يسكن في اليابان ، من أية شجرة سقطت على رجل فقتلته . فاذا حدث مثل هذا الحادث ، « فان الناس يستشيطنون غضبا ويتقدمون لإعلان الحرب على الشجرة ، فهم يجتمعون ويؤدون شعائر محدودة يطلقون عليها اسم « نيوكويش رو رومبي » . فاذا استفسرت عن هذا الاسم قيل لك : « تسلق رجل شجرة وسقط منها ومات ، أو اذا كان رجل يقطع شجرة فسقطت عليه وقتلته ، فان هذا النوع

من الموت يسمى « نيوكويش » • والذي يتسبب في حدوث هذا الموت حشود من الشياطين التي تسكن أجزاء مختلفة من جذع الشجرة وفروعها وأوراقها • ومن ثم يتحتم على الناس ان يجتمعوا وأن يعملوا القطع في الشجرة ، حتى تصير شظايا صغيرة تذرى في الهواء • وإذا لم تحطم الشجرة على هذا النحو فانها تظل خطيرة ، لأنها تظل مأوى للشياطين • فاذا كانت الشجرة ضخمة للغاية بحيث يصعب قطعها قطعاً صغيراً ، فانها تترك مكانها ويعلم حولها بحيث لا يقترب أحد منها » • ويحرق أقرباء القتيل عند السكان الأصليين الذي يسكنون فيكتوريا الجنوبية سلاح العدو الذي قتل به قريبهم ، سواء كان رمحاً أم أى سلاح آخر • وبالمثل فقد تعود أهالى جنوب استراليا أن يحرقوا طرف الرمح الذي قتل رجلاً • وقد فسر الأهالى هذه العادة بقولهم ان روح القتيل تلتصق بطرف الرمح ، وهو ان يبرحه ليسكن المكان المناسب له ، الا اذا حرق طرف الرمح • واذا ارتكبت جريمة قتل بين قبيلة اكيكويو التي تسكن شرق افريقيا البريطانية ، فان كبار رجال القبيلة يمسكون بالرمح او السيف الذي كان سبباً في القتل ويظلون يضربونه حتى يثلم ، ثم يرمونه في أقرب نهر عميق • وهم يقولون انهم اذا أهملوا مثل هذا ، فان هذا الرمح سيظل يقترب جرائم قتل أخرى • ويحدثنا كاتب عاشر بنفسه بعض القبائل التي تسكن شرق افريقيا البريطانية حول هذا الموضوع ، فيقول : « ان الأهالى ينظرون الى السلاح الذي قتل شخصاً نظرة خوف وفزع ، لأنه اذا كان قد تسبب في جريمة قتل مرة ، فانه يصبح بعد ذلك نزاعاً الى القتل على الدوام • ومن ثم فان قبيلتى « اكيكويو » و « أثيراكا » ، تأخذان في ضرب الرمح حتى يثلم ، وبعد ذلك يدفنه رجال القبيلة • وتتبع قبيلة « أكامبا » طريقة مختلفة في التعامل مع مثل هذا الرمح ، وهى طريقة تتم عن شخصيتهم الماهرة • فالاعتقاد السائد بينهم ، هو أن السهم الذي تسبب في قتل شخص لا يمكن أن يفقد روحه الميتة لأنها تسكن مع الشخص صاحب هذا السهم • وكذلك

يملك القوس لشل هذه الخاصة • فبمجرد أن يقتل رجل ماكامباني (١) أي رجل آخر ، فإنه يحث شخصا آخر ان يحتال على سرقة هذا السهم منه • وهذا السهم يكون في بداية الأمر في حوزة أقارب المقتول، فهم ينتزعونه من الجرح ويخبئونه ليلا بالقرب من قرية المجرم • وعندئذ يهيم الناس بالبحث عنه • فإذا وجدوه ، فاما ان يعودوا به الى القرية الأخرى أو يضعونه في الطريق في أي مكان ، على أمل أن يلتقطه أي شخص مار وبذلك تتحول اللعنة اليه • وحيث أن الناس يحذرون من العشور على مثل هذا الرمح ، فان السهم يظل في الغالب في حوزة القاتل •

وتوجد في قانون الملايو المطبق في مالاكا فقرة تنص على طريقة التعامل مع الجاموس والماشية الشرسة على النحو التالي : « اذا كان الحيوان يعيش داخل غابة في مكان غير مطروق ، ثم حدث انه قتل شخصا ، فان هذا الحيوان يعاقب بالقتل • ويمتد الاخذ بالثأر عند قبيلة تواردجا التي تتحدث اللغة البارية وتسكن سيليبس الوسطى ، الى الحيوانات • فالجاموسة التي تقتل رجلا ، يحكم عليها بالاعدام • وهذا طبيعي تماما » ، لأن التورادجا لا يرون الحيوان مختلفا عن الانسان الا في مظهره الخارجى • فاذا كان الحيوان لا يستطيع الكلام ، فلأن خرطومه أو حلقه يختلف عن فم الانسان • واذا كان الحيوان يجرى على اربع ، فلأن يديه (أى كراعيه الأماميين) يختلفان عن يدي الانسان • واذا قتل التمساح شخصا ، فان أسرة القاتل تقتل مقابل قتيلا تمساحا ، أى أنها أما أن تقتل التمساح القاتل ، أو أحد أفراد أسرته • فاذا كان عدد التماسيح القتلى أكبر من عدد الرجال ، فان التماسيح يكون لهم عندئذ الحق في الانتقام ، والناس على يقين من أنهم سيفعلون ذلك ، فيأخذون بثأرهم من أي شخص ما • واذا لم يتسلم الكلب نصيبه من الغنيمة في الصيد

(١) ماكامباني مفرد أكامبا •

الذى يشترك فيه ، فانه يأبى أن يشترك فى الصيد من الغنيمة فى المرة التالية وذلك لشعوره بالظلم الذى وقع عليه • وينظر التورادجا الى حقوق الحيوان نظرة أكثر وعيا مما نفعل نحن الآن • وهو ينظر بصفة خاصة الى التندر به نظرة خطيرة ، فاذا رأى على سبيل المثال شخصا يلبس قردا لباس انسان ، فانه يحمل عليه حملة شعواء ويتنبأ إثر ذلك بهبوب عواصف عاتية ، وبحدوث فيضانات تترتب على سقوط الأمطار الغزيرة • ومن ثم فانه لا يستطيع أحد أن يسخر من قط أو كلب دون أن يفلت من العقاب • ويحكم « البوجويون » ، وهم قبيلة تسكن ضواحي شمال الحبشة ، على البقرة أو الثور أو أى رأس من قطعان ماشيتهم بالاعدام ، اذا ما قتل شخصا •

وقد رأى مستر « توردای » عند مدخل قرية « بایاکا » التى تقع فى وادى الكنغو ، مشنقة نصبت بطريقة بسيطة ، وقد علق عليها كلب ميت • وقد علم من أهالى القرية أن هذا الكلب الذى كان قد اشتهر بوصفه لصا ، اعتاد أن يقتنص الطيور • ومن ثم فقد علق جسده ليكون شاهدا للناس على خيانتة • واذا قتل حيوان شخصا عند عرب البتراء (سلع) ، فانه يتحتم على صاحب الحيوان أن يطرده ، وهو يصرخ وراءه قائلا : أيها الوغد ، أيها الوغد • وليس فى وسعه بعد ذلك أن يسترد ملكيته لهذا الحيوان ، الا اذا دفع دية الدم الذى تسبب الحيوان فى سفكه • واذا تسببت شاة أو نعجة من بين قطيع شخص ما فى اسقاط حجر كبير عند منحدر فى قتل شخص دون أن يعرف على وجه التحديد هذه الشاة أو تلك النعجة التى تسببت فى اسقاط الحجر ، طارد صاحب القطيع القطيع بأسره ، فى الوقت الذى يصرخ به قائلا : « اهربوا عنا أيها الأوغاد » ••

وقد عرفت قانون الأخذ بالتأثر أمم اخرى فى العصور القديمة خلاف اليهود • فقد نص فى « الزند أفستا » وهو الكتاب الذى يتضمن قانون الفرس القديم (المجوس) على ان الكلب المسعور أو ذلك الذى

يعض دون أن ينبج ، فيؤذى شاة أو يجرح رجلا ، هذا الكلب أو ذاك يحاسب على عمله هذا بوصفه عملا متعمدا • فاذا أذى الكلب شاة أو جرح رجلا ، بترت أذنه اليسرى • فاذا أذى شاة أخرى أو جرح رجلا آخر ، بترت أذنه اليمنى • فاذا أذى شاة ثالثة أو جرح رجلا ثالثا ، قطعت قدمه اليمنى • فاذا أذى شاة رابعة أو جرح رجلا رابعا ، قطعت قدمه اليسرى • فاذا أذى للمرة الخامسة شاة أو جرح رجلا ، قطع ذيله ثم يربط في عامود من جانبى طوق يحيط برقبتة • فاذا لم يفعلوا هذا بالكلب ثم تسبب الكلب المسعور أو ذلك الذى يعض دون أن ينبج ، فى اىذاء شاة أو جرح رجل ، حوسب حساب من يرتكب جريمة متعمدة • ويلاحظ على العموم أن مشرع القانون الفارسى القديم قد عامل الكلب المجرم بصبر بالغ ، فقد منحه خمس فرص للتخلص من طبعه قبل أن يعاقبه أقصى عقوبة سنها القانون لمجرم يتعذر اصلاحه •

وقد كان فى أثينا ، قلب الحضارة القديمة فى أوج ازدهارها ، محكمة خاصة بمحاكمة الحيوانات والأشياء المادية التى تتسبب فى قتل الكائن الحى • وقد كانت هذه المحكمة تنعقد فى نادى المدينة (بريتانيوم) ولم يكن مركز القضاة دون مركز ملك أتيكا المتوج ، ومركز الملوك الأربعة المتوجين لقبائل أتيكا المنفصلة • ولما كان نادى المدينة فيما يبدو ، أقدم مكان سياسى بحق فى أثينا ، اذا استثنينا قلعة الأكروبول التى كانت تشمخ بصخورها الناتئة وجدار سطحها العابس خلف المحكمة مباشرة ، وحيث أن ملوك القبائل المتوجين كانوا يمثلون ملوك القبائل القدامى الذين حكموا زمنا طويلا قبل أن يطوح سكان اتيكا بالحكم الملكى ، ويتبنوا الشكل الجمهورى للحكم ، فانه يحق لنا أن ندعى أن المحكمة التى كانت تعقد فى هذا البناء الرهيب ويشرف عليها هؤلاء القضاة المهيون كانت قديمة للغاية • ومما يؤكد هذا رأى طبيعة الحالات التى كان يحكم فيها ، حيث أننا نجد ما يماثلها فى نظام الحكم البدائى للقبائل الهمجية البدائية ، تلك القبائل

التي سكنت الهند وأفريقيا وسيلينس • ولم يكن المتهمون الذين يقفون خلف الحواجز رجالا أو نساء ، بل كانوا حيوانات وآلات أو قطعا من الأحجار والأخشاب والحديد التي سقطت على أم رأس شخص فقتلته دون أن تعرف اليد المباشرة التي قتلتها • على أننا لا نعرف شيئا عما كان يفعل مع هذه الحيوانات المتهمة ، ولكننا قد أخبرنا أن ملوك القبائل كانوا يبعدون الشيء الذي سقط على رأس الإنسان وقتله ، فيما وراء الحدود • وفي كل عام يحاكم الفأس أو السكين الذي استخدم في ذبح الثيران في أعياد زيوس التي كانت تقام في الأكروبول ، أمام هيئة القضاة المتربعين على كرسى القضاة ، كما كانت توجه تهمة القتل لهذه الآلة في كل عام حتى يثبت جرمها وتعدم وتطرح في البحر • وقد سخر الشاعر اليوناني الساخر أريستوفان من عقد الأثينيين لهذه المحاكم ، فوصف في إحدى مسرحياته مطلقا عجوزا مجنونا يحاكم كلبا بكل ما للمحاكمة من تقاليد رسمية ، لأنه سرق قطعة من الجبن وأكلها • وربما كانت فكرة المنظر المشهور الذي اقتبس منه « راسين » في مسرحيته الكوميديّة الوحيدة « المتقاضين » قد تمثلت للشاعر الأثيني وهو يقضى ساعة بليدة من الزمن بين المتفرجين في ساحة القضاء ، وهم يرقبون في متعة مكبوتة محاكمة الكلب والثور والحمار ، ويقفون سجناء وراء الحاجز ، بتهمة العض الاجرامى العنيف ، أو بتهمة اصابة الأشخاص بجروح بقرونها أو بتهمة الركل • الى غير ذلك من التهم •

والأمر الذي يدعو حقا الى العجب ، هو أن أفلاطون ، فيلسوف المثالية الكبير ، قد خلق عباءة نفوذه على هذه الطقوس التعزيبية للمحاكمات البربرية ، عندما اقترح تجسيد هذه الطقوس في قوانين مدينته المثالية التي رسمها قرب نهاية حياته • ومع ذلك فينبغي أن نقر أنه عندما كان يصدد صياغة « القوانين » فقدت يد الفنان المسنن المرتعشة كثيرا من حنكتها ، بحيث بدت ألوان لوحته التي صور عليها صورته الأخيرة باهتة للغاية بقدر كبر تلك اللوحة ، وذلك اذا قيسنت

بألوان « الجمهورية » الزاهية • ولقد رأت فيها بعض الكتب تدريجيا آثار ذبول رونق الخيال ، وأفول العبقرية في غضون السنين • ومن ثم فقد بدت شمس أفلاطون في هذا العمل الأخير من خلال الضباب الذى تجمع من حولها في وقت الغروب • أما الفقرة التى اقترح فيها الفيلسوف النظام القانونى الذى يتلاءم مع مدينته المثالية ، فتجرى على النحو التالى : « اذا قتل حيوان يحمل الأثقال أو أى حيوان آخر رجلا ، باستثناء ما يحدث فى الالعاب الشعبية حيث تمارس رياضة المنافسة بين الحيوان والانسان ، فان أقرباء الشخص المقتول يعدمون الحيوان بسبب جريمته • وفى هذه الحالة يشرف القضاء على الممتلكات الشعبية وفقا لما يحدده أقرباء الميت • فاذا تثبتت التهمة على الحيوان ، فانه يعدم وتطرح جثته خارج حدود المدينة • فاذا تسبب شئ مادي باستثناء الصواعق وغير ذلك من الكوارث التى يبتلى بها الآله البشر ، فى قتل انسان نتيجة سقوطه عليه أو لأن الشخص سقط عليها ومات أثر ذلك ، فان أقرب قريب للشخص المتوفى يقتص لنفسه ولأهله من هذا الشئ • وينصب أقرب جيرانه قاضيا ليحكم فى هذا الموضوع • فاذا ثبتت التهمة على هذا الشئ ، فانه يطرح وراء الحدود كما يفعل مع الحيوان القاتل » •

ولم يكن الحكم على الشئ المادى باعدامه لتسببه فى قتل الانسان غريبا فى بلاد الاغريق • فقد كان قانون جزيرة « ناسوس » يقضى بأن يحاكم الشئ المادى الذى هوى على شخص ما وتسبب فى قتله • فاذا ثبتت التهمة ضد هذا الشئ طرح فى البحر • وقد كان يقف وسط مدينة « ناسوس » تمثال برونزى للملك شهير كان يدعى « ثياجينيس » ، وكان قد حصل فى أثناء حياته على جوائز عديدة فى حلبة الملاكمة ومن ثم فقد تعلق به الناس بوصفه ألمع معالم بلدهم • ثم حدث أن كان يجىء الى هذا التمثال كل ليلة شخص حقير يكن الحقد لهذا الملك ، ويضربه ضرا يسمع له دوى • وظل التمثال يتحمل هذه المعاملة فى سكون وقور ، ولكنه فى النهاية لم يعد يتحمل تلك الإهانة

فهوى على المسىء الجبان وقتله • وعند ذاك رفع أقرباء القتييل
دعواهم أمام القضاء ، واتهموا التمثال بارتكاب جريمة القتل • وبالفعل
أدين التمثال وحوكم ، وطرح فى البحر • وقد نفذ مثل هذا الحكم
ضد بعض تماثيل الأولب ، أو أن الناس على الأقل ارتابوا فى أمرها
بسبب ارتكابها جرائم قتل على هذا النحو • فذات يوم كان ولد
صغير يلعب تحت تمثال لثور من البرونز كان يقف فى المنطقة المقدسة •
وبينما كان الطفل يرفع رأسه فجأة ارتطمت رأسه ببطن الحيوان
المعدنى فشجت وتوفى اثر ذلك • فقرر عراف الأولب أن يبعد الثور عن
المكان المقدس بعد أن اتهم بارتكاب جريمة القتل المتعمد • على أن
نبوءة دلف ترفقت بالتمثال ، وعدت هذا الفعل عملا غير متعمد ، ومن
ثم نفذت ضده حكم القتل غير المتعمد • فأقر عراف الأولب هذا
الحكم وأدى للتمثال البرونزى طقوس التطهير المقدسة التى كانت
تقام عادة فى حالات القتل غير المتعمد ، وذلك وفقا لما أشارت به
نبوءة دلف • وقد قيل أنه عندما توفى « سكبيون الافريقى » تأثر
تمثال لأبولو فى روما لموته ، الى درجة أنه أخذ يبكى مدة ثلاثة أيام •
ولما رأى الرومانيون أن التمثال قد بالغ فى حزنه على المتوفى ، حطموا
التمثال المرهف الحس الى قطع صغيرة وطرحوها فى البحر •
بل إن الحيوانات لم تكن تفلت من عقوبة القانون الصارمة ، فهناك
تشريع قديم أو عادة قديمة تنسبها الرواية الشعبية الى المشرع الملكى
والمصلح « نوما » ، تنص على أنه اذا اقتلع رجل حجرا عند حدود
بلده لا يقدم وخذه ضحية لآله الحدود، بل يقدم معه ثوره الذى اعانه
على تدنيس المقدسات • أى أن كلا من الرجل وحيواناته يصبحان
خارج حماية القانون ، ومن ثم يحق لأى شخص أن يقتلها دون أن
يعاقب على ذلك •

ولم تكن هذه التصورات والطقوس التى تركز عليها ، تقتصر على
القبائل الهمجية والشعوب التى كانت تعيش فى عصور الوثنية
القديمة ، فقد كانت الحيوانات الدنيا ، حتى زمن قريب نسبيا ، تعد

بدون استثناء في أوروبا مسئولة أمام القانون • ومن ثم كانت الحيوانات المنزلية تحاكم في المحاكم الجنائية العادية ، وكان يحكم عليها بالاعدام عقابا لها على ارتكابها جرائم القتل • أما الحيوانات المتوحشة فكانت تخضع لسلطان الكنيسة القضائي • وكان يحكم عليها بالنفى أو الموت عن طريق التعزيم عليها أو اعلان حرمانها • ولم يكن هذا العقاب يحدث مصادفة بحال من الأحوال ، اذا صدق ان القديس باتريك كان يعزم على الزواحف في أيرلندا حتى تلقى بنفسها في البحر ، أو أنه كان يحولها الى أحجار ، وأن القديس « برنارد » أعلن الحرمان على الذباب الذي كان يطير حوله ويزعجه بطنينه وأرداه قتيلا على أرض الكنيسة • وقد اعتمد حق الامتياز الذي منحته القانون اليهودي في كتاب العهد للحيوانات لمثلها أمام المحكمة على أساس ثابت كالصخر • وقد كان يعين لهم في كل حالة محامون للدفاع عنهم ، كما كانت تفسر الاجراءات المختلفة للحكم وهي المحاكمة والنطق بالحكم ثم التنفيذ بمراعاة تامة لأشكال العدالة وجلالة القانون • وقد كشف الباحثون في الآثار الفرنسية القديمة عن سجل يحتوى على اثنتى عشرة محاكمة قدمت للمحاكم الفرنسية فيما بين القرن الثانى عشر والثامن عشر • وقد كان آخر ضحية هذه المحاكمات التى خضعت لها يمكن أن نسميه الشريعة اليهودية ، بقرة طبق عليها أقصى بند في هذا القانون عام ١٧٤٠ م • ومن ناحية أخرى ، فان الحق الشرعى لأصحاب النفوذ الكنسى في ممارسة السلطان القضائى على الحيوانات المتوحشة والحشرات الدنيا مثل الفئران والجراد واليسروع ، وما أشبه ذلك ، لم يكن يركز بوجه عام ، أو هو يبدو هكذا لأول وهلة ، على نصوص مدونة واضحة وخالية من اللبس • ومن ثم كان ينبغى أن يستخلص هذا الحق من الكتب المقدسة عن طريق سلسلة من القياسات التى كانت تكون الحوادث التالية حلقاتها الصلبة • فحيث أن الرب قد لعن الحية التى خدعت حواء وخيث أن داود قد لعن جبل جلبوع بسبب موت « شاعول ويوناثان » عنده ، وحيث أن المسيح المخلص قد لعن شجرة التين ، لأنها لم تحمل الثمار فى العام المنصرم ،

فإنه يتبع هذا فيما يبدو ، أن يكون للكنيسة الكاثوليكية بالمثل الحق الكامل والنفوذ في أن تطهر المخلوقات الحية والجامدة بدون استثناء من الرذائل ، وأن تحل عليها اللعنة ، وتحكم عليها بالهلاك الأبدى . حقا ان بعض العالمين بقوانين الكنيسة ازدروا مثل هذا الإدراك التافه للعلم والفلسفة الانسانية ، وآثروا اعتراضات تافهة عن طريق سلسلة من الجدل الذى يبدو للعقل البسيط أنه متعذر دحضه ، فقد زعموا أنه لكى يتمكن أصحاب النفوذ من معاقبة المسيء ، فإن هذا يقتضى وجود عقد أو ميثاق أو شرط بين القوى العلوية التى تعد مصدر القوانين ، والخاضعين لهذا القانون . وحيث أن الحيوانات الدنيئة لا يمكن أن تخضع لعقد أو ميثاق أو شرط لأنها مسلووبة الإرادة ، فلا يمكن أن تحاكم هذه الحيوانات قانونيا عن أعمال ارتكبتها وهى جاهلة بالقانون . كما تمثل جدلهم في أن الكنيسة لا يمكن فى أى شكل من أشكال العدل ، أن تحل اللعنة بهذه الكائنات التى رفضت أن تعمدوها . ثم ركزوا دفاعهم على سابقة لواحد من رؤساء الملائكة هو ميكائيل ، الذى رغم صراعه ضد الشيطان بسبب استحواذة على جسد موسى ، لم يتهم الحية القديمة بأية تهمة ، وإنما ترك أمر إحلال اللعنة بها الى الرب . على أن مثل هذه المماحكة والمراوغة اللتين تفوح منهما فى قوة رائحة النزعة العقلانية لم تكن تجدى أمام سيطرة الكتابات المقدسة. القوية الصلبة ، وأمام العادات المتوارثة التى اعتمدت عليها الكنيسة فى تشريعها . وفى العموم كانت الطريقة التى تتبناها الكنيسة فى هذه المحاكمات تسير على النحو التالى :

إذا عانى سكان حى من غارات حيوانات أو حشرات مؤذية أو من كثرتها المتزايدة ، فإنهم يرفعون شكواهم ضد هذه الحيوانات أو الحشرات المعنية للقضاء الكنسى المختص بذلك . ثم تعين المحكمة بدورها خبيرا يقوم بالتحقيق فى هذا الأمر وتقديم تقرير عن الخسائر التى تسببها هذه الحيوانات أو الحشرات . وبعد ذلك يعين محام للدفاع عن هذه الكائنات يدلى بالسبب الذى من أجله ينبغى الاستدعى

هذه الكائنات أمام المحكمة • وعند ذاك ينادى على هذه الكائنات
المتهمة في ساحة القضاء ثلاث مرات • فإذا لم تجب فإنها تحاكم بتهمة
الاهمال • ثم تلفت المحكمة نظر هذه الكائنات ، منذرة اياها بترك
الحى في خلال فترة محددة ، والا وقعت تحت طائلة عقوبة المناشدة
التي لم تنفذ • فإذا لم تفعل هذا قبل أن تنتقضى الفترة المحددة أو في
نهايتها حكمت المحكمة بتلاوة الرقى والعزائم عليها • على أنه يبدو
أن المحاكم كانت تحذر كل الحذر من أن تدفع الأمر الى نهايته ، بحيث
تصل به الى حدود النطق باحلال اللعنة على هذه الكائنات ، ومن
ثم فإنها كانت تلوذ بكل حيلة وذريعة تتجنب هذه النتيجة المؤلمة ، أو
هى تحاول على الأقل ارجاءها • وربما كان الدافع وراء هذا التأجيل
الذى قد يصل بالأمر الى حد ثورة الكنيسة على هذه الكائنات هو
مراعاة مشاعر هذه الحشرات التى كان من المقدر لها أن تعصف بها
الكنيسة • وان كان بعض المتشككين يرون أن السبب الحقيقى وراء
هذا الارجاء هو الخوف من أن الحيوانات قد لا تكثر بهذا الحكم ،
بل أنها قد تتكاثر في ظله ، كما حدث في بعض الحالات ، بدلا من أن
تختفى بعد احلال اللعنة بها على هذا النحو • ولم يكن الدفاع على
استعداد أن ينكر أن تكاثر الحشرات الطفيلية غير الطبيعى قد حدث
حقا في ظل ظروف حرمانها من رحمة الكنيسة ، ولكنه كان يعزو هذا ،
بكل أشكال الجدل العقلانى الى مكيدة الشيطان الذى ، كما يعزو من
قصة أيوب ، قد سمح له أن يتجول في الأرض لكى يضايق أيوب ، ويجلب
له كل أسباب الحزن ••

وليس من المعقول أن نتوقع ان احلال اللعنة بالحيوانات كان
الغرض منه منفعة قسس الأبرشيات الذين تأخروا في دفع ضريبة
العشر للأبرشية ، حيث أن القانون قد نص أساسا على أن أفضل
الطرق لطرد الجراد هو دفع ضريبة العشر ، مرتكزا في ذلك على سند
متين من كلام النبی « ملاخى » الذى صور الرب معنفا كل التعنيف
 لليهود الذين تأخروا في دفع ضريبة العشر له • وصورا بكل أساليب

الاغراء البركات التي سوف يطررها الرب على هؤلاء اذا ما دفعوا الضريبة للأبرشية ، ومتعهدا لهم بأنهم ان فعلوا هذا ، فانه سيقضى على الجراد الذي يتلف المحصول . ويشير هذا النداء الملح لدفع الجزية ، ولحث المتعبدين على التقوى ، الى الفقر البالغ الذي كانت تعاني أماكن العبادة منه في زمن النبي . وربما أوحى تعنيفه المثير بخطب الوعظ التي كانت تلقى في مثل هذه الظروف على المنابر في العصور الوسطى .

والى هنا نكتفى بهذا القدر من الاشارة الى الاسس العامة ، التي كانت تركز عليها محاكمات الحيوانات واعدامها في الأزمنة السالفة في أوروبا . وربما كان في تقديم بعض الشواهد لهذه المحاكمات المدنية والكنسية ، ، عون لنا على ادراك حكمة أجدادنا ادراكا سليما ، إن لم يكن هذا دافعا لنا على تقدير جلالة قانونهم .

فقد دامت الدعوى بين سكان مقاطعة القديس جوليان وحشرة مغمدة الجناح تعرف الآن عند علماء الطبيعة باسم *Phuchites Auratus* فترة تزيد عن اثنين وأربعين عاما . وفي النهاية اقترح السكان ، بعد أن ضاقوا ذرعا بهذه الدعوى التي دامت طويلا ، أن يتصالحوا معها ، بأن يسلموا اليها الى الأبد جزءا مخصبا من الأرض تستغله لمصلحتها . واعترض محامى هذه الحشرات على هذا الاقتراح الذي يمكن أن يحدد الى حد كبير حرية عملائه . ولكن المحكمة تغلبت على هذا الاعتراض وعينت مستشارا من قبلها ليقدم تقريرا عن هذه الأرض . ولما اثبت أن الأرض تملؤها الغابات وتتوفر فيها المياه ، ومناسبة تماما لهذه الحشرة ، أمرت الكنيسة بتدوين وثيقة نقل الملكية الرسمية وفقا للإجراءات المتفق عليها والعمل على تنفيذها . وبذلك سعد الناس بهذا الاجراء الذي أراحهم من كل من الحشرات ومن الدعوى على السواء . ولكن سعادتهم كانت سابقة لأوانها ، اذ قد اثبت التحقيق حقيقة مؤسفة ، وهي أن الأرض التي نقلت ملكيتها للحشرات كانت

تحتوى على منجم أو محتجز من تراب المغرة الذى كان يستخدم فى الأصباغ • وعلى الرغم من أن هذا المحتجز قد استغل زمنا طويلا حتى استهلك ، فإنه كان هناك شخص يمتلك حقا قديما فى المرور بهذه الأرض ، وهو حق لا يمكن أن يمارسه دون أن يعرض المالكين الجدد لتعب بالغ ، ناهيك عن المخاطر التى قد تتعرض لها الحشرات نتيجة الوطء فوقها • وقد كانت هذه العقبة خطيرة بحيث أبطلت صحة العقد • ومن ثم فقد أخذت الدعوى مجراها من جديد • أما كيف ومتى انتهت هذه الدعوى ، فهو أمر لا يمكن معرفته ، نظرا لتشوه السجل المدون فيه هذه الحادثة • والشئ المؤكد هو أن المحاكمة بدأت عام ١٤٤٥ م ، وظلت هى أو محاكمة أخرى شبيهة بها تتداول حتى عام ١٤٨٧ م • وربما استخلصنا من ذلك أن شعب مقاطعة القديس جوليان ، لم يتصالح فيما يبدو مع هذه الحشرات ، وأنها ظلت مهيمنة على الحقل ••

وهناك دعوى أخرى رفعت ضد فئران أسقفية « أوتون » فى مطلع القرن السادس عشر ، وكانت لها شهرة كبيرة نظرا للدور الذى لعبه « بارثولوموى دى تشاسينو » أو « تشاسينى » ، كما كان يطلق عليه الناس ، وكان محاميا مشهورا ومستشارا قانونيا وكان يكنى « بكوكاين فرنسا » • وترجع شهرته فى هذا الموضوع الى مدافعته اللبقة عن الفئران • فقد حدث أن الفئران كانت قد أحدثت تلفا كبيرا فى المحصول ، كما أتت على جزء كبير منه فى « بور جندى » • فرفع السكان شكواهم الى القضاء ، واستدعت الفئران لكى تمثل أمام القضاء وترد عن نفسها هذه التهمة • وكان طلب الدفاع واضحا تماما من حيث الشكل الى حد كبير ، وطالب بناء عليه بضمان سلامة المدعى عليهم بها من حيث أنها حيوانات قادرة ذات لون رمادى وتسكن الجحور • وقد كان يقوم بخدمة الفئران فى العادة شرطى بالمحكمة قام بتلاوة هذا الادعاء فى الأماكن التى تكثر فيها الفئران • على أن الفئران لم تمثل أمام القضاء فى اليوم المحدد لبحث الدعوى ، وعند

ذاك اعترض الدفاع باسم عملائه على أن الدعوى كانت ذات طابع
فردى ومحلى للغاية . وحيث أن فئران الابريشية جميعا يهما هذا
الموضوع ، فينبغى أن تستدعى من كل مكان فى الأبرشية . واستجابت
المحكمة لهذا الطلب ، وصدر الأمر لراعى كل دائرة فى الأبرشية أن
أن يستدعى كل فأر فى اليوم المحدد . وحن اليوم المتفق عليه ، ولكن
فأرا من الفئران لم يمثل أمام القضاء . وعند ذاك ألح الدفاع فى تأجيل
المحاكمة لاتخاذ ترتيبات كبيرة معينة للفئران ، حيث أن كل عملائه
من الفئران قد استعدوا لهذا الغرض ، كبيرهم وصغيرهم . مريضهم
وسليمهم . فوافقت المحكمة على هذا أيضا ، وحددت يوما آخر للنظر
فى الدعوى . ومع هذا فان الفئران لم تظهر فى ساحة القضاء . وعند
ذاك أخذ الدفاع يطعن فى قانونية الدعوى فى ظل ظروف معينة . فقد
جادل جدلا معقولا من حيث الشكل الى حد كبير وطالب بناء عليه
ضمنا سلامة المدعى عليهم فى مجيئهم وأياهم . فقد قال ان عملاءه ،
رغم حرصهم على الحضور امثالا لطلب الادعاء فانهم لم يجرؤا على
ترك جحورهم خوفا من شرار القطط التى يحتفظ بها المدعون . ثم
استأنف دفاعه قائلا : « واذا تعهد المدعون بضمان مالى ، على الا
تتحرش قططهم بعملائه ، فان الفئران سوف تطيع الأوامر فى الحال » .
وعند ذاك أدركت المحكمة صحة هذا الطلب . ولكن المدعين رفضوا أن
يقعوا تحت طائلة هذه العقوبة لسلوك قططهم المحمود ، وبهذا تأجل
مثول الفئران فى ساحة القضاء الى أجل غير مسمى .

ومرة أخرى رفعت مقاطعة « ستيلفيو » فى التيرول دعوى جنائية
ضد فئران الحقول التى أتلقت المحصول « لما تقوم به من حفر جحور
فى الأرض ، ثم ما تلبث أن تتركها وتحفر غيرها بحيث لا تهيأ الفرصه
للحشائش أو أى نبات آخر أن ينمو » . وعند ذاك كلف محام « يدعى
« هانز جرينيتر » للدفاع عنهم وشرح مطالبهم ومتاعبهم وبذلك
يتسنى للفئران أن تفسر سلوكها ، ولا يكون لديها أى شكوى من
الاجراءات التى تتخذ ضدها » . ثم قام المدعى « شفارز ميننج »

بتوجيه الدعوى ضد الفئران • وقد أثبتت الشهادة التي استمدها من فم الشهود ، الضرر البالغ الذي ألحقته الفئران بالأرض • أما الدفاع الذي كان ملتزما بواجبه في الدفاع عنهم ، فقد بذل كل جهده لكي ينصف عملاءه ، فأخذ يعدد أفضالهم على المجتمع وبصفة خاصة على الزراعة عن طريق قضائهم على الحشرات والديدان الضارة بالزراع ، وتقليبهم الأرض واخصابها • ثم ختم دفاعه بالتعبير عن أمله في أن يمنح عملاءه فرصة مغادرة مكانهم الحالي ، في حالة ما اذا أصدرت المحكمة حكما ضدهم ، وأن يسكنوا مكانا آخر يحدد لهم • كما طالب فضلا عن ذلك بأن يمنحوا جواز المرور الذي يؤمنهم من أذى القطط ومضايقاتها ومن الكلاب ، وسائر الأعداء الآخرين ، بوصفه اجراء عادلا من سلامة التفكير ، ومنح الفئران ، باحساس انساني بالغ ، جواز المرور ، كما منحهم مهلة أربعين يوما حتى تتمكن الفئران التي لديها أولاد صغار أو تلك التي ما تزال صغيرة من الانتقال الى المكان الجديد •

ومرة أخرى اتخذ أصحاب النفوذ في « بيرنى » عام ١٤٧٩ م اجراءات قانونية ضد الحشرات الطفيلية التي كان الناس يعرفونها باسم « انجيز » ، التي يبدو انها كانت حشرة مغمدة من نوع حشرة « بريخوس » • وقد قيل لنا وهو أمر يمكن أن نصدق في يسر ، أن سفينة نوح لم تكن تحتوى على هذا النوع • وقد رفعت الدعوى أمام أسقف لوزان واستمرت وقتا طويلا • ثم استدعى المتهمون بتخريب الحقول والبراري والحدائق ، كما هو المألوف ، لكي يمثلوا في اليوم السادس من توجيه الدعوى وفي الساعة الواحدة على وجه التحديد ، لكي يردوا عن أنفسهم هذا السلوك • ولكن الحشرات لم تأبه بهذه الدعوة ، ومثل دفاعهم الذي كان يدعى « جين بيروديه » وكان مواطننا من « ايريبيورج » بدلا منهم أمام القضاء • ويبدو أن هذا الدفاع لم يبد مقدرة كبيرة أو حماسة كافية للدفاع عن عملائه • وعلى كل فقد حكم على الحشرات باللعنة ، وورد الحكم الكنسي على النحو التالي :

« نحن راهب مونتفيراند ، اسقف لوزان .. الخ .. بعد أن استمعنا الى دعوى فخامة وجلالة لوردان بيرنى ضد الـ « انجير » ، ودفاع الدفاع غير المجدى ، وبعد أن حصنا أنفسنا بالصليب المقدس ووضعنا نصب اعيننا الخوف من الرب الذى نستمد منه كل الأحكام العادلة ، وبعد أن استشرنا فى هذا الأمر مجلس علماء القانون ، نقرر ونعترف فى كتابنا أن الدعوى ضد الحشرات الطفيلية والـ « انجير » التى تؤذى الحشائش والكروم والمروج والحبوب والفواكه الأخرى، دعوى صحيحة . ومن ثم يوجه اليها فى شخص محاميها جان بيروديه ، الحكم بالتحريم عليها . كما تحل بها اللعنة امتثالا لعرف الكنيسة ، ونأمرها بالطاعة وندعوها باسم الاب والابن والروح القدس أن تترك الحقول والارض والحظائر والحبوب والفواكه والمحصولات، وترحل . وبحق هذا الحكم أعلن وأؤكد انكم منفيون مطرودون وستحل بكم اللعنة بأمر الرب القوى وسيتناقص عددكم أينما حلتم ، حتى لا يبقى منكم الا من كان فيه منفعة للانسان » . وقد كان الناس ينتظرون هذا الحكم بشغف بالغ . فلما نطق به استقبلوه بتهليل كبير . ولكن سعادتهم لم تدم ، لأن الحشرات المتمردة ، لشدة تعجب الناس أبطلت حكم الكنيسة لأنها استمرت ، فيما قيل ، فى إيذاء سكان « برنى » وأصابتهم بالداء جزاء معاصيهم حتى لاذ السكان بالعلاج العادى الضار بدخلهم ، وان كان فعلا ، وهو دفع ضريبة العشر للكنيسة .

وفى القرن الثالث عشر رفع سكان « كوبرى » عاصمة جريزون « فى سويسرا دعوى ضد الخنافس الخضراء التى كانت تسمى الذباب الأسبانى ، فى مقاطعة « ماينسى » . وقد تعطف القاضى الذى استدعى الخنافس للمثول أمامه ، وعين لها حارسا ومحاميا ، نظرا لضآلتها وصغرها البالغ . وتقدم الدفاع ورد عنها التهمة ، وطالب أن تمنح قطعة من الأرض تعيش فيها بعيدا عن الناس . ويضيف المؤرخ الذى

دون هذه الحكاية الى هذا فقال « وما تزال تتبع هذه العادة حتى اليوم • ففي كل عام تخصص قطعة من الأرض لهذه الخنافس لتجتمع فيها دون أن يتعرض انسان لمضايقتها » • ومرة أخرى أتى بجماعة من الحشرات الطفيلية الى المحكمة لتستمع الى الدعوى المرفوعة ضدها في محكمة لوزان عام ١٤٥١ م • على أن الحشرات الطفيلية أعلنت تمردا ورفضت أن تترك البلد ، فحكم عليها في خشوع بتطهيرها • على ان وسيلة التطهير التي اتبعت في هذه المرة ، كانت تختلف بعض الشيء عن الطريقة المألوفة ، ومن ثم فقد انتقدها بعض الكنسيين ، وان كان قد دافع عنها الآخرون • أما دكاترة هيدلبرج بصفة خاصة ومعهم طائفة من العلماء ، فلم يعبروا عن استحسانهم لها كلية وبالإجماع فحسب ، وانما التزموا الصمت حول هجوم المتطفلين الخارجين عن مجال هذا العلم • وعلى الرغم من أنهم أقرروا أن هذه الوسيلة انحرفت عن الطريقة المألوفة والمخصصة لهذا الغرض ، الا أنهم سعدوا بكفايتها التي أكدتها النتائج المترتبة على ذلك • اذ بمجرد أن نفذ هذا التطهير حتى أخذ الموت يتفشى بين هذه الحشرات حتى انقرضت عن آخرها ••

وقد كان من بين الأوبئة التي كان ينشرها الحيوان بين الناس ، وطالما رفع الناس دعواهم ضدها أمام القضاء ، وباء كان يسببه حيوان اليسروع • ويبدو أنه كان ينتشر بين الآونة والأخرى • ففي عام ١٥١٦ م ، رفع سكان « فيلينوز » دعوى ضد هذه الحشرة الفتاكة وحكم في هذه الدعوى رئيس كنيسة « ثروبس » ، وقد أمر في حكمه بأن تترك هذه الحشرات حدائق الكروم وأرض « فيللونوز » خلال ستة أيام ، وهددها بإحلال اللعنة المقدسة عليها وتشويه سمعتها اذا هي لم تمتثل للأمر • وفي القرن السابع عشر ، عانى سكان « سترامبينو » في « بيدمونت » كثيرا من حشرة اليسروع أو « جاتي » كما كانوا يطلقون عليها ، التي خربت حدائق كرومهم • ولما دام الوباء عدة سنين ولم تجد وسائل العلاج من صلوات ومواكب

احتفال واستعمال المياه المقدسة في وضع حد لهذا الوباء ، فقد استدعى المدعى العام هذه الحشرة للمثول أمام الحاكم أو رئيس البلدية لكي ترد على دعوى تخريبها للحى . وقد صدر الحكم في هذه الدعوى عام ١٦٣٣ ، ولا تزال الوثيقة الأصلية لها موجودة في أرشيف سترامبينو المجلى . وفيما يلي ترجمة هذه الوثيقة :

« عقدت المحكمة في الرابع عشر من شهر فبراير عام ١٦٣٣ م أمام السنيور الأشهر جيولا موسان مارتينو دى سينورى ، وسينيور ماتيو رينو ، ج . م باربيريس ، ج ميرلو ، ومستشار سترامبينو ، لصالح كل فرد في المجتمع ، وحيث أن حشرة صغيرة بعينها تظهر في شكل ديدان صغيرة تسمى « جاتى » تأخذ منذ ولادتها في قرض فروع أشجار الكروم في حدائق الأسياد وعامة الناس كذلك ، وحيث انها قد فعلت هذا طيلة سنوات عدة في شهر مارس وفي اثناء الربيع من كل عام ، وحيث أن كل قوة انما يكون مصدرها الرب الذى تطيعه كل الكائنات حتى تلك التى لا تعقل ، فاننا نلجأ في ورعنا الالهى الى معالجة العدل الأرضى ، اذا كان كل عون انسانى آخر قد عجز في وضع حد لهذا الأمر . ونحن نلجأ لهذا الى حكم جلالتك في هذا الأمر العاجل ، ونرفع شكوانا من هذه الحيوانات المخربة ، لعلمكم تأمرونها بالكف عن هذا الدمار ، وبترك حدائق الكروم وبالمثول أمام كرسى القضاء لكي تقدم سببا لعدم كفها عن تخريب حدائق الكروم وقرض أوراقها ، وتهددونها بإبعادها عن هذا المكان ومصادرة ممتلكاتها . ونحن نطالب بأن يعلن هذا الحكم وأن تعلق نسخة منه في ساحة القضاء . . .

« وحيث انه قد ثبتت صحة الدعوى فقد أمر سينيور بوديستا الحيوانات السيئة بالمثول أمام كرسى القضاء لتقدم سببا عن عدم كفها عن التخريب الموجه ضدها . ونحن جيولا مودى سان مارتينو ، حاكم سترامبينو ندعو الحيوانات التى تسمى « جاتى » أمام الحاضرين ، ونعلنها قضائيا بالمثول أمامنا في اليوم الخامس من هذا

الاعلان ، والا فاننا سنوقع عليها عقوبة النفي والمصادرة في الحال .
ونطلب أن يذاع هذا الحكم على الجمهور عن طريق نشره وأن تلصق
نسخة منه على كرسى القضاء لكي تصبح نافذة في الرابع عشر من شهر
فبراير عام ١٦٣٣ » .

(امضاء) سان مارتينو (الحاكم)

وقد كانت تنتشر في الاقليم المجاور لسافوي منذ القرن السادس
عشر ، عادة غريبة قديمة . كان الكهنة يطردون بمقتضاها حشرة
اليسروع وغيرها من الحشرات التي تسبب الضرر ، من رحمة الكنيسة .
فقد ذهب راعي الأبرشية ليلقى نظرة على الحقول الخربة كما عين
اثنان من المحامين ، أحدهما يدافع عن الحشرات والآخر يدافع ضدها .
أما الدفاع الأول فقد بدأ دفاعه الأول بقوله بأن الرب قد خلق
الحيوانات والحشرات قبل أن يخلق الانسان ، ومن ثم كان لهم
الحق الأول في محصول هذه الحقول . فرد عليه الادعاء وقال أن
مثل هذا التلف لا يمكن أن يتحملة الفلاحون ، حتى وان كانت هذه
الحشرات لها الحق الأول في محصول الحقول . وبعد مداولة طويلة
أعلن القسيس طرد الحشرات من رحمة الكنيسة ، وأمر بأن تنزح الى
بقعة من الأرض خصصت لها » .

وقد عاشت عادة محاكمة الحشرات الطفيلية عن طريق القضاء
حتى النصف الأول من القرن الثامن عشر ، ونقلتها الكنيسة الى
أمريكا . ففي عام ١٧١٣ م ، رفع رهبان « مينور » في مقاطعة
« بيدادى نومارانهاو » في البرازيل ، دعوى ضد النمل لأنه كان
يحفر بشدة أسفل اساس الأديرة ويقوض قبوها ، مما تسبب في
أضعاف حيطان الدير المعنى ، وهدد بناءه كله . ولم يكتف النمل
بتقويض البناء المقدس بل انه قام بسطو على المخازن ، وحمل الدقيق
المخصص للرهبان ، الأمر الذي لم يعد يحتمله الرهبان . وبعد أن ثبت
أنه لم يجد مع النمل أية وسيلة للعلاج ، فقد اقترح أحد الرهبان أن
يعودوا فيتمسكوا بروح التواضع والبساطة التي كانت تميز

رائدهم الساروفى (١) الذى كان يسمى كل الكائنات أخوته أو أخواته :
فأخته الشمس وأخوه الذئب وأخوه السنونو الى غير ذلك • ومن ثم
ينبغى عليهم أن يرفعوا دعوى ضد أخوانهم من النمل أمام محكمة
العناية الالهية ويعينوا الادعاء والدفاع • وينبغى على الأسقف
أن يستمع باسم العدالة العليا الى الدعوى ، وأن يصدر حكمه
فيها » ••

وبناء على هذا الاقتراح ، وبعد أن أعدت كل الترتيبات للمحاكمة ،
أعلن مجلس الادعاء التهمة الموجهة ضد الحشرات • وافتتح الجلسة
بناء على موافقة المدعى عليهم ، وبين السبب الذى من أجله ينبغى
أن يجد الناس الحماية فى ظل القانون ، وبين كيف أن الرهبان
الدينيين يعيشون على تبرعات الجمهور ، وكيف أنهم يجمعون العطايا
من المؤمنين بجهد شاق وتعب مضم ، فى حين أن النمل يعارض بأخلاقه
وسلوكة تعاليم الرسل ، ومن ثم فقد كان القديس فرنسيس ،
مؤسس الجمعية الدينية ينظر اليه بعين الفرع لأنه يعيش على السلب
والاحتيال ، بل انه يقوض فى عنف دعائم البيت المقدس على مسمع
من عملائه الرهبان • وبناء عليه فقد حكم المجلس غيابيا على المدعى
بأقصى عقوبات القانون ، اما بالقضاء عليهم عن طريق تعريضهم
لوباء الطاعون ، أو باغراقهم فى الطوفان ، أو على الأقل أبعادهم
عن الحى ••

ولكن مجتمع النمل عارض هذا الحكم مستندا فى ذلك الى انه قد
منح من الرب نعمة الحياة ، وهو ملزم ، بناء على قانون الطبيعة ، أن
يحافظ عليها بغريزته الطبيعية • وهو بمراعاته ذلك انما يخدم العناية
الالهية ، اذا ما قدم للناس مثالا للحكمة والعطف والتقوى وغير ذلك
من الفضائل ، وتأييدا لهذا ، أشار الدفاع الى فقرات من الكتابات

(١) ملاك من الطبقة الاولى يحرس عرش الرب وفقا للعقيدة
اليهودية .
(المترجمة)

المقدسة التي وردت عن النبي أرمياء والراهب ايسالون بل ومن كتابات بلينى ، تلك الكتابات التي تثبت أن النمل يعمل بكد أكثر من الرهبان ، حيث ان الأحمال التي يرفعونها أكبر من أجسامهم بكثير ، وحيث أن شجاعته تفوق قوتهم ، كما تثبت أن الناس في نظر الرب ليسوا سوى ديدان ، وأن النمل كان يمتلك الأرض قبل أن يستقر عليها الناس . وبناء على هذا كله ، فإنه ينبغي أن يطرد الرهبان لا النمل من الأرض التي ليس للرهبان حق فيها سوى أنهم يريدون أن يضعوا يدهم عليها عنوة . وفي النهاية أشار الدفاع الى أن أصحاب الدعوى ينبغي عليهم أن يدافعوا عن بيوتهم وطعامهم بالوسائل الانسانية ، وهو الأمر الذي لا يعارضه المدعى عليهم ، حيث أنهم سوف يستمرون في حياتهم مستجيبين لقانون الطبيعة ، ومتمتعين بحريتهم في الأرض ، حيث أن الأرض ليست ملكا للمدعين وإنما هي ملك للرب ، « فالأرض ملك للسيد الآله وهذا هو سبب كمالها » .

وقد أعقبت هذا الرد ردود أخرى اما معارضة واما مؤيدة له . ونتيجة لذلك أعلن مجلس الادعاء أنه قد غير رأيه بناء على هذه المناقشة ، في جريمة المدعى عليهم . وبعد أن أدار القاضي الشواهد العديدة في رأسه ، أصدر حكما بأن يحدد الرهبان مكانا مناسباً بجوارهم لا يصلح لسكنى النمل ، ويتحتم على النمل عندئذ أن ينزح في الحال الى المأوى الجديد ، والا تعرض لعقوبة الطرد من رحمة الكنيسة . وبذلك يتصالح الطرفان ، كما قال ، لأنه ينبغي للنمل أن يتذكر : أن الرهبان قد عاشوا في الأرض ليزرعوا فيها تعاليم المسيح . أما النمل فيمكنه أن يكسب عيشه في يسر في أى مكان آخر دون أن يكلفه ذلك أدنى مشقة . وبعد أن نطق القاضي بهذا الحكم في صرامة كلف أحد الرهبان بأن يحمل رسالته الى النمل . فرحل الرسول وقرأها عليه بصوت عال عند أبواب جحوره . وقبل النمل هذا الحكم ، وشوهد بعد ذلك وهو يرحل في صفوف منتظمة الى المكان الذي حدد له .

ومرة أخرى أحدثت الفئران التخريب في قرية بورانتون عام

١٧٣٣ م • فاحتشدت في البيوت والمخازن ، وأغارت على الحقول والحدائق • فرفع الفلاحون شكواهم ضدها ، وحوكمت الفئران أمام القاضي لويس جوبلان في اليوم السابع عشر من شهر سبتمبر عام ١٧٣٣ م • وقد مثل الادعاء مدير الأعمال المالية ، كما مثل المدعى عليهم رجل يدعى « نيقولا جوبلان » • وقد توسل هذا الى القضاء نيابة عن عملائه أن الفئران قد خلقها الرب كما خلق الناس ، ومن ثم كان لها كذلك الحق في الحياة • فرد مجمع الادعاء عليه وقال انه لا يرغب في وضع عقبات في سبيل حياة هذه الحيوانات ، بل انه مستعد على العكس أن يحدد لها مكانا تسكن فيه وتأوى اليه • فطلب الدفاع بناء على هذا أن تمنح الفئران مهلة ثلاثة أيام لتتدبر أمرها • وبعد أن استمع القاضي لكلا الطرفين ، أصدر حكمه وقال ، انه بعد النظر في التخريب الذي أحدثته هذه الحيوانات المعنية ، حكم عليها بأن تترك البيوت والمزارع ومخازن الحبوب وحدائق الكروم في بورانتون ، وهي حرة بعد ذلك في أن تسكن الصحارى والأراضي غير المزروعة ، والطرق العامة ، أو أى مكان آخر ، بشرط ألا تعرض الحقول والمخازن والمزارع للأذى والا اضطر القاضي الى أن يلتمس العون من الرب عن طريق الكنيسة فيحكم عليها بالحرمان من رحمتها • ثم دون هذا الحكم ، ووقعه القاضي لويس جوبلان بخط يده ••

ولعله يتضح الان السبب في اسناد اصدار الحكم الى النفوذ الكنسى أكثر من اسناده الى النفوذ المدنى • فقد كان من المستحيل طبيعيا للجلاد العادى مهما يكن حماسه ونشاطه أن يشنق كل الفئران والنمل والذباب والبعوض اليسروع وسائر حشرات الحى كله • ولكن ما يعجز الانسان عن فعله يمكن للرب أن يحققه في سهولة ويسر • ومن ثم كان من المنطقى والمعقول أن يفوض لرب الرب البحث في هذه المشكلات بمقدرة تفوق مقدرة القاضي المدنى بكثير ومقدرة وكيله الجلاد • ولهذا فان المشكلة من ناحية أخرى كانت أكثر يسرا عندما كانت الحيوانات المتهمه من الحيوانات الاليفة التى تدخل حقا ضمن

اختصاص القوى المدنية • وفي مثل هذه الحالات كانت العدالة تسير في مجراها العادي • كما لم تكن هناك أدنى صعوبة على الإطلاق في أسر المتهمين واحضارهم بعد محاكمة عادلة ، الى المشنقة أو الى ساحة المدينة • وهذا هو السبب في أن الحشرات الطفيلية كانت تتمتع في هذه الايام بمميزات السلطة الكنيسة ، بينما كان على الحيوانات الاليفة أن تخضع لصرامة القوة المدنية ••

ومثال هذا أن أنثى الخنزير وأولادها الستة الذين كانوا ملكا لرجل يدعى « جان بابي » الذي كان يعرف من قبل باسم فالوه ، اتهمت في سافيني عام ١٤٥٧ م بتهمة قتلها الابن جان مارتان البالغ من العمر خمس سنوات وابن جان ماريان حاكم سافيني • وبعد فحص دقيق لشواهد الدعوى ، حكم القاضي بأن « تحال أنثى خنزير جان بابي المدعو فالوت ، الى عدالة مدام دي سافيني لكي تنفذ فيها أقصى العقوبات القانونية ، وتعلق من رجليها الخلفيتين في شجرة منحنية ، بسبب ما ارتكبته من جريمة القتل ، وما جنته في حق شخص « جان مارتان » • وقد نفذ الحكم في أنثى الخنزير بالفعل ، لأننا نقرأ في سجل هذه الحادثة الذي ما زلنا محتفظين به ما يلي : « نحن نيقولا كارويون » القاضي المذكور آنفا ، يعلم الجميع أنه بعد المحاكمة السالفة الذكر ، قد سلمنا حقا أنثى الخنزير المعنية للسيد « اتيين بوانسو » ، وكيل القضاء الأعلى الذي يسكن « شالون سورسون بوانسو » لكي ينفذ فيها الحكم وفقا لما حكمنا به • وبعد أن سلمنا أنثى الخنزير هذه ، أحضر السيد « اتيين » عربة ليحمل الحيوان فيها الى ساحة قضاء مدام دي سافيني • ثم علق « استيني » أنثى الخنزير من رجليها الخلفيتين في شجرة منحنية ، منفذا بذلك حكمنا في شكله وفحواه » • أما بالنسبة للخنزير الستة الصغار ، فعلى الرغم من أن دم القتل قد لوثها ، الا أنه « حيث لم تثبت تهمة القتل ضد هذه الخنازير ، فان محاكمتها تؤجل ، على أن يقدم مالكا كفالة لذلك • فاذا ثبت بعد ذلك من الشهادة أنها قد ساعدت أمها القاتلة في التهام الصغير

جان مارتان ، أعيدت محاكمتها • وحيث أنه لم يثبت هذا عند محاكمتها مرة أخرى ، وحيث أن صاحبها رفض أن يكون مسئولا عن سلوكها فيما بعد ، فقد حكم القاضي « بأن تؤول ملكية هذه الخنازير الصغيرة بوصفها ملكية مهجورة الى « مدام دي سافيني » • ونحن نمنحها اياها قضائيا وفقا لما به عادة بلادنا وتقاليدنا وحكمها » ••

ومرة أخرى مزقت أنثى خنزير وجه صبي وذراعه عام ١٣٨٦ م في فاليز في نورماندى • ووفقا لبدأ « العين بالعين » ، فقد اقتص منها بالمثل ، ثم شنت فيما بعد • وقد سيقّت أنثى الخنزير الى مكان الاعدام وهى ترتدى صدرية وجوارب وسروالين وعلى وجهها قناع لوجه انسان حتى تكون شبيهة بالانسان المجرم تماما • كما أن المحكمة دفعت نقودا وملابس وجوارب للجلاد حتى لا يلوّث نفسه بدم المجرم • وفى بعض الأحيان كان يتكلف اعدام الحيوانات أكثر من هذا بكثير • وهاهو ذا ايصال يبين تكاليف اعدام أنثى خنزير التهمت طفلا في ميولان بالقرب من باريس عام ١٤٠٣ م ••

- ١ — تكاليف اقامتها في السجن ٦ صول (١)
- ٢ — تكاليف الجلاد الذى حضر من باريس الى ميولان ٥٤
صول لينفذ الحكم وفقا للأمر الذى تلاه صاحب المحكمة ووكيل الملك •
- ٣ — تكاليف العربّة التى حملت أنثى الخنزير الى ٦ صول
مكان الاعدام •
- ٤ — تكاليف الاحبال لربطها ٢ صول ، ٨ دينيير
- ٥ — تكاليف الجوارب ٢ دينيير

وقد أحرقت أنثى الخنزير في « هونتاي — أو روز » عام

(١) عملة فرنسية قديمة (المترجمة) •

١٢٦٦ م لاتهامها بالتهام طفل • وقد أصدر هذا الحكم قضاة
ديرسانت جينيفيف ••

على أنه اذا كان يبدو أن أنثى الخنزير كانت تتعرض كثيرا لأقصى
عقوبات القانون ، فانها لم تكن الحيوان الوحيد الذى تعرض لهذه
العقوبة • ففى عام ١٣٨٩ صدر حكم على فرس بالشنق فى ديجون اثر
ما بلغ وكيل قضاء مونتيبار من أنه قتل رجلا • ومرة أخرى نفذ رؤساء
دير كيسترسيان فى « بوبرى » بالقرب من «بوفى» حكم الاعدام فى ثور
وشنقوه بالشنقة لانه « قتل فى ثورة غضبه صبيا كان يبلغ من
العمر أربعة عشر عاما أو خمسة عشر عاما فى مقاطعة « كاوروى »
التابعة لهذا الدير » • وفى مناسبة أخرى سمح فلاح فى موزى عام
١٤١٣ لثور هائج أن يهرب ، فضرب الثور بقرنيه رجلا ضربا موجعا
أفضى به الى الموت بعد بضع ساعات من الحادث • ولما سمع تشارلز
كونت ذى فالو بهذا الحادث ، أمر بالقبض على الثور وتقديمه
للمحاكمة • فقبض على الثور ، وجمع وكلاء الكونت كل المعلومات
المطلوبة ، كما جمعوا الشهود وأثبتوا التهمة ضد الثور فأعدم أثر
ذلك وشنق فى مشنقة « موزى — لى — تيمبل » • ثم ثار اعتراض ضد
هذا الحكم وقدمت شكوى لمجلس الأمة ، ولكنه رفض المعارضة وقرر
أن الثور قد لقى جزاءه بالفعل وان كان الكونت « فالو » قد تجاوز
مجال حقوقه لأنه تدخل فى أمر لا يعنيه •• وفى عام ١٦٩٧ م حرق
فرس آخر بناء على قرار مجلس أمة « أيكس » ••

وفى بالى حكم على ديك عام ١٤٧٤ م ، بتهمة أنه باض بيضة • وقد
أثبت مجمع الادعاء أن بيضة الديك ليست لها قيمة لأنها تختلط
باستعدادات سحرية معينة • فأولى للساحر أن يمتلك بيضة ديك من
أن يكون مالكا لحجر فيلسوف • وفى أرض الكفر استخدم الشيطان
السحرة لفقس مثل هذا البيض الذى كانت تخرج منه حيوانات تسمى
للمسيحيين كل الاساءة • وقد كانت هذه الحقائق أوضح وأشهر من أن
ينكرها أحد ، كما لم يحاول الدفاع أن يعارضها • ولكن الدفاع بعد

أن قبل الدعوى المرفوعة ضد الديك كل القبول بسبب وضعه بيضة ،
تساءل : « ولكن ما الشر الذى يمكن أن ينسب اليه بسبب وضعه
بيضة ؟ وما الأذى الذى ألحقه بالإنسان أو الحيوان من جراء ذلك ؟
وفضلا عن ذلك فقد أخذ يجادل فى أن وضع البيضة فعل غير ارادى
ومن ثم فإن القانون لا يعاقب عليه • أما عن تهمة السحر ، اذا كان
يمكن أن تنسب الى عميله • فقد أنكرها تماما ، وتحدى المحكمة فى أن
يدلى الادعاء بحالة واحدة تحالف فيها الشيطان مع هذا المخلوق ،
وعند ذاك رد الادعاء عليه وأشار الى أنه على الرغم من أن الشيطان
لم يتحالف مع هذه المخلوقات البهيمية ، الا أنه يسكنها فى بعض
الأحيان • ودعم رأيه هذا بتلاوة حادثة خنزير جاراديني الشهيرة ،
مشيرا فى حجة قوية الى أن الشيطان رغم تملكه لهذه الحيوانات ،
فهى تعد وكلاء له مسلوبة الارادة تماما ، كما يحدث لو أن السجين
وضع بيضة فى سجنه • ومع ذلك فقد عوقبت هذه الحيوانات بأن
طوردت عبر منحدر حتى هوت فى بحيرة وبذلك قضت نحبها • وقد
كان للإشارة الى هذه الحادثة وقع فى نفوس هيئة المحلفين فيما يبدو •
ولهذا فقد حوكم الديك وقضى عليه بالموت لا بوصفه ديكاً عادياً ، وانما
بوصفه ساحراً أو شيطانا متقمصا شكل طائر • ونفذ فيه هو وبيضته
حكم الاحراق بكل ما يصطحب هذا التنفيذ من رهبة مألوفة • وقد
قيل ان الدفاع عن هذه الحالة يملأ مجلدات ••

واذا كان الشيطان قد عرض الحيوانات للايذاء فى العالم القديم •
فلم يكن من المتوقع أن يدخر ايذاءه فى العالم الجديد • ولهذا فنحن
لا ندهش عندما نقرأ أنه قد حدث فى «نيوانجلاند» أن كلباً أشبع ايجاعاً
لأنه حكى عنه أن أحد رجال القضاء كان يركبه دون أن يكون مرئياً •
وقد اختفى هذا الرجل فى حين حكم على الكلب ظلماً بالشنق • كما
اتهم كلب آخر بايذاء الآخرين ، اذ كانت تصيبهم النوبة بمجرد أن
يرفع بصره اليهم • ولهذا فقد حكم على الكلب بالاعدام ••

وقد قيل ان الحيوانات فى سافوا كانت تقف موقف الشهود أو فى

قفص الاتهام ، وكانت شهادتها تعد صحيحة من الوجهة القانونية .
فاذا اقتحم شخص بيت رجل بين الغروب والشروق ، وقتل المالك
اللس ، فانه يعد قاتلا من الناحية القانونية . لكنه من الممكن لرجل
شرير يقيم وحده في بيته أن يحتال على شخص آخر بأن يجعله يقضى
الليل معه ويقتله ، ويدعى بعد ذلك أن ضيفه كان لصا قتله في حالة
الدفاع عن النفس . ولكي يكون القانون حذرا في مثل هذه الحوادث
غير المتوقعة ، ولكي يؤكد ادانة المجرم من ناحية أخرى فقد صرح
القانون في حصافة أن من يقتل في مثل هذه الظروف ، فان هذا لا يبرىء
صاحب البيت الذي يقيم وحده ، ما لم يشهد معه كلب أو قطّة أو ديك
أو أى نزيل آخر في بيته يكون قد شهد جريمته ويعلن براءة سيده
عن طريق الادلاء بمعلوماته الخاصة . وعلى صاحب البيت أن يعلن
براءته أمام الحيوان . فاذا لم يعارضه الطائر أو الحيوان ، فانه
يكون حينئذ بريئا . فالقانون يرى أنه من منح الله على عباده أنه يبدى
اعتراضه على التهمة ويفتح فم القط أو الكلب أو الديك عند الضرورة ،
كما حدث مرة وفتح فم حمار برلام ، وبذلك لا يهوى للقاتل فرصة
الهروب من وجه العدالة .

يبدو أن كل الأشياء المادية كانت تعاقب على أفعالها السيئة في
أوروبا الحديثة كما كان يفعل الاغريق القدماء . فبعد أن أبطل
مرسوم « نانتس » عام ١٦٨٥ م ، صدر الحكم ضد الكنيسة
البروتستانتية في « لا روشيلي » أن تمحى من الوجود فيما عدا جرسها
بسبب قيمته فيما يبدو . على أن الجرس حكم عليه تكفيرا عما كان
بيديه من هرطقة في دقه للمصلين ، بأن يضرب أولا بالسوط ثم يدفن
وينتشل من التراب مرة أخرى رمزا ليلاده الجديد ويسلم الى
أيد كاثوليكية . وبعد ذلك أمر بأن تنقل عليه الصلوات الدينية ، ويعلن
أنه قد تخلص عن عقيدته القديمة وأنه لن يعود بعد ذلك الى الاثم .
وبعد أن قام الجرس بكل مظاهر الاسترضاء المقدسة الساذجة أعلن
الصلح معه وعمد وسلم أو بالأحرى بيع الى أبريشة القديس

« برسكوميو » • ولكن عندما أرسل الحاكم إيصال بيع الجرس الى أولى الأمر في الأبرشية ، رفضوا سداد الثمن مدعين أن الجرس ، نظرا لأنه قد اعتنق حديثا مذهب الكاثوليكية ، يرغب في أن يتمتع بمميزات القانون الذى كان قد أصدره الملك أخيرا ، والذى يسمح للمعتنقين الجدد لمذهب مخالف لمذهبهم القديم أن يتأخروا في سداد الدين مدة ثلاث سنوات ••

وقد ظل القانون الانجليزى محتفظا الى ما يقرب من منتصف القرن التاسع عشر بأثر من طريقة التفكير القديمة نفسها متمثلة في عقيدة أو عادة « منح الرب » • فقد كان من المألوف في القانون العادى أن تقدم منحة للرب لا من أجل الحيوان الذى قتل رجلا فحسب ، وانما من أجل كل شىء مادم تسبب في وفاء انسان ، كأن تكون عجالات عربية مرت فوق انسان وقتلته ، أو شجرة هوت عليه • وبناء على ذلك فان هذا الشىء يصادره الملك ويبيعه لمصلحة الفقراء • ومن ثم فانه كان من المألوف أن تقيّم هيئة المحلفين الموقرة الشىء الذى تسبب في الوفاة حتى تسلم قيمته نقدا الى الملك أو غيره لينفقها في أغراض البر ، ثم أصبح ينظر الى هذه العطايا عمليا بوصفها مجرد رهينة عند الملك • وفي ضوء هذا لم يكن هذا الأمر مستحبا كما أن المحلفين فيما بعد تعودوا متضامين مع القضاة أن يقللوا من قيمة الشىء ، بأن ينسبوا جريمة القتل الى شىء تافه أو الى جزء من شىء • ولم يقض التشريع على هذه البربرية البدائية نهائيا الا في عام ١٨٤٦ م • وقد كانت هذه العادة طوال مدة ممارستها في ساحة القضاء ، حجر عثرة في سبيل رجال القانون المتفلسفين الذين حاولوا أن يرسو دعائم قواعد القانون الانجليزى على الأسس الأولية للمنطق الطبيعى وعلى العدالة دون ما حاجة الى الفوضى في قرارات الجهل اللانهائية ، والهمجية والخزعبلات التى ارتكزت عليها الجذور المدونة للقانون الحديث والمدنية الحديثة ارتكازا غير مستقر • ولهذا فقد افترض « بلاكستون » أن القصد الأساسى من مصادرة الأشياء التى تسبب

الموت هو شراء قدر من روح الشخص الذى تعرض للموت صدفة •
ومن ثم فقد رأى أن هذه العطايا كانت تقدم أصلا الى الكنيسة لا
الى الملك • أما الفيلسوف « رايد » فقد رأى أن هذا القانون لم يكن
يهدف الى معاقبة الحيوان أو الشيء الذى تسبب فى قتل الانسان ،
وانما كان الهدف منه ، « أن يوحى الى الناس بنظرة مقدسة ، الى
قيمة حياة الانسان » ••

وقد بالغ سير « ادوارد تايلور » فى احتمال أن عادة تقديم الشيء
المتسبب فى القتل عطية للرب ، وكذلك سائر العادات الأخرى التى تقوم
على معاقبة الحيوانات والأشياء بسبب الايذاء الذى تلحقه
بالانسان ، ترجع الى الدافع البدائى الذى كان يتمثل فى عض الحجر
الذى يتعثر فيه الانسان أو السهم الذى يجرحه • وهو نفس الدافع
الذى يدفع الطفل بل الرجل الكبير فى بعض الأحيان فى ركل الشيء
الذى يؤذيه وضربه • وقد وضع « آدم سيث » بكل ما عرف عنه من
وضوح فى الفكر وبعد فى النظر وسلامة فى الحس هذا الأساس ، اذا
تسنى لنا أن نسميه كذلك ، الذى يرتكز على دافع بدائى فقال : إن
أسباب السعادة والألم مهما تكن هذه الأسباب أو كيفما كانت درجة
تأثيرها ، هى فيما يبدو ، الأشياء التى تثير فى لحظة من اللحظات عند
كل صنوف الحيوان ، عاطفتى الحب والكراهة • فهاتان العاطفتان تهيجهما
الأشياء الماروحية والأشياء الروحية على السواء • فنحن نغضب ولو
لحظة ، اذا تسبب حجر فى ايذاءنا • والطفل يضرب هذا الحجر تماما
كما ينبغ الكلب فى وجه هذا الشيء • وكذلك يميل الرجل السريع
الغضب لأن يحل به اللعنة • حقا ان أقل رد فعل لهذا يصحح من
هذا الانفعال ، ويجعلنا ندرك فى الحال أن هذا الشيء الذى يخلو من
الاحساس ، لا يصبح أن يكون موضوعا للانتقامنا • أما اذا كانت
الاساءة كبيرة من قبل هذا الشيء ، فانه يصبح كريها لنا بعد ذلك •
ونحن نسعد باحراقه أو تحطيمه • وينبغى علينا أن نعامل بنفس
الأسلوب ، الشيء الذى تسبب فى موت صديق لنا صدفة كما ينبغى أن

نشعر بالذنب ازاء تقصيرنا على نحر سا ، اذا أهملنا الانتقام
من هذا الشيء » •

وقد رأى الباحثون فى تطور الجنس البشرى ، أنه من المحتمل أن
الميل الطبيعى فى مراحل طفولة الجنس البشرى لتشخيص الأشياء
الخارجية حية كانت أم جمادا ، أو بتعبير آخر ، ان الميل الطبيعى لأن
يخلق الانسان على هذه الأشياء الصفات الانسانية ، لم يكن يصحح
أو كان يصحح بطريقة غير سليمة ، عن طريق التأمل فى التفرقة التى
أبرزها الفكر الأكثر تقدما ، بين الشيء الحى والشيء الجامد من ناحية ،
وبين الانسان والحيوان من ناحية أخرى • ولقد كان من السهل ، فى
حالة ظلام العقل البشرى ، أن ترتبط الدوافع التى تحرك الرجل المفكر،
بالدوافع التى تحرك الحيوان ، بل بتلك التى تدفع الحجر أو الشجرة
لأن تسقط • بل اننا نرى ان هذا الربط كان بالنسبة للرجل البدائى
أمرا محتما • ومن خلال هذا التفكير المختلط ، أباح البدائيون
لأنفسهم الانتقام من الحيوانات والأشياء التى تسمى اليهم أو تصيبهم
بأذى • وقد ظل هذا الضباب الفكرى الذى كان مناسبا لتلك
المعتقدات ، يعمى أعين المشرعين البدائيين الذين قدسوا هذا النظام
الجزائى البربرى فى ظل أشكال القانون والعدالة المقدسين فى
مختلف العصور ومختلف البلاد ••

الفصل الخامس

الأجراس الذهبية

ينص القانون الكهنوتي على أن يصنع رداء الكاهن وفقا للوصف التالي : « وتصنع جبة الرداء كلها من أسمانجونى ، وتكون فتحة رأسها فى وسطها ويكون لفتحها حاشية حوالىها صنعة الحائك ، كفتحة الدرع يكون لها لا تشق . وتصنع على أذيلها رمانات من أسمانجونى وأرجوان وقرمز على أذيلها حوالىها ، وجلجل من ذهب حوالىها . جلجل ذهب ورمانة جلجل ذهب ورمانة على أذيل الجبة حوالىها . فتكون على هرون للخدمة ليسمع صوتها عند دخوله الى القدس أمام الرب عند خروجه لتلا يموت » (١) .

فلماذا كان يتحتم على الكاهن أن يرتدى هذا الثوب البنفسجى الذى تتدلى أهدابه المطرزة بثمار الرمان والأجراس التى ينبغى أن يسمح صليلها عندما يدخل الكاهن المكان المقدس أو يخرج منه ، والامات ؟ ان أكثر الاجابات احتمالا فى صحتها عن هذا السؤال هو الاعتقاد فى ان صليل الأجراس المقدسة يطرد الأرواح الشريرة الحاسدة التى تقبع عند باب المكان المقدس على استعداد لأن تنقض على الكاهن المزين

(١) سفر الخروج ، ٢٨ : ٣١ الى ٣٥ .
وكلمة أسمانجونى التى تترجمها الترجمة الانجليزية المعتمدة الى كلمة « أزرق » ، تعنى الأزرق الأرجوانى . وهى تتميز عن الكلمة الأخرى « أرجوان » التى تعنى اللون الأرجوانى الضارب الى الجمره ، ومن ثم ترجمنا الكلمة الأولى الى اللون « البنفسجى » .

(المؤلف)

بأعلى زينة وأن تحمله معها ، عندما يخطو فوق عتبة المكان المقدس ليقوم بواجبه الدينى . وأقل ما يمكن أن يقال بصدد هذا الرأى الذى لقى رواجاً بين الدارسين المحدثين ، هو أن هناك أمثلة شبيهة به وتدعمه فى قوة . فقد كان الرأى الشائع منذ العصور القديمة وما قبلها ، هو أن الشياطين والأشباح تهرب عند سماع صوت ينبعث من معدن سواء أكان هذا الصوت صوت صليل من الأجراس الصغيرة أو قعقة متواصلة طنانة تنبعث من الأجراس الكبيرة ، أو كان صليل الصنج الحاد ، أم دوى الطبول ، أم صلصلة وقعقة أطباق من البرونز أو الحديد ، عندما يرتطم بعضها ببعض أو عندما تضرب بمدق أو بعصى . ومن ثم فقد كانت العادة المتبعة عند القيام بتطهير شخص من الأرواح الشريرة أن يدق كاهن القداس جرساً يحمله فى يده ، أو أن يعلق مجموعة من الأجراس فى رداءه بحيث تصلصل عند كل حركة يقوم بها . والأمثلة التالية توضح قدم هذه المعتقدات والممارسات وانتشارها على نطاق واسع . .

يخبرنا « لوسيان » ان الأشباح تهرب عند سماع صوت يصدر عن معدن من البرونز أو الحديد . وهو يقابل بين الشعور بالنفور الذى يحدثه رنين هذه المعادن على الأشباح ، وسحر رنين النفود المعدنية على النساء اللاتى ينتمين الى طبقة بعينها . ففى روما عندما كان شبح الميت يقوم بزيارته السنوية الى مسكنه القديم فى شهر مايو ، وكان يستمتع بتناول طعام رخيص من حب الفول ، تعود أن يقوده ساكن البيت الى الباب ويتوسل اليه قائلاً : « لترحل الآن يا شبح والدى » . ثم يؤكد أمره أو طلبه برنين يصدر من معدن برونزى . ولم تنقرض مثل هذه الأفكار التى مؤداها أن الأشباح تكره سماع الرنين الصادر من المعدن بانتهاء عصر الوثنية ، بل عاشت فى أقوى صورها فى ظل المسيحية فى العصور الوسطى بعد ذلك بزمان طويل . فالعالم المسيحى المفسر « جون تترتريس » يخبرنا أن رنين البرونز يؤثر على الأشباح تأثير نباح الكلب عليها . وهذا الرأى لم يلق معارضة سوى من قبل قليل من الرجال المفكرين . .

أما في عصور المسيحية ، فقد كان أكثر الأصوات مقتا الى آذان الشياطين والعفاريت هو الصوت الجميل الوقور الذي يصدر من أجراس الكنائس • ولقد أعلن مجلس مدينة كولونيا المحلي رأيا رفعه الى الأجداد ، وهو أن الشياطين تفرع عند سماع صوت الأجراس التي تدعو المسيحيين الى الصلاة ، فترحل • وكذلك تفعل أرواح العواصف وقوى الرياح • على أنه يبدو أن أعضاء المجلس نفسه كانوا يميلون لأن يعزوا هذا العمل الطيب الى ورع المؤمنين وشفاعتهم أكثر مما يعزونه الى صليل الأجراس • ومرة أخرى يشير كتاب الطقوس الدينية الذي عرف باسم « كتاب الأسقفية الروماني » ، الى مزايا جرس الكنيسة أينما سمع صوته ، ألا وهي قدرته على طرد القوى الشريرة وأرواح الموتى المتمردة الهائمة ، وكل أرواح الزوابع • كما ذكر « دوراندوس » العالم الشهير بالقوانين الكنيسية الذي كان يعيش في القرن الثالث عشر في بحثه الشهير عن الطقوس الدينية الذي انتشر على نطاق واسع ، أن « الأجراس تدق في تتابع حتى تفرع الشياطين وتهرب • فعندما تسمع هذه الأشباح طبول محارب الكنيسة — أي الجرس — يدب الرعب فيها ، تماما كما يدب الرعب في نفس أي متعطرس عندما يسمع في أرضه صوت طبول ملك قوى يغزو بلاده • • وهذا هو السبب كذلك في أن الكنيسة تدق أجراسها عندما تهب عاصفة حتى تخاف الشياطين عندما تسمع صوت طبول الملك الأبدى أي الأجراس فتهرب وتكف عن إثارة العاصفة » • وقد كتب حول هذا الموضوع عالم الآثار الانجليزي القائد «فرنسيس جروسي» ، صديق الشاعر « برونز » يقول : « ان نواقيس النعي كانت تدق لغرضين : أولا ابلاغ المسيحيين الأتقياء برحيل روح الميت ، وثانيا طرد الأرواح الشريرة التي تقف عند سرير الميت وحول بيته مستعدة لأن تقبض على فريستها ، أو على الأقل تناوشها وهي في طريقها لعالم الأرواح • فعندما تدق الأجراس تظل الأرواح الشريرة بعيدة عن شبح الميت (لأن « دوراندوس » يخبرنا أن الأرواح الشريرة تفرع كل الفزع من صوت الاجراس) • في حين تنطلق روح الميت كالارنب المطارد

وتفوز بالهروب ، أو تفوز بما يسميه الرياضيون بحقها القانونى •
وربما كان ذلك فرصة مناسبة للأرواح لأن تدفع ثمننا غاليا فى مقابل
قرع أجراس الكنيسة لها ، وبخاصة بعد أن أعفيت من القيام بعمل
اضافى ذلك أنه عندما تصلص الأجراس ، يتحتم على الأرواح الشريرة
أن ترحل ، فى حين يأخذ روح الميت الفقير فى التحرك عندما يخفت
صليها • وفضلا عن ذلك فإن عددا كبيرا من المصلين يصلون من
أجل الميت كلما سمعوا أصوات الأجراس تدق عن بعد • وقد صور
« و • دى ويردى » مقت الأرواح الشريرة لسماع الأجراس فى
« الأسطورة الذهبية » فقال : « لقد قيل ان الحيرة تنتاب الأرواح
الشريرة التى تسبح فى الهواء عندما تسمع الأجراس • وهذا هو
السبب فى أن الأجراس تدق عندما يرعد الجو ، وعندما تهب عاصفة
أو زوبعة حتى تبتعد الأرواح الشريرة وتهرب ، وعند ذاك تخمد
العاصفة » ••

وكذلك صور « لونج فيلو » فى الرواية الشعرية « للأسطورة
الذهبية » ، هذه الخرافة تصويرا مؤثرا جميلا • ففى مقدمة قصيدته
صور برج كاتدرائية ستراسبورج فى الليل وقد ثارت من حوله
الزوابع ، فى الوقت الذى أخذ الشيطان وقوى الرياح تحلقان فى
الهواء حول البرج وتحاولان أن تمزقا الصليب وتسكتا صليل الأجراس
المزعج : فقال :

لو سيفر ، أهبط ، أهبط
حلق الى أسفل
امسك الأجراس المصطخبة
وحطمها حتى يسمع رنين اصدامها بالرصيف
اقتلعها من برجها الطائر
أيتها الأصوات •
ان كل صخبك
لا قيمة له

فلقد مسحت كل الأجراس بالزيت
وعمدت بالمياه المقدسة
وهي تتحدى كل ما لنا من قوة

وفضلا عن هذا ، فان الزوبعة العاصفة وجهنم المعولة قد
استمعا الى صوت الأجراس الوقور • وفي هذا يقول الشاعر :

Defunctoo ploro
Pestem fugo
Festa decora

كما يقول مرة أخرى :

Funera plango
Fulgura frango
Sabbata pango (1)

وفي النهاية رضخت الشياطين الحائرة لأن تنزع في الظلام ،
تاركة وراءها الكاتدرائية التي لم تكن قد أصابها أذى ، وقد سطع
بداخلها الملك ميخائيل شاهرا سيفه يتلأأ بلونه الذهبي والقرمزي على
ألواح زجاج النوافذ ، بينما تقف الموسيقى المنبعثة من الأرغن وأصوات
غناء الكورس أثر الشياطين • وهي تردد :

Nocte surgentes
Vigilimus omnes (2)

ويمكننا أن ننتهي من ذلك الى أن طرد الأرواح الشريرة يعد
السبب الأول والأساسي من بين السببين اللذين يعزوهما « جروسي »
لقرع أجراس النعي • والسبب الثاني الثانوي هو دعوة المؤمنين المصلين
للصلاة من أجل الروح التي أوشكت على أن تصعد الى بارئها •

(١) ومعنى هذا : اننى ابكى هؤلاء الذين ارتاحوا من الحياة واطرد
الوباء وأحس الأعياد الدينية اننى أنوح على الاموات والخفت الاضواء وأرعى
يوم السبت يوم الراحة .
(٢) أى .. الأرواح تصعد في الليل ونحن نرقبها جميعا .

وعلى أى الحالات فانه يبدو أن الناقوس كان يقرع على الدوام فيما مضى ، حينما كان يبدو لأقرباء المريض أن مريضهم قد أخذ يعاني سكرات الموت • ويتضح هذا من خلال فقرات متعددة استطاع أن يكشفها المختصون بالدراسات القديمة بين كتابات الكتاب القدماء • وقد أخبرنا « استييس » فى كتابه « تشريح المساوىء » عن النهاية المؤلمة التى حدثت فى « لينكولن شاير » لشخص وثنى كان يكثر من القسم بالايمان فقال : « وعندما بدأ للناس أن نهايته قد قربت ، دقوا النواقيس • فلما سمع هذا الرجل النواقيس تتاديه ، اندفع من سريره فى قوة وهو يقول : « بحق الرب انه لن يأخذنى بعد » • وعند ذاك تدفق الدم من أطراف أصابع قدميه وأطراف أصابع يديه ومن معصمه ، ومن أنفه وفمه ، ومن مفاصل جسمه ، وأجزاء أخرى منه • ولم يكف الدم عن التدفق حتى خرج كل الدم من جسمه ، وبهذا أنهى هذا الأثم حياته الزمنية » • وعندما كانت السيدة « كاترين جراى » تحتضر وهى أسيرة فى القلعة ، وأدرك حاكم القلعة أن السجينة على وشك أن تتخلص من أسره بدون ترخيص ملكى ، قال للسيد « بوكيام » : « أليس من الأفضل أن نرسل الى الكنيسة لتدق نواقيسها ؟ » • أما السيدة فقد أخذت تصلى عندما شعرت أن نهايتها قد اقتربت ، وتقول : يا الهى ، اننى أودع روحى بين يديك • سيدى المسيح هيا استقبل روحى » • فصليل النواقيس كان بالنسبة لها ، كما كان بالنسبة لغيرها أنه « قضى الأمر » • Nunc dimittis ومرة أخرى تحدث كاتب فى النصف الأول من القرن العشرين عن مسيحي يحتضر وقد كبت عواطفه : « لو مد عمره بعض الوقت ، لكان فى وسعه أن يستمع الى أجراس النعى فى هدوء » •

ومما يرجح أن الغرض الحقيقى من أن دق أجراس النعى هو طرد الكائنات الشريرة التى تحلق فى الهواء متخفية عن الأنظار وليس مخاطبة الناس من بعد ودعوتهم للصلاة على الميت ، ذلك الشكل البدائى الذى احتفظ فيه بتلك العادة فى كل مكان حتى عصرنا الحاضر •

فعندما يمرض شخص ويصل الى مرحلة الاحتضار في بعض جهات جبال « ايفل » أى في الحى الذى يقع في منطقة الراين البروسية ، فان أصدقاءه ، وفقا للعادة المتبعة ، يدقون جرسا صغيرا يمسكونه في أيديهم ، ويسمى جرس البركة . « وذلك لكى يبعدوا الأرواح الشريرة عن المحتضر » . وقد قيل ان العادة التى كانت متبعة في « نيو سول » في شمال هنغاريا ، أن يدق جرس صغير يحمل في اليد عندما تقترب نهاية شخص ، « حتى تظل روحه المفارقة له تحلق بضغ دقات في العالم الأرضى بجانب جسدها المسجى » . فاذا لفظ أنفاسه ظل الجرس يدق بعيدا عن الجسد بعض الشيء ، ثم يدق خارج باب حجرته ثم حول بيته . « وبذلك يرافق صليل الجرس الروح وهى في طريق رحلتها » . ثم ترسل بعد ذلك اشارة الى القندلفت لكى يأخذ في دق نواقيس كنيسة القرية . ويقال ان مثل هذه العادة كانت تنتشر في جبال « غابة بوهيميا » التى تفصل بوهيميا عن بافاريا . والدافع الذى يتقدم تفسيرا لتلك العادة وهو الرغبة في اعاقه رحيل الروح لبضع لحظات عن طريق دق الأجراس ذات الصوت الرقيق ، لا يمكن أن يكون الدافع البدائى بعينه ، لما يحتوى عليه من احساس رقيق للغاية . وانما الدافع الأساسى وراء ذلك بدون شك ، كما هى الحال في العادة المشابهة المنتشرة في جبال « ايفل » ، هو ابعاد الشياطين التى يمكن أن تخطف الروح المسكينة في تلك اللحظة الحرجة . ولا يأخذ ناقوس برج الكنيسة الكبير في الدق ، الا بعد أن يؤدي الجرس الصغير وظيفته الخيرة ، وبذلك يرافق صوت الجرس الكبير الرنان كذلك ، الروح الراحل في رحلته الطويلة في أرض الأرواح كما لو كان ملاكا حارسا . .

وفي فقرة شهيرة من كتاب دانتي « المطهر » قرن دانتي بين فكرة صليل جرس النعى وصيل ناقوس المساء الذى يسمعه المسافر في البحر من بعد ، من حيث أن الناقوس الأخير يعلن كذلك نهاية يوم أو نهاية رحلة الشمس وهى تتلاشى في السماء القرمزية . وليست

أبيات « بايرون » التى يقلد فيها أبيات دانتي ، أقل شهرة من
الأبيات الأخيرة • فبايرون يقول :

يا للساعة الرقيقة التى توقظ الرغبة وتذيب القلوب
هؤلاء الذين يبحرون فى البحر فى اليوم الأول
عندما يفترقون عن أصدقائهم الأعزاء
ويا لها من ساعة تملأ قلب الحاج بالحب فى رحلته
عندما يعلن ناقوس المساء بدء الرحلة
وكأنه يبكى فناء يوم راحل •

وليس تعبير الشاعر « جراى » عن هذه الفكرة أقل جمالا ،
وهو يصور صليل ناقوس الغروب فى المساء وصدى صوته بين
أشجار الطقوس والدردار الجلييلة فى ساحة كنيسة انجليزىة ، عندما
يقول :

لقد نعى ناقوس المساء ذلك اليوم الراحل

حقا ان أصوات قرع نواقيس الكنيسة فى مثل هذه الأوقات ،
وفى هذه الأمكنة يثير احساسا يمتلىء بالرغبة والتأثير فى النفس •
فهو يرن فى الآذان كصدى عالم اختفى من الوجود ، على حد تعبير
« فراودى » وقد عبر الشاعر الأمريكى « برىث هارتى » أجمل تعبير
عن هذا الاحساس ، عندما سمع ، أو بالأحرى تصور أنه سمع ،
ناقوس صلاة التبشير يدق فى المساء بجانب ارسالية أسبانية تقع
فى دولوريس فى كاليفورنيا ، وقد هجرت منذ زمن • فهو يقول :

يا أجراس الماضى ، التى لا تزال
وموسيقاها النفسية منذ زمن ، تملأ الفضاء الشاسع
وتلون شفق الحاضر بلون رومانسى
اننى أسمع نداءك ، وأرى الشمس وهى تختفى
على الصخرة ، وعلى الموجة وعلى الرمال

عندما تحيط أصوات الارسالية التى تقع عند الشاطئ
بالأرض الكافرة وتختلط بها
فى دائرة سحرك

لا نعثر على أية آفة أو عفن فطرى
ولا يمر القلق العنيف أو الشهوة أو الطموح الدنىء
بهذه الأسوار الشاهقة
اننا نشق طريقنا عبر أمواجك الطويلة الممتدة
ونتراجع نتلمس الماضى الأسباني
وأبقى مع حلم الغروب
أيتها الأجراس الرهيبية ، يا من تستغيث أجسامها المقدسة
بايمان القدماء
ويا أيتها الأجراس المججلة التى تهدد موسيق الشفق
ان الروحانية تنطوى •

وقد عبر « رينان » الذى خفف من غلواء أفكاره الدينية المتشككة
الادراك الهادئ للاديب الفنان ، عن مثل هذا الاحساس بقوة
الأجراس التى تمس القلب ، وتتأغم العقل بالأفكار الخاشعة ، فقال
معترضا على الاتجاه العقلانى المجدب الذى اشتهر به عالم الأديان
الألماني « فوبرباخ » : « ألا ينبغي على « فوبرباخ » أن ينغمس ، من
أجل الرب ، فى منابع أكثر غنى من مجرد الاحساس المتعالى المنتفخ
بجرمانيته • آه لو أنه جلس عند آثار فلسطين أو جبل كوليان لسمع
أصوات الأجراس الأبدية وهى تظل تصلصل حتى يخفت رنينها على
التلال المهجورة التى كان الرومانيون يسكنونها يوما ما • أو لو أنه
جلس على شاطئ اليليدو المنعزل ، واستمع الى صليل أجراس كنيسة
القديس مارك وهى تخفت عبر البحيرة الضحلة ، ولو أنه رأى «أسيس»
وعجائبها السحرية وكنيستها المزدوجة ، ورأى أسطورة المسيح الثانى
الذى ظهر فى العصور الوسطى مصورة بريشة « سيمابو »
و «جيويتو» • ولو أنه أشبع مرآه بالمنظر الساحر لعذارى «بيروجينو» •

ولو انه رأى فى سانت دومنيكو فى سينا القديسة كاترين فى وجدها
الالهى • لو أنه فعل هذا لما سخر السيد « فوبرباخ » مما يقرب
من نصف الشعر الانسانى ، ولما صرخ كما لو كان يطرد عنه شبح
يهوذا الاسخريوطى » ••

على أن هذه الأمثلة التى تشير الى التأثير العاطفى للأجراس
الكنائس على الناس ، لا ينبغى أن تبتعد عن البحث الفولكلورى لهذا
الموضوع • فنحن لا نستطيع أن نفهم أفكار الناس ما لم نتعمق أعماق
مشاعرهم وعواطفهم التى تستمد منها هذه الأفكار • وأقل ما يمكن
أن نفعله هو أن نفصلهما فى مجال الدين • ذلك أنه ليست هناك حواجز
صارمة بين الأفكار العقلية ومشاعر الجسد من ناحية ، واحساسات
القلب من ناحية أخرى ، وهى تميل جميعا لأن تذبذب ويختلط بعضها
بالبعض الآخر فى موجات عاطفية • وليست الموسيقى وحدها هى
التي تستطيع أن تحتفظ بموجات هذه العواطف ، وانما بوسع
أشياء أخرى وان كانت قليلة ، أن تحتفظ بتدفقها فى قوة • ولم يحاول
أحد حتى اليوم أن يقوم بدراسة الفولكلور من جانبه العاطفى ،
وانما ركز الباحثون أبحاثهم حول الجانبين المنطقى والعقلانى ، أو بتعبير
آخر يفصله بعض الباحثين حول عناصره اللامنطقية واللاعقلانية •
ولكننا يمكننا أن نتوقع بدون شك استكشافات قيمة من خلال الدراسات
المستقبلية حول أثر العواطف فى تشكيل مصير الانسان وعاداته ••

ولقد كان الناس منذ العصور الوسطى حتى العصور الحديثة ،
يجبون الاستماع الى صليل نواقيس الكنائس ، اذ كانوا يتصورون
أن السحرة والمشعوذين يحتشدون فى صور غير مرئية فى الجو
ليحتالوا بحيلهم الرخيصة على اصابة الانسان والحيوان على السواء
بالشرور ، وقد كانت هناك أيام معينة فى أثناء السنة يعقد فيها
هؤلاء الأشرار اجتماعاتهم غير المقدسة أو السبوت ، كما كان يطلق
عليها • وبناء على ذلك فقد كانت الأجراس تقرر طوال الليل فى بعض
الأحيان فى مثل هذه الأيام حيث ان السحرة المشعوذين يكونون

منشغلين فيها تحت ستار الليل بانجاز أعمالهم الجهنمية • ففي فرنسا على سبيل المثال ، كان الناس يعتقدون أن السحرة يهيمنون في الهواء في ليلة القديسة « أجاثا » بصفة خاصة ، وهي الليلة التي توافق الخامس من شهر نوفمبر • ومن ثم أصبح من المعتاد أن تدق أجراس الكنائس والأبرشيات طوال الليل حتى تطردهم • وقد قيل أن هذه العادة نفسها تنتشر في بعض بقاع أسبانيا • ومن بين الأيام التي يجتمع فيها السحرة كذلك ليلة عشية منتصف الصيف ، ولهذا فان أجراس « روتنبورج » في « سوابيا » تظل تدق من الساعة التاسعة مساء في هذه الليلة حتى الفجر ، بينما يغلق الناس المؤمنون نوافذ بيوتهم اغلاقا محكما ، بل انهم يسدون الشقوق حتى لا تتسرب الى بيوتهم هذه الشخوص المفزعة • وقد تعود السحرة كذلك أن يجتمعوا في « الليلة الثانية عشرة » ، وليلة « القديس والبورجي » ، وعشية أول مايو • ومن ثم أصبحت العادة في هذه الأيام أن يقوم الناس بطرد هؤلاء الأشرار الذين يمارسون شرورهم في صورة غير مرئية ، عن طريق قرع أجراس وضرب سياط يمسكونها في أيديهم ••

ولكن على الرغم من أن السحرة والمشعوذين يفضلون مواسم معينة من السنة للاحتفال بعربدتهم الدنسة ، فانه لا تمر ليلة لا يقابلون فيها عابري السبل ، وذلك في أثناء تجوالهم بحثا عن أشخاص يؤذونهم بشرورهم ، كما لا تمر ليلة لا يحاولون فيها اقتحام بيوت المؤمنين وهم نائمون في قلق • ومن ثم كان ينبغي أن يفعل شيء لحماية المواطنين السالمين من ازعاج هؤلاء الأشرار لهم في أثناء الليل • ولهذا فان الحراس المكلفين بحماية الشوارع من حدوث الجرائم العادية ، يلقي على عاتقهم تبعة اضافية ، وهي طرد القوى المفزعة التي تنتشر في الظلام في الجو ، وتتجول كالأسود الضارية التي تبحث عن فريستها • ولكي ينجز حراس الليل مهمتهم ، فانهم كانوا يستخدمون نوعين مختلفين من الأسلحة الروحية التي تتفق في درجة فعاليتها • أما السلاح الأول فهو الناقوس ، وأما السلاح الثاني فهو الترنم بالأدعية المباركة •

واذا كان صوت الناقوس يقلق النيام فى الحى ، فان لحن تعويذة البركة
كان يريحهم ، اذ كانوا يتأكدون ، كلما غطوا فى النوم أن هذا هو السبيل
الوحيد لأمنهم على حد تعبير ملتون ، عندما قال :

فتعويذة رجل الجرس التى تصل الى آذان النائمين
تبارك الأبواب من شرور الليل

وكثيرا ما كانت أنشودة البركة التى تحطم سكون الليل تصاغ
فى شعر ليس له مثيل فى ردايته ، بحيث أصبح شعر رجل الجرس
مضرب الأمثال • وفحوى هذا الشعر يمكن استخلاصه من سطور
قالها « هينريك » على لسان أحد جمهور الحراس الذى عانى الشاعر
من أدعيتهم الليلية بكل تأكيد ، كما عانى منهم « ملتون » كذلك •
وهذه الأبيات هى :

رجل الجرس
يخلصك من ضجيج المحنة
ومن القتلة
ومن كل سوء يمكن أن يزعجك
حتى تنام نوما هادئا
وهو يبعث فى نفوسكم الاطمئنان
ويبعد عنكم الأشباح عندما تنامون
بعد الساعة الواحدة أو ربما بعد الساعة الثانية
سادتى • طاب يومكم جميعا

ويخبرنا أديسون كيف أنه استمع الى رجل الجرس وهو يبدأ
عظاته عند منتصف الليل باستهلال مألوف ظل يعيده على مسمع سامعيه
فى كل ليلة من ليالى الشتاء طيلة عشرين عاما • وهذا الاستهلال هو :

أيها الرجل الفانى ، يا من ولد فى المعصية

وعلى الرغم من أن هذه الخطبة المزدرية بالإنسان يمكن أن يكون لها صدى ورع في نفس أديسون ، إلا أنه يبدو أنها كانت تثير مشاعر الغضب وازدراء النفس في صدور الناس العاديين الذين كانوا يستيقظون من سباتهم في الهزيع الأول من الليل ليذكرهم رجل الجرس في ساعة غير مستحبة بعقيدة أصل الشرور ..

لقد رأينا أن أجراس الكنائس ، كانت تقرر في العادة ، وذلك من وجهة نظر كتاب العصور الوسطى ، ساعة حدوث العواصف المريعة بقصد طرد الأرواح الشريرة المثيرة للعواصف . وقد ألف كاتب ألماني عجوز عاش في القرن السادس عشر وكان يعرف باسم « ناوجورجوس » ، قصيدة ساخرة حول تأثير مثل هذه الخزعات على الكنيسة فقال :

إذا أرعد الرعد ، وثارت العواصف العاصفة
اعتقد الناس لشدة تعجبنا ، أن الأرواح الخبيثة تسببها ،
هؤلاء الذين لا دين لهم ، ولا ثقة في أى شيء
ولهذا يقرر الكهنة النواقيس من أعلى أبراج الكنيسة
فتصلل بصوت أعلى من صوتها العادي
حتى يكف الرعد في السماء المظلمة
لأنهم يعتقدون أن القوة التي تسكن هذه الأجراس المسيحية
تقدر على إسكات العاصفة والرعد

ولقد رأيت بنفسى ذات مرة في « نوم بارج » ، وهي مدينة تقع على شاطئ تورنج

جرسا يفتخر باللقب الذي أطلق عليه ويقول :
« اسمى مارى »

اننى اسكت الرعد العاصف بصوتى وكذلك الزوابع وكل شرير
يمزح » ،

ولا عجب ، اذا كانت الأجراس تقوم بهذا العمل ، أن يلجأ اليها
المتدينون عندما يسقط البرد أو تثور زوبعة أو عاصفة
أو يرعد الرعد أو يبرق البرق العنيف في كل مكان » ..

وقد قيل ان أجراس الكنيسة كانت تقرر في كل أنحاء ألمانيا
في العصور الوسطى في أثناء حدوث عاصفة مرعدة ، وان القندلفت
كان يتلقى ضريبة خاصة من الأبرشيات لقرعه الأجراس في هذه
الظروف العاجلة . وقد ظلت هذه الضريبة تدفع حتى نهاية منتصف
القرن التاسع عشر . ومثال هذا أن القندلفت في « يوبار » التي تقع
في « التمارك » ، كان يضطر الى قرع نواقيس الكنيسة عندما تهب
عاصفة مرعدة . وفي مقابل هذا كان يتسلم من كل فلاح خمس
حزم من الذرة ، لما كان يتكلفه من أعباء في إنقاذ المحصول من
التلف . ويخبرنا كاتب ألماني عن هذه العادة التي كانت تنتشر في
« سوابيا » في حوالى منتصف القرن التاسع عشر ، « أن الأجراس
كانت تدق في معظم الأبرشيات الكاثوليكية بخاصة تلك التي تقع
في شمال « سوابيا » عندما تهب عاصفة مرعدة ، وبذلك يكف البرد
عن السقوط ولا تحدث خسائر من البروق . وكثير من الكنائس تمتلك
أجراسا خاصة لهذا الغرض . فدير « باين جارتن » الذي يقع
بالقرب من « ألت دورف » يملك جرسا يطلق عليه اسم « ناقوس الدم
المقدس » . ويدق هذا الجرس في أثناء هبوب عاصفة مرعدة .
وفي « فور ملنجن » تدق الأجراس على جبل « ريميجيوس » ، فاذا قرع
الناس هذا الناقوس بمجرد احساسهم بحدوث عاصفة رعدية ،
فان البرق لا يتهددهم في أى مكان في الحى . على أن القرى المجاورة
ومن بينها « يسنجن » على سبيل المثال ، لا تسعد بقرع النواقيس ،
لأنها تعتقد أن المطر يهتفى مع اختفاء العاصفة الرعدية . أما فيما
يختص بمدينة « كونستانسا » بصفة خاصة ، فنحن نقرأ أن نواقيس
كل الكنائس والأبرشيات لا في المدينة وحدها وانما في الأماكن المجاورة
كذلك ، كانت تقرر عندما تهب عاصفة رعدية . ونظرا لقداسة هذه

النواقيس ، فان الناس يعتقدون أن أصواتها تحميهم كلية من أذى البرق . حقا ان غير قليل من الناس يساعدون القندلفت في حماسة في شد حبال الناقوس في قوة حتى يتأرجح تأرجحا بالغيا . وعلى الرغم من أن هؤلاء المتطوعين ، فيما يروى ، قد صعقتهم البروق فماتوا في أثناء قرع الأجراس ، الا أن غيرهم لم يجبن عن أن يفعل فعلهم . بل ان الأطفال في هذه المناسبات يحملون في أيديهم أجراسا صغيرة مصنوعة من الرصاص أو من أى معدن آخر ، ومزينة بأشكال على هيئة أصابع القديسين ثم يأخذون في دقها بعد أن تكون كنيسة « ماريا لوريتو » التى تقع في « شتايرميرك » أو في « اينسيديلن » قد باركتها . وقد كان التابعون في ظل بعض النظم الاقطاعية ملزمين بدق أجراس الكنيسة في مناسبات عدة وبصفة خاصة في أثناء العواصف الرعدية .

لقد كانت النواقيس تقّـدس في خشوع ، كما كان الاعتقاد الشائع انها قد عمدت بواسطة الكهنة . ومن المؤكد أنها كانت تسمى بأسماء وتغسل وتبارك وتدهن بالزيت المقدس لكي تستطيع أن « تبعد الأشباح الشريرة وتطردها » وكثيرا ما تشير الكتابات المحفورة على الأجراس الى المقدرة التى تستكن بالناقوس وتمكنه من طرد الزوابع والبرق والرعد . وقد يجروء البعض على نسبة هذه القوى للنواقيس نفسها ، في حين يتضرع البعض الآخر الأكثر تواضعا الى الله لكي يخلصهم من هذه الكوارث ، فهناك ناقوس في « هازلين » قد حفرت عليه الكلمات التالية بالحروف اللاتينية وهى « سيدي المسيح خلصنا من البرق والرعد والعواصف » . ويخبرنا « بينانت » الرحالة والباحث في الآثار القديمة الذى عاش في القرن الثامن عشر ، في معرض حديثه عن بئر القديس « فينفريد » في « فلينتشاير » فيقول : « لقد مسح ناقوس من نواقيس الكنيسة تكريما للكنيسة . اننى لا أعرف أسماء الذين عينهم الكنيسة آباء أو أمهات بالتعميد ، هؤلاء الذين كانوا في العادة من الأثرياء ولكن الذى أعرفه أن هؤلاء

كانوا يمسكون بحبل الناقوس عند الاحتفال بالتعميد ، كما يسمون الناقوس باسم • وعند ذاك يأتي الكاهن وينثر الماء المقدس على الناقوس ويعمده باسم الأب والابن والروح القدس ، كما يكسوه برداء جميل • وبعد هذا يقدم هؤلاء الآباء والأمهات وليمة كبيرة ، كما يقدمون المنح القيمة التي يتسلمها الكاهن باسم الناقوس • فإذا بورك الناقوس على هذا النحو ، فإنه يكون بذلك قد اكتسب المقدرة الخارقة على تهدئة العواصف عندما يقرع ، وعلى تعطيل الرعود وطرد الأرواح الشريرة • وكثيرا ما كانت تنقش الكتابات على مثل هذه النواقيس المقدسة • ومن بين هذه الكتابات العبارة التالية :

Sancta Wenefreda, Des hoc commendare momente
Ut pietate sua nos servet ab hoste cruento

كما كتب أسفل ذلك

Protege prece pia quos convoco, Virgo Maria

على أن العالم اليسوعي الأب « مارتين ديلريو » الذي نشر كتابا قيما عن السحر في مطلع القرن السابع عشر ، أنكر في سخط موضوع تعميد النواقيس ، على الرغم من أنه اعترف أنها كانت تسمى بأسماء القديسين وأن أصحاب السلطان الكنسي كانوا يباركونها ويدهنونها بالزيت المقدس • أما أن نواقيس الكنيسة تدق لتقييد الأرواح الشريرة كل التقييد ، ولتفادي العواصف التي تثيرها القوى المعادية للإنسان ، أو للعمل على إخمادها ، فهو ، من وجهة نظر العالم اليسوعي ، اعتقاد مصدره التجارب اليومية التي تبدو واضحة للعيان بحيث يتعذر إنكارها • ولكن هذه الأعمال الخارقة من ناحية أخرى ترجع إلى القداسة أو البركة التي تخلع على هذه الأجراس ، ولا ترجع إلى شكلها أو إلى طبيعة مادتها • فهو يرفض بازدراء ، رفضه للخرافات الوثنية ، فكرة أن الصليب الذي تحدثه آلة نحاسية كفيلا بأن يبعد الشياطين • كما أنه يسخر من تصور أن ناقوس الكنيسة يفقد كل خواصه العجيبة إذا سمته محظية القسيس

باسم (ذلك أنه يرفض كلية استخدام كلمة التعميد) • وقد هبط
« بيكون » بتفكيره الى حد الاشارة الى الاعتقاد في أن « صليل
النواقيس القوى في البلاد المأهولة بالسكان قد أبعد عنها الرعود ،
وبدد هواءها الفاسد » • ولكنه في الوقت نفسه يقدم تفسيراً
طبيعياً لهذه الحقيقة المتصورة فيقول : « على أن هذا يمكن أن ينجم
عن تخلخل في الهواء ولا ينجم عن صليل النواقيس » ••

وبينما تمتلك كل النواقيس بدون استثناء وبدرجة واحدة لتلك
الخاصية العجيبة في العمل على تبديد الشياطين والمشعوذين ، كما تجنب
الناس ، الى جانب ذلك ، أضرار الرعود والبروق ، فإن بعض النواقيس
كانت تتميز عن غيرها في درجة فعاليتها في استخدام قواها الخيرة •
ومن هذه النواقيس ناقوس القديس « أديلم » في دير « مالميسبروري » ،
والناقوس الضخم « سان جرمان » بدير « سان جرمان » في
باريس • فهذان الناقوسان كانا يقرعان بانتظام لطرد أشباح الرعد
والبرق • وقد كان لكاتدرائية القديس « باول » القديمة ، حق
امتياز « قرع النواقيس في أثناء حدوث الزوابع المرعدة والبرق » •
على أن الأعمال الخارقة لنواقيس أوروبا تتضاءل بالنسبة لأعمال
نواقيس « كالوتو » التي تقع في أمريكا الجنوبية ، لا من حيث أن
نواقيس « كالوتو » كانت تتميز عن نواقيس أوروبا بامتلاكها القوى
خاصة بها ، ولكن من حيث كثرة حدوث العواصف المرعدة في
اقليم « أنديس » ، الأمر الذي هيا الفرصة لنواقيس « كالوتو » في
إبراز مقدرتها التي تفوق مقدرة الأجراس العادية • وفي هذا
المجال استشهد بشهادة عالم وبحار أسباني مرموق سافر الى أمريكا
الجنوبية في النصف الأول من القرن الثامن عشر • فقد أخبرنا هذا
العالم أن « بوبايان » أكثر تعرضاً للعواصف المرعدة والبروق
والزلازل • ولكن حيث أن « كالوتو » كانت تعد أكثر الجهات تعرضاً
للعواصف المرعدة والبروق ، فقد كان هذا سبباً في شهرة نواقيس

« كالوتو » التى يقرعها عدد غير قليل من الناس لعلمهم علم اليقين أنها تمتلك خاصية ضد البروق . وهناك فى الحقيقة حكايات كثيرة تحكى حول هذا الموضوع ، الى درجة أن الانسان قد يتحير فى تصديقها . وأشير الآن الى أكثر الحكايات انتشارا حول هذا الموضوع دون أن أتعرض لصدقها أو كذبها ، وانما أترك لكل شخص الحرية فى الحكم عليها . لقد كانت مقاطعة « كالوتو » التى تحتوى على عدد كبير من الهنود الذين ينتمون الى شعب يسمى « بايزيس » شاسعة الأرجاء فى الأزمنة السالفة . ثم حدث أن هؤلاء الهنود انقضوا على المدينة فجأة وتوغلوا فى طرقها ، وأحرقوا بيوتها وقتلوا سكانها . وكان من بين القتلى قسيس الأبرشية الذى كانوا يبغضونه بصفة خاصة ، لأنه كان يتلو المواعظ من الانجيل الذى لم تكن تعاليمه وشرائعه تتفق مع أسلوب حياتهم الهمجية . ومن ثم فقد كانت هذه المواعظ تكشف عن مساوىء وثنيتهم وأفكارها الحمقاء ، كما كانت تضع أمام أعينهم شرورهم الشائنة ، بل ان ناقوس الكنيسة لم يتخلص من هذا الشعور العدائى ، حيث أن رنينه كان يذكرهم بواجبهم فى الحضور والاستماع الى التعاليم الدينية . ومن ثم فانهم بعد أن قاموا بمحاولات عديدة فاشلة فى تحطيم الناقوس فكروا فى أن أفضل وسيلة فى التخلص منه هى دفنه تحت الأرض . وبذلك ينسون تعاليم الانجيل التى شاعت أن تسلبهم حريتهم . وعندما سمع الأسبانيون فى الأحياء المجاورة « لكالوتو » بهجوم الهنود عليها سلحوا أنفسهم وانتقموا من هؤلاء المتمردين شر انتقام ، ثم أعادوا بناء المدينة ، وأخرجوا الناقوس من المكان المدفون فيه ، ووضعوه فى برج الكنيسة الجديدة . ومنذ ذلك الحين لاحظ السكان ، لشدة فرحتهم ودهشتهم ، أنه عندما يقرع الناقوس تخمد العواصف بمجرد أن تثور . وإذا لم يتحسن الجو كل التحسن ، فان العاصفة تختفى على الأقل لتظهر فى مكان آخر . ولما انتشرت أخبار هذه المعجزة فى كل مكان أخذ الناس يتوسلون الى رجال الكنيسة لكى يحصلوا على قطع من الناقوس يصنعون منها ألسنة أجراسهم الصغيرة . حتى تكتسب

من الناقوس المعنى خاصيته المميزة له ، ومن ثم يمكنهم الاستفادة من الأجراس الجديدة كل الافادة في بلد يكثر هبوب العواصف عليه في صورة مفزعة • وهذا هو السبب في شهرة « كالوتو » ••

ولم يقتصر استكشاف امكانية اخماد الرعود والصواعق عن طريق تلك العملية البسيطة وهي قرع النواقيس على الشعوب المسيحية في أوروبا وسلاقتهم الذين استوطنوا العالم الجديد ، وانما كان يشاركون هذا الاستكشاف بعض القبائل الوثنية البدائية في أفريقيا • فقد قيل ان « التيسين » يستخدمون الأجراس في طرد شيطان العاصفة • فاذا تسببت الصاعقة أو النار التي تتفجر عنها في اذى شخص ، فان هذا الشخص يظل يحمل أجراسا في رسغه عدة أسابيع بعد هذا الحادث •• وحيثما وجد هذا الشخص أن المطر الغزير يهدد قومه ، لأن المطر يسقط على الدوام في أوغندا مصحوبا بالبرق والرعد ، فانه يتجول في القرية مدة ساعة مرتديا الأجراس المصلصة في رسغيه وحاملا في يده عصا من نبات البردى ، ويصاحبه في العادة أكبر عدد من أفراد أسرته لكي يقوموا بخدمته ، وان كان هؤلاء لا يقومون بالأعمال الأساسية • فاذا تسببت الصاعقة في مقتل شخص ، فانه لا يدفن داخل البيت وفقا للمادة المتبعة وانما يحمل الى مسافة بعيدة ويوارى في التراب بجانب نبع يقع عند حافة الغابة ، ويوضع على قبره كل الأواني والأدوات التي كان يمتلكها في حياته • كما تغرس المعازق على سبيل الضحية لاله الصواعق ، عند باب الكوخ الذي هوت عنده الصاعقة الذي أصبح حطاما بفعلها ، وتترك هناك لبضعة أيام • ومن الطريف هنا أن هذه الرواية تشير الى فاعلية الأجراس والمياه الجارية معا وهي العقيدة التي انتشرت في بعض خرافات الأوربيين القدماء ••

وحيث أنه لا يبدو أن قبيلة « باتيسو » قد تبنت هذه المعتقدات عن طريق المبشرين الأوربيين ، فاننا ننسب اليهم ميزة ابتداء عادة طرد شياطين العواصف عن طريق قرع النواقيس ، أو اخمادها عن

طريق وضع الأواني والفؤوس في الامكنة الخربة وعلى قبر من صعقته الصواعق • وكذلك يستخدم الصينيون الطبول ، التي تتفق في أغراضها العملية مع النواقيس ، في تجنب شرور الرعد ، وان كانت المناسبات التي يضرب فيها الصينيون الطبول تختلف عن مناسبات قرع النواقيس التي أشرنا إليها • فإذا مرض شخص بمرض الجدري ، وظهرت البثور في وجهه مدة سبعة أيام ، وكذلك اذا أرعد الرعد ، اختير أحد أفراد أسرة المريض لكي يأخذ في ضرب الطبول التي تكون معدة لمثل هذه الطوارئ • ويعاون هذا الشخص شخص آخر من الأسرة في إبلاغه بأن الرعد قد خمد ، لأن صوت الطبول القوي لا يمكن ضاربه من التمييز بين صوت الرعد وصوت الطبول • وقد قيل أن السبب في ضرب الطبول هو منع بثور مرض الجدري من الانفجار • ولكن هذا التفسير يقدمه الصينيون لاختفاء بثور المرض نتيجة ضرب الطبول ليس مقنعا فيما يرى الباحثون • ولكننا بمقارنة هذا التصور بالتصور الأوربي السالف الذكر ، نفترض أن الصينيين يتصورون أن انفجار بثور المرض يسببه أصلا شيطان الرعد الذي يمكن طرده عن طريق ضرب الطبول ••

وإذا كانت القبائل الهمجية قد استطاعت أن تحقق غرض طرد الأرواح الشريرة عن طريق أحداث الضجيج ، فهناك شواهد تدل على أنهم لم يرفضوا الوسائل الأوربية التي تحقق الغرض نفسه • وقد سجل اثنان من المبشرين كانا يعيشان بين سكان « بورت موريسباي » في نيوجينا البريطانية ، نموذجا من هذه الوسائل التي استعارها هؤلاء الأهالي عن الأوربيين ، قالوا : « في ذات ليلة عندما هبت عاصفة رعدية ، سمعنا صوتا مزعجا في القرية • وقد كان الأهالي يضربون الطبول ويصرخون في حماسة لكي يطردوا أشباح العاصفة • ثم أخذت أصوات ضرب طبولهم في الخفوت ، عندما بدأت العاصفة تهدأ • وعند ذاك شغل سكان القرية بالاطمئنان • وعلى هذا النحو كانوا يقومون ليلة السبت بطرد الأشباح التي تسبب المرض ويترتب

على ذلك وفاة عدد كبير من الأهالى • وعندما قرع ناقوس الكنيسة عندهم لأول مرة ، شكر الأهالى مستر لوويس لأنه أبعد عنهم عصابات الأشباح من داخل قراهم ، كما كانوا يفعلون هم أنفسهم عن طريق ضرب طبولهم • وقد سعدوا كذلك بنباح كلب لطيف كان يعيش في بيت الارسالية (ذلك لأن الكلب الاسترالى الشرس لا ينبح) ، لأنهم تبينوا في ثقة تامة أن الأشباح قد اضطرت إثر ذلك الى أن ترحل عنهم • ولكن الأشباح ألقت ، لسوء الحظ ، صوت قرع الناقوس ونباح الكلب • ومن ثم كان يتحتم على الصبية أن يتجولوا في الليل وهم مسلحون بالأقواس والسهام لكي يصيخوا هذه الأشباح البغيضة • وكثيرا ما كانوا يفرعون الى الغابات والأحراش ليختبئوا فيها • ومعنى هذا أن أهالى « بورت موريسباى » البدائيين ، قد شاركوا العالم المسيحى ، « جون نزيتريس » رأيته في أنه ليست هناك وسيلة لطرد الأشباح الشريرة ، أفضل من قرع النواقيس البرونزية ونباح الكلب ••

ويقوم بعض هنود « بويلو » في أريزونا بطرد السحرة عن طريق قرع النواقيس ، وان كان من المحتمل أنهم استعاروا هذه العادة من المبشرين الأسبان ، لأنهم لم يكونوا يستعملون من المعادن حتى ذلك الوقت سوى الذهب والفضة ، أى أن استخدام النواقيس لم يكن معروفا لدى سكان أمريكا الأصليين قبل أن يفد اليها الأوروبيون • وقد وصف أحد الضباط الأمريكين طريقة طرد الأشباح التى رآها رأى العين في قرية من قرى « موكويس » التى تقع شأنها شأن سائر قرى هؤلاء الهنود الكثيرة ، على قمة ربوة تشرف على واد خصيب ، فقال :

« ان أهالى « موكويس » يعتقدون في سذاجة ، في السحر والسحرة ، فالهواء الذى يحيط بهم ، وفقبا لتصورهم ، يعج بالأرواح الشريرة • ويطرد سكان « أورابى بى » هذه الأرواح الشريرة عن طريق ترتيل أناشيدهم الدينية وعن طريق قرع النواقيس • وقد

واتانى الحظ لأن أشاهد فى مطلع عام ١٨٧٤ م ، بمرافقة الجنرال « كروك » ، هذه الوسائل السحرية الغريبة التى قام بتأديتها أهالى تلك البلدة المنعزلة التى لا يكاد يعرفها الزائرون • وقد بدا لى وكأن سكان القرية جميعا قد تجمعوا • وبعد أن غنوا بصوت عال وبنغمة متحدية ترتيلة أو ابتهاالا ذا ايقاع موسيقى يؤكد صليل الأجراس القوى ، تقدموا مسرعين فى صف واحد من أعلى قمة الجبل الى حدائق البرقوق التى تقع أسفله ، ووقفوا بعض الوقت عند أركان هذه الحدائق وهم يغنون فى نغمة واحدة عالية ويأخذون من الأشياء الموضوعة داخل الناقوس ما يساوى نقودهم • ثم صدرت اشارة من قائد المجموعة ، اندفعوا على أثرها الى الحدائق • وفى أقل من ساعة كانت ثمار الأشجار قد اقتطفت عن آخرها كما انتزعت فروع الأشجار التى حملها الأطفال والنساء الى قريتهم التى تقع فوق قمة الجبل • والهدف من الرقص حول حدائق الفاكهة ، وكذلك ترتيل الأناشيد بصوت مرتفع ، ودق النواقيس بحماسة بالغة ، هو بدون شك طرد السحرة الذين كان الأهالى يعتقدون أنهم يسكنون بين فروع أشجار البرقوق ويتنعمون بالفاكهة اللذيذة ••

على أن استخدام الأجراس والطبول بقصد طرد الأرواح الشريرة كان مألوفا عند كثير من الشعوب الأخرى التى لم تكن فى حاجة لأن تستعير من المسيحيين الأوروبيين وسائل هذا الطرد • « فالطبله النحاسية تعد الآلة الرئيسية فى الصين التى تحدث ضجيجا قادرا على طرد الأشباح • وهذه الآلة النحاسية تعد فى الحقيقة ملمحا مميزا للصينيين ، وهى تقرر فى ربوع الامبراطورية كل يوم ، وبخاصة فى الصيف عندما تنشط عملية طرد الأشباح بسبب زيادة الوفيات • ويصاحب الضرب على الطبول النحاسية الضرب على الصنج النحاسية والطبول المصنوعة من الخشب أو الجلود ، لأن كل هذا يزيد فى تأثير الطبول النحاسية • وكثيرا ما تستمر جماعات صغيرة من الرجال والنساء فى ضرب هذه الآلات مدة ساعات

مقتالية ولا يعترض الجيران على ذلك أو يرفعون شكواهم بأنهم يفسدون عليهم نومهم بالليل • ربما كان السبب في هذا هو ارتياح آذانهم لهذه الموسيقى البدائية • أو تقديرهم لهذا العمل الجليل الذى يقوم به بعض أفراد هذا الشعب الطيب مشكورين لاهتمامهم البالغ بخير العامة وسلامتها » • وتقام احتفالات طرد الأشباح في جنوب الصين في فصل الصيف القاطظ ، عندما ينتشر وباء الكوليرا الذى يعزى انتشاره الى تخليق الشياطين غير المرئية في الجو • ووظيفة هذه الاحتفالات هي طرد هذه الكائنات الشريرة من البيوت والمساكن • وكل هذا العمل تقوم به جمعية من الجمعيات • وتجمع تكاليفه عن طريق الاكتتاب • ويتصدر قائمة الدفع عادة الموظفون الكبار المحليون ، وهؤلاء الذين يدفعون لهذا الغرض مبالغ سخية • أما العمل الحقيقي في طرد الأشباح فتقوم به مواكب من الرجال والصبية الذين يتجولون في الطرقات ويقرعون طبولهم بصوت عال ، ويضربون بفؤوسهم وسيوفهم الأعداء غير المرئيين ، ويزعجونهم بقرع طبولهم وصليل أجراسهم وفرقة مفرقاتهم واطلاق وابل من رصاص بنادقهم ••

وفي « أنسام » ، يعزف الشخص المكلف بطرد اشباح المرض من مسكن معين على عوده ، في الوقت الذى يصلصل فيه بسلسلة نحاسية يربطها في أصبع قدمه الكبير ، بينما يساعد مساعده في قرع الطبول والآلات الوترية الأخرى • على أن الناس يتصورون أن صليل الأجراس يصدر من رقبة حيوان يمتطيه الاله ويأتى به مسرعا ليسانع المؤدى العازف • وتلعب النواقيس دورا كبيرا في طقوس بورما الدينية • ويحتوى كل معبد من معابدهم على عدد كبير منها • ويبدو أن الناس يميلون الى الاستماع الى صوتها العذب ولحنها الجمهورى • وهم يقولون في العصر الحاضر ، ان خواصها لا تمثل في طرد الأشباح الشريرة بقدر ما تتمثل في لفت أنظار الأشباح الحارسة بأنهم يتغنون بمدح بوذا ، ومن ثم فان المتعبدين يعلنون في النهاية تقديسهم لبوذا وولاءهم لواجبه الدينى ، عن طريق قرع النواقيس ثلاث مرات •

على أننا نعتقد أن هذا التفسير يعد أحد الأفكار المتأخرة التي يبرر بها العابد المتقدم في أفكاره ، بقاء شعيرة بدائية قديمة كانت قد نشأت أساسا لغرض أقل صقلا وجمالا من الغرض الحالى • وربما كان قرع نواقيس الكنائس في أوربا أصبح محببا الى نفوس كثير من الأتقياء لجمال صوته وما يثيره في النفس من دواع رقيقة ، كان يمارس في الأصل لطرد الأشباح من بيوت المصلين ، وذلك قبل أن ينظر اليه بوصفه وسيلة لاستدعاء العابدين لكي يقوموا بتأدية صلاتهم في أماكن العبادة المقدسة ••

وعلى كل فان استخدام شعوب آسيا الساذجة للأجراس بقصد طرد الارواح الشريرة في تلك الصورة البسيطة ما يزال يتبع عندهم حتى يومنا هذا • ففي أثناء الاحتفال الجنائزى الليلي الذي تقوم به قبيلة « ميشيمى » ، وهى قبيلة من قبائل التبت التى تسكن بالقرب من حدود أسام الشمالية ، يحمل الكاهن بطريقة غريبة أسنان ثمار البرقوق الملونة بألوان مختلفة ، كما يحمل الأجراس والقواقع ، ويظل يرقص على هذا النحو بعنف بقصد طرد الأرواح الشريرة ، بينما تصلص تلك الأشياء وتقعقع من حوله • وعند قبيلة « كيرانتى » وهى قبيلة تسكن وسط الهماليا وتقوم بدفن موتاهما فوق قمم التلال ، « يتحتم على الكاهن أن يحضر الجنازة • وفى أثناء سيره مع جسد الميت في طريقه الى القبر ، يقرع وعاء نحاسيا بعصا من وقت لآخر ، ويناشد روح الميت ، آملا أن يرحل في سلام ليرافق الأرواح التى سبقته » • وربما كان القصد من قرع الوعاء النحاسى عند الاحتفال الجنائزى هو الاسراع برحيل روح الميت الى مقرها الأخير ، أو طرد الشياطين التى يمكن أن تعترض سبيله • وربما كان هذا السبب أو غيره يلائم تفسير عادة نساء اسبرطة في التجول في شوارع المدينة وهن يقرعن الأواني عندما كان يموت ملك من ملوكهن • وعندما تنفصل زوجة من قبيلة « كافيروندو » ، وهى احدى قبائل البانتو التى تسكن وبسيط افريقيا ، عن زوجها وترحل الى أهلها ، فانها ترى أن من واجبها عندما

يتوفى زوجها أن تعلن الحداد عليه في قريته • ولهذا الغرض فإنها « تربط الجرس الذى يستخدم فى نداء قطعان الماشية على خصرها بحيث يتدلى من الخلف ، وتجمع صديقاتها ويسرن جميعا مهرولات الى قرية زوجها المتوفى بينما يصلصل الجرس المعلق فى خصرها بطريقة مثيرة طوال الطريق » • وربما كان القصد من صليل الجرس فى هذه المناسبة كذلك هو ضمان رحيل روح الميت فى أمان ، أو ربما كان الغرض من ذلك هو لفت نظر الميت الى ما تقوم به زوجته الأرملة حزنا عليه • ومن المؤلف عند قبيلة « دياك » التى تقطن الأقاليم الجنوبية الشرقية فى بورنيو الهولندية ، أن تقرر النواقيس القرصية ليلا ونهارا طالما كان جسد الميت مسجى فى البيت • وتبدأ الألحان الحزينة بمجرد أن يلفظ الميت آخر أنفاسه • وعند ذلك تقرر أربعة نواقيس قرصية دقات مختلفة ومتتابة ، بحيث يفصل بين دق ناقوس وآخر دقيقتان • وهكذا تظل تقرر النواقيس ساعة بعد ساعة ويوما بعد يوم • وقد قيل إنه ليست هناك دقات أكثر سحرا وتأثيرا على المستمعين ، بما فى ذلك أجراس النعى تسمع من الكنائس الكاثوليكية فى أوروبا ، من هذه النغمات الحزينة التى تصدر من نواقيس الموتى هذه ، وهى ترن فى رتابة حتى يتلاشى صليلها عبر أنهار بورنيو العريضة ..

وعلى الرغم من أننا لا نعرف سببا لقرع قبيلة دياك للنواقيس فى هذا الجزء من بورنيو بصفة مستمرة بعد موت شخص ، إلا أننا يمكننا أن نفترض أن الغرض من ذلك هو إبعاد الأرواح الشريرة ، لا استدعاء الأصدقاء المحزونين الذين يسكنون على بعد • اذ لو كان الغرض من ذلك هو مجرد نشر نبأ الوفاة بين الأحياء المجاورة ، فما سبب قرع النواقيس على الدوام ليلا ونهارا ، طالما كان الميت ما زال يرقد فى بيته ؟ • كما أننا نعرف من ناحية أخرى أن طرد الشياطين فى بورنيو يتم عن طريق قرع الآلات المعدنية • وقد تحدث رحالة انجليزى قام برحلة فى شمال بورنيو عن ظروف إقامته فى مناسبة

من المناسبات في بيت كبير من بيوت بلدة « دوزون » التي يسكنها حوالي مائة من الرجال مع أسراتهم فقال : « وعندما أرحى الليل سدوله ، انطلقت ألحان ذات ايقاع وأنغام غريبة ، من طنبور معدنى • فلما سألت عما اذا كان هذا نوعا من الطرب ، أجابوا بالنفى وشرحوا لى أن هناك رجلا مريضا ، وأنه يتحتم عليهم أن يعزفوا هذه الألحان حتى يبعدوا عنه الأرواح الشريرة » وهؤلاء الأهالى أنفسهم يقومون بطرد كل الأرواح الشريرة من القرية في شئ من القدسية مرة في السنة • وفى أثناء عملية الطرد تقرر النواقيس وتدق الأجراس لى يولى الشياطين هاربين في سرعة • وبينما يأخذ الرجال في قرع النواقيس ودق الطبول تسير النساء في مواكب من بيت لآخر ، وهن يرقصن ويغنين على ايقاع الصنج النحاسية التى يحملنها في أيديهن ، وعلى صليل الأجراس النحاسية الصغيرة التى يربطنها في شكل مجموعات في معاصمهن • فاذا فزعت النساء في طرد الشياطين من البيوت ، فانهن يقتفين أثرها حتى يسقنها الى شاطئ النهر حيث يكون في انتظارهن مركب معد لحملهن الى ما وراء حدود القرية • ويزين هذا المركب بتمثيل لرجال ونساء وحيوانات وطيور مصنوعة من أوراق نخل الساغو • كما توضع فيه الأطعمة والملابس وأوعية الطهى • وبعد أن ينتقل هؤلاء المسافرين الروحانيات الى ظهر المركب ، تفك مرساته ، ويترك ليبحر في مجرى النهر حتى يصل الى بعد سحيق في النهر ويختفى بين الغابات عن الأنظار وبذلك تكون الشياطين قد ابتعدت بعيدا مع المسافرين ، ولا تعود مرة أخرى ، كما يأملون ذلك في ضعف بالغ •

وعندما زار سير « هوج لو » قرية تقع على نل « سينجودباك » في أغسطس عام ١٨٤٥ م ، استقبل باحتفال رائع بوصفه أول أوروبى زار هذا المكان • وقد اشترك هذا الرجل الانجليزى بروح طيبة في صلاة الشمس والقمر والصلاة « لراجا سارواك » ، حتى يكون محصول الأرز وافرا وانتاج الخنازير غنيا ، وحتى تنجب النساء

الذكور • وقد شاء هذا الزائر الانجليزى أن يزيد من مفعول هذه الصلوات ، بأن أخذ يرمى بكمية صغيرة من الأرز الأصفر الى أعلى بين فترات متقطعة بقصد لفت نظر ثلاثة من الآلهة فيما يبدو لمطالب عبادهم • وبعد أن اشترك سير « هوج لو » فى هذه العبادة المتواضعة على مرأى الناس أمام البيت ، رجع الى الشرفة حيث كان زعيم القرية جالسا • « فربط جرس الصقور حول معصمى وطلب منى أن أربط له بالمثل جرسا آخر حول معصم يده اليمنى • وبعد هذا قرعت النواقيس والدبول التى كانت تعلق بجوانب الشرفة • ثم ربط الزعيم جرسا صغيرا آخر حول معصمى ، كما أخذ الرجال العجائز يفعلون فعله وكل منهم يوجه الى كلمات لم أفهم فحواها ، أو بالأحرى يتمتمون — لأنفسهم بها • وكان كل شخص يدخل علينا يحضر معه أوعية عديدة مصنوعة من البامبو مملئة بالأرز ، ويضيف عند وصوله جرسا الى الأجراس حتى أصبحت عندى أجراس عديدة للغاية • ثم طلبت منهم على سبيل المجاملة أن أربط سائر الأجراس فى معصمى الأيسر ، اذا كان هذا لا يضر بالاحتفال ، وهذا ما فعلوه معى بحق » • وعلى الرغم من أن سير « هوج لو » لم يفسر لى هذا الأمر ، ومن المحتمل أنه لم يكن يعرف سبب خلع الأجراس على الزائر على هذا النحو ، الا أنه يمكننا أن نفترض أن الغرض من هذا هو حفظ الأرواح الشريرة فى مأواها البعيدة ••

ويحمل الكاهن الباتارى فى « ميرازابور » ، وكذلك كثير من الطبقات المنتسكة فى الهند ، الأجراس والخشاخيش المصنوعة من الحديد ، ويهزونها فى أثناء سيرهم بقصد أفزع الشياطين • ولهذا الغرض نفسه ، فيما يبدو ، ترتدى طبقة معينة من الكهنة الشياطين التى تعيش بين قبيلة « جوند وتعرف باسم « أوهيالى » الأجراس على الدوام • ومن المحتمل أن مثل هذا الدافع يكمن وراء عادة تعليق الأجراس ، حيثما انتشرت هذه العادة ، فى أجزاء مختلفة من جسم الانسان بخاصة فى راس القدم وفى المعصم والرقبة ، سواء اقتصر هذا التعليق

على مناسبات معينة أو دام لفترات طويلة • وقد نفترض أنه كان يظن في الأصل أن صليل الأجراس يحمي حاملها من شرور الغيلان • ولهذا السبب ، فإنه من المألوف أن يرتدى الأطفال في الأقاليم الجنوبية من بلاد الصين أجراسا صغيرة • أما في الأقاليم الشمالية ، فإنهم يرتدونها في قلة • كما تحمل نساء نابوليتان حليا من الفضة تتدلى منها أجراس صغيرة على ملابسهن بوصفها تعويذة تحرسهن من الأعين الشريرة • ويقوم اليزيديون الذين يعتقدون اعتقادا قويا في قوة الشياطين ، باحتفال في نهاية أعياد الحج • وهم يعتقدون أن هذا الاحتفال يبعد الذئب الأسحم عن الجماعة المتدينة • وفي هذا الاحتفال يأتي رجل عجوز ويخلع عنه ملابسه ويلبس جلد نعجة كما يلبس حول رقبته قرطا من الأجراس الصغيرة ، وعلى هذا النحو يزحف حول الحجاج المجتمعين ويحدث صوتا يقصد به تقليد ثغاء الماعز • ويعتقد الأهالي أن هذا الاحتفال يطهر الجماعة ، وأن كان يحق لنا أن نفترض أن هذا التطهير يحدث عن طريق احاطة المؤمنين بسياج روحاني لا يستطيع العدو أن يخترقه مهما تكن قوته • ومن المحتمل أن الكاهن من قبيلة « باداجا » يكون مدفوعا بهذا الدافع عندما يربط أجراسا في أرجله قبل أن يحاول المشي بقدمين عاريين فوق جمرة متوهجة في حفرة ، وذلك في أثناء الاحتفال الذي يقام لمباركة المحصول ••

وكثيرا ما يستخدم سكان افريقيا الأصليون الأجراس بهدف طرد الأرواح الشريرة • ولسنا في حاجة لأن نفترض أنهم كانوا يصطنعون هذه العادة على الدوام أو في العموم ، نقلا عن الأوربيين ، حيث أن شعوب افريقيا السوداء كانت تعتقد منذ القدم في وجود الأرواح ، كما كانت تعرف المعادن • ومثال هذا أن سكان « ساحل سليث » الذين يتحدثون اللغة « اليووبية » يعتقدون أن هناك أرواحا شريرة بعينها تسمى « أبيكوسى » تسكن الغابات والأماكن الخربة • فإذا قتلها الجوع ، فإنها تبحث عن ملاذ لها من الجوع في جسم الإنسان • ولهذا فإنها تنتظر فترة حدوث حمل للمرأة ، وتتسلل مع الجنين في رحم

المرأة • فاذا ولد مثل هؤلاء الأطفال ، أصابهم الهزال لأن الأرواح الجائعة تستهلك أفضل غذائهم المخصص لهم • ولكي تخلص الأم الطفل من هذا الكائن المتطفل المزعج ، فإنها تقدم له طعاما بوصفه ضحية • وهى تنتهز فرصة انشغاله بالطعام ، فتعلق فى رضى الطفل اجراسا صغيرة وأساور من الحديد ، كما تعلق فى رقبتة كذلك اقراطا من الحديد • ويعتقد الأهالى أن قعقة الحديد ورنين الأجراس يبعد الأرواح الشريرة عن الطفل ، ومن ثم فقد أصبح من المألوف رؤية الأطفال وأرجلهم مثقلة بالحلى المصنوع من الحديد • ومن المألوف كذلك عند قبيلتى باجندا وبانييورو اللتين تسكنان فى وسط افريقيا أن يحمل الأطفال الذين يتعلمون المشى ، اجراسا صغيرة تربط فى أرساغهم • والسبب الذى يقدم لتفسير هذه العادة ، هو أن الأجراس تساعد الطفل على المشى أو أنها تقوى رجليه • ولكن ربما كان الدافع الأساسى هو أبعاد الطفل الصغير فى تلك الفترة الحرجة عن انظار الأرواح الشريرة • ومن المحتمل ، بناء على هذا الدافع نفسه ، أن يحمل ولدا كل توأم فى قبيلة باجندا أجراساً فى أثناء الاحتفالات الطويلة التى تؤدى باتقان ، وفقا لما تفرضه معتقدات هذه الشعوب الخرافية على الوالدين فى مثل هذه الظروف • وفى هذه الاحتفالات يتحتم على كل من الأب والأم أن يضربا طبلة خاصة على الدوام ليلا ونهارا ••

وعندما تضع الام ابنها فى قبيلة « بوجو » التى تسكن شمال الحبشة ، فان قريباتها يشعلن النار عند باب بيتها ، ويسرن ببطء حول النار ، فى الوقت الذى تقرر فيه الأجراس فى قوة كما تهز فروع أشجار النخيل ، وذلك بهدف اهزاع الأرواح الشريرة وابعادها • كما روى أن أفراد قبيلة « جوند » فى الهند « يقرعون على طبق من النحاس عند ميلاد الطفل حتى يتغلغل الصوت الى آذان الطفل ، فلا يسمع ما دونه من الأصوات » • ويبدو أن هذا السبب الذى قدم تفسيراً لهذه العادة ليس هو السبب الأصلى ، أما السبب الرئيسى فيما يبدو ، فهو حماية

الأم وطفلها من شر الأرواح الشريرة ، وذلك عند سماع هذه الأرواح
الأرواح لأصوات قرع النحاس ، وهو نفس السبب الذى قدم لاتباع
قبيلة « بوجو » لهذه العادة • وقد قيل كذلك أن الكوريين في الاسطورة
الاغريقية كانوا يرقصون حول الطفل زيوس ، وهم يضربون الدروع
برماحهم حتى يعلو ضجيجها فوق صوت الطفل ، فلا يجتذب صوت
الطفل أباه الشرير « كرونوس » الذى كان من عادته أن يلتهم أولاده
بمجرد ولادتهم • ويمكننا أن ننتهى من هذا الى أن هذه الأسطورة
الاغريقية تتضمن بقايا عادة قديمة كانت تتبع بقصد حماية الأطفال
من الأسباب الكثيرة التى تؤدى الى وفاتهم ، وهى تلك الأسباب التى
يعزوها الانسان البدائى الى وساطة الأرواح الشريرة الخطيرة •
ويمكننا أن نفترض ، على سبيل تقديم مزيد من الايضاح ، أنه عندما
كان يولد الطفل فى الزمن القديم ، فان الأب وأصدقاءه كانوا ينزعون
الى تسليح أنفسهم بالسيف أو الرمح والدرع ثم يرقصون رقصة
الحرب حول الطفل ، وهم يضربون الدروع بسهامهم أو سيوفهم حتى
لا يستبين صراخ الطفل من ناحية فلا يجذب انتباه الأرواح التى تتجول
بحثا عن الفريسة ، وحتى تفزع الشياطين وتبتعد عن مكان هذا الضجيج
من ناحية أخرى • كما أنهم كانوا يلوحون بأسلحتهم ويصوبونها فى
قوة فى الهواء ، حتى يلحقوا الهزيمة الساحقة بهؤلاء الأعداء غير
المرئيين • وهذا الفرض تؤيده على أقل تقدير الموازنة التالية :

وصف كاهن أسبائى فى مطلع القرن الثامن عشر العادات
التي يتبعها « التاجالوجيون » سكان جزر الفيلبين عند ميلاد الطفل
فقال : « — ان الباتياناك » التى يسميها البعض الغيلان (التى ربما
كانت من وحى تأليفهم أو أحلامهم أو تخيلاتهم) هى قرينة الشخص
أو هى الشيطان الذى ألف أن يضايقهم • وهم يعزون الى هذه
الكائنات ما يحدث للطفل من شرور فى أثناء ميلاده • والاساءة الى
هذه الكائنات أو تهية الجو لها للانطلاق ، يجعلها تختبئ فى شجرة
أو فى أى مكان بالقرب من البيت الذى تضع فيه المرأة وليدها • ولكي

يبتلوا عمل « الباتياناك » الشرير ، فانهم يخلعون ملابسهم، ويسلحون أنفسهم بالدروع والرماح وسائر الأسلحة الأخرى ، ويجلسون على هذا النحو فوق سطح البيت أو عند أسفله ، ويأخذون في توجيه طعناتهم وضرباتهم في الهواء ، كما يقومون بتأدية حركات وتلميحات أخرى لهذا الغرض نفسه » . وهناك رواية أخرى لهذه العادة تذكر أن الزوج وأصدقائه يتسلحون بالسيوف والدروع والسهام ، وبهذا يكونون معدين لتوجيه ضرباتهم في الهواء من فوق سطح البيت أو عند أسفله (ذلك لأن بيوتهم تشيد على أعمدة) ، وذلك بقصد افزع الأرواح الخطيرة أو طردها ، حتى لا تؤذى الأم وطفلها . ويبدو أن هؤلاء الرجال المسلحين الذين يطردون الأرواح الشريرة عن الطفل المولود ، يشبهون ، في قيامهم بتوجيه ضرباتهم بأسلحتهم في الهواء ، الكوريئين البدائيين عند الاغريق القدماء .

وهذه المعتقدات التي تتعلق بالأخطار التي يتعرض لها الأطفال من قبل الأرواح الشريرة ، قد أدت الى اتخاذ قبيلة كاشين في بورما مثل هذه الاحتياطات لحماية الأم وطفلها . فعند هذه القبيلة ، « تقول القابلة لحظة ميلاد الطفل : إن الطفل يسمى كذا وكذا » . وإذا لم تقل هذا ، فإن روحا شريرا يسمى « نات » ، يبدأ هو أولا بتسمية الطفل ، الأمر الذي يتسبب في هزاله ، بل في موته . فإذا لم تتعرض الأم وطفلها للخطر ، قدم الطعام والشراب المألوف ، وسعد الأب بذلك . أما إذا تعسرت ولادة الأم ، فإن هذا يكون دليلا على أن « النات » تمارس نشاطها ، وعند ذاك يستدعى العراف الذي يطلق عليه الأهالي اسم «تومزا» فيذهب الى بيت آخر في القرية ويلتمس النصيحة من أشجار الخيزران (تشيباوت) ، لتخبره عما إذا كان « نات » البيت هو الذي يقوم بهذا العمل الشرير ، أم أن « نات » الأحرش قام بطرد « النات » الحارسة ليمارس عمله في حرية . وتسمى « نات » الأحرش « سون » ، وهي عبارة عن أرواح الأطفال الذين توفوا إثر ولادتهم ، وهم يبحثون بطبيعة الحال عن رفقاء لهم ،

ولهذا فهم يدخلون البيت الذى تضع فيه الأطفال الذين توفوا إثر ولادتهم ، وهم يمسون بالأم والطفل • فاذا أخبرت أشجار الخيزران العراف أن « نات » البيت هو الروح الثائر قام باسترضائه وتقديمه الضحية له بالطريقة المألوفة • أما اذا أخبرت بأن « السون » هو الذى يسيطر على هذا الموقف ، فان العراف يتخذ عند ذاك اجراءات عاجلة ، فتطلق النيران من البنادق من حول البيت وفى الممرات التى تؤدى الى القرية ، وتصوب السهام أسفل البيت • كما يلوح بالسيوف أو السكاكين الكبيرة (دهاس) والشعلات النارية فوق جسم المرأة • وفى النهاية تصنع كومة من الخرق البالية ويوضع بداخلها الفلفل الحار وغير ذلك من المواد التى تنبعث منها رائحة نفاذة وتوضع أسفل البيت وتشتعل فيها النيران • وبهذه الطريقة تطرد أكثر الأرواح عنادا واصرارا • وقد أخبرنا مبشر كاثوليكي عن هذه العادة نفسها التى تنتشر بين قبيلة « كاشين » فذكر أنه فى حالة الولادة العسرة ، فان هؤلاء البدائيين يتهمون « السدن » (وهم أرواح النساء اللاتى توفين فى أثناء الولادة) بسعيها فى قتل الأم ، ومن ثم فهم يقومون كما هو المألوف بطردها • ولهذا الغرض يتجول أفراد الأسرة فى كل ركن من أركان البيت ، ويلوحون بسكاكينهم وسهامهم ، ويحدثون كل صنوف الصخب • وكلما كانت الأصوات أكثر جلبة ، كانت أبعد فى تأثيرها • بل انهم يقفون الى جانب المريض وهم مجردون من ملابسهم لكى يفزعوا الأرواح الشريرة • كما أنهم يحرقون داخل البيت وخارجه أوراقا ذات رائحة نفاذة ويقرعون سيوفهم ، ويستمررون فى احداث الصخب فى الطرق الرئيسية وفى الغابة حتى يصلوا الى أقرب جرف حيث يرغمون « السون » على السقوط فيه ، وفقا لتصورهم ••

وعندما تعاني المرأة فى قبيلة « القلموق » من آلام المخاض ، فان زوجها ينشر شبكا حول الخيمة ويجرى هنا وهناك ، وهو يضرب فى الهواء بهراوته حتى يبقى على الأرواح الشريرة فى مسأواها • و « عندما يولد طفل » ، عند قبيلة « نوجيا » التتارية ، « يذهب كل

فرد من أفراد القبيلة الى بيت المولود وهو يحمل أوعية يضرب عليها متصورا بذلك أنه يرغم الشيطان على الفرار ، فلا تكون له بذلك أدنى سلطة على روح الطفل » . وفي « بوني » ، وهي امارة في جنوب سليبس ، « يصرخ الرجال عندما تعاني المرأة من آلام الوضع ، أو يطلقون النار من بنادقهم لكي يطردوا بذلك الأرواح الشريرة التي تحول دون ميلاد الطفل » . أما عند ولادة أمير من الأمراء ، وبعد أن تتفصل المشيمة عن جسم الأم ، « فان الناس يقومون بقرع كل الأدوات التي تستخدم في طرد الشياطين ، « حتى تفزع الأرواح الشريرة وتهرب » . ومن أجل هذا الغرض نفسه تفرع الطبول في جزر « أرو » في جنوب غرب نيو غينيا عندما تطول عملية الولادة بدرجة تثير الازعاج . ويعتقد سكان المناطق المجاورة لمجرى مائى بعينه يصب في خليج بورتون عند بحيرة تنجانيفا ، أن روح هذا النهر يسىء الى الأم الحامل ساعة ولادتها طفلها . فاذا خيل لأم أنها تعاني من مكاييد هذا الروح ، تحتم عليها أن تقدم الضحية له ، وأن تؤدى شعائر معينة . وعند ذلك يجتمع كل سكان القرية ويأخذون في قرع الطبول بجوار الكوخ الذى ترقد فيه المرأة ويصرخون ويرقصون « لطرده الروح الشريرة » . وعندما يولد طفل عند قبيلة « سينجهايز » في سيلان « ترفع القابلة صوتها بصراخ يعلو صراخ الطفل حتي لا تتعرف أرواح الغابة على وجود الطفل وتسبب له الأذى » . وعلى هذا النحو كان الرومانيون القدماء يعتقدون أن المرأة بعد الولادة بصفة خاصة تكون عرضة لاىذاء آله الغابة « سيلفانوس » ، الذى يتخذ طريقه الى البيت ليلا لكي يضايقها ويخطفها عنوة . ومن ثم فقد كان من المألوف أن يسير ثلاثة من الرجال في أثناء الليل حول بيت المرأة ، وهم مسلحون بالفؤوس والمدقات والمكائس بصفة خاصة . ثم يقفون عند كل باب من أبواب البيت ، ويأخذ اثنان منهم في ضرب عتبة بالفأس والمسدق ، كما يقوم ثالثهم بكنسها . وهم يعتقدون بذلك أنهم يحمون الأم من هجمات آله الغابة . . .

ويحق لنا أن نفترض على هذا النحو ، أنه كانت من عادة الاغريق القدماء ، أن يقوم الرجال المسلحون بحماية النساء وقت الوضع من الأرواح الشريرة ، وذلك بأن يرقصوا من حولهم وهم يقرعون دروعهم بسهامهم وسيوفهم . وربما ظلت الأسطورة تحكى عن هذه العادة حتى بعد اختفائها بزمان طويل ، عندما وصفت الكورتين ، وهم يؤدون تلك الشعيرة حول مهد الطفل الصغير زيوس . .

على أنه ينبغي علينا أن نعود مرة أخرى بعد هذا الاستطراد ، الى عادة استخدام الأجراس بوصفها وسيلة لتجنب ايذاء الشياطين والأرواح . فمن عادة السوناريين الذين يشتهرون بصياغة الذهب والفضة في المقاطعات الوسطى في بلاد الهند ، أن يرتدى الأطفال وصغار البنات خلاخيل مجوفة بداخلها أجراس تصلصل . وبعد أن تتزوج امرأة وتلد عددا من الأطفال ، فإنها تترك الخلاخال المجوف وترتدى خلاخالا مصمما . وقد قيل لنا فيما بعد ان السبب في ارتداء البنات هذه الخلاخيل المجلجلة هو التعرف على مكان تجوالهن ، وبذلك يمكن الحيلولة بينهن وبين ايذاء الشياطين في الأماكن المظلمة . ولكن السبب الحقيقي فيما يبدو هو أن هذه الخلاخيل كانت تستخدم في بث الذعر بين الأرواح . كما أنه من عادة قبيلة « ناندى » التى تسكن شرق افريقيا البريطانى، أن تتسلم البنت من عشاقها والمعجبين بها قبل اجراء عملية الطهارة لها ،أجراسا كبيرة على سبيل السلفة ، وهى ترتدى عادة هذه الأجراس حول راسها ، ثم تقوم بردها بعد انتهاء هذه المناسبة المقدسة . وفى العادة تتسلم الفتاة التى تنتمى الى عامة الشعب ، عشرة أجراس أو عشرين جرسا وترتديها جميعا عند اجراء عملية الطهارة لها . وبمجرد أن تنتهى عملية الطهارة ، تقف الابنة وتقرع الأجراس حول رأسها ، ثم تخرج وتقابل عشيقها وترد اليه الأجراس المعارة . فاذا كنا الآن نعرف السبب فى حمل المحاربين من قبيلة ناندى للأجراس فى أرجلهم ، فإنه يبدو لنا الآن أننا قد تعرفنا على سبب ارتداء الفتيات للأجراس عند الطهارة . واذا كنا لا نشك فى المعلومات المؤكدة فى هذا

الصدد ، فاننا يمكننا أن ننتهي الى أن الأجراس كانت تعد تعويذة تحمى كلا الجنسين من أخطار القوى الخارقة التي يتعرض لها كل منهما تعرضا مؤقتا أو دائما ، وفقا للخصائص التي تتميز بها هذه القوى ..

ويخشى الأهالي في الكنفو أن تسكن الشياطين أجسامهم عن طريق أفواههم عندما يتناولون شرابا . ومن ثم فهم يستعملون في هذه الظروف كل الوسائل التي تبعد عنهم هذه الكائنات الخطيرة . واحدى هذه الوسائل هي أن يقرعوا جرسا عند كل جرعة شراب يشربونه . وقد لوحظ أن الزعيم عندهم يشرب عشرة أوعية من الجعة في جلسة واحدة ، وكلما رفع الوعاء الى شفتيه قام بقرع الجرس ، في الوقت الذي يلوح فيه صبي برمح الزعيم ، زيادة في الحيلة ، أمام صاحب المقام الرفيع ، لكي يمنع الشياطين من أن تتسرب الى معدته مع شربه الجعة . ويحمل الناس في هذه المنطقة كذلك الأجراس التي يخلع عليها الرجل الفتيشى خاصية سحرية ، فتكون بمثابة تعويذة تمنع عنهم الحمى ووباء الجراد ، بل من الممكن أن تجعل حاملها غير مرئى . ومن المؤلف عند شعب « باكيريوى » ، الذى يسكن « أوكيريوى » ، وهى أكبر جزر بحيرة فيكتوريا نيانزا ، أن يعلقوا جرسا على باب كل بيت . ويتحتم على من يدخل البيت أن يقرع الجرس بأن يضربه برأسه ، لا لكي يعلن قدومه لأصحاب البيت ، كما نفعل نحن الأوروبيين ، بل لكي يطرد الأرواح الشريرة وسحر المشعوذين عن البيت . وفي غرب افريقيا يساعد صليل الأجراس على زيادة الصخب الذى يصاحب طرد الأتسباح عن الرجال الذين يمتلكونهم في مواسم معينة ..

ومن أهم ما يميز الكهنة والأنبياء والأطباء في افريقيا ، حملهم للأجراس أو ارتداؤهم اياها في أثناء احتفالاتهم المقدسة التي تهدف الى طرد الشياطين أو الشفاء من الأمراض أو استقبال وحى الهى . فالسحرة في قبيلة أكامبا التي تسكن شرق افريقيا البريطانى ، على سبيل المثال ، يحملون أجراس القطيع بعد تعليقها في سير من الجلد ،

ويقومون بقرعها في أثناء تنبؤهم بالغيب ، ذلك أنهم يتصورون أن صليل الجرس يلفت انتباه الأرواح اليهم . وقد أخبر أحد أطباءهم السيد « هوبلى » ، أنه رأى في رؤياه أن الاله يأمره باحضار جرس بعينه . فقام هذا الطبيب اثر ذلك برحلة خاصة الى قبيلة « كيكويو » ليشتري هذا الجرس . وعند عودته أقام وليمة من الجعة ، وذبح ثورا مخصيا لى يسترضى الأرواح . وتتميز طبقة الكهنة (لوباس) عند قبيلة « جالا » التى تسكن فى شرق أفريقيا عن طبقة العرافين (كاليجوس) . ولكن كلا من الكهنة والعرافين يحملون أجراسا فى أثناء الاحتفال بطقوسهم الغريبة . ويتسلح العرافون فضلا عن ذلك ، بسوط ، وهم لا يترددون فى ضرب المريض به برفق بقصد طرد الشيطان الذى يعتقدون أنه يملك المريض . ومرة أخرى نجد أن الطبيب الساحر عند « الغانيين » الذين يسكنون فى « جابون » يحمل عددا من الأجراس الصغيرة التى يربطها فى رصغيه ومعصميه عندما يقوم بالكشف عن عراف من العرافين . وهو يعلن صراحة أن أصوات الأجراس ترشده الى الكشف عن هذا المذنب من بين زحام المتفرجين المضطربين القلقين . وتعتقد قبيلة « هو » التى تسكن فى « توجولاند » فى غرب افريقيا ، فى وجود نوع من الأرواح الكادحة أو الأرواح الماهرة التى تعمل بطريقة معجزة على زيادة عدد الأصداف الصفراء فى حجرة كنوز رجل من الرجال كما تعمل على زياد محاصيله . واسم هذه الأرواح الخيرة « سولوى » ومن الغريب حقا أن قبيلة « هو » تطلق هذا الاسم بعينه على أصوات الأجراس الصغيرة التى يعلقها كهنتهم بأهداب أرديتهم، كما كان يفعل كهنة اليهود فى العصر القديم ، كما يقال ان اله بحيرة البرت اتصل « بالبانيوريين » الذين يسكنون افريقيا الوسطى عن طريق وساطة نبيه كانت تعلق المحار الأصفر والأجراس الحديدية الصغيرة بأهداب رداثها الجلدى . وقد كانت المحارات والأجراس تتماوج وهى تسير كأمواج البحيرة . كما تمثل اله الرخاء ، عند هذه القبيلة نفسها ، واسمه « وامالا » ، وهو المسئول عن زيادة نسل الرجال وقطعان الماشية والمحصول ، لنبي من الأنبياء ، فأخذ النبي ينطق

بالنبؤات باسم الآله • وعندما تملك هذا الشخص الوحي ، ارتدى
الأجراس في رسغيه ، كما ارتدى جلد عجلين أبيضين حول خصره بعد
أن علق فيه مجموعة من الأجراس الصغيرة ••

وربما كانت هذه الأمثلة كافية لتبين لنا كيف أن عادة استخدام
الأجراس في الطقوس السحرية والدينية كانت تنتشر على نطاق واسع ،
وكيف كان الناس يعتقدون في كثير من بقاع الأرض بأثر صلصلة
الأجراس في طرد الشياطين • ويبدو من الأمثلة القليلة التي قدمتها
أنفا ، أن بعض الشعوب كانت تعتقد في بعض الأحيان أن صليل
الأجراس ، لم يكن يهدف إلى طرد الأرواح الشريرة بمقدار ما كان
يهدف إلى اجتذاب الأرواح الطيبة أو الحارسة • ولكن استخدام
الآلات بقصد اجتذاب هذه الأرواح الطيبة أقل وضوحا في الطقوس
البدائية من استخدامها بقصد طرد الأرواح الشريرة • وربما كان
استخدام الأجراس بقصد اجتذاب الأرواح الطيبة ، لا بقصد طرد
الأرواح الشريرة ، يرتبط بمرحلة متقدمة من الوعي الديني ، عندما
تغلبت الثقة في الخير على الخوف من الشر ، وعندما لم تعد القلوب
التقية تنزع إلى الهروب من الشيطان ، بقدر ما كانت ترغب في الاقتراب
من الله • وربما ساعد ما أشرنا إليه في هذا الفصل من عادات
ومعتقدات ، على استجلاء العادة اليهودية التي بدأنا الفصل بالحديث
عنها ، بل وتفسيرها ، سواء اعتقد العبريون في أن الكاهن الذي يخطو
فوق عتبة المكان المقدس بردائه البنفسجي ، كان يقوم بطرد
الشياطين أو يعمل على جذب انتباه الرب برنين الأجراس الذهبية
وصليلها ••

تم بحمد الله

محتويات الكتاب

الباب الثاني : عصر الأنبياء

صفحة

| | | | | | | | | |
|-----|----|----|----|----|----|----|--------------------------------------|----------------|
| ٣٤١ | .. | .. | .. | .. | .. | .. | ميثاق ابراهيم | الفصل الأول : |
| ٣٧٣ | .. | .. | .. | .. | .. | .. | ارث يعقوب أو نظام وراثة الابن الاصغر | الفصل الثاني : |
| ٤٢٩ | .. | .. | .. | .. | .. | .. | يعقوب وجلد الجدى أو الميلاد الجديد | الفصل الثالث : |
| ٤٥٩ | .. | .. | .. | .. | .. | .. | يعقوب فى بيت ايل | الفصل الرابع : |
| ٤٨٣ | .. | .. | .. | .. | .. | .. | يعقوب عند البئر | الفصل الخامس : |
| ٤٩٣ | .. | .. | .. | .. | .. | .. | العهد عند الحجر المنتصب على النصب | الفصل السادس : |
| ٥٠٧ | .. | .. | .. | .. | .. | .. | يعقوب عند مخلصه نهر اليبوق | الفصل السابع : |

الباب الثالث : عصر القضاة والملوك

| | | | | | | | | |
|-----|----|----|----|----|----|----|----------------------------------|----------------|
| ٥٣١ | .. | .. | .. | .. | .. | .. | موسى فى صندوق القش | الفصل الأول : |
| ٥٤٣ | .. | .. | .. | .. | .. | .. | شمشون ودليلة | الفصل الثانى : |
| ٥٦٥ | .. | .. | .. | .. | .. | .. | حزمة الحياة | الفصل الثالث : |
| ٥٧٩ | .. | .. | .. | .. | .. | .. | ساحرة عين دور | الفصل الرابع : |
| ٦٠٧ | .. | .. | .. | .. | .. | .. | جريمة الاحصاء | الفصل الخامس : |
| ٦١٧ | .. | .. | .. | .. | .. | .. | حراس عتبة المعبد | الفصل السادس : |
| ٦٣٣ | .. | .. | .. | .. | .. | .. | اشجار البلوط والترينتتين المقدسة | الفصل السابع : |
| ٦٦١ | .. | .. | .. | .. | .. | .. | الاماكن العالية عند بنى اسرائيل | الفصل الثامن : |
| ٦٧١ | .. | .. | .. | .. | .. | .. | الارملة الصامته | الفصل التاسع : |
| ٦٨١ | .. | .. | .. | .. | .. | .. | ايليا والغربان | الفصل العاشر : |

الباب الرابع : القانون

| | | | | | | | | |
|-----|----|----|----|----|----|----|----------------------------------|----------------|
| ٦٩٣ | .. | .. | .. | .. | .. | .. | مكانة القانون فى التاريخ اليهودى | الفصل الأول : |
| ٧١١ | .. | .. | .. | .. | .. | .. | لا تطبخ الجدى فى لبن امه | الفصل الثانى : |
| ٧٣٧ | .. | .. | .. | .. | .. | .. | ايذاء الجسم حزنا على الميت | الفصل الثالث : |
| ٧٦٩ | .. | .. | .. | .. | .. | .. | الثور الذى يؤذى بقرنه | الفصل الرابع : |
| ٨٠١ | .. | .. | .. | .. | .. | .. | الأجراس الذهبية | الفصل الخامس : |

رقم الإيداع ٢٩٩٢ لسنة ١٩٨٢

مطابع سجل العرب



۱۳۰

۱۰/۸۰۵۳۱۱